ذاكرة الكتابة

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

أحمد عرابي

الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

أحمد عرابى
الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف

ذاكرة الكتابة (٥٨ - ٥٩)

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى

رقم بريدى : ١١٥٦١

- الكـــــتـاب: أحمد عرابى - الزعيم المفترى عليه
- المـؤلــــف: محمود الخفيف
- الطبعـة الأولى: دار الوحدة ١٩٤٧
- الطـبعة الثانية: الهيئة العامة لقصور الثقافة - أغسطس - سبتمبر ٢٠٠٤م

الاهـــــداء

إلى الأشبال النواهض الميامين من شباب هذا
الجيل ، فى وادينا المبارك ، وفى الأقطار العربية الشقيقة
أهدى سيرة هذا الزعيم المصري الفلاح ، الذى جاهد فى
سبيل الحق ومات على دين الحق ، والذى آن أن ينصفه
التاريخ وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية .

محمود الخفيف

مقدمة

كان المصريون إلى عهد قريب يذكرون اسم عرابى فلا يتمثل هذا الاسم وا أسفاه فى أذهانهم إلا صور العنف والنزق والحمق وتراهم وإن لم يقصدوا يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته

وما أذكر مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابى إلا وسرت فى الوجوه كآبة ، وتسابقت الألسن إلى الهزء به وتعديد مساوئه وإبراز مثالبه ، اللهم إلا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعون عنه هذا الظلم

وكنت أبدا أحد المخالفين الذين يحسون في قرارة أنفسهم أن الرجل مظلوم وأنه مفترى عليه ، وكنت أسأل نفسى دائماً أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

والحق أنه قل أن نجد فى رجالنا رجلا ضاعت حسناته فى سيئاته كما ضاعت حسنات عرابى فيما افترى عليه من سيئات ، كذلك قل أن نجد فى رجالنا رجلا كرهه أكثر بنى قومه مضللين ، واستنكروا أعماله جاهلين بقدر ما كره هؤلاء عرابياً واستنكروا ما فعل وما أسند إليه من الأعمال زوراً وإفكا ؛ وفى ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عامداً كما قد يخطىء غير عامد ؛ وفيه كذلك دليل على أن الأمور كثيراً ما تجرى فيه كما يشاء الحظ لا كما يكون العدل والقسطاس ، فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم والتوقير بقدر ما يتوافى لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجنى على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والعظمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الأيام ...

وما كان عرابى فيما أعتقد إلا طالب حق يلحق به فى طلب الحق الخطأ

والصواب كما يلحق بغيره ؛ ولعلى استطعت أن أجلو ذلك فى سيرته بقدر ما وصلت إليه من الأدلة فى تلك السيرة التى بالغ كثير من ذوى الأغراض فى تشويهها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الأمر فما أحسب أن فى الناقين على عرابى من يستطيع أن يمارى فى أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة وأنه أخطأ وأصاب كان مخلصاً فيما يفعل أو يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة نجم من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية من القضايا الوطنية الكبرى : ونادى على رأس النادين بمطالب مصر ، وصار اسمه فى ظرف هام من ظروف نهوضها علماً على الجهاد ورمزاً للمقاومة ومثلا للقومية حتى شاءت الأقدار فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيها الفلاحين يذود عن أراضيها ويقف غير طامع ولا هازل فى وجه الغادرين الباطشين من أعدائها

بهذه الروح كتبت عن عرابى ، وعلى هذا الأساس بينت سيرته فالأخلاص فى الرجال هو عندى مقياس بطولتهم بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ؛ أما الصواب والخطأ وما إليهما فأمور توجد فى الأبطال وغير الأبطال ، ولا فرق فيها فى كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء ...

وإنى إذ كنت أكتب سيرة عرابى كانت تقوم فى ذهنى المفتريات التى افتريت عليه ولكن ذلك لم يضعف قط إحساسى بأنه كان شديد الأخلاص لقضيته متوقد الحمية فى وطنيته شديد الأنفة فى قوميته وليس بضائره بعد ذلك ما يرميه به المبطلون أو المغرضون ، ولو قد واتاه الحظ الأعمى كما واتى الآلاف غيره من الزعماء والقواد فانتصر فى معركة التل الكبير ، أو لو أنه لم يحط به من الخيانه فى أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به وأبلى فى تلك المعركة بعض البلاء أو قتل فى غمرتها لرأينا اليوم له التماثيل فى عواصمنا ولزخرت الكتب بالثناء عليه

وعندى أنه من أكبر الظلم أن تنسى حسناته وهى لعمر الحق كثيرة ولا تذكر

إلا أخطاؤه ما اقترفه وما افترى عليه منها لتساق أدلة على ما يشاء بعض المؤرخين نعته به …

ولقد كان هذا الظلم الذى لقيه الرجل على أيدى فريق من بنى قومه هو حافزى للكتابة فأخذت أنشر سيرته تباعاً فى مجلة الرسالة الغراء، وما أن رأى بعض أبنائه المقال الرابع حتى تفضلوا بزيارتى بدار المجلة معبرين لى عن شكرانهم ثم وضعوا بين يدى مذكراته المخطوطة وبعض الكتب التى كانت ترد إليه فى منفاه وغيرها من الوثائق والصور العظيمة القيمة، مما أثنى عليهم من أجله أعظم الثناء …

ومما طبت له نفساً ما أفضى إلى به أحدهم ومؤداه أن والده رحمه الله تنبأ بأن الذى سيدافع عنه هو شاب من شباب الجيل القادم الذى لم يفسده الاحتلال …

وما زادتنى هذه النبوءة إلا اهتماماً بدراسة سيرته لعلى أكون هذا الشاب الذى يحسن أن يدافع عن عرابى، ولقد كنت قبل هذا كما ذكرت أحس أنه مظلوم وأن أعداءه بالغوا فى الكيد له والزراية عليه، وآلمنى من هذا الظلم فضلا عما يلحق عرابياً منه أنه ينال كذلك من حركة مصر القومية على يديه تلك الحركة الجليلة التى حاول المبطلون تشويهها.

وبعد فهذا كتابى أقدمه للقراء، فأن كنت وفقت إلى ما أحببت فحسبى جزاء على ما بذلت من جهد أنى أنصفت مظلوماً قضى نحبه ولم ينصفه أحد، وأنى بسطت سيرة الحركة القومية ولعل فى هذا البسط عبرة وذكرى لهذا الجيل الذى يتوثب ويتطلع إلى المجد، وإن كنت قصرت عما أردت فعذرى أن هذا جهد ما استطعت؛ ولتكن هذه خطوة متواضعة يسرنى أن أشهد بعدها خطوات يخطوها غيرى من الكرام الكاتبين فى سبيل هذا الوطن الذى نخلص له الحب والولاء.

وفقنا الله للعمل لمصر وهيأ لمصر المكان المرجو من العزة والسؤدد والحرية.

محمود الخفيف

القاهرة { فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٦٦ هـ.
١٤ يوليو سنة ١٩٤٧ م.

أحمد عرابى المصرى

الصبي القروي

يجد كتاب التراجم الذين يتناولون سير العظماء طائفة من الأنباء التي تجلو حياة هؤلاء إبان طفولتهم فيستعرضونها مستخرجين منها ما يعدونه من أمارات النجابة ومن بشائر النبـوغ والتبريز ، أو ما يرون أنه من الشواهد على قوة الشخصية وبعد الهمة ومضاء العزيمة وما إليها مما تقوم عليه العظمة .

ونحن إذ نتكلم عن أحمد عرابي تعوزنا المصادر التي يمكن أن نعلم منها الكثير عن سيرته وخلاله في طفولته وقصارانا أن نقول إنه ولد في شهر مارس سنة ١٨٤١ في هرية رزنة ، وهي قرية بالشرقية تقع غير بعيد من مدينة الزقازيق ...

ونشأ الصبي القروي كما ينشأ الآلاف مثله في قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيراً أو قليلا في قرية عنه في أخرى من هاتيك القرى التي نبتت منذ الأزل على ماء النيل .

نشأ في هذه القرية الصغيرة ذلك الصبي الذي قدر له أن يجرى اسمه يوماً ما على كل لسان في مصر ، والذي صارت حياته فيما بعد فصلا من تاريخ وطنه ، والذي تداولت اسمه ألسن الساسة في انجلترة وفرنسا دهراً طويلا ، والذي أجبر الخديو على النزول إليه حيث وقف على رأس الجيش يوم عابدين ليسمعه كلمة الأمة ، والذي يحتل جهاده أبرز مكان في كل كتاب تناول ما تعارف المؤرخون على تسميته المسألة المصرية ...

ودرج الصبي القروي بين لداته في هرية رزنة عرضة للأوبئة المختلفة ، يحيط به في قريته الجهل والفقر والمرض أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة والعمران مثل ما يجده من ينشأ في مدينة كبيرة أو يتلقى العلم في مدرسة منظمة .

وكان أبوه محمد عرابي شيخ هرية رزنة أو على الأصح أحد « مشايخها » على

حد الاصطلاح الإدارى فـكانت تقسم القرى فى تلك الأيام أقساماً يسمى الواحد منها « حصـة » ويعين على كل حصة شيخ يختار لبروز شخصيته إما بالثراء أو بالقوة أو بالاستنارة بشىء من التعليم أو بها جميعاً ، ولم تكن وظيفة العمدة على النحو القائم فى القرى الآن قد عرفت بعد .

ويذكر عرابى عن أبيـه فى مذكراته[1] أنه كان « شيخاً جليلاً رئيساً على عشيرته عالماً ورعاً نقياً تقياً موصوفاً بالعفة والأمانة » ؛ ونراه عند ذكر نسبه يعدد آباءه حتى يصل إلى السيد صالح البلاسى فيذكر أنه ينسب إلى بلاس وهى كما يقول قرية صغيرة ببطائح العراق ، كما يذكر أنه أول من هبط مصر من أجداده وأنه تزوج بالسيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعى الصيادى ؛ وما يزال عرابى يرتقى بنسبه إذ يذكر آباءه بعد البلاسى هذا حتى يصله بالإمام موسى الـكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على الزاهر زين العابدين بن الإمام الحسين رضى الله عنه .

ويذكر عرابى كذلك فيما يذكره من أنباء والده قوله « وكان قد أمر والدى بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جدده للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صـلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عباداتهم وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل بلده » .

وأدخله أبوه مكتب القرية وهو كما يقول من منشآته فيها ؛ وفى هذا المـكتب فتحت عينا الصبى على نور العلم فحفظ شيئاً من القرآن الـكريم وتعلم مبادىء القراءة والـكتابة ...

ويمكننا أن نتصور حال هذا الصبى فى أول عهده بالتعليم قياساً على ما نعرفه من حال أمثاله من أبناء المـكاتب فى كل قرية ، وهى حال تكاد أن تـكون فى القرى جميعاً واحدة فلا فرق بين مكتب ومكتب إلا بقدر ما يكون من فرق بين قرية وقرية

---

(١) كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

- فهذا صبي في جلباب طويل من القطن أو النيل وفوق رأسه قلنسوة ، يخطر بين صبية مثله إلى المكتب وتحت إبطه لوح من الصفيح وبيده محبرة فيها الأقلام الغاب خزانة أو هي محبرة ذات « مقلمة » كما يقول أبناء المكتب ، وهو لا يمتاز عن بقية الصبية في شيء إلا بما عسى أن يكون في قدميه من نعل لأنه ابن شيخ البلد وأكثرهم حفاة ، وما يحضر في جيبه من فطائر يأكلها متى جاع أو يدفعها إلى « الفقيه » على جوعه في حين لا يوجد في جيوب لداته إلا الخبز اليابس ...

وفي المكتب يجلس الصبي على الأرض بين أقرانه ولعل العريف يرفعه درجة فيجلسه على حصير أو على دكة من الخشب ثم يكتب له بعض كلمات في لوحه ليكتب مثلها ، أو بعض أرقام الحساب ليقلد رسمها ، فلا يضع لوحه إلا حين يتلو العريف على الصبية بعض سور القرآن الصغيرة جملة فجملة فيرددون مايتلو في نغمة مثل نغمته ، ويردد الصبي كما يفعلون ولكنه أفصح منهم لساناً وأسرع حفظاً ، فالفصاحة هي أول ما يظهر من صفات ذلك الصبي وبها يتحدث العريف إلى أبيه !

وتعهده صراف القرية كذلك ميخائيل غطاس فعلمه مبادىء الحساب ، وكان تعلم الحساب يحدث عادة على يد هؤلاء الصيارفة وبخاصة لأبناء المشايخ الذين يتصل بهم هؤلاء ويحرصون على مودتهم ورضائهم .

ومات أبوه وهو في الثامنة من عمره ، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطاً من التعليم في الأزهر ، فقد أرسله أخوه الأكبر محمد عرابي إلى هناك عسى أن يكون عالماً من علمائه ، ولكن الصبي لم يلبث بالأزهر إلا أربع سنوات تعلم فيها على طريقة الأزهر يومئذ شيئاً من الفقه والتفسير والنحو ؛ وحفظ الصبي القرآن بالضرورة كما يفعل من يلتحقون بهذا الجامع العتيد .

وعاد الصبي إلى قريته ولسنا نعلم ما الذي حمله على العودة ، أكان ذلك نفوراً من التعليم وركوناً إلى البطالة أم كان لرغبة منه في أن يسلك في الحياة سبيلا غير سبيل الأزهر ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نتبينه على وجه اليقين . وكان من الممكن أن يعيش هذا الصبي القروي بقية عمره في تلك القرية زارعاً ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين .

ولكن الأقدار تخرجه بعد قليل من القرية ليغدو فيما بعد رجلا من رجال مصر ، بل ليكون أول مصرى فلاح ينطق بحق مصر وتتمثل فى حركته الروح القومية لمصر وقد استيقظت من سبات طويل وأخذت تنفض عنها غبار القرون ؛ أجل أخرجت الأقدار هذا الفلاح من قريته ليقف وجهاً لوجه تلقاء خديو مصر يعلن إليه فى بسالة وفى غير طيش أن « أهل مصر ليسوا عبيداً وأنهم لن يورثوا بعد اليوم » ويفتتح بهذه الوقفة وبهذه الكلمة فصلا جديداً فى تاريخ هذه البلاد فيكون فضله فضل الرواد يخطون الخطوة الأولى فيظل لهم الفضل ويظل لهم الحمد وإن اتسمت بعدهم الخطوات وتوالت الوثبات ؛ وما نحسب خطوة عرابى فى طريق الحرية والقومية كانت أقل خطراً من وثبة سعد ، ذلك الفلاح الذى نهض من بعده والذى غضب مثل غضبته ووثب مثل وثبته واتجه نفس وجهته ، ولكنه لم يكن من رجال السيف فلم يشهر إلا القلم سلاحاً ولم يمتط إلا أعواد المنابر مجاهدة وكفاحاً.

ونحب أن نقف عند أمرين فى نشأته كان لهما أثر بعيد فى تكوين خلقه وخلق شخصيته ؛ أما أولهما فهو أن أباه كان شيخاً فى القرية ، وأما الثانى فهو أنه فى التحدث عن نسبه يصل أجداده بالحسين عليه السلام .

كان يجد أبناء الحكام فى القرى حتى وإن لم يكن حظ آبائهم من الثراء كبيراً أنهم فى موضع يصغر دونه موضع أبناء الزراع ، ففيهم على لداتهم شىء من الترفع وفى نفوسهم شىء من الكبر على من حولهم من الناس ، إذ يجد الصبى منهم أباه محاطاً بالتوقير مخوف الجانب يتقدم الناس إذا سار ويفسح له صدر المجلس إذا جلس ، وتبدو عليه إذا كان ذا مال آثار النعمة فى مظهره وملبسه كما تبدو تلك الآثار فى مسكنه وفيما يقتنى من دواب وفيما يقوم على خدمته من خدم أو يلوذ به من أتباع أو يحيط به من بطانة ؛ لذلك كان إذا خرج هؤلاء الأبناء من القرية إلى مجال أوسع منها خرجوا وفى أنفسهم ذلك الاعتزاز الذى ألفوه فى بيئتهم الأولى فما يحبون أن يسمعوا كلمة نابية بل إنهم ليكرهون أن يجدوا عدم الاكتراث لهم بله التطاول عليهم ؛ ولقد يوحى إلى الصبى منهم ما غرس فى نفسه منذ صغره أن يثور على

الوضع الجديد إما بإظهار القوة البدنية على من كانوا فى مثل سنه ، أو بالتفاخر عليهم بالمال والنسب ، وإما بالعناد والشغب على من لهم عليه حق الطاعة من المربين والرؤساء ؛ ولقد يسرف هؤلاء فيتوهمون المذلة فيما ليس فيه مذلة أو يفسرون بالإهانة ما لم يقصد به أية إهانة فيبدون لذلك كثيراً من الإباء ويغالون فيه حتى ينقلب إباؤهم شراسة أو حتى يحسبه الناس شراسة .

ونحس من سيرة عرابى أنه كان أحد هؤلاء ، فلما قدر له أن يخالط قوماً كانوا ينظرون إلى المصريين جميعاً نظرة الاحتقار ويجملون نعتهم بالفلاحين مسبة لهم ، ثارت فى نفسه الحمية ثم عصفت فى رأسه النخوة فكان صوته أول صوت مصرى مثل القومية المصرية وإن كان بذلك يفصح عن شعور غيره ممن أحسوا مثل إحساسه ولكن لم يكن لهم مثل جرأته وقوة شخصيته .

وزاد الحمية تسعراً فى نفس عرابى ثانى الأمرين اللذين أشرنا إليهما وذلك وصله أجداده بالحسين بن على رضى الله عنهما ؛ فسواء أصحت هذه الصلة أم لم تصح فقد كان بها مؤمناً ، وكان إيمانه بها كفيلا أن يملأه أنفة وعزة فمن كان مثله كما يزعم شريفاً عربياً ينتمى إلى الحسين عز عليه أن يستذل وبخاصة بأيدى قوم يرى أنهم مهما علوا فهم دونه علواً وشرفاً ؛ وإنك لتلمح اعتزازه بنسبه فى تمثله ببيت الفرزدق « أولئك آبائى » فى خاتمة كلامه عن نسبه فى مذكراته .

بقى الصبى فى قريته لا يعلم ماذا يكون من أمره فى غده ، ولا يخالط إلا الفلاحين من أبناء القرية ، أما الشراكسة المترفين الذين يمقتون الفلاحين فلم يك يعلم من أمرهم شيئاً ولا كان يسمع يومئذ بوجودهم ، وأنى له ذلك فى قريته ، ولكن الأقدار عما قريب سترمى به إلى حيث يجد نفسه كما يجد بنى قومه موضع ازدراء هؤلاء ، فلا يطيق هذا الفلاح المصرى ترفعهم وكبرياءهم والتمتع بأكثر المناصب فى الجيش ، وإذ ذاك يناضل عن قوميته ويغضب لكرامته ويكون فى هذه الدائرة الضيقة وإن لم يقصد ممثلا مصر كلها التى كرهت الأجانب يومئذ وقد استيقظت فيها روح القومية ، تلك الروح التى تتمثل فيما امتلأت به نفس ذلك الفتى القروى القادم من قرية مصرية .

فى صفوف الجيش

لم يطل بالصبي المقام بالأزهر ، ولم يطل به كذلك المقام فى قريته ، فإن القدر الذى لم يشأ له أن يكون شيخاً من أشياخ الأزهر ، ولا فلاحاً من فلاحى القرية ، قد شاء له أن يكون جنديا فى صفوف الجيش .

أراد سعيد باشا أن ينهض بالجيش المصرى ، فأمر أن يكون فى صفوفه أبناء المشايخ والأعيان ، كيلا يحتقر الجنـدى فى نظر الناس ، إذ كانوا لا يرون إلا المستضعفين والفقراء يحشدون ويساقون إلى الجيش ليكونوا عسكره ، أما ضباطه وقواده فـكان أكثرهم من الشركس .

وكان بين من ألحق بالجيش من أبناء الأعيان هـذا الفتى الأزهرى القروى ، وكان يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ؛ وبالتحاقه بالجيش تبدأ مرحلة جديدة فى حياته ، ثم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تعليمه ، ومن ذلك ترى أن كل ما ناله هذا الفتى من المعرفة لم يعـد ما تلقاه فى المـكتب ثم فى الأزهر حتى سن اليفاعة ، اللهم إلا ما كان من مطالعاته فيما بعد ، وهى أمر لا نستطيع تحديده …

انتظم عرابى فى سلك الجيش جنديا صغيراً ، ولـكن حظه من القراءة والـكتابة على قلته ، وإلمامه بشىء من علم الحساب قد أجدى عليه من أول الأمر فعين فى عمل من أعمال الـكتابة بالأورطة الرابعة من آلاى المشاة الأول[1] .

وما لبث أن رقى عرابى بعد سنتين إلى رتبة ملازم ثان ثم إلى رتبة ملازم

---

(١) ويذكر عرابى فى تاريخ حياته الذى كتبه لمستر بلنت وألحقه هذا بكتابه ، أنه كره أن يعمل هذا العمل الكتابى لأنه لا مجال فيه للرقى ، وبما أنه كان يطمح أن يكون شخصية كمدير الإقليم ، فقد ألح على رئيسه أن يلحقه بصفوف الجيش ، ولكن رئيسه أفهمه أنه يخسر بذلك ، لأن أجره فى وظيفته هذه ستون قرشاً فى الشهر وأجر الجندى خمسة عشر فحسب ؛ وما زال عرابى بهذا الرئيس حتى ألحقه بالجيش فى مرتبة جاويش .

أول فيوزباشى فى نفس السنة ، وكان يومئذ فى السابعة عشرة ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائمقام ، وكان عرابى أول مصرى وصل إلى هذه الرتبة كما يقول فى مذكراته .

وصل هذا الجندى من رتبة الجاويش إلى رتبة قائمقام فى أقل من أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد ، وإنما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذى أشرنا إليه ، فبه تمكن عرابى أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز بها الامتحان متفوقاً ، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين فى ذلك الجيش ، ولا شك فى أن هذا الترقى السريع قد بث فى نفس الفتى القروى كثيراً من الطموح والإقدام ...

على أنه كان طموحاً بطبعه ، جريئاً فى عصر كثيراً ما كانت تمد الجرأة فيه ضرباً من العصيان والتمرد كما سيأتى بيانه ، ولسوف نرى من مواقفه فى ذلك العصر ما يزيد معنى بسالته وضوحاً ، ويظهرها مضاعفة .

وأول ما عرف عنه فى الجندية كراهته للعنصر الشركسى ، فكان لا يفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيده المقارنة إلا غضباً وكراهية لهؤلاء الأجانب ...

أليست هذه النزعة فيه هى نزعته الوطنية فى الجيش يوم تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم ألسنا نجد فيها جانباً من الوطنية ونحس معنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابى إلا على أنه ضرب من الأنانية والجشع ، بل لقد يسرف بعضهم فيرمونه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعليا المراتب فى غير جدارة ؟ وإنهم فى الحق ليمتدحونه بذلك من حيث لا يشعرون ولئن كان الطموح بالنفس والشعور بالقومية تبجحاً ، فماذا نسمى التقاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الأجنبى ؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابى هذا ، فما أجدره بالإعجاب والثناء .

وكيف يستطيع رجل فى مثل موقفه أن يقنع المكابرين أن نزعته كانت قومية يقصد بها بنى قومه جميعاً ؟ وأى عيب فى أن يبدأ بنفسه فيرقى بها ؟ أليس مصريا ؟

وهل كان يعتز إلا بعصريته إذا اعتز بنفسه ؟ على أنه لو أراد بالرقى نفسه فحسب دون أى اعتبار قوى فما وجه العيب فى ذلك ؟ أيكون من العيب أن يتطلع الإنسان إلى المعالى ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه فى غير حق ، حتى ولو كان ذلك الغير أجنبيا ؟

كره عرابى الأجانب فى الجيش كرهاً شديداً ، وبخاصة هؤلاء الشراكسة المتعصبين لأنفسهم المترفعين على المصريين ، واستقر هذا الكره فى أعماق نفسه ، ولسوف يجر عليه عنتاً كثيراً وضيقاً ، ولكنه لن يأبه لذلك ، ولسوف يظل على عناده وإصراره حتى يصبح الأمر أمر الوطنيين جميعاً فى الجيش لا أمر أحمد عرابى فحسب

وظل عرابى فى مرحلته الأولى فى الجندية ساخطا على هؤلاء الأتراك والشركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم شغبه ، يكيدون له ويكيد لهم ؛ وإنا لنلمس فى هذا سبباً قويا من أسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد ، فلسوف يلتقى فى دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحانقين من رجال الجندية يوم يزمعون أن يشتكوا إلى الحكومة فى أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من أذى من جراء سياسة وزير الجهادية الشركسى عثمان رفقى ...

ويذكر عرابى فى مذكراته ما كان بينه وبين سعيد باشا من حسن الصلة حتى لقد اختاره ياوراً له فى زيارته المدينة المنورة ، فكان على مقربة منه أثناء هذه الرحلة وقد أهدى إليه هذا الوالى كما يذكر تاريخ نابليون مترجماً إلى العربية ؛ ولقد قرأ عرابى هذا التاريخ كله فى ليلة ، كما قال فى مذكراته عن نفسه التى كتبها لمستر بلنت والتى أثبتها هذا فى آخر كتابه ، وقد ذكر فيها عرابى أن سعيداً ألقى بالكتاب مغضباً على الأرض إذ رأى أن نابليون استطاع أن يفتح مصر بثلاثين ألف جندى ؛ وتناول عرابى الكتاب فلم ينم حتى أتمه ، وجاء إلى سعيد ينبئه أن نابليون استطاع ذلك بالجيش المدرب ، وأن سعيداً يستطيع أن يجعل لمصر جيشاً مدرباً على نمط جيش نابليون ؛ ولست أستطيع أن أتبين على وجه اليقين ما تركته قراءة مثل هذا التاريخ من أثر فى نفسه ، فلم يعلق هو على ذلك إلا بقوله : « ولما

طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سبباً لمطالعتى كثيراً من التواريخ العربية »[١] .

ولست أدرى كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر إلى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة ذلك الجندى المغامر الفذ الذى وصل بجده إلى قمة المجد الحربى وبلغ أوج الشهرة والجاه ، توحى إلى كل من يقرؤها معانى الإقدام والبطولة وتملأ النفس تطلعاً وحماسة ؛ وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ما عسى أن تلقيه تلك السيرة من المعانى فى نفس كنفس عرابى الجندى المتطلع المتوثب ...

ويشير عرابى فى مذكراته إلى أن سعيداً كان يميل إلى المصريين فى الجيش ويريد أن يرفع عنهم ما لحقهم من غبن على يد الشراكس ، كما يشير إلى أنه كانت لسعيد نزعة وطنية تتجلى فى محبته لمصر والمصريين ، وفى رغبته أن ينالوا قسطهم الحق من الترقى فى الجيش .

وما يعنينا من ذكر هذه العلاقة بين سعيد وعرابى إلا ما فيها من إقبال عرابى على كل من يحب المصريين ، فهذا الإقبال دليل على أن النزعة الوطنية القومية كانت منبعثة من أعماق نفسه ، وعلى أن شغبه على الشراكس والترك لم يك بدافع الأثرة كما يحلو لبعض الناس أن يرموه .

ويقول عرابى إن ميول سعيد الوطنية قد تبينت فى خطبة ألقاها فى حفل جمع كثيراً من علية القوم ، وقد أثبت عرابى فى مذكراته بضعة أسطر تحت عنوان : خطبة المرحوم سعيد باشا ، وبدأها بقوله : قال مرتجلا .

فهل أثبت عرابى خطبة الباشا وهو يلقيها ؟ إذا صح ذلك كان لكلام سعيد الذى يورده عرابى أهميته فى الدلالة على اتجاه هذا الوالى يومئذ ، وإذا كان عرابى يذكر ما وعته ذاكرته فحسب ، فإن فى هذا الذى يذكره عن سعيد ما هو كاف لأن يكشف عن نزعته ؛ وقد جاء فى هذه الخطبة قول سعيد حسبما أثبت عرابى

---

(١) كشف الستار عن سر الأسرار .

« وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل » .

يقول عرابى : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوهم تتهلل فرحاً واستبشاراً . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام مصر للمصريين . وعلى هـذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة » .

ولقد كتب عرابى هذه الآراء بعد الثورة ، ولعل فى ذلك ما يدعو إلى ضعف الثقة فى قيمتها عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال مثلا فى مذكرات نابليون التى كتبها فى منفاه فى سنت هيلانة ، فلقد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا إلى نفسه فنظر وتدبر .

ولـكن أعمال عرابى التى لا ينكرها المؤرخون ، حتى المغرضون منهم ، لا تتناقض مع كثير ممـا جاء فى مذكراته ، وعلى الأقل فى هذا الجانب الذى نتلمس فيه الدليل على ما نحسه من أن عرابياً قد اتجه منذ نشأته اتجاهاً وطنيا قومياً ؛ وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الأهمية ، ففى هذه النزعة القومية نرى عرابياً الحقيق . أما عرابى الذى صوره خيال المغرضين من المؤرخين والمدافعين عن الاحتلال من كتاب الإنجليز فما أبعده عن هـذا ؛ وهل كان يحلو لهؤلاء الذين استغلوا حركة عرابى أقبح استغلال إلا أن يصوروه أقبح صورة ، فلا يكون عندهم إلا جنديا جاهلا مغروراً ، واتته الظروف فراح يخبط فى حماقته لا يلوى على شىء ، وما زال فى جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يسلمه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الإنجليزى ...

ما كانت حركة عرابى عسكرية بحتـة كما يتصور البعض ، وما كان هو بالأحمق ولا بالمجنون ، وإنما كان لا بد أن تلتقى الحركة العسكرية ، وهى لا تخلو من

الصفة الوطنية ، بالحركة الوطنية العامة ، ولقد تم هذا الالتقاء فى شخص عرابى ، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الأمة يوم عابدين ؛ ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذاً لسياسة مرسومة سوف نميط اللثام عنها بكل ما وسعنا من حجة .

هذه النزعة الوطنية القومية فى نفس هذا المصرى الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة هى التى جعلت إليه قيادة الحركتين يوم التقتا ؛ وما نشير إليها الآن هذه الإشارة فى غير موضعها من سيرته إلا لنبين هنا أنها نزعة أصيلة فيه جاشت بها نفسه منذ شب ، وكانت الثورة التى نشير إليها هى مظهرها فيما بعد .
كتب فى ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابى يقول فى علاقة عرابى بسعيد :
« وقد حظى عرابى ، وكان شابا حسن الطلعة ، بعطفه ، حتى لقد اختاره أركان حرب له ورافقه إلى المدينة فى السنة التى سبقت وفاته . وقد كون عرابى آراءه السياسية الأولى أثناء هذه الصلة القريبة بسعيد ، وهذه الآراء هى المساواة بين طبقات الأمة ، وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب فى القومية المصرية ؛ وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة بين مصلحى ذلك العصر . فقد كانت حركة الأزهر ترمى إلى إصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى جوهرها قوامها الجنسية ، وهذا جعلها أوضح فى معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر شهرة وذيوعا » .

ولقد كان لصلة عرابى بسعيد على هذا النحو أثرها فى حنق عرابى على إسماعيل فلم يكن فى قلب هذا الوالى شىء مما كان فى قلب سلفه من الميل إلى المصريين ، بل لعل ميله كان إلى الشراكسة ؛ وقد أدى ذلك منه إلى ازدياد كراهية عرابى لهؤلاء واضطغانه عليهم ، إذ يرى أن كل حظوة لهم عند الوالى إنما هى على حساب الوطنيين

وقويت فى نفسه النزعة الوطنية ، وزادها قوة اتصاله بتلك الحركة الوليدة التى أخذت تدب فى جسم الأمة وقد كرثتها الكوارث من وراء سياسة إسماعيل وديون إسماعيل .

وازدادت كذلك فى نفسه نزعة التمرد والسخط ، وتجلت فى مواقف له كان من أهمها ما كان بينه وبين خسرو باشا الذى ما زال يكيد له ويسعى بالوشاية به عند أولى الأمر حتى رفت من الجندية .

وكان خسرو هذا شركسيا ، وقد رقى حتى أصبح فى مرتبة اللواء وصار رئيساً لعرابى الذى كان يومئذ قائمقاما للآلاى السادس ، ويذكر عرابى أنه رقى «لا بعلمه ومعارفه ، بل لكونه جركسياً ومن الخارجين على الدولة الملية مع إبراهيم باشا بن محمد على باشا فى تلك الفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الإسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين » .

ويعزو عرابى سبب رفته إلى أن خسرو قد سار بالوقيعة بينه وبين وزير الجهادية متهماً إياه بأنه « صلب الرأى شرس الأخلاق لا ينقاد لأوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية » ؛ ثم يقول عرابى معقباً على ذلك : « وما بى والله من شراسة ، ولكنى جبلت على حب العدل والإنصاف وبغض الظلم والإجحاف » .

ويذكر عرابى سببين للخلاف بينه وبين خسرو ، أولهما أنه لم يشايعه فيما ذهب إليه من رغبة فى ترقية أحد الضباط ممن كان عرابى من ممتحنيهم وكان فى نظر عرابى لا يستحق الترقية بينما كان خسرو شديد الرغبة فى ترقيته ، هذا فى الوقت الذى أبعد فيه خسرو عن الترقية ضابطاً آخر يستحقها ؛ وأوعز خسرو إلى أحد الضباط فدبر مكيدة لعرابى ، فاتهم بإساءة استعمال سلطته وحكم عليه بالحبس واحداً وعشرين يوماً ، ولكنه رفع ظلامة إلى المجلس العسكرى الأعلى فقضى ببراءته .

أما السبب الثانى ، ولعله فيما أحس أقوى السببين ، فهو أن خسرو سعى سعيه حتى حرم عرابى من أرض أنعم عليه بها الخديو إسماعيل فيمن أنعم عليهم من رجال الجيش ، وذلك عقب حفلة سر فيها الخديو من حسن نظام الجند .

وما زال خسرو يكيد له حتى رفت من الجندية كما أسلفنا ، ولنا أن نتصور مبلغ ماوقع فى نفسه من السخط والثورة على خسرو وعلى الشراكسة جميعاً فى شخص خسرو

والذى يعنينا مما كان بينه وبين خسرو أنه يصور لنا شدة الخلاف بين عرابى ورؤسائه فى الجيش مهما كانت أسباب ذلك الخلاف .

كذلك يكشف لنا ما علق به عرابى على هذه القصة عن ناحية من نواحى عقله ، فلقد راح يذكر ما حل بمن آذوه من مصائب معدداً أسماءهم مبيناً ما لحق بكل منهم موردا ذلك على أنه انتقام له من الله ... وفى هذا نوع من السذاجة فى رأى من ينظرون إلى مثل هذه العقائد نظرة يقولون إنها حرة ، ونوع من الإيمان فى نظر آخرين لا يعرفون هذه النظرة التى يصفها أصحابها هذا الوصف ؛ كما أن فيه دليلاً على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابى وقلبه .

على أن خصومه قد استغلوا هذه الناحية الدينية من حياته استغلالا مرذولا إذ يحاولون أن يسوقوها دليلا على أنه كان رجلا لا يختلف كثيراً عن عامة الناس فى جميع أفكاره ونزعاته ، وليتهم يشعرون أنهم بهذا التعميم الذى لا مبرر له إنما ينالون من عقولهم ؛ وأنهم يسيؤون إلى أنفسهم ولا يسيؤون إليه .

كان للدين سلطان على عرابى ما فى ذلك شك ؛ ولكن تلك كانت نزعة العصر ؛ على أننا نسأل ماذا يضيره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وخليق به أن يعد من حسناته ؟ وهل عاب أحد هذا العيب على كرمول وهو جندى مثله تزمته وتقشفه وصرامته فى دينه ؟ وهب أن عرابياً كان يغلو أحياناً فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسى أو صرفه عن وجهته التى عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على أنه اتخذ يوماً من الدين سلاحاً فى غير موضعه ؟ أو أنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بنى قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عرابى ثلاث سنوات مبعداً عن وظيفته إلى أن عفا عنه الخديو بعد أن ظلت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاثة مهملة فى غير سبب ظاهر ؛ ولقد تأصل فى نفسه كره الاستبداد فى كافة صوره كما استقر فى قلبه حب الانتقام من هؤلاء

الشراكسة الذين رام أذى ونقمة على العنصر الوطنى .

وطلب عرابى أن يحال على الأعمال المدنية ليبعد عن دسائس أعدائه كما يقول فى مذكراته ؛ وإنه ليذكر أنه بذل فى تلك الأعمال جهداً عظيما ووفر فى أحدها للخزانة مبلغاً كبيراً كان لولا نشاطه ذاهباً لا محالة إلى خزانة إحدى الشركات الأجنبية ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية أما هو فكان جزاؤه كما يقول « وكوفئت أنا على تلك الأعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى فيالله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ! وما أكثر العجائب فى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة » .

على أن ملنت يذكر فى كتابه أن تكليف عرابى بتلك الأعمال كان على غير رغبته ، وأن ذلك كان سبباً من أسباب نقمته على العهد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه إلى الساخطين والمتذمرين .

ولم يلبث عرابى أن أعيد إلى صفوف الجيش ، وكانت الحكومة تستعد للحملة الحبشية فرقت بعض رجال الجيش إلى مناصب أعلى مما كانوا فيها ، ولم يرق عرابى وكان قد جمل على ديوان الحربية فى ذلك الوقت الأمير حسين كامل ابن اسماعيل باشا ويقول عرابى فى مذكراته « وبعد اختيار المختارين للفرقة الثانية من الذين ترقوا بحضرة الأمير المشار إليه قال للذين تأخروا عن الترقى : اجتهدوا أيها الضباط فى التعليم والتمرين حتى تدركوا ما وصل إليه إخوانكم الذين ترقوا ؛ والله يشهد وفطاحل الجهادية أن المتأخرين فى الترقى هم أساتذة الذين ترقوا فى العلوم الحربية وهم أرقى أخلاقاً وأدباً ... ولكن الغرض يعمى ويصم ... ثم التفت الأمير إلى وقال بلهجة الآسف : إنى طلبت من أفندينا ترقيتك إلى رتبة الميرالاى فقال إنك من بتوع سعيد باشا ، فقاطعته الكلام وقلت إنى لست بتاع أحد بل خادم الحكومة والوطن وبلدى هرية رزنة بمديرية الشرقية ، ولكن بتاع سعيد باشا هو راتب باشا لأنه ملكه ، فقال لا تفتر همتك فى تأدية واجباتك وإنى سأبذل جهدى فى ترقيتك عند ترتيب الفرقة الثالثة ، فشكرت له وخرجت وأنا شاعر

بأنى لا أنال خيراً فى عهد والده لأنى متحقق من أن خسرو باشا وراتب باشا ورؤساء الجراكسة يمارضون فى ترقيتى بكل ما فى قدرتهم ، وقد سمعت من أحد أمرائهم وهو رجل معتدل غير متعصب لبنى جنسه على ما فيه من غلظة أنه حضر مجلساً لأولئك الجراكسة حيث تذاكروا فى اختيار الذين يريدون ترقيتهم إلى الفرقة الثالثة فعرض عليهم ترقيتى إلى رتبة الأميرالاى مراعاة للحق والإنصاف فأبوا عليه ذلك ، فقال لهم ربما ترقى قهراً عنكم يوماً ما إذا لم يرتق برضائكم واختياركم وأنتم تعلمون أنه أقدم القائمقامات وأعلمهم وفيكم من كان تحت إمرته فالأولى بكم ألا تعرضوا أنفسكم للانتقاد ؛ ولكنهم لم يزدادوا إلا عتواً ونفوراً ؛ ولما ترتبت الفرقة الثانية والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجهادية الأمير حسين كامل باشا على الوفاء بوعده لإصرار السردار راتب باشا على رفض ترقيتى ؛ ومن الغريب أن الآلاى الذى تحت إدارتى ظل خالياً من ضابط من رتبة الأميرالاى مدة ثمانية أعوام ، وكنت أنا القائم بوظيفة الأميرالاى بأحسن نظام وأكمل تربية وأدق تعليم وأحسن هيئة عسكرية ، فما أوضح هذا الظلم المبين » .

هذا كلام عرابى ومهما يكن من أمره فإن حرمانه من الترقية سواء أكان مرده إلى دسائس الشراكسة أم إلى أى سبب آخر كان خليقاً أن يحمله على الثورة والسخط ، وأن يميل به إلى اعتناق مبادىء الحركة الوطنية التى أخذت تشيع فى نفوس الساخطين على حكم إسماعيل .

والحق عرابى بالحملة الحبشية ، ولكن عمله فى هذه الحملة لم يكن عمل الجندى المحارب ، فقد كان يعمل فى منصب « مأمور مهمات » بمصوع ، ولقد حنق عرابى على تلك الحملة ، فهو ما يفتأ يندد بها فى مذكراته ويصف ما حل فيها بالجيش من كوارث فى غير موجب ، وقد اتهم لورنج القائد الأمريكى الجنس فيها بالخيانة ، إذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالأحباش ويطلعهم على كل شىء ...

ويقول بلنت فى كتابه أنه « قد عاد من الحملة ساخطاً كما سخط العائدون على ما كان فيها من الفوضى ، وإليها يرجع اتجاه نفسه نحو السياسة ، وازدياد بغضه

وغضبه ، ذلك الغضب الذى كان فى ذلك الحين متجهاً أكثر ما يتجه إلى الخديو » .

وفى شهر فبراير عام ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة ، تلك المظاهرة التى نلمح فيها بوادر الثورة العسكرية ؛ ويتلخص هـذا الحادث فى أن عدداً من الضباط بزعامة البكباشى لطيف سليم قد توجهوا إلى وزارة المـالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المـالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لطماً ولـكماً وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك إلى وزير المـالية ؛ وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف إلى هناك الخديو بنفسه فى فرقة من حرسه حينما نمى إليه ذلك النبأ ، وأمر الخديو بإطلاق النار إرهاباً ، فأطلقت رصاصات فى الهواء وفر المتظاهرون .

ولـكن تهمة القيام بهذه المظاهرة وتدبيرها قد وجهت إلى عرابى واثنين آخرين من الضباط ، وعقـد لهم مجلس يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن الآيه إلى جهة بعيدة ، وكانت الإسكندرية من نصيب عرابى وفيها اتصل بكثير من الأوروبيين .

ويدفع عرابى التهمة عن نفسه مقرراً أنه لم يكن له يد فيها قط ، إذ كان فى رشيد وقت وقوع الحادث ؛ ذكر ذلك فى مذكراته وذكره كذلك فى التاريخ الذى كتبه لمستر بلنت بناء على طلبه عام ١٩٠٣؛ بعد عودته من منفاه ؛ ولقد أطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابى ، فوافق على براءته من هـذا الحادث .

ولقد أدى اتهام عرابى على هـذا النحو إلى ازدياد كراهته لإسماعيل وعهد إسماعيل ؛ ولسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التى توجهه إلى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيـذ ما كانوا يأملونه من وجوه الإصلاح ؛ قال عرابى فى ذلك التاريخ الذى كتبه لصديقه بلنت والذى أثبته هذا فى آخر كتابه « ولـكن قبل أن نفترق اجتمعنا فاقترحت أن نتحد ونخلع إسماعيل ، ولو أننا فعلنا ذلك لـكان خير حل للقضيـة ، لأنه كان يسر القناصل أن يتخلصوا من

إسماعيل على أية صورة ، ثم إنه كان يوفر على البلاد ما حدث بعد ذلك من تعقد فى الأمور، كما كان يوفر تلك الملايين الخمسة عشرة الذى حملها إسماعيل معه عندما خلع؛ ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فإن مقترحى لم ينفذ وإن حاز القبول؛ وقد أتى خلع إسماعيل بعد ذلك عبئاً ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو أنا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل إذ أننا كنا نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد على كلها فإنه لم يكن فيها حاكم صالح إلا سعيد وكنا نستطيع أن نعلن إقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل إسماعيل عند جسر قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » .

ومن هذا الذى ذكره عرابى يتبين مبلغ حنقه على إسماعيل ، ولولا أن سعيداً كان يعطف على المصريين حقاً وأن إسماعيل لم يكن يبدو منه ما كان يبدو من سعيد من مظاهر هذا العطف ، لجاز أن يتهم عرابى بأنه يحب سعيداً ويبغض إسماعيل متأثراً بدوافع شخصية .

أما عن اتهام عرابى وزميليه فى هذا الحادث ، فإن عرابياً يورد له سبباً فهو يتهم إسماعيل بأنه كان المحرض على هذه الفتنة ليتخلص من الوزارة الأوروبية ، ولكى ينفى عن نفسه الشبهة ، فإنه اتهم هؤلاء الضباط الثلاثة بأنهم مدبروا الحركة .

يقظة ونهوض

أخذت انجلترة وفرنسا تتنافسان فى بسط نفوذهما فى مصر منذ حملة بونابرت على هذه البلاد ، ولكنهما وجدتا فى محمد على رجلا يعد سلطانه لايفقد ذلك السلطان ، فاكتفت أولاهما بالعمل على تحطيمه وفرحت الثانية بمصادقته ...

وساقت الأقدار ولاية العهد لإسماعيل قبل موت سعيد فاستبشر الناس وارتقبوا الخير فى عهد هذا الأمير الذى ذاع من صفاته فيهم ما حببه إليهم ، وكانوا قد علموا أنه من ذوى النباهة والحزم وبخاصة فى شؤون المال ، ولم يطل ترقب الناس فقد آل إليه الأمر عام ١٧٦٣ .

وراحت مصر تستقبل طوراً من أطوار تاريخها ، نحار أشد الحيرة ماذا نسميه وبأى الصفات ننعته ... طوراً كان غريباً حقاً تترك غرابته المقول فى دهشة وتكلف من يريد الإنصاف فى درسه عسراً شديداً .

ما برحت فرنسا وانجلترة ترقبان سير الحوادث فى وادى النيل ؛ أما فرنسا فكانت لا تنى تعمل على أن تزيد نفوذها فى مصر ذلك النفوذ الذى وضعت أساسه حملتها على هذه البلاد ، والذى ما فتىء يعظم ويتزايد فى عهد محمد على ، وها هو ذا فى عهد إسماعيل قدبلغ مبلغاً عظيما حيما اتصل البحران واستطاع دى لسبس أن يجرى بينهما القناة التى سوف تغير مجرى تاريخ هذا الوادى .. وأما انجلترة فكانت دائبة على سياستها تحول دون ظهور قوة فى مصر ، وقد استراحت من محمد على وراحت اليوم تقف فى وجه حفيده وتحرص على أن يظل خاضعاً للخليفة ، ولما التقى البحران أصبح همها متجهاً إلى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة .

ونصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما على أن تتدخل فى شؤون مصر من طريق المال أولا ثم من طريق السياسة بعد ذلك .

شهدت مصر فى هذا العهد جلائل الأعمال ومظاهر الاستقلال ، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال ، شهدت يد التعمير تبعث الحياة والنشاط والقوة فى العاصمة وعلى صفحة الوادى ؛ وشهدت يد التخريب تهوى بمعولها فى غير رحمة أو هوادة فتزلزل البنيان وتقوض الأركان ؛ شهدت العظمة الشامخة والثروة الباذخة وشهدت الذلة المستخذية والفقر المستكين ؛ شهدت دوافع الحرية وشهدت نوازع الاستبداد ؛ شهدت مواقف البطولة والصدق وشهدت مخازى الدس والبهتان ... شهدت مصر ذلك كله وشهدت زيادة عليه ماتشهده الفريسة تجمعت عليها الذئاب وأوهنها طول الدفاع والجلاد ...

أراد إسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه الكمال ، فلن يجمل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من أفريقيا ولا أن تكون جزءاً من تركيا ، ولن يهدأ له بال حتى تنتسب مصر إلى أوروبا ، وحتى تحطم الأصفاد وتطرح عن عنقها نير الاستعباد ...

ولم يمض من عهد هذا الأمير الفذ إثنا عشر عاماً حتى غمر مصر فيض من الإصلاح ؛ وتهيأ لها من أسباب الرقى ما لم يكن يتهيأ مثله فى أقل من قرن إذا سارت الأمور سيرها العادى ... فى تلك الفترة القصيرة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل إلى أنحاء الوادى من مياه النيل وغرينه ما يدرأ عنه رمال الصحراء ، ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق ، ونظم البريد ومهدت السبل ، وأقيمت الجسور ، واصلحت الموانى وشيدت المنائر ؛ وبنيت المصانع ، وافتتحت دور العلم للبنين والبنات على نحو يذكر بالحمد والإعجاب .

وفى تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان ، وأحاطت بوالى مصر مظاهر السيادة فلقب بالخديو ونظم ولاية العهد وسمح له بمنح الألقاب وأطلقت يده فأصلح القضاء وأدخل على النظام الإدارى كثيراً من الإصلاح ...

وفى تلك الفترة سارت القاهرة تستبدل حياة بحياة ، ومظهراً بمظهر ، فتتخلص مما وسمها الجهد من أفريقيا ولا تنى تقترب من أوروبا ، وراح الخديو العظيم ينشر

فيها من مظاهر همته ما جعل أعماله فى هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر ، وما برحت القاهرة طول عهده غاصة « بالمونة والأحجار » تلك التى كانت هوية الخديو ومسرة فؤاده ...

ولكن إسماعيل وا أسفاه أنفق فى سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليوناً من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر ؛ ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التى أراد أن تكون قطعة من أوروبا تساق على رغمه لتكون ملكا لأوروبا ! فمن أوروبا استدانت تلك الملايين ، ولما عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لهذا الدين !

ولما أرادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلا سنحت الفرصة لإنجلترة فراحت تتنكر لمصر وتتربص بها الدوائر وكان لا بد للمسألة المالية أن تنتهى إلى ما انتهت إليه من تغلغل الإنجليز والفرنسيين فى صميم شؤون مصر .

على أن هذا التدخل لم يك شراً كله كما اعتاد المؤرخون أن يصوروه ؛ وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر الخير أن قد استيقظت على صخبه وضجيجه مصر ، فانبعثت القومية المصرية ومضت مصر تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما بدا فى ثورتها على نابليون ثم على كليبر ، ومما ظهر من آمالها وروحها ومشيئتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشرقاوى يلبسون محمد على الكرك والقفطان دون أن يرجعوا فى ذلك إلى السلطان ...

وتراكمت الديون على مصر حتى أنها لم تك تقل عن تسمين ألف ألف من الجنيهات فى عام ١٨٧٥ ، فمن ديون سائرة كانت فى ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانى الغبن ، إلى ديون ثابتة فيها أوضح معانى الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، إلى قروض داخلية لجأ إليها « المفتش » ذلك الذى قام على شؤون مصر المالية فكان فى ذاته عبئاً فوق ما أثقلها من عبء ، ومن تلك القروض الدالة على الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت انجلترة نحو هدفها ، وكانت أولى حركاتها فى هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة ، اشتراه دزرائيلى رئيس وزرائها يومئذ بثمن بخس ؛

ولم يرده عن ذلك عطلة البرلمان فى تلك الأثناء ، وكيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الأمر يجعل مقام بلاده فى القناة كمقام فرنسا أو أعظم ، ويصحح خطأ وقعت فيه انجلترة ألا وهو استهانتها بالمشروع أول الأمر ظناً منها أنه لن يتم ، ثم تراخيها فى شراء الأسهم بعد ذلك رغبة فى إحباطه ؟

ولكن مصر بعد بيع أسهمها لا تزال فى حاجة إلى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال ؛ وأنى لها المال بعد هذا كله ؟ وأية دولة تمد إليها يدها ؟ إذاً فلتفكر مصر فى الإصلاح ، ولتفكر انجلترة فى اصطياد الفريسة .

طلب الخديو موظفاً انجليزياً يدرس لمصر شؤون مالها ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ؛ فتلكأت انجلترة أول الأمر لأنها عن دهاء وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها ...

وجاء الموظف ولكنه كان مزوداً من قبل حكومته بأوامر ، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع إلى حكومته تقريراً عما رأى ! وما لهذا أراده إسماعيل فما كان يريد والى مصر إلا أن يكون هذا الموظف مُعيناً له على إصلاح مالية البلاد .

ورفع « كيف » التقرير إلى حكومته ! وجاء دور دزرائيلى فأعلن فى البرلمان الإنجليزى فى غير تردد ولا استحياء أنه يرعب عن نشر التقرير لأن الخديو رجا منه ألا يفعل ؛ ولعمر الحق ما رجا الخديو منه شيئاً ولا أشار إلى ذلك من قريب ولا من بعيد .

ذعر الدائنون وهبطت قيمة أسهم مصر كما يقول رجال المال ؛ وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على أيديهم الإصلاح وقال فى مرارة وغيظ « لقد احتفروا لى قبرى » وهى كلمة موجعة جامعة ، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلى سيكون الطوفان ...

وما كان فى تقرير كيف إلا أن مصر « تشكو مما ينتشر فى الشرق من أمراض منها الجهل والإسراف والاختلاس والإهمال والتبذير وأنها تشكو من

كثرة النفقات التى سببتها محاولة إدخال مدنية الغرب والتى تترتب على مشروعات لا تجدى نفعاً وعلى مشروعات نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ » بل لقد ذكر كيف فى عبارة صريحة « أن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد » ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التى كثيراً ما تسخر مما تواضع عليه أغْرَارُ الناس من قواعد الخلق والاستقامة .

لم تستطع مصر أن تفلت من دائنيها فكان لا بد من إذعانها لمراقبة مندوبيهم وأقيم فى مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الأجانب داخل حكومتها ؛ ثم وافق الخديو مكرهاً على تعيين مراقبين أجنبيين أحدهما إنجليزى للدخل والآخر فرنسى للصرف ، وعين لهذين موظفين من الأجانب بأجور ضخمة ؛ وعنى الخديو حقاً بإصلاح الحال يومئذ ولكن يد الغدر كانت من ورائه تبعث الارتباك وتنصب الشباك .

وقبل الخديو فيما قبل على رغمه تأليف لجنة من الأجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دى لسبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة . فما كادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان اصطدامها فى بدء عهدها لسوء حظها برجل من رجال مصر كان يتحفز ويتحين الفرصة ليثب وكان هذا الرجل هو محمد شريف باشا ...

استدعت اللجنة شريفاً ليمثل أمامها لتستفهمه فتعاظمه الأمر فأبى ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنه خشى هو أيضاً على كرامته وكرامة منصبه فأصر كما أصرت ... أيمثل شريف أمام لجنة من الأجانب ؟ ولم لا تنتقل إليه اللجنة وهو العزيز بنزاهته واستقامته ، الكبير بشخصه ومنصبه ، العظيم بوطنيته وكرامته ؟ إذن فليطلق شريف المنصب غير آسف ، وقد كان ما أراد فاستقال ، وهزت البلاد استقالته بما تنطوى عليه يومئذ من المعانى فلقد كانت وثبة منه فى حينها كأنما جاءت على قدر من الأيام ، ففى مصر يتوثب مثله رجال وتخفق بالوطنية قلوب وتضيق من تدخل الأجانب صدور ؛ وقدر لشريف أن يكون

فى تاريخ وطنه من أولئك الأماثل الذين توحى مواقفهم البطولة وتخلق الأبطال !

كان فى استقالة شريف معنى الغضب ، ولـكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب وإلا لما كان له ما كان يومئذ من خطر ؛ كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معاً أمام لجنة من الأجانب تريد أن تظهر بمظهر السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك كان هذا الغضب ثورة ، وما لبثت تلك الثورة أن بعثت فى كل نفس من نفوس الأحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهيأت البلاد لأن تثبت للأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل أول رجالها ورأس أبطالها .

ورب قائل يقول وماذا كان فى ذلك الموقف من معانى البطولة ؟ هذا رجل اعتزل منصبه فـكيف يكون الاعتزال رجولة ؟ ولـكن الذين يعلمون مبلغ نفوذ الأجانب ومبلغ ما منى به المصريون يومئذ من خور وما عرف عنهم إذ ذاك من الحرص على المناصب والألقاب يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف من عزة وتضحية ؛ هذا إلى ما سبق استقالته من تحد منه للجنة وسلطانها ؛ ولو أن الخديو آزر شريفا لما ترك منصبه وكان بذلك يدع اللجنة فى أحرج المواقف كلما أمعن فى عصيانه وترفعه ... ولـكن الخديو على جلال قدره طلب إلى اللجنة فيما يشبه الرجاء أن تكتفى من شريف بأن يرد على أسئلتها كتابة ، ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديوى عليها بعمل أو قول يكون فيه معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الأجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف إلا أن يتخذ من استقالته مظهراً من مظاهر الاحتجاج على تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، فـكان ذلك المظهر أول إنذار بالثورة .

أخذت لجنـة التحقيق العامة تدرس الحالة ؛ ولقد جعلت اللجنة هدفها بالضرورة العمل لصالح الدائنين ولذلك لم تأل جهداً فى أن ترجع بكل المساوىء إلى الخديو وحكومة الخديو متناسـية ما فعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم تراع فى تقريرها بؤس أولئك الذين أثقلتهم الضرائب وهدهم الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيراً ما يفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم ؛ أولئك الذين غمرهم فى سنة من تلك السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولا عليهم من طالبي الضرائب ، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ؛ أولئك الذين أحاط بهم الربويون والأمراض معاً ، وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه !

وتغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئاً داخل البلاد فى ظل تلك الامتيازات المشؤومة التى كانت من أكبر المساوىء فى مصر ، والتى قل أن يجد المؤرخ مثيلا لما كانت تنطوى عليه من جور ، وما كانت تقوم عليه من باطل وبهتان ؛ وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الأجانب الذين تزايد عددهم فى الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتقاضون الأجور العالية جزاء على ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة ؛ بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم إلا فى مشقة وعناء وهى من القلة بحيث كانت تؤدى بالكثيرين إلى الاختلاس والتهاون فى العمل ...

واقترحت اللجنة فى قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة إلى وزراء يسألون عن أعمالهم ، أى أن تكون عليهم تبعة ما يعملون ، وأن ينزل عن أملاكه نظير مبلغ معين ، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها ، كل ذلك دون أن تفكر اللجنة فى أن يتنازل الدائنون عن شىء من ديونهم ، وهى تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف تزايدت أرباحها حتى بلغت ما بلغته .

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسؤولة فاستدعى نوبار من أوروبا وعهد إليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها فى التبعة وتقوم بالحكم فى البلاد ، ونظر المصريون فإذا وزارة المالية تسند إلى رجل إنجليزى ، وإذا وزارة الأشغال تسند إلى رجل فرنسى ، وهكذا يسيطر الأجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها كانت لا تعبأ بشيء إلا بما يرى الأجانب ، فلم يك لمجلس شورى النواب حق إسقاطها ، بل لم يك له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو نفسه فى الواقع سلطان عليها ، فكانت الوزارة بهذه الصورة سخرية من سخريات الأجانب هى فى ذاتها من أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد ..

على أنه سرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه ، أو على الأصح بينه وبين نوبار والوزيرين الأجنبيين ، فلقد كان فى الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الأعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض . . . وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح إسماعيل ولا هم له إلا أن يتخلص من هذه الوزارة التى لم تدع له من السلطة إلا اسمها .

وسنحت له الفرصة فى حادث مظاهرة الضباط الذى أشرنا إليه ، فأعلن إسماعيل على أثر الحادث أنه غير مسؤول عن الأمن فى البلاد ما دام محروماً من السلطان ، ومن ثم رأى نوبار أن لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك فرفع إلى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التى اعتاد الناس أن يسموها الرزارة الأوروبية .

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية ، كان باعثها الأول هـذا البلاء الذى كانت تمانيه ، ولسوف تلتقى هذه الحركة فيما بعد بالحركة العسكرية التى هى فى جوهرها غضبة قومية على أجانب من جنس آخر هم الشراكسة ؛ وتتألف من التيارين تلك الثورة التى كان بطلها أحمد عرابى ، والتى تعمد كثير من المؤرخين تشويهها ، والتى أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل من جراء ما هوش وافترى كتاب الاحتلال . . .

وكان لهذه الحركة الوليدة مركزان : أولهما المركز الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثانيهما المركز الأهلى وهو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث كان يلتقى الأحرار من العلماء والنواب والأعيان وضباط الجيش الناقمين .

وكان قد هبط مصر السيد جمال الدين الأفغانى يبث فيها مبادئه ويحمل إليها

قبسه ، وكان جمال ذلك الرجل الذى أطلعه الشرق ليضيفه إلى كواكبه الزهر ، يرى أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سلبية الأرادة تحكم على رغمها وتسخر لحساب الحاكين ، ولا مخرج لها إلا أن تعود حرة كما كانت من قبل حرة ، ولن يكون هذا إلا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد ، وأن ينسخ نور العلم ما تراكم فى الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربة فى مصر صالحة لبذوره فنمت نموا سريعاً يحمل على الدهشة ، فما أسرع أن ظهرت فى البلاد حركة حرة كأعظم وأجمل ما تكون الحركات الحرة وراح تلاميذ جمال الدين يذيعون فى البلاد مبادئه ، يقول فى ذلك الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه وأحبهم إليه : « وكان طلبة العلم ، طلبة جمال الدين ، ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وبخاصة فى القاهرة » .

وظهرت فى تلك الأيام الصحافة العربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات الوطنية وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، فانتعشت أرواحهم وهفت إلى الانطلاق من الأسر قلوبهم .

وأدى اتصال المصريين بالأجانب ، وقد كثر مجيئهم إلى مصر ، إلى تتبع الأنباء العالمية فى الحرب والسياسة ، فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين حال الشعوب الحرة وبين حالهم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة .

وبهذه العوامل مجتمعة قام فى مصر رأى عام يعد شيئاً جديداً حقاً فى تاريخها الحديث ، فقد اشتد الوعى القومى ، وكان من أكبر بواعثه ، ذلك العدوان الذى أسرف فيه الأجانب على مصر فى غير حياء أو مبالاة .

***

أخذت تشتد الروح الوطنية وتتغلغل فى النفوس ، وكان شريف باشا يرقب

السيد جمال الدين الأفغانى

حركة الأحرار الذين كانوا يجتمعون فى بيت البكرى ، وكان لا يفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون ، وكان يتمنى أن يتخـذ منهم قوة يناوئ بها الأجانب ويحد من سلطان الخديو ، ولن يتم ذلك فيما يرى إلا أن يكون الوزراء مسؤولين أمام نواب الأمة كما هو الحال فى المجالس الأوروبيـة التى تسير وفق القواعد الدستورية ...

وسقطت الوزارة الأوروبية ، ولـكنها ألفت ثانية برياسة الأمير توفيق ، فلقد رفض قنصلا إنجلترة وفرنسا أن يرأس إسماعيل نفسه الوزارة كما طلب ؛ ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصمم على الرفض ، ورأت الدولتان مبلغ حرص إسماعيل على إبعاد نوبار ، فاشترطتا لقبول ذلك أن يعطى العضوان الأوروبيان فى الوزارة حق « الڤيتو » على قرارات مجلس الوزراء ورضى إسماعيل بذلك ، فصار للعضوين الأوروبيين حق إيقاف أى قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه ؛ ومعنى ذلك أنهما يحكمان البلاد حكما لا يدع للخديو فى مصر سلطة أو ظلها . . .

وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة ؛ نمى إلى المجلس فيما نمى إليـه من أنباء الوزارة الأوروبية أنها تئتمر بالمجلس وتنوى التخلص منه ، فصمم الأعضاء ألا يتفرقوا وأن يظلوا فى أماكنهم للنظر فى شؤون البلاد فى تلك الآونة العصيبة . . . ألسنا نرى فى ذلك صورة مما حدث فى فرنسا في مستهل عهد ملـكها لويس السادس عشر ، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال ؟ ولسوف تؤدى الظروف إلى أن يصبح ذلك المجلس الذى لم يكن له حول ولا قوة ، هيئة تحاسب الوزراء على أعمالهم وتملك إقصاءهم عن مناصبهم إذا تهاونوا فى حقوق البلاد ، ولقد كان لشريف باشا الفضل كل الفضل فيما ناله المجلس من حقوق حتى ليعد شريف بذلك مؤسس الحركة الدستورية فى مصر .

وكان المجلس فى وزارة نوبار قد أرسل إلى السير ريفرز وزير المـالية يدعوه

ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الأمور فسوف وماطل ، ثم لم يحضر أو يرسل إلى المجلس شيئاً مما طلب المجلس أن يطلع عليه من المشروعات ، وضاق المجلس بما فعل وزير المالية ، وفسر عمله بأنه إهانة موجهة إلى الأمة المصرية فى أشخاص نوابها .

وفى وزارة الأمير توفيق استصدر وزير الداخلية وهو يومئذ رياض باشا أمراً من الخديو إلى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ، وذهب رياض يتلو على النواب هذا الأمر ؛ وهنا وقف النواب وقفة جديرة بأن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياضاً بما عسى أن يقع من الحوادث فى البلاد بسبب سياسة الوزارة ، وجعلوا تبعة ذلك عليها ؛ ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الأمة فى فرنسا ، حين وقف فيه نواب الشعب الفرنسى يتحدون قرار الملك على أثر صيحة ميرابو المدوية التى نقلت تاريخ فرنسا من فصل إلى فصل .

ولكن النواب هنا لم يكونوا فى الحقيقة يتحدون الخديو ، فقد كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الأجانب فى شؤون مصر ، ذلك التدخل الذى حرمه كل سلطة ، وإنما كان النواب يتحدون الوزارة الأوروبية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها . . .

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر فى المسألتين الدستورية والمالية ؛ أما أولاهما فتتلخص فى أن تكون الوزارة مسؤولة أمام المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلى فى حكومة البلاد ، وأما الثانية فمؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الأجانب،وأن يقرر فى أمر الدين والضرائب ماتمليه عليه مصلحةالبلاد.

وأصر النواب على ما طلبوا فكانت حركتهم هذه حركة قومية إلى أقصى ما يتسع له معنى هذه الكلمة ، وكان يظاهر النواب أحرار البلاد من العلماء والأعيان والتجار ، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم فى بيت البكرى ؛ وأخيراً اتفقت كلمتهم جميعاً على أن يتوجهوا إلى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ؛ وفيها
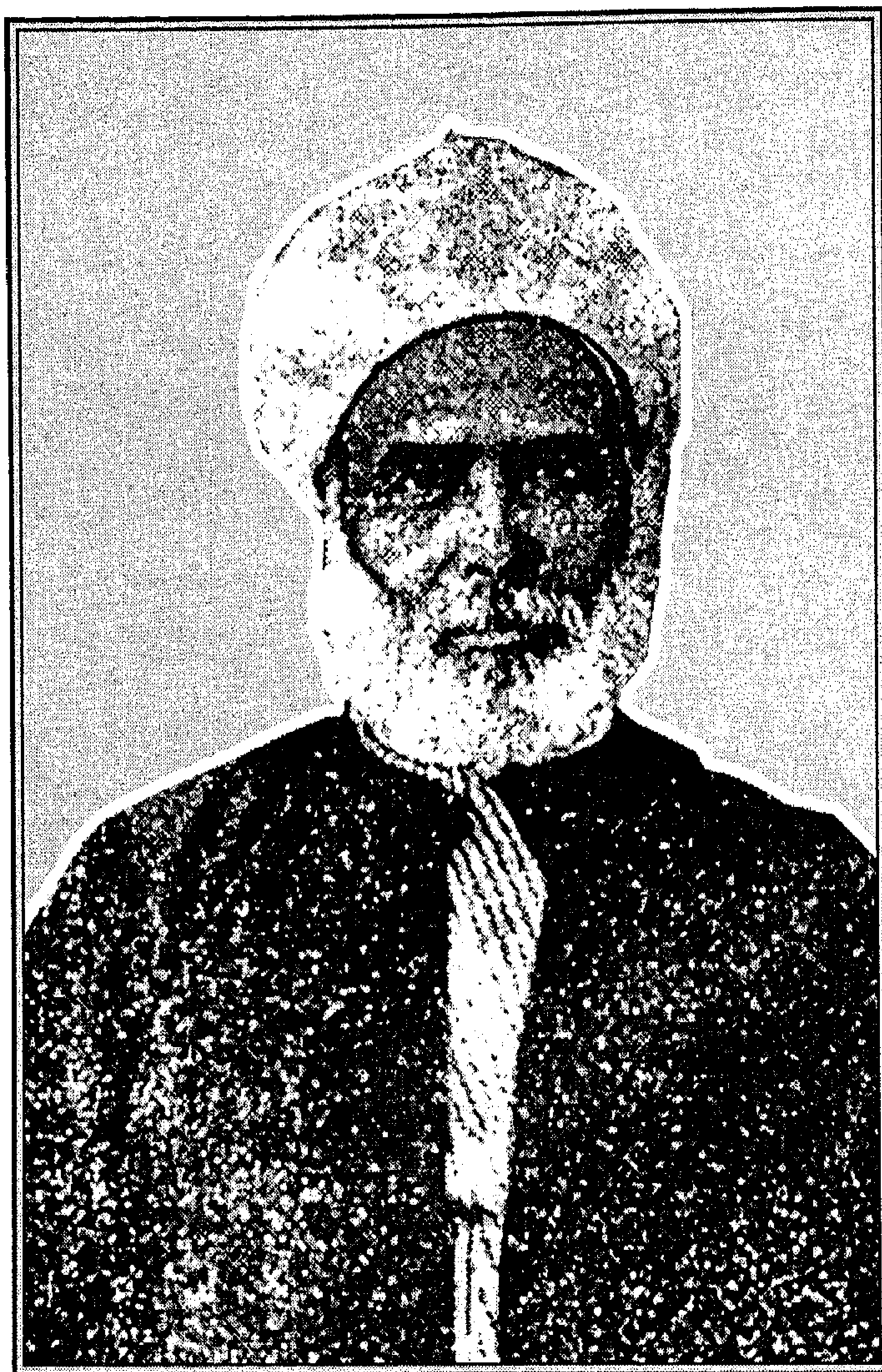
يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التى كانت ترمى إلى إعلان إفلاس مصر ويقررون أن إيراد مصر يفى بدفع ديونها ، ويطلبون إلى الخديو تقرير مبدأ مسؤولية الوزارة أمام المجلس ، وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الأوروبية التى ضاقت بسياستها البلاد . .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت إشراف شريف ، فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته إلى هذه البلاد ، كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها أثراً فى مجرى الحوادث ؛ ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ، ومثلهم من العلماء وفى مقدمتهم شيخ الأزهر كما وقع البطريرك والحاخام ؛ وكذلك وقع عليها عدد كبير من الأعيان والتجار والموظفين والضباط ؛ ودفعت بعد ذلك إلى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه إلى النفوذ الأجنبي ضربة قوية فالبلاد من ورائه تشد أزره ولذلك لم يتردد فى الموافقة على اللائحة ؛ وسرعان ما هزت البلاد فملته هزة قوية ، هى هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنية والأمل فى مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتنعم بالراحة والرخاء . . .

واستقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الأبصار إلى شريف واتفقت عليه القلوب والأهواء وما لبث أن تضاعف سرور البلاد بأن أسندت إليه رياسة الوزارة الوطنية وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الأمة ...

وراح الخديو يكيد للأجانب كيداً شديدا وظهر كمن يريد أن يثأر لنفسه فلم يكتف بأجابة الوطنيين إلى ما طلبوا ، بل لقد ذهب إلى حد مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلا أقامه فى داره السيد على البكرى ودعا إليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو فى ذلك موقف الزعيم .

وتلقى الأجانب الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهلوا عما يجب عليهم أن يعملوا إزاء موقف الخديو ومن أجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنتا بالغا ، فتبددت فى ضوضائهم كل دعوة إلى الحكمة وضرب الحقد على آذانهم وجعل الغضب على أبصارهم غشاوة ...

ولكن شريفا ظهر يومئذ بمظهر جدير بالإعجاب حقاً ، فلا هو حنى جانب الأجانب فتخاذل عما هو بسبيله ولا هو مال كل الميل فانقلبت سياسته شططا ، وبذلك جمع شريف بين حمية الوطني الثائر وكياسة السياسي الماهر وروية المجرب البصير ...

احتج الأجانب على إبعاد الوزيرين الأوروبيين واستقال كثير منهم من مناصبهم ، وراحت انجلترة وفرنسا تهددان الخديو وحكومته وتنددان بهما ، وتوجه الدائنون إلى المحاكم المختلطة فرفعوا أمامها القضايا ؛ وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة مفلسة منذ أكثر من عامين ؛ ولما عرض شريف على هؤلاء الأجانب الصاخبين استعداده لإعادة المراقبة الثنائية وفق ما كانت تقضي به تعهدات الخديو في حالة ما إذا أخرج الوزيران الأجنبيان أو أحدهما ، رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم في الكيد ، ورغبة في زيادة الأمور حرجا وتعقدا .

ولكن شريفا لم يلوه حرج الموقف عن وجهته ، وما كانت وجهته إلا أن يجعل مرد الأمور إلى الأمة ، ولئن كان يمقت تدخل الأجانب فإنه كان كذلك يكره استبداد الخديو بالأمر أشد الكراهية ؛ لذلك جعل محور سياسته أن يكون الوزراء مسؤولين أمام مجلس شورى النواب ؛ وتم له ما أراد فجاء في كتاب الخديو إليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلا فيها يذكر الخديو أنه يرجع بالأمور إلى الأمة ويوافق على مسئولية الوزارة أمام مجلسها .

بهذا كان شريف كما ذكرنا أبا الدستور في مصر فأن ذلك المجلس الذي تعهده برعايته منذ نشأته سنة ١٨٦٦ قد تمت له السلطة على يديه سنة ١٨٧٩ فصار الحكم في مصر دستوريا لا يشوبه شائبة مهما يقل القائلون في طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم .

أجل إن العهد الدستوري في مصر يرجع إلى سنة ١٨٧٩ ، وهذا الدستور إنما نالته مصر بجهاد بنيها ، وما كان دستور سنة ١٩٢٣ إلا الدستور الثاني للبلاد أو بعبارة أخرى ما كان إلا توقدا لتلك الجمرة التي ظلت مطمورة تحت رماد الاحتلال

حتى جاء سعد نخلف عرابيا فى قيادة الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد ونفخ فى تلك الجمرة فأوقد نارها .

***

لم تكد البلاد ، وا أسفاه تفرغ من مظاهر فرحها حتى جاءت الأنباء بعزل عاهلها إذ ما زالت انجلترة وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا إقناعه بعزل إسماعيل نخلفه على أريكة مصر ابنه توفيق وبخروج اسماعيل من مصر فقدت البلاد الرجل الذى كان يمكن الاعتماد عليه فى مناهضة نفوذ الأجانب .

ورفع شريف استقالته إلى الخديو الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية ، فطلب إليه الخديو إعادة تأليفها وأشار توفيق صراحة فى أمره وخطابه أمام مجلس الشورى ميله إلى العطف على الأمانى القومية كما تظهر فى الحركة الدستورية الوطنية ؛ وسار شريف على نهجه الدستورى يدعم ما بنت يداه ويجتهد فى توطيد أسسه .

ولكن توفيقا مالبث حين وصل إليه فرمان توليته أن تنكر للحركة الوطنية ثما كان فى موقفه الأول إلا مدعيا يكتسب الوقت فلما اطمأن إلى منصبه بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه إلى ما طلبه بشأن توسيع مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستورى ثابت ؛ ورأى شريف فى هذا نية إقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة كذلك عاملا قويا من عوامل إذكاء الروح الوطنية وإشعال جذوتها :

وما كان أحوج الخديو يومئذ إلى شريف دون غيره من الرجال ؛ أجل ما كان أحوجه إلى ذلك الرجل الذى كانت تجتمع فيه الرجال ، وتلتقى فى سياسته الآمال .

وما أشبه توفيقا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك المسكين الذى قال عنه بعض المؤرخين إنه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معاً ؛ فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، ومازالت تنمو وتتزايد ، وما زالت تلك الأقلام الجبارة أقلام ڤلتير وروسو وأضرابهما تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهد

ذلك المال فانفجر البركان وكانت الراجفة التى زلزلت فرنسا زلزالا شديدا .

وأرى توفيقا قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية فى عهد ذلك الخديو المخلوع ، ثم راحت تحدوها وتمهد لها أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فرجفت الراجفة .

وما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد ، أوعن غفلة ، وإن الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ؛ وإنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وصفها فى جملة هى التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما ؛ فلما ذهب عرابى إلى الخديو على رأس جنده فى اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ذهب يحمل إليه مطالب الجيش ومطالب الأمة معا ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم

مالبث المصريون كما أسلفنا أن فجعوا فى آمالهم بتدخل الدولتين تدخلا جريئا فى شئونهم أدى إلى عزل الخديو وتركهم ذاهلين تتنازع افئدتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل .

وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فها هم أولاء المصريون تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم على الأجانب ، ولن يطيقوا بعد اليوم أى جنوح إليهم ، وها هى ذى انجلترة تتحفز وتتربص ، ثم ها هى ذى فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها وهنالك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد سلطانها فى مصر سيرته الأولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبيها .

والربان غير عليم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم من ذلك يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلص من شريف وهو أحوج ما يكون إليه ، وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقاً أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على تناسى ما لحق بمنصب الخديوية من هوانٍ صغر به فى أعينهم ؛ ولكن

توفيقا غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رآه من إقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة .

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضا يجارى الخديو فى استكثاره الدستور على المصريين فيقنع بما لا يقنع به وطنى مكتفياً بمبدأ مسؤولية الوزارة عن أعمالها مستغنياً عن مجلس شورى النواب الذى يحرص عليه الوطنيون كل الحرص .

وجاء قانون التصفية فى عهد رياض فازداد به الوطنيون آلاماً على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى فى إلغاء دين المقابلة ، وقد أخذ من جيوبهم ، كما رأوا فيه ما هو أكثر من الغبن ألا وهو عدم تنازل الأجانب عن شىء من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض الأموال ومبلغ ما كان يصل مصر منها ؛ وهم يعلمون كذلك ما كان من مجازفة الأجانب بأموالهم مما يلقى عليهم كثيراً من التبعة ؛ هذا إلى أنهم رأوا مرتبات الموظفين الأجانب فى الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع ، فلم يدر بخلد من وضعوا تلك التصفية أن يراعوا ذلك فى قرارهم فينزلوا بها إلى الحد اللائق ...

تلك هى الحركة الوطنيـة ، أو تلك هى نذر الراجفة ، وما كانت الحركة العسكرية التى بدأت فى عهد إسماعيل واستفحل أمرها فى عهد توفيق إلا بعض هذه الحركة الوطنية العامة ، حتى قدر أن يكون لها القيادة آخر الأمر وأن تسمى بالثورة العرابية نسبة إلى الجندى الوطنى الثائر أحمد عرابى .
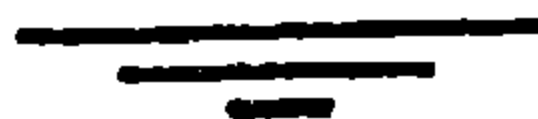
الجندى الثائر

بدأت الثورة العسكرية كما أسلفنا فى عهد إسماعيل ، وكان أول مظهر لها ذلك الحادث الذى اعتدى فيه فريق من الضباط على نوبارأمام وزارة المالية ؛ وكان ما دفع الضباط إلى ذلك الحادث فى الواقع أو ما جعل التحريض أيا كان مصدره ، يحدث أثره فيهم ، ما لحقهم من الضيق بسبب الاستغناء عن عدد كبير منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم ، بينما كان لا يلحق بالشراكسة فى الجيش شىء من هذا ...

ويذكر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى » حركة لنفر من الضباط المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٨٠ ، وكان من بينهم أحمد عرابى . وخلاصة هذه الحركة كما يصفها بلنت ، أن هؤلاء الضباط قدموا شكوى إلى وزارة الجهادية من تأخر مرتباتهم ؛ ونظرت الوزارة فى الأمر ، وكان قنصلا إنجلترة وفرنسا قد تدخلا فيه وألفت لجنة لتحقيق المسألة ، وقد أقرت هذه اللجنة مطالب الضباط ، ولكن رياضاً ووزيره رأيا فى ذلك العمل القانونى حركة جريئة ، وخروجاً على النظام .

ويقول بلنت إن قنصل فرنسا البارون دى رنج أبدى كثيراً من العطف على هؤلاء الضباط ، وأصبح محبوباً لديهم ، وكان بين هذا القنصل وبين رياض كثير من الحزازات ...

وكان لعرابى كما يذكر بلنت نشاط ملحوظ فى هذه الحركة ، ولكنه كان معتدلا حتى لقد اكتسب باعتداله ثناء القناصل عليه .

ويتهم بلنت الخديو بأنه وجد فى هذه الحركة فرصة للدس والكيد لوزيره رياض ، فاتصل بالضباط وكان رسوله إليهم على فهمى رئيس الآلاى الأول لحرس الخديو ؛ وكان على فهمى صديقاً لعرابى وإن لم يكن له ضلع فى هذه الحركة ولا وجهة معينة فى السياسة .

ويذهب بلنت إلى القول بأن توفيقاً أخبر الضباط على لسان على فهمى بأن رياضاً ووزير الجهادية يبيتان لهم الكيد ، وأنهم إن لم يعملوا على إقصائهم عن مناصبهم حاق بهم السوء ، ولن يبخل الخديو بمعاونتهم لأنه يعطف على مطالبهم ...

ولو صح هذا الذى يرويه بلنت لكشف لنا عن جانب من ضعف توفيق ، ذلك الذى يستعين بالضباط على وزيره ، لأن يده كانت مغلولة عنه بسلطة الأجانب .

ولكن هذا الذى يذكره بلنت لم يرد ذكره فيما كتبه عرابى فى مذكراته ، ولا فى ذلك الموجز الذى كتبه لبلنت فأثبته فى آخر كتابه ، وما كان عرابى ليسهو عن أمر كهذا لا يخفى ما له من أهمية .

وكذلك لم أقع على ذكر هذا الذى ينسب إلى الخديو فيما تناولته من الكتب التى عنيت بتفاصيل الحركة العسكرية ، ولعل بلنت ينفرد بهذه الرواية .

على أن مسلك الخديو لو صحت الواقعة أمر لا يستغرب ، فقد استعان إسماعيل نفسه بالضباط على نوبار وزميليه من قبل ، إذ عجز عن مناوأتهم مناوءة علنيـة خوفاً من الأجانب . . .

استغنى عن عدد كبير من الجند الوطنيين فى أوائل عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصرى عما اتفق عليه فى بداية هذا العهد ؛ وولى وزارة الجهادية فى حكومة رياض عثمان رفقى الشركسى ، وكأنما جعل هذا الوزير أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الكيد ، فلقد راح يذيقهم من كيده ونكاله بقدر ما راح يفيض على الشراكسة من عطفه وإحسانه ، ولم يكن ذلك عجيباً من جانبه ، ففى دمه ما فى دم بنى جنسه من بغض قديم للمصريين الذين كانوا فى رأيهم فلاحين لا يصلحون إلا ليكونوا عبيداً . . .

وكان طبيعياً أن يجعل هـذا الوزير الشركسى أكثر الترقيات فى الجيش للشراكسة ؛ وأخذ عثمان رفقى يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكى يبقى الشراكسة فى الجيش هم العنصر الذى يسود ...

أما عن كبار الضباط فقد بدأ بعزلهم أو بقصيهم عن مواضعهم ، كما حدث

فى أمر أحمد عبد الغفار قائمقام السوارى ، إذ عزله رفقى وعين مكانه أحداً شراكسة وهو شاكر طمازه ، وكما حدث فى نقل عبد العال حلمى إلى عمل فى ديوان الوزارة ووضع شركسى مكانه طاعن فى السن لا كفاية له وهو خورشيد نعمان .

وأما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم فى أعمال لا تمت بصلة إلى الجندية كحفر الترع والزراعة فى أرض الخديو وغير ذلك ؛ ومما هو جدير بالذكر هنا أن عرابيا عارض معارضة شديدة فى أن يعمل جنوده فى حفر الرياح التوفيقى ، وهذا بلا شك موقف من مواقف شجاعته ، تلك الشجاعة التى يأبى خصومه أبداً إلا أن يروها تهوراً ، والتى نراها فى أكثر الأحوال على خير ما تكون شجاعة أولى الحمية والإخلاص من الرجال ؛ وأى مأرب كان لعرابى فى مثل هذا الموقف وفيم تكون معارضته فى أن يسخر جنده فى مثل تلك الأعمال إذا لم يكن مبعثها الإنصاف والغيرة ؟ وما يكون إنصافه وغيرته فى موقف كهذا إلا بسالة وإقداماً .

وكان رجال الجيش بوجه عام يحسون قلة عناية الوزارة بالأمور العسكرية بل كانوا يلمسون إهمالها هذه الأمور فى الوقت الذى أولت فيه شيئاً من عنايتها غيرها من المسائل . . .

ولو أن الوزارة عالجت هذه الحال بما يقتضيه العدل والإنصاف لما قدر للحركتين الوطنية والعسكرية أن تمتزجا فيكون منهما تلك الثورة التى اقترنت باسم عرابى ؛ لكن كان دون علاجها عقبات ؛ فهناك تعصب رفقى وغطرسته ، وجهل رياض بالشؤون الحربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجند ، لأنه كان يترفع عن الفلاحين جميعا ؛ ثم هناك دسائس الشراكسة فى الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الكيد الذى لم يكن يفتر ...

علم عرابى بما أراده عثمان رفقى بكل من أحمد عبد الغفار وعبد العال حلمى قبل أن ينشر ، إذ كان مدعوا إلى وليمة بدار أحد الباشوات ، وقد أنبأه هناك أحد أصدقائه بما اعتزمه رفقى فقال عرابى مغضباً « إن هـذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها » كما جاء فى مذكراته ، ويقول عرابى فى تلك المذكرات « وبعد

تناول الطعام جاءنى ضابط وأخبرنى بأن كثيراً من الضباط ينتظروننى بمنزلى فتوجهت إليهم فى الحال فوجدت من ضمنهم الأميرلاى عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى السودانى الكائن مركزه فى طره ، والبكباشى خضر أفندى من الآلاى المذكور أيضاً ؛ وعلى بك فهمى أميرلاى الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد من الآلاى المذكور ؛ والبكباشى ألنى أفندى يوسف من الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى ؛ والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الآلاى السوارى وغيرهم . وكانوا جميعاً فى هياج عظيم إذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل إرسالها إليهم ، فلما رأونى أفضوا إلى بما سمعته من نجيب بك وإسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم قد سمعت هذا من غيركم فماذا تريدون ؟ قالوا وليس الأمر كذلك فقط ، بل إنه قد كثر اجتماع العنصر الجركسى فى منزل خسرو باشا الفريق وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ويلعنون خيرى بك لتسليمه وإذعانه للسلطان سليم ؛ ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم ؛ وأنهم لا يغلبون من قلة ؛ وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل ؛ ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الأنباء ممن يوثق بخبره ؛ فقلت وماذا تريدون إذاً ؟ فقالوا إنما جئناك لنرى رأيك ؛ فقلت رأيى أن تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا إليهم النظر فى مصالحكم ؛ وهم يتخذون من بينهم رئيساً لهم يثقون به كل الوثوق ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم إذا أرادت الحكومة به شراً ، فقالوا كلهم إنا فوضنا إليك هذا الأمر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك . فقلت كلا ، بل انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى ؛ فقالوا إنا لا نبغى غيرك ولا نثق إلا بك ، فأبنت لهم أن الأمر عصيب ولا يسع الحكومة إلا قتل من يتصدى له فقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم أقسموا لى إذا على ذلك فأقسموا ؛ وفى الحال كتبت عريضة إلى رئيس النظار مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب

عثمان وفقى باشا لجنسه وإجحافه بحقوق الوطنيين وطلبت فيها : أولا : عزل ناظر الجهادية المذكور وتعيين غيره من أبناء الوطن عملا بالقوانين التى بأيدينا ؛ ثانيا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الأمة تنفيذاً للأمر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية ؛ ثالثا إبلاغ الجيش العامل إلى ١٨,٠٠٠ تطبيقاً للفرمان السلطانى ؛ رابعاً : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعدل والمساواة بين جميع الوظفين بصرف النظر عن اختلاف الأجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مسامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختمى وختم على بك فهمى وعبد العال بك حلمى ؛ وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء إذا حدث أى حادث من الضباط الجراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ البنوك وبيوت التجار الأجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ؛ وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة إذا أرادت الإيقاع بنا وارفض الاجتماع على ذلك » .

ويتضح من اجتماع الضباط بمنزل عرابى على هذه الصورة وفيهم من لم ينلهم فى أنفسهم شىء من الأذى أن السخط على رفقى كان من كل قلب ، وأن المسألة فى حقيقتها كانت شعوراً قوميا تجاه تعصب هؤلاء الشراكسة ، وعلى رأسهم كبيرهم الذى يمكن لهم على حساب المصريين أو الفلاحين كما كانوا يسمونهم ، وفى هذا أبلغ رد على الذين تشاء لهم أهواؤهم أو يدفعهم جهلهم إلى تشويه ما كان يدفع عرابيا إلى التمرد من نبيل الشعور ، وذلك بقولهم إنه كانت تحركه دوافع شخصية .

ويجدر أن نبين هنا لماذا انضم إليهم رجل مثل على فهمى وقد كان فى حرس الخديو ؛ والواقع أنه فعل ذلك نتيجة لسياسة رفقى كذلك ، فقد وشى به رفقى عند الخديو حتى غيره عليه ، وأحس فهمى أن مكانته عند توفيق لم تعد كما كانت ، فانطوت نفسه على الضغن وصمم على أن ينتقم من رفقى متى سنحت الفرصة ؛ وما لبث أن أحس مثلما كان يحسه عرابى من كراهية هؤلاء الشراكسة جميعاً ،

والتعصب للقومية المصرية ، وهو بلاريب نتيجة لتأثره بشخص عرابى بعد مصاحبته وتفطنه إلى ميوله وأفكاره .

يذكر عرابى فى مذكراته هذه أنه قد جاء فى الشكوى تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش ؛ ويذكر ذلك أيضاً فى التاريخ الموجز الذى كتبه عن نفسه وأثبته بلنت فى آخر كتابه ، ولكنى لم أقع فى مصدر آخر على أن العريضة احتوت المطالبة بتشكيل مجلس نيابى وزيادة عدد الجيش ؛ ولقد علق بلنت على ذلك قائلا : « أظن أن عرابياً قد وقع هنا فى خطأ نخلط بين ما احتوته العريضة وبين هذين المطلبين اللذين جاءا فيما بعد يوم ٩ سبتمبر ؛ ولكن عرابياً أصر على أن المطالب الثلاثة جاءت أول ما جاءت فى فبراير وأنها كتبت يومذاك » . وقد عرض بلنت ما كتبه عرابى عن تاريخ حياته على الشيخ محمد عبده سنه ١٩٠٣ فى منزله بعين شمس فأقر أكثره ولكنه وضع ملاحظاته على بعضه ومنه محتويات تلك الشكوى ويؤكد الشيخ عبده أنه لم يكن فى تلك الشكوى أية إشارة إلى تشكيل مجلس نواب أو إلى زيادة عدد الجيش .

ويقول كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » « لقد جاء فى العريضة أن وزير الحرب عثمان باشا رفقى عامل الضباط المصريين فى الجيش معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ؛ وقد سلك فى ذلك مسلكا كما لو كان هؤلاء أعداءه أو كما لو أن الله قد أرسله ليصب غضبه على المصريين ؛ وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانونى وعلى ذلك فقد طلب الشاكون مطلبين : أولهما أنه يجب إقصاء وزير الحرب لأنه غير كفء لهذا المنصب العالى ؛ وثانيهما أنه يجب أن يجرى تحقيق يتناول مبلغ كفاية الذين ظفروا بالرقى » .

هذا ما ذكره كرومر عن محتويات الشكوى ولو أنه كانت بها إشارة إلى ذينك المطلبَين اللذين أشار إليهما عرابى ما أغفلهما كرومر لما يكون لمثلهما من خطر فى ذلك التاريخ الذى يكتبه ...

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية » « ويلوح

لنا أن ورود هذه المطالب كلها فى عريضة الضباط أمر مبالغ فيه ومشكوك فى صحته ، فالمستر بلنت —وقد قص له عرابى واقعة قصر النيل— يقول إن العريضة كانت مقصورة على عزل عثمان باشا رفقى من منصبه ، والشيخ محمد عبده ينفى رواية عرابى ويقول إن العريضة تتضمن الشكوى من الحيف الذى وقع بالضباط من عثمان رفقى وطلب عزله ، وإنه لم يرد بها أية إشارة إلى الدستور أو إلى زيادة الجيش إلى ١٨٫٠٠٠ جندى ؛ وقال على باشا فهمى فى استجوابه إن العريضة مقصورة على طلب عزل عثمان رفقى ، وذكر البارون دى رنج قنصل فرنسا العام فى مصر فى رسالته عن واقعة قصر النيل أن العريضة مقصورة على إعادة قائمقام الفرسان » ويرى الأستاذ الرافعى أن عرابياً « حين كتب مذاكراته بعد وقوع حوادثها بسنين خلط بين مطالب الضباط فى واقعة قصر النيل ومطالبهم بعد انتصارهم فيها » .

وأنا أميل إلى ما ذهب إليه الرافعى ؛ وأحس أن عرابياً لم يعن بالدقة فى بعض تفاصيل هذا الحادث ومنها ما احتوته العريضة ، فقد ذكر فى ذلك التاريخ الموجز الذى كتبه لبلنت بناء على طلبه أنه علم فى بيت نجم الدين باشا أن عثمان رفقى كان ينوى عزله وعزل عبد العال ، وهذا يخالف ما جاء فى مذكراته ؛ وكذلك جاء فى ذلك الموجز أن عبد العال اقترح عليه حينما وافاه ومن معه فى منزله الذهاب إلى بيت عثمان رفقى والقبض عليه أو قتله ، وأنه رد على عبد العال قائلا « كلا ، بل نشتكى إلى رئيس الوزراء ، فإن لم يقبل فإلى الخديو » ؛ وهذا أيضاً يخالف ما جاء فى المذكرات ، ومنه يحس المرء أن عرابياً كان يكتب من ذاكرته أحياناً ولذلك كان يختلط عليه الأمر فى بعض المسائل .

ومهما يكن من أمر محتويات العريضة ، فالذى تكاد تتفق عليه الروايات أن الضباط طالبوا بعزل عثمان رفقى من منصبه وليس هذا بالأمر الهين ، بل إنه لجرأة عظيمة فى عهد كذلك العهد ...

يذكر عرابى فى مذكراته أنه بين للضابطين خطورة الحركة ، ولكنهما

أصرا عليها فطلب إليهما أن يقسما أمامه أن يخلصا له النية ؛ ولنا أن نتساءل هنا لم اختير عرابى قائداً لهذه الحركة دون غيره ، وقد كان فهمى فى حرس السراى وله صلات برجال الحاشية ، ولم يكن عبد العال دون عرابى مرتبة وخبرة ؟ لم عقد الضباط اجتماعهم فى داره وأرسلوا يطلبونه وقد نمى إليهم مما يدبر رفقى ما نمى ؟

إن اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوى لا ريب على معنى ؛ فما ولدت الزعامة فى الغالب إلا على هـذه الصورة ، ففى ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتجتمع عليـه القلوب والأهواء فى لحظة لا يكون للتنافس الشخصى فيها مجال ؛ وهذا فى رأيى من أفضل مقاييس الزعامة وبخاصة إذا كان من يختار معروفا من قبل لمن يختارونه : فلا يكون إقبالهم عليه إعجابا وقتيا لا يلبث أن يتبين خطأهم فيه .

ولن يشذ عرابى عن هذه القاعدة ، فإنمـا اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات الجرأة والحماسـة والإخلاص ، ولـما عهدوا ما عليه من الصـدق وحسن الطوية ؛ هذا إلى أنه كان يفوقهم من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء ألا وهى فصاحة اللسان ، فلقد كان هـذا الرجل الذى جعل الجهل فى مقدمة عيوبه أفصح الضباط لساناً ، ولقد كانت الخطابة إحـدى مواهبه حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد ، لا فى الجيش فحسب ، بل بين المواطنين جميعاً ...

وامتاز أحمد عرابى بشىء آخر لعله خير ما امتاز به ، وذلك أنه كان أكثر المصريين فى الجيش سخطا على الشراكسة وأشدهم نفوراً منهم ، وأعظمهم اعتزازا وشعوراً بقوميته ، وهذا لعمرى ما سوف يظل التاريخ يذكره عن هـذا الرجل الذى جهله أكثر بنى قومه زمناً طويلا ، وماستظل الأجيال تزداد منه وثوقا حتى يغدو هذا المصرى الفلاح من أحب زعماء مصر إلى قلوب أهل مصر ...

وما كان اضطغان عرابى على الشراكسة لدافع شخصى ، فهو مصرى قبل كل اعتبار وما يلحقه من أذى أو احتقار على أيدى هؤلاء إنما يناله رجلا وينالهمصريا فى وقت واحـد ؛ ولم يقف سوء معاملاتهم عنده حتى يقال إنه غضب لما

لحقه ، وإنما كانت سياسة الشراكسة تعصباً لجنسهم على حساب المصريين ، فكان هذا الضابط المصرى أكثر أقرانه من المصريين نخوة وأعزهم نفساً ، وفضلا عن هذا كله فقد حظى عرابى نفسه فى أوائل عهد توفيق بالرقى إلى مرتبة أميرآلاى ، وكان ذلك كفيلا أن يزيل ما عسى أن يكون قد بقى فى نفسه مما لحقه من أذى في عهد إسماعيل .

أعد الضباط عريضة بمطالبهم ووقع عليها عرابى وزميلاه ، وذهب ثلاثتهم فرفعوها إلى رياض باشا فى منتصف يناير سنة ١٨٨١ وإنهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة فى ذلك الوقت ، وكان عرابى هو الذى يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعا ، كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلين له كذلك فى مستهل الثورة الثانية إلى مقر المعتمد البريطانى يرفع مطالب مصر عقب الهدنة التى ختمت بها الحرب العالمية الأولى ...

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما كان من عدالة ما تحتوى من المطالب وكان يلقى فى السجن أو يحكم بالنفى على من يخطون مثل هذه الخطوة ، كما حدث للسيد حسن موسى العقاد فقد نفى إلى السودان لأنه انتقد إلغاء قانون المقابلة على الصورة التى جاءت بها لجنة التصفية ، وكما حدث لكثيرين غيره ممن أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة .

وقابل رياض الضباط مغيظا محنقا وخاطبهم فى كبرياء وغلظة كما يقول عرابى فقال لهم فيما قال « إن أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطراً من عريضة أحمد فنى الذى أرسل إلى السودان » .

وكان هذا الفتى قد نفى كذلك لأنه طلب المساواة فى المعاملة بغيره من موظفى الديوان محتجا على ما كان يجرى من صور المحسوبية ، وقد قضى فى منفاه نحبه .

يقول عرابى « فأجبته بأننا لم نطلب إلا حقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر ؛ وإنا لنعتبرك أبا للمصريين فما هذا التلويح والتخويف ؟ فقال ليس فى البلاد من هو أهل لأن يكون عضوا فى مجلس النواب ، فقلت له إنك مصرى وباقى

عبد العال حلمى
المصرى

أحمد عرابى
المصرى سنة ١٨٨٢

على فهمى
المصرى

النظار مصريون والخديو أيضا مصرى ، أنظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا فإن فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضوا فى مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر وكأنما كبر لديه ما سمعه منا ، ثم قال سننظر بدقة فى طلباتكم هذه فانصرفنا على ذلك » .

ويتضمن كلام عرابى هذا أنه طالب بمجلس للنواب ؛ ولكن بلنت يورد الحادث فى كتابه على صورة أخرى قائلا إنه يورده كما علمه من عرابى ؛ قال عرابى فى رواية بلنت ما ترجمته « ذهبنا بعريضتنا إلى وزارة الداخلية وطلبنا أن نقابل رياضا فأدخلنا حجرة خارجية ودخلنا ننتظر حتى قرأ الوزير العريضة فى حجرة داخلية ؛ ثم ما لبث أن جاء إلينا يقول إن عريضتكم مهلكة ، ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانها ، ومن تقترحون ليدير شؤون الحكومة ؟ وأجبته قائلا يا سعادة الباشا هل مصر امرأة ولدت ثمانية أبناء ثم عقمت ؛ وقد أردته بهذا والوزراء السبعة تحت إمرته » .

واشتد غضب رياض لمطالبة الثائرين بعزل عثمان رفقى فقد رأى فى هذا الطلب نوعا من التمرد الجرىء إذ ما دخل الجيش فى سياسة الحكومة حتى يطالب بعزل وزير من الوزراء ؛ وكانت الحكومة لا ريب محقة فى هذا الغضب ، ولكنها لم تسلك إزاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة ، فكان عليها أن تنظر فى مطالب الجيش فتجيب منها ما يزيل أسباب الشكوى ، ثم تقنعهم بعد ذلك بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفقى .

سكت رياض أسبوعين وهو يحاول إقناع الضباط بسحب العريضة ولكنهم يصرون عليها ؛ وغضب الخديو أشد الغضب وأشار عليه بعض المحيطين به باتباع العنف نحو الضباط ؛ ثم نمى إلى رياض أن سكوته قد يفسر بأنه ممالأة للجيش وعدم موالاة للخديو ؛ ويقول بلنت فى كتابه إن الخديو من ناحيته أراد أن ينتهز هذا

الحادث للانتقام من رياض فيوقع العداوة والشحناء بينه وبين رجال الجيش ؛ وكان من رأى رياض ألا يجعل من المسألة قضية تتجه إليها أذهان الناس ، كما أن رفقياً كان يخشى أن تظهر المحاكمة سوء سياسته .

ولما فطن رياض إلى ما قد يفسر به سكوته وافق على محاكمة الضباط ، ووقع الخديو على أمر بمحاكمتهم ، ودعى وزير الجهادية الضباط الثلاثة إلى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف إحدى الأميرات ؛ فأخذتهم من الدعوة ريبة إذ لم تجر العادة بمثل هـذا ، وأخذوا للأمر ما يجب من حيطة ، فاتفقوا مع فرقهم أن تذهب إليهم إذا تأخرت عودتهم عن ساعتين ، ثم ذهبوا إلى حيث طلب إليهم أن يحضروا ...

وكان الضباط فى الواقع على علم بما دبر لهم ، فلم يكن من العسير عليهم فى مثل ذلك الموقف أن يدركوا ما عسى أن تبيته لهم الحكومة من كيد ؛ ولقد قيل إن قنصل فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة النية عليه .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون وزارة الجهادية وكان ذلك أول فبراير سنة ١٨٨١ حتى ألفوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من الشراكسة فقبض عليهم وانتزعت منهم سيوفهم وأودعوا السجن وهم يسمعون عبارات السب والشماتة يقذفهم بها هؤلاء الشراكسة الأجلاف وكانت كلمة «فلاح» أكثر ما أطلق به ألسنتهم هؤلاء السفهاء من الشراكسة ، وقد ساء وقعها فى نفوس الضباط الثلاثة وفى نفس كل من علم بها من المصريين . وكان دخولهم السجن توطئة لمحاكمتهم فقـد انعقد لهم مجلس عسكرى يحاكمهم برياسة رفقى نفسه .

وعين رفقى ثلاثة غيرهم على آلاياتهم فأحل محمود طاهر محل عرابى ، وخورشيد نعمان محل عبد العال حلمى وخورشيد بسمى محل على فهمى ، وعمل رفقى على تنفيذ هذا الأمر ساعة صدوره ...

***

شاع الخبر فى الجند الوطنيين فثارت ثائرتهم ، وكان أكثرهم جرأة وإقداماً

ووفاء الضابط الباسل محمد عبيد بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان فى آلاى على فهمى بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادى جنده نداءه العسكرى ، فاحتشدوا فأمرهم بالسير إلى قصر النيل ، فاعترضه خورشيد بسمى ذلك الذى حل محل فهمى فلم يستمع محمد عبيد إليه ، بل لقد أعتقله فى إحدى حجرات القشلاق ؛ وشهد الخديو تأهب الجند للسير فأرسل إليهم الفريق راشد باشا حسنى سير ياوره ليصدهم عن سبيلهم فما استمعوا له ؛ وأرسل توفيق يستدعى عبيداً وبعض إخوانه فرفضوا أن يذهبوا إليه ...

وأحكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقى بالهرب من إحدى النوافذ فى صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته ، واعتدى الجند على أفلاطون باشا وستون باشا وبعض من صادفهم من الضباط الأجانب ، وما زال عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنوده وراحوا يحطمون الأبواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق سراحهم ...

وتحرك آلاى طرة قاصداً قصر النيل ، واستمر رجاله فى سيرهم على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد خلى سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضر أفندى خضر ينهاه عن الحضور ؛ وتوجه خضر إلى عابدين وقد علم أن عرابياً وصاحبيه قد ساروا إلى هناك .

ولم يتخلف إلا آلاى العباسية وهو آلاى عرابى نفسه ؛ وقد ندموا بعد ذلك على قعودهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ثم جاءوا عشاء إلى عابدين فألقوا معاذيرهم بين يدى عرابى وأكدوا له الولاء .

ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرابى موقفه هو وزميليه بعد أن دخلوا السجن قال « ولما أقفل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار ؛ ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة فشجعته متمثلا بقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

وتمثل عرابي بأبيات أخرى نسبها إلى السيدة زينب رضى الله عنها إلى أن قال « فلا والله ما كانت إلا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديو وأحدق رجالها بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعاً إلى سراى عابدين » ...

وإنما نورد هنا ماذكره عرابي لأنه من جهة يصورلنا جانباً من شخصيته وناحية من ثقافته ، ويرينا نزعة اتكاله على الله ، تلك النزعة التى سوف لا تنخلع عنه حتى بعد أن تنخلع عنه عزيمته عند انصراف أنصاره عنه عقب مأساة التل الكبير ، ثم لأن كلامه من جهة أخرى متفق مع مايقول الرواة فلاضيرأن نورد القصة على لسانه .

* * *

ذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الأسر إلى الخديو يسمعونه شكواهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الثائرين ولو أدى الأمر إلى إطلاق النار عليهم وقال البعض إن من العبث أن تلجأ الحكومة إلى البطش وليس لديها وسائله ، فالفرق جميعاً تؤيد عرابياً ومن معه . والرأى أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفىء بذلك نار الفتنة ؛ وكان مما أشاروا بهذا الرأى محمود سامى البارودى الذى سوف يغدو من زعماء العرابيين ...

وتغلبت الحكمة على الطيش ، ووضع اللين فى موضع البطش ، فأوفد الخديو إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم بأجابته مطلبهم الأول فقد عزل رفقى ، وطلب إليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعودوا إلى الشكوى فوقع اختيارهم على البارودى ؛ ووعدهم الخديو أن ينظر فى بقية مطالبهم وأن يعمل على إنصافهم بعد أن أعادهم إلى مناصبهم والتمس الضباط الإذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أعربوا له عن امتنانهم وصادق ولائهم لشخصه وعظيم إخلاصهم لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين .

ولقد كان على الخديو أن يتدبر فى الأمر منذ بدايته وينظر ما إذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة إن كان لا بد من وضع العنف موضع العدل ؛ فأن عدم القوة كان أمامه أن يلجأ إلى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ؛ ولكنه تصرف على نحو ما رأينا فأفضى به تصرفه إلى نتائج خطرة سوف تؤثر أثرها فى مجرى الحوادث ، فظفر الجند بمطالبهم فى عنف ، وعجز الحكومة عن مقاومتهم وسلوكها ذلك المسلك الشائن قد وضع الخديو وحكومته فى موضع الضعف وأحل عرابياً وحزبه محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الأمل والرجاء ، هذا إلى ما تركه هذا الحادث من سخيمة فى نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاهم ، ويسهل أن يلبس فيها كل حق بالباطل ، وما بثه من جذر وريبة فى نفوس الجند بحيث يرون فى كل حركة من حركات الحكومة شبح الغدر ويلبسان كل عمل من أعمالها ثوب الرياء ...
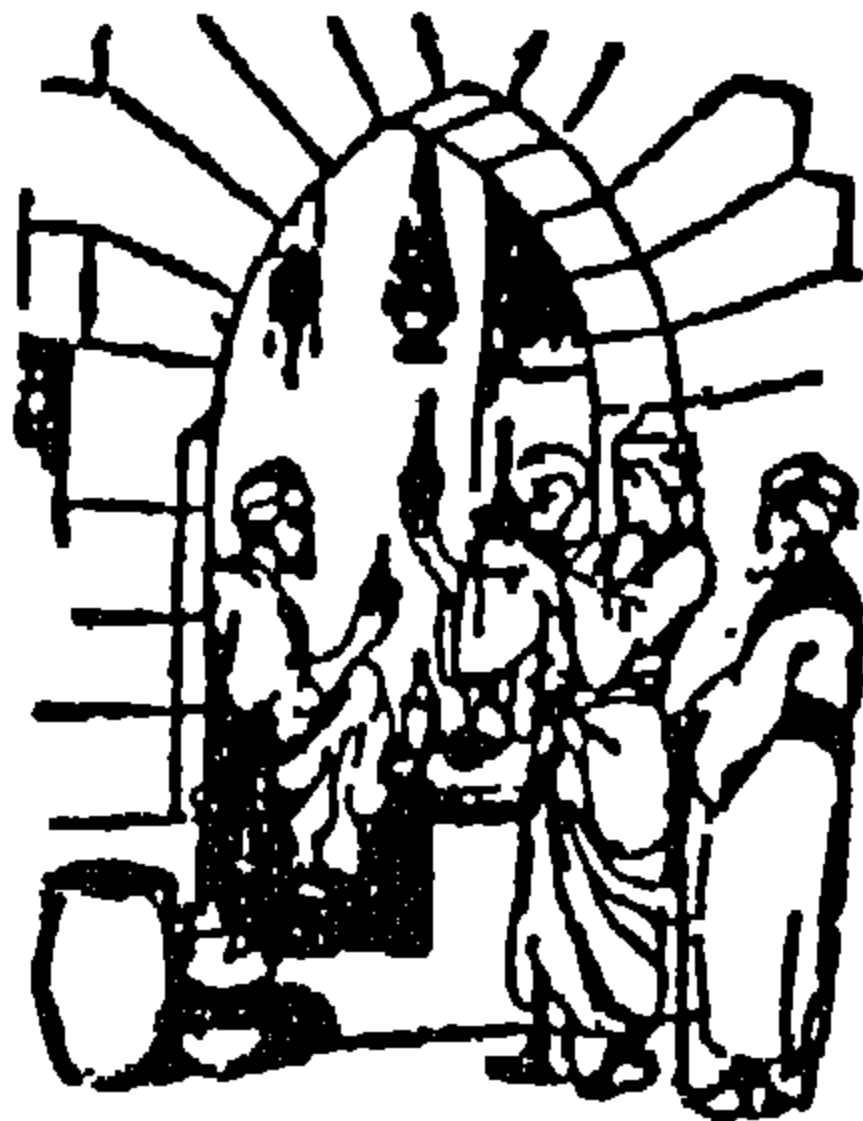
الفلاح الزعيم

أدى حادث قصر النيل وانتصار عرابى وزميلاه على هذه الصورة التى وصفنا إلى ذيوع صيت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح قبله فى مصر منذ قرون ، فما يذكر تاريخ مصر منذ أن منيت بالفتح والقهر أن قام من بنيها رجل من أعماق القرى فتمرد على ما يعتقد أنه ظلم يحيق به وببنى جنسه ، كما تمرد وأجترأ هذا الفلاح فأبعد من الوزارة شركسياً قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو إملاء ونال بغيته غلاباً ، ولم يك بالذى يغفل عما كان عسياً أن يؤدى إليه صنيعه هذا من هلاك ...

والحق أن هذا العمل يومذاك كان بالغ الجرأة ، فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه وجاهه ، ويرون فيه سيداً وضعه الخليفة حيث كان ليطاع ولتعنو له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقر سلطانه رجل نشأ فى قرية ومن ورائه جند فلاحون مثله فيقولون له نحن نريد ونحن نطلب ثم يظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسسهم العذاب الأليم ...

وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل لسان فى القاهرة وسمع بذلك الاسم من لم يسمع به من قبل من الأجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين .

ولم يقف الأمر عند القاهرة ، فقد رن هذا الاسم فى القرى وتغلغل فى أعماقها فأفاق على رنينه أولئك الأعيان والأشياخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للأتراك والشراكسة الذين كانوا ينظرون إلى الفلاحين جميعاً مهما يكن من ثراء بعضهم نظرتهم إلى دوابهم ، والذين كرههم الفلاحون بقدر ما خافوهم ولكنهم لم يجدوا من الإذعان لهم من بد ...

عجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو والرؤساء

الشراكسة ، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه ، ورغب الكثيرون منهم فى رؤيته ، فقدموا إلى القاهرة يحملون إليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم إياه وإعجابهم بعبادته التى كان قوامها إنصاف الفلاحين فى الجيش ، وراح عرابى يخطبهم شاكراً إياهم باثاً فيهم روح الحرية والإباء .

وليت شعرى ماذا تكون الزعامة إذا لم تكن هذه زعامة ؟ ألسنا نرى الآن فى عرابى شخصيتين : شخصية الجندى الذى يسير بمطالب الجند على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها أجيالا طويلة ؟ ألا إنى لألمس فى تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عرابى أول مؤذن به ؛ ألمس ذلك الفجر الذى سوف ينبلج صباحه بعد قليل على صيحة أخرى كانت صدى لهذه الصيحة هتف بها فلاح آخر برز من القرى كما برز عرابى ، وذلك هو سعد ابن مصر العظيم واحد أبطالها ومفخرة رجالها ...

ولئن كان جمال قد أيقظ النائمين فى المدن ، فإن عرابياً قد بعث بإقدامه أهل القرى من مراقدهم ، فإن عمله هذا أوحى إليهم أنه من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ بأنفه على أولئك الذين طالما استذلوا فى مصر الرقاب ...

واتى عرابى وقد أصبح فى رأى الناس حامى الأمة من المظالم تأييداً من العلماء الذين أعجبوا بجرأته وحميته ...

ولم يبلغ عرابى هذه المكانة فى نفوس الناس بعلم اشتهر به أو فلسفة عمل على تمكينها فى النفوس ، أو آراء فى الإصلاح والنهوض عمل على إذاعتها فى الناس كما فعل جمال الدين وكما فعل من بعده تلميذه محمد عبده وإنما بلغ عرابى ما بلغه من الصيت بحميته وغيرته ثم بصلابة عوده وجرأته ، وكانت تلك الخلال هى أخص ما يُطلب يومذاك ، حيث كان يحيط بالناس البطش والتخويف ويقعد بهم الذل والخوف .

وعلى الذين ينكرون أقدار الرجال أن يتدبروا فى موقف عرابى هذا ، ثم لينظروا بعد ذلك هل كان صنمه ضئيلا كما يزعمون ، ولكنا لا نوجه القول

إلى هؤلاء وأمثالهم ممن يكتمون الحق وهم يعلمون ...

وهل ذاع صيت ميرابو واغتدى فى قومه زعيما بفلسفته وثقافته وهو الفكر الواسع الأفق ، أم كان ذلك بصيحة منه تحدى بها القوة فملأت أسماع قومه ونفذت إلى كل قلب فى فرنسا يؤمن بالحرية ، يوم كانت فرنسا فى مفرق الطرق إما إلى الحرية وإما إلى العبودية ؟

ولو أن جاندارك كتبت ألف كتاب أو خطبت الناس ألف خطبة ، أكان ذلك يساوى لبسها الدرع واعتلاءها صهوة جواد وسيرها تقود الرجال مؤمنة إما إلى القبر وإما إلى النصر ؟

إن الخطوة الأولى فى كل حركة تتطلب إقداماً وبسالة كانت وما تزال هى التى تنقل التاريخ من صفحة إلى صفحة ، وما يغفل عن قيمة الإقدام وخطره وبعد أثره إلا مكابر جحد به واستيقنته نفسه ...

وما ندعى أن عرابياً قد اتفقت له صفات الزعامة كلها أو أكثرها ، ولكنا منه تلقاء صفة لن تقوم بدونها زعامة ، تلك هى الشجاعة التى يأبى معها الرجل أن يذل ، ويزيد فى جلال هذه الشجاعة بروزها فى وقت كذلك الوقت الذى نتحدث عنه ، ذلك الوقت الذى لم يكن يجد فيه الشجاع إلا قليلا ممن يتأسى بهم أو يسير على نهجهم ، والذى ألِفَ فيه الذل حتى نسى الناس أنهم فى ذل ، والذى لم يكن فيه لذى النخوة عاصم من قانون أو دستور أو رأى عام ، أو ما إليها مما يستعصم به الناس اليوم من جور الطاغين ومكر المستبدين .

يقول بلنت فى كتابه « كان تاريخ هذه القلاقل العسكرية فى قصر النيل هو أول فبراير سنة ١٨٨١ ؛ وقد حدث وكنت لا أزال فى مصر ولكن بعد أن غادرت القاهرة ، ولست أتذكر أنى سمعت اسم عرابى يذكر قبل حدوثها ؛ ولكن الدور الذى لعبه فى ذلك اليوم قد أكسبه شهرة سريعة ، وسرعان ما صار اسمه على كل لسان ، اسم رجل نجح فى تحدى الحكومة والظهور عليها وإحداث تغيير فى الوزراء ؛ وأصبح مقامه فى بضعة أسابيع مقام رجل ذى نفوذ وقوة فى

مصر أو على الأقل أصبح يعزى إليه القوة وصارت تتقاطر عليه كما هى العادة فى مصر الظلامات من أناس عانوا الظلم ويطلبون معونته للوصول إلى العدالة ؛ ولقد أذاع صيته خارج القاهرة ظهوره فى ثورته بمظهر الذى يحمى الفلاحين من جور الحكام الذ ـ ا كـمة ، واتصل به كثيرون من الأعيان وأشياخ البلاد ، وكان يرد على كل بما يسمه من رد حسن أو بما يدخل فى طوقه المحدود من عون ؛ وكان يؤثر فى الناس تأثيراً حسناً أينما لقوه بحسن محضره وبابتسامته الجذابة وفصاحته في الحوار ؛ ولقد اتفق كل الاتفاق لعرابى فى مظهره الشخصى من المواهب ما يهيئه إلى ما ندب له من دور يلعبه فى تاريخ مصر ممثلا طبقته ، فهو فلاح كأدق ماتكون صورة الفلاح ، طويل القامة ، ثقيل الساقين ، بطىء الحركة إلى حد ما ، وبهذه الصفات تتمثل لنا فيه قوة البدن الممتلىء التى هى من خصائص الفلاح العامل فى دلتا النيل ؛ ولم يكن له شىء من خفة الجندى وكان فى ملامحه شىء من ذلك السكون الذى أ كسبه الوقار والذى يلمحه المرء فى وجوه أشياخ القرى ، وكانت ملامحه مظلمة فى حال سكونه ، وكانت لعينيه نظرة جامدة كنظرة الحالم ، وليس يفطن المرء إلا حين يبتسم أو يتكلم إلى ما بنفسه من ذكاء عظيم وعطف ، فعندئذ يشرق وجهه كما يشرق المنظر المظلم بنور الشمس ... ويجب أن نذكر أنه فى تاريخ مصر كله ، لم يبرز فى مدى ثلاثة قرون على الأقل فلاح بسيط إلى أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خطرها ، أو إلى أن يصبح داعية إصلاح أو إلى أن يهمس بكلمة تدعو حقاً إلى الثورة » .

والحق أن مجرد غضبة مصرى فى مثل ذلك الوقت لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة التى تبلغ لما أحاط بها من ملابسات حد البطولة ، ولن ينكر على عرابى المصرى الفلاح ما فى غضبته من معانى الزعامة والبطولة إلا مغرض أوجاهل ؛ وهو لم يغضب فحسب ولم يعلن غضبه حتى رأى الخوف فنكص وإنما طالب رئيس الوزراء بما اعتقد أنه الحق غير هياب ولا متلعثم ، وأخذ يعد العدة بعدها لما عسى أن يدبر له من كيد ، ولم يرض من الغنيمة بنجاته مما وقع

فيه ، وإنما ذهب على رأس جنده وحمل الخديو على إجابة ما يريده الجيش ، فأبعد من منصبه ذلك الوزير الشركسي الذى كان يبعد المصريين من مناصبهم لا لشيء سوى أنهم مصريون ...

بهذا الذى فعله ذلك الفلاح الثائر حقت له الزعامة على الفلاحين من بنى قومه ولكن الأمر لم يقتصر على الفلاحين ، فقد بات يخطب وده رجال الحزب الوطنى كما سنبينه فى موضعه .

وأصبح بيت عرابى مقصد الكثيرين من الأحرار كما كان موئل رجال الجيش ، ولم يجعل منه الوطنيون أداة لتنفيذ أغراضهم كما زين البغي أو الجهل لبعض المؤرخين أن يقولوا ، فلقد كان مؤمنا بمبدأ الشورى كإيمانهم به كما كان يكره المستبدين من الشراكسة ومن المصريين أكثر مما كان الوطنيون يكرهونهم ، ولقد تجلى من قبل ميله إلى كل من يعطف على المصريين فى علاقته بسعيد باشا وشدة ولائه له ...

وهكذا أصبح عرابى الفلاح ملتقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ، ولقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى ما يستطيع أن يخفى تلك الغيرة .

ومما ذكره بلنت فى هذا الصدد قوله « وكان توفيق كما رأينا رجلا متقلب الأهواء ، فبينما كان لا يزال ينوى أن يعتمد على الجيش للتخلص من رياض ، كانت تساوره نوبات من الحقد على عرابى لما يرى من سرعة ذيوع صيته وكان هذا الصيت جد ملحوظ طيلة أشهر الصيف وقد أدى إلى اتصاله بعدد كبير من أشياخ القرى وأعيانها أولئك الذين كانت دعوة تحرير الفلاح ، تلك الدعوة التى تولى قيادها ، شيئاً تتوق إليه نفوسهم ؛ وأخذ الناس فى الأقاليم يذكرونه بقولهم « الوحيد » وقد استحق هذه التسمية حقاً فإنه فى مدى عدة قرون الرجل الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذى استطاع أن يقاوم بنجاح طغيان رجال الطبقة الحاكمة من الأتراك والشراكسة » .

آن لمصر بعد طول الذلة أن تجد الرجل الذى يترجم عن آمالها ويدافع عن حقوقها وينطق باسمها فاتجهت كما اتجه الجيش إلى هذا الفلاح الزعيم .

وعندى أن الحركة التى تعد مكملة لثورة عرابى أو بعثاً لها هى ثورة مصر الثانية سنة ١٩١٩ ، وأن الزعيم الذى يلحق جهاده بجهاد أحمد عرابى وتضاف مبادئه إلى المبادىء التى دعا إليها أحمد عرابى هو سعد زغلول الفلاح الزعيم الثانى ولكن فى صورة غير صورة سابقه وفى ظروف غير ظروفه ومجال أوسع من مجاله وإن اتفقا فى روح مبادئهما وقومية بواعثهما وأغراضهما ، كل من الثورة التى حمل لواءها ...

وما ننسى أن سعداً قد أعطى هذا الزعيم الأول حقه إذ كان يستعرض ذات مرة أطوار الوطنية المصرية فذكر له ما لا يمكن أن ينسى له من فضل .

الوطنيون والعسكريون

بينا مبلغ ما أصيب به الأحرار فى آمالهم منذ أن عزل إسماعيل وعين توفيق ، ورأينا ما صدم النفوس من خيبة إذ استكثر توفيق الدستور على مصر ، الأمر الذى أغضب شريفاً فاستقال ، وحل محله رياض …

لم يكن لرياض مثل ما كان لشريف فى قلوب الوطنيين من محبة ، فقد كان على الرغم مما اشتهر به من براعة واستقامه متكبراً محافظاً يسىء الظن بالوطنيين وحركاتهم ويوجس خوفاً منها ؛ كما كان فى خلقه شىء من الغموض والتحفظ فلم يكن له مثل صراحة شريف ولا مثل شجاعته الأدبية وإقدامه ونزعته الدستورية الحرة …

وقد استطاع رياض أن يجعل من نفسه الحاكم المطلق الفعلى للبلاد ، وذلك بضمانه رضاء توفيق ، بأن جعل له حق رياسة مجلس الوزراء متى أراد ؛ وقد حرص فى الوقت نفسه على السير فى إدارة شئون البلاد وفقاً لمبدأ مسؤولية الوزارة عن أعمالها ، ذلك المبدأ الذى قرره إسماعيل فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، والذى بمقتضاه لا يتنصل وزير من مسؤولية عمله برده إلى مشيئة الخديو كما كان الحال قبل تقرير هذا المبدأ …

وكانت تطغى على الرأى العام المصرى روح الاستياء العام ، فكان عهد وزارة رياض كجميع العهود التى تتهيأ فيها الأمم للثورات ، فتكون فى نفس كل امرىء ثورة وإن لم تدر على وجه التحديد ما بواعثها .

والحق أن استياء النفوس هو وليد ما بينا من أسباب تعصب المصريين وسخطهم أثناء حكم إسماعيل باشا ، وجاءت وزارة رياض عقب استقالة شريف من

أجل تمسكه بالدستور فلم يبق مجال للأمل وخيم اليأس على النفوس ، حتى لم يعد هناك بد من متنفس لهذا الشعور المكبوت .

ولو أن رياضاً فطن إلى تلك الحال النفسية لأمكنه أن يعمل على تجنب عواقبها ولكن رياضاً على حد تعبير الشيخ محمد عبده كان « لايخالج فكره ريبة فى سكون المصريين إلى إطاعة كل ما يؤمرون به حملا لهم على سوابقهم وسالف عهدهم فكان فى غاية الطمأنينة من ناحيتهم ولم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة فى تنفيذ السلطة أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والأجانب » .

أو كما قال عنه إنه كان « صادق النية مخلص السريرة فى خدمة البلاد ، ولكن لايبالى فى تأدية ما يراه واجباً عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته ، وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه ... »

وزاد الناس نفوراً من العهد كله ، ضعف شخصية توفيق فى ذاته وما لحق منصب الخديو من مهانة بسبب خلع إسماعيل ، فقد ألقى فى روع الناس وبخاصة حين رفض الدستور قاعدة للحكم أن مثله لا يرجى خير على يديه وأنه بات صنيعة للأجانب يأتمر بأمرهم من وراء ستار بعد مارآه من عزل أبيه ، وأن رفضه الدستور لم يكن إلا مشايعة للأجانب فى نظرتهم إلى المصريين ...

ولم تكن فى مصر طبقة راضية عن وزارة رياض أو عن الحال القائمة يومذاك بوجه عام سواء نسبت إلى رياض أم لم تنسب إليه ، نخاصة المصريين ، الذين كانوا يدركون حال بلادهم حق الإدراك ، والذين أثرت فيهم آراء جمال الدين ، كانوا منذ عهد إسماعيل ساخطين على تغلغل نفوذ الأجانب فى مصر ، وعلى السياسة التى جرت على مصر العسر والدين ، ومن هؤلاء سوف يتكون الحزب الوطنى فى عهد رياض كما سنبينه فى هذا الفصل .

وكان أعيان البلاد ينقمون على رياض إلغاء دين المقابلة ، ويرون أن هذا أقبح

الغبن إذ تلغى وزارة مصرية ديناً أخذ من المصريين ولا تجرؤ على إلغاء شيء من أموال الأجانب ، تلك الأموال التي شعر الناس جميعاً بمبلغ ما كان فيها من مغالطة وسرقة .

وكان رجال الجيش ينقمون على رفقي تعصبه لجنسه ويشركون رياضاً معه في هذا الأثم بالضرورة لأنه أقره ولم يكن يشكو الجند من تعصب رفقي فحسب ، بل كان يؤلمهم سوء ما يعاملون به مما يدل على الرغبة في امتهانهم وإذلالهم فكان يكتفي بمجرد التهمة ليفصل الجندي من الخدمة ، أو تنزع منه درجته أو ينفى إلى مكان سحيق في السودان ولو لم يثبت شيء عليه ، وكان ذلك خليقاً أن يملأ النفوس بالحفيظة ويدفعها إلى الرغبة في الانتقام ، فليس الأمر أمر ظلم فحسب ، ولكنه بتحيز الحكومة للشراكسة الذين يحتقرون المصريين كان ظلماً على ظلم ...

وزاد السخط في نفوس العسكريين إنقاص وزارة رياض عدد الجيش إلى إثني عشر ألفاً أي إلى أقل مما يقضي به الفرمان الذي أرسله السلطان إلى توفيق والذي يقضي بجعل الجيش ثمانية عشر ألفاً ؛ وقد أدى هذا إلى صرف عدد من الضباط والجند إلى مواطنهم فأصابهم العسر وكانوا من الساخطين ، كل ذلك والشراكسة لا يمسهم شيء بل لا يجدون إلا التقلب في النعمة والتمتع بالرقي .

وكان الناس بوجه عام ومنهم الفلاحون ، يشعرون أن لا عدالة ولا قانون يحمي المظلومين من تجبر الظالمين ، الحكام منهم وذوي الجاه والثراء ، فالكرباج والسخرة والنفي إلى السودان وأمثالها من العقوبات تقع على الناس في غير رحمة ، بل في غير حق ، وظل التعذيب والسخرة والإذلال أموراً شائعة في القرى على أيدي المديرين والأغنياء على الرغم من إصدار رياض أوامره بالكف عنها ، ولقد كان نهيه عنها مما يحمد له ولكن قعوده عن إبطالها كان مما يؤخذ عليه لا ريب .

ولقد بلغ عدد الذين تقدموا إلى شريف باشا يلتمسون منه رفع الظلم عنهم حين ألف وزارته بعد يوم عابدين نيفاً وتسعمائة كان تقرر إبعادهم إلى السودان !

وكان مما يتألم منه الفلاحون إندساس كثيرين من المرابين الأجانب بينهم

والعمل بكافة الحيل على إيقاعهم فى الشرك والاستيلاء على أكثر ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم .

كانت الحكمة تقضى أن يأخذ رياض الأمور بالرفق علّه يتجنب انبعاث العاصفة ، ولكنه عمل بسياسته على ثورانها ، ولعل مرد ذلك إلى جهله بحقيقة ما كان يحيط به واستبعاده الثورة على المصريين ...

ولعله كذلك خيل إليه أنه قادر بالقمع والعنف على أن يحكم البلاد ؛ ولذلك رصد عيونه يتعقب الساخطين من الخاصة ، وكان يشتبه فى كل حركة ويخاف من أقل بادرة ...

وأنزل العقاب الشديد بمن يعارض سياسته ، ومن ذلك ما حل بالسيد حسن موسى العقاد ، الذى كان كل ذنبه أنه دعا الناس إلى التوقيع على مظلمة ترفع لولاة الأمر مما وقع على الناس من غبن بإلغاء دين المقابلة ، وكان جزاؤه على ذلك النفى إلى فازوغلى بالسودان ؛ ومنه أيضاً ما لحق الفريق شاهين باشا كنج الوزير السابق فقد جرد من رتبه وألقابه لمجرد اتهامه أنه يتصل بالوطنيين الناقين ...

وتعقب رياض الصحف بالتعطيل الوقتى والإنذار والإلغاء ، بتهمة إثارة الرأى العام ، ومنها جريدتا مصر والتجارة ، وقد جاء فى قرار الوزارة بإلغائهما قولها : « حيث سبق صدور الإنذارات مراراً عديدة وتنبيهات شفاهية من إدارة المطبوعات إلى أصحاب امتياز الجرائد الأهليـة عموماً ، وإلى صاحب امتياز جريدتى مصر والتجارة خصوصاً بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ولا ينشرون ما يوجد تشويش الأفكار ، صدر له آخر إنذار بأنه إذا رجع لمثل ذلك ، فتلغى جريدتاه بالكلية ، وحيث أنه بعد هذا الإنذار لم يترك مسلكه الأول لما نشره فى جريدة التجارة نمرة ١٢٣ الصريح فى أنه لا يرجع عما هو مصر عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال صدور الحكم بإلغائهما مؤبداً » .

وتناول بطش رياض غير هاتين من الصحف فلم تنج فى عهده صحيفة من التعطيل أو الإلغاء أو الإنذار .

***

أدت هذه السياسة التى جرى عليها رياض ، إلى أن ينشط الناقمون فى العمل على مقاومته والتخلص من حكمه ، وكان هؤلاء الناقمون هم قادة الحركة الوطنية الذين كانوا يجتمعون منذ اواخر عهد إسماعيل أى قبل ذلك بنحو أربعة أعوام فى بيت نقيب الأشراف السيد البكرى ؛ ونظراً لما بثه رياض من عيون تحصى عليهم حركاتهم فقد تركوا القاهرة وجعلوا اجتماعاتهم سراً فى حلوان ، ومن ثم تألف حزب أطلق عليه أول الأمر جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى ... وكان من أشهر رجال هذا الحزب محمد سلطان وسليمان أباظة وحسن الشريعى ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى ؛ وقد نشروا فى أواخر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم وطبعوا منه آلاف النسخ وأذاعوها بين الناس ، ولقد حنق رياض أشد الحنق على ناشرى البيان وبذل جهداً كبيراً ليعرف أسماءهم كى يرسلهم إلى السودان ، فلم يهتد إلى أحد ...

وأوفد الحزب أديب إسحق إلى أوروبا ليدافع عن مبادىء الوطنيين فأنشأ فى باريس جريدة القاهرة ، وكان من أشد الساخطين على رياض لأنه عطل له جريدتيه مصر والتجارة ، ثم إن أديباً كان من تلاميذ جمال الدين وكان من المؤمنين بالدستور والمبادىء الحرة ؛ ولقد حمل حملة شديدة على رياض فى جريدته الجديدة وندد باستبداده وقسوته ونسب إليه الظلم والجهل والحمق ، وعاب عليه ما رماه به من الخضوع للأجانب والركون إليهم على حساب أمته ، ولم يدع عيباً يستطيع أن يرميه به إلا بالغ فيه وأعاده وكرره ولم يترك غميزة فى خلقه أو فعلة إلا أبرزها وراح ينوشه بأوجع الهجاء ؛ وكان رجال الحزب الوطنى يحصلون سراً على نسخ من هذه الجريدة ويوزعونها فى البلاد ، وكان من بينهم اثنان من المديرين هما سليمان باشا أباظة مدير الشرقية وحسن باشا الشريعى مدير المنيا ...

وكان رجال الحزب الوطنى ، يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الأجانب من التدخل فى شؤون البلاد لا من ناحية السياسة فحسب ولكن من ناحية المال كذلك ، وقد أيقنوا أن الحكم الدستورى الذى يرد فيه كل أمر إلى الأمة هو وحده العلاج الشافى من كل الأدواء القائمة ...

ولكن رجال هذا الحزب كانوا لا يزالون فى المرحلة السرية من جهادهم خوفاً من بطش رياض ومن ورائه توفيق ، وخوفاً من نفوذ الأجانب ودسائسهم ، وحسب المرء أن يذكر أن الحكم كان يومئذ وفق العرف ليدرك مبلغ ما كان يتمتع به رياض من سلطة ومبلغ ما كان يخشاه الوطنيون من نكال ...

***

وفى نفس ذلك الوقت الذى كان فيه يتشاور الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشده فى صفوف الجيش ، على رفقى وسياسته ومن ثم على رياض ووزارته ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذى شمل مصر كلها ، ولذلك فإن من ينظر إلى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة منفصلة إنما يخطىء خطأ كبيراً ؛ وبخاصة إذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين فى جوهره كان تحيز رفقى لبنى جنسه الشراكسة على حساب هؤلاء المصريين الذين كانوا ينعتون بالفلاحين .

إذاً فقد كان عرابى عثل ناحية من الحركة الوطنية القومية حين ذهب إلى رياض يشكو إليه رفقى ، وما كان الجند مدفوعين بمصالحهم وحدها وإنما كان يغضبهم الجور ويدفعهم إلى الشكوى ، ولو لم يكن هناك شراكسة يظفرون دونهم بالرقى والنعمة لما كان لحركتهم هذا الطابع القومى الذى نعجب كيف يمارى فيه المارون !.. ولن ننسى فى هذا الصدد أن نشير مرة أخرى وقد رأينا مبلغ خوف الناس جميعاً من سطوة رياض إلى ما كان فى موقف عرابى من جرأة وشجاعة وعزة لن يجحدها إلا الظالمون ...

***

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على كره رياض والاستياء من العهد كله ما كان يحيق بهم جميعاً من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعاً فى أنفسهم من أن مرد ذلك إلى الحكم المطلق الذى يسير عليه توفيق روزيره ومن ورائهما تدخل الأجانب .

ولذلك ما كاد عرابى يخطو خطوته حتى حقت له الزعامة كما بينا ، فقد اتجهت إليه القلوب ، إذ هزت الناس جرأته وحميته ، وأحس الناس فى دخيلة نفوسهم أن الثورة قد هيىء لها الرجل الذى يقودها .

ولئن زين لبعض الناس أن يقولوا إنه ما كان ليستطيع أن يفعل هـذا لو لم يكن يستند إلى الجيش فإنا نقول لهم ولم لم يضطلع بالقضـية رجل غيره من رجال الجيش ، ولم يكن أعلاهم مرتبة ؟ ولقد كان معه زميلان حين وثب وثبته فلم تنسب الحركة إلا إليه ، ولم لم يجر على الألسنة اسم غير اسمه ؟ ومن أدراه أن الجيش لن يخذله إذا جد الجد ؟ وهل قعد به تفـكيره فى ذلك وهو ما دار بخلده بالضرورة حين أقدم على هذا الأمر الخطير عن أن يخطو خطوته ؟ وهل كان يغنيه ما أخذه على زملائه من المواثيق والأيمـان إذا خاف الجند جانب الحـكومة فقعدوا كما قعد آلايه هو عن التحرك من العباسية إلا بعد العشاء ؟ ألا إنها الحمية التى تقوم عليها كل زعامة من الزعامات ...

وندع للشيخ محمد عبده أن يبين لنا كيف اتجهت النفوس إلى عرابى ، قال فى مذكراته عن الثورة العرابية « شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد فى مصر ، وعلم الـكثير من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالى واتحدت وجهتهم فى الغاية وإن اختلفت الدواعى والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير أن ينالوا تشـكيله ، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين، والخائفون من أن يؤخـذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفاً لـكربتهم وأمناً على أنفسهم ،

والواجدون على السلطة الأجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون فى إرضاء شرههم ، والأجانب الربويون يتطلعون إلى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى فى الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ، والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار بل تلك أمنية من أمانيه .

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الإلحاح فى الطلب وكل من وصل إليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث إليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيهم الأخبار بأن الجناب الخديو لا يأبى إجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وإنما رياض باشا هو الذى لا يريد ذلك . والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الأخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا فى تقريرهم كما قدمنا » .

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجيش من ظفر سريع ، بينما قد لحقهم هم الفشل ، واستطاع توفيق أو استطاع فى واقع الأمر رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والعمل ، فسرعان ما اهتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى أغراضهم فتقربوا من عرابى وتوددوا إليه ، فأخذ شريف يراسله ويعقد بينه وبينه أواصر المودة ، وحذا حذو شريف زعماء حركة الإصلاح فى الأزهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذى كان يمثل الأعيان كذلك لأنه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لاقصاء رياض عن موضعه ، وبعث الدستور الموؤود وتحقيق الإصلاح المنشود .

ويقول بلنت عن ذلك فى كتابه « وفضلا عن أن عرابياً قد رأى أعيان الفلاحين يسعون إليه ، فإنه قد رأى المطالبين بالدستور كذلك يجعلون منه حليفاً لهم ، وقد كان الكثيرون منهم أعضاء فى الطبقة الحاكمة وكانوا فى قرارة أنفسهم

يقاومون حرية الفلاح كما يقاومها رياض نفسه ... «كان شريف رئيس هؤلاء الدستوريين ، وقد أدى به مجرى الحوادث فى الصيف إلى أن يجد نفسه ذا صلة وثيقة بعرابى وإن لم تكن صلة مباشرة ، وذلك كوسيلة لبعث الدستور الذى هو وسيلته لاستئناف سلطته ؛ ولما كان عرابى على الدوام ميالا إلى مبدأ الدستور منعطفاً إليه فقد لبى مرحباً بالفكرة ، وزاده إقبالا عليها أن سلطان باشا نفسه أقوى أعيان الفلاحين يومئذ ، كان من أشد أنصار الدستور وقد اتخذ دور الوسيط فى الصلة بينه وبين شريف »

والآن نقول إن الثورة العرابية فى حقيقة أمرها هى التقاء الوطنيين والعسكريين على هذه الصورة التى بيناها ، ولسنا بحاجة بعد ذلك فيما نعتقد إلى كثير ولا إلى قليل من القول لنرد على الذين يزعمون أن الثورة العرابية لم تكن إلا حركة عسكرية بعثتها دوافع شخصية ؛ فأما الذين يزعمون هذا الزعم عن جهل فما نرتاب فى أنهم يرجعون عن زعمهم بعد هذا ، وأما الذين ساءت نيتهم فزعموا هذا الزعم مغرضين فما لنا إلى إقناعهم وسيلة ..

إن تجريد الثورة العرابية من صفتها القومية الدستورية هو من صنع كتاب الاحتلال ، ومن ذهب مذهبهم من المخدوعين ومن المبطلين ؛ وماذا كان يصنع الاحتلال غير هذا ليبرر وجوده ؟ لقد شوه القضية وحصرها فى فتنة عسكرية حمقاء هوجاء ، وبذل غاية جهده واستعان بجاهه ليصرف الأذهان عن أى معنى من المعانى السامية فى ثورة عرابى الذى ألقى به وبالأبطال من زملائه فى منفى بعيد بدعوى أنهم من العصاة المفسدين فى الأرض ، ثم دأب كتاب الاحتلال وصنائعه على تضليل أبناء الجيل الذى أعقب الثورة ، وجاراهم فى ذلك من الكتاب المصريين وا أسفاه الجهلاء الذين انخدعوا بما عمل الاحتلال على إقراره فى الأذهان ، والضعفاء الذين راعوا جانب توفيق ثم جانب ابنه من بعده . ذلك الذى ما كان يستطيع أحد أن يجهر بالثناء على عرابى فى عهده ؛ وملئت كتب المدارس

بالأغاليط والأباطيل ، حتى ما يذكر الذاكرون اسم عرابى وثورته إلا قرنوها بمعانى الطيش والسفه والاحتلال ...

ولكن الحق إن أخفى عن الناس ردحا من الزمن ، لا يستطاع إخفاؤه عنهم إلى الأبد ، وإلا ما كان حقاً ، فجوهر الحق فى أنه لا بد منتصر مهما طال عليه الأمد ومهما استعدى عليه الباطل من ألوان الخداع والبهتان .

وإن مصر اليوم لتعطف على عرابى وثورة عرابى ، وقد آن لها أن تنصف هذا المصرى الفلاح وأن تحدد له مكانه بين قواد حركتها القومية ...

وليس بعجيب أن يموه كتاب الاحتلال وصنائعهم وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون ، نقول ليس ذلك بعجيب ونحن نجد وا أسفاه رجلا من خيرة رجالنا ومن مفاخر أبطالنا يكتب عن عرابى صاحبه فى الجهاد وزميله فيما كان يطمح إليه من آمال ، فينكر عليه زعامته ويقدح فيه قدحاً كم تألمنا لصدوره عنه بالذات ، وله فى نفوسنا ما له من الإجلال والإكبار ؛ ذلك هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ...

وإنا إذ نحرك القلم لننقل هنا ما كتبه ذلك الشيخ الجليل عن عرابى لنحس بكثير من الخجل والأسف ، فما كنا نحب إلا أن يتنزه الإمام الكبير عما وقع فيه غيره ؛ وما نريد بنقل ما كتبه الأستاذ الإمام عن عرابى وبيان ما أحاط به من ملابسات أن نسيء إلى ذلك الشيخ فتوقيرنا إياه وإجلالنا له فوق كل شك وإنما قصدنا أن نبين كيف تبعد أحيانا بالمرء على رغمه عوامل وظروف عما يجب من إنصاف ؛ ويهمنا بوجه خاص حدوث ذلك من الشيخ محمد عبده بالذات ، فقد هان بعده كل اتهام يوجه إلى عرابى وصغر كل ادعاء من ادعاءات المغرضين ؛ وإذا كان الشيخ محمد عبده يكتب عن عرابى هذا الذى نورده وهو العليم به الخبير بأحداث عصره ، وهو فوق ذلك الإمام الزعيم ، فكيف بالظالمين الغاصبين من أنصار الاحتلال وأبواقه ؟

وكأنى بالقارىء يقول فى نفسه ولم لا يكون حقاً ما قاله الأستاذ الإمام عن عرابى

وللقارىء أن يتساءل هذا التساؤل ، ولـكنه لن يلبث حتى يعلم اليقين ...

كتب الأستاذ الإمام محمد عبده مذكراته عن عرابى بطلب من الخديو عباس حلمى ، وهذه دعوى لا تحتاج إلى دليل فقد جاء فى مقدمتها قوله «هذا مقام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الإيفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى إحساناً لم أكن أتأمله ، إذ أمرتنى أمراً ما كنت أتخيله ، أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشأتها إلى نهايتها » إلى أن يقول « مولاى : أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع إلى مقال سبقنى به غيرى ، اللهم إلا بعض الأوامر الرسمية أو شىء من المخابرات السياسية التى تضطرنى فى بيان الواقع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الإطلاع عليها» . إذا كان هذا شأن هذه المذكرات فليس مما يتوقعه المرء أن يمتدح محمد عبده عرابياً ويظهره على حقيقته زعيما وطنياً مجاهداً مطالباً بالدستور الذى أنكره توفيق ، فيسىء بذلك إلى عباس بن توفيق ...

ولقد كانت صلة الإمام بالخديو أول الأمر طيبة فلما دب بينهما دبيب الخلاف فيما بعد أمسك الأستاذ عن إتمام تاريخ الثورة العرابية ، ولو أن محمداً عبده كتب هذا التاريخ بغير طلب الخديو أو لو أنه كتبه بعد الخلاف بينه وبينه لما ذكر عن عرابى ما ذكره مما سيأتى بيانه ، ولقد كان محمد عبده فيما كتبه عن توفيق مترفقاً به كل الترفق يتلمس له المعاذير فى كل أمر وفى هذا وحده ما يكفى لبيان ما كان يحيط به من عوامل بعدت به عن الإنصاف .

يضاف إلى ما تقدم أن الأستاذ الإمام ، وإن كان من دعاة الشورى والحكم الدستورى كأستاذه جمال الدين إلا أنه كان يرى أن مصر لم تكن تهيأت يومئذ لهذا الحكم وكان يميل إلى حكم رياض ويحسب أنه يجد فيه المستبد العادل الذى ينهض به الشرق ؛ ولذلك نقم الأستاذ على عرابى ونفرت نفسه من الحركة العسكرية ، نجد الدليل على ذلك فى قول الشيخ رشيد رضا تلميذه وكاتب تاريخ

حياته « إن الأستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الإصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذى يرجى أن ينهض بالأمة فى مدى خمس عشرة سنة كما بين ذلك فى مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء فى الجزء الثانى من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الأمة لها » .

نورد بعد ذلك ما كتبه الأستاذ عن عرابى ، فنقول إنه استبعد أن يكون عرابى من طلاب الدستور لذاته فكأنه ما طالب بالدستور إلا محافظة على نفسه بعدما كان من فعلته التى أدت إلى حادث قصر النيل يقول الأستاذ « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفاً مسلولة أو حبالا منصوبة ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة الخلاص الخلاص الهرب الهرب ، ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التى قدرها له فى نفسه » .

وقال فى موضع آخر « استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضى به إلى ضباط الجيش وأن يثير فى أحلامهم الضعيفة تماثيل الأمانى من العزة والسلطان والصعود إلى أعلا مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال إلا بمجلس النواب »

وقال فى موضع ثالث « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتمالى إليه ، وإنما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا » .

هذه آراء أقل ما يقال فيها بعد ما أشرنا إليه من ملابسات كتابتها أنه كتبها « غير ناظر فى كتاب ولا راجع إلى مقال سبقه به غيره » كما ذكر فى مقدمة مذكراته التى كتبها للخديو عباس ، أعنى أنها آراء يعوزها الدليل من الحوادث أو الشواهد ؛ على أننا إذا أخذناها على علاتها فماذا نخرج به منها إلا أن عرابياً رأى

الظلم محيطاً به فأراد أن يعتصم بالعدل فى صورة مجلس نيابى ؟ ولم لا تكون مصر كلها ممثلة فى شخص عرابى فكانت تحيط بها المظالم وتخشى الطغيان ولم يكن لها من عاصم إلا حكم الدستور ؟ ولقد بينا مبلغ ما كانت تعانيه مصر منذ حكم إسماعيل ؛ وإذا دفع الإنسان الخوف من الظلم إلى مقاومة الظلم فهل يكون ذلك دليلا على جبنه ورغبته فى الهرب أم يكون دليلا على شجاعته وتحديه المخاوف ؟

إن الذى يعنينى من هذا الذى ذكره الأستاذ الإمام هو أن أبين ما لحق عرابياً من الظلم، حتى من أقرب الناس إليه عسى أن يحذر القارىء مما قد يجده من غير الأمام من هذا القبيل وعسى أن يطرح من ذهنه ما قد يكون قد علق به ، وما أحسب أن فى تاريخ الزعماء من تجمعت عليه المظالم كما تجمعت على عرابى فى حياته وبعد موته كذلك لست أذكر حركة جردت من معانيها السامية حتى تركت فارغة شوهاء تنكرها النفوس كهذه الحركة القومية التى بخسها المبطلون حقها هذا البخس الشنيع

كانت الثورة العرابية ثورة قومية جمعت بين المدنيين والعسكريين من أبناء أمة واحدة أيقظتها المظالم وإذا كان العسكريون أو زعيمهم عرابى قد طالبوا بالدستور خوفاً على أنفسهم كما يذكر الشيخ محمد عبده ، فلماذا طلبه المدنيون ؟ إن كانوا طلبوه خوفاً على أنفسهم كذلك من مغبة معارضتهم الخديو ووزيره وكان ذلك معناه عند الشيخ الجبن فإنه لا قومية ولا وطنية هناك ، ويكون شأن الوطنيين فى هذا ومنهم الشيخ عبده شأن عرابى وأعوانه ...

إن الوطنيين والعسكريين قد أحاطت بهم المخاوف من كل جانب فطلبوا الدستور وطلبه عرابى فيمن طلبوا وقد استعان به الوطنيون ، ولست أفهم لماذا يفرق الشيخ محمد عبده بين الباعث لعرابى على طلبه وبين باعث الوطنيين ؟ لقد كان يجوز أن تعلق بكلامه بعض الوجاهة لو لم يثبت أن الوطنيين اتصلوا بعرابى وطلبوا عونه أى لو أن عرابى وحده قد التجأ إلى الاعتصام بطلب الدستور كفكرة طارئة أملاها عليه الخوف وليس فى البلد حركة دستورية ؛ أما أن تكون المطالبة بالدستور حركة عامة سابقة لشكوى عرابى وزميليه ويكون هو قد شايعها

بوجدانه متضامناً مع زعمائها لإيمانه بمبدأ الشورى ولما كان ينصب على الجميع من مظالم بيناها فى موضعها ، ثم يُصوّرلنا طلبه كما صوره الإمام فذلك ما لا نستطيع أن نحمل عقلنا على قبوله ؛ ولو أن عرابياً كان من طبعه الخوف والهرب لما أثار تلك الحرب على الشراكسة ولما أقدم على رفع الشكوى إلى رياض ولا على تدبير حادث قصر النيل ولا على الذهاب إلى عابدين بعد إخراجه من السجن ؛ أجل ما كان ليفعل شيئاً من هذا جبان خائف فهى أفعال لن ينهض بها إلا مقدام ؛ قال الشيخ محمد عبده فيما علق به سنة ١٩٠٣ على ما كتبه عرابى من تاريخه لبلنت حين أطلعه عليه[١] « كانت الأشهر السبعة بين حادث قصر النيل ومظاهرة ٩ سبتمبر أشهر نشاط سياسى عظيم شمل جميع الطبقات ، وأكسبت عرابياً فعلته كثيراً من ذيوع الصيت ووصلت بينه وبين المدنيين من أعضاء الحزب الوطنى مثل سلطان باشا وسليمان أباظة وحسن الشريعى وشخصى ، وكنا نحن الذين أبرزنا فكرة تجديد المطالبة بالدستور ؛ وكانت وجهة نظره يومئذ أن ذلك يهيء له ما يعصمه ويعصم زملاءه العسكريين من انتقام الخديو ووزرائه ، وقد أخبرنى بذلك مراراً أثناء الصيف ، وبناء على ذلك أعددنا ملتمسات للمطالبة بالدستور وشفعنا ذلك بحملة فى الصحف ، وقد لقى عرابى سلطاناً فى الصيف مرات كثيرة وقد اهتم به سلطان وقد كان عظيم الثراء ، اهتماماً شديدا وأرسل إليه كثيراً من الهدايا كالمنتجات الزراعية والخيل وما إليها ، وذلك كى يثير حماسته ، ولكى يظفر بمعونته فى الحركة الدستورية ولقد دبرت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان » .

وخلاصة ما يستخرج من هذه الفقرة أن الوطنيين والعسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور وأن الوطنيين أرادوا أن يستعينوا بقوة العسكريين ، وأن الباعث للعسكريين كان رغبتهم فى إيجاد ما يعصمهم من انتقام الخديو ؛ وأى عيب فى هذا الباعث وهل كان غيره منذ نشأت الحركات الدستورية باعثاً للأمم على المطالبة بالحكم الدستورى ؟ إن كل منصف لا يسعه إلا أن يرى فيما وصف به الشيخ محمد

(١) The Secret History of The British Occupation of Egypt. P. 490

عبده عرابيا من صفات الفزع والخوف والهرب تزيداً لا مبرر له ولا ينهض من الحوادث دليل عليه ، بل إن الحوادث جميعاً تنقضه فالأمر هين بين ينحصر فى أن عرابياً وإخوانه رأوا فى الحكم الدستورى عاصما لهم من الجور كما رأى ذلك الوطنيون ومنهم الشيخ محمد عبده ...

التقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة حركة قومية غايتها الدستور والحرية ولقد نجحت تلك الحركة نجاحاً باهراً يدعو إلى أكبر الإعجاب وبلغت غايتها دون أقل مكدر يوم عابدين ، ولولا ما كان من موقف توفيق بعد ذلك ومن كانوا يتربصون بالبلاد من الثعالب وبنات آوى لسارت مصر قدماً فى طريق الحرية والنهوض ...

وما يشين هذه الحركة مشاركة العسكريين فيها ، فليست فى ذلك بدعاً من الحركات ، فما خلت حركة قومية من عنصر الجند إما متطوعين أو من الجيش القائم ؛ وهل يعيب حركة استقلال المستعمرات الأمريكية مثلا أن وشنطون الجندى كان زعيمها ؟ وهل يشين الثائرين من الأحرار على استبداد الملك شارل الأول فى انجلترة استعانتهم بكرمول وجنوده ؟ وهل كان فى انضمام الجيش فى فرنسا إلى أكثر الحركات الثورية مما يذهب بجلال هذه الثورات ؟ ذلك ما لا يقوله منصف ...

حق لمصر أن تفخر بأنها ثارت ثورة قومية حرة فى القرن التاسع عشر عصر القوميات والثورات وتلك هى الثورة العرابية التى مهدت لها عوامل وأسباب تجعلها أشبه ما تكون بأجل الحركات القومية فى أوروبا ...

وسيخنق الاحتلال هذه الحركة القومية ويطفىء شعلتها ولكن جمرتها تبقى تحت الرماد إلى أن ينفخ فيها سعد من روحه فتشتعل وتتوهج حتى ما يستطيع مستبد ولا طاغية بعد ذلك أن يخمد نارها أو يطفىء نورها ...

دسائس ومخاوف

كانت سياسة توفيق إن كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل أهم العوامل فى تطور الحوادث على النحو الذى سوف نراه ؛ فلقد أجاب الضباط إلى مطالبهم وفى نيته أن يغدر بهم متى حانت الفرصة ...

وأدرك الضباط لا ريب أنه أجابهم إلى ما طلبوا لأنه لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك أحسوا أنه لا بد متربص بهم فتربصوا هم كذلك به ...

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضاً ويعمل على التخلص منه ؛ لذلك وضع نفسه فى موضع عجيب حقاً ، فبينما هو يسخط على الضباط ويمقت حركتهم إذا به يتخذ منهم كما سنرى أداة للكيد لوزيره بغية إقصائه عن منصبه .

وهكذا تشاء الظروف النكدة أن يكون رجل كتوفيق هو الذى يحرك دفة الأمور فى مثل ذلك الزمن العاصف .

لم يكن أمام توفيق كما أسلفنا إلا أن يتخذ سبيله إلى قلوب الوطنيين فيجعل من نواب الأمة سنداً له كما فعل أبوه فى أواخر أيامه ...

ولكن توفيقاً لم يلجأ إلى ذلك الحل ، وما نشك فى أنه كان يفطن إليه ، ولكنه كان يقتضيه أن ينزل عن سلطانه إلى نواب الأمة وهو ما نشك كل الشك فى أنه كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدقت به وبمصر الأخطار ، فى وقت نشطت فيه دسائس الأجانب الذين أحكموا شباكهم لاقتناص الفريسة الغالية فى تلك الأيام الكدرة .

وقع حادث قصر النيل فى فبراير سنة ١٨٨١ ، وفى أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها فى كثرة ما حيك فيها من الدسائس على قصر أمدها ...

أمر الخديو فأقيم حفل بعد حادث قصر النيل دعى إليه كبار رجال الجيش ، وخطب الخديو فأعلن عفوه عما حدث وأنه لا يضمر لأحد سوءاً وحث الجند على الطاعة والنظام وأكد لهم أن الحكومة تهتم بأمرهم كل الاهتمام .

وقابل الضباط خطاب الخديو بالابتهاج والشكر وهتفوا به معبرين عن ولائهم له معلنين بين يديه أنه لن يرى منهم إلى الطاعة والولاء .

ونظر البارودى وزير الجهادية الجديد فى مطالب الجيش فأجابهم إلى أكثرها وكانت تدور حول زيادة المرتبات وإصلاح قانون الترقية وقانون الأجازات والعناية بأكل الجيش وملبسه ، كما طلب الضباط إعادة أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى إلى الخدمه وتم لهم ما أرادوا فعاد هذا الضابط إلى حيث كان قبل أن يعزله رفقى

وأقام البارودى حفلا للضباط بعد إصلاح حالهم شهده الوزراء ، وخطب البارودى كما خطب رياض ، وأثنى رياض على الجند وحثهم على النظام وسألهم أن يقابلوا ما لقوا من إصلاح بالطاعة وأداء الواجب ؛ وخطب عرابى فأثنى على الخديو وأعرب عن ولاء الجيش لسموه ...

بهذا خيل للناس أن الهدوء قد حل محل الثورة وأن السلام قد محا كل أثر لما كان من خصام ، ولكن لم تكد تنقضى بضعة أيام حتى امتلأ الجو بالنذر والشائعات .

سمع الضباط أول ما سمعوا أن أعوان الخديو يغرون بالمال والمناصب بعض رجال الآلايات ليكونوا فى الوقت الموعود إلى جانب الخديو ، ونمى إليهم فيما نمى أن رياضاً يفكر فى طرق إجرامية للفتك بهم ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابياً أو من يحضر من زميليه .

وحدث فى آلاى طره وهو الآلاى السودانى الذى كان يرأسه عبد العال حلمى ، أن كتب ثمانية من صف الضباط السودانيين يتنصلون من حادث قصر النيل ويعلنون ولاءهم للخديو ويبدون اعتذارهم ويتهمون رؤساءهم ، وأمر عبد العال بإجراء تحقيق ثبت منه أن باشجاويشاً شركسياً هو الذى حرضهم على

ذلك وأن الذى حرض هذا الباشجاويش هو يوسف كمال باشا ناظر دائرة الخديو الذى دفع لكل من هؤلاء الثمانية ، جنيهات ثمانية ؛ وغضب عبد العال واشتكى إلى رياض ورفع رياض الأمر إلى الخديو ونصح بعزل يوسف كمال باشا تهدئة للخواطر وقتلا للفتنة فى مهدها وأجابه الخديو إلى ما طلب ، وعاقب عبد العال ذلك الشركسى المحرض بالحبس ستة أشهر ... ؛ وكشف عبد العال دسيسة أخرى كان يدبرها سودانى فى الاستيداع هو الأميرالاى فرج بك الزينى وكان مسكنه على مقربة من مقر آلاى طره وأثبت التحقيق أنه كان على صلة بيوسف كمال باشا ، وقد ضبطه عبد العال بنفسه فى حقل قمح يحرض بعض الجند على كتابة المطاعن فى رؤسائهم ؛ وقد أبعد الزينى إلى السودان ؛ ويقول عرابى فى مذكراته « إن دسيسة فرج بك الزينى كانت أيضا من يوسف كمال باشا ، وإن الخديو أراد أن يعوضه عما فاته فى مصر من رعايته فلما نفى إلى السودان أرسل إلى رؤوف باشا حكمدار السودان وقتئذ ليلحقه بخدمة الحكومة السودانية ومنحه رتبة لواء فصار يعرف بفرج باشا الزينى »

واتهم تسعة عشر ضابطا أحد رؤسائهم بأمور نسبوها إليه أثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم فبادر الخديو بأعادتهم ، الأمر الذى حنق له زعماء الجيش ، إذ رأوا فيه أن الخديو إنما يعضد حركة التمرد فى صفوف صغار الضباط ويستميلهم إليه ضد رؤسائهم .

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الألاى السودانى بقيادة عبد العال بك إلى السودان ، بحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام ، فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة إلى تشتيتهم للقضاء عليهم متفرقين ...

وترامى إليهم أن الخديو يمرن حرسه فى الاسكندرية على إطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه وينثر الذهب على الجند متظاهراً بمكافأة المجيدين فى إصابة

المرى ، ولا يفسر مثل هذا العمل فى ظروف كهذه إلا بأنه استمداد من جانب الخديو لما كان مقبلا عليه من قمع وبطش …

وأرادت الحكومة أن تسخر الجند فى حفر الرياح التوفيقى ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى مخازن الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل ؛ ورفض عرابى أن يوافق على ذلك وأيده فى رفضه البارودى …

وحدث فى الإسكندرية أن دهمت عربة أحد التجار وكان سائقها أجنبياً أحد الجنود فنقل إلى المستشفى حيث قضى نحبه ؛ واستشاط تسعة من الجند غضباً ، وأملت عليهم سذاجتهم أن يحملوا زميلهم القتيل إلى سراى رأس التين فيقتحموا أبوابها على الرغم من مقاومة الحرس ويتصايحوا داخل السراى شاكين من الأجانب راجين أن يتدخل الخديو بنفسه لمعاقبة هذا السائق الأوروبى . وسمع الخديو هذا الصخب فنهر الجند بنفسه وصرفهم من حديقة قصره ؛ ويدل هذا الحادث فضلا عن سذاجة الجند على مبلغ ما كان يتصوره الناس من عظم نفوذ الأجانب فما يجرؤ أن ينالهم بالعقاب أحد إلا الخديو نفسه ، ولهؤلاء الجند بعض العذر فيما تخيلوا وإن كان ذلك لا يبرر اقتحامهم القصر على هذه الصورة .

ولكن العقاب الذى عوقبوا به على فعلتهم كان بالغ الصرامة والقسوة . فقد عوقب الجندى الذى حرضهم على ذلك بالحبس المؤبد مع الأشغال الشاقة ، وعوقب الثمانية الباقون بالحبس فى ليمان الخرطوم ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة كذلك .

ولما ذاع النبأ فى الجيش استاء الضباط والجنود أعظم الاستياء من فداحة الحكم ، وكتب عبد العال تقريراً للبارودى يتظلم منه ويقارن بين هذا الحكم وبين ما عومل به الضباط التسعة عشر المتمردين وأظهر البارودى ميلا إلى قول عبد العال ، ونمى ذلك إلى الخديو فغضب أشد الغضب على البارودى ، وقد كان يكرهه ويظهر التسخط منه منذ أن أشار بأخذ الجند بالرفق وإجابة ملتمسهم عقب حادث قصر النيل ومنذ أن اختاره الجند وزيراً للجهادية ، فقد داخل توفيقاً الشك

فيه ، ثم أصبح يعتقد أنه من رؤوس الفتنة وأنه هو الذى يثير الجند لأغراض يسعى لتحقيقها ...

واستدعى الخديو وزراءه إلى الإسكندرية وصارحهم بأن وجود البارودى فى الوزارة هو سبب ما فى الجيش من فوضى ، ولم يسع البارودى إلا الاستقالة وقد كان الخلاف كذلك شديداً بينه وبين رياض ثم أبلغ البارودى أن عليه أن يرحل فوراً فيقيم بضيعة من ضياعه كيلا يتصل بأحد من الجند أو يتصل به أحد .

وعين داود يكن باشا صهر الخديو وزيراً للجهادية وهو شركسى لا يقل فظاظة وحمقاً عن عثمان رفقى ؛ وعزل الخديو محافظ القاهرة أحمد باشا الدرمللى لاتهامه بالعطف على الجند وأحل محله عبد القادر حلمى باشا . ..

ولقد كان البارودى فى الوزارة على صلة برجال الجيش فعلا ، وكان ينبئهم بكل ما تريد الحكومة بهم ، وقد اتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر ...

وما لبث أن اتبع داود يكن منتهى الصرامة فى معاملة رجال الجيش ، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك مراكزهم ليلا أو نهاراً أو التحدث فى السياسة وأنذرهم بأشد العقاب إن هم خالفوا أمره ؛ ومع أن عرابياً وأنصاره قد هنأوه بمنصبه وطلبوا إليه أن يعمل على إجابة مطالب الجيش التى كان يسعى البارودى فى إجابتها ، فانه اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئاً ... قال عرابى معلقاً على أمر وزير الجهادية الجديد « ولما كانت تلك الأوامر مخالفة للقوانين العسكرية ومهينة للشرف العسكرى فقد ردت إليه من طرف أمراء الآلايات » .

ولا يقل رد هذه الأوامر إلى الوزير مغزى عن حادث قصر النيل ، إن لم يكن أشد منه خطراً فمعنى ذلك أن الجند يعصون ما يلقى إليهم من أمر لا يقرونه وفى ذلك الثورة أبلغ ما تكون الثورة ...

وبث حكمدار القاهرة الجديد عيونه وأرصاده على الضباط ؛ وكان داود يكن يطوف بنفسه على مراكزهم ليوقع الخوف فى نفوسهم .

وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس ، وجرت الشائعات بالنذر فملأ القاهرة نبأ عجيب مؤداه أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الإسلام بقتل عرابى ، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة .

وطلب مجهول الإذن على عرابى فى منزله فلم يؤذن له ، وشوهد أنه عاد عقب ذلك إلى أحد مخافر الشرطة ؛ وذهب عرابى إلى منزل زميله عبد العال فعلم أنه حدث هناك مثل ما حدث عنده ، فأيقنا أن حياتهما يتهددها الخطر ؛ ومما يذكره عرابى فى مذكراته أن أحد الغلمان الشراكسة فى منزل عبد العال ، وهو ابن زوج حرمه المتوفى قد دس له السم فى اللبن بإيماز غلام آخر شركسى من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبهت الخادم لذهب عبد العال ضحية هذا الغدر الأثيم ...

وكان للخديو فى تلك الظروف مسلك عجيب ، لولا أن قام عليه الدليل ما استطاع المرء أن يصدقه ، وذلك هو محاولة الاتصال بعرابى وزملائه ليستعين بهم على إخراج البارودى من الوزارة ، وكان رسوله إلى عرابى هو على فهمى ثالث الثلاثة فى حادث قصر النيل ، ولقد أظهر له الخديو مودته منذ أن عاد إلى آلاى حرسه لكى يستعين به إذا لزم الأمر فى تحقيق مآربه ...

أرسل الخديو من الاسكندرية قبل استقالة البارودى أو إقالته على الأصح على فهمى بك رئيس الحرس إلى زميليه فى القاهرة ، كما يقول عرابى فى مذكراته ، ليقول لهما إن الخديو يرغب فى عزل البارودى لما رأى من ذبذبته وسوء سياسته ، وإن الخديو يعطف على مطالبهم « فهم ثلاثة وهو رابعهم » وأن سموه يطلب ألا يعلم أحد بإيفاد على بك إليهم ...

وترجع صلة الخديو بالضباط إلى ما قبل ذلك ، فإنه كان يريد الاستناد إليهم ليحرج رياضاً الذى كان يستند إلى الأجانب ؛ وقد ذكر عرابى أمر هذه الصلة سنة ١٩٠٤ بعد عودته من المنفى لبلنت فى حوار بينهما إذ سأله بلنت عن مبدأ صلة الخديو بهم ، فقرر أنها بدأت قبل حادث قصر النيل وقد ظن عرابى يومذاك أن

على فهمي يتجسس عليه ولم يطمئن إلى إخلاصه إلا حين انضم إليه فى الشكوى إلى رياض ؛ وقد سأل بلنت الشيخ محمد عبده عن ذلك فأيده قال الشيخ عبده : « إن ما ذكره عرابى عن رسالة الخديو التى ذكر للضباط فيها أنهم ثلاثة وهو رابعهم صحيح وهو يصور أدق تصوير الحال بينه وبينهم يومئذ »

ولا يخفى ما فى مسلك الخديو من خطورة فأقل ما يوصف به أنه جعل الضباط يشعرون أن الجو كله جو دسائس ومخاوف ، وأنه لا يمكن بأية حال الاطمئنان إلى موقف الخديو تجاه أحد .

***
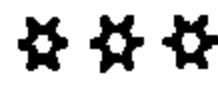
هـذه هى الحال فى الأشهر السهمة التى أعقبت حادث قصر النيل ؛ دسائس ومخاوف تحيط برجال الجيش وتوقع للانتقام فى كل وقت ...

أما عن الوطنيين فقد أسلفنا القول أن صلتهم بعرابى لم تنقطع طول الصيف ، وكان أكثرهم نشاطاً فى الاتصال به سلطان باشا ، وكذلك كان يعمل شريف على توثيق أواصر المودة بينه وبينه ؛ وأيقن الجميع وطنيون وعسكريون أن لا منجاة لمصر من سوء الحال إلا بإزاحة رياض عدو الدستور عن الحكم وإجبار توفيق على أن يسلم بالحكم الدستورى الذى أظهر استعداده لقبوله عند توليته ثم ما لبث أن تنكر له ...

ولا سبيل لإزاحة رياض وإجبار توفيق إلا الاستعانة بالجيش أو بعبارة أخرى بزعماء الجيش ، وما كان زعماء الجيش إلا نفر من المصريين يحسون ما يحسه أبناء مصر جميعاً من مبادىء العهد يقول عرابى فى مذكراته « ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها على اغتيالنا ، أخذنا حذرنا منها ومهرنا على إحباط تلك الدسائس المنكرة ، وكان السير مالت قنصل انجلترة بمصر كثير التردد على الخديو ليلا ونهاراً دون غيره من وكلاء الدول الأوروبية ، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا وخشينا من مطامع انجلترة التى كانت ترمى إلى التهام وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن الذى تدعيه أوروبا ، فعرضنا

مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علماً بما كان جارياً فى مصر ولكيلا يتورط فى تصديق ما قد يصل إليه من دسائس أعداء البلاد ؛ وذيلنا المريضة المذكورة بإمضائى وإمضاءات إخوانى على بك فهمى وعبد العال بك حلمى وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش ، وأحمد بك أبو مصطفى وأحمد بك الصباحى وعثمان باشا فوزى وغيرهم من وجوه الأمة بالنيابة عن جميع المصريين » .

ونقل مؤلف كتاب المسألة المصرية عن كتاب بلنت العبارة الآتية[1] « ثم إن الأمة بأسرها وبعبارة أدق إن طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبينت فجأة أنها ليست من الضعف بحيث ظنت نفسها وأن لها فى الجيش قوة طبيعية متجمعة لا يستهان بها ، فإذا ما استطاعت أن تضمه إلى جانبها فى قضية الإصلاح الدستورى فإنه لابد قاض على ما حاق بالأمة من شدة وهوان طال عهدهما وسرعان ما أصبح عرابى وأصحابه بجراءتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الأمة وموضع إعجابها واستحال فى نظر الوطنيين ما كان يقصد به أن يكون مجرد احتجاج عسكرى إلى فعلة مدنية وطنية وأصبح عرابى رجل مصر المشار إليه بالبنان ولقب بالرجل الوحيد وما هو إلا قليل من الزمن حتى توثقت العلائق بينه وبين أكثر الزعماء السياسيين فى ذلك الزمن » .

وقال مؤلف ذلك الكتاب أيضا : كان فى وسع كل إنسان إذ ذاك أن يخبر بأن الجيش إن سنحت أو عندما تسنح له فرصة للظهور فى ميدان العمل مرة أخرى فإن ذلك لن يكون من أجل مصالح أفراده أو وظيفته ولكن من أجل مصالح الأمة السياسية العامة »

أعد أحمد عرابى بياناً أرسله إلى أعيان البلاد ، يبين فيه أخطاء الحكومة واستبدادها ويدعو الناس إلى معاونته لانتشال البلاد مما هى فيه ، وقد جاء فى مذكراته وصف استعداده لهذا العمل قال « ثم أخذت فى نشر أفكارى بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان طالباً منهم مساعدتى فى حفظ الأمن

(١) العبارة من ترجمة الأستاذين العبادى وبدران .

والراحة العمومية حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال » ... إلى أن قال « وسيلى ذلك إسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيراً ، وتشكيل مجلس نواب يعهد إليه فى الوصول بنا إلى الحرية المنشودة ، وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم ، وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر ، وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت إلينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد مملنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج » .

هـذا ما أعده عرابى لوثبته الثانية فى سبيل حرية وطنه ، أو هذا ما يعتزمه من إقدام الرجل الذى وصفه خصومه فيما وصفوه به بالجبن والخوف والرغبة فى الخلاص والهرب ... ألا ليت كل شجاعة تكون كهذا الجبن الذى يصفون ، وليت كل شجاع مستطيع أن ينهض لما نهض له أحمد عرابى ...
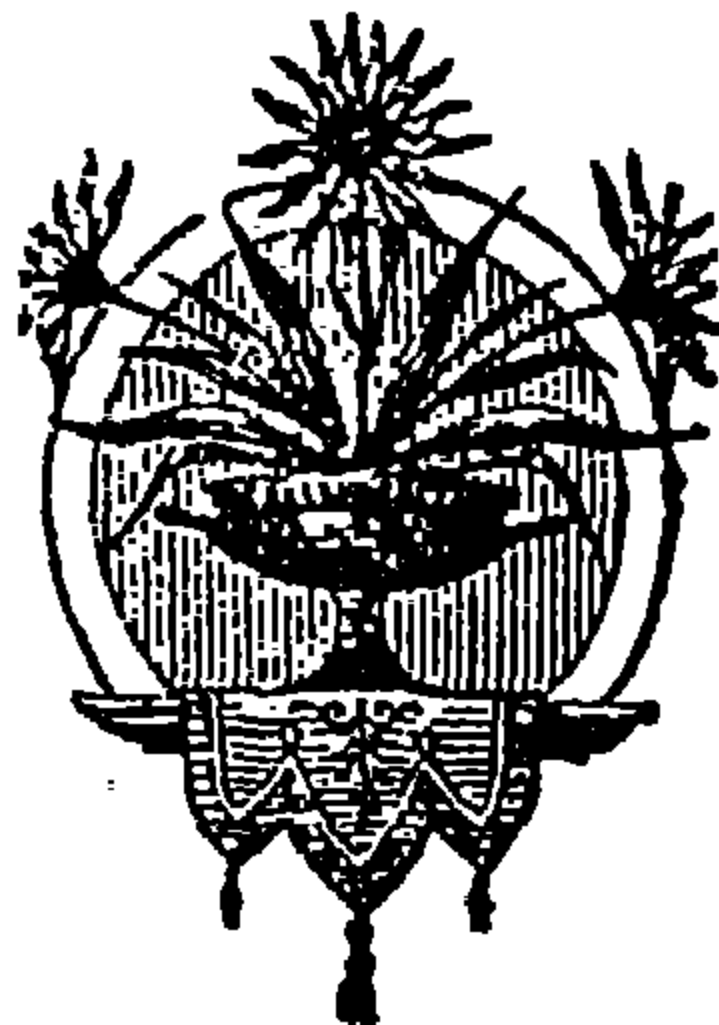
يوم عابدين

هذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، أعظم يوم فى تاريخ القومية المصرية ذلك التاريخ الذى افتتح فى شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين إلى منزل محمد على فألبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان ...

وأخلق بهذا اليوم المشهود أن يكون له فى نفوس المصريين مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو فى نفوس الفرنسيين ... وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية فى مصر أن يعلموا أبناء هذا الشعب أن اليوم الذى نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة ...

أخذ عرابى للأمر عدته على خير ما يستمد الرجل اليقظ إلى عواقب الأمور ؛ فكتب إلى وزير الحربية يطلب إليه أن يبلغ الخديو بأن آلايات الجيش جميعاً ستحضر إلى ساحة عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها » .

وأرسل عرابى إلى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأنبأهم أن لا خوف على أحد من الأجانب فإنها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلاد الداخلية ...

قال بلنت « كان للمظاهرة كل ما يرجح أنها كانت سلمية ؛ فلكى يقلل عرابى من خطر ما قد يكون من سوء الفهم ، كتب إلى الخديو ينبئه بما اعتزم هو وزملاؤه من خطة ويقولون إن الدليل على أنهم لا يبغون بها عداء لشخصه أنهم لم يذهبوا إليه فى قصره بحى الأسماعيلية وأنهم قصدوا مقره الرسمى فى عابدين وتوسلوا إليه أن يلقاهم هناك ليستمع إلى شكواهم »

ذعر الخديو وذعر رياض وقد دعاه إليه كما دعا ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش وأحمد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم فى الأمر .

ورأوا أن يحاولوا إقناع عرابى بالإقلاع عن هذه المظاهرة ، فأوفد الخديو إليه ياوره طه باشا لطفى ، ورفض عرابى أن يعدل عما صمم عليه وأخبره بأنه لا يريد أكثر من « أن يعمل مظاهرة عادلة لا بد منها لضمان حريه الأمة وسعادتها » .

وفى هذا الذى صنع الخديو ومن معه أبلغ دليل على ما وصلوا إليه من ضعف وقلة حيلة .

وكان الخديو فى قصر الإسماعيلية فأرسل يستدعى السير أوكلند كلفن المراقب المالى الأنجليزى ، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل فى هذا الموقف قال كلفن يشير إلى ذلك « فنصحت إليه أن يقاوم[1] ؟ فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أثرت على الخديو أن يدعوهما إلى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربى ، وأن يضع نفسه على رأسها . فإذا ما وصل عرابى قبض عليه بشخصه . فأجابنى أن لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار فأجبت أنهم لن يجرؤوا على ذلك ؛ ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصيا ، فإنه يتسنى له أن يقضى على المتمردين ، وإلا فإنه ضائع »[2]

هذا ما أشار به كلفن وما نراه يحمل كما يقول كرومر « قسطا من تلك الروح التى تحيى جنسه الأمبراطورى » إلا على المعنى الذى نفهمه نحن ، وذلك أنه يلقى الزيت والحطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر ، وبعدها تقتنص الفريسة ، مصر المسكينة ، بدعوى إنقاذ البلاد من نار الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجا إلى دليل ، فهذا الذى يدعو إليه كلفن لو وقع لن يكون إلا حربا أهلية شرها مستطير وهولها خطير ...

توجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير ، ومعه كلفن

---

(١) يذكر بلنت فى كتابه أن كلفن نصح توفيقا أن يطلق النار على عرابى بيده .

(٢) Modern Egypt. Cromer. P. 144

ورياض وستون فاستدعى على بك فهمى رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول إلى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا وقد نصح للجند بقوله «أنتم أولادى وحرسى الخصوصى فلا تتبعوا التعصب الذميم ، ولا تقتدوا بأعمال الآلايات الأخرى » ... فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون ...

وسار الخديو بعد ذلك إلى القلعة يحاول أن يثنى آلا يها بنفسه عما اعتزم ، ولكنه لم يجد منه شيئا مما وجد من حرسه من ولاء ؛ فسار إلى العباسية حيث كان آلاى عرابى ، ولكنه علم هناك أن عرابيا سار منذ ساعة على رأس جنده ومعهم المدافع بطريق الحسينية إلى عابدين فقفل أدراجه إليها ...

وفى عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ تحرك الجيش يقصد عابدين ؛ نخطت الثورة الوليدة أجرأ خطواتها وأبعدها أثرا فى تطور حوادث ذلك العهد ...

وتلاقى عرابى فى ميدان عابدين بالآلايات الأخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبد العال بك حلمى وإبراهيم بك فوزى وفوده أفندى حسن وغيرهم من أنصاره وكان عدد الجند المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله « إن السياسة خداع » ثم ذهب فعاد بفرقته ، وانضم إلى الجيش فأصبح القصر خاليا من كل عناصر المقاومة ؛ وكان فيما صنع على بك فهمى كثير من الخير لأنه الجهة الوحيدة التى كان يخشى منها خطر الحرب الأهلية ...

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لهذا المنظر لا ريب ؛ واشرأبت أعناق الشعب التى طالما ألفت الذلة ، وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الموقف الرهيب ؛ واسم عرابى يجرى على الألسن فى حين تدور الأبصار باحثة عن موضعه وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر ، كلمة الشعب الذى ألبس جده بالأمس الكرك والقفطان شارتى الحكم دون رجوع إلى السلطان ؛

وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادى نبت ونما على ثراه ...

ووصـل الخديو إلى عابدين بعـد أن فشلت سياسة طوافه على الآلايات ، تلك السياسة التى تدل فى ذاتها على منتهى الضعف ، والتى لا يشفع له فى اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم فى جعبته إن كان هذا شفيع . والحق أن الخديو قد لاقى فى ذلك الطواف ما تنخلع منه أفئدة أقوى من فؤاده ، وحسبك أن فرقة القلعة ثارت فى وجهه حينما أمسك بنفسه بتلابيب قائدها فودة حسن حتى لقد وضع العساكر الأسنة فى بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد « أفسح لنا الطريق يا بكباشى » .

ودخل الخديو السراى من الباب الخلفى ، باب باريز . ويقول كلفن إنه قفز من العربة وأشار على الخديو أن يسير من فوره إلى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار إلى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الأوربيين ، ويذكر عرابى أنه كان معه كذلك كوكسن قنصل انجلترة بالأسكندرية والجنرال جولدسمث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو ثابت الخطى ، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الأمر ...

وسار عرابى على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو قائلا « إنزل » فوثب عرابى من فوق جواده ، ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطا فأدى التحية العسكرية ؛ وأشار الخديو إشارة ذات معنى إلى سيفه فأسرع عرابى بأغماده ...

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! فى هذا الجانب حيث يقف الجند نرى مصر التى أيقظتها المحن والفواجع تتمثل فى هـذا الجندى الفلاح تجرى على لسانه كلمتها فى غير التواء أو تلعثم ؛ وفى الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله ، مع أنه رآها منذ بدايتها ؛ ورأى أباه على جلالة قدره يوسع لهـا صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة ...

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجـــديدة ؛ وهناك التقاليد العتيدة والأوتوقراطية العنيدة ؛ ومن وراء ذلك الثعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن ، وتتربص لتنقض ! …

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفا من أروع مواقفها ، ومظهرا من أجل مظاهرها ، ويضيف بذلك إلى صفحات الحرية فى سجل الأمم صفحة جديدة لن تبلى الأيام جدتها ، أو تبخس أغراض المبطلين قيمتها .

همس كلفن فى أذن الخديو : « هذه هى ساعتك » فأجاب الخديو « نحن بين أربع نيران » فقال كلفن « كن شجاعا ، فتهامس الخديو وأحد الضباط الوطنيين ثم التفت إلى كلفن قائلا « ماذا عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران … إنهم يقتلوننا »(١)

ويحسن أن نورد ماحدث بعد ذلك على لسان عرابى وهو لا يخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها قال « ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا إلى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله « ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » فأجبته بقولى « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة فقال « وما هى هذه الطلبات ؟ » فقلت « هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » فقال « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا « فقلت « لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم »(٢) .

---

(١) Modern Egypt-Cromer.

(٢) فى رواية عرابى لمستر بلنت أن الخديو قال أيضاً « أنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز » وقد أورد بلنت هذه العبارة كما هى بحروف أفرنجية .

تلفت الخديو بعد ذلك إلى كلفن قائلا « أسمعت ما يقول ؟ » فأشار عليه هذا بالعودة إلى القصر إذ لا يجمل أن يزيد الأمر بينه وبين عرابى عن هـذا الحد ؛ فانصرف الخديو وبقى الجيش فى مكانه لا يتزحزح .

وأقبل كوكسن قنصل انجلترة فى الأسكندرية ، وكان ينوب عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيابه ؛ أقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابياً فى غلظة مقصودة ، وكان هـذا الأنجليزى كرجال الاستعمار جميعاً من بنى جلدته ممن يحسنون دس أنوفهم فى كل شىء ، ومما وجهه إلى عرابى قوله أن لا حق له فى أن يطالب بالمجلس النيابى وإسقاط الوزارة فذلك من شأن الأمة ، أما عن زيادة الجيش فالية البلاد لا تساعد على ذلك ...

ورد عرابى بقوله إن الأمة أنابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه إلى الجموع المتراصة خلف الجند قائلا هذه هى الأمة وما الجيش إلا جزء منها؛ويحسن أن نورد عبارته بنصها قال « اعلم يا حضرة القنصـــل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيـذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى تنفـذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر . فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ » .

قال القنصل : « علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها » :

قال عرابى « كيف يكون ذلك ؟ ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا » .

قال القنصل « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ » .

قال عرابى « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليوناً من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون إشارتى » .

وسأل كوكسن عرابياً بعد هـذا سؤالا يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه أحكم الرمية فقال « وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ » .

فانظر إلى رد هذا الجندى فى هذا الموقف الذى تخف فى مثله أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى المعقول اتزان عقولهم ، انظر إلى عرابى فى موقف الثورة يقول له «أقول كلمة أخرى» فقال القنصل «وما هى؟» قال عرابى « لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط » .

وأخذ كوكسن يروح ويغدو بين عرابى والخديو حتى جاءه آخر الأمر ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر فى بقيـة المطالب فلا بد فى بعضها من مشاورة السلطان . وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرياسة الوزارة القادمة ولـكنهم رفضوه ؛ وجرى على الألسن اسم شريف بطل الدستور ونصيره ، فعاد كوكسن بعد حين يعلن إلى عرابى قبول الخديو تعيين شريف فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو

والتمس عرابى ونفر من زملائه الإذن على الخديو ، فلمـا مثلوا بين يديه أخذ عرابى يعبر له عن ولائه وولاء الجيش . وذكر له الخـديو أنه « وافق على تلك الطلبات بنية صافيـة » ؛ ثم انصرف الجيش بعد ذلك فى هدوء كل فرقة إلى مقرها ...

* * *

هذا هو يوم عابدين الذى عده خصوم عرابى من أكبر سيئاته والذى نعده فى غير مغالاة أكبر حسناته ؛ وكيف يستطيع هؤلاء مهما بلغ من اضطغانهم على عرابى ورغبتهم فى الإساءة إليه أن ينكروا ما ينطوى عليه هذا الموقف من معان ؟ ألا إنهم ليتغافلون ليطعنوا الرجل فى أجل مواقفه وأعظم خطواته ، وهم إنما ينالون بذلك من أنفسهم دون أن ينالوا منه شيئاً ...

طالب عرابى بالدستور فكان فى طلبه هذا زعيم ثورة تقوم على أجل المبادىء التى شاعت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر والتى عدها المؤرخون والناس من أعظم

خطوات البشرية صوب الرقى والكمال ؛ فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراب؟ولقد كثرت فى أوروبا المواقف التى يشبهها فى معناها ومرماها هذا الموقف فسجلتها الشعوب فى ثبت مفاخرها وعدتها من أيامها المشهودة التى تمجد كل عام ذكراها .

وتم لعرابى وأنصاره ما أرادوا ، فى غير عنف يشوه حركتهم أو ينقص من جلالها كما يحدث فى أشباهها من الحركات ...

لقد كان القصر أمام الجيش خلوا من أية قوة ، فروعيت حرمته أحسن مراعاة وروعى كذلك مقام الخديو ، فلم يخرج أمامه هذا الجندى الثائر عن طوره ، بل لقد تمالك نفسه فترجل وأدى التحية وأغمد سيفه ؛ ثم ذهب بعد ذلك فأعرب له عن ولائه وشكره باسم الأمة إذ أجابها إلى ما طلبت على لسانه ...

ألا إنا لنعجب بذلك ونفخر به إذ نكتبه ، وما نجد من الأدلة التى نسوقها على رجولة عرابى وشهامته وبعده عما يرميه به خصومه أقوى أو أجل من هذا الذى نشير إليه ...

فإذا أضفت إلى ذلك ما كان يدبر فى خبث من الدسائس فى ذلك الموقف الرهيب ، وذكرت كيف أحبطها عرابى بمزيج من الصبر والبسالة يدعو إلى الإعجاب حقاً ، ازددت لا ريب إكباراً لموقفه فى ذلك اليوم ، ولقد كانت أية كلمة نابية أو أية إشارة يساء فهمها كفيلة بأن تسيل الدماء فى تلك الساحة ، قال عرابى « لو حاول الخديو قتلى لأطلقت النار عليه »[١] .

وينبغى ألا ننسى ما اتخذه عرابى من الحيطة قبل ذهابه ، وذلك باتصاله بالقناصل وبالخديو ، فقد كان بذلك حكيما موفقاً ، لا يدع مسلكه محلا لغميزة أو يهىء سبباً لملامة ...

نجحت حركة عرابى أتم نجاح وأجله وتهيأت البلاد لأن تستقبل عهداً يسود فيه الإصلاح والنظام فلقد كان قبول الخديو مطالب عرابى التى أشرنا إليها ينطوى

(١) تاريخ عرابى الذى كتبه بقلمه لمستر بلنت سنة ١٩٠٣ .

على معنى عظيم ، ألا هو موافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستبدادى الرجعى ، والعودة إلى حكم الحرية الدستورية الذى سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتنكر له حين اطمأن فى مصر إلى كرسيه ...

وراحت مصر تستقبل فى تاريخها حقبة من أسعد الحقب فلقد نالت أمانيها دون أن تراق نقطة دم ، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب أهم الثورات التى قصد بها الحرية فى تاريخ الإنسانية ؛ ثورة جديرة بأن توضع إلى جانب ثورة سنة ١٦٨٨ فى انجلترة وإلى جانب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية الكبرى .

ولولا ما كتبه عنها المغرضون المبطلون من الأجانب ، وما ضربه الاحتلال على الآذان والقلوب فحال بين المصريين وبين تاريخ قوميتهم الحقيقى لكان لتاريخ هذه الثورة شأن غير هذا الشأن فى هذا البلد المسكين ...

وصف بلنت تلك الأيام السعيدة بقوله[1] « إن ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التى شهدتها مصر ، ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعينى رأسى ، فلم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها . إنى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث وأخشى ألا أرى مثلها فى المستقبل . إن كل الأحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لافرق فى ذلك كما يظهر بين الخديو والأمة ، وسرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » ...

ولم يقتصر أمر هذه الفرحة الوطنية على القاهرة ، وإنما حملتها الصحف إلى

---

(١) المسألة المصرية لرونستين : تعريب الأستاذين العبادى وبدران ...

المستنيرين فى الأقاليم تبشر النـاس بعهد جديد يشرق على البلاد فجره تجد ذلك فى قول بلنت « وقد أذاعت الصحف هذه الأنباء فى سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحرراً لم نصل إلى مثله من قبل ، واستطاع الناس آخر الأمر أن يلتقوا ويتحادثوا غير خائفين فى كل جهة من جهات الأقاليم لا يخشون من الجواسيس ولا من تدخل الشرطة ؛ وسرت هذه الروح السعيدة إلى كل الطبقات من المسلمين والمسيحيين واليهود وشملت رجالا من كل دين ومن كل جنس ومن هؤلاء عدد غير قليل من الأوروبيين الذين اشـتدت صلتهم بالحياة المصرية ؛ حتى القناصل أنفسهم لم يسعهم إلا أن يعترفوا أن العهد الجديد كان خيراً من القديم وأن رياضاً ارتـكب أخطاء وأن عرابياً إن لم يكن مصيباً فى كل شيء فهو على الأقل لم يكن مخطئاً فى كل شيء » .

رجل أمة

اغتدى اسم عرابى على كل لسان فى مصر ، فعلى يديه تم الانقلاب المنشود ، وإليه نسب كل فضل ، وأصبح الناس فى القاهرة وفى القرى يتحدثون فى إعجاب عظيم عن الفلاح ابن الفلاح الذى أسمع الخديو كلمة مصر فى إباء وعزة وأجبره على أن يجيب الأمة إلى ما طلبت ...

ومن السهل على المرء أن يتصور وقع هذه الأنباء فى الناس فى عصر كذلك العصر فقد تناقل الناس كلمات عرابى للخديو وهم لا يكادون يصدقونها ؛ ومن السهل كذلك أن يدرك المرء كيف اغتدى بحق عرابى فى مصر رجل أمة ، فقد اجتمع فيه رجاها ؛ وأضحت تتفاخر به لأنه من صميم فلاحيها ، ولأنها باتت تحتمى به وتحس إحساساً واضحاً أن الرجل الذى كانت تتطلع إلى ظهوره كما تتطلع كل أمة فى مثل موقفها ، قد تهيأ لها فى شخصه آخر الأمر .

ولقد نبه اسم عرابى وحقت له الزعامة عقب حادث قصر النيل ، فلما كان يوم عابدين ، وثق الناس من بطولته وركنوا إلى زعامته ، واستمدوا حميتهم من حميته وباتوا يربطون مصيرهم بما يفعل أو يقول .

***

عارض شريف أول الأمر فى قبول الوزارة ، وكانت حجته فى ذلك أنه بقبوله الحكم من غير قيد ولا شرط إنما يضع نفسه تحت سلطة الحزب العسكرى ، الأمر الذى لا يطيق أن يحمل نفسه على قبوله ، ولذلك دارت بينه وبين عرابى وزملائه مفاوضات استمرت بضعة أيام تحرجت الأمور فيها حتى أوشك شريف أن يتنحى عن قبول الوزارة

ولكن بوارق الأمل ما لبثت أن لاحت ، وكان جميلا أن تلوح من جانب

ذلك الرجل الذى لا يزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالفوضى ويردون أسباب ما لحق مصر من ويلات إليه ، فيقيمون الدليل بذلك على أنفسهم أنهم إما ذوو أغراض، أو ألو جهل بحقائق الأمور معيب …

كان جميلا أن يبرق الأمل من جانب عرابى فيخفض جناحه لشريف ويذعن لما اشترط من شروط فى صدق إخلاص وعن طيب خاطر …

دعا عرابى رجال الحزب الوطنى وأعضاء مجلس شورى النواب المعطل،وعرض عليهم الأمر ، وكان على رأسهم سلطان باشا ؛ وذهب وفد من هؤلاء إلى شريف يرجون منه قبول الحكم ، فعرفوا أنه يشترط ألا يتدخل الجند فى شىء ؛ وأن يرحل عرابى وعبد العال بفرقتيهما إلى مكانين يختاران لهما ، وأن يترك حراً فى اختيار وزرائه لأن عرابياً كان يطلب إليه إعادة البارودى وإدخال مصطفى فهمى باشا فى الوزارة ، وكان شريف يرفض ذلك لأنهما لم يثبتا على عهدهما فدخلا وزارة رياض عقب إقالة وزارته …

وتعهد سلطان ووفده أنهم يضمنون لشريف خضوع عرابى والحزب العسكرى وكان بين الوفد نفر من ذوى المنزلة فى البلاد كأباظة والشريعى والمنشاوى والمويلحى والشمسى والوكيل ، وهم أهل نفوذ وجاه يعرف شريف قيمة انضمامهم إليه …

سمع عرابى ما عرضه سلطان ومن معه فذهب بنفسه إلى شريف يستحثه على سرعة تأليف الوزارة ويظهر له ما يخشاه من الإبطاء ، قال عرابى « وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى وقلت إنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له : إن لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك ففيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز … فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يحر جواباً ، ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوى عاشور وكيل زراعته وقال إن الباشا قبل ما عرضته عليه » .

وألف شريف وزارته الثالثة ، وكانت هذه أولى ثمار الثورة ، وقد قبل الوزيرين

اللذين أشار بهما عرابى ، كما قبل رجاء الحزب العسكرى وهو النظر فى القوانين الخاصة بالجيش وذلك فى مقابل أن يخضعوا لحكمه ويبتعدوا عن كل تدخل فى شؤونه .

ودعا وزير الحربية عرابيا ، فأفهمه رغبة الحكومة فى أن يسافر بفرقته إلى رأس الوادى ، وأن يسافر عبد العال إلى دمياط ، فقبل عرابى ذلك ، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بالانتخاب لمجلس شورى النواب قبل السفر ؛ ولاريب أن هذا الشرط من جانب عرابى خروج منه على ما أخذه على نفسه من عدم التدخل فى شؤون الحكومة ؛ وهو أمر لا يسعنا إلا أن نحسبه عليه ، بل نلومه عليه مهما كان ما ينطوى عليه طلبه من خير للبلاد ؛ ومهما كان فى هذا الطلب من معانى حرصه على الدستور والحياة النيابية ، وبخاصة لأن على رأس الحكومة رجلا مثل شريف ...

أما عن امتثاله لأمر الحكومة بقبول السفر ، فهو فى ذاته على الرغم مما أحيط به من اشتراط يعد من محامد عرابى ، إذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة فى التفاهم شتان بينها وبين ما يعزوه إليه خصومه وجاهلو أمره من حماقة ونزق وعنف فى كل ما يطوف بهم من سيرته ؛ كما أنه يقدم بطاعته دليلا على نبل غرضه وحسن طويته فيما سعى إليه ...

* * *

وخرج عرابى فى اليوم الثامن من شهر أكتوبر يقصد السفر بفرقته إلى رأس الوادى ، وذلك بعد مرور أربعة أيام على موافقة الخديو على دعوة مجلس شورى النواب وكان قد سبقه عبد العال فى السفر إلى دمياط ...

سار عرابى بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين رضوان الله عليه « فوقف الآلاى مقابلا للمسجد تعظيما وإجلالا لسبط الرسول عليه الصلاة والسلام » ؛ ودخل عرابى المقام الحسينى مع الضباط ، « وأمَرَّ بيرق الآلاى على الضريح الشريف » وسار بعد ذلك إلى المحطة فما كاد يتوسط المدينة حتى ألفى الشوارع مكتظة

بالناس ، وإنهم ليهتفون باسمه فى حماسة ويحيونه تحية الزعيم المنقذ ، ويلقون فى طريقه الزهر والرياحين .

وفى المحطة وجد عرابى جميع ضباط الجيش المصرى وجمهوراً عظيما من الأعيان وذوى المكانة وعدداً هائلا من عامة الناس فاحتفوا بمقدمه ، وكانت توزع الحلوى وتنثر الزهور فى فناء المحطة ؛ وكان يتسابق الخطباء والشعراء فى تمجيد ذلك الذى جرى اسمه على كل لسان فى مصر ؛ ووقف عرابى فى هذا الجمع خطيباً فقال : « سادتى وإخوانى : بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها ، وما قصدنا بشغبنا إفساداً ولا تدميراً ولكن لما رأينا أننا بتنا فى إذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا إلا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة ، وقد ساعدتنا العناية الإلهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة فى شؤونها وتعرف حقوقها كباقى الأمم المتمدنة فى العالم ، ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوروبية ما تحصلت على الحرية إلا بالتهور وإراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلباً ، أو نضيع حقاً أو نخدش شرفاً ، وما وصلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا بالاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد » .

وهتف عرابى بحياة الخديو واهب الحرية وحياة الجيش ، وحياة الحرية ، ثم امتدح الوزارة ورئيسها ووصف البارودى بقوله : « رئيسنا الوطنى الحر القائم بخدمة الوطن وأهله » . وحذر إخوانه فى الجهادية من الوشاة والحساد ، وحثهم على الاتحاد قائلا : « البلاد محتاجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » .

ولنا إلى هذه الفقرة من خطبته عودة كما أن لنا عودة إلى فقرة غيرها نكتفى الآن بالإشارة إليها وهى قوله « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من

يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر الراحة » .

واختتم خطابه بعبارات ذات مغزى مثل قوله « إن الطمأنينة عادت كما كانت وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام ، فلا تأخذكم الأراجيف وإشاعات أعداء الوطن وثقوا بسمى أميرنا ورجاله » ومثل قوله « إن قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق » وقوله « وبيننا من الأعداء من يسعى فى تفريق كلمتنا وإضرام نار الفتنة بيننا » .

واستقبل عرابى بحفاوة كبيرة فى المحطات التى وقف بها القطار وكان يخطب الناس مرافقه فى الرحلة السيد عبد الله نديم كما حدث فى الزقازيق حيث كان على رأس مستقبليه فيها أمين بك الشمسى ووقف عرابى يخطب الناس هناك فكان مما قاله : « أنا أخوكم فى الوطنية واسمى أحمد عرابى ، ولدت فى بلدة هرية رزنة من بلاد الشرقية هذه فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وها أنذا واقف بين الأهل والخلان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ؛ وبعناية الله سبحانه منحنا مولانا الخديو هذه الأمنية فنحن لم نخرج من العاصمة عصياناً ولا تظاهراً بعدوان ، وإنما سرت بالجيش ووقفت بين يدى الخديو وقفة الطالب الراجى كرم مولاه ، فلا تعولوا على الأراجيف وإشاعات أهل الفساد ؛ واعلموا أن البلاد محتاجة إلى الخدمة بالقوة والفكر والعمل ؛ فأما القوة فنحن رجالها ، ولا نلتنى عن عزمنا وفى الجسم نفس ، وأما الفكر فهو منوط بأميرنا العظيم ووزرائه الكرام ؛ وأما العمل فهو منوط بكم فأن القوة والفكر يبطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة ، وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الأمور منوطة بأهلها ، والحقوق محفوظة لذويها » .

وقال عرابى فى خطبة أخرى بالزقازيق ألقاها فى وليمة أعدها له أمين بك الشمسى رئيس تجار الزقازيق « سادتى وإخوانى الأعزاء : أحيى أسماعكم باسم مولانا وأميرنا الخديو الساعى فى عمار الوطن وقطع عروق الاستبداد منه ؛

وأذكركم بمدة حجبت عنا فيها أنوار الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم ولا يرحمنا أحد ، وأصبحت أموالنا وأرزاقنا معرضة للنهب والسلب تتخطفها أيدى المستبدين قد تمكنت القسوة من قلوبهم ، وألفوا الظلم وكرهوا العدل والأنصاف حتى كانت عاقبة أمرهم أن أصبح الناس قيد الفقر وذل الفاقة ، والقطر معرضا للأخطار مهيأ لامتداد أيدى الطامعين إليه فعز على إخوانكم وأولادكم الجهادية حماة البلاد ، وتحركت فينا الحمية العربية والغيرة الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء ، وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام مولانا الخديو حفظه الله ، وقد اشتدت شوكة جيش البغى وقويت ممارضته ... وأنقذنا كم من يد من لم يعرف لكم حرمة ولا يعترف بحق ، ولا يرى أنكم مثله من نوع الأنسان ، وشكرنا مولانا وأميرنا الخديو على حسن عنايته بنا وبالأمة وعلى ما تفضل به من مجلس الشورى ، وأنتم الآن مهيئون للانتخاب فلا تميلكم الأهواء والأغراض لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الأذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والأنصاف فى بلادنا » .

وفى الزقازيق دعى عرابى لوضع أساس المدرسة الأميرية فذهب ووضع الحجر الأساسى باسم الخديو قال « وتلوت على الحاضرين خطبة ذكرت لهم فيها فوائد التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل والبصير على الأعمى ، وحرضتهم على الاهتمام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم فى المستقبل » .

وأولمت لعرابى عدة ولائم فى دور بعض وجوه مديرية الشرقية ، سافر بعدها إلى رأس الوادى وليس يخفى ما ينطوى عليه من معان تكريم هذا الفلاح الذى نشأ فى بيت متواضع ، على أيدى هؤلاء السادة والكبراء ففى ذلك أول مظاهر الديموقراطية الوليدة فى هذا الوادى الذى خضع قبل ذلك زمانا طويلا لمظاهر السيادة والأرستوقراطية .

توفيق والثورة

لندع عرابياً فى رأس الوادى ولننظر ماذا كان من أمر شريف ووزارة شريف . وهنا نبادر إلى القول بأن هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث كانت أهم المراحل جميعاً منذ الحملة الفرنسية ، وأدقها وأبعدها أثراً فيما هى مقبلة عليه بعد من مراحل …

ظن الناس أن قد انجلت الغاشية على نحوما صوربلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون ، أو لم يكن يعلم إلا الأقلون منهم أن وراء هذا الصفو كدرا ، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة تصفو هنيهة لتتلبد بعدها بالسحب المركومة، ولتتلاقى فى جوانبها أبابيل سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها بعد الصفو أقبح ما تكون منظراً ، وأشدما تكون إيلاما للنفوس وإزعاجاً للخواطر …

وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشباك منصوبة ، وقد أخذ الصائدون يدفعون الفريسة إليها دفعاً بعد أن أعياهم الأمر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة ، أو أن يعصبوا عينيها كما كانوا من قبل يفعلون

كيف كان يرجى الصفاء ، وقد كان الخديو يضمر عكس ما يظهر كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة الوطنية وإيجاده بما فعل الثغرة التى كانت تنفذ منها الثعالب وبنات آوى إلى صميم حركتها وقلب نهضتها …

وما أشبه توفيقاً فى ذلك الموقف بل فى أكثر مواقفه كما أسلفنا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك الذى كان يدفع الثورة فى بلاده دفعاً ، والذى يعزى إلى سياسته الملتوية المذبذبة أن تنكبت تلك الثورة منهاجها السلمى العاقل واندفعت فى سبيل جرت فيها الدماء وتجمعت على جانبيها الأشلاء

ظهر ذلك الملك للنواب أول الأمر فى جلد الأسد ، ثم ما لبث أن استخزى بعد

وثبة ميرابو ، ولـكن الشائعات طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجمع حوله الجند ،فما لبثت أن جرت الدماء فى باريس ودك الناس الباستيل رمزالعبودية والجبروت ؛ ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والزراية عليه والتهزؤ به أنه يركب فى جماعة من النواب كان فى مقدمتهم ميرابو فيزور باريس ويطوف بأنحائها ، ويمر بخرائب الباستيل مظهراً عطفه على الثورة والثوار ، ولـكنه يعود بعد ذلك فيأتى من معانى التحدى والنزق ما يحمل الشعب يذهب فيقتحم عليه غرف قصره فى ڤرساى ويعود به إلى باريس ليكون رهينة فيها ، ويتم الدستور فيرفع إليه فيوافق عليه ولـكن ريثما يعد العدة للهرب ، ثم يضبط المسكين وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضى عليه هذا العمل،وتمضى الثورة فى طريقها مجنونة لا تلوى على شىء حتى تأكل آخر الأمر نفسها

ولقد كان توفيق يسـلك تجاه الثورة العرابية مسـلك لويس تجاه الثورة الفرنسـية مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من ورائه الأنجليز فلما لجأ إليهم توفيق كما هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وإنما قضى على مصر ...

تخلص توفيق من رياض وقد كان يسعى إلى التخلص منه . فـكيف كان يريد أن يسلك مع شريف مسلـكه مع رياض ولقد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الديمقراطية والاستبداد ؟

عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح أن الطريق الأوحد هو الانضمام إلى الحركة الوطنية ومشايعتها فى صدق وإخلاص ،فنى ذلك منجاته من تطرف هذه الحركة وجموحها ، وفى ذلك منجاة البلاد من تدخل الأجانب باسم المحافظة على عرش الخديو ، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل ...

ولـكن الخديو تنكب هذا الطريق فدفع تيار الثورة بمسـلـكه هذا ليعج عجاجه ؛ وليس فى نفسه الآن إلا أن يتخلص من هذه الحركة الوطنية التى وضعت السلطة موضعها الطبيعى فى يد الأمة ...

ومن أعجب الأمور بل من أقبح الظلم أنه لما انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه

فيما بعد من عنف وجموح حمَّل زعماؤها كل أوزارها وخرج عرابى المسكين بالنصيب الأوفى من هذه الأوزار ؛ وهى لو عرضت على حقيقتها وردت فيها الأمور إلى أصولها لرد ما يعزى إلى عرابى أو أكثره إلى الخديو دون أن يكون فى ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذاك

لقد ألقى الخديو بنفسه فى أحضان الإنجليز منذ استعان بكلفن يوم عابدين ومنذ أن جعل كوكسن رسوله إلى عرابى وهو على رأس جنده أمام القصر ، فلقد ظهر هذان بمظهر من يعطف على توفيق ومن يستنكر على عرابى ما فعل ؛ وقر فى نفس توفيق أنهما ولياه وأن بنى مصر أعداؤه

منذ ذلك الحين صار الأنجليز فى ظاهر الأمر أستاذ الخديو وفى حقيقته ثعالب تحتال على اصطياد الفريسة وسيظل هذا شأن توفيق حتى يدخل عاصمة مصر بعد هزيمة الجيش المصرى، فى حراسة الانجليز وحمايتهم، فيصطف عساكرهم من المحطة إلى قصره وتحيط بعربته كتيبة منهم وتستقبله على أبواب القصر كتيبة بالنشيد الملكى البريطانى ... بل إننا نستطيع أن نقول إن ركون توفيق إلى الأنجليز يرجع إلى يوم خلع أبيه ، فقد رأى أباه يخلع بنفوذ هؤلاء الانجليز لدى السلطان ، فآثر أن يركن إلى الأقوياء علهم يرضون عنه ! ونكرر القول إن منجاته ومنجاة مصر كانت فى ركونه إلى الحركة الوطنية ، ولكن كيف كان يركن إلى من ينتزعون منه السلطة ليردوها إلى الأمة صاحبتها الحقيقية ولا يركن إلى من يتظاهرون لديه أنهم يظاهرونه ليزيدوا سلطانه ويقضوا على مناوئيه ؟

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الأجانب أو عمل على إرضائهم بقبوله المراقبة الثنائية ، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية ؛ ولكنه مالبث أن رأى هؤلاء الأجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو إليهم إلا اتبعوها ، حتى لقد ترك شريف بعد أمد قصير يعمل وحده ؛ وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه فى عزلة ...

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال بالأجانب وبخاصة الإنجليز

لهـان أمرها ؛ ولـكن توفيقا سوف يخلق أول الأمر بعزلته ريبة ومخاوف فى قلوب المصريين ، ثم تنقلب الحال إلى كراهة وتؤدى الـكراهة إلى المقاومة من جديد ؛ ولقد كان أمام توفيق فى الواقع هيئتان : الوطنيون بزعامة شريف ، والعسكريون بزعامة عرابى ؛ وكان يستطيع بشىء من حسن السياسة ألا يدع مجالا لتدخل العسكريين من جديد ، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالأمس القريب ...

افتتح مجلس شورى النواب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد جاء فى خطاب توفيق فى حفلة الافتتاح ما يأتى : — « أبدى لحضرات النواب مسرورتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولـكن تأخر للان بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحـكومة ، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسرلنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالى على قدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم » .

هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته ؟ تلك هى المسألة ... ونرى أن خير ما نجيب به هو أن ننظر فى الحوادث التى تلت ذلك ومنها يستبين إلى أى حد كان الخديو ينوى أن يعمل كما يقول .

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار ، أو دأبت الثعالب وبنات آوى على تخويف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية ، وناحية تركيا ، موحين إليه فى الأولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو ، وفى الثانية أن تركيا لا ترتاح إلى توفيق وأنها تبيت له ما لا يحب ؛ وغرض هؤلاء الذين يعملون فى الظلام واضح ، وهو أن يركن الخديو إليهم ليخلص من هذا كله .

أما عن حكم الدستور فـكان ذلك يقتضى حقا أن يتنازل الخديو عن جانب

كبير من السلطان المطلق إلى نواب الأمة ، وتلك هى المشكلة ، وما كانت مشكلة مصر وحدها ، بل لقد كان لها مثيلات فى جميع ما شهد العالم من حركات دستورية ، فما نجم الخلاف بين الملكية والشعب فى فرنسا إبان ثورتها الكبرى إلا من هذه الناحية ، وما استمرت القلاقل قرونا بين الملكية والشعب فى إنجلترة إلا بسبب ذلك ؛ وما استقرت الأمور فى الدولتين إلا حينما أثبت الشعبان قوتهما .

وإذا فكان لا بد أن يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو فى مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف أتيحت الفرصة للثعالب ...

وأما عن تركيا فقد كان توفيق يستريب ويخاف من سياستها . فكر السلطان أولا أن يرسل جيش احتلال إلى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الأولى قبل عهد محمد على ؛ ولكن انجلترة وفرنسا ما زالتا به حتى استطاعتا بالسياسة حينا وبالتهديد بعد ذلك حينا حتى أقلع عن هذه الفكرة ؛ ولقد أفادتا من ذلك فائدتين : بقاء الوضع فى مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لهما بالتدخل فى شؤونها ، والتأثير على الخديو أنهما هما الملاذ والسند ...

ولقد كان الأمير عبد الحليم بن محمد على فى الآستانة يدس الدسائس ويسعى سعيا متصلا لخلع توفيق وتولى حكم مصر بدلا منه ، وكانت سيرة ذلك النشاط تزعج توفيقا وتقلق مضجعه ...

وأخيرا أوفد السلطان وفدا إلى مصر برياسة على نظامى باشا وقد فعل السلطان ذلك دون علم الدول الأوروبية ولم تعلم بذلك الحكومة المصرية إلا عند قيام الوفد .

وكان عرابى قد كتب إلى السلطان قبل يوم عابدين ، ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة فى مصر وظن أنها حركة تنطوى فيما تنطوى عليه على فكرة انفصالية ترمى إلى خلع سيادة الأتراك ...

وكان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحرية فى بلاده ويبطش بالداعين إليها ؛ ومكث

الوفد أياما بمصر ثم رحل فقرر عند السلطان نيابة عن الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخيف ؛ وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال العسكرية والزعماء جميعا يؤكدون ولاءهم للسلطان ، وأنه لذلك يثنى عليهم ولا يخالجه شك فى حركتهم .

وقامت إنجلترة وفرنسا بمظاهرة بحرية فى مياه الأسكندرية إذ أحضرت كل منهما بارجة إلى الميناء ، فلما سألتهما الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجابتا أن سفينتيهما تغادران الأسكندرية فى اليوم الذى يسافر فيه الوفد العثمانى عائدا إلى الآستانة ؛ وقد تم ذلك فعلا حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك أن الدولتين لن تسمحا للسلطان حتى بمجرد النظر فى أحوال مصر ، ومعنى ذلك أيضا أن يلقيا فى روع الخديو أن يلجأ إليهما إذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه ...

ورب قائل يقول إن فى مسلك تركيا ودسائس عبد الحليم ما يدع للخديو العذر فى الاعتماد على الدولتين؛ ولكن هذا زعم باطل ، فرجال مصر جميعاً وإن لم يكونوا فى تلك الأيام يفكرون فى الخروج على السلطان ، إلا أنهم كانوا لا يسمحون له أن يتعدى الفرمانات المقررة ؛ وهب أن للخديو العذر فى أن يخاف جانب السلطان فهل كانت الدولتان تحميانه إلا لغرض ؟ وهل كان هذا الغرض إلا رغبة كل منهما أن تحل محل السلطان ؟

إن الحوادث جميعاً كانت تشير للخديو إلى الطريق الوحيد الذى كان عليه أن يسلكه ، ولكنه اختار الانحياز إلى انجلترة منذ حادث عابدين كما أسلفنا القول مع تظاهره بأنه يعطف على أمانى البلاد ، وفى ذلك الخطر كل الخطر وفيه مسؤولية الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك إلى تلك السبيل التى أفضت بالبلاد إلى كارثة الاحتلال ؛ ومع هذا فإن بعض المصريين كانوا إلى عهد قريب ولعل منهم من لا يزال حتى اليوم يقرن الاحتلال باسم عرابى كلما ذكر هذا الاسم ، فإذا قلت لهم إن عرابياً هو الذى جرد سيفه وقاد جيشاً من المصريين ليصد الاحتلال ، وبذل من الجهود وحمل من الأعباء ما لا يبذل أو يحمل مثله إلا أولو العزم من الرجال ، وأنه لولا ما أحاط به من خيانة لم يحط مثلها بقائد قبله لكان النصر حليفه لا محالة ، حملوا كلامك هذا على المبالغة وصعب عليهم أن يصدقوه وقد أضلهم كتاب الاحتلال وصنائع الاحتلال ...

بين عرابى وبلنت

نعود إلى عرابى فنقول إن الحكومة استدعته من مقره فى رأس الوادى وأسندت إليه منصب وكيل وزارة الحربية وصدر الأمر العالى بذلك فى اليوم الرابع من شهر يناير سنة ١٨٨٢ وهو يعزو ذلك إلى ما بلغ الحكومة على ألسنة جواسيسها أنه يجول فى بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجوه وبأشياخ العرب محرضاً داعياً إلى مبادئه وأغراضه ...

ويذكر عرابى أنه فوتح فى أن ينعم عليه يومئذ برتبة اللواء فيصبح أحمد عرابى باشا ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه ، ولئن صح هذا وهو مالا نستبعده ، لكان لنا فيه حسنة نضيفها إلى كبريات حسنات هذا الرجل، فإن التهافت على الرتب والألقاب لم يزل حتى اليوم فى بلادنا المسكينة داء عياء يتغلغل فى نفوس سادتنا وكبرائنا ..

ونقول لئن صح ذلك لأن الخبر من جانب عرابى فهو فى مرتبه الدعوى ... ونقول إنا لا نستبعده مستندين فى ذلك إلى شاهد قوى فهذا الرجل كان بطل الانقلاب ، وعلى يده وصلت مصر إلى ما وصلت إليه ، ولكنه لم يصب مغنما ما ، ولو كانت فى نفسه أطماع وقتئذ لرأيناه يصل إلى مرتبة الوزير ، فقد كان فى موقف تحكم فيه فى الخديو وفرض عليه الشخص الذى يؤلف الوزارة وهو موقف يوحى إلى الأنفس الغرور ، فلو خالج نفس عرابى يومئذ طمع فى جاه أو منصب لما وقف دونه إلى ما يبتغى حائل ...

وأقام عرابى بالقاهرة فى منصبه الجديد ، وكانت داره تمتلىء كل يوم بالناس من كل نمط : الوطنيين والأوروبيين ورجال الصحافة من الأجانب والمصريين ورجال السياسة الذين كانوا يسألونه عن مرمى حركته ، وعما يطمح إليه ،
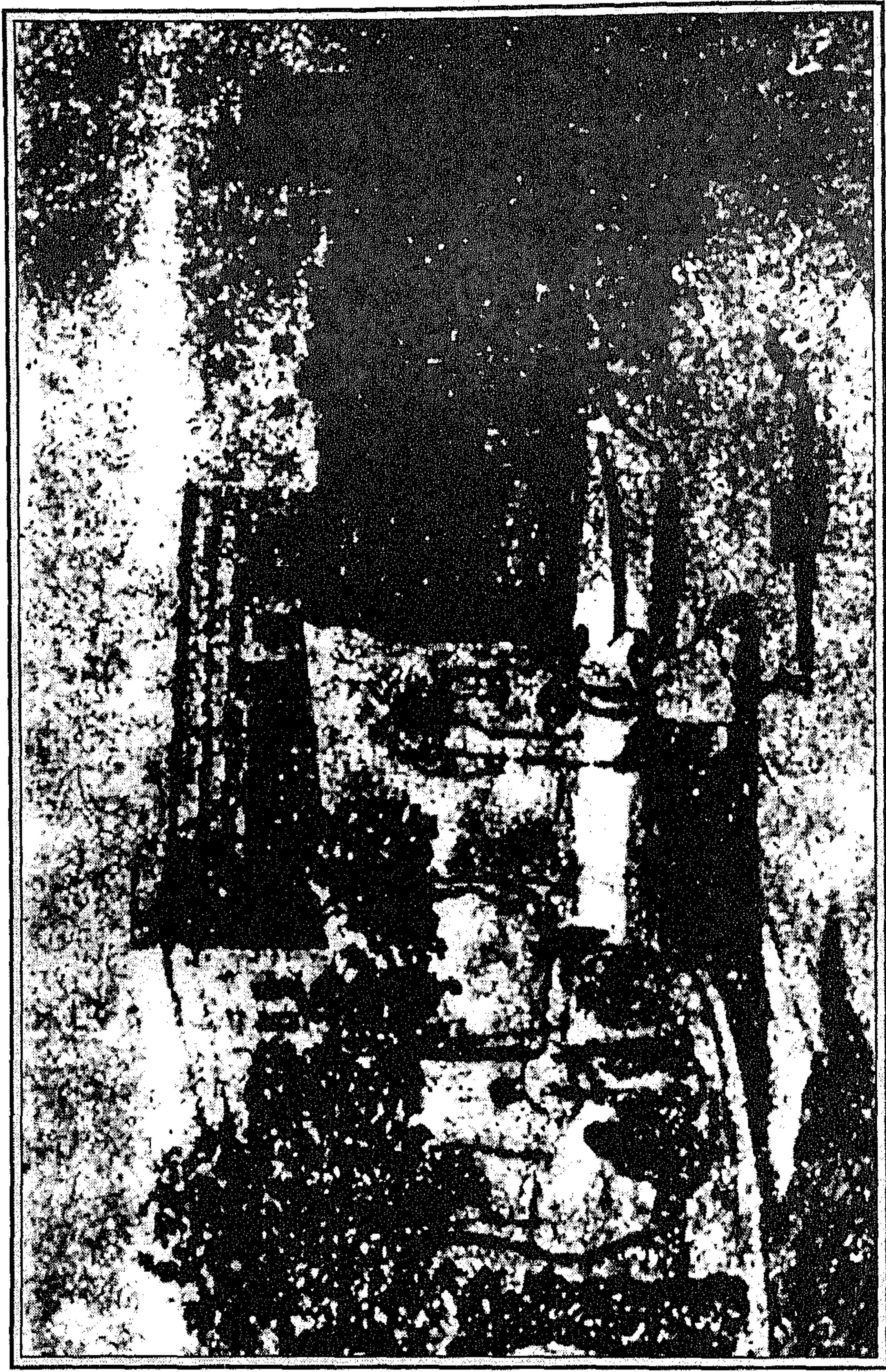
(بيت عرابى أو بيت الأمة كما كان يسمى)

ويستكتبونه البيانات عن آماله ، فازدادت شخصيته بذلك خطراً وذاع فى الأوربيين صيته ؛ وكانت زعامتـه تزداد رسوخاً فى قلوب مواطنيه حتى لقبوا بيته باسم « بيت الأمة[1] » وبات يقصده كل متظلم يطلب معونته حتى فى أتفه الأمور ...

وكان ممن اتصلوا بعرابى يومئذ مستر بلنت فتعارفا ، وجرى بينهما حديث أثبته كل منهما فى مذكراته وفيه أشار عرابى إلى ارتياحه لتخلص مصر من مساوىء حكم اسماعيل ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة إنجلترة وفرنسا نحو مصر ، وعبر فى كياسة عن أمله فى أن تعطف إنجلترة على حركة الحرية فى مصر وهى الدولة التى تعلن دائما أنها نصيرة الحرية والديمقراطية وذكر عرابى أنه يتوقع العطف من إنجلترة أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب جلادستون الذى اشتهر بعطفه على الحرية فى كل مكان ...

وليت شعرى ما ذا يطلب الذين يرمون عرابياً بالطمع والجهل والنزق أكثر من هذه البراهين التى نسوقها على أنه كان بريئاً من هذا كله ؟ ألم يأن لهؤلاء أن يقرأوا سيرة هذا الرجل فى غير تحامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصرى المجاهد قدره وأثره فى نهضتهم القومية ؟ ... وهل يوجـد فى المعايب القومية عيب أشد قبحاً من جهل قوم برجالهم فى الوقت الذى يرون فيه غيرهم من الأمم يمجدون ذكرى الرجال فيوحون إلى الأجيال القادمة معانى البطولة بما يقدمون لهم من الأمثلة ؟ .

لقد أعجب بلنت بعرابى ووقعت عباراته من نفسه موقعاً حسناً ، قال بلنت يصف كيف تعرف إلى عرابى وكيف كان وقع لقائه فى نفسـه « كان عرابى يومذاك فى قمة صيته ، يتحدث عنه الناس فى طول مصر وعرضها بقولهم « الوحيد » أعنى أنه الرجل الوحيد ، وكان القوم من جميع أنحاء القاهرة يتزاحمون على داره حيث يدعون ظلاماتهم بين يديه ، وكانت حجرته الخارجيـة ملأى كل يوم بالمتوسلين وكذلك كان مدخل داره من الشارع ...

وكان قد سمع عنى أنى ممن يعطفون على قضـية عنصر الفلاحين وأنى من

(١) كان فى مكان عمارة بناجة الحالية تجاه وزارة الأوقاف وكان الفضاء حوله متسعاً من كل ناحية بحيث يطل من الشرق على قصر عابدين ومن الغرب على قصر النيل

أصدقائهم ، ولقيني بكل ما في وسعه من حفاوة ، وبخاصة ، كما قال لي ، لما نمى إلى علمه من صلة أسرتي ببيرون ذلك الذي كانت له في نفسه مكانة عالية وإن لم يعرف شيئاً عن شعره ، لما كان من عمله من أجل حرية اليونان ... وهذا أمر جدير بالملاحظة لما فيه من دلالة خاصة على منحى عرابي بالنسبة للإنسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة . فلم يكن فيه شيء من التعصب إذا كان التعصب معناه الكراهية الدينية ، وكان على أهبة أبداً لأن يتعاون من أجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى أو مع الكفرة على الرغم من تقواه التي لا التواء فيها بأية حال ...

ولقد كلمته طويلا وفي غير تحفظ ودار الحديث حول المسائل التي كانت تشغل الأذهان يومئذ ، ووجدته يصارحني كما أصارحه ويتكلم في يسر ؛ وقد عبر عن ولائه التام للخديو طالما أنه يحافظ على وعوده ولا تظهر أية محاولة من جانبه ليسلب المصريين حريتهم الموعودة ؛ ولكن كان من الأمور البينة أنه كان لا يثق فيه كل الثقة ، وعد من واجبه أن يراقبه في حذر مخافة أن يتنكب الطريق ...

وفي كتاب أرسلته إلى جلادستون بعد ذلك بقليل أي في ٢٠ ديسمبر بعد أن تمت مقابلات ومناقشات أخرى بيني وبين عرابي قلت عن عرابي : إن الآراء التي يفصح عنها ليست تكراراً للعبارات المتداولة في أوروبا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربي تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الإسلام وهو ينكر كما أعتقد كل مطمع شخصي ، وليس هناك شك في إخلاص الجيش والأمة له ... وقد تحدث عن مكانه في تواضع قائلا : إني أمثل الجيش لأن الظروف جعلت الجيش يثق بي ، ولكن الجيش نفسه إن هو إلا ممثل الشعب وحاميه حتى يأتي الوقت الذي لا يحتاج فيه إليه ؛ ونحن في الوقت الحاضر القوة القومية الوحيدة التي تقوم بين مصر وبين حكامها الأتراك ، الذين لا يتورعون في أية لحظة إذا أُخلِيَ سبيلهم أن يجددوا مساوىء عهد إسماعيل .

وتحول المراقبة الأوروبية دون ذلك ولكن فى صورة جزئية فحسب ، ولا تتخذ شيئاً من الحيطة بتعليم الشعب حكم نفسه ارتقاباً لليوم الذى تتخلى فيه عن مهمتها المالية ، وهذا أمر علينا أن ننظر فيه ؛ لقد كسبنا للشعب حق التكلم فى مجلس يضم الأعيان وإنا لنعمل على ألا يطردوا أو يخوفوا فيخرجوا منه ؛ وإنا فى هذا لا نعمل لأنفسنا بل لأعقابنا وللذين وضعوا ثقتهم فينا ... ونحن الجند الآن فى وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين أجابوا الخليفة عمر حين سألهم فى شيخوخته عما إذا كانوا راضين عن حكمه وعما إذا كان فيه قد استقام على طريق العدالة ، قالوا يا ابن الخطاب إنك استقمت على الطريق حقاً ولهذا أحببناك ، ولكنك لست تعلم أننا كنا قريبين منك وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلا معوجة لنردك إلى الطريق السوى بسيوفنا ... وإنى على ثقة من أنه لن تكون بنا حاجة إلى العنف ، فنحن معشر المصريين لا نحب الدماء ونأمل ألا نسفك شيئاً منها ومتى تعلم برلماننا الكلام فسينتهى واجبنا ؛ ولكننا نعتزم إلى أن نصل إلى ذلك الوقت أن ندافع عن حقوق الشعب مهما كلفنا ذلك من ثمن وإنا نخاف بمعونة الله أن نثبت أهليتنا لرعاية تلك الحقوق إذا لزم الأمر ضد كل من يعمل على إسكاتها ...

وقد أثر فى تأثيراً جد عميق هذا النمط من الكلام الذى يختلف كثيراً عما يستعمله السياسيون الشرقيون فى أحاديثهم مع الأوروبيين ؛ وقد كشفت لى عن فارق عقلى كبير بين عرابى وبين زعيم آخر من زعماء الحرية قابلته فى دمشق وحادثته وهو مدحت باشا ؛ فلم يكن فى حديث عرابى شىء من ذلك اللغو حول السكك الحديدية والترع والترام كمشروعات للاصلاح يعمر بها الشرق ، ولكن كان فيه كلمات تنفذ إلى أعماق الأشياء ، وتحدد تبعة الحكومة الصالحة بحيث تلقيها على الكواهل التى تستطيع وحدها أن تحملها ؛ وأحسست أن مثل هذه الكلمات خليقة بأن يصغى إليها فى مجلس العموم إذا قدر لها أن تسمع هناك ...

وأما عن السلطان وعلاقة مصر بتركيا ، فقد كان كلام عرابى كذلك مبيناً ؛

لقد أخبرنى أنه لا يحب الأتراك الذين أساءوا حكم مصر عدة قرون ، ولا يحب أن يسمع عن تدخل من القسطنطينية فى شؤون مصر الداخلية ؛ ولكنه يجعل فرقاً بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان ، وذلك أنه كأمير للمؤمنين تجب طاعته والإجلال له إذا عدل ؛ وكذلك يوحى إليه عمل فرنسا فى تونس بعد أن انتزعتها من الأمبراطورية واستولت عليها ، ضرورة المحافظة على الصلة برأس العالم الإسلامى ؛ قال عرابى : نحن جميعاً أبناء السلطان ونعيش معاً كما تعيش أسرة فى بيت ؛ ولكن كما هو الحال فى الأسر لكل منا نحن أهالى الأقطار الإسلامية ، حجرة مستقلة يترك لنا أمر تنظيمها حسب إرادتنا ولا يسمح حتى للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك ولقد اكتسبت مصر هذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ؛ وسنحرص على أن نحتفظ به ؛ ونحن إذا طالبنا بأكثر من ذلك فإنا نركب متن الشطط وربما فقدنا حريتنا فقداناً تاماً .

وسألته فى شىء من الثقل عما إذا كان ذا صلة شخصية بالقسطنطينية كما تؤكد الأشاعات ، ولاحظت عليه شيئاً من التحفظ فى الإجابة ، فما لا شك فيه أن حديثه مع أحمد راتب ذلك الحديث الذى لم يكن لى به علم وقتذاك ، كان يجول بخاطره وسَبَّبَ هذا التردد ولكنه لم يشر إليه ...

وأخيراً تكلمنا عن علاقة مصر بالمراقبة الثنائية ، مراقبة انجلترة وفرنسا ؛ فأقر عرابى ما تم من خير فى عهدها كتحرير البلاد من إسماعيل وتنظيم الشؤون المالية ، ولكنهما يجدر بهما ألا يقفا فى سبيل الحركة القومية بتعضيدهما سلطة الخديو المطلقة ومن حوله من الباشوات الشراكسة ، وقال إنه ينظر إلى انجلترة أكثر مما ينظر إلى فرنسا لنصرة الحرية الوليدة فى مصر وبخاصة جلادستون الذى هو من أنصار الحرية ؛ وشكا من مالت وتصرفاته ؛ وعملت على أن أدخل الطمأنينة عليه من هذه الناحية بقدر ما استطعت ، ثم افترقنا ...

وقد أثر فى نفسى أثراً حسناً هذا اللقاء الأول مع هذا القائمقام الفلاح ، حتى لقد ذهبت من فورى إلى صديقى الشيخ محمد عبده لأعبر له عن تأثرى ؛ واقترحت

عليه أن يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذى ذكره عرابى كى أرسله إلى جلادستون ، فأنى أعتقد أن برنامجاً كهذا لو أبلغ إليه من جهة يثق فيها جدير بأن يحدث فى نفسه أثراً طيباً لصالحهم ؛ وحدثت مالت كذلك بهذا الاقتراح فذكر أنه يعتقد أنه يحدث ذلك الأثر الطيب ، وعلى ذلك وضعت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض زعماء الوطنيين ، وكان يعاوننا صابونجى، برنامجاً يتضمن آراء الحزب الوطنى ، وعرضنا ذلك على البارودى فأقره ، وعرضناه كذلك على عرابى ؛ وبعد أن تم ذلك أرسلته إلى جلادستون قائلا إنه وضع على علم من مالت وبإقرار منه لما جاء فيه وشرحت له الموقف كله ورجوت منه أن يعطف على حركة هى قريبة من المبادىء التى يعتنقها » .

هذا هو كلام بلنت عن عرابى نقلناه عن كتابه ، فماذا يرى فيه خصوم عرابى ممن جهلوا حقيقة أمره ومن المتقولين عليه ؟

أيبقون على إصرارهم فلا يرون فيه إلا جاهلا غراً لا دراية له بالسياسة وشؤونها ؟ ألا يزال ينكر هؤلاء أنه كان مؤمناً برسالة يطمع أن يؤديها إلى بنى وطنه ، رسالة الحرية والكرامة القومية ؟

حسب المرء أن يذكر مبلغ ذلك العصر من العلم ومن اليقظة القومية ، ومبلغ ما كان فيه من الرجال إذا قورن بالعصر الذى نحن فيه ، ليرى كيف بلغ عرابى بحميته وإخلاصه وصادق حبه لوطنه مبلغاً من الزعامة خليقاً بأن يسلكه فى عداد الأفذاذ من رجالنا فى تاريخنا كله ...

وإن الذى يخطو الخطوة الأولى فى كل ما يتطلب جرأة ليعظم فضله ويعلو اسمه على كل من يخلفه حتى ولو كان فى هؤلاء الخلف من هو أكثر جرأة وأجل أثراً وأعظم خطراً وأكبر عقلا ؛ وذلك لأن الفضل للبادىء . ولن يوجد فى الخلف من يكون أعظم فضلا ولا أخلد مجداً .

وإن الرجل الذى يقتدى بمن سبقه من الأبطال من بنى قومه ، أو الذى يُلق معانى البطولة فى نفسه كثرة الأبطال من حوله ليحمد على بطولته ، فكيف بمن

ينشأ على غير سابقة وينهض مدفوعاً بما فى فطرته من معانى الإباء والأنفة كهذا الفلاح الذى كبر عليه أول الأمر أن يستذله ويستذل إخوانه المصريين رفقى وأصحاب رفقى فما تعاظمه أن يعمل على عزل رفقى وما زال به حتى عزله ؛ والذى تفتحت نفسه للدستور فوضع يده فى أيدى الوطنيين وما استبعد الشقة أو قعد به ملل حتى ظفر لوطنه بالدستور وأبعد رياضاً وأحل محله شريفاً ، والذى يحرص بعد ذلك على القومية المصرية ويخشى أن يعصف بها كيد الكائدين فيتربص كما يتربصون ويتأهب كما يتأهبون ...

لقد أعجب بشخصه وبآماله بلنت وحق له أن يعجب به ؛ ولقد قارن بينه وبين مدحت باشا فرجحت كفته على كفة مدحت ، وذهب من فوره يعلن للشيخ محمد عبده مبلغ تأثره بهذا الجندى الفلاح أو فى الواقع بهذا الزعيم المصرى الذى أنجبته مصر ...

الثعالب وبنات آوى

قدر على شريف أن يلاق عنتا شديداً من مسلك الخديو من أول الأمر ... وأخذت وزارته تشق طريقها فى حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها دسائس الأجانب وتوثبهم فى ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية إذ رأوا فيها بوادر القضاء على ما كانوا يمنون به أنفسهم فى مصر ...

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة : تنكُّر الخديو لقضية الدستور ، ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربص الدولتين بالحركة جميعا ...

كان طبيعياً أن تفيق البلاد على صيحة عرابى ، وأن تنطلق النفوس من عقالها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها عطاش تتحرق نفوسهم ؛ فبدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس فى صدورهم منذ عزل إسماعيل ، وعادت الصحف تعبر عن مساوىء التدخل الأوروبى ، وتندد بأساليب الدخلاء فى مصر أولئك الذين سلبوها أقواتها بالحيلة ، وحالوا بينها وبين أمانيها زمنا بالأرهاب والبطش ، والذين كان يحتل الكثيرون منهم المناصب المصرية الخطيرة ويؤجرون على أعمالهم فيها إن كان ثمة لهم فيها من أعمال أجوراً غالية من خزانة مصر الفقيرة ...

وأخذت جريدة الطيف ، وكان يصدرها عبد الله نديم تقاوم البهرج الزائف الذى أخذ يلتمع فى مصر فيخطف سرابه أبصار الجاهلين ، والذى سماه الأوروبيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طراز خاص يضيفونه إلى أسلحة الدس والكيد التى سلطوها على البلاد ؛ وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمور ودور المجون ومواخير الدعارة وغيرها من مباءات الفسوق التى كان

يذيعها فى مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم فى شئون البلاد رغبتهم فى هداية أهلها إلى المدنية ! ...

وأخذ صيت عرابى يطغى على صيت جميع الرجال من حوله حتى البارودى وشريف وكان لهما الحكم والجاه ؛ والحق إن القلوب قد تعلقت بعرابى تعلقا يستحيل معه أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، بعد أن خطا فى تاريخ قومه تلك الخطوة الجريئة التى كان النجاح حليفها ...

أخذنا على عرابى أنه حينما طلب إليه أن يخرج من القاهرة بفرقته اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، فهل نأخذ عليه أنه تدخل فى الأساس الذى يجتمع عليه المجلس ؟ فقد كان يرى شريف أن يكون ذلك وفق لائحة سنة ١٨٦٦ ، أى أول لائحة المجلس وقد وضعت فى السنة التى أنشىء فيها ، على أن يضع بالتعاون مع مجلس الوزراء لائحة جديدة تجعل منه مجلساً نيابيا يلائم حال البلاد ، وبعد معارضة شديدة وافق عرابى على ذلك ...

وتدخل عرابى فى مسألة أخرى وهى الميزانية المخصصة لأبلاغ الجيش ثمانية عشر ألفاً من الجند ، ولقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله ، وبعد أخذ ورد وافق عرابى على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن يوفر الباقى من وجوه أخرى

لقد قطع عرابى على نفسه عهداً كما أسلفنا ألا يتدخل فى شئون الحكومة القائمة، وعلى هذا الأساس قبل شريف رياسة الوزارة ؛ لذلك نرى أن تدخل عرابى فى الأمور التى ذكرناها يوجب ملامته ، ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ، ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضي آخر الأمر ولم يسبب للحكومة عنتا ، فهذه الأمور من اختصاص الحكومة وهى لا تمس جوهر قضية البلاد

ووجه اللوم على عرابى أنه هيأ لاعداء الحركة القومية فى مصر أن يمعنوا فى تصويرها صورة عسكرية بحتة سببها تدخل الجند فى شئون الدولة

لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناوأتها فى مصر وفى خارج مصر وإلى

هذه المناوأة يرجع سبب جموح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الأمر من يده ، ولو أنه قدر لمصر فى تلك الأيام المصيبة أن سلك الخديو غير ما اختار لنفسه من مسلك فآزر كبير وزرائه ضد ما كان يحاك للبلاد من دسائس لأمكن أن يسير شريف بالسفينة إلى شاطىء السلامة ؛ ولكن الخديو وا أسفاه لم يكتف بعدم المؤازرة ، بل لقد التجأ إلى الأجانب ، فكان عمله هذا أقوى مساعد على نجاح سياستهم ...

وكان كالفن العضو الانجليزى فى لجنة المراقبة المالية وإدوارد مالت قنصل انجلترة فى مصر هما اللذان يحكمان الشباك حول الخديو ، وكانت لهما سياسة ماهرة غادرة تقوم على أسس أحكم وضعها أولها وفق ماتعلم فى الهند ؛ فهما يظهران الولاء للخديو فيدسان له بذلك السم فى الملق ، ثم هما يخوفانه أبدا من تركيا والعرابيين جميعاً فيذران قلبه هواء ، وهما بعد ذلك يضللان الرأى العام فى بلادهما ويرسلان التقارير السرية عما يجب أن يتبع إلى وزير الخارجية الانجليزية ...

وكانت وسيلتهما فى تضليل ذلك الرأى العام ، السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كالفن نفسه مراسلا لأحدى الصحف وكان مراسل التيمس يستقى منه المعلومات أما شركتا رويتر وهافاس فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه فى العام من خزانة مصر ! وقل أن نصادف فى تاريخ السياسة عملا أشد فجورا من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته ...

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أشنع الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الأمر ، إلى أن منيت بعد هذه المقدمة بالتدخل الرسمى الفاجر الذى لم يدع فى تاريخ العالم عرفا إلا خرج عليه ولا قاعدة إلا سخر منها وحطمها تحطيما ...

أخذ محرروا الصحف فى إنجلترة وفرنسا يندون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر ، ولو أنهم كانوا يحترمون المبادىء التى نادت بها بلادهم حقا لمنعهم ذلك عما فعلوه ...

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوروبا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر فى أوربا الدماء أنهاراً فى سبيل أمثال تلك المبادىء التى كان ينادى بها المصريون ؟ وكيف تكون نغماتها عذبة مشتهاة إذا تغنت بها أوروبا ثم تكون ممجوجة مملولة إذا هتف بها الشرقيون ؟

هذا شعب ينفض عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوروبا ، ثم هو يذب الأجانب عن قوميته، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الآثيمة الظالمة ثقل الحشرات والهوام ، فما ذا كانت ترى أوربا فى هذا من معانى الفوضى والهمجية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الأجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وإفساد ؟ ألا إنها السياسة والأطماع الاستعمارية تقلب عرف الناس نكرا وتجعل المبادىء التى ينادى بها دعاة الإنسانية فى نظر الساسة أحلاما لا تجد لها مستقراً إلا فى رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الأغرار من مصدقيهم . . أما الساسة فقد كانوا لا يتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعى فى تلمس السبيل التى يستولون بها على الفريسة ، وكان موقف انجلترة وفرنسا من مصر ينطوى على كثير مما يبعث الألم والضحك معا ! وكم من المآسى ما تضحك منه النفوس ضحكات لن يبلغ الدمع مبلغها !

كان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان فى استلاب شىء ، وكلاهما يريده لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه ؛ ويفهم كلاهما حق الفهم أن الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة فى تلك الأيام ، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الأساليب الميكيافيلية وأوضاعها ، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قورنت هذه بها لكانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لا يملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا ، بل لقد فرض الاحتلال عليهم أن ينظموا أناشيد المدح وإلا عد سكوتهم جحوداً وعناداً .. وأى

شيء أنكى وأوجع من أن يرغم شعب على تقبيل الأيدى التى استلبته حقوقه والأغلال التى دارت حول عنقه ؟

ويظهر أول شاهد على السياسة الإنجليزية فى تقرير كتبه كالفن بعد يوم عابدين بعشرة أيام جاء فيه « أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها إلا هدنة ، وأن ما وصلنا إليه من التسوية ايعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها »[١] .

وليس فى هذه العبارة أول شاهد على السياسة الإنجليزية فحسب ، بل إن فيها خلاصة هذه السياسة ؛ فستتربص انجلترة بالحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقظاً يفطن إلى دقة الموقف ، ويدرك مرامى السياسة الإنجليزية وأساليبها ؛ ولذلك كان لا يفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم وأقوالهم ما تسيء أوربا تأويله فتسوء بذلك العاقبة ...

وأخذ فريق من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفاً على تثبيت قواعد سياسته وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابى عن رأيه فى الموقفين السالف ذكرهما ، وكان من أثر ذلك أن خففت الصحف من لهجتها وكفكفت من غلوائها ؛ ولقد كان للشيخ محمد عبده فضل كبير فى توجيه العناصر الوطنية نحو هذا المسلك فآثرت مصر أن تركن إلى الحكمة وإن نفوسها لتضطرم بالثورة ...

ولكن الأفق ما لبث أن تجمعت فى حواشيه الغيوم ، وأحست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفد لها صبر الربان أو كاد ، وتلك هى أزمة الميزانية الشهيرة ، وهل كانت الثعالب تعجز عن خلق ما تشتهي من أزمات ؟

فرغ شريف من إعداد لائحة المجلس ثم عرضها على النواب ، وشد ما كانت

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الأستاذين العبادى وبدران .

دهشتهم أن رأوا شريفاً يقرر فيها ألا يكون من اختصاص المجلس عند النظر فى الميزانية البحث فى جزية الباب العالى والدين العام وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات …

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، وعدوا ذلك من الحقوق التى لا تقبل مساومة مهما يكن من الأمر …

وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشايع النواب فى نظرياتهم ، وأخذ يطلب إليهم الأناة والحذر ويريهم عواقب التطرف والتعجل ، ولكنهم لم يلتفتوا إليه ، وظهرت فى الوزارة نفسها بوادر التفكك ، فلقد كان البارودى يطمع فى الحكم بعد شريف فكان لذلك يؤيد الوطنيين فى موقفهم سراً .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يشركه فى وزارته فوجد فى الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف . ثم بلغ الأمر حد اتهامه بالخيانة .

ووقف شريف يواجه العاصفة فى صبر وجلد ، وهو يؤمل أن يجنح النواب إلى السلام والاعتدال واقترح عليهم تأجيل النظر فى هذه المسألة حيناً ، ونشط الشيخ محمد عبده فى معاونة شريف ، وكان مما ذكره فى هذا الصدد قوله « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى ؟ »

ثم بدا على الأفق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة ، فلقد أخذ النواب يتدبرون فى عاقبة هذا التشدد وبدأ العقل يتغلب شيئاً فشيئاً على العاطفة .

وخيل لشريف أن الأزمة بسبيل أن تحل ، ولو أنه اطلع على الغيب لعلم أنها كانت تتضاعف ويشتد خطرها لتتخذ فى النهاية الوضع الذى سوف يغير تاريخ هذه البلاد !

لمح الصائدون فى هذه العاصفة الفرصة المرتقبة ! وهيهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها ؛ إن الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة

هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين والعسكريين جميعاً ، ويفقدوا هم الثقة فيه كل الفقد فيقرب بذلك من الأجانب أو على الأصح يزداد قرباً منهم ...

ولن يعدم الإنجليز وحلفاؤهم أن يختلقوا ألف مبرر لما يفعلون ؛ ومن أيسر الأمور عليهم أن يعلنوا أن البلاد تشيع فيها الفوضى ، وأن الأجانب ومصالحهم تكتنفهم الأخطار من كل صوب ، وأن الخديو بات يخشى على عرشه ولا مخرج له مما هو فيه ، بل ولا مخرج لمصر مما هي فيه من خلل وارتباك إلا أن يضرب على أيدي الثائرين المفسدين في الأرض ...

ومن غريب أمر هؤلاء الإنجليز أنهم بينهم وبين أنفسهم غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية ، فهم لا يقبلون من هذه الشعوب ما يعدونه عندهم من مفاخر الإنسانية ، وإنهم ليرمون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها ، فالتألم من الظالم تنصب على رؤوسهم تمرد ، والسعي إلى الحرية فوضى وهمجية ، والدفاع عن البلاد وذب الدخيل عنها وحشية وإجرام !. على أن هذه سنة الحياة بين القوى والضعيف منذ كان الإنسان يتخذ سلاحه من الحجر وينحت مأواه في الجبل ...

ولقد كانت الدولتان تعملان على الكيد للحركة الوطنية في مصر قبل انعقاد المجلس ، وكانت بينهما مراسلات في هذا الصدد ؛ وكانت فرنسا هي المحرضة هذه المرة ! فرنسا التي كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناوأة النفوذ الإنجليزي في مصر !..

ولي المسيو ليون جمبتا أمر وزارة الخارجية في فرنسا في شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ فسرعان ما اتصل بوزير خارجية انجلترة اللورد جرانفل محدثاً إياه في شأن مصر مبيناً له وجوب تضامن الدولتين في العمل إزاء ما يجري هناك من أمور .

وحار جرانفل أول الأمر ما ذا يجيب به على هذه الدعوة ، فهو إن قبلها أصبح مقيداً بالعمل مع فرنسا ، وإن هو رفضها قطع على دولته الطريق وجعل لفرنسا المكان الأول في شؤون مصر ...

وتلقى جرانفل من مصر أنباء «جرة مالت به إلى الطريق التى اختارها …

كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عرابى والمراقبين ، فأرجف المرجفون أن عرابياً يعتزم أن يأتى بثورة جديدة لإسقاط وزارة شريف وتنصيب البارودى مكانه …

وكتب السير إدوارد مالت وهو رجل مسؤول إلى اللورد جرانفل يشكو من تدخل عرابى ويتساءل فى لهجة ساخطة برمة : كيف يستطيع شريف أن يقوم على رأس الحكومة مع وجود عرابى صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد ؟ وهكذا يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرمى عرابياً بما هو برىء منه إذ يصوره فى صورة المتعسف الذى تدفعه المآرب الشخصية ، ولا يستحى بعد ذلك أن يكتب إلى رئيسه ينبئه بخضوع عرابى لرأى المراقبين ! … ولكن جرانفل كان قد خطا نحو فرنسا خطوة لا يمكنه النكوص بعدها …

وكتب كلفن كذلك إلى جرانفل يقول « والحقيقة أن الإدارة المصرية شركة ثلاثية ، فإذا لم تكن الدول على استعداد لتعديل نصيبها فعليها أن تحافظ عليه وتقويه فى هذا الوقت الذى أصبح فيه المصريون فى حال تطور وانتقال »[1] هذا عدا ما ذكره فى تقريره عما يتوقعه من خطر إذا زيدت سلطة المجلس وثبتت قواعد الدستور المصرى …

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة إلى جريدة التيمس ، وفيه أقوى حجة على براءة هذه الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الأجانب المالية ؛ وكان يأمل بلنت وأصدقاؤه من الوطنيين أن يكون لنشر هذا البرنامج أثره الحسن فى نفس جرانفل ، ولكنه نشر فى أول يناير سنة ١٨٨٢ بعد أن قضى الأمر ، فلقد وافقت انجلترة على وجهة نظر فرنسا فى يوم ٣١ ديسمبر أى عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام …

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

وخطا شريف باشا فى تلك الأثناء خطوة حكيمة فأعلن بياناً[١] يشير فيه إلى منهاج حكومته ، فذكر أنها تقوم على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التى حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو حاكما دستورياً والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ، ثم إنكار كل اتجاه ثورى ، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس نيابى ...

ولم يكن فى الإمكان يومئذ السير على منهاج أفضل من هذا المنهاج الحكيم ، الذى كان خليقاً أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الساسة من الدولتين ، وكذلك لم يكن هناك برهان على حسن نيات الوطنيين أقوى مما نشرته التيمس لمستر بلنت وهو شاهد عدل من الإنجليز للمصريين .

ولكن المسألة لم تكن مسألة اقتناع ، وإنما كانت نية مبيتة ، وهيهات أن تجرى الأمور فى السياسة على الأقناع والاقتناع ، فدوافع الأقوياء إلى العمل فى ذلك المضمار أطماعهم ، وبرهانهم أسلحتهم ، وما يكون الكلام إلا تعلة الضعيف؛ وما أشبه كلام الضعفاء فى مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تمزيقها ...

ويذكر بلنت سبباً لانحياز انجلترة إلى فرنسا فيقول إن انجلترة كانت تسعى إلى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة الإنجليزية ؛ ومن أجل ذلك هاودت إنجلترة فرنسا وطاوعتها فيما تقترح فى شؤون مصر فباعت انجلترة بذلك مصر إلى فرنسا ...

وما نظن أن إنجلترة كانت من الغفلة بحيث تتنازل عن أغراضها فى مصر من أجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية ، وإنما الذى نفهمه أن إنجلترة كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بمصر موقف الاتفاق فى الظاهر ، بينما تعمل فى الباطن وفق ما تمليه عليها اطماعها ؛ ومما يؤيد ما نقول التحفظ الذى أبدته انجلترة وأقرته فرنسا ومؤداه « إن الحكومة الإنجليزية يجب ألا تعد مقيدة بسبب هذه المذكرة بسلوك خطة خاصة إذا ما بدا لها أن العمل

(١) The Trancit of Egrypt By P. g, Elgood,

ضرورى » ولسوف نرى من سياسة انجلترة فى مصر ما يؤيد ما نقول …

تم الاتفاق بين الدولتين ، وكان المجلس فى مصر كما تقدم يخالف الوزارة فى مسألة الميزانية ، وكان بعض الوطنيين يعملون على الخروج من المأزق بالحسنى ، ولاحت في أفق السياسة بوادر انكشاف الغمة …

وما أشد ما نحسه من ألم ومن غيظ أن نذكر أن البلاد ما لبثت أن تلقت من الدولتين فى اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ تلك الصيحة المشؤومة التى سميت بالمذكرة المشتركة ، والتى قل أن نجد فى التاريخ السياسى ولا فيما يحكى للأطفال من خرافات مثالا أوضح منها لتحكم القوى فى الضعيف واستهتاره به فى غير حياء أو تحرج .. وحسبك أن تقرأ هذا الكلام الذى بعثت به إنجلترة وفرنسا زعيمتا الحرية والديموقراطية ! جاء فى المذكرة[1] « إن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التى قررتها الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسمياً هو الضمانة الوحيدة فى الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام فى مصر واطراد رخائها ، وهما الأمران اللذان تهتم بهما فرنسا وبريطانيا العظمى ؛ وإن الحكومتين اللتين اتفقتا اتفاقاً تاماً فى عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباك الداخلية والخارجية التى يمكن أن تهدد النظام القائم بمصر ، لايداخلهما ريب فى أن جهرهما بما عزمتا عليه رسمياً فى هذا الأمر سيحول دون الأخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو والتى لا بد أن تقاومها فرنسا وإنجلترة معاً ، وإن الحكومتين لتثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج إليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه » .

وأى كلام يمكن أن يعبر عما تنطوى عليه هذه المذكرة من لؤم وفجور ؟ ما معنى الإشارة إلى بقاء سمو الخديو على العرش ؟ وما شأن الدولتين حتى تهتمان بهذا الأمر ؟ وبأى حق تضطلعان بمنع أسباب الارتباكات الداخلية والخارجية ؟ وعلى أى أساس يقوم ادعاؤهما وجود هذه الارتباكات ؟ وكيف يجوز أن يعتمد

(١) المسألة المصرية لروتستين .

الخديو عليهما ويستمد الثقة منهما مع وجود السلطان ؟

هذه هى المذكرة المشتركة التى أشار إليها بلنت بقوله « هذه المذكرة المشؤومة التى إليها يرد كل ما وقع من المصاعب أثناء ذلك العام والتى أفقدت مصر حريتها كما أفقدت جلادستون شرفه وكما أفقدت فرنسا نفوذها فى وادى النيل » .

ولا تسل عما أحدثته هذه المذكرة الحمقاء من سوء الأثر فى مصر ؛ لقد بلغ من إثارتها الشعور وإحراجها الصدور أن نقم عليها مالت وكلفن وتمنيا لو لم تكن! وقد كانا يريدان ألا تكون بمثل هذه الصراحة الطائشة ...

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال الحركة الوطنية إلى العسكريين ، وهو على خلاف ما كانت تنتظره الدولتان فى غباء مضحك أو فى غفلة لا ندرى كيف وقعا فيها ، إلا أن تكونا أرادتا إيقاظ الفتنة وهو خير ما يفسر هذا الذى نحار فيه .

رأى عنصرا الأمة ، الرجعية المسلحة ، بل رأوا الغدر الأثيم يتهدد قضيتهم ؛ وانبعثت الصيحات من كل مكان أن إنجلترة ألقت بنفسها فى أحضان فرنسا ، وأن فرنسا تريد أن تصنع بمصر ما صنعته بتونس ، ولذلك يجب الاتجاه إلى السلطان والمناداة بمبدأ الجامعة الإسلامية لمقاومة هذه الحركة الأثيمة ...

وعظم سخط المصريين جميعا حين علموا أن الخديو قد قبل هذه المذكرة ، ولم يكتف بهذا القبول المشين فكتب إلى القنصلين يشكر حكومتيهما على ما تبديان من عطف نحوه ، وفى هذا دليل صريح على أن الخديو آثر الانحياز إلى جانب الدولتين ونسى موضعه من السلطان ولم يعبأ بما يجد فى مصر من الغضب على مسلكه

وضاع كل أمل فى تهدئة الخواطر ، فأصر مجلس شورى النواب على موقفه فى وجوب نظر الميزانية ، ورأى شريف فى المجلس إجماعا ضده وحماسة ما رأى مثلها من قبل ؛ ولقد رغب جرانفل فى ملاينة الأعضاء فى هذه المسألة كأنما يريد أن يعالج بعض خطئه ، ولكن جمبتا رفض ذلك بحجة أنه يسقط هيبة

الحكومتين أمام الوطنيين ! وما أعجب أمر هـذا الرجل الذى يرى أن الهيبة تكتسب بالحماقة !

على أن جرانفل ما لبث أن شـايع جمبتا فى حماقته فلقد كتب إليه مالت يقول [١] إن المجلس باق وسيظل باقياً مالم يحل بالقوة ؛ وهذا أمر لا يكون إلا بالتدخل الذى هو آخر سهم فى كنانتنا ، والذى لا يسوغه أبداً ما قد يكون من خرق قانون التصفية ... إنى أعترف أنى أفضل أن يعطى المجلس ما يطلبه من الحق وألا نتدخل حتى يسىء استعمال هذا الحق ... ويجب ألا ننسى أن الأمة المصرية قد أخذت تسلك طريق الحكم النيابى خيراً كان ذلك أو شراً ، وأن قانون المجلس الأساسى هو صك حريتها »

هذا ما ذكره مالت نفسه ولـكن جرانفل لم يعبأ به وأرسل إلى جمبتا ينبئه بموافقة الحـكومة الانجليزية على آرائه ؛ ونسى جرانفل أو تناسى أنه كتب إلى مالت قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشـيراً إلى حرية المصريين الوليدة « إن الحـكومة الأنجليزية إذا ما رغبت فى نقض تلك الحرية أو العبث بتلك النظم التى يرجع وجودها إليها فإنها تتبع سنة تخالف تقاليد تاريخها الوطنى . . . ليس من شىء يحملنا على سلوك خطة أخرى غير قيام حالة فوضوية فى مصر »

فليت شعرى ما الذى حدث فى مصر حتى تخالف إنجلترة على هذه الصورة أجمل تقاليد تاريخها الوطنى ؟ ألا إنها السياسة التى لاتتورع عن شىء ولا تستحى من شىء ، وليتدبر فى هذا الموقف من لا يزالون فى هـذا الشرق يتحدثون عن الضمير البريطانى والشرف البريطانى ...

حاول شريف أن يحصل على مذكرة تفسيرية يستعين بها على تسكين الخواطر، فرفض جمبتا حتى هذه المذكرة وعاد جرانفل فشايعه فى هذا مشـايعة عمياء على الرغم من نصح الناصحين من الأنجليز والوطنيين ...

---

(١) المسألة المصرية لروثستين

ولست أدرى كيف كانت ضمائر هؤلاء الساسة تطاوعهم مع هذا على أن ينعتوا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالا فى السياسة لايدرون مايأخذون مما يدعون ؟ ولكن مالى أعود إلى حديث الضمائر والأمر أمر السياسة وجشع السياسة ؟

وضاقت بشريف السبل فلم يدر ما ذا يفعل ، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكا ، والريح من حولها عاصفة وليس فى الجو بارقة أمل ، والنواب لا يفتر إصرارهم ولا تنقطع زمجرتهم ...

وعاد مالت يحذر جرانفل فقال فى صراحة « إن التدخل المسلح سيصبح أمراً محتوما إذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت عن الميزانية ، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع مايوجب هذا التدخل الذى إذا أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى إلى سوء المنقلب فى هذا البلد »

ولينظر فى كلام مالت أولئك الذين يعودون باللوم على عرابى إذا ذكر الاحتلال والتدخل المسلح فى شؤون مصر؛ ومتى يعلم هؤلاء أنه لو لم يوجد عرابى لعمل الإنجليز على خلقه ؟

على الرغم من تحذير مالت أبلغت الحكومة المصرية رسميا فى اليوم العشرين من شهر يناير ١٨٨٢؛ أن المجلس لن ينظر فى الميزانية إلا إذا أخل بالأوامر المالية التى أنشئت بمقتضاها المراقبة الثنائية ...

وكان المجلس قد جنح إلى الاعتدال على الرغم من أنه يرى تدخل الدولتين عملا لاموجب له فتساهل تساهلا لا يدع مجالا لاتهامه بالشطط أو التورط ، فقبل أن يقتصر نظره فى الميزانية على القدر الباقى منها بعد الجزية وقانون تصفية الديون والالتزامات الدولية

ولكن الدولتين أبتا عليه حتى هذا وأكدتا لشريف أنه لن يقبلاه بحال ، وهذا فى الحق هو الشطط ، بل هذه هى الفتنة ؛ والمسألة لا تحتاج إلى بيان فما كانت مسألة الميزانية إلا ذريعة للتدخل الفاجر رداً على نجاح الثورة القومية بعد

يوم عابدين ، فقد كان هذا النجاح مؤذنا كما يبدو لأول وهلة بانقضاء عهد سيطرة الأجانب على البلاد ... ولئن تظاهر مالت وأمثاله من الانجليز بأنهم لا يريدون التدخل فذلك كلام يسبق كل رغبة فى التدخل تأتى من جانب المستعمرين . . . والذى يفطن إليه المرء فى غير طول نظر أن مالت كان ينصح بعدم التدخل لأنه كان يريد أن يبعد فرنسا فلا يجب أن يكون التدخل مشتركا ، وإنما يجب كل الحب أن تكون الفريسة من نصيب إنجلترة وحدها

قال بلنت يصف لقاءه كلفن وقت اشتداد الأزمة بين شريف والنواب «كان الخصام بين النواب وشريف فى أشد حالاته فسألته عن رأيه فى الموقف فقال إنه يراه خطيراً جداً . وكان من الأمور الواضحة أن زعماء الحركة القومية قد صمموا على إسقاط شريف ، فإذا نجحوا فى ذلك فإنه كما قال يقطع صلته بهم ؛ ثم أخبرنى بأنه غير آراءه تغييراً تاما فيما يتصل بهؤلاء فانه ظنهم يجنحون إلى التمقل ولكنه يرى ألا سبيل إلى تمقلهم ولذلك سيبذل قصارى جهده للقضاء عليهم إذا وصلوا إلى الحكم ؛ فسألته كيف يتسنى له أن يقترح ذلك ، وكيف يعترض حركة أقرها أخيراً ، وقد خرجت عن طوقه وطوق كل شخص غيره ؟ كيف يتسنى ذلك إلا بنفس التدخل الذى كنا نحاول جميعاً أن نتجنبه ؟ فقال إنه غير رأيه حول التدخل كذلك وأنه يراه الآن ضرورياً ويرى أنه لا مناص منه وسوف لا يألو جهداً فى العمل عليه ؛ فاعترضته مبينا أن التدخل معناه الحرب والحرب معناها ضم مصر ؛ فقال إنه يدرك هذا المعنى كل الأدراك .. إن ما يحدث فى مصر قد شوهد مثله مرات فى الهند ، وإن إنجلترة لن تتخلى عما تم لها من النفوذ فى مصر ومن العبث الكلام فى حقوق المصريين وأخطائهم ، فذلك مالا يصح اعتباره ، ثم كرر ما سلف أن قاله عن تحطيم الحركة القومية والحزب الوطنى مضيفا إلى ذلك أنه لم يعد يجعل آراءه هذه سراً من الأسرار »

ت كذلك كتابين جاءاه من أصدقائه فى إنجلترة أحدهما من مورلى والآخر من المحافظين وهو ليتون وكان قد كتب إليهما

يسألها عطفهما على الحركة القومية فى مصر ؛ فأما أولها فيقول « إنى أشك فى أن مشروعاتك تصادف نجاحا فى هذا الوقت : إن مصر لسوء حظ أهلها ميدان للتنافس الأوروبى ، وستُمنع تسوية شريفة فيما يهم مصالح أهلها لكي يتمشى ذلك مع ما يلائم فرنسا ؛ وليست لى حيلة فى ذلك ؛ فأنها تلك النقمة التى نزلت بالدنيا ألا وهى السياسة العليا التى ستفسد كل شيء »

وأما ثانيهما فيقول « إن هذه الفئة القليلة من الشعب الأنجليزى التى تفكر فى الأمور الخارجية ، قد امتلأت أذهانها من قبل واضطربت أفكارها بسبب ذلك الوضع الخاطىء الذى ننساق إليه فى مصر ، ويكادون يخافون أكبر الخوف من الجهر بآرائهم عن الموضوع ؛ ويظهر لى أن آراءهم واهية ؛ وفى رأيى أن هذه أولى ثمار تلك السياسة الخاطئة من أساسها التى أدت بنا إلى أن نفقد التعاون مع ألمانيا والنمسا ووضعتنا فى الواقع تحت رحمة فرنسا ، تلك الدولة التى لا يمكننا أن نعقد معها تحالفا على أساس متين يدعو إلى الاطمئنان »

وما نظننا بحاجة بعد هذا الذى يذكره بلنت إلى الرد على الذين يرون أن تمسك النواب بنظر الميزانية هو سبب ما منيت به البلاد من التدخل الأجنبى ...

ولما وجد النواب شريفا يميل إلى موافقة الدولتين ، سار وفد منهم إلى الخديو فطلبوا عزله ، وتعيين رئيس للوزارة يستطيع أن يسير مع نواب البلاد فى سياستهم.

وسقطت وزارة شريف فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨٢ ويرى بلنت أن من عوامل سقوطها كذلك تهديد كالفن بالتدخل العاجل ؛ وحلت محلها وزارة البارودى بعد ثلاثة أيام وهى الوزارة التى سوف تعرف باسم وزارة الثورة

غضبة جديدة

ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابياً ما لبث أن اتجهت إليه أنظار الجميع على نحو ما حدث قبل يوم عابدين ، ورأى الوطنيون أنه الرجل الذى يجب أن يحرصوا على معونته لا لأن الجيش من ورائه بل لأن الأمة المصرية لا تذكر غيره ولا تتجه عند الخوف إلى سواه ...

وتأهب عرابى ليخطو فى تاريخ هـذا البلد خطوة جديدة ، وقد تآمرت الثعالب وبنات آوى على اقتناصه هذا التآمر الوضيع ...

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر فى عودة عرابى إلى طليعة الصفوف فأوفد إليه فى مكتبه بوزارة الحربية صـديقه بلنت ، وكان يطمع فى أن يكسب عرابياً إلى جانبـه أو على الأقل كان يتمنى أن يهدىء خاطره لتفطنه إلى ما يكون لصنيعه هـذا من عظيم الأثر فى ذلك الموقف المصيب الذى سببته رعونة جمبتا وصاحبه ...

يقول بلنت « ذهبت بناء على ذلك إلى قصر النيل ظهر يوم ٩ ، وكان نص المذكرة قد وصل يوم ٨ ، ووجدت عرابياً وحـده فى مكتبه ؛ وكان غاضباً وهذه هى المرة الأولى والمرة الوحيدة التى رأيته فيها كذلك ... وكان وجهه كالسحابة الراعدة وتألقت عيناه ببريق خاص ، وكان قد اطلع على نص المذكرة وإن لم تـكن قد نشرت بعد ، فإنها حتى ذلك الوقت كانت أرسلت بالبرق فحسب ؛ وسألته كيف فهمها فأجابنى قائلا ، بل أخبرنى كيف فهمتها أنت » وعندئذ أفضيت إليه برسالتى فقال « لابد أن السير إدوارد مالت يظن أننا أطفال لا ندرك معنى الـكلمات ... إنها قبل كل شيء لغة تهديد فليس فى هذه الإدارة كاتب يستعمل هذه العبارات لمثل هـذا المعنى » وألمح إلى تلك الإشارة للأعيان التى جاءت فى الفقرة الأولى

من المذكرة قائلا : إن هذا تهديد لحريتنا ، ومضى يقول إن إعلان اتحاد انجلترة وفرنسا فى السياسة معناه أن انجلترة سوف تغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ... ألا فلتدعهم يحضرون ، إن كل رجل وكل طفل فى مصر سوف يحاربهم ... إنه مما يتنافى مع مبادئنا أن نبدأ بالعدوان فنضرب الضربة الأولى ولكننا نعرف كيف نردها ... ثم قال عما جاء بصدد الدفاع عن العرش « إن العرش إذا كان ثمة من عرش هو عرش السلطان ؛ وليس الخديو بحاجة إلى حماية أجنبية ... إنك تستطيع أن تخبرنى بما تشاء ولكنى أفهم معنى الكلمات خيراً مما يفهم السير إدوارد مالت .

وفى الحق إن كلام مالت كان هراء ، وقد أحسست أنى أحمق بين يدى عرابى وشعرت بالخجل أن سمحت لنفسى أن أكون حامل هذا اللغو إليه ، ولكنى أكدت له أنى أديت الرسالة كما حملنيها إليه السير إدوارد وقلت له : إنه يطلب إليك أن تصدقها وأنا أطلب إليك أن تصدقه .

وعند انصرافى عاد إليه شىء من الهدوء ، وأمسك بذراعى وهو يشيعنى إلى أسفل البناء ، وقد دعانى إلى أن أظل على مودته فأزوره فى منزله كما كنت أفعل ، فقلت : إنى سوف أحضر حين تكون لدى أنباء طيبة لك فحسب ، وكنت أقصد بذلك القول أن ألمح له إلى ما كنا نرجوه من تفسير للمذكرة ، أبرق مالت يستأذن فى أن يتقدم به ...

ولما عدت إلى مالت وسألنى عما صنعت قلت له إنه لا يرجى الصلح الآن فإن المذكرة قد ألقت بهم بين ذراعى السلطان » .

هذا كلام بلنت ومنه نتبين مبلغ غضب عرابى من هذه المذكرة ، كما أننا نفهم جانباً مما كان يجيش فى نفس هذا الزعيم الثائر ، فهو لن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ، وهو يلمح نيات إنجلترة فى هذه المذكرة ؛ وما كان عرابى مسرفاً فى تصوير نيات الإنجليز فلسوف نرى أن جرانفل كان فى ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة ...

عاد عرابى إلى الميدان ؛ وفى الناس من تبلغ بهم الغفلة إلى حد أن يأخذوا عليه هذه المودة ؛ وفيهم من يذهبون فى اتباع أهوائهم إلى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين فى مثل منطق البلهاء ، إن كان ثمة للبلهاء منطق ، إنه بمودته هذه قد ساق البلاد إلى ما سيقت إليه من دمار ، كأن على كل رجل إذا رأى كرامته تداس وشرفه يهان أن يقف مكتوف اليدين وإلا ساق نفسه إذا غضب إلى الدمار. ألا إن الرجولة خلاف ذلك ؛ فالرجل الذى يجد نفسه فى موطن الإهانة لا سبيل له يمسك بها رجولته إلا أن يدافع عن نفسه أنفة وحفاظاً ولو أيقن أنه هالك .

ومن المؤلم المثير حقاً أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام ، دون أن ينظروا فى موقف الخديو وموقف الإنجليز على نحو ما بينا ، وهم لا يدركون من المسألة كلها إلا أن عرابياً كان رجلا ذا أطماع شخصية لايدرى ماذا يفعل ، وكلما هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على إثارتها ليصل إلى تحقيق أطماعه إلى آخر هذه النغمة الباردة المرذولة التى ألقى بها الاحتلال فى أذهان الأغفال ...

وأحسب الآن بعد الذى رأينا من موقف أعداء البلاد أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قائلوه ؛ وإنا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم بعد أن نفرغ من سيرة هذا الزعيم المفترى عليه على نحو ما نبين من أوجه الحق لن يعودوا إلى مثل هذا الكلام ، فسبيلنا كما يرون فى إقناعهم الحجة نستخلصها من الحوادث فى عدالة يفرضها الحق ، وفى عطف يوجبه الإنصاف ...

تعهد عرابى ألا يتدخل فى شؤون الحكومة ، فكان إذعانه لهذا أمراً لا بد منه . ولو أنه رفضه لكان فى ذلك مخطئاً أشد الخطأ ، ولكن عرابياً لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه ، لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عسى أن يلم بقضيته من الأحداث ؛ ولم يكن يستطيع عرابى أن يتعهد بمثل هذا ، ولن يستطيع ذلك غير عرابى من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم فى حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ ...

وكيف يفعل ذلك عرابى أو أى رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفرطاً فى

حق وطنه ؟ وأى فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجحود فى أوضح صورها وأقبحها ؟ .

ألا إنه لَلْحق كل الحق أن يُطلب إلى بنى الوطن ألا يتدخلوا فى أعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الأعمال نفسها ما يحفز الناس إلى التدخل أو يوجبه عليهم ... أما أن تفرط الحكومة فى حق الوطن ، وأما أن توضع العقبات فى سبيل قضيته ، ثم يطلب إلى الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو الباطل فى أرذل صوره وأشدها فجوراً ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد ضل فى حق بلاده ضلالا بعيداً ...

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير المحكومين وصلاح أمرهم ؛ على هذا الأساس ولدت الديمقراطية ، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية ، ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الإنسانية فى الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضى وفصموا سلاسل الرجعية والعبودية ...

وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الإسلامية الأولى التى ولدت فى الصحراء قد جعلت تلك المبادىء أساس قيامها ؛ وما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الأول للناس : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى » وأن يقول لهم الخليفة الثانى « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » فيرد عليه أعرابى من أوزاع الناس بقوله « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » وأبلغ وأروع من قول أبى بكر وعمر قول الرسول الكريم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

قبل عرابى أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى الأمور وفق ما أقرته الثورة من مبادىء ، فكيف امرؤ الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الأثيمة التى كانت تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدالا وأقلهم علاقة بالسياسة وشؤونها ؟ .

إذاً فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابى فى شؤون الحكومة وبين ان يغضب لما حل بقضية وطنه ، وفى هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه ...

لقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك عليه مستحيلا وإنى لأرجو من الذين خاصموا هذا الرجل فى غير حق والذين خاصموه مضللين أن يستمعوا إلى هذا الرأى الذى أسوقه عنه ألا وهو أن الحرية كانت من طبعه ، فطر عليها ولم يتكلفها يوما أو توجهه إليها الحوادث وهو يجهل كنهها ، كما يقول الذين يريدون ألا يدعوا له محمدة إلا جعلوها بالباطل مذمة ...

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذى نقم على الشراكة فى الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم وكانت الحرية هى التى دفعت هذا الرجل إلى أن يقف موقفه المشهود فى ساحة عابدين عصر اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ؛ ولسوف تكون الحرية هى حافزه إلى ما يثب بعد المذكرة المشؤومة من وثبات ...

ولقد استوثق بلنت من ذلك كما أسلفنا حينما اتصلت أسباب المودة بينه وبين عرابى ، وبين كيف ازداد عرابى محبة له إذ علم بالصلة بين أسرته وأسرة اللورد بيرون ...!

وكيف يجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية إلا أن يكون هذا تجاوبا بين نفس حرة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ، فلم يكن حب عرابى إياه إذاً مشوبا بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين إليها وكيفما كان دينهم ...

ولنعد إلى خطبته التى ألقاها فى محطة مصر ؛ لقد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما كانت تنطوى عليه نفسه . والخطيب فى مثل ذلك الموقف الحماسى ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع ، بل لقد يكشف الخطيب عما يريد أن يغطيه إذا نسى نفسه فى رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعا . قال عرابى « البلاد محتاجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت

مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » ... وقال « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة »

وقد مر بنا رأى بلنت عن حبه للحرية ، ونورد هنا رأى جون نينيه[١] وهو رجل سويسرى حر عاشره وعرفه معرفة خبرة ووثوق كما عرفه بلنت قال « كان احمد عرابى رجلا مستقيما وخادماً لوطنه ، وشغوفا بالحرية ومؤمنا بالحق ، وخطيبا فصيحاً ، وكادت شهرته تبلغ شأو غاريبلدى »

وإنا لنرى فى هذه الأدلة على حبه للحرية من القوة ما لا تجدى معه مكابرة ؛ وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ، ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

إننا بلد لا يعد غنيا الغنى المنشود فى الرجال ، وهذه حقيقة نثبتها والألم يرمض جوانحنا ، فكيف نرضى مع ذلك أن نشايع أعداءنا فلا نثبت فى سجل رجالنا هذا الرجل الذى يحق لنا أن نفخر به ؟

الم يأن لأبناء هذا الوطن أن ينظروا وهم بصدد قضية استقلاله إلى هذا الرجل نظرتهم إلى زعيم جاهد فى الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة التى تصوره رئيس عصابة من الأوزاع والهمج لايسيرون على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟

الم يأن لأبناء هذا الوطن أن يفطنوا إلى أن الاحتلال هو الذى صور عرابيا هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك وجوده ؟ وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه إلى يومنا هذا فيما ادعى إنما يثبتون على أنفسهم الغفلة ويسيئون إلى رجل ما فكر يوما فى الأساءة إلى وطنه ؟ رجل إن كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وإن فاته

---

(١) العبارة من ترجمة الأستاذ محمد لطفى جمعه

النجاح فقد عظم فى سبيل النجاح بلاؤه ، فى حين قد قل فى المحنة نصراؤه ، وتعدد غداة الروع أعداؤه ...

لا جناح على عرابى أن يعود إلى ميدان النضال فى سبيل المبادىء التى اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها ، بل إن ذلك لا غيره ما كان ينتظر منه ، وما كان ليقبل منه قعود ؛ ولو أنه وقف فى جهاده عند وثبته الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبه إليه خصومه من النزق والسير على غير هدى ...

ومن أعجب ما يسمعه المرء من أقوال هؤلاء الخصوم قولهم لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ما كان عرابى نفسه يحب فما عودته إلى التدخل فيما ليس من شأنه ؟ وأى غفلة أشد من هذه الغفلة ؟ وإذا كان مثل هؤلاء يجهلون حقيقة الثورة العرابية هذا الجهل المعيب فكيف السبيل إلى إقناعهم ؟

وهاهم أولاء الوطنيون يسقطون شريفا ويتمسكون بحق مجلس الشورى بالنظر فى الميزانية وقد رأوا من أعداء البلاد غدرهم الأثيم فهل نرى هؤلاء بالفوضى والشطط ؟ وإذا كنا نسمى عملهم تحمسا وغيرة وطنية فلم نستكثر ذلك على عرابى وقد غضب كما غضبوا وتحمس كما تحمسوا ؟

سيعود عرابى إلى الجهاد فيقف فى وجه الدولتين الطامعتين ؛ وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادى ليذود عنه فى بسالة جريئة وحفاظ مُرّ وفق ما توجبه الوطنية والرجولة ؛ وهذا لعمر الحق ما كان يطلب منه فى مثل هاتيك الظروف ، أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيله إليه محدودة بحدود طبيعته ومقدرته ؛ ولقد يتوفر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد معه يعتقد أنه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل إلى الريبة فيها ، ثم ينظر فإذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال ؛ ولئن أخطأ قائد أبلى مثلما أبلى عرابى فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر كما حملت أخطاء عرابى ظلما وعدوانا على معانى الخيانة والمطامع الشخصية ...

حسب عرابى أن يجاهد وأن يقاتل وأن يثبت للدنيا أن فى مصر من يذود عنها وعن الحق بالسيف ...

عرابى الوزير

اختير عرابى وزيراً للجهادية فى وزارة البارودى ، وجلس هذا الفلاح على الكرسى الذى كان يجلس عليه بالأمس القريب رفقى الشركسى ؛ وكان صيت عرابى فى البلاد قد بلغ غايته ، وكان بيته كما أشرنا وكما ذكر بلنت مفزع المظلومين ومتجه المعجبين المؤمنين بحرية هذا الوطن ...

وكانت سياسة جمبتا قد صُبغت بالصبغة الدينية عند المصريين ، وقر فى أذهان الناس أنه كان مدفوعاً فى سياسته بكراهيته للمسلمين ، وخوفه أن ينهضوا وتقوى بينهم أواصر الأخاء فيكونوا بذلك حائلا بين فرنسا وبين أطماعها فى الشرق ، ويفسر بلنت نفسه مسلك جمبتا هذا التفسير ، ويقول إن من نتائج المذكرة أن بات الناس يتجهون نحو السلطان كمنقذ لهم ، وأصبحوا ينظرون إلى عرابى أنه عضد السلطان فى مصر والحصن الذى تحتمى فيه الآمال بعد أن يئسوا كل اليأس من توفيق ...

ويظهر أن عرابياً كان يميل من زمن إلى أن يجعل من خطته الاعتماد على السلطان ، ولعل بلنت فهم ذلك من أحاديثه معه ؛ نجد إشارة إلى ذلك فى قول بلنت عن أثر المذكرة المشتركة « وجد المصريون أنفسهم لأول مرة مرتبطين كل الارتباط فإن الشيخ محمد عبده ومن معه من المتدلين من أنصار الإصلاح الأزهريين ألقوا بأنفسهم فى زمرة الحزب الذى سبقهم بخطوات ، وشعر الناس جميعاً حتى الشراكسة شعور الاشمئزاز من التدخل الأجنبى ؛ ومن ناحية أخرى فإن أشد الناس نفوراً من الأتراك من عنصر القوميين ومنهم صديقى الأزهرى الشيخ المهجرسى ، أصبحوا يرون أن عرابياً كان على حق فى اعتماده سراً على السلطان ... وبهذا كسب عرابى كسباً عظيما فى ذهاب الصيت والتوقير ، ولم أسمع لعدة أيام بعد ذلك من أصدقائى المصريين إلا الكلام عن الجامعة الإسلامية » .

وأنعم على عرابى برتبة الباشوية ؛ وهو يقول إنه قبلها هذه المرة كارهاً ، فلولا أن المنصب كان يقتضي قبولها ما قبلها ؛ وأما عن قبوله المنصب ، فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له فى سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين ؛ وإنا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلا لقبوله منصباً من المناصب ، ويتخذون ذلك القبول دليلا على أنه يبتغى الخير لنفسه فحسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميعاً وسيلة إلى إشباع المطامع وجلب المنافع ؟ وأى شىء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شىء يمنع من أن تكون المناصب عند بعض الناس وسيلة لتحقيق غاية جليلة شريفة هى العمل للصالح العام ؟... وأى قرينة تمنع أن نسلك عرابياً فى سلك هؤلاء الداعين إلى الخير العام ، الذين يتخذون من المنصب أداة لخدمة المجتمع ؟ إن أبسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البرىء حتى تثبت إدانته ، فأية إدانة يلصقها بعرابى أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؟

إنهم إذ يتهمونه بالسعى لصالحه هو لا يعدون بذلك حد التهمة ، فله على أسوأ الفروض موضع البرىء من العدالة حتى تثبت إدانته ، وما أيسر أن تكال التهم لأى فرد من الناس فى غير حساب ، وما أصعب البينة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ...

إن الذين يرون فى الحكم مغنما لهم ، إنما هم أولئك المفرطون فى حقوق أوطانهم الموالون للدخلاء فيها ، والمستضعفون من الرجال ، والذين فى قلوبهم مرض ، والمفترون بأوهام الحياة والمالئون بطونهم كما تأكل الأنعام ؛ أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع أنفسهم الحياة الدنيا وزينتها ، ولن تطفىء الحمية فى قلوبهم ما يحلى به الأغرار صدورهم من أوسمة ، أو تزدهى نفوسهم الكبيرة الألقاب والرتب ، أو يزيغ بريق الذهب أبصارهم عن الحق ، لأن هذه جميعاً عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر إذ يطلبون الجوهر . ومن كان فى هذه الدنيا كبيراً

بنفسه فما به حاجة إلى أن يتكبر ، ومن تكبر وهو بنفسه صغير ، فلم يَعْدُ أن أضاف إلى حقارة نفسه ما هو أحقر .

ولو كان عرابى من ذوى الأطماع الشخصية لرأيناه يتنكب طريق الجهاد ، ولرأينا الضعف يتسرب إلى نفسه فتفتر حميته وتبوخ وطنيته . وما ضعف عرابى وما استكان حتى منى بما منى به من محنة يوم التل الكبير لا بأيدى الآثمين الطامعين من الأجانب فحسب بل بأيدى الخوانين المارقين من بنى الوطن ، وظل حتى هزيمته الرجل الذى يخشى جانبه وتتقى غضبته ، ولقد رأينا كيف أرسل إليه مالت يحاول أن يهدأ خاطره عقب المذكرة المشتركة ؛ ولو أنه كان ممن يشترون بالمال لأمكن شراؤه كما اشترى بعد ذلك سلطان مثلاً ذلك الذى كان يتظاهر بأنه من أكبر أنصار الحركة القومية ؛ ولكن عرابياً كان مؤمناً بجهاده مخلصاً لقضيته فارتضى أن يخوض غمار الموت وأن ينفى بعد ذلك من الوطن وأن يسلب جميع ما ملك .

ورفض عرابى أن يكون ولياً لذوى الغايات والأطماع ؛ جاء فى مذكراته عن نوبارباشا قوله «أرسل إلينا أحمدقبودان البكرى من موظفى بوغازالإسكندرية ليشكرنا على إنقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدين ويعرض علينا أنه مستعد لأن يقود حركتنا الوطنية بصائب رأيه إذا دعوناه إلى رياسة الحكومة واعتمدنا عليه وسلمنا أمورنا إليه ، فمجبنا لذلك ؛ وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر للمصريين ، وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الإكرام . وإنا لا نجهل الأدوار التى لعبها نوبار باشا فى مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية ، وفى مسألة تشكيل المجالس المختلطة فى مصر ، تلك المجالس التى صرف عليها ١٢ مليوناً من الجنيهات من أموال المصريين المساكين على يده وبسعيه ، وكان هو أكبر مساعد للمستبدين وله الحظ الأوفر من تلك الغنائم » .

ويذكر كذلك عن البارودى أمراً خطيراً قال « وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية فأطنب فى الثناء على

لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد والاستعباد ؛ ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحى حياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديوياً لمصر إذا رغبت فى ذلك ؛ فقلت له مَـهْ يا محمود باشا فإنى لا أريد إلا تحرير بلادى ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك إلا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مراراً وتكراراً ؛ وليس لى طمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ؛ ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية إلى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر » .

ولقد كان عرابى كبير النفس كبير الآمال ، فكان المنصب عنده وسيلة من وسائل الجهاد وباباً من أبوابه ، فما يعيبه أن يقبل الحكم ، وإنما يعيبه أن يعرض عن الحكم وبخاصة فى مثل تلك الشدة التى ساق فيها الطامعون البلاد على غير إرادتها ، والذى يعد قبول الحكم فيها تأهباً للذود عن ثورة الحق على الباطل ..

على أن الناس ما كانوا ينظرون إلى عرابى نظرتهم إلى وزير من الوزراء فحسب ، بل لقد كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه ؛ وكانت تقوم نظرتهم إليه على ما بلوا بأنفسهم من إخلاصه ، وما شهدوا من بسالته وحميته وبخاصة فى يوم عابدين المشهود ، وعلى ذلك فما زاده المنصب فى أعين الناس ما يطلبه غيره ليزداد به من مظاهر الجاه ، وأى شرف يطمع فيه الرجل أعظم من أن يكون فى بنى قومه معقد الرجاء وموضع الثقة ..؟

ولقد كان عرابى فى الوزارة إذا أردنا الحق أكثر من وزير ، فكانت الكلمة كلمته وكان الرأى رأيه أراد ذلك أو لم يرده ؛ ونقول أراده أو لم يرده لأنه بات فى الزعماء رجلا ليس لأحدهم مثل ما له فى قلوب الناس من مكانة وسحر ... وهل كان سعد فى كرسى الرياسة كغيره من رؤساء الوزارات ، ليس لشخصه من تأثير فى قلوب الناس إلا ما تبعثه هيبة المنصب ورهبته ؟ أم كان سعد فى الناس رجلا غير ما ألفوا ، تحف به هالة من أمجاده فتخلق له شخصية وسطاً بين الملائكة

والناس ؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئاً فى أعين الناس أم أن المنصب هو الذى ازداد به علواً ومهابة ؟

على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابى بين قومه يومئذ فلقد صار له من المكانة بعد يوم عابدين مثل ما صار لسعد من بعد فى قومه ، فهو الرجل الذى تتمثل فى شخصه ثورة أمة ويجتمع فيه تاريخ حركة ، لذلك فهو بين الناس أكبر من أن يكون أحدهم ، تحيط به هالة من السحر تلقى فى روع محدثه أنه تلقاء تاريخ يحدث أثره لا تلقاء رجل يعيش كما يعيش الناس ...

أما الفلاحون وأعيان البلاد ممن كانت تقاس أقدار الرجال عندهم بالألقاب والمناصب ، فقد كبر عرابى فى أعينهم وازداد قدراً فى أنفسهم ، وأصبح هذا الفلاح الباشا الذى يجلس على كرسى وزارة الجهادية موضع أحاديثهم كلما تذاكروا فيما بينهم أحداث البلاد فى ذلك الوقت .

ولست أريد بقولى إن الرأى كان رأيه أنه كان يستبد بالأمر ، أو كان يأخذ السبيل على البارودى فيما يريد من قول أو عمل ، وإنما أريد أن البارودى وغيره من الزعماء ما كانوا يخطون خطوة إلا على بينة مما يكون فيها مما عسى أن يرضى عرابياً أو يغضبه لأنه بينهم ، وإن لم تكن له الرياسة الرسمية ، الزعيم الذى تشايعه البلاد ، والذى استقر فى أذهان أهلها وقلوبهم أنه موضع الأمل ومناط الرجاء ...

وقد بدأ عرابى باشا عمله فى الوزارة بارسال مكتوب إلى جميع وحدات الجيش يعلن إليهم نبأ تعيينه فقال « حيث أن مسند نظارتى الجهادية والبحرية الجليلتين قد أحيل إلى عهدتنا من طرف الجناب الخديو المعظم بارادة سنية موشحة بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ نمرة ١١ فاعتقادى ووثوق بمساعدة حضرتكم وعموم حضرات الضباط والصف الضباط والعساكر فى القيام بواجبات هذه النظارة مع الاستمرار فى سيرها على المحور اللائق الموافق لنص أحكام القوانين العسكرية ، قد جرأنى على قبول هذا المسند الجليل حالة كونى عالما بما أنتم عليه من وثوق

حضرة الجناب الخديوى بنا ، ولهذا لزم تحريره لحضرتكم إخطاراً بما ذكر وإعلان كافة الضباط والصف وعساكر الآلاى إدارة حضرتكم وفقنا الله جميعاً لما فيه النجاح والأصلاح »

وأخذ عرابى تنفيذ القوانين الخاصة بأصلاحات العسكرية التى كان يطالب بها رياضا وشريفا من قبل ، وتناول بالترقية كثيراً من المصريين فى الجيش وقد خطى بالباشوية كل من على فهمى وعبد العال حلمى وطلبه عصمت وعلى الروبى وحسن مظهر ويعقوب سامى

وقد تألم العنصر الشركسى لهذه الترقيات ، وعدها زعماء الشراكسة صورة من صور الفوضى والتعصب فى الوزارة ، كأن النظام كل النظام أن يرقى الشراكسة ، وأما أن يرقى المصريون الفلاحون فذلك هو التعصب المذموم وهو الفوضى الجامحة

ولن يقتصر هؤلاء الشراكســة على الصخب والعيب ، بل سوف يعملون على الانتقام ، كأنما كان المصريون يسلبونهم حقا من حقوقهم ؛ ونسى هؤلاء أو تناسوا ما كان يفعل رفقى من قبل

واتجه عرابى إلى إصلاح شأن وزارته فبث فيها النشاط والجدة قال روثستين « وقد جد عرابى بنوع خاص فى إصــلاح نظارته التى كانت فى منتهى الفوضى والخراب ، وذلك ليستعد للطوارىء كلها فأظهر همة فائقة فى إصلاح حصون السواحل ، ونظم احتياطى المدفعية ووزعه على تلك الحصون »

وأحسن عرابى فى منصبه الجديد الظهور بمظهر الوزير فى غير صلف أو ادعاء وصفه بلنت حين زاره بعد أزمة المذكرة يحمل إليه نبأ وساطته لدى جلادستون قال « قفلت راجعاً إلى القاهرة فى سرور وقد تسلحت بما علمته من حسن نية جلادستون واستطعت أن أخبر عرابيا أننى لم أؤكد له عواطفى نحوه عبثا ؛ وقد وجدته فى ديوان وزارة الحربية يحيط به أصــدقاؤه ، وكان يتحدث مع بطريق

الأقباط ؛ ومع طائفة من أهل الملق من الأوروبيين وأجناس شرقى البحر الأبيض المتوسط ممن جاءوا يحيون هذه الشمس المشرقة ؛ وقد ظهر فيهم الوزير الجديد فى حسن سمت وسمو كانا به لائقين؛ فلم يلبث بَـعْـدُ ذلك الجندى قائد الفرقة ، ولـكنه أضحى رجلا تمتلىء مشاعره بالمسؤولية العامة ؛ وكان لا يزال بَـعْـدُ فلاحا ولا يزال وطنياً ولـكن فى صورة الرجل السياسى ؛ وقد انتحى بى جانبا فأطلعته على كتاب جلادستون وقلبناه بيننا فى سرور وعددناه رسالة ذات فأل طيب »
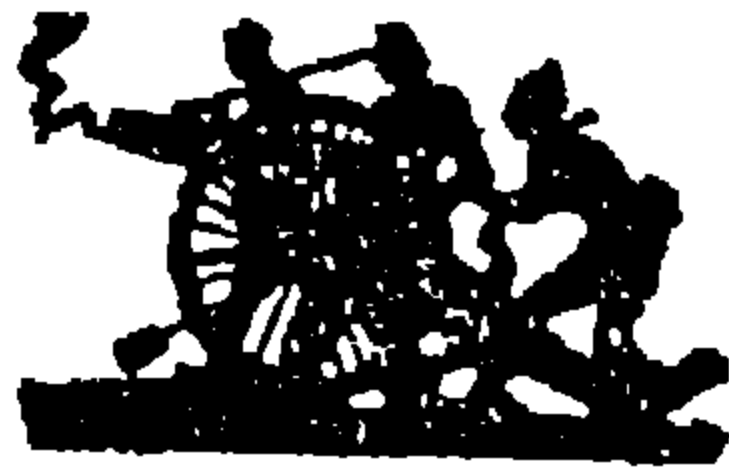
وطنية لا نزق

حل البارودى محل شريف وفى البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بينا دليلا على سوء تدبير واضعيها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم ؛ ولكن ما لنا نشير إلى قصر نظر الدولتين فيما فعلتا ونحن لا يتداخلنا شك فى أنهما كانتا تريان عاقبة فعلهما ، وأنهما إنما أرادتا إثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين ، فبهذا يتيسر لهما الوصول إلى الغرض المرسوم ...

وكان طبيعياً أن يسير البارودى على نهج غير الذى سار عليه شريف ، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين ، وبحكم الظروف التى أدت إلى استقالة شريف ، لم يكن ليستطيع أن يحمل نفسه على الهوادة والملاينة ، وإلا ففيم كان إخراج شريف ثم إخراجه من الحكم ؟ ... والأمر قبل كل شيء أمر كرامة الوطن تلقاء تحدى الأجانب وتحرشهم السخيف الآثم بحريته ...

ومن ذلك يتبين لنا أن البارودى لم يكن له منتدح عن السياسة التى جرى عليها ، وأن مردها فى الحق إلى مسلك الدولتين وعلى ذلك فمن الظلم أن نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما أبدت من تطرف ، فإن جانباً كبيراً من اللوم ، بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا الوزارة بقبيح تدبيرهم وسوء نيتهم فى تلك الطريق التى ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل فى أزمة غيرها .

وهكذا تدفع الدولتان البلاد فى طريق الثورة دفعاً ثم تتهمانها مع ذلك بالفوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وإنها لمن صنعهما ... ولن يكون فى صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوفه

فوق رأسه فإذا تأوه ونفر من ألم الضرب عد تأوهه جموحاً ونفوره ثورة ! ..

كان على وزارة البارودى من بادىء الأمر أن تواجه أزمة الميزانيـة ، وقد نجمت هذه الأزمة كما رأينا من تجنى الدولتين على البلاد ومن غضب نواب الشعب لكرامة بلادهم واستمساكهم بحقهم تلقاء باطل أعدائهم ، وكان من الطبيعى أن تعمل وزارة البارودى ، أحد الزعمـاء العسكريين ، والتى كان عرابى نفسه أحد وزرائها ، على تحقيق آمال البلاد ، بل لقد كان أمراً حتمياً على هـذه الوزارة أن تعمل ما كانت مقدمة على عمله ، فعلى هذا الأساس كان قيامها بالحكم ...

وما أسخف كلام المبطلين وأرذله تلقاء هـذه الحقيقة التى تنهض الحوادث دليـلا عليها ! أجل ما أرذل أن ترمى وزارة البارودى بالنزق والعناد والرغبة فى إثارة الفتنة ، كالذى يأخذ على شخص طريقه فى غير مبرر فإذا طلب إليه أن يخلى سبيله انتهره وتوعده ، فإذا خطا خطوة ليتقدم رماه بالشطط والجنون وخوفه عاقبة أمره ! ...

لقد قامت وزارة البارودى على إرادة الأمة ، لامراء فى ذلك ؛ فإن النواب حينما أظهروا لشريف أسفهم أن يكون المجيب لمطالبهم رجل غيره ، وحينما ذهبوا إلى الخديو يشكون إليه حالهم كانوا معبرين فى ذلك عن مشيئة الأمة ، وآية ذلك أن الخديو لمـا سألهم بأى حق يطلبون إقالة شريف قالوا : هذه إرادة الأمة .

ولم يسع الخـديو إلا أن يذعن ، ولـكن على طريقته فى الإذعان ريثما تسنح الفرصة ، فدعا شريفاً والقنصلين الأجنبيين وعرض عليهما الأمر ، فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة ؛ ثم إن الخديو سأل زعمـاء النواب عمن يرضون لرياسة الوزارة ، فبعد أن بينوا له أن ذلك من حقه اختاروا البارودى واشترطوا أن يكون قيام وزارته على أساس إجابة مطالب النواب[1] .

ولقد أضاف الخديو إلى أخطائه خطأ جديداً بقبوله هذا الوضع ، فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه ولـكنه خطا حتى هذه الخطوة بإشارة القنصلين ، فلقد

(١) مقدمة كتاب التاريخ السرى ترجمة البلاغ والمقدمة بقلم الأستاذ عبد القادر حمزة .

أوهماه أن فى هذا خيراً له ، فبه يخلو من التبعة ويلقيها على عاتق النواب والزعماء .. ولكنهما كانا فى الواقع يريدان أن يوسعا مسافة الخلف بين الخديو ونواب البلاد ، ومن السهل عليهما أن يوحيا إليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الأمر شىء ...

على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن راحوا يذيعون المفتريات فى مصر وفى أوربا عن الوزارة ويرمونها بكل باطل من الاتهام ، فهى وزارة عسكرية لا تعرف سياسة أو تنظر فى عاقبة أمر من الأمور ، وإنما قوام أعمالها العنف والثورة ، وهى وزارة لا تحسب لأى سلطة غيرها حساباً فليس للخديو وجود فعلى بإزائها ، وليس للأجانب على مالهم من ديون فى مصر حق أو شبه حق ... إلى غير ذلك من اللغو والإفك ...

أما عن عرابى نفسه فقد خرج بأوفر نصيب من التهم الباطلة ، ومن هذه التهم ما عزته إليه جريدة التيمس من أنه تهدد شريفاً ، وأنه شهر سيفه فى وجه سلطان وهدده بتيتيم أطفاله فى صدد الخلاف على مسألة لائحة المجلس ، ولقد كان مالت من مروجى هذه الأشاعة ومن المتمسكين بها ، بل لقد ذهب مالت إلى أكثر من هذا فأثبت فى يومياته كذلك أن الخديو ما قبل استقالة شريف إلا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا ....

ويذكر بلنت أنه يرجح أن الخديو هو مصدر هذه الفرية لما كان يبدو منه يومئذ من بالغ الحقد على الوزارة ، وقد أصبح لهذه الفرية خطرها حين أرسل مراسل رويتر إلى أوربا يزعم ضغط العسكريين على شريف ...

قال بلنت « ومع ما يبدو من سخف هذه القصة فقد غضب منها سلطان غضباً شديداً ، ولما كنت يومئذ معروفاً لدى النواب بأنى صديقهم طلب إلى سلطان لقاءه وسألنى أن أحمل إلى مالت إنكاره القصة كلها إنكاراً تاماً ، وعلى ذلك توجهت إلى بيت سلطان باشا حيث جمع عدداً كبيراً من النواب ومن علية القوم ومن بين هؤلاء المفتى الأكبر العباسى وعبد السلام المويلحى بك وأحمد السيوفى

بك وأحمد محمود أفندى وهمام حمادى أفندى وشديد بطرس أحد كبار نواب الأقباط وقد أنكر هؤلاء جميعا مع سلطان أنهم عملوا تحت أى إكراه ، وتكلم سلطان فى غضب عن سخف القصة فيما يتصل به قائلا إن أحمد عرابى بمثابة ابن لى ، وهو يعرف ماهو من حق وما هو من حقه ، فمكانى فى البرلمان ومكانه فى وزارة الحربية وجدير به أن يطلب نصحى لا أن يجرؤ على أن ينصحنى فيما يعنينى من الأمور ، وأما عن شهره السيف فى حضورى فانه لا يفعل ذلك إلا تلقاء عدو يهاجمنى ، وهذه قصص لا يصدقها من يعرفنا كلينا وإنها لباطلة كل البطلان وتستطيع أن تأخذ على اليقين أن أقل عضو هنا ممن يمثلون الشعب أحسن حكما على مطالبه من أكبر جندى . إننا نحترم عرابيا لأننا نعرفه وطنيا ورجلا ذا فطنة سياسية لا لأنه جندى .

وقد أثبت كلمات سلطان باشا هذه فى حينها ، وقد اشتكى إلى هذا الشيخ من سياسة مالت وتعضيده مخترعى الأباطيل وطلب منى أن أطلعه على الحقائق وأن أبرقها إلى جلادستون وأذيعها فى الجرائد الأوربية وقد فعلت ذلك على خير مايدخل فى وسعى ، فأرسلت نصاً كاملا منها إلى « التيمس » ومع ذلك فانها على ما أذكر لم تنشره لسبب ما ، وكذلك أرسلت تلغرافاً بالمعنى نفسه إلى مستر جلادستون ، ثم كتبت إليه كتاباً مطولا أشرح فيه الموقف كله .

وذهبت من فورى إلى مالت وناقشته في شدة ولكنه أصر على صدق قصته التى استقاها كما أخبرنى أول الأمر من سلطان نفسه والتى عاد يقول إنه استمدها ممن يمكن الاعتماد عليه ، ولما ألححت عليه أن أعرف من هو المصدر غضب وقال إنه ليس لى من حق أن أستجوبه على هذه الصورة »

هـذا هو كلام بلنت عن هذه الفرية ، وما أجمل ما وصف به سلطان عرابياً فهو لا يحترمه لأنه جندى ولكنه يوقره لوطنيته ولمقدرته السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أوتملق ، فقد كان أكبر من أن يخاف أو يتملق ، وهو بطبعه شديد الكبر كثير المباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته بل إن صدور هذا الكلام عن رجل هذه صفاته إنما يزيد فى قيمته ويجعل منه

وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابى إلى قراءتها فى روية وحسن طوية.

ويذكر بلنت أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب ما ، والأمر بين لا يحتاج إلى طويل شرح ، فالتيمس وأضرابها من الصحف الإنجيزية تخدم قضية الاستعمار أبداً ، وهى خير من يدرك نيات الساسة فى بلدها وأول من يطلع على حقائق الأمور ، فلم تكن تجهل يومئذ ما كانت تبيته إنجلترة لقضية الأحرار فى مصر ، بل وما كانت تنتويه السياسة الإنجيزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولى عليها فرنسا ، ولذلك ما كانت لتنشر رأياً مثل هـذا الرأى يأتى على لسان رجل مثل بلنت فيكون به من الإنجليز شاهداً من أنفسهم عليهم

* * *

فى مثل هـذا الجو الذى كدرته دسائس الماكرين والطامعين ، راحت وزارة البارودى تعالج ما كانت تشكو منه البلاد ، ومن ورائها نواب الأمة يشدون أزرها وإنهم ليعلمون ما كان يحيط بوطنهم من الكيد والأعنات

وأحس البارودى من أول الأمر بتزايد الجفاء بينه وبين الخديو ، فما كان ليسيغ توفيق أن يصبح الأمر بينه وبين الوزارة قائماً على غير ما ألف من مبادىء السيطرة ونوازع الاستبداد ؛ ولكن الوزارة استعاضت عن معونة الخديو بمؤازرة البلاد

وكان أول ما واجهته الوزارة تلك المشكلة التى خلقها الكائدون وهى مسألة الميزانية ، أو بعبارة أخرى لائحة المجلس التى استقال بسببها شريف أو أجبر فى الحق على الاستقالة . .

ويجمل بنا أن نأتى بالحديث على سرده فى هذه المسألة لنتبين إلى أى مدى كان افتيات الدولتين على البلاد ، وليرى الذين رموا حركتها الوطنية ورجلها بمختلف التهم مبلغ ما فى مزاعمهم من جهل أو عدوان ...

جاء فى خطاب شريف باشا الذى تقدم به إلى المجلس بعد انعقاده قوله « فانه لم يحجر عليكم فى شىء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، إنما لا يخفا كم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات

الأجنبية بها ، ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح ، وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بعقود خصوصية ، والبعض بقانون التصفية ، فهل يتيسر للحكومة أن تجمل هذه الأمور موضعاً لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لأنه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشيء ما ، حتى نصلح خللنا ، وتزداد ثقة العموم بنا ، ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية ، ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن إخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه ! »

بهذه الكلمة مهد شريف لخطته فيما يتعلق بلائحة المجلس، أو ما نسميه دستوره وبخاصة فيما يتصل بالميزانية ثم جاءت اللائحة تحرم على المجلس النظر فى الميزانية

ولقد كان المجلس يطمع فى أن ينظر فى الميزانية مادام هو القيم على حقوق البلاد ولكن الحكمة قضت عليه أن يتواضع فيقبل كما أسلفنا النظر فى نحو نصف الميزانية وهو القدر الباقى بعد الجزية وما يقتضيه قانون التصفية ، ففعل ذلك ولكنه لم يفد وأسفاه من حكمته شيئاً ، فقد كبر على الدولتين أن ينظر المجلس حتى فى هذا القدر فرمتاه بالمذكرة المشئومة التى كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المعتدلين وثورة المتطرفين والتقاؤهما جميعاً ، وتمسكهما بالنظر فى الميزانية مهما يكن من العواقب ، الأمر الذى طاح بوزارة شريف وأحل محلها وزارة البارودى ...

وجاءت وزارة البارودى فلم يكن أمامها إلا طريق واحدة ، هى السير وفق رغبة النواب والرأى الوطنى العام فى البلاد ، نخطت هذه الخطوة معتمدة على حقها مستندة إلى مؤازرة الأمه إياها ، فكان ما قررته فى مسألة الميزانية ما يأتى :

« لايجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للآستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية »

« وترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ، بمراعاة البند السابق ، ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار

ورئيسه ، لينظروا جميعاً فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالأكثرية»

ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التى تقدمت بها إليه وزارة البارودى ، وكان هـذا الرأى الأخير أعنى تكوين لجنة من أعضاء المجلس مساوية فى العدد لأعضاء مجلس النظار قد عرض كحل من الحلول على وزارة شريف ، فأبت الدولتان قبوله ، فلما قضت وزارة البارودى فى الأمر حسب مشيئة النواب ، ثارت ثائرة الدولتين اللتين جاءتا لنشر روح المدنية والحرية فى الشرق ..

ولقد جعلت الوزارة الأمر للأمة فيما إذا وقع خلاف بين المجلس والوزارة ، فنص فى دستور المجلس أو لائحته الأساسية ما يأتى : « إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار ، وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الأسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ألا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض إلى يوم الاجتماع ؛ ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم »

« وإذا صدق المجلس الثانى على رأى المجلس الأول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعياً »

وقد فرح النواب ، وفرح الناس جميعاً من وطنيين وعسكريين لصدور اللائحة أو الدستور ، وأخذت مصر تستقبل عهداً دستورياً كان يعد بداية طيبة جداً للديمقراطية فى مصر بل وفى الشرق كله

ويتجلى فرح مصر فى تلك الحفلات التى أقيمت غداة صدور الدستور ، ومنها حفلة جمعية المقاصد الخيرية وكانت بالغة الروعة والجلال وقد شهدها البارودى وعرابى وجمهور كبير من العلماء والأعيان ورجال الجيش ، وتبارى الخطباء وفى مقدمتهم السيد عبد الله نديم فى بيان مزايا الدستور وإعلان ابتهاج النفوس به ، والشيخ محمد عبده الذى دعى إلى نشر التعليم ليقوم الدستور على أساس سليم قوى .

ومن تلك الحفلات حفلتا نائبى البحيرة الشيخ أحمد محمود وإبراهيم أفندى الوكيل

ثم حفلة أحمد بك أباظة وحفلة أحمد بك يكن وغيرهم ، وتدل هذه الحفلات دلالة بينة على أن روح الحرية والدستور كانت متغلغلة فى نفوس مثقفى الأمة ، وأن البلاد كانت تنهض فيها حركة قومية حرة لو أنها حدثت فى بلد غير مصر لم يرزأ بالاحتلال لكان لها فى سجل الحركات القومية العالمية شأن جليل ، وما يغيرنا اليوم ما فعل الاحتلال بتاريخنا القومى ، وقد خطونا خطوات لن يكون بعدها نكوص ...

رأينا الحل الذى عالجت به وزارة البارودى مشكلة الميزانية . ذلك الحل الذى من أجله حقت عليها أمنة الدولتين ، وحق عليها عقابهما ، مع أنه لا يمكن أن يكون هناك تساهل فى مثل هـذا الأمر وفى مثل هاتيك الظروف أكثر من هـذا التساهل الذى جرت عليه الوزارة . . .

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر فى صالحه ، فكيف يتسنى لهم ذلك إن لم يكونوا قوامين على ماليته وهى أساس كل شىء ودعامة كل إصلاح ؟ وكيف يكون الحكم قائماً على أساس ديمقراطى إذا حيل بين نواب الأمة وبين النظر فى الأموال التى تجبى من أفرادها ؟

وإذا كانت لمصر ظروف خاصة ناشئة من ديونها التى لم يكن لأهلها يد فيها ، فأى شىء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يتركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه ؟

ولكن الدولتين كانتا تحاربان المجلس فحسب مهما بلغ من اعتداله وحكمته ؛ كانتا تحاربانه فتحاربان فيه الوطنية المصرية ، لأنها إن ازدادت قوة ضاعت الفرصة وخرجت مصر سالمة مما كان يدبر لها ؛ أنظر إلى الاحتجاج الذى كتبه المراقبان الأجنبيان فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ عندما علما بنية النواب فى وزارة شريف قالا [١] « يظهر أن مجلس شورى النواب يتهيأ لأن يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول : إن إعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الأدارات والمصالح التى تخصص إيراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ؛

---

(١) تعريب الأستاذ عبد القادر حمزه عن كتاب دى فرسنيه « المسألة المصرية »

لأنه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار إلى يد مجلس النواب » .

ولا تسل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكائدين لمصر على وزارة البارودى حينما حلت المشكلة على النحو المتواضع الذى بيناه ، فلقد انطلقت ألسنة الساسة منهم مع ألسن السفهاء من مراسلى الصحف بكل فاحشة وجارحة فى الوزارة والنواب جميعا على نحو خليق بأن تخجل منه الأنسانية ؛ فهذا نظام موضوع بأسره تحت سيطرة جيش ثائر كما صوره كلفن فى تقاريره ؛ وهذه وزارة جامحة تسوق مصر إلى الخراب ؛ وهؤلاء نواب لا يعرفون من معانى الوطنية إلا التعصب الأعمى فضلا عن جهلهم وضيق عقولهم ...

كتب مالت يصف النواب قائلا [1] « إن ما يتظاهرون به من طموح إلى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشمة محل كل سلطة مشروعة »

وقال كوكسن يصف قانون الانتخاب الذى وضعته الوزارة السامية « إن الغرض منه فى هذا البلد أن تكون كل المزايا الانتخابية لمن رشحتهم السلطة الحاكمة الآن وهى سلطة الجيش »

وليس بعجيب أن يبلغ حنق هؤلاء على الحركة الوطنية القومية هذا المبلغ ، ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكرات متتابعة مرقمة أثبتها فى ورقة لعله كان يجمع فيها عناصر فصل يكتبه وأوردها بنصها مترجمه الشيخ رشيد رضا [2] .. قال الأستاذ الأمام « مجلس النواب قرر تعيين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التى رفعت على مصلحة المساحة وعلى إدارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الوظفين الأوروبيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض فى أعماله »

« وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفى الدومين المسمى

---

(١) المسألة المصرية لروثستين

(٢) تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الجزء الأول ٠ ص ٢٤٠

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا فى أن يصلوا بالطفرة إلى ما يقال من حريتهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتلغراف إلى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس ، وهذا تظاهر من الأهالى بالأحوال الجديدة التى يبنون عليها حريتهم وخلاصهم »

وأوعز مالت إلى وكلائه فى الأقاليم أن يكتبوا تقارير عن مبلغ ما وصلت اليه الحال من سوء فى البلاد ، وأرسل هذه التقارير إلى حكومته ، وبلغ من الجرأة على الحق ، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين أن كتب يندد بالغاء الكرباج فقال وما أعجب وما أسخف ما قال[1] « إن الحاكم الشرقى إذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ؛ إن الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام ، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة إلى ما يسمونه له حرية . فى حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الأمور إلى طائفة من الخياليين النظريين ، جعل أثرها فى السلطة على وجه العموم أثر الماء نصبه على قطعة من السكر » .

هذا ما قاله ذلك الأنجليزى الذى تفتخر دولته بأنها سبقت الدول إلى الحرية ، والتى ما فتأت منذ عهد كرومر فى مصر تفاخر بأن معتمدها هو الذى أبطل الكرباج فى هذه البلاد !

وإنا لنسأل الذين يقرأون هذه المفتريات وأشباهها ، والذين تتبعوا أساليب إنجلترة وفرنسا فى الكيد لمصر ، نسأل هؤلاء السادة الذين يعلمون هذا ، ومع ذلك يعيبون على عرابى وزملائه تطرفهم ، أكانو يفعلون غيرما فعل عرابى وأصحابه إذا كانوا يحبون أوطانهم حقا ، وكانوا يعيشون فى مصر فى تلك الأيام ؟

أما الذين كانوا يجهلون هذه الدسائس التى تبثها انجلترة فى مصر ، وحملوا

---

(١) المسألة المصرية لروتستين

لجهلهم بها على عرابى ما حملوا مجاراة منهم لما أشيع عنه ، فحسبنا أن نريهم حقيقة الأمر ونكل المسألة بعد هذا إلى فطنتهم وضمائرهم .

وما ندافع عن عرابى إلا لأننا نعتقد أنه ظلم ، وأن الذين ظلموه هم أعداء البلاد الذين استباحوا ذمارها وألحقوا بها الذل والهوان ..

وما يجدر بمصرى وبلاده فقيرة فقرها هذا فى الأبطال أن يشايع الذين حاولوا أن يطمسوا بالباطل تاريخ رجل كانت البطولة فى مقدمة صفاته ، فيصفون وطنيته ووطنية أصحابه بأنها نزق وفوضى ..

ولقد جعل الكائدون لمصر الجيش هدفهم فيما راحوا يشيعونه من مفتريات ؛ انظر إلى قول مالت فى تقرير له عن « تزايد اختلال الأمن في البلاد لقلة اكتراث الأهالى بأولياء الأمور الملكيين ، ويعزى ذلك إلى سلوك رجال الحزب العسكرى الذين لا يعاملون زملاءهم الملكيين بالاحترام الضرورى لإدارة البلاد ، وقد أخذت الرشوة تعود إلى سابق عهدها بين الموظفين ، ومما يساعد على انتشارها كثرة التغيير والتبديل فى كبار الموظفين » .

ثم يقول فى وصف ما زعمه من ضيق وقع فيه الفلاحون فى سبيل الحصول على المال « ويعزو الملاك قلة رؤوس الأموال وما هم فيه من الضيق إلى سياسة الحكومة الحاضرة التى لا تبعث على الثقة بها ، ويجهرون بأنهم إذا عجزوا عن دفع الضرائب فالتبعة واقعة على الوزارة » .

وليس بعجيب أن يسلك كلفن ومالت وأشياعهما هذا المسلك فى الطعن على الوزارة ، وقد أدركا ما كانت تنويه حكومتهما من العمل على تمهيد السبيل للتدخل المسلح بعد هذا التدخل السياسى . . .

ولقد كانت تلك المذكرة المشئومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم ، فكان لابد أن تتفاقم الحوادث بسببها لتصل بالبلاد إلى كارثة الاحتلال ...

كتب قنصل فرنسا إلى حكومته يوم ٢٩ يناير يقول « إن الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب ، فى أن يصير برلماناً ، والخطة القوية التى رأت الدولتان

من جانب آخر ، أن تختاراها ، والتى كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فأوجدا الوقف الحالى »

وكتب كذلك يقول « يمكن أن يقال إن الانقلاب الذى أحدثه مجلس النواب المصرى هو جواب منه على مذكرة ٧ يناير فلقد أعلنا فى هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالى ضد الجميع ؛ فأجاب المجلس على ذلك بأن غير هذا النظام تغييراً جوهرياً وبذلك وضعنا أنفسنا فى موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن نتدخل أو نعدل سياستنا »

وهذا الذى ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصوراً صادقا . وما كان موقف الدولتين يخفى على أحد من الوطنيين . وعلى ذلك يقضى الأنصاف على الذين يحكمون على أعمال رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى أن يضعوا فى أذهانهم قبل كل شىء أطماع هؤلاء الساسة ، وأن يصوروا تلك الأعمال على هذا الأساس ...

* * *

مضت الوزارة فى سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لا تتخاذل من دون غايتها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة إلا قامت فى سبيلها عقبات ...

ولقد قبع الخديو فى زوايا العزلة ، وجعل الخوانون الغدارون بينه وبين وزرائه حجابا من الأباطيل التى أحكموا نسجها ...

والواقع أن الخديو لم يكن على شىء مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم فى مثل هاتيك الظروف فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجرى حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن يصالح عليها طبعه ؛ وهو مستريب فى نيات الحكومة العثمانية نحوه ونحو عرشه ؛ وهو فزع مما يشاع من دسائس الأمير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومساعيه فى مصر والآستانة على

يد أعوانه ؛ ثم هو فضلا عن هذا كله قد بات تحت سيطرة الأجانب وبخاصة الإنجليز منهم فما يقطع أمراً حتى يوافقوا عليه ، بل لا يخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها ...

ومن كان هذا شأنه فى موقف كهذا الموقف الدقيق الذى كانت تقفه مصر من أعدائها يومئذ كان مثله مثل الراعى أحاطت الضوارى بقطيعه فما يرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعاً ...

وكانت الدولتان كما سلف القول تراوغ كلتاهما الأخرى ، وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها ؛ وهذه هى حقيقة السياسة الخارجية التى لا تفهم تلك السياسة على وجهها الحق دون الانتباه إليها .

وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء جمبتا عن سياسة الدواتين قال « [1] إن الرأى العام فى إنجلترة قد وقع تحت تأثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استعجال الحوادث جهد الطاقة أملا فى إيجاد فرصة لدخول وادى النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التى حاول كرومر أن يفندها ، فلم يستطع أن يأتى بدليل أو شبه دليل على صحة رأيه وما ملك غير أن ينفى ، وما كان مجرد النفى مما ينهض دليلا يؤخذ به فى أمر من الأمور ...

وكان جمبتا من أشد أعداء مصر بل من أشد أعداء الإسلام قاطبة ؛ وكان هذا اليهودى على صلة برجال المال من الدائنين ، وكان يحيط به فى باريس ريفرزولسون ونوبار يوحيان إليه بما يريان ؛ وكان بطبعه ممن يميلون إلى اللجوء إلى القوة فى كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين

وكان هذا الوزير كما بينا يحاول أن يدفع انجلترة لتأخذ بسياسته ، ولكن جرانفل راح يراوغه مظهرا له أن خيرهما فى أن يتفقا ، وفى الوقت نفسه كان يحذره

---

(١) Modern egypt Cromer

عاقبة التدخل المسلح فى شؤون مصر سواء أكان ذلك من جانب إحدى الدولتين أم من جانبيهما معا لأن ذلك العمل كان من شأنه أن يجر فى أعقابه كثيراً من المشاكل

ولقد رأينا مبلغ تشدده فى وجوب إرسال المذكرة المشتركة ، ثم إصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعها بأى وجه من الوجوه ؛ ولقد كانت كل من الدولتين تحرص على ألا تنفرد فتنكشف ، لذلك كانت تجارى إحداهما الأخرى وإنها لمستكرهة أشد الاستكراه وأقبحه ... وكانت إنجلترة تأخذ نفسها بالصبر حتى تحين الفرصة فتقتنصها ...

على أن جمبتا لم يلبث فى الحكم طويلا فسقطت وزارته فى أول فبراير سنة ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودى بخمسة أيام وحل محله فى الوزارة دى فرسنيه ؟ وكان هذا من أول الأمر يرى فى المسألة المصرية ما لا يتفق وسياسة جمبتا ...

ولكن الأمور كانت قد تحرجت فى مصر بما فعل جمبتا ، وفقدت العناصر الوطنية فى البلاد كل ثقة فى الدولتين جميعا حتى أصبح من أصعب الأمور التفاهم على السياسة العامة ...

***
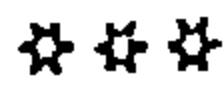
لقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ما كانوا فيه من تأخر كل كرامة ابتغاء الوصول إلى أغراضهم ، وانقلبت عندهم الأوضاع التى تعارف الناس عليها ؛ فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يدلون بمدنيتهم ويتطاولون بما فعلوا فى سبيل حرية الإنسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقا إلى الحرية ، ويعملون على الرق بوطنهم جادين غير متوانين ، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعى الخلاف ويطرحون الأثرة ويحرمون على أنفسهم الطيبات ليتم لهم ما أرادوا

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو ،

وقد كانوا يظنونهم أمواتاً أو كالأموات ، وهالهم أن يروا فريقاً من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو شيئاً فشيئاً ، ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الأمة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ...

وأدركوا أن هذا البعث الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسدالهم ويبدد آمالهم ، فما ونوا يوما كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة ، وفى مقدمة هؤلاء جميعاً ذلك الرجل الذى خطا نحو الحرية الخطوة الأولى وصرخ فى وجه الظلم الصرخة الأولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة ؛ ولكن هذه الوزارة كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون ، فمشت إلى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على إنقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين ، وعلى تعهدها بضروب الأصلاح فى شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها ...

وما كان فى الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الأوربية ، إلا وزير الخارجية مصطفى فهمى باشا ، وقد ضم إلى الوزارة ليكون لسانها فى الصلة بالأوربيين ، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد قول مؤرخى الثورة الفرنسية ، فلم يكن ينظر إلى الوطنيين نظرة الاحترام والتوقير ، وإنما كان يرى فيهم فريقا من الفلاحين يتطلمون إلى ماليسوا أهلاله ، شأنه فى ذلك شأن الشراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها فى ذلك العهد ... وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل فى وزارة الخارجية عبئاً يضاف إلى أعباء الوزارة وذلك أمر لم تفطن إليه إلا بعد فوات الوقت ...

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقا تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب فى السادس والعشرين من شهر مارس

سنة ١٨٨٢ فقضى بذلك فى العمل نحو ثلاثة أشهر ، وهى مدة قصيرة كان يشغل الأعضاء فيها ترتيب أعمالهم ؛ ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم أعضاءه إلى لجان مختلفة أخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها ما يهم البلاد من الشؤون العامة ...

جد المجلس فى دراسة نصوص المعاهدات والمعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية ورعاياها

وأخذت الوزارات تعد مشروعات الاصلاح المختلفة لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم ، فكانت تنظر فيما يتطلبه النهوض بالتعليم ، وتفكر فى إنشاء مصرف زراعى ينتشل الفلاحين من وهدتهم ، وتعمل على إصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها ؛ كما تناولت قانون الانتخاب بالدراسة لتعد قانونا جديداً يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين .. ؛ وقد أشرنا إلى ما أبدى عرابى من همة فى إصلاح شؤون وزارته وبث روح النهوض فيها

ولكن الوزارة كانت كلما تقدمت خطوة فى إصلاحاتها ازدادت لهجة الصحف الأوروبية فى العيب عليها والطعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة فى نقد أعمالها ، ونشطت دسائسهم من حولها وكان على رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن أو على الأصح وجها إلى أن مهمتهما فى مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيداً للتدخل العسكرى

☆ ☆ ☆

والحقيقة التى لا يمارى فيها إلا المغرضون المبطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التى تبرهن على صدقها بالأعمال لا بالأقوال ؛ ولو أنه قدر للوزارة السامية أن تسير على هذا النهج لكان أثرها بعيداً فى تاريخ مصر بل وفى تاريخ القرن التاسع عشر كله ، فلقد كانت تعد المسألة المصرية من كبريات المسائل فى ذلك القرن ...

وليس أبلغ فى الدلالة على وجود الوطنية العاملة فى مصر مما نهض به أعضاء مجلس الشورى من جليل الأعمال فى تلك المدة القصيرة التى عقد فيها جلساته « فإن أعمالهم فى المجلس ومناقشاتهم تدل على مستوى ممتاز فى الكفاية والغيرة الوطنية ، وسداد الرأى ، فقد طرقوا فى مقترحاتهم ومناقشاتهم كل أبواب الأصلاح الذى تحتاج إليه البلاد فى التعليم والقضاء والرى والزراعة والمالية والاقتصاد والادارة والمواصلات ، وكانت خطبهم ومناقشاتهم وجيزة واضحة المعنى ، بعيدة عن التطويل المملّ والعبارات الجوفاء ، وكانت لهم نظرات صادقة فى كثير من الشئون وآراء صائبة تدل على سلامة المنطق والإلمام بالنظام النيابى وحسن الإحاطة بالشئون الحيوية ؛ إعتبر لهم ذلك فى مناقشتهم الخاصة بانتخاب الوكيلين والأغلبية المطلقة والأغلبية النسبية ، وبحثهم فى علاج الخلل الذى كان موضع شكوى الجمهور فى مصلحة المساحة ، ومناقشتهم فى علاج غلاء الأسعار وتضخم الماشات واستعجال إصلاح القضاء ، ومقترحاتهم في نظام الرى ؛ وتأمل فى الاقتراح الخاص بمشروع خزان أسوان وملاحظاتهم السديدة على مشروع قانون امتيازات العرب ومناقشاتهم فى مشروع تعميم التعليم ، تجد أنهم على قصر المدة التى اجتمع فيها المجلس قد بذلوا أقصى ما أمكنهم من الجهد لأداء واجبهم ، وبدت منهم رغبة صادقة فى أن يتابعوا البحث والدرس فى فترة عطلة المجلس ، وبرهنوا على أريحيتهم بما تعاهدوا عليه من أن ينشىء كل نائب مدرسة فى بلده على نفقته ، فبرهنوا على روح طيبة فى تقرير العلم والبذل فى سبيل الصالح العام[1] » .

وكذلك نستدل على وجود الروح فى مصر يومئذ بهاتين العبارتين اللتين نوردهما وندعو القارىء أن يتدبر فيهما .

أما أولاهما فهى ما كتبه دى فريسنيه فى كتابه « المسألة المصرية » حيث يقول معلقاً على مجلس النواب واختصاصاته « إن كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى أن

---

(١) الثورة العرابية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليخيل إلى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقاً ، وأن وادى النيل لم يكن يحتوى إلا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتهاناً للوطنية المصرية فى عهدهم ؛ وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى أن يتكلموا فى خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك إذاً وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ ولست فى هذا مبالغاً ولا أنا ممن يحبون المبالغة ، ولكن لا ريب فى أنه كانت توجد فى قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعى فى حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تحتمل جدلا . غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون من المصريين غير قوم مدينين ، فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم إلا مصلحة واحدة : هى مصلحة الدائنين الأوروبيين التى يجب أن تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا إلى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم فى شئونها تدخلا أدى بحكومتها إلى أن تصير فى أيدى الأجانب كانا قد انتهيا على طول الأيام بأن يجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حى مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من أجيال » .

وأما ثانية العبارتين فهى ما كتبه من باريس سنت هيلير إلى قنصل فرنسا العام فى مصر فى السابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ قال « ليس من السهل علينا أن نقرر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن إرضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقية إلى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه إلى أعظم حد أيضاً ، فلا يمكن إهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها »[١] .

ليتدبر القارىء فى هاتين العبارتين ، وليتدبر فيهما كذلك من يريد أن يحكم

---

(١) العبارتان من تعريب الأستاذ عبد القادر حمزة .

على رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى ، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابياً ورجاله بالفوضى والجهل والأنانية ؛ ليشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الاستخفاف بهم والزراية عليهم ، فليس أدعى إلى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمراً من الأمور ثم إذا هو يدلى فيه برأى قاطع فى لهجة يتردد فى اتباعها الراسخون فى العلم ...

ونضيف إلى هاتين العبارتين قول كروص : « ليس هناك ريب فى أن حركة عرابى كانت من بعض الوجوه حركة قومية . وليس من شك كذلك فى أنه لو ترك عرابى وأتباعه فى القيام على الشئون من غير مراقبة ، فأن حالة من أشد حالات الاضطراب كانت تنشأ فى مصر ، وإن تدخلا أجنبياً مسلحاً من نوع ما كان يصبح ضرورة من الضرورات ».

وغنى عن البيان ما تكشف عنه عبارته الأخيرة مما يريد به أن يمحو أثر اعترافه بقومية حركة عرابى ، فهذا المؤرخ الإنجليزى الذى كان من أكبر أساطين الاحتلال لا يستطيع إلا أن يمحو بشماله ما أثبته بيمينه ...

ما كان عرابى طائشا ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيما مخلصا يعمل بوحى من وطنيته ويصيب ويخطىء كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة ! .

والخطأ والصواب من خواص البشر ومردهما إلى العقل وسعته أو ضيقه ، أما الصدق والأخلاص وما إليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لا يصح أن تكون هذه أمورا يجوز فيها التفاوت إذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل ! وكيف يجوز فى عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق وإخلاص ونصف إخلاص ؟ إن هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها فى

أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ، وعلى الذين لا يزالون يخاصمون عرابيا أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو مروقه ، أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما يشاءون ؛ وليس ما نعنى به خطأ عرابى أو صوابه فليخطىء عرابى أو فليصب ، ولكن لو أنه كما زعم خصومه كان مدعيا أو مداجيا ولو فى موقف واحد من مواقف حياته السياسية ما استطعنا أن نكتب عنه كلمة واحدة ...

ومع ذلك فبيننا وبين خصوم هذا الرجل حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما علمنا من أمرها وهى كفيلة بأن ترينا مبلغ ما فى مزاعمهم هم من خطأ ...

أماني مصلح
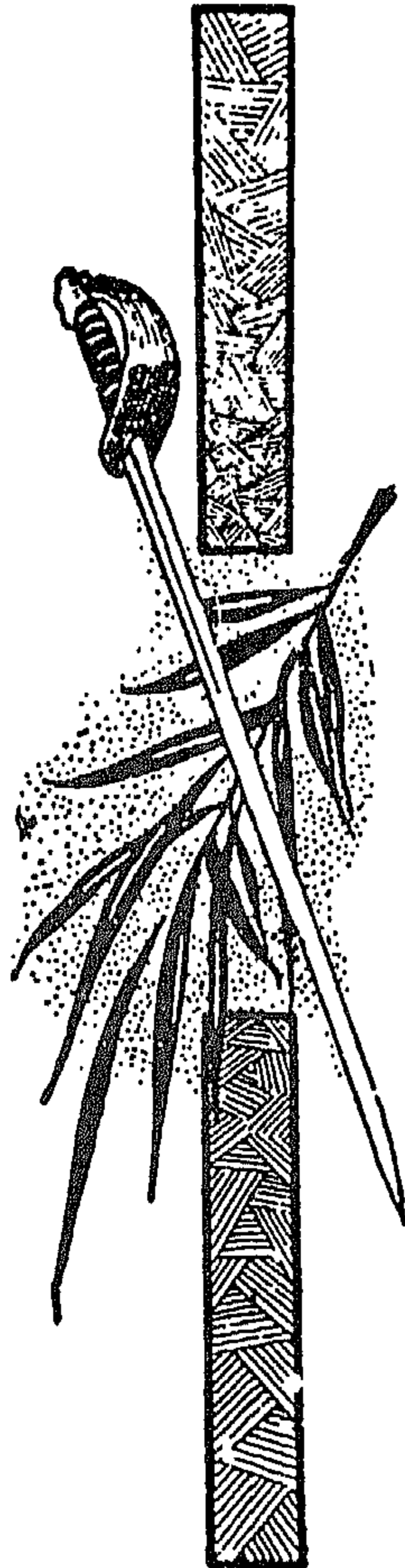
لم يكن جهد أحمد عرابي منحصراً في المطالبة بالدستور ، بل كانت تنطوى نفسه على كثير من الأماني التي يتوق إلى أن يراها حقائق ماثلة أمامه .

كانت تخالج نفسه منذ صلته بسعيد باشا رغبات في الإصلاح مبعثها تعصبه لقوميته ذلك التعصب المحمود الذي انبعث في نفسه مما كان يراه من حرمان بني قومه في وطنهم من كل ما يشعرهم بالعزة والكرامة بينما يتمتع بالسيادة أجلاف من الشراكسة ، لم يكن لهم من حق في هذه البلاد إلا أنهم بقية هؤلاء المماليك الذين اشتروا أول أمرهم كما تشترى السلع في الأسواق !

وكان يفطن هذا الجندي الثائر أو هذا الوطني الصادق العقيدة إلى أن الإصلاح المنشود ، ينبغي أن يأتي من الأعماق فيبدأ بهؤلاء الفلاحين الذين هم عصب القومية المصرية ، فمتى صلح حال هؤلاء واستشعروا في وطنهم الكرامة والعزة ، قامت القومية المصرية على أساس وطيد ، ومضت مصر قدماً في طريق الرقي والمجد ، وعزت على الطامعين والكائدين ...

وكانت أماني هذا الرجل تظهر في خطبه التي يلقيها في شتى المناسبات ، فكان كثير الإشارة إلى القضاء على الاستبداد والعناية بالعلم والمعرفة ؛ ولكن شيئاً أشبه بخطة موضوعة يتبين في حديث له مع صديقه الإنجليزي مستر بلنت ، ونحب أن يتدبر من يحبون عرابياً ، ومن لا يزالون يكرهونه في هذا الحديث ، ففيه جانب من شخصية هذا الرجل الذي مسخ البهتان والعدوان شخصيته ، وما كان الإنجليز لعمر الحق يرضون أن يكون عرابي داعية إصلاح وزعيم قومية ، ويكونون هم من قضوا عليه تحقيقاً لمآربهم الاستعمارية ثم يدعون مع ذلك أنهم جاءوا لإصلاح مصر والقضاء فيها على عوامل الفوضى ... لذلك عملوا على إنكار كل معنى من معاني

الجد والنهوض فى تاريخه ، وتعمدوا أن ينظروا إليه نظرة الرجل المدل بحكمته وتجربته إلى الطفل الذى يدعى لنفسه ما ليس له ، ومن أدلة ذلك أن الجهل والغرور فى مقدمة الصفات التى ينعته بها كتاب الاحتلال ، وإنهم ليعلمون بينهم وبين أنفسهم أن همة هـذا الرجل وجرأته وما كان يبتغي لقومه من ضروب الإصلاح جديرة بأن تجعل منه زعيما أنجبته مصر ، كما تنجب الأمم الزعمـاء ، وأن تلك الصفات فى أحمد عرابى المصرى الفلاح لن تختلف فى جوهرها عما يعزى من صفات إلى أبطال الوطنية والقومية فى غير مصر من أمم الأرض .

قال بلنت بعد كلام طويل جاء فى صدد شرائه حديقة الشيخ عبيد بين المرج والمطرية ، ولنعد إلى زيارتى التوديعية لعرابى قبل سفرى . ففى هذه المناسبة تناولنا بالحديث جميع المسائل التى كانت تدور فيها المناقشات وتتشذ بين رجال الحركة القومية والتى كانت تتضمن خططهم فى سبيل الإصـلاح وآمالهم ومخاوفهم فى الداخل والخارج .

وإن الأسابيع القليلة التى قضاها عرابى فى منصـبه السامى قد أكسبته نضجاً وقوّت عزيمته ، فتناول معى الأمور بكل ما يمكن من سداد فى الفـكر ولغة الحوار .

ولقد أكد لى تأكيداً وثيقاً أنه وأصحابه الوزراء يتطلعون أكبر التطلع إلى تفاهم ودى مع الحـكومة الإنجليزية على كافة المسائل القائمة بينهم وبين وكلائها فى القاهرة . على أنه اشتـكى فى شدة من مالت وكلفن فإن صنعهما الأخـير والدور الذى أخذاه فى معركة تشويه الحركة الوطنية فى الصحف البريطانيـة يدلان على عداوتهما ... ثم قال عرابى : إنه لن يقوم سلام فى القاهرة طالما أنه ليس لدينا غير هذين نتعامل وإياهما لأننا نعلم أنهما يدبران لنا السوء فى السر وإن لم يبد ذلك فى العلن ؛ وسوف ننأى بجانبنا عنهما كليهما ؛ ولـكن ليس معنى ذلك أننا لهذا نريد أن نخاصم انجلترة ، فليرسل إلينا مستر جلادستون من يشاء غيرهما لنتعامل معه ونحن نتلقاه مرحبين بأذرع مبسوطة .

وتكلم عرابى كلاماً طويلا عن الإصلاحات التى كان يفكر فيها محمود سامى والوزراء ، تلك الإصلاحات التى وضع معظمها فى ثبت الحسنات التى أسداها الاحتلال البريطانى إلى مصر والتى ادعاها اللورد كرومر لنفسه . ومن أمثلة تلك الإصلاحات إبطال السخرة التى أنزلها الأغنياء من الباشاوات الترك بالفلاحين وإبطال احتكار هؤلاء الأغنياء مياه الرى عند زيادة النيل ، ثم حماية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين الذين وضعوهم بين براثنهم معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة ؛ وتناول التفكير فى الإصلاح حتى ذلك العلاج الأخير لهذه النكبة الزراعية ، ذلك العلاج الذى طالما جعله اللورد كرومر من مفاخره بوجه خاص ، ألا وهو إنشاء مصرف زراعى تحت إشراف الحكومة ...

وتكلم عرابى فيما تكلم فيه من المسائل عن إصلاح العدالة التى تطرق إليها الفساد فى صورة مخيفة ، وعن تعليم الرجال بل وتعليم النساء كذلك ، وعن طريقة الانتخاب التى تنتقى للبرلمان الجديد ، وعن مشكلة الرق ...

وقد تكلم طويلا عن هذه المشكلة الأخيرة ، وذلك لأن الوظفين الأوروبيين فى الإدارة المختصة بالقضاء على الرق ، قد بدأوا كما بدأ غيرهم من الموظفين الأجانب يبدون مخاوفهم من أن النظام الاقتصادى الجديد للحكومة الوطنية سوف يؤدى إلى إنقاص رواتبهم ، ولذلك عمدوا إلى ادعائهم أن نهضة الإسلام سوف تفضى إلى انتعاش تجارة الرقيق ؛ وأظهر لى عرابى مبلغ ما فى ذلك الكلام من ضعف الحجة قائلا إن الذين لا يزالون يمتلكون الرقيق فى مصر أو الذين يريدون امتلاك الرقيق إنما هم أمراء الأسرة الخديوية وأغنياء الباشاوات ، أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وإنه حسب مبادىء الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعاً منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين ، وإن انتعاش تجارة الرقيق لهو آخر شىء يمكن أن يتمشى مع هذه المبادىء ...

وتناول آخر الأمر ما يتصل بضرورة الاستعداد الحربى لما يتوقع من حرب ،

ذلك الأمر الذى كان يعنيه بصفة خاصة لأنه جندى ولأنه وزير الحرب ، وقد تحدث عن هذا فى بساطة ونشاط ...

قال إن الحكومة القومية سوف لا تضع السلاح أو تغفل عما يجب من الحذر حتى تتوطد دعائم النظام الدستورى وتعترف به أوربا ، وأعرب عن أمله ألا يتجاوز المخصصات الحربية التى اتفق عليها مع كلفن ، وألا يضطر أن يزيد عدد المجندين عن الثمانية عشر ألفاً الذين تسمح بهم الفرمانات ؛ فإذا استمر تهديدهم بالتدخل المسلح فإنهم سوف يتبعون الأسلوب البروسى القائم على فكرة قصر مدة الخدمة وبهذا يصلون إلى إيجاد قوة كبيرة هى بمثابة جيش احتياطى تحت السلاح .

وسألنى عرابى رأيى عن مبلغ إمكان التصادم ، فقلت فى جلاء أنه كما يتبين لى مما تفاخر به كلفن أمامى من نيـة العمل على وقوعه ، ومن لهجة الصحف التى وجهها لتتمشى مع ذلك ، فإن الخطر حقيق ، وأن غرضى من ذهابى إلى إنجلترة هو أن أقضى على حملة الكذب التى بدأت ، بكل ما فى وسعى؛ وسيكون ما أدعو إليه هناك هو السلام وخلوص النيات . ولكنى من جهة أخرى لست أنصح له إلا بأن يظل على ثباته وعزمه ، فإن خير وسائل السلام أن يستعد المرء للدفاع ؛ وإن كبار أعداء مصر ليسوا بين صفوف رجال الحكومات كما هم بين صفوف رجال المال ، وإن هؤلاء سوف يترددون طويلا قبل أن يحرضوا على هجوم مسلح إذا عرفوا أن ذلك يعرض مصالحهم فى مصر لخطر حرب طويلة الأمد كثيرة النفقات ، وإن أمة مسلحة قد عقدت العزم على الدفاع عن حقوقها لأمة يصعب أن يبطش بها . وأذكر أنى اقتبست له أبياتاً من بيرون تبدأ بقوله « لا تثق فى طلب الحرية بالفرنجة » وقد وافق على ذلك الكلام موافقة قوية ، وأظن أن ذلك كان آخر ما دار بيننا من كلام ، وقد وعدته أنه إذا وصلت الأمور إلى أسوأ ما تصل إليه فسوف أعود لآخذ بنصيبى بين صفوفهم فى المعركة من أجل الاستقلال » .

وبعد فإن نظرة فى هاتيك الأمانى التى كانت تتمثل فى خاطر أحمد عرابى ترينا بعد ما بين هذا الرجل فى صورته الحقيقية وبينه فى صورته التى صورها المغرضون .

ثار هذا الرجل ثورته فأثبت فى سجل القومية المصرية يوماً لا يمحى هو يوم عابدين المشهود ، بل لقد أضاف أحمد عرابى بما صنع فى ذلك اليوم فصلا إلى تاريخ الحرية فى هذا الوجود ...

وظفر أحمد عرابى بالدستور ؛ ثم التفت بعد الدستور إلى الإصلاح الاجتماعى فى ظل هذا الدستور ؛ ثم رأى الإنجليز يتربصون به وبمصر فأخذ يعد العدة للمقاومة ؛ ولسوف يجد الجد فتجتمع فيه آمال أمة وتتمثل فيه بطولة شعب يطلب الكرامة ، ويرى التاريخ لأول مرة مصريين من صميم قرى مصر يخوضون الحرب فى سبيل مبادىء سامية .

فماذا كان يطلب منه أكثر من ذلك ليعترف له خصومه بالزعامة والبطولة ؟ أكل ذنبه عندهم أنه هزم ؟ ألا ما أصدق قول القائل « ولِلأُم المخطىء الهبل » .

على أن الخيانة والخنوع من جانب فريق من المصريين كما سنرى من الحوادث هى التى سوف تودى به وبحركته . .

ولو أن عرابياً انتصر يوم التل الكبير ، أو لو أن الخديو كان فى صفه وكان المصريون جميعاً من ورائه وواتاه الحظ فظفر برد الإنجليز عن مصر ، أكان يجد بنو مصر فى تاريخهم رجلا قبله يستحق أن يقرنوه به ؟

ألا إن خصوم هـذا الرجل إنما يخاصمونه لأنهم يجهلونه فليقرأوا تاريخه فى غير تحيز وليطرحوا من نفوسهم ما بثه فيها الاحتلال ، ومن أضلهم عن الحق الاحتلال ...

مراوغة وتربص

جدير بنا ألا ننسى ما أسلفنا الإشارة إليه فى أكثر من موضع ، ألا وهو موقف الدولتين إحداهما من الأخرى موقف المراوغة والمداراة ، ذلك الذى كان طرفاه أول الأمر جمبتا وجرانفل .

ولقد تغير هذا الموقف تغيراً أساسياً من جهة فرنسا حينما حل دى فرسنيه فى الحكم محل جمبتا ؛ وذلك أن هذا الرجل قد انتهج فى المسألة المصرية نهجاً جديداً ما لبث أن بينه لإنجلترة حين ولى الحكم ...

وقد ألقيت إلى فرسنيه مقاليد الحكم كما ذكرنا قبل أن يخلف البارودى شريفاً بخمسة أيام ، فكتب إلى الحكومة الإنجليزية أنه لا يميل إلى أى تدخل عسكرى فى مصر سواء أكان هذا التدخل من جانب انجلترة وفرنسا مجتمعتين ، أم من جانب كل منهما على حدة ؛ وأنه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أى تدخل من جانب الباب العالى .

ولعل جرانفل قد رأى فى سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه ، مع ما قد يبدو لأول وهلة من أنها تؤدى إلى عكس ذلك ؛ وذلك لأنه يستطيع الآن أن يلزم دى فرسنيه بسياسته التى وضعها بنفسه ، بينما يتلمس هو الأسباب لتتدخل حكومته بمفردها ، ولن يعدم أن يتخذ من الحوادث مبرراً لتدخله فإن لم يجد فما أيسر خلق الحوادث واستغلالها ... حتى إذا سنحت الفرصة أفلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده .

وإذا بدا لتركيا أن تتدخل فلتستتر إنجلترة خلف فرنسا ، لأن فرنسا هى التى تعلن أنها تمانع فى تدخل الباب العالى ، وإن إنجلترة لتمانع أكثر مما تمانع فرنسا حتى لا تعود مصر إلى حوزة السلطان فتضيع على إنجلترة كل آمالها ولكنها

تلقى هـذه المانعة فى مهارة على عاتق فرنسا فتزداد نياتها خفاء ، وتزداد فى نفس الوقت قرباً من غايتها .

وكان جمبتا يشير أبداً بالالتجاء إلى القوة ضـد الوطنيين فى مصر ، ومن هنا جاءت المذكرة المشتركة ؛ وكان يرى أن تتدخل الدولتان سريعاً تدخلا عسكرياً فى مصر ؛ ولـكن جرانفل تباطأ وراح يبين له ما تنطوى عليه هـذه السياسة من أخطار ، وإنه ليخفى فى نفسه ما يخفى ؛ ولقد جاء كلام جرانفل هذا إلى جمبتا فى رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد ؛ وجاء فى خاتمة هذه الرسالة قوله « إن حكومة جلالة الملكة توافق على أن للدولتين مركزاً خاصاً فى مصر وذلك بناء على الاتفاقات الدولية وعلى الظروف القائمة ؛ وإنها كذلك تعتقـد أنه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عـدة دول فى مسألة حكومية كهذه ، ولـكن حكومة جلالة الملكة تكل إلى الحـكومة الفرنسية أن تنظر فيما إذا لم يكن الموقف يتطلب الاتصال بالدول الأخرى كخير وسيلة لتناول حالة من الحالات يتبين أنها ذات مساس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية » .

وقد كانت السياسة الإنجليزية تدور منذ حملة بونابرت على مقاومة نفوذ فرنسا فى وادى النيل ، ثم الاستيلاء عليها متى أمكن ذلك وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، دون مراعاة أى شىء فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض ...

واستفهم فرسنيه الحـكومة الإنجليزية ماذا أرادته بذلك الاحتياط الذى أبلغته جمبتا بعد موافقتها على المذكرة المشتركة ، فـكان الجواب أن الحـكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بتعيين نوع العمل إذا لم يكن من العمـل بد ، وفى تقرير وجوب العمل أو عدم وجوبه على وجه العموم ...

ثم أراد جرانفل أن يخفف من وقع هذا الـكلام فى نفس فرسنيه فذكر أنه ليس فى مصر ما يدعو إلى القلق فإن الوزارة الجديدة تجهر برغبتها فى المحافظة على تعهدات مصر الدولية ؛ وإذا وقع ما يقتضى التـدخل فإن الحـكومة الإنجليزية

تجعل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان فى كل خطوة وفى كل مفاوضة يؤدى إليها هذا التدخل .

وفى تلك الأثناء كان كلفن ومالت يحكمان دسائسهما فى البلاد ويباعدان بين الخديو ووزرائه ، لا يتوانيان عن خلق الضرورة التى تقضى بالعمل ! .

وكانت الحكومة الإنجليزية التى تقف من فرنسا ذلك الموقف الذى أشرنا إليه تفكر فى ذلك الوقت فى إعداد حملتها على مصر ! ؛ ففى اليوم الخامس عشر من شهر مارس أى بعد استلام البارودى أزمة الحكم بأربعين يوماً ، زار مستر بلنت السير جارنت ولسلى الذى سوف يكون عما قريب قائد الحملة على مصر ، فدار بينهما الكلام عن هذا المشروع يقول مستر بلنت « فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس ذهبت لمقابلة سير جارنت ولسلى وجرت بينى وبينه محاورة تستحق أن تذكر فى اهتمام : فبعد حديث قصير عن قبرص اتجه الكلام إلى مصر وما عسى أن يكون لدى القوميين من مقاومة إذا وقع تدخل ، وسألنى رأيى فى ذلك ، فقلت إنهم بالضرورة سيحاربون ، ولن يقتصر الأمر على الجند بل سيشاركهم الناس جميعاً ، وربما لجأوا بعد ذلك إلى وسائل أخرى ؛ فرفض أن يصدق أن الجيش سوف ينهض لحرب ما ؛ فصممت على عكس ذلك وقلت له إنهم إذا أرسلوه لقهر مصر فيجب عليه أن يسير فى ستين ألفاً على الأقل ، وبهذا قد بالغت فى تصوير المسألة بلا ريب لأنى أردت أن أجعلها صعبة ، بحيث أنه يجب على الحكومة أن تفكر مرتين قبل الإقدام عليها ؛ ثم أخبرنى من تلقاء نفسه أنهم شاوروه مرتين أو ثلاثا أثناء الشتاء فى احتلال عاجل ؛ وأكد لى مع ذلك أنه لا يحب التدخل أحد ، وأن احتلال مصر عمل لن يقابله الجيش بالاستحسان ، وأنه هو نفسه سوف يؤسفه جداً أن يناط به هذا العمل ؛ وأعرب لى أنه خير لمصر كثيراً أن تسرح جيشها وتعتمد على حماية أوروبا ، ولكنى أخبرته بأنى لا أستطيع أن أنصح للمصريين بذلك ، وأن الأمة التى تنوى الحرب نية صادقة قلما هاجمها عدو فقال : إنه ليس هناك ما يسمى

بالشرف فى الحرب ، وإنه إذا كانت المسألة مسألة حرب فيجب ألا يثقوا بنا أكثر مما يثقوا بأية أمة أخرى ... ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق الحربيـة المؤدية إلى القاهرة كطريق بونابرت على الضـفة اليسرى للنيل ، ثم طريق الصحراء بوجه خاص بين ترعة السويس والدلتا ، ولقد شعرت أنه إذا ما أنزلت جنود انجليزية فى مصر فعلا فإنها ستسير فى الطريق الثانى ؛ ولـكنى كنت حريصاً ألا أدلى إليه بما يكون فيه أقل فائدة له من المعلومات ، ولم أبد إلا الضحك عند ما سألنى بين الجد والمزاح عمـا إذا كنت أرافقة لأدله على الطريق إذا ما بلغت الأمور حداً ترسل معه حملة » .

ويكفى هذا الحديث وحده للدلالة على ما كانت تثبته انجلترة لمصر وما كانت تراوغ به فرنسا ...

وبينما كانت تدبر الدسائس لمصر في الداخل والخارج ، لم يكن للوزارة المصرية من وسائل الدعاية شىء ما ، فـكان أعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم أطماعهم ، حتى لقد صور زعيم الحركة الوطنية فى مصر أحمد عرابى صوراً بلغت أقصى حدود الغرابة ، فهو تارة رئيس عصابة من المتمردين الخارجين على القانون والنظام ، وهو طوراً داعية إسماعيل اشتراه بالمال ليعمل على إعادته إلى مصر ، وهو بالإضافة إلى هذا عند بعض الإنجليز أسبانى أو فرنسى فى زى مصرى ، إلى غير ذلك من الأقاويل التى لا ندرى أنقابلها بالألم أم بالسخرية ! .

وانطلقت الصحف تذيع فى الناس الأراجيف فى غـير حياء أو فتور وليس لمصر لسان يدافع عنها إلا بلنت ، فلقد سافر هـذا الرجل الحر كيما يقابل كل من لهم صلة بالمسألة المصرية ليريهم وجه الحق فى هذه القضية ، وليصحح ما جاز على عقول بعض الساسة من خدع ، وليكاشف الذين يدعون أنهم لايعلمون الحق بما يعلم هو من الحق لعلهم يرجعون إليه .

ولقد قابل جماعة من النواب ومن رجال المـال ؛ ثم ما زال يسعى حتى ظفر بمقابلة جرانفل وزير الخارجية فتحدث إليه عما لديه من المعلومات ودافع عن قضية

الحرية فى مصر بكل ما فى طوقه من وسائل الدفاع ؛ ولكن شد ما كانت دهشته وألمه عند ما انطلق جرانفل نفسه يخبره أن لديه من المعلومات ما يؤيد عنده أن عرابياً إن هو إلا صنيعة إسماعيل وأن المسألة من أولها إلى آخرها ما هى إلا سلسلة من الدسائس لإرجاع الخديو السابق إلى عرشه ! .

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة جلادستون ، وقد كانت شهرته قائمة على أساس ميله إلى الحرية ، والأخذ بيد الشرقيين جميعاً لينهضوا من سباتهم ، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتحدث عن الحركة الوطنية فى مصر فى حماسة وطلاقة ، وظل جلادستون صامتاً ينصت إليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول يقدره حق قدره ؛ قال بلنت « ثم سألنى عن الجيش المصرى وسبب ظهوره فى المسائل الوطنية ، فإنه خشى عاقبة ذلك ؛ فأوضحت له تاريخ الحركة كلها وأكدت له أن ما زعمه البعض عن تدخل الجند أمر مبالغ فيه ، وأن ما أذيع من الأنباء عن الجند وتوعدهم النواب ليست إلا مفتريات ؛ وقلت إنه ليس هناك من سبب لما تبديه مصر من الاستعداد إلا خوفها من الاعتداء والتدخل » .

ولكن ماذا كان ينتظر بلنت من جرانفل وجلادستون ، ولم تكن المسألة مسألة إقناع وحجة ؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل ، وإنما كانت متى ينفذ ما انعقدت النية عليه ؟ .

وإنى لأحس فيما قرأته مما كتبه بلنت عن مقابلته لجرانفل وجلادستون أنهما كانا ينظران إليه نظرتهما إلى غر لا يفهم ما يجب أن يتبعه الإنجليزى فى معاملة الشعوب الشرقية ، أو إلى ناشىء فى السياسة لا يدرى أن الكلام شىء والخطط المرسومة شىء آخر ...

ولقد علق كرومر فى كتابه مصر الحديثة على مساعى بلنت فقال « ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية نرى أبرزهم مستر ولفرد بلنت ، ولقد عاش مستر بلنت زمناً بين المسلمين ، وكانت له لذة شديدة فى كل شىء يتصل بهم وبدينهم ويظهر

أنه كان يعتقد فى إمكان إحياء الإسلام على قواعده الأصلية ، وقد تصادف أنه كان فى مصر فى شتاء سنة ١٨٨١ ، ٨٢ ، فألقى بنفسه بكل ما تبعثه الطبيعة الشاعرية من حماسة فى جانب القضية العرابية وأصبح مرشدها وفيلسوفها كما أصبح الصديق لعرابى وأتباعه ؛ ورأى مستر بلنت أنه كان يعنى بحركة هى إلى حد معين حركة قومية بلا نزاع ؛ وفشل فى أن يفهم فهماً كافياً تلك الحقيقة : وهى أن سيادة الحزب العسكرى كان فيها القضاء على العنصر القومى فى الحركة . وكان فى وقت ما يعمل وسيطاً بين السير ادوارد مالت والقوميين .

ولكن هذا الاختيار لم يكن موفقاً ؛ لأنه يتبين بأجلى وضوح مما ذكره بلنت فى كتابه عن مساعيه أنه فيما عدا بعض المعرفة باللغة العربية لم يكن على شىء من الصفات اللازمة لتحقيق النجاح فى مسألة لها ما لهذه المسألة من دقة وصعوبة ، ولقد نصح للقوميين أن يعنوا بالجيش وإلا غالتهم أوروبا وكان يعنى النصيحة بلا ريب ، ولكنها كانت فى غير وقتها كما كانت خبيثة ، فلئن كان ثمة من خطر من جهة الغزو الأوروبى فإن موطن هذا الخطر كان فى انضمام الحزبين الوطنى والعسكرى أكثر مما كان فى انفصالهما ؛ ولقد كان من السهل على السياسى المجرب أن يدرك هذا ، ولم يكن المستر بلنت تجربة سياسية ذات قيمة وإنما كان رجلا متحمساً يحلم أحلاماً عن يوتوبيا عربية » .

هذا ما يراه كرومر فى بلنت ؛ وليس عجيباً أن يكون هذا رأى كرومر ، وهو من أساطين الاستعمار ، فى رجل مثل بلنت كان بلا مراء من كبار الأحرار ؛ وإنما نورد رأى كرومر هذا لأنه يكشف عن جانب من أساليب المستعمرين الإنجليز فى محاولة طمس الحقائق فى سبيل الوصول إلى ما يطمعون فيه من أغراض ؛ وهو من ناحية أخرى يشف عما كان يمكن أن يقابل به مسعى رجل مثل بلنت فى دوننج ستريت إبان تلك الظروف التى نتحدث عنها ، ظروف مقاومة الوزارة الوطنية فى مصر ...

ولم يكن ينتظر أن يصيب بانت غـير الفشل ، وقد كانت وزارة جلادستون تتعجل الحوادث لتفلت من فرنسـا وتنفرد بوضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذى وضعها فيه فرسنيه ، فلقد ذهب هذا الوزير فى تجنب العدوان على مصر إلى حد أنه كتب إلى قنصـل فرنسا فى القاهرة يأمره « أن يلزم خطة التحفظ والحذر ، وإن كان ذلك لا يمنعه من أن يحسن صلته بكل حكومة فى مصر تحترم الاتفاقات الدولية وتحافظ على النظام » .

ولقد زاد فرسنيه على هـذا أن استدعى المسيو دى بلنيير العضو الفرنسى فى المراقبة لما كان يعلم من مسلكه نحو الحركة الوطنية فى مصر ؛ وباستدعاء دى بلنيير خلا الجو لكلفن ومالت فراحا ينفثان سمومهما ويتعجلان الحوادث فى غير ونـاء ولا استحياء .

ومضت إنجلترة تتربص بمصر كما يتربص الوحش بالفريسة ، وبعد شهرين من سحب دى بلنيير وقع فى القاهرة ما عرف بحادث المؤامرة الشركسية .

وسيرى القارىء فيما يلى كيف استغل مالت وكلفن هذا الحادث العادى دون أى وازع من ضمير أو قانون أو عرف ، فلننظر ماذا كان من أمرها وأمر الخديو فى هذا الحادث الذى لولا أطماع السياسة وتربص القوى بالضعيف ما كان ليثير شيئاً مما أثار من متاعب للوزارة وإحراج ، وما كان ليلد ما ولد من أحداث جسيمة .

اعنات وإحراج

كان الانجليز فى مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم كما بينا ، حتى إذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريستهم حائل ؟ ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودى فى حل مسألة الميزانية ، ينتظرون أن تواتيهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما بيتوا ..

وأخيراً وقع فى مصر حادث ما نظن فى تاريخ الاستعمار الأوروبى كله أن استغل حادث كما استغل هذا الحادث فى قبح ما بعده قبح ، على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الشركسية المشؤوم

نمى إلى عرابى وزملائه أن فريقاً من الضباط الشراكسة يأتمرون به وأصحابه ليقتلوهم ، فكان أن قبضت الحكومة عليهم كما يقضى بذلك واجبها وساقتهم إلى المحكمة فقضت فيهم قضاءها .

وليس فى هذا الحادث ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الأسباب ؛ وما كانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلا غير ما سلكته وزارة البارودى

ولكن الطامعين المفترين ما لبثوا أن عادوا يملأون الدنيا صياحاً وتنديدا ، وتهديداووعيدا ، فقد واتتهم فرصة جديدة بعد أن أفلتت من أيديهم أزمة الميزانية

ونسى هؤلاء كل شيء إلا تحقيق أطماعهم من وراء هذا الحادث ، فكان من أقوالهم وأفعالهم ما هو حقيق بأن يسمهم بميسم الخزى والعار ، بل ما هو خليق بأن يساق بين أقوى الأدلة وأنصعها على صحة مبدأ القائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بنى الانسان فزادتهم قربا إلى الحيوانية ، بقدر ما باعدت بينهم وبين ما يرجى للآدمية من سمو .

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الأوروبية على مبلغ ما يمكن أن يصل إليه

غدر الانسان بالانسان فى عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى إلى ذوى الأحلام من البشر أن الأنسان لا يزال هو الأنسان ، وأنه إذا كان ارتقى فى شىء ففى وسائل الكيد والبطش ، أما غرائزه الأولى غرائز السيطرة والأنانية فما زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تهذيب على الرغم مما يحلم به الخياليون من حماة الانسانية ...

وإنا لا نجد فى بيان مدى ما بلغه هؤلاء الساسة من انحطاط خيرا من أن نعرض المسألة فى وضعها كما حدثت مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما يمكن أن يبين كلام ما يقوم فى الذهن أو يمتلج فى أطواء النفس ، تلقاء هذا العدوان الشنيع ...

أراد المتذمرون الشراكسة من سياسة عرابى والضالون منهم أن يقتلوه هو وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية ، وقد نمى ذلك إلى علم عرابى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الأول ، وهذا علمه من أحد المتآمرين وهو راشد أنور أفندى الذى خالف إخوانه فسارع إلى إفشاء سرهم

وفى اليوم الثانى عشر من شهر أبريل سنة ١٨٨٢ قبض على تسعة عشر ضابطا وسيقوا إلى مجلس عسكرى ألف لمحاكمتهم بعد أن عرض الأمر على الوزراء وعلى الخديو ، وقد جعلت رياسة المجلس للفريق راشد باشا حسنى وهو شركسى ، وقد اختير كما ذكر عرابى فى مذكراته المخطوطة (١) لنزاهته وتقواه واعتداله

وبعد عشرة أيام بلغ عدد المقبوض عليهم ثمانية وأربعين ، وكان من بينهم عثمان باشا رفقى نفسه ؛ « وقد اعترف أحدهم وهو القائمقام يوسف بك نجاتى بالمؤامرة ، وأقر بأن راتب باشا هو مدبرها ، وأنه أغرى الضباط الشراكسة بحضور عثمان باشا رفقى بقتل عرابى ، واعترف بعض الضباط المتهمين بما يؤيد اعتراف نجاتى بك » (٢)

---

(١) تحت يدى نسخة من هذه المذكرات المخطوطة تفضل بعض أبنائه بإمدادى بها .

(٢) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى بك وقد نقل ذلك عن جريدة الوطن عدد ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢

وقضى المجلس بأدانة أربعين رجلا منهم رفقى ، فحكم بتجريدهم جميعا من ألقابهم ونفيهم إلى أعالى النيل الأبيض فى ربوع السودان .. وعوقب بهذا العقاب اثنان من المدنيين مع حرمانهما من الحقوق المدنية ، وأحيل خمسة على المحاكم الأهلية ، وعوقب راتب باشا المدبر للمؤامرة كما رأى المجلس بالحرمان من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ومنع من العودة إلى مصر وإذا عاد فينفى من فوره ... وذكر المجلس أن الخديو إسماعيل هو الذى حرك المؤامرة ، واقترح أن ينظر مجلس الوزراء فى مرتباته ...

* * *

اختلفت الآراء فى بواعث هذه المؤامرة الشركسية ،ومن هذه الآراء ماذكره بلنت حيث يعزوها إلى الخديو إسماعيل ، الذى وكل بها رجلا عرف بعداوته القاسية للحركة الوطنية ووجوهها يدعى راتب باشا ؛ وكان إسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة إلى العودة إلى عرشه ابتغاء القضاء على القلاقل والفتن المزعومة التى عجز توفيق عن القضاء عليها كل العجز ، وكان يمنى نفسه بأن توافق إنجلترة على ذلك فتقنع به تركيا أو تجبرها عليه ...

ويؤكد بلنت هذا الرأى قائلا إنه عرفه من جملة مصادر منها ابراهيم بك المويلحى سكرتير إسماعيل ؛ ولقد أيد الشيخ محمد عبده هذا الرأى فيما جاء بكتابه إلى بلنت بعد سفره إلى أوروبا عن هذه المؤامرة قال « أما فيما يتصل بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى باشا فليست بذات خطر حقيقى ، فإن الخديو السابق إسماعيل أكبر عدو رأته مصر والرجل الذى لايزال يحقد على ما بلغناه من سعادة، لا يفتأ منذ مدة طويلة يضع ألغام مؤامراته ليدمر حكومتنا الحالية ظنا منه أن ذلك يمهد السبيل لعودته ، ولكن الله القادر قد بعثر آماله أدراج الرياح حيث أن كل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر » (١)

---

(١) S, H. of The British, Ocupation of Eqypt. P. 252

ولقد بدأت المؤامرة بتذمر الضباط الشراكسة فى الجيش مما اتخذه وزير الحربية الجديد أحمد عرابى باشا من إجراءات الترقية ، زاعمين أنها إجراءات ظالمة تنطوى على الكيد لهم والانتقام منهم ، لا عن جريرة ارتكبوها ولكن لأنهم ليسوا مصريين ؛ ومما غاظهم كما زعموا إلحاق بعضهم بالمناصب الخالية بالجيش المصرى فى السودان ...

والذى يقف على أساليب السياسة الانجليزية الماكرة فى تمكير كل جو ترى مصلحتها فى تمكيره لا يستبعد أن يكون لمن كان يقيم بمصر من الإنجليز يومئذ أثر كبير فى الأيحاء إلى هؤلاء الشراكسة بهذه الآراء لكى تشيع فيهم الفتنة ، ثم تجاوزهم إلى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا خاصة ...

ومما يميل بنا إلى الاعتقاد فى صحة هذا الذى نقول — فضلا عما أسلفنا بيانه من سوابق السياسة الإنجليزية — ما رمى به الإنجليز الوزارة الوطنية من التهم على ألسنة صحفهم ومندوبيهم فى مصر وبخاصة ما ذكروه من الأفك حول الجيش وسيطرته على كل شىء

والواقع أنه لم يكن فيما فعل عرابى إلا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التى وافقت الحكومة السالفة عليها ، فإن تلك القوانين تنص على وجوب إحالة المرضى والذين بلغوا سنا معينة على الاستيداع ؛ ولقد دافعت الوزارة بهذا ، ولكن الخراصين المناوئين لم يحملوا هذا العمل إلا على الرغبة فى الانتقام ...

ولقد كان ممن نقلوا إلى السودان ستة وثمانون من المصريين وتسعة من الشراكسة فحسب وستة من الأتراك فأى معنى للكيد والانتقام فى هذا ؟

ونحن إذا جارينا هؤلاء الكائدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة متهمة فلا تصدق فيما توره دفاعا عن عملها ، فإن فيما كتبه الشيخ محمد عبده إلى صديقه مستر بلنت فى كتابه المشار إليه أقوى دليل على براءة عرابى والوزارة السامية مما اتهمت به قال « أما عن ترقية الضباط التى لا تزال تلغط بها الصحف

الأوروبية فاسمح لى أن أشرح لك الحقائق ؛ فأول كل شىء إن هـذه الترقيات ليست من عمل عرابى باشا وحده ولا كانت رشوة يقصد بها اجتذاب الضباط نحو عرابى ، فإنها كانت نتيجة للقوانين العسكرية الجديدة التى تقضى بأن يحال على المعاش من يبلغون سنا معينة ومن يصابون بالمرض أو التقاعد أو العجز ؛ وقد بدأ تنفيـذ هذا القانون من عهد شريف باشا ووضع فى قائمة الاحالة على المعاش ثمانية وخمسون وخمسمائة ضابط ثم أرسل ستة وتسعون إلى حدود الحبشة وإلى زيلع وأماكن أخرى ، وأخرج من الجيش نحو مائة ضابط ألحقوا بالوظائف المدنية ، ويبلغ عدد هؤلاء جميعاً أربعة وخمسين وسبعمائة ضابط ، فكان من الطبيعى إذاً أن تجرى ترقيات لملء المناصب الخالية ، ولا يزال فى الجيش خمسون يحتفظ بها لخريجى المدرسة الحربية »

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده ومنه يتبين الحق فى هذه المسألة . على أننا لو فرضنا أن عرابيا قد آثر المصريين بالترقيات وتخطى بذلك نفرا من الشراكسة ، فلن يكون فى رأينا مخطئا حتى فى هذا العمل . فحسب هؤلاء الشراكسة ما نالوه من حظوة طوال العهود السابقة وبخاصة فى عهد رفقى ، وذلك على ما كانوا يضمرونه وما كانوا يبدونه من حقد واحتقار لمصر والمصريين ، وحسب المصريين وهم أبناء البلاد الذين تجبى منهم الضرائب ماذاقوا من هوان ومذلة على أيدى هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم ، واتخذوا منهم عبيداً وإماء .

وماذا كان ينتظر من عرابى غير أن يطبق القانون ، وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثمارها ؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذى ظل طول عمره ناقما على حرمان المصريين فى الجيش واستئثار الشراكسة فيه بالخير ، فلم يكف عن الشعب على هؤلاء الشراكسة الباغين منذ أن كان جاويشا ليس له من الأمر شىء ولم ين عن مقاومتهم ومصاولتهم فى كل خطوة خطاها فى سلك الجيش حتى انتهت إليه زعامته ؟

أجل ، ماذا كان ينتظر من هذا الرجل ، وما كان حقده على هولاء فى يوم ما صادراً عن صغار أو أنانية ، وإنما كان مبعثه ما يحس فى أعماق نفسه من حماسة وطنية وغيرة قومية هما فى مقدمة ما كان يتصف به من صفات ؟

ومهما يكن من الأمر فما كان عمل عرابى فى أية صورة له ، مما يقابل بالقتل ! ولا كان تقديم المتآمرين إلى المجلس العسكرى مما يستأهل كل ذلك السباب الذى راحت تنبح به جوقات الاستعمار ؛ وهل نسى هؤلاء أن عرابيا وصاحبيه قد قبض عليهم فى صورة مخزية غادرة تبعث على الاشمئزاز والسخرية ، لمجرد أنهم تقدموا ليرفعوا شكواهم إلى أولى الأمر مما كانوا يحسونه من إجحاف بحقوقهم دون أن يفكروا فى قتل أحد أو العدوان على أحد ؟

وكيف لا يستحى دعاة الاستعمار من أن يلوموا هذا الرجل بالأمس ويتهموه بالفوضى لمجرد أنه شكا أمره إلى رؤسائه ، حتى إذا قبضت الحكومة عليه عد ذلك منها عين الصواب ، ثم يعودون اليوم فينددون به ويستصرخ بعضهم بعضا عليه لا لشىء إلا لأنه يقدم إلى المحاكمة فريقاً ممن يتآمرون على قتله ! ألا ما أشد ما تحسه النفس من ضيق وغيظ تلقاء هذه المقارنة بين الموقفين !

* * *

واتت الفرصة كلفن ومالت وأشياعهما من الثعالب وبنات آوى ، وهيهات أن تواتى الأنجليز فرصة فيضيعوها ؛ لذلك ما كان أسرعهم إلى استغلال الحادث فبدأوا أولا يذكرون التعصب الأعمى ، ثم انتقلوا إلى ذكر الفوضى الحكومية ، وعدوا ترقية الوطنيين مظهرا من مظاهر الرشوة التى أريد بها التأثير فى رجال الجيش كى يكونوا على استعداد عند أول صيحة ؛ ثم رأوا فى محاكمة الشراكسة مظهراً من مظاهر الظلم والاستبداد الغاشم قائلين فى منطق عجيب ليس مثله فى معنى الصفاقة والتبجح : إن المؤامرة وهمية لم توجد إلا فى رأس عرابى ، وإن الغرض منها لم يكن سوى التخلص من الشراكسة بأى وسيلة ، وإن المحكمة العسكرية التى فصلت

فى الأمر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما يشير به عرابى ، لذلك جاء حكمها فى منتهى القسوة بحيث لايقل عن الأعدام . ولم يكفهم ذلك حتى يدعوا فى جرأة وفى إمعان فى القحة أن عرابيا كان يذهب إلى السجن فيعذب هؤلاء الشراكسة أيام المحاكمة ويشفى غليل نفسه بمنظر ذلهم وخضوعهم ...

ولقد جعل الأفاكون الخراصون هذه المحاكمة من أكبر سوءات ذلك العهد ومن كبائر خطيئات عرابى ، وحذا المؤرخون من الانجليز حذو الساسة فى موقفهم من هذه المسألة ، وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك ، ومن هؤلاء كرومر ، وهو رجل كان بحكم صلته برجال ذلك العهد جميعاً يعلم حقيقة الأمر ، ومع ذلك طاوعه ضميره على أن يقول فى كتابه « لم يظهر دليل جدير بالتصديق ولا ظل دليل على أن تهمة المؤامرة كانت تهمة حقيقية ، وكان حكم المحكمة العسكرية وثيقة وحشية تحمل طابع الظاهرة السياسية أكثر مما تحمل طابع الحكم القضائى وكان عرابى كثير الظنون شأنه فى ذلك شأن كل جاهل من الرجال ، ولم تمش المؤامرة على قتله إلا فى خياله هو فحسب » .

هذا الذى شاء أدب كرومر أو على الأصح شاءت سخيمته أن يكتبه مع علمه باعتراف بعض المتآمرين بالتهمة . .

ولقد أخذ بعض المؤرخين من المصريين هذا الكلام المرسل على عواهنه وشايعوا الأنجليز وا أسفاه فى رأيهم هذا فى عرابى كما شايعوهم فى غير هذا من الآراء ، الأمر الذى يؤلم النفوس أكبر الألم ، فليس يعنينا ما يقول خصوم الوطن وخصوم عرابى ، ولكننا نضيق كل الضيق أن تجوز الأباطيل على المصريين فى رجل منهم ؛ ومن هنا ضاع تاريخ عرابى وأنكره بنو قومه ونجح الاحتلال فى مأربه فساق الجيل الذى خلف جيل عرابى كما يحب ، فأضاف هؤلاء إلى عيب خضوعهم للدخيل فضيحة مشايعته فيما يسبهم به فى شخص بطل من أبطالهم !...

ويجدر بنا أن نضع أمام عينى القارىء بعض ما كتبه الشيخ محمد عبده تعقيباً على

المؤامرة قال فى كتابه إلى بلنت « كانت الوزارة يخالجها منذ زمن طويل شبهات عما عسى أن ينجم من شر ، فمنذ أن عاد راتب أول مرة إلى مصر ، طلب البارودى رئيس الوزراء الحالى وكان يومئذ وزير الحربية ، من شريف باشا فى حضرة الخديو إخراج راتب ، فقد داخلته الريبة بسبب أن راتبا ترك الخديو السابق فجأة فى نابلى ولكن شريفا رفض ذلك على الرغم من أن البارودى حمله تبعة ما عسى أن يقع من الحوادث يوما ما ، وكان ذلك لأن راتبا كان صهر شريف ، وربما كان شريف لذلك يرى رأيه فى العمل على إعادة إسماعيل » .

ثم قال الشيخ عبده «وقد أحدث هذا الحادث شيئاً من الهياج بين عامة الناس . إن كل امرىء يعلم أن حياة عرابى معرضة للخطر كل يوم كحياة غيره ؛ كما أنه لا يتفق لرجل مهما يكن من عظمته ألا يكون بين الناس من يريده بالسوء ؛ ولكننا لا يسعنا إلا أن نضحك إذا أعلن أن انجلترة على وشك الفوضى لأن أحد المجانين من المدنيين أو من العسكريين حاول قتل ملكتكم ».

وليت هؤلاء المغرضين قد اقتصر أمرهم على الكذب والاتهام ، فلم يخطو تلك الخطوة النكراء التى أكدت القطيعة بين الخديو والوزراء وعجلت الكارثة للبلاد ؛ وما كانت ادعاءاتهم إلا مقدمة بدأوا بها ما كانوا يبيتون من المكر السيىء يقول فى ذلك بلنت « وفى تلك الأثناء بلغت الحوادث فى مصر مبلغاً عظيما من الحرج بسبب المؤامرة الشركسية التى وصلت أنباؤها لندن فى الأسبوع الثالث من أبريل ، ولم أعرها أول الأمر كثيرا من الاهتمام وأخذتها على أنها إحدى الشائعات التى كانت تذاع يومئذ ، ولكن سرعان ما أصبحت ذات خطر كبير لامن حيث هى فى ذاتها ولكن بوجه خاص لأنها أمدت رجالنا السياسيين بالفرصة التى طالما ترقبوها ، لكى يوقعوا الخلاف الصريح بين الخديو ووزرائه ؛ وكان ماليت يومئذ قد خضع تمام الخضوع لكلفن ، وصار منذ ذلك الحين يهتدى فى حركاته حتى النهاية بما يعرض كلفن من آرائه الانجليزية الهندية » .

* * *

عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط فى يده ؛ أيوافق على هـذا الحكم فيظهر أمام الأنجليز أنه يظاهر وزراءه فيخسر الذين يظاهرونه هو ، أم برفض التصديق عليه فيرضى الأنجليز ويقضى على كل أمل فى إرضاء عواطف الوطنيين ؟

وكان مالت قد أشار عليه برفض هذا الحكم الذى ينطوى على القسوة والظلم على حد قوله ، وللقارىء أن يقدر مبلغ ما فى هذا التدخل من تطفل وقحة إذ ما شأن مالت وهذا الحكم مهما كان ظالما كما يزعم ؟ وإنهم ليعلمون أن جلسات المحاكم العسكرية كانت سرية حتى فى عهد المراقبة ، وأن الخديو لا يملك رفض أحكامها وكل ماله من حق فى هـذا الصدد هو تخفيف تلك الأحكام بعض الشىء بعد التصديق عليها ...

حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الأمر جد خطير ، وأى شىء أخطر من أن يتحدى وزراءه فى غير حق وفى موقف كهذا تحيط فيه بهم الدسائس من كل جانب ويعترض طريقهم من الصعاب ما يتطلب تذليله جهودا متواصلة .

لذلك وقف الخديو أول الأمر موقفا مبهما ، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من ناحية وعن الوزارة من ناحية أخرى ، وكلما مر يوم ازدادت ريبة الوطنيين وتعاظم غيظهم وغضبهم ، ووجدت الدسائس الجو الصالح لنجاحها ، فنشطت نشاطا كبيرا ؛ ولازم مالت الخديو يوحى إليه ويوسوس له .

ولم تطل حيرة توفيق فأنه آثر جانب مالت ، وخطا بذلك خطوة أخرى من خطواته التى كانت تعجل سير الحوادث أبدا نحو الغاية التى رسمها الإنجليز والتى كان بلوغها من جانبهم معناه التهام مصر وازدراد تلك اللقمة التى طالما منت إنجلترة نفسها بازدرادها ...

ولعلنا نذكر من مواقف توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث فى طريق العنف والثورة دفعا ، فهـو الذى أدى إلى انضمام الحزبين العسكرى والوطنى وتضافرهما يوم تنكر للدستور وأخرج شريفا من الوزارة ، وهو الذى تقع على عاتقه

قبل غيره مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذى قبل المذكرة المشتركة فأحبط أعمال شريف المرة الثانية وصدم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه .

وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية إلى الاقتراب من الكارثة فهو إنما يعمل بوحى من الإنجليز وقد عين هؤلاء الهدف الذى يقصدون إليه بسياستهم ؛ وكان الخديو قد دان بمبدأ نحسب أنه جرى فى نفسه مجرى العقيدة وذلك أن يؤثر جانب الإنجليز فى كل شيء لأن فى ذلك كما توهم منجاته من الصعاب التى كانت تحيط بعرشه .

رأى الخديو كما أوحى إليه مالت أن حكم المجلس العسكرى على المتآمرين من الشراكسة حكم لا يسعه الموافقة عليه ، ورأت الوزارة من جانبها أنها سلكت فى المسألة منذ بدايتها مسلكاً لا غميزة فيه فهى بذلك تتمسك بالحكم الذى أصدره المجلس ، هذا إلى أن رفض الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينتقص من نفوذها ثم إنها إلى ذلك ترى التحيز واضحاً من جانب الخديو ، ذلك الذى كان يتشدد بالأمس أعظم التشدد يوم سيق عرابى وصاحباه إلى السجن لا لشيء سوى أنهم شكوا إلى أولى الأمر حالهم ... ومن هنا قامت أمام البلاد مشكلة من أدق المشاكل وأخطرها .

وكان الذى يغضب الأمة والوزارة فى الواقع أشد الغضب وآلمه تدخل الإنجليز فى تلك المسألة التى لا صلة لهم بها ولا شبه صلة ، وأحست الوزارة أن غرضهم هو إحراجها فحسب ، ومن هنا اتخذت المشكلة مظهراً دقيقاً غاية الدقة ، خطيراً كل الخطر ، فلقد وجد الوطنيون البلاد تلقاء موقف تمتحن فيه الكرامة الوطنية والعزة القومية ، ورأوا الظروف تعود من جديد فتظهر للخديو أن لا سبيل له إلا سبيل الوطنيين لأنه بانحرافه عن هذه السبيل إنما يطعن البلاد طعنة نجلاء فى صميم قوميتها .

ولقد فرح المستعمرون لا ريب أن تتعقد المشكلة على هذا النحو ، وزاد فرحهم أنها من صنع أيديهم ، لذلك كانوا لا يألون جهداً فى العمل على تفاقمها

بكل ما وسعهم من مكر وخبث ، وراحت صحفهم تزيد نار الخلاف اشتعالا لا تتورع ولا تتوانى ، ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصورون مصر فى أشنع حالات الفوضى والاضطراب فلقد سيطر رجال العسكرية وسيطر زعيمهم عرابى على كل شىء حتى ما يقف فى طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها الديون والظروف على مصر .

وكان الخديو فى الوقع تلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان يبيت لها ، ولكنه ألقى نفسه سليب الإرادة أمام إرادة الإنجليز ، بل إنه فى الحق قد فرح أن يلطم وزارة البارودى لطمة يتخلص بها منها ويتخلص من عرابى الذى بات يغار منه أشد الغيرة ويمقته أشد المقت حتى ما يطيق أن يسمع اسمه .

وليت توفيقاً تحرك من تلقاء نفسه ، إذاً لهان الخطب وخفت وطأة البلوى على النفوس ، فقد كان يمكن أن يقال يومئذ إنه ارتأى رأياً ، وإنه ينتوى الخير أو ينتوى الشر حسبما يرى ، ولكنه وا أسفاه كان يقوى على الوطنيين بضعفه ، فلم يكن يريد شيئاً وإنما كان يراد له كل ما يأخذ أو يدع من أمر ...

وبدا لمالت فأوعز إلى الخديو أن يتخلص من المأزق بعرض الأمر على السلطان وحجته أن عثمان رفقى يحمل لقب الفريق ، فلا يجوز لأحد غير السلطان أن ينزع منه هذا اللقب ؛ وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به مالت فزاد الأمور ارتباكا وتعقيداً .

ولقد أخطأ مالت خطأ كبيراً فيما أشار به ، فإنه جر بذلك تركيا إلى الدخول فى ذلك النضال ، الأمر الذى كانت تحذره الدولتان أعظم الحذر ، وإن كانت إحداهما تخفيه ، بينما الأخرى لا تتحرج من أن تعلنه فى كل مناسبة وتبديه .

أما الوطنيون فقد غضبوا لذلك أشد الغضب ، ورأوا فيه ضرباً جديداً من لؤم مالت ، فأجمعوا أن يمنعوا تدخل تركيا مهما كلفهم ذلك من وجوه الصعاب والمشاق . وبلغ الغضب برئيس الوزراء أن أعلن فى عزم مصمم « أنه إذا أرسل الباب العالى أمراً بنقض حكم المجلس العسكرى على الشراكسة السجناء ، فأنا لن

نطيع هذا الأمر ، وإذا أرسل الباب العالى من قبله مندوبين ، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر ، وسوف نردهم بالقوة إذا لزم الأمر »[1] .

وهذه لاريب ثورة غضب من البارودى ندمها من أخطائه ؛ فلقد أفضى بهذا التصريح إلى مالت ، وهذا أرسله إلى حكومته وإنه لشديد الاغتباط به إذ يسوقه دليلا على أن الأمور قد بلغت غاية الحرج ؛ ثم إنه يسوقه من جهة أخرى دليلا على صحة ما ذكره مراراً وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة . ولم ينج عرابى من حملات الكائدين له وحمل مسؤولية هذا التصريح كأنما كان هو قائله ، وأرجف المرجفون أن البارودى إنما يعمل بوحى من عرابى الذى يعد الحاكم الحقيقى للبلاد !

الحق أن البارودى قد أساء إلى القضية إساءة كبيرة بهذا التصريح . فهو فضلا عما ذكرنا ، إنما يتحدى السلطان فى ذلك الوقت العصيب فيضيف إلى أعدائه عدواً جديداً ، وإن الذى يحيط به الأعداء من كل جانب لجدير به أن يحتال ليستل السخائم من صدورهم ، أو ليكسب من الأعوان والأصدقاء من يكونون له فى الشدة قوة وسنداً .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصريح استحكام الأزمة بين الوزارة والخديو ، فلقد رأى توفيق أنه أصبح فى الواقع وليس له من الأمر شىء ؛ فإذا كان البارودى يقف هذا الموقف فى وجه السلطان نفسه فكيف إذا جاءت المعارضة من الخديو ؟ وهذا هو المعنى الذى لا يفتأ مالت وأعوانه يوحونه إلى الخديو فى تلك الأزمة العصيبة.

ولو كانت الوزارة أصرت يومئذ على موقفها من العناد والصرامة لحملت قسطاً كبيراً من التبعة عن تعقد الأمور وتحرجها ، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقاً ، كانت تنطوى على كثير من الكياسة وبعد النظر ، فأنها تقدمت إلى الخديو تقترح أن يخفف هو الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى تركيا أو غيرها . والوزارة ترضى أن ينفى المحكوم عليهم من مصر إلى أى جهة من الجهات دون أن

---

(١) Modern Egypt — Cromer.

تمس رتبهم أو ألقابهم وإنما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش المصرى …

وهذا المقترح لا ريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها فى أن تنتهى المسألة وتنجو البلاد من كيد الأعداء ، وهى فيما تقدمت به على هذا النحو متساهلة فى الواقع أكبر التساهل ، فما دام المجلس العسكرى قد حكم بإدانة هؤلاء فأن إبعادهم من البلاد يقتضى إبعادهم من سجلات الجيش ؛ ولكن الخديو وا أسفاه قد تنمر وتنكر ، فرفض أن يجيبها حتى إلى هذا المقترح …

وكان مالت من ورائه لا ينفك يوسوس له ويزين فعل السوء ؛ وكان جرانفل قد أنكر من مالت ما أشار به على الخديو من دعوة تركيا إلى التدخل ، فيكتب إليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا ، وفى هذا تلميح إلى ما كان فى سياسته من خطأ ، وكان ممثل فرنسا يسير بوحى من فرسيه ؛ ولكن عز على مالت أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه من غزل بيده ، فانظر إليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد مثيل لها فى سجل السياسة العام فيكتب إلى جرانفل قائلا : « اسمحوا لى أن ألاحظ أنه عند النظر فى الخطة التى يجب أن يسلكها الخديو بإزاء حكم المجلس العسكرى يجب أن نلقى نظرة عامة على الحال كلها ، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسعى لتضييق نطاق الحماية الإنجليزية الفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم فى النقصان ، وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى تخضد شوكة الحكم العسكرى الذى يرزح القطر تحته الآن وفى اعتقادى أنه لا بد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول إلى حل مرض للمسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها »[1] .

وأى كلام يمكن أن نعلق به على هذا الذى يقول مالت وبخاصة تلك الحكمة التى يشير إليها ؟ أهكذا تطغى المطامع على العقول والقلوب حتى تجعل من الحكمة استعجال الارتباكات ؟ ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبدا الأساس الذى يقوم عليه منطق الكلام بين القوى والضعيف فى هذا الوجود !

(١) المسألة المصرية تعريب الأستاذين العبادى وبدران

وأى دليل أبلغ من هذا على صحة ما ذكرناه، وما يذكره كل منصف عن السياسة الإنجليزية تجاه مصر منذ كان لها فى هذا الوادى أطماع ؟ إلا إننا لنقرر تلقاء هذا فى غير تردد أن هذه السياسة اللئيمة كانت خليقة بأن تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة ، بل إنها لسياسة كان يغتفر فى مقاومتها يومئذ كل عنف ؛ ونحب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها سياسة كان لا يغتفر معها الاعتدال ولا تمتدح الحكمة ، إن كان الاعتدال والحكمة معناهما إقرار الذلة ومقابلة الغدر واللؤم بالصفح والمغفرة !

ولكن بعض الناس لا يزالون يأخذون على عرابى وحزبه تشددهم وعدم مصانعتهم خصومهم ويعدون إباءهم الوطنى من السيئات التى لا تغتفر ولا تنسى ؛ وما نظن أن هؤلاء الناس يعلمون ما كانت تبيته السياسة الإنجليزية لوطنهم من غدر وإذلال ، فمن أصعب الأمور أن يتصور المرء قبولهم الذلة على أوطانهم حتى ينكروا على الوزارة ما فعلت ...

ورأى جرنفل أن يشايع فرسنيه فى هذه المسألة ، وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهى الأزمة ؛ ولكن كيف يدع مالت الفرصة تمر وهى من صنع يديه ؟ وكيف يطيق أن تخرج الوزارة من الأزمة ظافرة فيكون ظفرها فى الواقع هزيمة له ؟ لذلك لم يزل بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفى المتآمرين إلى خارج البلاد لا إلى السودان مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش ، ومعنى ذلك أن النفى مؤقت ...

وتلقت الوزارة اللطمة وتلقتها معها البلاد ؛ وآلم عرابياً وضباط الجيش من الوطنيين هذا الترفق بالمتآمرين ، وقد كان عرابى ومن شايعه على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالأمس أو ينفوا إلى أقصى السودان لأنهم شكوا من سوء ما صنع بهم رفقى ...

وأعلنت الوزارة على لسان رئيسها أن لا بد من قرار يلغى هذا القرار حتى تمحى الإهانة التى وجهت إلى الوزارة وإلى البلاد فى شخصها ؛ ولكن مالت

حذر الخديو أن يجيب وزراءه إلى ما طلبوا ؛ ويستطيع القارىء أن يدرك خطورة هذا الموقف ، فلقد تأكدت القطيعة بين الخديو ووزرائه ، وانعدمت الصلة وتفاقم البلاء …

وصل كل من الطرفين إلى الموقف الذى يُفَسَّر فيه كل عمل حسب ما يجرى فى أطواء النفوس ، فنى كل حركة ريبة ، وفى كل بادرة إهانة ، وكل نية لن تكون إلا نية سوء ؛ وكل جنوح إلى السلم لن يؤخذ إلا على أنه ضرب من الهزيمة والتسليم ، وكل كلمة نابية أو شديدة لن تفهم إلا على أنها نوع من التحدى يراد به إعنات القلوب وإحراج الصدور …

وفى هذا الموقف راح مالت يجنى ثمار غرسه وإنه ليطفر من الفرح كما يطفر الشيطان . كتب إلى جرانفل فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، أى بعد قرار الخديو بتسعة أيام يقول « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف إلى أقصى الخطورة » .

وتقدمت الوزارة لترد على الخديو فخطت خطوة جريئة بالغة الجرأة ، فدعت مجلس النواب من عطلته دون الرجوع إلى الخديو لتعرض عليه الأمر ، فازدادت الأمور حرجاً على حرج ، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بمثابة خروج على الحاكم الشرعى لا يقل فى مغزاه عن خلعه من عرشه ، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذى دفع الوزارة حتى أوقعها فى مأزق ضيق بحيث لم يبق أمامها إلا أن تقر الخديو على خروجه على الدستور ومشايعة أعداء البلاد أو تستقيل ، وفى كلا الأمرين تفريط منها فى حقوق البلاد فضلا عن كرامة رجالها

وانطلقت الشائعات من هنا ومن هناك ، فالبارودى يريد أن يثب إلى العرش والجيش على أهبة لأن يتحرك إلى عابدين ليرغم توفيقاً على قبول مطالب الوطنيين كما أرغمه على مثل ذلك فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر من العام الماضى ، والخديو يعد العدة للمقاومة ، إلى غير ذلك من الأراجيف التى كان من طبيعة ذلك الموقف أن يخلقها .

ولو كانت الروح العسكرية هى المسيطرة على الحكم يومئذ كما أرجف المرجفون لما وقف دون الجيش حائل إلى القصر وليكن بعد ذلك النصر أو الطوفان ، ولكن الوزارة رأت أن تحتكم إلى نواب البلاد ، ولما كانت واثقة أن الخديو لن يدعو المجلس دعته هى ليفصل فى الأمر ولا عبرة بالشكل فى سبيل تحقيق الجوهر.

وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره فى دعوة المجلس دون الرجوع إلى الخديو ، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه وبينهم ، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته فى هذا ، ثم قال « إن شكوانا من سموه هى أنه سلك مسلكا يقضى على استقلال مصر ، وكثيراً ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه »(١) .

والحق أن توفيقاً كان يود التخلص من هذه الوزارة بأى ثمن وكان فيها البارودى الطامع فى عرشه ، وعرابى زعيم مصر وقائد حركتها القومية ، الذى يسير بطبيعة حركته فى طريق تعد عند الخديو طريق الضلال والعصيان وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبراً ؛ وأى شىء هو آلم لنفسه من أن يرى فلاحاً من أبناء هؤلاء الذين ماخلقوا فى رأيه إلا للفأس والطاعة يتربع على كرسى الوزارة ويتكلم إذ يتكلم باسم الأمة ، ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الأمة ؟

ولقد عاب كثير من الناس على البارودى وعرابى مسلكهما تجاه الخديو فى الأزمة ، وحجتهم أن الواجب كان يقضى على البارودى أن يترك الحكم ما دام الخلاف قد استحكم بينه وبين الخديو ؛ ولقد يبدو هذا الكلام وجيهاً لمن ينظرون فى النتائج دون تمحيص المقدمات ، أما الذين لا يصدرون حكما إلا عن تفحص وفهم فهم لا يذهبون مذهب هؤلاء ، ولا يقيسون قياسهم .

وليست المسألة دقيقة على الأفهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأى ، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحى من الأنجليز وعلى ذلك فإجابته لن تكون إلا تسليما لأعداء البلاد الأمر الذى لن يقبله وطنى

(١) M, Egypt, .

ولو أن الأمر كان خلافاً بين الخديو ووزرائه ، وكان الخديو يريد وجه الوطن فالسبيل واضحة أمامه ، وذلك أن يحتكم إلى الأمة ممثلة فى مجلسها النيابى ، ويجعل للمجلس عن طيب خاطر القول الفصل فى الخلاف ...

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم وإنها لفى موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدساسين ومطامع الطامعين ، وإن الخلاف بينها وبين الخديو فى جوهره لخلاف على السلطة لمن تكون ؟... كلا ، بل إنا لنرى استقالتها فى مثل تلك الظروف ضرباً من الفرار ومثلا من أبلغ أمثلة الضعف ، وبخاصة إذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على النحو الذى نذكره والذى لن نجد دليلا على صحته أبلغ مما ذكره كرومر فى كتابه حيث يقول عن الخديو « إنه بين للسير إدوارد مالت فى يوم ٦ مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود إليها السلطة المنظمة على أن تبقى فى مثل تلك الفوضى » ؛ ومعنى ذلك أنه كان يريد أن تطلق يده فى مصر فيحكمها كما يشاء ولا عبرة فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض بما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خطت بها خطوات واسعة نحو الاستقلال ...

لم يكن أمام الوزارة إلا أن تحتكم إلى نواب الأمة ، وقد لجأت إلى ذلك بدعوة المجلس إلى الاجتماع ما دام الخديو لم يدعه ...

ووقفت وزارة البارودى لا تتحول ولا تلين ، فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها ، ثورة قومية كأروع وأجمل ما تكون الثورات القومية ، وهو موقف نراه جديراً بالأعجاب والتقدير ، وما نحسبه لو كان فى بلد غير بلدنا إلا كان يعد من المواقف المشهودة التى تذكر فى مواطن الفخر والمباهاة ...

وكانت الوزارة قوية بادىء الأمر لأنها كانت معتزة بالنواب وإجماعهم على الأخذ بناصرها ولكنها نظرت فاذا بينهم تغامز وفى صفوفهم إسرار وإعلان ! وإذا كبيرهم سلطان يدعوهم إلى الحكمة والروية ... وكم تحمل على الحكمة والروية أعمال ليست منهما بسبب من الأسباب !

قال سلطان باشا يومئذ للسير إدوارد مالت « لقد أسقط المجلس شريفاً تحت ضغط عرابى ، وإن نفس الأعضاء الذين ألحوا فى ذلك أكثر من غيرهم يتوقون اليوم إلى إسقاط الوزارة وقد استبان لهم أنهم خدعوا »[١] ولو اطلع عرابى على الغيب يومذاك لرأى أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا الذى بدأ يتنكر للحركة القومية ، تلك الضربات التى سوف يسددها إلى قلب مصر فى ضجيج الجهاد وسكرات الاستشهاد

انحاز سلطان إلى توفيق منذ ذلك الوقت فطلب من النواب الحكمة والروية وما نلقى هذا القول على عواهنه فهذا كلامه لمالت الإنجليزى عدو مصر الألد ينبىء عن ذلك إذ أنه يكشف الوزارة أمام الكائدين لها من الإنجليز ويجعلهم يستهينون بما تستند إليه من سلطة الأمة

وكتب مالت إلى حكومته فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو يصف الحال فى مصر ، أو على الأصح يصف مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الأجرامية ، قال « يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون إلى جانب الخديو ولقد سألوا سموه أن يأخذ بالعفو فيصالح وزراءه ، ولكن الخديو رفض ذلك ... ويصر سموه على رأيه فلن يصالح وزارة تحدته صراحة وتهددته هو وأسرته ، واعتدت على القانون بدعوة المجلس إلى الانعقاد دون الرجوع إليه ، وفى القاهرة قدر غير قليل من القلق ، وكثير من الناس يغادرونها »[٢]

إزاء موقف السلطان وفريق من النواب انخلع عن رئيس الوزراء عزمه ، وتزايل إصراره شيئاً فشيئاً ، حتى رأت البلاد البارودى يرفع إلى الخديو استقالته فيرتكب بذلك إثماً نعيبه عليه أشد العيب فقد كان عليه أن يستطلع رأى النواب صراحة فى جلسة يعقدونها ، فإذا ناصروه كان عليه أن يبقى فى مكانه حتى يقال فيحظى بشرف الإقالة أو ينتصر فيكون له فخر الانتصار ...

---

(١) M, Egypt .

(٢) « «

لقد رفض النواب أن يجتمعوا فى مجلسهم ، أى أنهم رفضوا أن يشايعوا الوزارة فى تحديها الخديو ، واجتمعوا فى منزل رئيسهم ؛ ولكن هذا أمر شكلى لا يمس جوهر الموضوع ، فالأمر الذى كان يهم الوزارة هو معرفة رأى ممثلى البلاد ، وسواء لديها اجتماعهم فى مجلسهم أو فى أى مكان ، فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين إلا أن هذا رسمى وذاك غير رسمى ؛ ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو فى مضماره الذى اختاره على الرغم من إرادة البلاد ؛ وهل كان نواب الشعب الفرنسى الذين التقوا فى ملعب التنس فى مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لأنهم لم يجتمعوا فى قاعة مجلسهم ؟

الحق أن البارودى قد هدم ما فعل جميعاً باستقالته هذه ، ولو أنه نال شرف الأقالة ، لكان منطقه متسقاً ولأضاف بذلك إلى نفسه وإلى وزارته معنى من معانى الأباء وحمل الخديو والموحين إليه وزراً جديداً يضاف إلى سابق أوزارهم .

وعجز الخديو عن أن يقيم فى مصر وزارة ، فقد أشفق من الحكم الرجال يومئذ وأشفق مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رياستها عملا باقتراح ممثلى إنجترة وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق إسقاط الوزارة إلى من يرضيان عنهم فى مصر .

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم أنهم لا يستقيلون إلا إذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب

***

هنا يعود عرابى فيثب إلى مكان الصدارة من حوادث قومه بعد أن تنحى البارودى ، ولقد كان عرابى فى الواقع فى رأى الناس وفى رأى الأوروبيين فى مكان الصدارة دائماً وإن كانت رياسة الحكومة للبارودى ...

عاد عرابى فوثب إلى الطليعة ، وقد ضاق البارودى بالأمر ذرعاً ؛ فهو الذى أوحى إلى الوزراء بما فعلوا وقد عز عليه أن يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الأمة ، وتلك خطوة أخرى نضيفها فى غبطة ونخر إلى سالف خطواته ...

ووقف عرابى فى مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسه إذا وقف فى أمر يرى أنه الحق ؛ ولقد صور المبطلون وقفته هذه أنها عودة إلى الثورة المسلحة وأنه يوشك أن يفاجىء البلاد بيوم آخر كيوم عابدين ، فما حفل كلامهم ولا خشى تهديدهم ؛ وكتبت الحكومات إلى ممثليها فى مصر أن « يرسلوا إلى عرابى فيبلغوه أنه إذا صاب النظام خلل فسوف يجد أوروبا وتركيا كما يجد إنجلترة وفرنسا ضده ، وأنهم يحملونه تبعة ذلك »(١)

وتلقى عرابى هذا الكلام رابط الجأش ، وإن كان ليفطن إلى خطورة الموقف وأصر ذلك الفلاح الذى لو لا ما كان من حميته وأنفته منذ حداثته لكان يجيل الفأس يومئذ فى حقل من حقول هرية رزنة ولا يدرى من أمر السياسة والحكم شيئاً

وظل الرجل على عناده يكشف عن كرم عنصره فيفهم من يريد أن يفهم أن بين أولئك الفلاحين من أمثاله الذين يجيلون فؤوسهم فى صبر وصمت فى حقول هذا الوادى رجالا لا ينقصهم إلا العلم والحرية ليبهروا العالم ببسالتهم ونبوغهم ...

وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودى وعرابى معاً « أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة ما دامت القوة الحربية مجتمعة فى يد عرابى باشا »(٢)

ولم يكن يدرى سلطان أن وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها ما قام غيرها. لم يكن يدرى سلطان أن هذه القوة الحربية التى يشير إليها كانت قائمة فى مصر من قبل فلم يظهر أثرها وخطرها إلا فى يد عرابى دون غيره من الرجال ، ولو أن رجال وطنه جميعاً التفوا حوله ما نالت إنجلترة منهم شيئاً ولسوف يكون سلطان هذا وأمثاله ممن نكبت بهم مصر ، من أكبر عوامل الهزيمة يوم التل الكبير

حلت الأزمة بأن أشار ممثلا إنجلترة وفرنسا على الخديو « بأن يطرح المسائل الشخصية جانباً ، وبما أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فأنهم يطلبون إليه أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

(١ و ٢) M. Egypt .

وبقيت الوزارة فى كراسيها ، وانتصرت كلمة الأمة من جديد على يد ذلك الذى خرج من هرية رزنة ولم يلق إلا قسطاً من العلم فى الأزهر ، والذى درج على الرغم من ذلك فى مدارج الرقى ، فكان نموه كما تنمو الشجرة الطيبة لا كما ينمو المليق الذى لا يرتفع إلا على غيره ...

ولولا ذوو الأطماع من المتربصين بمصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت بذلك كلمة الأمة حتى ما تذل بعدها أبداً ...

ولكن مصر وا أسفاه سوف تجنى من انتصارها هذا العلقم والحنظل

بغى وعـدوان

وكيف كانت ترجى لمصر السلامة ، والإنجـليز وراء الخديو يتربصون ويكيدون ؟ لقد آن لمـالت الآن أن يدعو حكومته إلى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الفرصة ، ولن يهم إنجلترة أن تـكون هى المدبرة لـكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء إلا صرخة ضائعة ، ولن يكون منطقهم إلا ثرثرة ، وشـكواهم إلا تبجحاً .

لم تـكن فى البـلاد ثورة ولا خاف فيها أجنبى على حياته أو متاعه ، ولـكن أعوان السوء صوروها يومئذ صورة منـكرة انزعجت منها أوروبا أشـد الانزعاج ، مع أن هؤلاء كانوا يعلمون حقيقة الأمر ويوقنون أن المسألة لا تعدو أن تـكون خلافاً بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الأثيم الذى بينا .

لم تكن البلاد فى مثل تلك الحال من الفوضى التى ذكرها المبطلون ؛ وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء فى كتابين أرسلهما عرابى باشا إلى مستر بلنت ، وكان ذلك فى أوائل شهر إبريل أى قبل الأزمة التى نحن بصددها بنحو شهر ؛ قال عرابى « وفيما يتصل بنا فنحن نشـكرك على ما أسديت من صنيع يهم مصر وانجلترة معاً وإنا نأمل أن تـكون إنجلترة أقوى صديق يعيننا على وضع نظام طيب مؤسس على الحرية وعلى أن نحذو حذو الأمم الحرة المتمدنة .

وأما عن نصيحتك التى تعطفت فأسديتها إلينا ، فإنا نشكرك عليها ، ونرجو منك أن تقول عنا إننا لا نألوا جهداً فى المحافظة على الهـدوء والنظام ، لأننا نعد ذلك واجباً من أهم واجباتنا ؛ وإنا لنحاول أن نحظى بالنجاح . ونستطيع أن نؤكد لك أن الهدوء الآن يشمل كل شيء ، والسلام يسود البلاد كلها ، ونحن

نبذل غاية ما فى وسعنا ومعنا إخواننا الوطنيون للدفاع عن حقوق من يقيمون فى بلادنا ، بصرف النظر عمـا ينتمون إليه من الأمم ، .وإنا نحترم كافة المعاهدات والاتفاقات الدولية كل الاحترام ، ولن نسمح لأحد بالمساس بها ما دامت الدول الأوربية تحافظ على علاقاتها الودية بنا ...

أما عما يتهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال فى أوروبا ، فإنا سنحتمل ذلك فى ثبات وحكمة ، فى رأينا أن ذلك الوعيد لن يضر إلا أنفسهم وإنه ليؤذى تلك الدول التى يضللونها .

وإن غرضنا الأوحد هو أن تخلص بلادنا من العبودية والظلم والجهل ، وأن نرفع بنى مصر إلى مستوى يستطيعون معه أن يحولوا دون أى رجعة للاستبداد ، الذى كان يضع مصر فيما سلف من الأزمنة فى زوايا الإهمال ...

وإن هـذا الذى أكتبه إليك هو ما يفـكر فيه كل مصرى حر العقل محب لبلاده ... »

هذا ما يقوله عرابى الذى يصوره مالت نزقاً جاهلا مستبداً ، والذى ظل فريق من بنى قومه حتى يومنا هـذا لا يجدون له فى خواطرهم من صورة إلا ما صور الاحتـلال ، فإذا ذكرت للرجل منهم عرابياً راح يتلو عليك ما لقنه فى المدرسة وا أسفاه من أوصاف هى أبعد ما تـكون عن حقيقة هـذا الرجل المظلوم ، ومن أغراض شتان بينها وبين ما كان يبتغيه لقومه هذا الزعيم المفترى عليه

أجل ! لا زلنا مع بالغ الأسف نسمع حتى اليوم من بعض المصريين ومنهم من له فى الناس مكانته ، قدحاً فى عرابى ، فإذا جادلناه لا نجد لديه من علم إلا أن عرابياً كان طائشاً جاهلا ، لا يدرى شيئاً من شئون بلاده ، إلى أمثال تلك العبارات المحفوظة التى لا تغتفر لصبى فى المدرسة ، وإذا كان عذر هؤلاء عن قدحهم أنهم يجهلون تاريخ هذا الرجل ، فإنا لن نجد لهم عذرا عن هذا الجهل فذلك هو العذر الذى يوصف بأنه أقبح من الذنب ...

لينظر هؤلاء فيما بينا من آمال هذا المصلح وفيما قدمنا من أدلة بسالته وحميته ،

وليتدبروا فى هذا الذى يكتب لصديقه بلنت ، وليسألوا أنفسهم بعد ذلك ألا يزالون يرون فى هذا الرجل جندياً طائشاً مغروراً لا يدرى من أمور بلاده شيئاً ؟

إن هـذا الذى يقوله عرابى لبلنت هو ما كان يرجوه المصريون من إنجلترة قبل الاحتلال ، وهو الذى ظلوا يرجونه منها بعد الاحتلال حتى يوم الناس هذا ، وكم تـكرر فى مصر من أشباه ونظائر لهذا الموقف ؟ وكم جاء مثل هذا الـكلام على ألسن غير لسان عرابى ، ولـكنا نحجز القلم عن الاتجاه إلى غير ما نحن فيه وقصارانا أن نقول إن السياسة الإنجليزية فى مصر هى هى وإن تغير الزمن ، واختلفت على موضع الزعامة الرجال ...

وقد أكد عرابى نياته فى كتابه الثانى ومما جاء فيه قوله « إننا نميل أشد الميل إلى التفاهم على روابط الصداقة والمصالح المشتركة بيننا وبين الدول التى تربطنا بهم علاقات ، فإنه بالصداقة وحدها يستطيع من لهم حقوق فى بلادنا أن يجنوا ثمار المعاهدات والعقود التى نجد من واجبنا العمل على احـترامها وحمايتها ؛ فإذا وقع خلاف فإنه لا يؤثر فينا فحسب ، ولا نـكون نحن أكثر تأثيراً بها من غـيرنا وإنمـا تتأثر به الدول الأخرى جميعاً وبخاصـة إنجلترة ؛ ولا يخفى على السياسى الواسع العقل ما يكون مر فوائد لأنجـلترة من وراء مصادقتنا ومعاونتنا فى كفاحنا ؟ ...

وفيما يتعلق بالمراقبة فـكن على يقين أنه ليس هناك ما يحول بينها وبين أداء واجبها حسب الحقوق التى قررتها الاتفاقات الدولية . ولم يكن فى نيتنا قط ولا فى نية أحد فى هذه البلاد أن يمس حقوق المراقبين أو يعتدى على أية معاهدة دولية ...

ولئن كان ممثلو الدول فى بلادنا مخلصين حقاً لواجباتهم ولمصالح دولهم فلن يجدوا خيراً من معاونتنا فى جهودنا القومية الحقة ، وليثبتوا بأعمالهم ما يعدوننا به فى أقوالهم .

لقد صممنا أن نبذل كل ما فى وسعنا لـكى يكون لبلادنا موضع بين الأمم

المتمدنة ، وذلك بنشر المعرفة فى البلاد ، والمحافظة على الوحدة والنظام ، والقضاء بالعدل بين الجميع ، ولن يردنا شيء عن عزمنا قيد أنملة ، ولن يخيفنا وعيد ولا تهديد أو يلوينا عن قصدنا ؛ ولن نخضع إلا لشعور الصداقة التى نتقبلها ونقرها بكل ما فى وسعنا ؟ .

أما عن هدوء البلاد ، فليس هناك أى قلق ، ونحن نحاول الآن أن نقضى على ما خلفته لنا الحكومات السالفة من مساوىء .

فلندع الله أن يهدى المفكرين من رجال السياسة فى أوروبا إلى الصواب ، وعسى أن يعنوا بمعرفة أحوال بلادنا وبذلك يؤدون صنيعاً إلى بلادهم كما يؤدون إلى بلادنا بتقوية روابط المودة ؛ نسأل الله أن يهيء لنا جميعاً التمتع بنعمة السلام والمودة » ...

ويذكر بلنت تعقيباً على كتاب عرابى أن الشيخ محمد عبده كتب إليه كذلك يؤكد له فى ذلك الوقت قيام النظام والسلام فى مصر ...

* * *

لم تكن البلاد إذاً فى حالة تدعو إلى القلق إلا إذا كان الخلاف بين الخديو ووزرائه مشكلة تستدعى حتما تدخل الدول الأوروبية لحلها ، فما يتسنى علاجها إلا على هذه الصورة .

لم يكن هذا الخلاف إلا الذريعة التى باتت إنجلترة تتحينها لتخطو الخطوة التى كانت سياستها طوال القرن التاسع عشر متجهة فى مصر إليها ، وكانت إنجلترة قد صممت أن تقطع العقدة إذ لم يتيسر لهما حلها ، فبقطع تلك العقدة تصيب فى الواقع غرضين : السيطرة على مصر وهذا قصارى آمالها فى الشرق ، والتخلص من مشاركة فرنسا إياها فيما هى فيه من شؤون مصر وهذا ما كانت مصلحتها توجب الإسراع فى تنفيذه .

والإنجليز قوم نبغوا فى أن يأخذوا كل شيء وألا يعطوا شيئاً ، وأن يستبطنوا دخيلة كل عدو أو حليف دون أن يكشفوا له عن شيء مما تنطوى عليه نفوسهم ،

ولهم فى ذلك أساليب يعد نجاحهم فيها من أكبر أسباب تفوقهم ...

لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا إحدى لعباتهم السياسية وقد سهلت عليهم سياسة فرسنيه الأمر ، فقد رأى هـذا أن تبتعد إنجلترة وفرنسا عن التدخل المسلح فى شؤون مصر ، وفاته أنه إن استطاع أن يوجه سياسة بلاده نحو هذا الهدف فما له حيلة فى إنجلترة إن استعصت عليه أو غدرت به ..

وتقدم فرسنيه يعرض على إنجلترة مقترحات لحل المشكلة ، فطالب على لسان سفيره فى إنجلترة أن ترسل الدولتان سفنا من أسطوليهما إلى مياه الإسكندرية وأن تطلب الحكومتان إلى تركيا ألا تتدخل فى شؤون مصر فى ذلك الوقت ؛ ولكن فرنسا لا تعارض إذا حضرت بعثة عثمانية إلى مصر بدعوة من الدولتين على أن يكون عملها محدوداً وأن تكون تحت مراقبتهما .

ورأى فرسنيه أن تخاطر روسيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا بما تتخذه إنجترة وفرنسا حيال المسألة المصرية ، على أن تكون تعليمات تلك الدول إلى سفرائها فى الآستانة عين تعليمات الدولتين ...

أما عن الخديو فقد عدلت فرنسا عن رأيها فى خلعه ، ذلك الرأى الذى كانت ترى قبل ذلك أنه لو اتبع كان يقضى على كثير من الصعاب ...

وكان فرسنيه يريد من المظاهرة البحرية أن يلقى الرعب فى قلوب الوزراء ليقلعوا عن مقاومة الخديو فينتهى ما كان بينه وبينهم ، ولقد وافق جرانفل على مقترحات فرسنيه فى جملتها ورأى أن يبلغ الباب العالى واحتاط للمستقبل بقوله إنه قد تعرض عليه فى المستقبل مقترحات أخرى .

ولكن فرسنيه لم ير هذا الرأى ، لأنه لم يكن يرغب فى التقرب إلى تركيا ، ولذلك رفضه بادىء الأمر على أنه عاد فقبله بعد إلحاف جرانفل وكتب إلى سفيره بالآستانة أن يبلغ السلطان أنه « ليس من المستبعد أن تقدم اقتراحات أخرى إلى تركيا فيما بعد »

وأراد جرانفل أن يبعد عن نفسه وعن حكومته تهمة الرغبة فى التدخل فى

شؤون مصر ، فاقترح أن تدعى الدول الأوروبية إلى إرسال سفن إلى الإسكندرية تقف إلى جانب السفن الإنجليزية والفرنسية ؛ وما كان جرانفل جاداً فيما يقول فإنه كان على يقين أن اقتراحه هذا سيقابل من فرنسا بالرفض ، ولو كانت لديه شبهة أن ستقبله فرنسا ما تقدم به ، بل لو أن هذا الاقتراح كان من جانب فرنسا لعارضت فيه إنجلترة أشد المعارضة ... ولو أن إنجلترة كانت جادّة فى مقترحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله ولكنها اكتفت بأن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف ألا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول إلى الاشتراك فى تلك المظاهرة ، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت فى الموافقة على السياسة البريطانية إلى مثل ما ذهبت إليه فان إنجلترة لا يسعها إلا أن توافق فرنسا على ما ترى ...

وآمن فرسنيه بنزاهة السياسة الأنجليزية ، ولو كان غير فرسنيه فى موضعه لآمن بها كما آمن هذا ، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن إنجلترة كانت تترقب الفرصة لتنقض على الفريسة وحدها دون فرنسا ولاظهر من عملها مايبعث على الريبة.

ولكن الإنجليز خير من انتصح بنصائح مكيافلى فى هـذا العالم وخير من حذقها ، ولو قد تأخر الزمن بهذا الرجل لأخذ عنهم مبادئه ولوجد فى أساليبهم وخططهم أبلغ أمثلة كتابه .

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولى الدهاء والخبرة من الرجال ؛ وما كان ليفطن إلى هذا إلا من يسىء الظن بإنجلترة فيكون مبعث فطنته سوء الظن لا حسن الفهم ؛ ونحن إنما نفطن إلى مرامى هذه السياسة بعد أن تكشفت عنها حجب الدهاء وتعاقبت عليها السنون ، ولقد فطن إليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه الأريب ، يوم وقعت الواقعة وانفردت إنجلترة بضرب الإسكندرية غير حاسبة لأى شىء من حولها حساباً .

وكانت إنجلترة تبغى من سياستها هذه أن تصرف نظر الدول عن مصر ، فان دعوة تلك الدول إلى مشاركتها فى المظاهرة البحرية يظهرها بمظهر من لا غرض له

إلا الصالح العام فى حين أن عملها هى وفرنسا يغضب الدول ويجعلها تميل إلى التدخل لتنال حظاً من الغنيمة فى مصر أو فى غير مصر يوم يكون الحساب وتوزع الأسلاب .

وفضلا عن ذلك فقد كانت إنجلترة تحذر أشد الحذر أن تغضب السلطان فينحاز إلى عرابى وحزبه ضد توفيق ، فيظهر عرابى بمظهر المحافظ على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعى فى مصر ، ضد الخديو ومشايعيه من الطامعين ، وعلى ذلك فكل تهمة بالعصيان توجه إلى عرابى أمام الشعب المصرى إنما تذهب أدراج الرياح

ولقد فطن مالت إلى خطورة هذا الأمر وكتب إلى حكومته يحذرها أن إغفال تركيا من شأنه أن يضم النواب إلى العسكريين فيقفوا جميعاً صفاً واحداً ضد أوروبا أو على الأقل إنه يقوى جانب عرابى وأشياعه .

وكانت إنجلترة فى الواقع تتبع سياسة حاذقة أكبر الحذق ، فهى تشايع فرنسا فى منعها تدخل تركيا ، ولكنها فى الوقت نفسه تحرص على ألا تغضب تركيا فقد تضطر إليها يوماً ما ، وفى إغضابها ما قد يثيرها فتتدخل . وتعمل إنجلترة فى مصر على يد مالت عملا متصلا لتخويف الخديو ولإذاعة المفتريات عن سوء الحال فى مصر ، وذلك لتمهد السبيل إلى غاية يفضى إليها منطق الحوادث كما تزعمه وتلك الغاية هى التدخل المسلح على أى صورة ما محافظة على أموال الأجانب وأرواحهم فى مصر ؛ وما عليها إلا أن تتحين الفرصة لتنفرد بالعمل ، وهى لن تحجم أن تضع فرنسا أمام الأمر الواقع كما فعلت بأزاء محمد على حين صمم بالمرستون على القضاء عليه ... ولكنها الآن تتظاهر بالنزاهة وتحرص على الظهور بمظهر دولى فى سياستها نحو مصر ، فتقترح اشتراك الدول فى المظاهرة البحرية تارة وتقترح دعوة السلطان إلى حل الأزمة تارة أخرى ... كل ذلك فى مهارة ودقة ولكنها مع الأسف مهارة من تجرد من الشرف فسهلت عليه غايته ، لا لشىء إلا لأنه يسلك إليها كل سبيل ولا عبرة عنده أية سبيل يسلك ...

ولما وجدت إنجلترة أن فرنسا تصر على استبعاد تركيا والدول جميعاً ، كتبت إلى الدول قراراً ينفي أية نية من جانبها في احتلال مصر ، وأكدت أنها لم ترد بالمظاهرة البحرية إلا إقرار السلام داخل مصر ، وأنها سوف تترك مصر وشأنها إذا قضي على ما فيها من القلاقل ؛ وإذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق إنجلترة والدول على ما تراه هي وفرنسا خير سياسة تتبع .

وتحدث اللورد دوفرين سفير إنجلترة بالآستانة إلى وزير الخارجية العثماني في لهجة شديدة قائلا « إنه إذا لم تعمل تركيا بما من شأنه أن يسهل على إنجلترة خطتها فسوف تزيد إنجلترة عدد القطع في الأسكندرية وتطيل أمد بقائها جميعاً هناك » .

ولكن السلطان آلمه وأغضبه أن توجد السفن الإنجليزية والفرنسية أمام الإسكندرية . فلم يكف عن احتجاجه وإعلان سخطه ، مما زاد الموقف حرجاً وتعقداً

***

وبينما كانت فرنسا وإنجلترة تتبادلان الرأي على النحو الذي نذكر ، كان الحنق في مصر على الخديو يزداد يوماً عن يوم ؛ وما زال الناس في قلق وخوف من موقفه ومشايعته الإنجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن إلى الإسكندرية

ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يخلعوا الخديو في ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا لتعين على مصر غيره ؛ والواقع أنها مسألة دقيقة ، فمن الناحية الوطنية كان يرى الوطنيون ضرورة خلعه ، وحجتهم أن السكوت معناه التفريط في جانب الوطن ، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يرون أن عملهم هذا ينقلب وبالا عليهم في ظروف كتلك الظروف التي أذاعت فيها أوروبا عنهم المزعجات من الشائعات .

وفي هذه الآونة وقع في صفوف النواب ما نخجل أشد الخجل من ذكره ، فقد انحاز كبيرهم سلطان إلى الإنجليز بعد أن تودد إلى الخديو كما أسلفنا ، وشايعه عدد من النواب ؛ ولم يكن للوطنيين من عاصم في هذه المحنة إلا الاتحاد

والثبات ؛ وكأنما تأبى الأيام إلا أن تجعل من أبناء مصر بعضهم لبعض عدواً ، وكأن ذلك لكثرة ما يتكرر منهم ، من طباعهم التى فطروا عليها ؛ ولطالما نكب هذا الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض ، مع أنهم يرون أبداً أن الظالمين الطامعين فيهم من أهل الغرب فى الكيد لهم بعضهم أولياء بعض ...

وكان انحياز سلطان والمستضعفين من النواب إلى إنجلترة أولى ثمرات المظاهرة البحرية ، فإن سلطاناً حينما علم بها من الخديو فكر وتدبر فرأى أن المستقبل للخديو وللانجليز ؛ فلما حضرت السفن اطمأن إلى الإنجليز وآثر أن يبادر بالانحياز إليهم لتكون له الحظوة والمكانة عند أولى الجاه والبأس يوم يتخلصون من عرابى على أية صورة .

وأمثال سلطان هذا إنما يعملون لأشخاصهم فحسب ، وعلى ذلك فهم عبيد القوة وإن تعاظموا ، وهم أضعف الناس وإن تطاولوا ، وهم أحرص الناس على عرض الدنيا وإن تظاهروا بالنبل والعفة ، وهم إنما يدلون بجاه من يركنون إليهم من الأقوياء إدلال الخادم بسيف سيده ؛ وسنرى يوم يكافأ سلطان بالذهب لايحصى له عداً وينفى عرابى من الأرض وتصادر أملاكه التى رزقه الله ، ولا يبقى له الإنجليز فى مصر صاحبا ولا ولداً ...

ونشط مالت وأعوانه من جديد يذيعون أسوأ الأنباء عن مصر وبخاصة عن عرابى وحزبه ، حتى لقد وقف جرانفل فى مجلس اللوردات فى اليوم الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ يتوعد مصر ويتهددها ، ويصرح فى غير حياء منه مما يكذب به على العالم أن النواب والأمة جميعاً فى جانب الخديو !

وكانت أكبر دعوى يدعيها مالت أن فى ازدياد نفوذ الحزب العسكرى أكبر خطر على حياة الأوروبيين وأن نفوذ هذا الحزب قد بلغ أقصى ما يصل إليه من زيادة ؛ والواقع أن مالت لم يكن يهمه ما قد يتعرض له الأوروبيون من خطر حسب مزاعمه ، وإنما كان يهمه الوصول إلى غرضه بأى ثمن ولو ذهبت فى سبيل ذلك بعض الأرواح ؛ تجد الدليل على ذلك فى رده على جرانفل حين سأله قبل إرسال

الأسطول هل يكون فى ذلك العمل خطر على الإنجليز والفرنسيين فى مصر فقد أجابه قائلا[١] « يشرفنى أن أبلغ فخامتكم أنى أنا ورميلى الفرنسى نرى أن ما فى وصول الأسطول المشترك إلى الأسكندرية من الفائدة السياسية كبير جداً ، يفوق فى أهميته الخطر الذى يمكن أن يصيب بسببه من فى القاهرة من الأوروبيين » .

ويعلق روثستين على هذا الرد الذى أخفته الحكومة الإنجليزية بقوله « إن الذى نريد أن نقوله هو أن هذه الرسالة أكبر دليل على سياسة السير إدوارد مالت وبره بالإنسانية. ولاريب أنها لم يكن يُقصد إظهارها ، وأن الإذن بنشرها فيما بعد لما يؤخذ مرة أخرى على مقدرة اللورد جرانفل السياسية ، وأن فيها دليلا واضحاً على أن كل ما كانوا يخافونه من الأخطار التى يتعرض لها الأوروبيون بسبب السيادة العسكرية كان كله زوراً وبهتاناً ولا غاية منه إلا تهيئة السبيل للتدخل المسلح . ومهما يكن من شىء فإن الأمر لا يخرج عن إحدى اثنتين : فإما أن تكون هذه المخاوف كلها لا أصل لها ، وعندئذ تتبين لنا مقدرة السير إدوارد مالت السياسية ، وإما أن تكون قائمة على أساس ثابت وعندئذ يتبين لنا مقدار بره بالإنسانية . وسواء أكانت هذه أم تلك فإن ما قاله السير إدوارد مالت كاف للحكم عليه بأنه من أحط طبقات الساسة الدساسين » .

وكان بلنت لا يزال يسعى سعيه فى إنجلترة ، فلما أعلن جرانفل تصريحه أبرق بلنت إلى عرابى فى اليوم السادس عشر من مايو يقول « ذكر لورد جرانفل فى البرلمان أن سلطانا باشا والنواب قد انحازوا إلى الخديو ضدك فإن كان هذا غير صحيح فاطلب إلى سلطان باشا أن يرسل إلى تكذيباً ؛ إذا تضامنتم فلا خوف عليكم ... الا يمكنكم إقامة وزارة يرأسها سلطان ؟ على أية حال عليكم بالثبات » .

وأبرق إلى سلطان فى الوقت نفسه يقول « أعتقد أن كل من يحبون مصر يجب أن يتحدوا ؛ لا تختلف مع عرابى ؛ إن الخطر جسيم » .

وكذلك أبرق بلنت إلى كل من بطرس باشا وأبو يوسف ومحمود باشا الفلكى

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

والشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسي وعبد الله أفندي نديم يقول « هل الحزب الوطني في جانب عرابي الآن ؟ الحكومة الإنجليزية تدعي غير ذلك . إذا اختلفتم خصمتكم أوروبا » .

ورد سلطان على بلنت فقال « زال الخلاف الذي كان بين الخديو والوزارة ولم يبق له أثر . كلنا متفقون على المحافظة على الأمن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة » .

وتلقى بلنت كذلك برقية من الشيخ الأمبابي شيخ الجامع الأزهر نصها : « من الشيخ الإمبابي شيخ الإسلام ؛ سوى الخلاف بين الوزارة والخديو ؛ والحزب الوطني راض عن عرابي ، والجيش والأمة متحدان » .

وأبرق إليه الشيخ محمد عبده بما لا يخرج عما جاء في برقية الشيخ الإمبابي ، كما يشير إلى ذلك بلنت في كتابه …

***

ولكن أمل بلنت ما لبث أن خاب ؛ فإن مجيء السفن إلى الإسكندرية قد ألقى في روع الخديو أنه اليوم قادر على أن ينزل بالوطنيين والعسكريين ما يشاء من انتقام ، وطالما تمنى توفيق أن تواتيه الفرصة فيشفي غليل نفسه من هؤلاء الذين كانت يده مكفوفة عنهم وإنه ليكاد يتميز من الحنق عليهم …

وأخذ سلطان ومعه فريق من المستضعفين كما ذكرنا يمالئون الخديو ويتنكرون لأمسهم على نحو كم تمنينا لو خلا منه تاريخ القومية المصرية .

وأدى انقلاب سلطان ومن أخذ إخذه من أشباه الرجال إلى ازدياد حرج الوزارة ، وسهل على أعداء البلاد ما كانوا مقبلين عليه يومئذ من عدوان وإثم …

وود مستر بلنت لو اتحد المصريون في تلك الآونة التي لم يكن لهم فيها من أمل إلا اجتماع كلمتهم ، وإنه ليعلم ما كان يدبر لهم من كيد ؛ والواقع أنه إن كان الاتحاد قوة في كل وقت فقد كان ضرورة كذلك في هذا الوقت . ومن هذا يتبين لنا مبلغ ما جره على البلاد سلطان ومن معه من أمثال هؤلاء الذين لم يخل منهم

جيل فى تاريخ هذا البلد المنكود ، أولئك الذين يكونون عدة الغاصب أبداً ومطيته إلى مطامعه ، دون أن يخالج ضمائرهم أى ندم ، أو أن يميل بهم عن نهجهم شعورهم أنهم يقترفون أشنع الآثام ويأتون أقبح ضروب الإجرام .

وضاقت بالوزارة السبل ، بل لقد أخذت كل سبيل عليها ، وحزبها الأمر فما تغنى فيه حيلة ؛ فها هو ذا الخديو أداة فى يد الإنجليز ، وها هم أولاء بعض النواب يظهرون بمظهر الانقسام والتخاذل ...

واضطرب الوطنيون ممن يشايعون الوزارة ، وأخذ يتسرب الوهن إلى النفوس وتناصرت وساوس اليأس على حجج العقول ، فزين لبعض الوطنيين أن يتخلصوا من الخديو فيأخذوه غيلة سراً أو علانية فما لهم مما هم فيه مخرج غير هذا .

لم يعمل سلطان بما أشار به بلنت فى برقيته ، فأنه لم يبق يومئذ على حب بلاده ، وإنما غدا من الأمعات الطامعة ، ولقد رأى الدنيا مقبلة على الخديو مدبرة عن عرابى ، فآثر أن يكون له على الخديو يد فينال عنده الحظوة فى غد كما أسلفنا ؛ ولكنه ظل على الرغم من ذلك يتذبذب بين الجانبين شأنه فى ذلك شأن كل إمعة ، فبينما نراه يعارض الوزارة فى موقفها من الخديو إذا به يرسل تلك البرقيـة التى أشرنا إليها فى اليوم السادس عشر من شهر مايو إلى بلنت رداً على برقيته .

أما الوزارة فقد رضيت أن تخطو فى ذلك الموقف العصيب خطوة نحمدها لها كل الحمد ، بل إنا لانجد من عبارات الثناء ما يفى بما فعلت فى ظرف كهذا الظرف .

لم تهتم الوزارة بما عسى أن يفسر به عملها من ذلة وخوف ، فتوجـه الوزراء إلى الخديو ، وأعلنوا لديه ولاءهم له وعبروا عن رغبتهم فى الوئام ؛ فمصلحة الوطن مقدمة على كل اعتبار ، وإحباط كيد الكائدين هو الواجب الوطنى الذى لا يقدم عليه واجب غيره ؛ ويقال إن سلطاناً توسط فى ذلك فأخـذ دور الشفيع ليتصل بكل من الجانبين بسبب ، ولعل هذا يفسر رده على برقيته بلنت ...

آثرت الوزارة مصلحة البلاد فقبلت أن توصف بالمذلة من أجل مصر ، وكان موقفها موقف القائد الشجاع الذى يفعـل ما يعتقد أنه الصواب دون أن يبالى

بما عسى أن يقول الناس ، فينسحب ليجمع قواته ويعيد النظر فى خططه غير مكترث بما قد يفسر به الانسحاب فى ذاته .

يقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية[1] وكان السخط على الخديو آخذا فى الازدياد ولولا الخوف من انتقام الدولتين لخلع توفيق ؛ ولكن كثيراً من النواب قد عارض فى ذلك الأمر وانقسم المجلس على نفسه ، فانحاز رئيسه سلطان باشا إلى جانب العدو دفعة واحدة وأخذ يعمل على إسقاط الوزارة ، ورأى غيره من الأعضاء أن يسعوا مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين وتخفيف الأزمة بشىء من التساهل . وبينما هم كذلك إذا بالأسطول الفرنسى قد وصل فى ١٥ مايو وإذا باللوردجرانفل قد بعث فى اليوم نفسه إلى السير إدوارد مالت برقية مضمونها أنه فضلا عن المظاهرة البحرية فأنا نحفظ لأنفسنا الحرية فى أن نستخدم من الوسائل ما نراه ضرورياً لإقرار النظام والمحافظة على سلطة الخديو. وقد قرر عرابى ورفاقه أن يعملوا بمشورة القائلين بالسعى مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين فذهبوا بأجمعهم إلى الخديو وعرضوا عليه خضوعهم التام ، وذهبوا كذلك إلى مالت وأكدوا له أنهم سيبذلون غاية جهدهم فى حفظ السكينة العامة . يا أسفا عليهم ! لقد ظهروا فى مظهر مؤلم للنفوس وقد يكون غير مشرف لهم ثم هم لم يجنوا من ورائه شيئاً على الأطلاق »

على أن موقف الوزارة لم يخل على أية حال من فائدة ، فقد أراد الوزراء بما فعلوا أن يبطلوا حجة القائلين بوجوب التدخل لتفاقم الخلاف بين الخديو ووزرائه ؛ وهم إن لم ينجحوا وأصر الخديو على انحيازه إلى أعداء البلاد ، أظهروه بمظهر المتجنى الذى لا يريد أن يغفر لهم حتى فى مثل هذا الموقف مازعم أنه كان من دواعى الخلاف ؛ وهذا أسلوب سياسى جدير بكل إعجاب ...

ولايصح أن يقول قائل إنه كان أولى بالوزارة ألا تغضب الخديو من أول الأمر. لا يصح أن يقال ذلك بعد الذى بيناه من مكر السياسة الإنجليزية ، فالنية مبيتة

---

(١) اسم الكتاب الحقيق The Ruin of Egypt : تخريب مصر .

من قبل على التهام مصر ؛ ونعود فنكرر ما قلناه إنه لو لم يوجد عرابى امعل الانجليز على خلقه ...

وكأن الذين ينكرون على الوزارة إغضابها الخديو من أول الأمر يريدون أن يقولوا إنه كان على الوزارة أن ترضى بالحكم المطلق ووأد الدستور، وتسلط الشراكسة، وإذلال مصر بالقضاء على حركتها القومية الناشئة حتى لا يغضب الخديو ، أعنى أنه إذا خير الوطنيون بين التمسك بالدستور وإغضاب الخديو ، وبين وأد الدستور وإرضاء الخديو ، كان عليهم أن يقبلوا الوضع الثانى وإلا كانوا طائشين مفسدين فى الأرض . وهذا كلام لا يستحق أن يوضع موضع المناقشة ...

لقد سلكت الوزارة المسلك الوطنى الذى يتفق وهذه الحركة الوطنية الدستورية التى بدأت فى مصر منذ عهد إسماعيل فكانت حركة طبيعية اقتضاها تطور الأحوال وعملت على وجودها عوامل كالتى عملت فى كافة الأمم التى سبقت مصر إلى الدستور والحرية ؛ ولقد بينا اتجاه الوزارة وقدمنا الأدلة على صدق وطنيتها وعلى ما كانت تتوخاه من ضروب الأصلاح ...

وما كان التجاؤها إلى الخديو تنازلاً منها عن مبادئها فهذا ما لا يتصوره عقل وإلا كانت الحركة من بدايتها إلى نهايتها لعب لاعب ، وإنما أرادت الوزارة الوئام والصفاء وإزالة ما تركه حادث المؤامرة الشركسية فى نفس الخديو من غضب ، فهو نوع من الاعتذار والتودد تقتضيه مصلحة الوطن اتقاء لخطر محدق بالبلاد ... أما الدستور وسلطة الأمة وما يتصل بها من مبادىء الحرية والقومية فدون التنازل عنها ، بل دون التساهل فيها بذل الرقاب ...

وكان توفيق خليقاً ألا يميل إلى المتدين من غير دينه ، ولقد كان لهذا الاعتبار الدينى شأنه العظيم فى النفوس يومئذ ؛ وكان كذلك خليقاً أن يدرك أن عدوانهم على مصر هو فى ذاته عدوان على السلطان صاحب الحق الشرعى وصاحب الولاية عليه .

ولكن توفيقاً لم يعد يبالى بالسلطان فلقد اطمأن إلى قوة الدولتين وبخاصة إنجلترة ، وكان إلى جانبه مالت يوحى إليه ما يشاء ويزين له ما يريد ويقوى عزمه

كلما آنس منه تخاذلا عما كان يدفعه إليه ؛ ولا ريب أن موقف الخديو كان يزداد بذلك حرجاً أمام البلاد وأمام السلطان مهما سندته الدولتان .

وأوحى مالت إلى الخديو ألا يثق بما يقول وزراؤه ، وما كان توفيق فى حاجة إلى هذا الذى يوحى به مالت ؛ فهو يتطلع إلى الساعة التى يلطم الوزارة فيها الطمة تشفى ما بنفسه من غل ...

ولم يطل ترقبه تلك الساعة ، ففى اليوم التاسع عشر من شهر مايو أوعزت الحكومتان إلى ممثليهما أن يشيرا على الخديو بأن يغنم فرصة وصول السفن إلى الأسكندرية فيطيح بالوزارة ، ويعهد بتأليف وزارة جديدة إلى شريف باشا أو إلى سواه ممن تتوفر فيهم مثل ثقتهما فى شريف ...

ورد المثلان بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يصنع الخديو ذلك ، فلن تقوم فى البلاد وزارة غير الوزارة القائمة مادام للحزب العسكرى ماله فيها من نفوذ وسلطة .

واقترح مالت أن يشير على عرابى وثلاثة من أشهر رجاله بمغادرة مصر ؛ وبدأ فعلا يسعى إلى ذلك فاختار أحد موظفى القنصلية الفرنسية ليفاوض عرابياً لأن هذا كان يعرف العربية ، ولكنه رفض أن يلعب هذا الدور ، ففوجئ سلطان فقبل فى غير خجل ، وذهب يشير بذلك على عرابى فعظمت دهشة الوزير ! ورفض أن يسمع بقية الحديث ، وأعلن إصراره على عدم ترك مصر مهما يكن من الأمر ، وأكد أنه لن يترك منصبه فضلا عن موطنه فى تلك الظروف .

ووصل هذا الحديث إلى الضباط فقابلوه بالاستياء حتى لقد صرح أحدهم على مسمع من أحد رجال القنصلية الفرنسية أن الجيش يمزق عرابياً إذا هو اعتزلهم يومئذ

وأخذت الوزارة تتأهب لملاقاة ما كان ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث، وصمم الوزراء ألا يقروا أى تدخل لإنجلترة وفرنسا وأن تكون إجابتهم على أى إنذار وسمى أنهم لا يعترفون بسيادة غير سيادة السلطان .

وتزايد انحياز الرأى العام إلى عرابى بقدر ما تزايد سخطه على الخديو والأجانب ، ومن انحاز إليهما من الأمعات والمستضعفين ، وعاد بعض الذين أشفقوا من الحزب

الوطنى ينضمون إليه فى تلك الساعة الرهيبة وشاعت فى البلاد دعوى المحافظة على حقوق السلطان أمير المؤمنين وحامى حمى المسلمين ...

وهنا نسأل الذين يستريبون فى شجاعة عرابى وزعامته ، أيرون دليل جبنه فى إصراره هذا على البقاء فى مكانه مخلصاً لواجبه ؟ لقد كان من اليسير عليه أن يسافر إلى القسطنطينية أو إلى أوروبا متحيزاً إلى السلطان أو إلى إنجلترة وكانت إنجلترة ترحب بذلك كل الترحيب وتطرب له أشد الطرب ، ولكن ما هكذا يفعل الرجال .

لقد صمم عرابى على البقاء حيث هو كما صمم سعد زغلول على البقاء فى مكانه مخلصاً لواجبه حين طلب إليه فى موقف من مواقف جهاده أن يذهب إلى عزبته ليقيم بها تحت مراقبة مدير الإقليم ، وآثر عرابى أن يواجه المحنة والبلاء كما آثر سعد أن ينفى من مصر ، ولكن الأمة التى وضعت على رأس سعد من أجل ذلك أكاليل الغار ، لا يزال فريق من أبنائها ينسبون إلى عرابى البطل أسباب الهزيمة والعار ! ...

وصمم عرابى على امتشاق الحسام ليجاهد فى سبيل مصر أشق الجهاد وأعظمه وليكن بعد ذلك ما يكون فإما نصر بعد وإما فناء ؛ أما مغادرة مصر فى ساعة العسرة فذلك هو الهرب الذى لا يفعله إلا الجبناء .

ولما فشل مالت فى طريقته الشخصية اتفق وزميله الفرنسى فأرسلا إلى حكومتيهما يطلبان أن تطلق يديهما كى يتقدما إلى الحكومة المصرية رسمياً بمذكرة تنص على إبعاد عرابى من مصر هو وكبار العسكريين على أن تؤيد المذكرة بعمل إيجابى فى حالة ما إذا رفضت ، ومما ذكره مالت قوله : « إن الموقف الحالى قد سببه الوزراء ، والناس يعتقدون أن إنجلترة وفرنسا لن ترسلا جنوداً ، وأن معارضة فرنسا تجعل تدخل الترك مستحيلا »[١]

وأرسل عرابى كتاباً إلى بلنت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، ومما جاء فيه قوله « إن جميع الأهالى ليطوف بهم الحزن لمجىء السفن الانجليزية والفرنسية وهم يرون فى هذا العمل ما يبيت من سوء للبلاد كما أنهم يرون فيه عدوانا لا مبرر له

(١) M. Egypt.

ولا ضرورة تدعو إليه . على أن المصريين قد صمموا على ألا يسلموا للدولة التى تريد أن تتدخل فى شؤونهم وفى إدارة البلاد الداخلية ، وهم كذلك قد جمعوا عزمهم على الاحتفاظ بالامتيازات التى ثبتتها المعاهدات ، ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق ؛ وهم فى الوقت نفسه حريصون على المحافظة على مصالح الأوروبيين وحياتهم وممتلكاتهم مادامو لا يتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين ؛ ونحن جميعاً نبذل ما فى وسعنا فى أداء واجبنا ، وعلى الله اتكالنا فى الدفاع عن حقوقنا وبمعونته سننال غايتنا ؛ وتنحصر غايتنا فى إسعاد الوطن ونشر الأمن والسلام بين سكانه ، ولا زلنا نأمل فى عدالة أوربا ألا تتعدى علينا ، بل إنا على خلاف ذلك نرجوا أن يحسنوا سلوكهم معنا لأن فى هذا مصلحتهم وهو يؤدى إلى تحقيق رغباتهم ؛ وجدير بأنجلترة ألا تثق بوكلائها هنا فأنهم قوم لهم مآرب خفية شخصية يبتغون تحقيقها ، ونرى أن نجاحهم فى تحقيق مآربهم يعود بالضر على بلادهم وعلى حكومتهم ، وفى هذا القدر ما يكفى الآن وسيأتيك الغد بما يجد من الأنباء »(١)

ولكن ما ذا كان عسيًّا أن يفعل بلنت وقد نشط مالت فى إذاعة أسوأ الأخبار عن مصر وإحباط كل سعى يؤدى إلى نجاحها ؟

يقول بلنت فى كتابه مشيرا إلى برقياته وما جاءه عنها من ردود «ولكن جاء الصباح فذهبت آمالى أدراج الرياح وانقلب فوزى هزيمة ، فقد كنت قضيت الليل بمنزلى بلندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت فى طلب الصحف فوجدت فيها جميعا برقية لشركة رويتر وفيها نص البرقية التى أرسلتها إلى أعضاء المجلس فى مصر وقلت لهم فيها إن أوروبا ستضم مصر ، وفيها أن شيخ الإسلام تبرأ من الرد الذى جاءنى باسمه ، ووجدت فى صحيفة ذى ستاندارد برقية من مكاتبها بالقاهرة مؤداها أن سلطانا باشا صرح له أن يكذب البرقية التى أرسلها والتى نشرت بالتيمس ، وأنه برقيه سلطان هذه إنما كتبت تحت تأثير الأرهاب العسكرى »

وعلى أى حال فما كان يغنى عن بلنت صدقه وحسن مسعاه ، وقد رسمت السياسة

(١) S. H. Blunt, P.

الإنجليزية الخطة التي تنتهجها ولقد كانت الحكومة الإنجليزية على علم بكل شيء ولذلك فما كانت بها حاجة إلى دفاع بلنت وأنباء بلنت ...

وهل كانت إنجلترة تتحرى في المسألة وجه الصواب حتى تسير على هدى ما تعلم؟ حسب الإنجليز أن يحققوا أطماعهم التي طال بهم العمل على تحقيقها في مصر؛ ذلك هو الواقع الذي لا يغيره جدال مهما طال؛ وليجر بعد ذلك بلنت في مضماره ما شاء، وليطلق هذا الشاعر الذي يعطف على حرية المصريين وآمالهم العنان لخياله حسبما يريد، فلن يؤثر ذلك في مجرى الحوادث، ولن يغير شيئاً مما عقد النية جلادستون وجرانفل عليه

والسياسة على أي حال شيء، والشعر والأحلام شيء آخر؛ وكثيرا ما سخر الساسة من أماني دعاة الإنسانيه وضحكوا ملء أفواههم من هؤلاء الذين يحلمون فيتخيلون أحلامهم حقائق راهنة كما يتخيل الأطفال!

تلقت الحكومة المصرية، وتلقى الخديو في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو المذكرة المشتركة الثانية وفيها تطلب الدولتان: «أن يخرج عرابي باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه وراتبه، وأن يبتعد كل من عبد العال باشا وعلى فهمي باشا إلى داخل القطر مع احتفاظهما كذلك بلقبيهما وراتبيهما وأن تستقيل الوزارة الحالية من الحكم».

ومن أعجب الأمور أن ممثلي الدولتين قد عزيا هـذا الطلب إلى ما نصح به سلطان باشا لرئيس الوزارة، فقد جاء نصه كما يأتي: «إن ممثلي فرنسا وبريطانيا العظمى. الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب وكذا رغبته في تأييد سلم مصر ورفاهتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار إذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب في مصر» ... ثم أوردا بعد ذلك الشروط أو الأنذار ... ولقد أنكر الوزراء وساطة سلطان باشا كما أن سلطانا تنصل منها ...

قال الشيخ محمد عبده [1] « حصلت مذاكرة فى المذكرة التى قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال : هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لا يكون إلا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ولا ريب أنه يوافق عليه ؛ فقال له أحد النظار : الخديو الذى كنت تطلب خلعه إن لم يكن قتله قبل أيام ؟

قبل هذا جاء كلام فى الخديو فى جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى وكان سلطان يقول أقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب ؛ ... هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى وهو لا يريد الآن إلا مجاملة الخديو ، ذلك الخديو الذى لا يبغى إلا بيع البلاد للأجانب [2]

اجتماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولا بدلنا أن نطلب النواب إلى القاهرة حتى لو أراد عرابى أن يوافق ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف

سلطان رجع عن رأيه إلى رأى الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر إليه من موافقة الثائرين »

قررت الوزارة فى غير تردد رفض هذه المذكرة المشتركة الثانية وأبلغ هذا الرفض إلى ممثلى الدولتين ومما جاء فيه قول الوزارة « إن سعادة سلطان باشا صرح أمس أمام الوزراء عند انعقاد مجلسهم بأن أعاد على رئيس مجلس الوزراء ذكر محادثة جرت بينه وبين قنصل جنرال فرنسا ، وأنه لم يبدأ بذكر مقترحات أو إشارات لا يعنيه أن يقدمها ولا يبديها باسمه الشخصى ، ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فإن هذا المجلس غير ملتئم الآن ، أما الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انكلترا وفرنسا فتتعلق بمسائل داخلية تختص بالأمور الإدارية

---

(١) تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده صفحة ٢٤٢

(٢) يعلق الشيخ رشيد على هذه العبارة بقوله « أى بحسب رأيه » أعنى رأى سلطان .

التى اعترفت الدول الكبرى دائماً بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية ، ولا يمكن لحكومة الجناب الخديوى أن تولج فى باب المناظرات والمباحثات فى هذه القضايا بدون التعدى على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية التى حددت مقام مصر الخصوصى وبدون نقض القوانين الشورويه لهذه البلاد التى هى أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هى عليه »

وأصر الوزراء وفى مقدمتهم عرابى على موقفهم ، هذا الموقف الوطنى الجليل ، وأيدهم كبار الضباط وأعلنوا أنهم معهم ولو أدى الأمر إلى القتال ...

ولكن ماذا عسى أن يغنى عن الوزارة جلال موقفها فى هذه الأزمة المصيبة ، ولم يمض يوم واحد حتى قبل توفيق مذكرة الدولتين ، وأعلن ذلك فى غير تحرج من هذا الفعل على شناعته البالغة ؟

ولم يجد البارودى بعد ذلك مناصا من الاستقالة فكتب استقالة الوزارة على النحو الآتى :

« القاهرة فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢

إن جنابكم العالى قد بلغنا عند وصول الدونمتين الانكليزية والفرنساوية بأنكم حررتم إلى الآستانة بطلب التعليمات ، ولما كنا منتظرين ورود جواب من الباب العالى وإذا بقنصلى فرنسا وبريتانيا الكبرى قدما لحضرة رئيس مجلس نظاركم لائحتهما بتاريخ ٢٥ مايو ، وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعنا والتأم مجلسنا وقرر هذا الجواب المرفوق مع هذا ، وعندما توجهنا إلى جنابكم العالى لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لائحة وكيلى فرنسا وبريتانيا العظمى ؛ وهذا القبول مباين لما أجمع عليه رأى كل النظار إجماعا كليا ، فان قبول تدخل الدول الأجنبية فى هذه القضية يمس بحقوق الحضرة السلطانية ، وبناء على ذلك نتشرف بأن نقدم لجنابكم استعفاءنا جميعاً »

ولم يتردد الخديو ، وكان وراءه مالت ، فى قبول استقالة الوزارة قائلا إنه يقبلها لأن هذه هى إرادة الأمة ، وفيما عدا ذلك فانها أمور بينه وبين السلطان الذى

محمود سامی

يحترم حقوقه دائما . وتنفس الخديو الصعداء ، ظانا أن الأمر انتهى إلى غايته ، ولم يعلم أن صنيعه هذا كان معجلا بالكارثة ، بل لقد كان هذا الصنيع فى ذاته هو الكارثة ، فلولا ما كان من ركونه على هذه الصورة إلى الأجانب ، ما أقدمت إنجلترة على تنفيذ ما بيتته طويلا من غدر بالبلاد

ومع ذلك فان كارثة الاحتلال لا زالت على ألسنة بعض المصريين تنسب إلى عرابى ، ذلك الرجل الذى تلفتت القلوب إليه وقد اشتدت الأزمة وأزفت الآزفة تأمل على يديه النجاة من الخطر المحدق

إن القضية كلها يمكن تلخيصها وقد قرب دوى العاصفة فى كلمة قصيرة ، هى أن خلافاً داخلياً وقع فى مصر بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعماء الشعب المستمسكين بالحكم الدستورى ، فانتهز الأنجليز هذه الفرصة لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل هذا الخلاف ؛ ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن مبدأ الاستبداد فركن إلى الأجانب ليتخلص من الوطنيين ، وعمل هؤلاء الثعالب على زيادة الخلاف وعلى رأسهم مالت كبير شياطينهم ؛ حتى كانت المذكرة المشتركة الثانية وهى الضربة التى تصيب الحركة القومية فى مقتل ، فلم يجد عرابى وأعوانه بدا من دفع هذا العدوان الفاجر عن البلاد أنفة وحفاظا ولو ذهبت أرواحهم فى سبيل ذلك

فليت شعرى كيف كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك فى موقف كهذا الموقف ؟ ألا فليحترموا عقولهم أولئك الذين يردون سبب الاحتلال إلى عرابى ، إن كانوا يرجون لأنفسهم ولوطنهم وقارا .

عرابي ينذر البلاد

كان لقبول استقالة البارودى أسوأ وقع فى البلاد جميعاً ، وأحس الناس فيها نذر الخوف وبوادر العاصفة ؛ وقر فى نفس كل وطنى أن الخديو اليوم فى قبضة الأجانب وبخاصة الإنجليز وأن مالت هو الذى يحركه ويوحى إليه ما يريد ...

ولم يعد خافياً على أقل الناس دراية مغزى قبول الخديو المذكرة الثانية ومغزى قبول استقالة الوزارة .

وأظهر توفيق صرامة لم يألفها الناس منه ، فأصر على قبول استقالة الوزارة على الرغم من إحجام شريف ومصطفى فهمى وغيرهما عن تأليف وزارة جديدة .

وبادر توفيق بإرسال أمر منه إلى المديرين قال فيه « بما أن هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول استعفائها فليكن معلوماً ذلك لديكم لتصرفوا جهودكم واقتداركم فى المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الوكلة لأدارتهم والدقة والانتباه لحسن سير الأشغال والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث أن المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سلمى فقط ، ولم يكن هناك شىء آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية الذين صار طلبهم أخيراً بمعرفة الجهادية ، بل إن الموجود منهم تحت الحضور لهذا الطرف يصير إعادته لبلده ، والذى تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره ، وإعلان المراكز والأقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء لجمع عساكر ، وانتباه كل لأشغاله وزراعته بدون اشتغاله فى غير ذلك ، هذا وأن الأمور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب أن يعرض عنها من الآن لمعيتنا إلى أن تشكل هيئة نظارة جديدة كما هو مطلوبنا » .

وهذه أوامر من الخديو تمد بالغة الخطورة ، فهو يهوّن من حضور المراكب الأجنبية ، ثم يريد أن يحبط الدفاع الوطنى وذلك بمنع إرسال الجنود التى كانت وزارة البارودى قد استدعتهم من الجيش الاحتياطى قبل استقالتها ؛ وهو يحث الناس على الاشتغال بالزراعة دون غيرها أعنى ألا يلبوا إذا دعا داعى الجهاد وفوق ذلك جميعه فهو يستبد بالأمر كى يلقى فى روع الناس أنه السيد الوحيد الذى يجب طاعته فى البلاد .

وأى رضاء بالاحتلال والتمهيد له يكون أصرح مما يفعل توفيق بأوامره هذه فى وقت كذلك الوقت الذى يحدق فيه الخطر بالبلاد ؟

إنما يريد توفيق أن يعترض طريق ثورة مشروعة فى مصر مبعثها تدخل الأجانب فى شؤونها الداخلية توطئة لالتهامها ، وأن يظهر عرابياً ومن معه بمظهر العصاة المتمردين ، الذين يعمل ومن يعضده من الأجانب على قمعهم والقضاء عليهم وليس أكثر من هذا الذى يفعل ممالأة للعدو واندماجاً فى سياسته .

ولكن ما لبث توفيق وأسناده أن تبينوا أن الأمر ليس من السهولة كما تصوروا ، وأن أمامهم من الصعاب ما ينوء بأقدر الرجال ...

وكان مالت قد تصور الأمر هيناً كما تصوره توفيق ، فقد أبرق إلى جرانفل فى اليوم التالى لسقوط الوزارة يقول « رأى الوزراء أنهم إذا رفضوا الشروط التى قبلها توفيق فإنهم بذلك يبيتون فى ثورة مكشوفة بدلا من ثورتهم المستترة وهذا موقف أشفقوا منه ، وعلى ذلك فإن سقوط الوزارة يرجع إلى المسلك الحاسم الذى سلكه سموه »[١] .

واطمأنت كذلك الحكومة الفرنسية وظنت أن مصر قد ماتت فيها روح المقاومة بسقوط الوزارة السامية وكانت إنجلترة قد عادت إلى مراوغتها فى اليوم الرابع والعشرين من مايو أى قبل سقوط الوزارة بيومين فاقترحت على فرنسا أن تحاط الدول علماً بما تراه إنجلترة من علاج للحال وهو أن يكون جيش تركى

(١) M. E. Cromer.

على أهبة الاستعداد للذهاب إلى مصر ؛ فكتب ممثل فرنسا فى لندن إلى جرانفل قبل سقوط البارودى بيوم يقول « أبرق إلى مسيو دى فرسنيه أن مجلس الوزراء الذى عرض عليه مقترحكم قد أجمع رأيه على أنه ليس فى الموقف الحالى ما يبرر الالتجاء إلى قوة تركية ؛ فقد وصلتنا مذكرة من قنصلنا العام بمصر فى اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر وفيها أن الوزارة فى سبيلها إلى الاستقالة وأن عناصر المقاومة فى طريقها كما يتضح إلى الانحلال ؛ وعلى ذلك فلدينا كل ما يدعو إلى انتظار ما عسى أن تصير إليه الحوادث »(١)

ولكن مالت ما لبث أن أبرق إلى حكومتـه أنه قد طلب إلى شريف باشا أن يؤلف وزارة فرفض ذلك مصرحاً بأنه لا يمكن إقامة حكومة فى مصر طالما يقيم بها العسكريون ؛ ثم قال مالت « ولكن الخديو يحاول الآن إقامة وزارة ولو أن أمله ضعيف فى أن يوفق إلى وزارة ذات كفاية إن كان ثمة من أمل فى إمكان قيام وزارة ما »(٢) .

وعاد مالت يقترح أن يستعان بالسلطان ليعيد النظام فى مصر وذلك بأن يرسل ضابطاً من لدنه فى أقرب وقت ، « وكذلك يرى توفيق أن مبعوثاً تركياً يمكنه أن يسمع العسكريين صوته وأن يعيد إلى مصر الهدوء » .

والحق أن سقوط الوزارة السامية قد هز البلاد من أعماقها ، وبات الناس يتوقعون الاعتداء فى كل لحظة ؛ ولم تبق فى البلاد هيئة أو طبقة إلا أسخطها مسلك الخديو قال عرابى فى مذكراته(٣) « وما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو للائحة إنجلترة وفرنسا حتى بلغ الاضطراب فى جميع بلاد القطر مبلغاً عظيما وأخذ القلق من النفوس مأخذا جسيما ، فكثر اللغط وزادت بواعث الإيجاس والخوف ثم حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة وقدموا لنا مئات من العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل

(١ و ٢) M. E. Cromer

(٣) من نسخة من مذكراته المخطوطة تحت يدى ص ٢ الجزء الثانى .

الخديو هذا ومتطالبين أحد أمرين ، إما رفض اللائحة المشتركة المذكورة وإما عزل الخديو الذى قبل تداخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية » .

ويتبين لنا مبلغ ما لقى توفيق من عسر فى الاجتماعين اللذين عقدهما فى الصباح وفى المساء برياسته بسراى الإسماعيلية فى اليوم التالى لسقوط الوزارة ، ففى اجتماع الصباح حيث شهده النواب وكبار العلماء والأعيان وكبار الموظفين ، عرض الخديو الوزارة على شريف باشا فاعتذر وأصر على اعتذاره ؛ وحضر أثناء الاجتماع قنصل فرنسا العام ينبىء الخديو بأن برقية وردت عليه من حكومته تأمل فيها فرنسا أن يقبل شريف باشا الوزارة وستعضده الحكومة الفرنسية بكل جهودها ، ولكن شريفاً ظل على إحجامه وخوفه ... ثم اشترط أن يقبل وزارة الحربية معه عمر باشا لطفى محافظ الإسكندرية فرفض ذلك عمر باشا ؛ وعرض الخديو رياسة الوزارة على عمر فأشفق منها ...

وفى اجتماع المساء صارح الخديو المجتمعين بأنه سوف يشكل الوزارة برياسته وستكون له وزارة الجهادية ثم عاد يبين للمجتمعين ما حدا به إلى قبول مذكرة الدولتين ؛ وتهدد الخديو وتوعد وقال إنه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو مخالفة فى المستقبل ؛ ثم أراد أن يخفف من وقع البوارج الحربية فعاد يؤكد أنها ما جاءت إلا لأغراض سلمية ...

وكل ذلك يدل على مبلغ ما أحاط بتوفيق من حيرة كما يشير إلى شدة شعوره بما يجد فى نفسه من حرج مما فعل ، وإن تظاهر أنه لا يبالى بشىء .

وتكلم طلبة باشا عصمت أحد الزعماء العسكريين فقال يرد على تهديد الخديو « إننا مطيعون جميعاً للجناب السلطانى الشاهانى وللجناب الخديو ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيساً للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى باشا »[١] .

(١) مذكرات عرابى المخطوطة : وقد أورد كرومر هذه الحادثة فى كتابه وزاد عليها أن طلبة قال إن السلطان هو السلطة الوطنية التى يقرونها .

وفى هذا الكلام تحد صريح للخديو يدل على مبلغ ما كان فى نفوس العرابيين من استياء منه ، ومن حماسة وطنية أوقد جذوتها مسلكه بانحيازه إلى الأجانب .

وزاد الموقف خطورة أن ورد على الخديو برقية من كبار رجال الجيش والشرطة بالأسكندرية يقولون فيها إنهم لا يطمئنون لغير عرابى ناظرا للجهادية وأنه إذا مضت إثنتا عشرة ساعة ولم يعد عرابى إلى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضى إليه الحوادث ...

وكان مالت لا ريب فرحا لوقوع توفيق فى مأزق كهذا ، فإن ظاهر الأمر يؤيد قوله إن تسلط الجيش هو سبب كل خوف . وإن كانت حقيقة الأمر تقطع بأنه هو وكلفن كما بينا أصل كل المصائب

ويذكر كرومر فى كتابه « أن سلطانا باشا وبعض النواب أخبروا الخديو فى حضور القنصلين الفرنسى والانجليزى أنه ما لم يوافق على إعادة عرابى وزيرا للجهادية فإن حياته يحف بها الخطر » .

وعلى الرغم من ذلك ، كما ذكر كرومر أيضا ، فإن الخديو أصر على رفضه كما جاء فى تقرير مالت ...

وفى نفس اليوم الذى عقد فيه الخديو اجتماعيه عقد اجتماع شعبى فى دار سلطان باشا وقد شهده كبار العلماء والنواب ؛ كتب عرابى يصف هذا الاجتماع فقال « فى ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ دعيت إلى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، فذهبت إليه ومعى إخوتى على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى ومحمد بك عبيد ، وغيرهم من الأخوان ، فلما وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصا بأعضاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ والشيخ عبدالهادى الأبيارى إمام المعية ، وحصل الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون وأن الخديو يرفض اللائحة الثنائية ويأمر برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية ، أو يعزل عزلا ، وفى أثناء ذلك حضر بحديقة المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملكية وغيرهم

طلبہ عصمت

وصاحوا بقولهم : اعزلوا الخديو الذى دعا الأجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم ...

ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا إلى منزل محمود باشا سامى فوجدنا كثيراً من الذوات هناك ينتظرون ما عسى أن يحدث من مخبآت الدهر فقابلنا عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذا أو مربيا للخديو فى صغره وقال لنا — أن قتلتموه ؟ فقلت له من تعنى ؟ فقال أعنى الخديو ألم يقتل ؟ فقلت له إننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام ، ثم توجه كل منا إلى منزله »

وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أبرق الصدر الأعظم إلى الخديو ينبئه بأن « مبعوثا من لدن السلطان يرسل إلى مصر إذا تلقى السلطان طلبا رسميا بذلك »(١) وكان ذلك ردا على ما أرسله توفيق إلى الآستانة فى اليوم التالى ليوم استقالة الوزارة من أنباء مؤداها أن الجند غير راضين عن إسقاط الوزارة وأن الوزارة احتجت فى استقالتها على تدخل الدولتين ... واشترطت تركيا عذا الشرط لإيفاد المبعوث خوفا من إنجلترة وفرنسا أن تغضبا إذا هى تدخلت من تلقاء نفسها ...

وسأل توفيق القنصلين ماذا يصنع فيما جاءه من الصدر الأعظم ؟ وأبرق مالت إلى حكومته يقول « لقد ذكرت للخديو أنه إذا كانت حياته معرضة للخطر ، فلست أستطيع أن أنصح بشىء يخالف الخطوة التى يقترحها إذا ظهر أنها هى فرصة الخلاص الوحيدة ؛ واقتصر مسيو سينكويكس على قوله إنه سيطلب رأى حكومته ؛ ثم تركنا الخديو بدون أن نفضى إليه بأكثر من هذا ، مع أن الخديو كان يلح علينا بضرورة إرسال رد عاجل إلى الصدر الأعظم »

ووصف مالت موقف توفيق فى ذلك الظرف بقوله « إن موقف الخديو موقف مؤلم أعظم الألم ، فهو مهدد بالقتل ؛ ثم إننا صرفناه عن الذهاب إلى الإسكندرية حيث كان فى الوقت متسع لهذا ، وكذلك لم نخل بينه وبين الالتجاء

---

(١) M. E. Cromer

إلى الجهة التي يأتيه منها تأييد ذو أثر ، ولذلك فهو والحال كما أذكر خليق بأن يشعر شعور المرارة تلقاء ما يبدو له الآن من عواقب اتباعه نصحنا واعتماده على تأييدنا »

وهكذا نرى مالت يضغط ضغطاً شديداً على حكومته لتعجل بالتدخل المسلح المنشود ، وكان من أثر ذلك أن كتب جرانفل دون أن ينتظر مشورة الحكومة الفرنسية إلى اللورد دوفرين فى الأستانة يقول « إن حكومة جلالة الملكة ترى الضرورة ملحة بألا يضيع السلطان شيئاً من الوقت. دون أن يرسل أمراً به يؤيد الخديو ، ويرفض الاتهام الذى عزته الوزارة الساقطة إلى سموه ، ويأمر كبار العسكريين الثلاثة ، وكذلك رئيس الوزارة السابق إذا دعا الحال ، بأن يحضروا ليشرحوا مسلكهم فى القسطنطينية »

ويتضح من ذلك أن الحكومة الأنجليزية تخطو خطوة سريعة نحو الانفراد بالعمل وتنفيذ خطتها فى التهام مصر ولا نجد فى تفسير سياستها خيراً من قول كرومر فى هذا الظرف تعليقا على الموقف « إن النتيجة على أى حال لم تكن بعيدة ، فانه كان يتضح يوما بعد يوم أن عرابيا لن يخضع إلا بالقوة ، فإذا لم تتبع القوة المطلوبة أى جهة أخرى فإن هذا العمل يلقى بالضرورة على عاتق إنجلترة »

هذا هو الذى كانت ترمى إليه السياسة الأنجليزية من جميع مراوغاتها واقتراحاتها ، ولسوف تنفرد عما قريب بضرب الأسكندرية ، وحجتها فى ذلك تأييد سلطة الخديو تجاه عرابى الثائر الذى تحركه الاطماع والمآرب الشخصية !

واشتد خوف الأجانب فى مصر حين فهموا أن الخديو عاجز عن تأليف وزارة ، فذهب وفد من القناصل إلى عرابى فى الثامن والعشرين من مايو ، وقد أشار عرابى إلى ذلك فى قوله « ولما تعاظم الخوف حضر لمنزلى جميع قناصل الدول ما عدا قنصلى إنجلترة وفرنسا يطلبون منى التأمين على رعاياهم فأجبتهم بأنى قد استعفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسؤولية العظيمة ، فقالوا إن الجيش لا يخالف إرادتك ، وأنت رئيس الحركة الوطنية فلا نأمن على رعايانا وأنفسنا إلا

بأعطائك لنا كلمة الشرف بحفظ رعايانا ؛ فلأجل طمأنينتهم وتسكين روعهم كتبت تلغرافا إلى جميع مراكز العسكرية بصفة أنى رئيس الحزب الوطنى أرغب إليهم فيه أن يلازموا الهدوء والسكينة وأن يحافظوا على راحة العموم ، وخصوصاً رعايا الدول الأجنبية ، وأن يعاملوا الجميع بحسن المعاملة وكمال المجاملة »

وقابل هؤلاء القناصل الخديو ورجوا منه أن يعيد عرابيا إلى الجهادية حفظا للأمن فى مصر وتفاديا للأخطار ...

أما الوطنيون فقد اشتد قلقهم وقد مضى يومان والخديو عاجز عن إقامة وزارة ؛ ونشط سلطان باشا ، وأكثر من مقابلة الخديو ؛ وفى نفس اليوم الذى قابله فيه القناصل ، ذهب سلطان إلى سراى الأسماعيلية وتحدث مع الخديو طويلا ؛ ولكنه وجد منه تصميما على موقفه ...

واجتمع بمنزل سلطان باشا عدد كبير من النواب والعلماء والأعيان وكبار ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يذهب وفد منهم إلى الخديو يرجو منه أن يعيد عرابيا وزيراً للحربية ، ففى ذلك ضمان الأمن والسلامة

وذهب وفد مؤلف من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى وسليمان أباظة إلى سراى الأسماعيلية وقابلوا الخديو وعرضوا عليه ملتمسهم أن يعيد عرابياً إلى الوزارة ؛ فرفض الخديو وأصر على رفضه زمنا ، وبعد طول توسلهم وتوسط سلطان باشا أجابهم الخديو إلى طلبهم قائلا « بما أنكم أتيتم طالبين تقليد نظارة الجهادية لسعادة عرابى باشا حيث أنكم تظنون أن هذا التعيين يساعد على حفظ النظام فلا مانع من إجابتكم »

وإن اتفاق هذا العدد الكبير من رجالات الأمة على إعادة عرابى حتى يطمئن الناس ويتحقق الهدوء لدليل لا شبهة فيه على أن الرجل فضلا عما تحقق له من الزعامة قد اغتدى بحق ملاذ البلاد ؛ أما الخديو فلم يعد فى رأى الناس إلا أداة طيعة فى يد مالت يصرفه كيف يشاء

أشار إلى ذلك روثستين فى كتابه بعد أن أشار إلى احتجاج ضباط الجيش.

ورؤساء الشرطة فى الاسكندرية على الخديو بقوله « وسرعان ما وصل نبأ هذا الاحتجاج إلى أهل القاهرة فقام إلى الخديو وفد مؤلف من رؤساء الأديان المختلفة، علماء الإسلام ، وبطريرك الأقباط ، وحاخام اليهود ، وطلب إعادة عرابى وزملائه ، فكان ذلك مظهراً من مظاهر إرادة الأمة غير متوقع بالمرة. وعندما قدم سلطان باشا على الخديو مهرولا يكاد يقتله الخوف ، وتوسل إليه أن يرجع النظار إلى مناصبهم وإلا كانت حياته فى خطر ، نقول عند ذلك أذعن توفيق وأصحابه البررة ، وأعيدت الوزارة ، وأرسلت الأوامر إلى الأقاليم بالغاء أوامر التسريح السابقة .. ولم تدم هذه المأساة الهزلية أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت كافية فى إظهار شعور الأمة الحقيقى . وإن فى السرعة التى أرسلت بها الأوامر إلى الأقاليم لوقف جميع وسائل الدفاع لبيانا لسبب كره الدبلوماسيين البريطانيين عرابياً ورفاقه ، فقد رأوا أنه ما دام هؤلاء قابضين على أزمة الأمور فلا يحتمل أن تقع مصر غنيمة باردة فى أيدى المعتدين » .

ولكن مالت لم يكن ليروقه هذا المظهر فكان مما افتراه فيما أبرق به إلى حكومته ماجاء فى قوله «فى هذا المساء توجه رؤساء رجال الدين وفيهم البطريرك والحاخام ، كما توجه النواب جميعاً والعلماء وغيرهم إلى الخديو وسألوه أن يعيد عرابياً وزيراً للجهادية ؛ فرفض الخديو ، ولكنهم توسلوا إليه قائلين لئن كان الخديو مستعداً ليضحى بحياته فينبغى ألا يضحى بحياتهم هم ، وأن عرابياً يهددهم جميعاً بالموت إن لم يحصلوا له على موافقة الخديو ؛ وأن حرس القصر قد ضوعف ، وأن أوامر صدرت إليهم بأن يمنعوا مغادرته القصر طلباً لرياضته المعتادة ، وأن يطلقوا النار إذا حاول أن يشق طريقه بالقوة ... ولم يجد الخديو أمام هذه الظروف إلا الأذعان لا لينجى نفسه بل لينقذ المدينة من سفك الدماء »

إلى هذا الحد يبلغ افتراء مالت فيصور توفيقا سجينا فى قصره ويجعله عرضة لأن يطلق حرسه النار عليه ؛وهذه رواية لم يوردها غير مالت بين جميع من كانت لهم صلة بهذا الموقف من القناصل ومن المؤرخين . ومن الأمور البديهية أنه لم

يحجم عن أن ينقل مثل هذه الشائعات المفزعة إلى توفيق نفسه ليملأ قلبه رعبا ، ويوحى إليه أن يطلب النجدة ...

وفى مســـاء اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أصدر الخديو أمراً إلى عرابى باشا بإعادته إلى وزارة الجهادية والبحرية هذا نصه .. « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا بإجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكافلة لحفظ الأمنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى إرادتنا »

يقول عرابى فى مذكراته « حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسين باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وسلمونى أمر الخديو القاضى برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية ، وأخبرونى بأنهم لما وفدوا على الخديو وجدوا جميع القناصل فى حضرته ما عدا قنصلى فرنسا وإنجلترة وأنهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية لأجل اطمئنان العموم ؛ فكان القناصـل مع النواب على رأى واحد ، وحينذاك فرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين وسروا بذلك سروراً عظيما ...

وبعـد ذلك توالى اجتماع قنصلى إنجلترة وفرنسا الجنرالين بالخديو ليلا ونهاراً ، ثم إنى أصدرت منشوراً إلى قناصل الدول ، وتكفلت لهم فيه بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من الخديو لزوم جمع العساكر لاستكمال الألايات على مقتضى القدر المقرر فى الفرمانات السلطانية فأجابنى بالموافقة على ذلك ، وصدر أمر الجهادية بجمع عساكر الأمدادية نمرة ٢ ، ونمرة ٣ استعداداً لما عسى أن يطرأ من الحوادث »

وأخذت الطمأنينة تحل محل القلق فى نفوس الناس، إلا من كانوا يفطنون إلى حقيقة الموقف ، فليست المسألة مسألة الخلاف بين توفيق وعرابى ، وإنما المسألة هى نيات السياسة الإنجليزية ! ولذلك ما كانت أية تسوية داخليـة لتجدى فتيلا

والإنجليز متربصون ، ومالت يسعى جهده لتمكير الماء كى يسهل عليه الغدر ...

والواقع أن تعلق الناس بعرابى إلى هذا الحد واطمئنان الوطنيين والأجانب إليه ، أقوى رد يدفع به باطل مالت وأشياعه ممن خوفوا أوروبا من نفوذ الحزب العسكرى وأنذروها بالويل والثبور ، فهاهم أولاء الناس من وطنيين وأجانب لا يجدون لهم ملاذاً غير عرابى ليطمئنوا على حياتهم وأمنهم .

وكان عجز الخديو كذلك عن إقامة وزارة أبلغ فشل لسياسة مالت ؛ فإن طوائف الأمة تؤيد الجيش ما عدا سلطانا ونفراً من النواب ؛ وما تلتف الأمة حول الجيش ورئيسه عرابى إلا لأنه اليوم فى نظر الجميع أكثر مما كان من قبل أمل البلاد فى إنقاذها من التدخل الأجنبى ؛ وهل يقول أحد إن الأمة كانت فى صف توفيق بعد قبوله المذكرة المشركة الثانية ؟

إذاً فالقضية تزداد وضوحاً يوماً عن يوم فهذه أمة تطلب الحرية ، ولكن إنجلترة وعلى رأسها جلادستون زعيم الحرية تتهمها بالتمرد والفوضى ، كى تتقدم لالتهامها ، كما اتهم الذئب الحمل فى تلك الخرافة التى يقصونها على الأطفال بأنه يمكر عليه الماء والذئب فى رأس المنحدر والحمل فى أسفله !

وما أرذل موقف مالت بعد التفاف الأمة حول عرابى على هذه الصورة ، وما أكثر ما يكشفه الموقف من صفاقته ولؤم طبعه ... يقول روثستين «لا شك أن السير إدوارد مالت قد ساءه الإخفاق الذى لقيه وهو يحاول التخلص من وزارة سامى ، ولو أنه كان على شىء من الشعور بكرامة النفس لاستعفى وتنئذ من عمله . ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظة على كرامة نفسه ، وإنما كان يريد إحداث تدخل مسلح ، فإذا لم تؤده إلى ذلك طريق سياسة سلكها ، فلا بأس بأن يعيد الكرة ويسلك طريقاً أخرى تكون أقصد وأهدى إلى وجه النجاح . لذلك لم يكن الإخفاق الذى لقيه إلا ليزيده إقبالا على العمل ومضياً فيه ، فقد كتب عن رجوع الوزارة[1] إلى رئيسه فى ٣٠ مايو يقول : إن القوم يعدونه إيذاناً بإخراج المسيحيين

(١) يقصد رجوع عرابى إلى الوزارة .

من مصر وارتجاع الأرضين التى يمتلكها الأوربيون أو يرتهنونها ، كما يعدونه إيذاناً بإلغاء الدين العام » ...

وكيف كان يطيق مالت أن يضمن عرابى الأمن فى مصر ؟ وكيف كان يطيق أن ينجح عرابى فيما تعهد به ؟ إن ذلك معناه بطلان كل حجة له ، بل بطلان حجته الوحيدة التى لا يفتأ يرددها ألا وهى اختلال الأمن فى البلاد وقلق الأجانب على أموالهم بسبب تسلط العسكريين ...

لذلك يبالغ مالت فى وصف مايدعى من سوء الحال فى مصر ولا يكتفى بما ذكره فيما أورده روتستين ، بل إنه يبرق إلى حكومته فى نهاية شهر مايو قائلا « ربما وقع تصادم فى أى وقت بين المسلمين والمسيحيين[1] » . ولنا عودة إلى هذه البرقية الخبيثة عند كلامنا على مأساة الإسكندرية ...

ويذكر مالت فيما يذكره لحكومته أن البلاد فى حالة ذعر ، وأن الأوروبيين يغادرون القاهرة أفواجاً ، وأن الوزارات جميعاً ما عدا وزارة الجهادية تكاد تكون معطلة الأعمال ، إلى غير ذلك من المفتريات الفاجرة ...

ويشايع مالت إنجليزى آخر هو كوكسن قنصل إنجلترة فى الإسكندرية الذى رأيناه يلعب دور الشيطان يوم عابدين ، فقد أبرق قبل اليوم الأخير من مايو يقول:[2] « إن كل يوم نتأخره يزيد روح العسكريين الخطرة كما يزيد تحديهم المتواصل للنظام »

ويقول كذلك وما أبعد ما يقول عن الحق « إن ضباط الجيش يحصلون بالقوة على توقيعات من الناس على عريضة بطلب عزل الخديو . وأن رئيس مجلس النواب طلب إلى الأعضاء أن يقروا فى بيوتهم لكى يخلصهم من إرغام الجند إياهم على التوقيع »[3]

وللقارىء أن يتدبر فى قول كوكسن « إن كل يوم نتأخره » ومعنى ذلك أنه كان كصاحبه مالت يستعجل دولته بالعدوان الفاجر على البلاد ...

M, Ê. Cromer (١، ٢، ٣)

بين عرابى والسلطان

ذكرنا أن الحكومة العثمانية أجابت الخديو بأنها مستعدة لإرسال مندوب إلى مصر إذا جاءها من مصر طلب رسمى بذلك ؛ ويقول كرومر فى كتابه إن هذا الطلب الرسمى أرسل فعلا إلى الآستانة ؛ ومهما يكن من الأمر فإن السلطان فى اليوم الثانى من شهر يونو سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا مندوبا عثمانيا ساميا وأمره بالسفر إلى مصر رئيسا لوفد يعالج الحال فيها ؛ ولعل السلطان كان يرى أن هذا الوفد أو هذه البعثة التى اشتهرت باسم بعثة درويش باشا كانت كفيلة بوضع الأمور موضعها الصحيح ، وإزالة أسباب الشكوى من جميع الجوانب على أساس الاستفادة من الخلاف بين الفريقين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر ..

ووصل درويش باشا ووفده إلى الأسكندرية فى اليوم السابع من يونيو ، وقد أقلهم إليها اليخت السلطانى « عز الدين » ، وكان من أهم أعضاء الوفد الشيخ أحمد أسعد أحد ذوى الحظوة والمكانة عند السلطان عبد الحميد ؛ وبلغ عدد أعضاء البعثة ورجال حاشيتها ثمانية وخمسين ...

* * *

ويجدر بنا قبل الكلام على بعثة درويش أن نأتى على تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان منذ بدأت بينهما ، لما لذلك التاريخ من أهمية لعلاقته بما كان من أمر درويش ومسلكه نحو الخديو ونحو عرابى .

كانت أولى خطوات عرابى نحو الاتصال بالآستانة تقابله مصادفة فى اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأحمد راتب باشا ، أى بعد يوم عابدين بشهرين وبضعة أيام ، وقد ذكر عرابى نبأ هذه المقابلة فى موضعين : الأول فى مذكراته والثانى فى حديثه مع مستر بلنت بالشيخ عبيد فى اليوم الثانى من شهر

يناير سنة ١٩٠٤ أى بعد عودته من منفاه بأكثر من عامين وقد أثبت بلنت هذا الحديث فى آخر كتابه ...

قال عرابى فى مذكراته « وفى ١٦ أكتوبر تقابلت مع أحمد راتب باشا أحد رجال الوفد العثمانى ، وأحد رجال المابين المقربين من جلالة السلطان الأعظم فى محطة الزقازيق ، وكان قاصدا بندر السويس ليبحر منه إلى الحجاز بمأمورية فوق العادة ، فركبت معه فى عربة واحدة وعرفته بنفسى ، ثم أخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر إلى آخره ، وإننا لم نشق عصا الطاعة كما يدعى الأوربيون بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير بأن لنا سلطانا شرعيا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية وأن الخديو هو نائب عن جلالته فقط ، من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديو . ولما وصلنا إلى رأس الوادى حضر الضباط والصف ضباط ، واصطفوا صفا واحدا تعظيما وإجلالا للذات المشار إليه ، وهتفوا بقولهم يعيش السلطان ، ثم ودعناه والتمسنا منه عرض إخلاصنا وطاعتنا على الحضرة السلطانية حين عودته إلى الآستانة العلية ، وقام به الوابور بين أصوات المودعين والدعاء له وللذات الشاهانية »

وقال فى حديثه مع بلنت « ولما جاء على باشا نظامى إلى القاهرة ومعه أحمد راتب باشا من قبل السلطان ، انزعج الخديو مخافة أن يحدث تحقيق ، ولما كان محمود سامى قد عاد إلى وزارة الجهادية فقد أمرنا أن نغادر القاهرة ، فذهبت إلى رأس الوادى وذهب عبد العال إلى دمياط ، وبقى على فهمى فى القاهرة ؛ ولم أر على نظامى ولا كانت لى صلة به ؛ ولكن حدث أن كنت فى الزقازيق ذات يوم فى زيارة صديقين لى هما أحمد أفندى الشمسى وسليمان أباظة باشا ، وبينما كنت راجعا بالقطار إلى رأس الوادى ، تصادف أن كان أحمد باشا راتب فى طريقه إلى السويس ليبحر منها فى رحلة إلى مكة ، ووجدت نفسى فى العربة التى كان يجلس بها ، وتبادلنا التحية كشخصين يجهل كلاهما الآخر وسألته عن اسمه وسألنى عن اسمى وحدثنى عن رحلته وعن أشياء أخرى ولكنه لم يشر إلى بعثته للخديو ، وكذلك

لم أسأله عنها . ولكنى أخبرته عن ولائى للسلطان بصفته رئيسا لديننا وقصصت عليه جميع ماحدث فقال خيرا ما فعلتم ، وتركته عند رأس الوادى ، وقد أرسل إلى مصحفا من جدة ولما عاد إلى اسطنبول كتب إلى يخبرنى أنه ذكرنى بخير عند السلطان ، وبعد ذلك تلقيت كتابا أملاه السلطان على الشيخ محمد ضفر ينبئنى فيه[1] بما تعلم » .

* * *

أما عن بعثة على نظامى فإن عرابياً لم يكن له بها صلة لو لا ما كان من لقائه أحمد راتب باشا على الصورة التى أوردناها ؛ وكانت بعثة نظامى هذه هى الوفد العثمانى الأول وقد وصلت مصر فى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٨٨١ ؛ وسميت بعثة درويش بعد ذلك بالوفد العثمانى الثانى ...

نزل أعضاء الوفد الأول بقصر النزهة ضيوفاً على الحكومة ؛ واستقبلهم الخديو فى اليوم التالى مرحباً بهم فى قصر الإسماعيلية ، وأبلغوه تحيات السلطان ، وثناءه على ما يبذل الخديو من همة فى تحسين أحوال البلاد ، وأفهموه أن الغرض من مجيئهم هو تأييده وتثبيت حكمه فى مصر ... وعبر الخديو أمامهم عن عظيم شكره للسلطان وولائه له ، ورد لهم الزيارة فى قصر النزهة ...

وزار على نظامى باشا ديوان الحربية فى مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلاى الثانى واستقبله البارودى بالحفاوة ؛ وألقى نظامى باشا خطاباً بالتركية على الضباط والجند حثهم فيه على طاعة الخديو وعربه لهم البارودى ؛ وأجاب طلبة عصمت بقوله : « إن العساكر المصرية جموعاً وأفراداً على قدم الطاعة والانقياد لولىّ أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه ، فإن كلا منا يعلم أن أول واجب على الجند هو إطاعة ولى الأمر والإذعان لما يأمر به ، وما منا إلا محب للجناب الخديوى ميال بكليته إلى الامتثال لإشارته »

وصافح نظامى باشا الضباط جميعاً وأثنى على مايظهرون من ولاء وحسن نظام .

(١) حرف بلنت هذا الاسم وحقيقته محمد ظافر كما جاء فى مذكرات عرابى الخطية .

وزار نظامى باشا شيخ الجامع الأزهر ونقيب الأشرف وبعض كبار العلماء فلقى منهم جميعاً ثناء على الجيش وشهدوا بحسن نياته وولائه للسلطان وللخديو؛ وكان زعيم الجند أحمد عرابى أثناء ذلك فى رأس الوادى فلم يره نظامى .

ويبدو عجيباً أن نظامياً لم يحاول أن يتصل بعرابى ، ولعل مرد هذا إلى أن السلطان لم يكن يؤيد يومئذ الحركة الدستورية فى مصر ، فقد حارب عبد الحميد مثل هذه الحركة فى بلاده وذلك بتعطيل القانون الأساسى العثمانى وإغلاق مجلس النواب وتشتيت أنصار الدستور والحرية ...

وكانت بعثة نظامى فى الواقع مظاهرة سياسية ، أراد بها الباب العالى أن يستعيد نفوذه ويثبت سلطانه فى مصر ، وقد قوبلت كما أسلفنا بمظاهرة سياسية مثلها من قبل الدولتين .

***
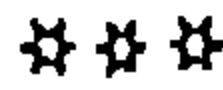
أما خطوة عرابى الثانية نحو الصلة بالآستانة فتتخلص فيما جرى من مكاتبات بين بعض رجال السلطان وبين عرابى .

وقد أشار بلنت فى كتابه إلى هذه المكاتبات بقوله بعد أن ذكر ما كان من لقاء بين راتب وعرابى « وقد أدى ذلك إلى مكاتبات بينهما ، وتحت يدى أصل وثيقتين هامتين وقعت عليهما ضمن إضبارة كبيرة من الأوراق أثناء محاكمة عرابى وهما كتابان أرسلا إلى عرابى بعد تأليف وزارة سامى بنحو ثلاثة أسابيع أى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وهى الوزارة التى كان عرابى فيها وزيراً للجهادية ، أما أولهما فمن أحمد راتب ، وأما الثانى فمن الشيخ أحمد ظافر أحد كبار أشياخ الدين بالقسطنطينية الذى كان فى ذلك الوقت يقوم على شؤون المكاتبات السرية للسلطان ؛ وقد كُتبت هاتان الرسالتان بأمر السلطان شخصياً » . ثم أورد بلنت بعد هذا نص الرسالتين ...

ويذكر عرابى فى مذكراته أن الأصل التركى للرسالتين ضبط بعد موقعة التل الكبير وترجمتا إلى اللغة الإنجليزية ثم أورد عرابى تعريبهما عن الإنجليزية ...

أما عن قصة هاتين الرسالتين فيقول عرابى « ولما رأينا كثرة تردد السيرمالت

قنصل إنجلترة الجنرال على الخديو ليلا ونهاراً واستسلام الخديو لما يوحى به إليه علمنا أن إنجلترة طامعة للاستيلاء على وادى النيل الخصيب عملا بقاعدة التوازن الدولى لتضارع بعملها هذا عمل فرنسا فى استيلائها على ولاية تونس الخضراء . فكتبنا بذلك للحضرة السلطانية ، وحيث لم يكن لنا واسطة فى الآستانة تبلغ عنا مقاصدنا للسدة الشاهانية اتخذنا الشهم المقدام الصادق الأمين على راغب قبودان أحد شبان ضباط البحرية المصرية رسولا ، وكلفناه بإبلاغ عريضتنا إلى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية فصدع بالأمر وأوصل الرسالة إلى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ أحمد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية إلى دار السعادة .

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف ، وكذلك فعل أحمد راتب باشا ، وكان الحامل لهذين الخطابين السيد أحمد أسعد افندى وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذى حضر أخيراً بمعية درويش باشا ، وهاك تعريبهما عن اللغة الإنجليزية من تاريخ المستر برودلى وتاريخ المستر بلنت لأن أصلهما التركى ضبط بعد واقعة التل الكبير وترجم إلى اللغة الإنجليزية » .

وأشار عرابى إلى المكاتبات بينه وبين السلطان فى موطن آخر ، وذلك أثناء سجنه فى مقر الدائرة السنية قبيل محاكمته ، فقد كتب وهو فى السجن ملخصاً لقضيته كلها ليستعين به محاميه مستر برودلى فى الدفاع عنه ، ولقد أثنى برودلى على حضور ذهنه وترتيبه الحوادث ترتيباً منطقياً حسن السياق على الرغم مما كان يحيط به قال عرابى فى هذا الملخص[1] وقد تكلم عن بعثة درويش ما نعربه كما يأتى :

« أشعر الآن أن من واجبى نحو مصر ونحو نفسى أن أذكر فى وضوح عند هذه النقطة صلاتى بصاحب الجلالة السلطان أثناء الحوادث الأخيرة فى هذا البلد . لقد بدأت على هذه الصورة : أرسل طلعت باشا الشركسى فى نوفمبر سنة ١٨٨١ فى رسالة إلى القسطنطينية من جانب الخديو . وقد كلف أن يصور للوزراء الأتراك

(١) How We Defended Arabi. By. A. M. Broadley. P. 121

وللسلطان أن مصر فى حال ثورة ، وأنه هناك اقتراحاً لإنشاء أمبراطورية عربية وأن أحمد عرابى والحكومة البريطانية قد اتفقا فيما بينهما على هذا الأمر ... وقد أحدثت هذه الأشاعات التى نشرها طنمت آثرها فى الآستانة ؛ ولم يكن لنا وكيل هناك يدفع هذه الأباطيل ؛ فاضطررت إزاء ذلك إلى الاتصال بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الدينى ، ذلك الذى عرفته بشهرته ولم أقابله شخصياً قط . فكتبت إليه وحمل رسالتى إليه على راغب مفنداً جميع المزاعم التى عزيت إلينا ، وطلبت إليه أن يشرح للسلطان صادق ولائى ، وشدة تعلقى بالمبادىء الأساسية لديننا المقدس ، تلك التى تجعل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين .

ولقد رد علينا هذا الشيخ فى سرور فحمل على راغب السالف ذكره كتابا باللغة التركية ، قال فيه إنه أتى بين يدى السلطان ما تضمنه كتابى ؛ وإن السلطان أظهر اقتناعه بولائى ، وإنه يأمرنى أن أظل على طاعتى ؛ وأضاف الشيخ أن جلالة السلطان يطالب إلى أن أدافع عن بلدى بكل ثمن ضد الاحتلال ، وإلا كان نصيبه نصيب تونس ، وإنه لايعنيه إسماعيل أوحليم أوتوفيق ؛ وما يعنيه إلا الرجل الذى ينفذ ما يأمر به ؛ وكتب إلى بمثل هذا أحمد راتب باشا الذى قابلته مقابلة شخصية طويلة عندما كان بمصر ، والذى جاء كتابه إلى مع كتاب ظافر »

هذه قصة الرسالتين الخطيرتين بين عرابى وبلاط السلطان ؛ أو تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان قبل بعثة درويش ، ولقد راجعت الرسالتين كما أثبتهما عرابى فيما بين يدى من مذكراته المخطوطة على الترجمة الأنجليزية التى أثبتها بلانت فى كتابه عن الأصل التركى فوجدت التطابق بينهما تاما ، ولذلك آثرت أن أوردهما للقارىء فى عبارة عرابى فيما يلى :

ولنبدأ بكتاب الشيخ محمد ظافر قال « ناظر الحربية المصرية ، سعادتلو أفندم ... قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم إلى جلالة السلطان وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصاً

وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل إخلاص وأمانة ، فإنها وقعت لدى جلالته موقعاً حسناً ، حتى أن جلالته أمرنى أن أبين لكم سروره ورضاه وأكتب لكم كالآتى :

حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا ، فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر ووقوعها فى قبضة الأجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنساويين . فنحن وضعنا ثقتنا فيكم يا ولدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما فى الأمكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك . فكن على حذر دائماً ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أية طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المتخذة فى عصرنا هذا ، واضعاً نصب عينيكم دائماً الغرض الذى ترمى إليه ألا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم ، وخصوصاً يجب عليكم أن تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التى تربطكم بنا .

تلك البلاد هى بلاد مصر التى لها أهمية عظمى لدى إنجلترة وفرنسا وخصوصاً لدى الأولى . ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن فى الآستانة يمالئون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التى تؤدى إلى الخراب وسوء المصير . ومذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن فى مصر ، وجهوا عنايتهم إلى ذلك بنشاط وغيرة فرغبة جلالته الخصوصية هى أن تحذروا من أولئك الخونة الأشرار ومكائدهم وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لا تنام !

وبناء على التلغرافات والأخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية المومأ إليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضاً أن كل تلغراف من تلغرافاته لا يؤيد الآخر بل جميعها على طرفى نقيض . وأزيدكم معرفة بأن على نظامى باشا وعلى فؤاد بك قد أثنيا عليك ثناء جميلا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا ، فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة ، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته

فى أحمد باشا راتب ، فقد كافنى بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم وأخبركم بأنه حيث أن جلالته يعتبركم رجلا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شيء منع وقوع مصر فى قبضة الأجانب وألا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التداخل فى شؤون مصر …

هذا وإن التعليمات التى ستصدر إلى راتب باشا فى هذا الشأن ستكتب لكم على حدتها …

وقد كتب خطابى هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة أحد كتاب جلالته الأخصاء وبعد أن وقعنا عليهما بأختامنا فى حضرته العلية ختمنا على الظرفين …

هذا وأعلمكم بصفة خصوصية وسرية أن جلالة السلطان لا يعول على إسماعيل ولا حليم ولا توفيق بل يعول على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التى تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطته المستقلة فى الآستانة وخلافها ولا يعطى رشوة لأولئك الموظفين الخائنين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجباته ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الأوروبيين وأعمالهم التى يقصد منها إيقاع الفتن والمشاغبات ، ويكون واقفاً لهم بالمرصاد ، ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسها سوء فمن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا الأعظم ويكن مقبولا لدى جلالته .

وإنى أرجوكم ألا تؤاخذونى فى عدم كتابة تفصيلات أخرى بخطابى هذا ، حيث أن أحمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة أيام فقط ؛ ومع ذلك ففى المدة القصيرة نظراً للأقوال التى صرح بها عن حسن مقاصدكم الشريفة وعبوديتكم لجلالته أظهر عظيم ثقته فيكم . هذا وقد وصلنى بالأمس الخطاب الذى أرسلته لى وأتمشم بإمكان إرسال جوابه لكم فى بريد الأسبوع الآتى متضمناً تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أى خطاب من الخطابات التى ترسلونها

فى أيدى الغير واجتهدوا فى الحصول على مراسل مخصوص بيننا تثقون به ، وأما فى هذه المرة فالأوفق هو تسليم رد هذا الخطاب ليد حامله ...

٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ محمد ظافر

ونورد بعد ذلك كتاب أحمد راتب باشا ونصه كما أثبته عرابى كما يأتى :—

إلى ناظر الحربية المصرية أحمد عرابى بك[1] :— قد بلغت جلالة السلطان الأعظم الحادثة التى حصلت بيننا بالسكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والحسمة عند عودتى من الآستانة ، وقد أحدثت تلك الحادثة سروراً عظيما عند جلالته وأمرنى أن أبلغكم محظوظيته اللوكانية ، وأنى بلغت جلالته المعاملة الحسنة التى عوملت بها والإكرام الذى رأته عيناى مدة وجودى بالمحروسة ؛ وجلالته أظهر عظيم محظوظيته حتى أن الرضا الذى حصل عنده أقنع جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم أضعافاً مضاعفة ...

هذا وقد سعى أناس فى جعل جلالته يفتكر أنكم كنتم تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم ولا أدرى كيف ذلك ، ونجحوا فى تغيير فكرة جلالته نحوكم . وأما الآن بعد أن أوضحت لجلالته حقيقة المسألة أقسم لكم أن جلالته متأسف جداً لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلقة التى بلغته عنكم ، والذى يثبت لكم ذلك هو أن جلالته أمر بأن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية :

لا أهمية فيمن يكون خديو مصر ؛ ويجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة ، وفى الوقت نفسه يجب عليه أن يظهر الغيرة التامة والإخلاص فى تأييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من يتربع من الولاة على الأريكة الخديوية ...

إسماعيل باشا وأسلافه أولئك رشوا عالى باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا ونائبيهم

---

(١) كذا « أحمد عرابى بك » فى مذكرات عرابى وفى كتاب بلنت .

الخائنين فى الباب العالى ، وبعد أن أغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وضرب الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فإنهم تداينوا ديوناً ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم فى نظر الدنيا تستدعى رأفتنا الخصوصية بهم ، فالمركز بأكمله فى غاية من الضعف ويحتاج إلى البحث الدقيق وراء الدواء الشافى العاجل ؛ وعليه يهمكم قبل كل شىء منع ماعساه أن يؤدى إلى التداخل الأجنبى وألا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصغوا إلى الاختلافات التى تسبب الخدعة ، بل يجب عليكم فى كل الأحوال منع حدوث التدابير الأجنبية التى يقصد منها إثارة الفتن بكل تيقظ وهذا هى غاية جلالة السلطان المعظم .

وبما أننا سنكاتب بعضنا فى المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا فى أيدى الغير وأسهل طريقة وآمنها التى يمكنكم اتخاذها الآن وهى أن تعطوا مكاتبتكم إلى الرجل الصادق الأمين الذى يحمل هذا وآخر من الشيخ محمد ظافر ، وأزيد على ذلك أن من الضرورى إرسال ضابط سراً يكون عالماً بأحوال مصر ويكون بين أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقدم إلى أعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد ؛ هذا وأرجوكم ردّ هذا بمعرفة الرجل الذى يحمل هذا الخطاب ... فى ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ؛ ياور جلالة السلطان . أحمد راتب » .

***

من هذا يتبين لنا أن الصلة كانت وثيقة بين عرابى والسلطان قبل مجىء بعثة درويش ، وهو أمر له خطورته البالغة ، فقد كان عرابى فى نظر من يعلمون هذه الصلة من شيمته المدافع عن حرية المصريين وعن حقوق السلطان ضد إنجلترة وفرنسا ، فى حين ظهر الخديو بمظهر الناقم على المصريين ما يطلبونه من حرية والمهالىء لسياسة الدولتين المتدينتين وبخاصة إنجلترة .. ولسوف تكون هذه الصلة

أهم ما يدفع به محاميه عنه تهمة التمرد والعصيان يوم يساق هذا المجاهد السيء الحظ إلى المحاكمة ...

ولقد أشار عرابى إلى أهمية هذه الصلة فى تقريره الذى كتبه فى السجن قبيل المحاكمة فقال بعد أن أتم تاريخ هذه الصلة إلى ما بعد بعثة درويش « لم يستنكر السلطان أبداً ما عملنا ، لا فى أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا ؛ بل إن السلطان أيد أعمالنا بالقول وبالعمل ، فكيف أكون مع ذلك متمرداً ؟ ! أليس يعد السلطان فى نظر الأمة الأنجليزية صاحب السيادة على مصر ؟ ! !

وإنا لا نجد فى بيان أهمية هذه الصلة خيراً مما كتبة بلنت فى صددها قال : « إن هاتين الرسالتين وثيقتان لهما من عظيم الأهمية التاريخية أنه إذا قدر لمذكراتى أن تطبع يوما فيجب أن تلصقا بها بنصهما وحروفهما ؛ وإنهما لتفسران كثيراً مما سيحدث بعد ذلك فى يونيو أثناء بعثة درويش ، وكذلك تقيمان الدليل على أنه إذا كان عرابى أخذ على عاتقه وقتئذ وأثناء شهور الحرب مسؤولية حكم مصر حكما ديكتاتوريا فإن ذلك لم يكن بغير مبرر قوى من وجهة النظر الأسلامية ، وهذا المبرر هو أوامر الخليفة إمام دينه فى أن يدافع عن القطر فى وجه الدول المسيحية . وترينا الوثيقتان كذلك لماذا لم يكن عبد الحميد ميالا فى شهر أغسطس إلى أن يطلق على عرابى لفظ المتمرد ؛ وكيف بلغ من السخف نعته بذلك عند المحاكمة ...

وعلى أى حال فينبغى ألا يؤخذ من ذلك أن عرابيا قد جعل من نفسه أداة للسلطان فى أى شيء يتصل بالأدارة الداخلية المستقلة لوطنه ، إن موقفه فى هذه المسألة كان ثابتا لا يتزعزع ، فقد كان يكره الترك وكان على وجه اليقين يرد بقوة السلاح أى تدخل حربى من جانب القسطنطينية ؛ وإن كتاب الشيخ محمد عبده لدليل قوى على صحة هذا الذى أقول[1] ، وهو يشاكل جميع ما أفضى به

(١) يقصد الكتاب الذى أرسله إليه الشيخ محمد عبده بتاريخ ٢٥ إبريل يقص عليه فيه حادث المؤامرة الشركسية ، وفيه أظهر الشيخ مبلغ كراهية المصريين للأتراك .

إلى عرابى نفسه ... لهـذا كان موقفه من بلاط الخليفة موقفاً متقلباً عرضة للتغيير ؛ ولقد كان له صديقان هناك فى شخص أحمد راتب ومحمد ظافر ، ولـكن كان له كذلك أعداء أشداء »

* * *

نعود بعد ذلك إلى بعثة درويش لنبين مبلغ ما كان فيها مما نحن بصدده من صلة بين عرابى والسـلطان ثم لننظر فى الفرص منها وأثرها فى مجرى الحوادث بوجه عام ... .

لخص عرابى علاقته وعلاقة أشياعه بدرويش فى هذه الفقرة التى جاءت ضمن تقريره الذى كتبه فى سجنه قال « وكان أن وصل درويش باشا عند ذلك الوقت ، وبعد أن أجرى تحرياته عن مسلك الجيش أعلن أنه يرى أن الجيش كان مطيعا دائماً وأنه حافظ على النظام العام وأنه لا ملامة توجه إليه وبناء على ذلك فقد طلب من السلطان نحو مائتى وسام للضباط وللمدنيين ، وطلب لى الوسام المجيدى من الطبقة الأولى »

وقد أنعم فعلا على عرابى بهذا الوسام الجليل الشأن . أبرق مستر كارتريت وكيل قنصل الأسكندرية إلى اللورد جرانفل فى اليوم الخامس والعشرين من يونيو يقول [1] « سيدى اللورد ... أخبر الخديو السير أوكلند كلفن أن السلطان منح سموه منحة من الجواهر علامة على الرعاية وحسن النظرة إلى مقامه؛ وأضاف سموه أن السلطان مع الأسف قد أنعم على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر ؛ وأنه أنعم على سلطان باشا بوسام روميلى بيلربى

ولـكن الخديو يقرر أن جميع جهود درويش باشا فى تسكين ثائرة عرابى باشا بالملاينة أو بالقوة قد منيت بالفشل التام ، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهواً وهزواً ؛ ويتمسك عرابى الآن بأن ما يتضمنه هذا الأنعام الأخير عليه من الرضا

---

(١) مجموعة الـكتاب الأزرق الأنجليزى الخاصة بمصر وهى تحت يدى وقد وردت هذه البرقية فى Egypt No 17, «1882» P II

والعفو لا يدع ثمة ضرورة لأن يتخذ خطوات أخرى يبرر بها سلوكه ؛ ويبدو من درويش باشا أنه يتراجع عن أن يبذل أى محاولات أخرى للتأثير عليه »

ويتضح من هذه البرقية مبلغ ما وصل إليه توفيق من الحقد على عرابى والخوف من نفوذه ، وأنه ينظر إلى المسألة كلها نظرة شخصية

ولا ريب أن توفيقاً على الرغم مما أنعم به عليه ، يفطن إلى معنى الأنعام على عرابى ، فهو تأنيب عملى لتوفيق على صلته بالدولتين ، وهو فى الوقت نفسه دليل على أن السلطان يريد أن يقول إنه يرى فى عرابى الدافع عن حقوقه فى مصر ...

وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان فى اليوم الرابع من يوليو وسلمها الخديو بيده لعرابى ، معبرا له عن رضائه عنه وثنائه عليه لأخلاصه فى أداء خدماته وانتباهه إلى ، جبه ؛ وشكره عرابى شكراً حاراً على هذا العطف ؛ كما أبرق عرابى إلى الآستانة رفع شكره إلى السلطان ؛ وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثناءه على حسن سلوكه وإخلاصه لواجبه

وقد أظهر عرابى كياسة ولباقة فى استلام الوسام ، وذلك أنه أبى أن يتسلمه إلا من الخديو حتى لا يكون فى تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدى للخديو (١)

ولم يستشر توفيق فى الأنعامات جميعاً ، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان(٢)

ظن السلطان أنه يستطيع أن يستعيد نفوذه في مصر بالتفرقة بين الفريقين المتنازعين فيها : توفيق ومن يشايعه ، وعرابى وأعوانه ...

لهذا جعل رياسة الوفد لدرويش المعروف بالقوة وبكراهية العناصر الحرة ؛ وجعل فيه أسعد مشيره فى شؤون من يتكلم العربية من رعاياه ومرجعه فى دعوة الوحدة الإسلامية ، واتفق الباب العالى وأسعد على « شفرة » خاصة للمكاتبات

---

(١) محضر التحقيق مع عرابي أثناء محاكمته

(٢) Blue Books E No 17 — P 48

لا يعرفها درويش ، وأفهم أسعد أن بلاين عرابيا ويلقى فى روعه أن السلطان راض عنه وعن حزبه كل الرضاء ، فلا بأس عليه مما عسى أن يجد من غلظة من جانب درويش ؛ وطلب كذلك إلى أسعد أن يطلع السلطان على حقيقة شعور المصريين وبخاصة علماء الأزهر ، فكان أسعد فى الواقع رقيباً على درويش الذى لا يأمن السلطان أن تصله هدايا توفيق ...

ويذكر جون نينيه فيما كتبه عن مذبحة الإسكندرية وقد مهد لها بالكلام عن بعثة درويش أن درويشاً كانت لديه أوامر سرية بأن يعمل على خلع توفيق إذا أمكنه ذلك توطئة لتعيين حليم ...

وأرسل الخديو مندوباً يستقبل الوفد فى الميناء وهو ذو الفقار باشا ؛ وأرسل عرابى رسولا بصفته المهيمن يومئذ على الحكومة إذ كان وصول الوفد بعد سقوط البارودى بعشرة أيام ، وقد أحسن درويش لقاء المندوبين جميعاً الأمر الذى أسخط الخديو أشد السخط ...

وخرج درويش من الميناء يقصد سراى رأس التين فإذا بالشوارع التى مر بها هو ووفده ملأى بالمصريين وقد جاءوا يحيون الوفد ؛ وترجمت لدرويش بعض الهتافات مثل قول المنادين[1] « اللائحة اللائحة » ورد الباقين « مرفوضة مرفوضة »[2] ... ومثل قول المتظاهرين « أبعدوا السفن الأجنبية » ...

ووقعت فى نفس درويش ووفده موقعاً مهيباً هذه الظاهرة القوية ووجدوا أنفسهم أمام دليل قوى باهر على قوة الحركة الوطنية فى مصر ...

وكان عبد الله نديم قد سافر إلى الإسكندرية قبيل وصول الوفد فخطب فى الناس خطباً حماسية ، كانت عظيمة الأثر فى إذكاء الروح الوطنية وإثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الأجنبية ...

وزار الوفد ضريح السيد البدوى بطنطا وهو فى طريقه إلى القاهرة . وقد سافر

---

(١) يقصدون المذكرة المشتركة .

(٢) S, Histoiy Blunt, P, 306

إليها فى اليوم التالى بقطار خاص ، وفى القاهرة نزل الوفد بسراى الجزيرة ...
ومما يذكره جون نينيه عن هذا السفر قوله إن أعوان الخديو أرادوا أن يحولوا بين مندوب عرابى وبين الركوب صحبة درويش فى عربته ، فأخذه درويش بذراعه وأدخله معه العربة ؛ وكذلك يذكر نينيه أن جماعات من المصريين حيت الوفد فى كل من دمنهور وكفر الزيات وطنطا ...

وتلقاهم الخديو بسراى الاسماعيلية مرحباً مظهراً عظيم الحفاوة بهم ؛ ثم رد الزيارة لدرويش باشا بسراى الجزيرة وهناك أظهر له استياءه من حسن لقائه مندوب عرابى ، ومن جفاء لهجته فى مخاطبته إياه فى سراى الإسماعيلية فطيّب درويش خاطره مظهراً أنه ما جاء إلا لتثبيت سلطة الخديو .

وأظهر درويش فى القاهرة عظيم دهشته وشديد نفوره مما رأى من تحمس الناس وجرأتهم وبخاصة علماء الأزهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عرابى ومبادئه ، ولم يستثن منهم إلا الشيخ الأنبابى شيخ الجامع الأزهر والشيخ العباسى والشيخ البحراوى والشيخ السادات (١) الذين آثروا الانحياز إلى الخديو...

وذهب وفد كبير من العلماء إلى درويش باشا ، يحملون مكتوباً موقعاً عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس يطلبون فيه رفض الأنذار الأجنبي وبخاصة ما جاء فيه عن إبعاد عرابى ...

وأغلظ درويش فى مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمد خضير وانتهره ، قائلا « أمسك لسانك فما جئت هنا لأستمع إلى النصائح من أحد ، وإنما جئت لآمر أوامرى » ؛ ثم صرفهم فى جفاء وخشونة ... وفى الوقت نفسه أعطى الحلة العثمانية لشيخ الأسلام ولبعض العلماء ...

وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء ؛ ولكن مالبث أن تبين له خطأه ... فقد اجتمع طلاب الأزهر فى اليوم التالى بسبب ما علموا من إهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات فى جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون خوفهم وسخطهم على الوفد

(١) S H Blunt P, 307

الترك ، وبخاصة أن عدداً كبيراً من الأعيان أرسلوا إليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين ...

ورأى درويش أن عليه أن يصلح ما أفسد ، وأيقن أن لهجة الأمر والنهى لم تعد تجد فى مصر جواً ملائماً لها ، وفطن إلى أنه تلقاء أمة جادّة ، خلعت منذ يوم عابدين عن أعناقها أغلال العبودية ومضت قدماً فى سبيل الكرامة القومية...

وكان الرجل غافلاً يظن أنه كفيل وهو مندوب السلطان أن يلقى الرعب فى قلب كل امرىء مهما علا مقامه ، وفاته أن مصر اليوم غيرها بالأمس ، لأن فيها حركة وطنية تغلغلت فى أقاليمها وشملت جميع طبقاتها ...

وفى يوم السبت الموافق اليوم العاشر من يونيو ، أرسل درويش فى طلب عرابى ومحمود سامى ، وكان حتى ذلك الوقت يظهر أنه لا يحب أن يراهما ...

وقد أورد جون نينيه حديث هذا اللقاء وأخذه عنه بلنت قائلا إنه يثق فى صحته كل الثقة ؛ أما نينيه فيذكر أنه أخذه عن عرابى (١) ، وأنه سمع مثله من البارودى على أن الشيخ محمد عبده قد ذكر عن هذا اللقاء مالا يختلف فى جوهره عن حديث جون نينيه ونحن نورد الروايتين فيما يأتى :

قال جون نينيه « أظهر درويش الودة لعرابى ولسامى وأجلسهما بجانبه تكريماً لهما ثم قال : نحن هنا جميعاً أشبه بإخوة ونحن أبناء السلطان ، وأنا بلحيتى هذه البيضاء أقوم منكم مقام الأب ، وهدفنا جميعاً واحد وهو مقاومة الدخيل والعمل على رحيل الأساطيل ، التى هى إهانة للسلطان وتهديد لمصر ؛ ثم ذكر أنه يجب عليهم أن يعملوا جميعاً لهذه الغاية وبخاصة عرابى والوزارة ليظهروا حماستهم نحو مولاهم وأن خير ما يفعل فى ذلك هو اعتزالهم مناصب الجندية ولو فى ظاهر الأمر فقط ، ولكى يُرضى عرابى السلطان ينبغى أن يسافر إلى الآستانة ليقيم هناك بعض الوقت وأجاب عرابى على ذلك بقوله إنه مستعد لأن يعتزل ولكن الظرف دقيق ولما كان

---

(١) اهمل عرابى الحديث عن بعثة درويش إهمالا ملحوظاً فلم يشر إليها إلا فى عبارة مقتضبة فى مذكراته المخطوطة .

قد أخذ على عاتقه تبعة عظمى هى حفظ النظام والأمن فإنه لا يرضى بأنصاف الحلول ، وأنه إذا اعتزل فإنما يعتزل حقاً ، ولكنه لن يفعل ذلك إلا إذا أخلى كتابة من كل تبعة ، لأنه لا يقبل أن يكون مسؤولا عن أشياء لم تكن له يد فيها ؛ لقد اتهم باساءة التصرف والاستبداد والإرهاب وغير ذلك ، ولذلك فهو لا يدع منصبه إلا إذا أبرئت ذمته كتابة من جميع هذه التهم ؛ وسوف يذهب إلى القسطنطينية بعد هدوء الحال فرداً عادياً ليقدم ولاءه للسلطان .. ولم يكن درويش يتوقع هذه الإجابة ولذلك فقد كرهها ، وتغير وجهه ، ولكنه قال : دعنا نعد المسألة منتهية ولتبرق فى الحال إلى محافظة الإسكندرية وقائد حاميتها أنك اعتزلت بما أنت مكاف به ووضعته فى يدى وأنك وكيلى منذ اليوم ؛ وعند ما يجتمع القناصل والخديو يوم الأثنين فى عابدين سأعطيك ما يخليك من كل تبعة ...

ورفض عرابى رفضاً باتاً أن يجيبه إلى ذلك قائلاً إنه مالم يصل إليه هذا الإخلاء فأنه محتفظ بمنصبه وبمسؤوليته ...

ولم تقدم فى هذا الاجتماع قهوة أو سكائر ؛ وقد أكد لى محمود سامى بعد ذلك هذا الذى أورده عن الاجتماع » ...

وقال الشيخ محمد عبده : « فى يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش عرابى ومحمود سامى لأول مرة فجرى الحديث على ما سنذكره ...

قال درويش نحن جميعاً رجال جند يحترم بعضنا بعضاً وأنتم أولادى لمكانى من السن ، وقد أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته المصرية العزيزة ، وستسهلون على هذا العمل ، أنا أعلم شكواكم ، ستشكون[1] ، صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدونانمتين اللتين تضايقاننا جداً ، فقبل كل شىء يلزمنا إبعادها ؛ هذا ما أتكفل به لو عضدتمونى فيه ؛ أنا أرى جيداً من أى جهة وقع الخطأ ؛ ليس الخطأ من قبلكم يجب التوسل إلى المطلوب مع الحزم والبصيرة ...

---

(١) أى ستقبل شكواكم كما يفسرها الشيخ رشيد رضا

ثم التفت إلى عرابى وقال له : أنت وحدك الآمر الناهى فى مصر ؛ أنت مع كونك لست إلا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب الدول المتحدة ؛ يلزم أن يرين المساهلة معهن ؛ وما بقى مع هذا عملنا فيه بيننا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث إنى مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائباً عنى مأموراً تحت قيادتى ؛ لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب . عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من إخوانك إلى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى مفاوضته معكم ...

فأخذ محمود سامى يترجم المقال وعرابى يسمعه ، ثم قال عرابى : مشروعكم هذا فى غاية الحسن ، وإنا نختاره مع الشكر ؛ لست حريصاً على السلطة التى تريد أن تنسبها إلى . هى سلطة غير مغتصبة ، الأمة هى التى أفضت إلى بها ، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر فى شكواها ... اعترف بأن يديك أبرع من يدى فى العمل لتذليل المصاعب التى أمامنا الآن . سيفى ووظيفتى تحت تصرفك . أنا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك إنما أشترط شرطاً واحداً : أعطنى باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتاباً تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعاً فى كل ماجرى إلى الآن ، كائناً ما كان ، سواء كان ذلك منى أو من إخوانى ، وحيث أنى تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت ثقل ذلك على كاهلى أرجو أن تعفينى من ذلك بطريقة رسمية معروفة ... أطلب ذلك لأن الأحوال إن جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع وإن جرت على العكس من ذلك كنا الجانين .

مالت وكولفن وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام ، وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئاً ونحن نحترم لهم كل شىء .

فوعده درويش بأنالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديو . وإنما طلب أن يعلن هذا القول الذى جرى بينهما من قبلهما جميعاً ، وطلب من عرابى أن يكتب إلى الإسكندرية ذلك

التلغراف ، فأبى عرابى أن يعلن شيئاً إلا بعد أن ينال ذلك الأمر الخاص له من كل تبعة ... » .

هذا كلام الشيخ محمد عبده وقد جاء فى تلك الوريقات التى كان يسجل فيها مايحضره من الموضوعات ليرجع إليها عند الاقتضاء ، كما يعتقد مترجمه الشيخ رشيد رضا ؛ وكلامه لا يخرج فى جوهره عما ذكرنا من كلام نينيه ...

نجد فى هذا الحديث شواهد جديدة على بسالة عرابى وصراحته فى القول ، وعدم فراره من المسؤولية ، وحضور ذهنه وحسن تخلصه ، وتفطنه إلى ما يدور حوله ؛ وما أبعد ذلك عما يرميه به الجاهلون والمبطلون من سذاجة وجهل وتهور وعدم دراية بالأمور ...

ولقد استراب الخديو فى نيات درويش وأوجس فى نفسه خيفة منه ، فمنحه خمسين ألفاً من الجنيهات فضلا عن جواهر تساوى نصف هذه القيمة ، وقد أيدت كثير من المصادر نبأ هذه الرشوة ؛ وما كان أغنى توفيقاً عنها فأن درويشاً لم يكن فى وسعه أن يصنع بالخديو شيئاً ولا هو استطاع أن يزحزح عرابياً عن مكانه ...

وقد أرسل صابونجى[1] رسالة من القاهرة بتاريخ اليوم الحادى عشر من يونيو إلى بلنت فى إنجلترة ؛ وجاء فى هذه الرسالة أنباء لها أهميتها عن الحال يومئذ بوجه عام ...

فمن ذلك الذى ذكره صابونجى ، أن الشيخ عليشاً أحد علماء الأزهر أفتى بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباعه ما يشير به القنصلان ، ولذلك وجب عزله ؛ وأن مصر تؤيد عرابياً ، أقباطها ومسلموها فى ذلك سواء ، وليس يخرج على عرابى من المديرين وعددهم أربعة عشر إلا ثلاثة ؛ وأن الشيخ الأمبابى شيخ الإسلام تمارض كيلا يخرج فى حضور

---

(١) هو القس لويس صابونجى كان سكرتيراً وصديقاً لبلنت وكان يعرف الأنجليزية وقد رافقه إلى انجلترة ثم أرسله إلى مصر فبلغها يوم سفر درويش إلى القاهرة .

درويش بين الخديو والحزب الوطني ... وكذلك ذكر صابونجي أن عرابياً يصمم على الجهاد والمقاومة إلى آخر رمق من حياته قائلا : « إننا إذا متنا جميعاً فسوف يدخلون بلداً خربة وسوف يكون لنا مجد الاستشهاد في سبيل وطننا » .

ويشير صابونجي إلى موقف سلطان فيقول إنه اعتزل عرابياً وانحاز إلى توفيق منذ مجيء السفن ، وليس مع سلطان من النواب إلا تسعة وأنهم جميعاً ومعهم الخديو يتهمون بالخيانة ويطلق عليهم اسم الخونة ...

والأزهر علماؤه وطلابه ما عدا أربعة من الأشياخ في جانب عرابي والحركة القومية ، ويخطب فيهم نديم خطباً حماسية مستشهداً بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ ...

والناس جميعاً يستنكرون المذكرة المشتركة حتى إن الصبية في الأزقة والنسوة في نوافذ المنازل يرددون الهتاف الذي بات مألوفاً وهو « اللايحة اللايحة ... مرفوضة مرفوضة » .

***

ولندع الكلام الآن عن درويش ، فسوف تتبين لنا مقاصده ونياته فيما يأتي من الحوادث حتى يرحل هو ووفده عن مصر في اليوم التاسع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، أي بعد ثمانية أيام من الاعتداء الفاجر على البلاد ...

مأساة الإسكندرية

بدأت هذه المأساة فى يوم الأحد الموافق الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ فى صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين واسمه السيد العجان وبين مالطى من ساكنى الثغر ، هو من رعايا الأنجليز …

كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى وقتاً طويلا متنقلا من مقهى إلى مقهى حتى انتهى به المطاف فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر فى حانة قريبة من « قهوة القزاز » على بعد خطوات من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » ؛ وظهر منه أنه لا ينوى دفع أجرة ركوبه ؛ فلما طالبه صاحب الحمار ، لم يدفع له إلا قرشاً واحداً فتخاصما على الأجر واستل المالطى سكيناً وطعن به الوطنى عدة طعنات فأرداه قتيلا …

وخف رفاق القتيل ليمسكوا بالقاتل ولكنه تولى إلى بيت قريب ؛ وسرعان ما رأى الوطنيون الذين تجمعوا عقب الحادث ، الرصاص يتهاوى عليهم من بعض النوافذ والأبواب القريبة ، فسقط بعضهم صرعى وجرحى ، وعظم الهياج ؛ وتنادى الوطنيون للانتقام ، فأخذوا ما اتفق لهم من العصى والحجارة وأرجل المناضد وانهالوا على كل من يصادفهم من الأوروبيين ضرباً لا يبالون أين يقع …

واستمرت المعركة حتى الساعة الخامسة مساء ، وكان الوطنيون يستنفرون إخوانهم للقتال صائحين « جاى يا مسلمين ! جاى ! بيقتلوا إخواننا »[1] .

ونهبت بعض الدكاكين ، وامتدت الفتنة إلى الشارع الأبراهيمى وإلى شارع الهماميل وشارع المحمودية وإلى جهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية[2] وسقط فى هذه الشوارع جرحى وقتلى من الأوروبيين والوطنيين .

---

(١) أثبت هذه العبارة جون نينيه فى كتابه بنطقها العربى . (٢) رأس التين .

وقد ذكر جون نينيه ، الذى شهد الفتنة بنفسه ، أن عدد القتلى بلغ ثمانية وثلاثين ومائتين منهم خمسة وسبعون من الوطنيين وثلاثة وستون ومائة من الأوروبيين ...

* * *

كان لهذه المأساة خطر أى خطر فى الظروف القائمة يومذاك ، وقد حاول كل حزب أن يتهم الآخر بتدبيرها ، فالأنجليز والخديو يعزونها إلى الوطنيين ، وهؤلاء يعزونها إلى الأنجليز وإلى عمر لطفى محافظ المدينة ومن ورائه توفيق .

وظل الحال كذلك حتى قدم عرابى للمحاكمة بعد التل الكبير فما استطاع خصومه أن يثبتوها عليه وفى أيديهم الجاه والنفوذ .

ورمى محاميه مستر برودلى بالتهمة خصوم عرابى من المصريين وألح فى ذلك ولعله إنما أراد به أن يبعد الشبهة عن بنى جلدته من الأنجليز ...

وفى سنة ١٨٨٣ ، تجددت قضية هذه المأساة فى مجلس العموم البريطانى ، إذ تقدم اللورد راندلف تشرشل يحمل حملة عنيفة على وزارة جلادستون ، فاتهم الخديو ومحافظ الإسكندرية عمر لطفى بأنهما المدبران للمأساة ، وقد جمعت أدلة اتهامه فى كراسة من كراسات الكتاب الأزرق الأنجليزى هى الكراسة « مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٤ » .

* * *

ويجدر بنا أن نتبين وجه الحق فى هذه المأساة ، لما كان لها من عظيم الخطر فى مجرى الحوادث ؛ فننظر هل كانت مبيتة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن بيتها ؟ وماذا كان غرضه من هذا الفعل الأثيم ؟ ...

* * *

كان إجماع الأنجليز عقب المأساة على أنها مبيتة ، وذلك لأنهم أرادوا أن يلصقوها بالحزب الوطنى ، فلما عجزوا عن ذلك راح كتابهم ومؤرخوهم ومنهم

كروص يقولون إن الحادث من الحوادث التى تقع فى المدن كل يوم وأنه ابن وقته فلا تبييت هناك ولا غدر من أحد ...

أما أن هذا الحادث فى ذاته ابن وقته فذلك ما يقبله العقل فى غير صعوبة بل ما يرجحه على الفرض الثانى ؛ وأما أن الفتنة على الصورة التى ذكرناها كانت كذلك بنت وقتها ، فذلك ما يصعب تصوره ؛ على أن المسألة ليست مسألة تصور ، إنما هى مسألة حقائق ، فلننظر فيما يحيط بها مما يصح أن يساق مساق الحقائق أو مساق الأدلة الصحيحة ...

قرر مستر جويس المهندس الأنجليزى ، أن أحد باعة الخضر قال له صباح السبت اشتر وكل فإن النصارى سيذبحون غداً ، ويقول هذا المهندس أن مثل هذه العبارات قيلت لفريق غيره من الأوروبيين .

وقال انجليزى آخر يدعى هيوارت « أعتقد كل الاعتقاد بناء على ما لدى من معلومات استقيتها من عدة مصادر أن مذبحة ١١ يونيو كانت نتيجة لخطة مدبرة » .

وقال ثالث يدعى ألكسندر فيس « بناء على معلومات تلقيتها تباعاً ، كونت رأياً قاطعاً هو أن المسألة قد دبرت من قبل وقد بدأت فى عدة أماكن فى وقت واحد تقريباً .

وقال مستر جورج بلافاتشى « إن معركة يوم الأحد مع المالطيين تلك المعركة التى دبرها من قبل أعوان البوليس قد أدت إلى تلك المناظر المنيفة المرعبة مناظر الفتك والقتل التى كنا نحن شهودها وفرائسها ؛ وإن هذه الحقيقة ألا وهى انبعاث الاضطرابات من ثلاثة أمكنة مختلفة لدليل على أنها كانت مدبرة من قبل »

ويقول فيلبوليس « كنت فى السوق يوم ٨ يونيو الساعة الثالثة بعد الظهر فشاهدت كثيراً من البدو يحملون بنادق . وكانوا يضعونها فى مخازن لتحفظ فيها كما يبدو ؛ وفى اليوم التالى بينما كنت جالساً فى مقهى أقترب منى أحد العرب وهو صديق لى وطلب إلى أن آخذ حذرى ، لأن العرب كانوا سيقتلون الأوربيين إما فى ذلك اليوم أو فى اليوم الذى تلاه »

وكتب لورد جرانفل إلى نائب قنصل الأسكندرية مستر كارتريت يقول « أنبأنى مسيو سينادينو أحد أعضاء مصرف يونانى بالأسكندرية أن كل ما لديه من المعلومات يميل به إلى الاعتقاد بأن الاضطرابات الأخيرة بالأسكندرية كانت من قبل مدبرة »

وكتب إليه بعد ذلك يشير إلى هذه الرسالة مضيفاً إليها قوله « لقد ذكر أن رسالة أرسلت إلى كل قنصل من الأجانب كى يحضر إلى بيت المحافظ ، وأنهم بناء على ذلك اخترقوا المدينة فى وقت الاضطرابات ؛ وقد تبين من البحث بعد ذلك أن رسالة كهذه لم يرسلها محافظ الأسكندرية »

ويقول دكتور جويس « إنى أرى أن هذه المذبحة دبرت من قبل ، وليس هذا شأنها فحسب ، بل لقد نفذت فى مهارة ، وإن الذين خاضوا غمارها كانوا فى الوقت نفسه يبحثون عن أسلاب ، ولقد جمعوا فى الواقع بين العملين فى وقت واحد »

ويقول مستر ستونتون « عند نزولى إلى البر ومرورى فى عربة بشوارع المدينة رأيت الناس فى الطرقات المؤدية إلى الحديقة العامة هادئين جداً لا يبدو عليهم شىء من الشر ؛ ولما بلغتنا أنباء الاضطرابات بعد ذلك بثلاث ساعات وشهدت مئات من الوطنيين مسلحين جميعاً بالعصى والمدى استقر رأيى على أن الفتنة مدبرة »

وقرر مستر چروسچيان ، ذلك الذى اختاره اللورد جرانفل ليجمع أدلة تفضى إلى إدانة عرابى باشا ، أنه وصل إلى أن الحوادث مدبرة ولكنه لم يصل إلى شىء يلصقها بعرابى [1] ...

نورد بعد ذلك بعض ما قاله چون نينيه ، وهو رجل سويسرى أقام بمصر أكثر من أربعين سنة منذ أن قدم فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ،

---

(١) وردت هذه الأقوال جميعاً فى كراسات الكتاب الأزرق الأنجليزى وقد ذكرها اللورد تشرشل أثناء اتهامه الخديو وعمر لطفى مستخرجاً إياها من مجموعة الكتب الزرق الخاصة بمصر .

وقد خالط أهل مصر من جميع الطبقات وعرف أحوالها معرفة وثوق كأنه من أهلها ؛ وقد شهد مأساة الأسكندرية ، وكان يتنقل فى أركان شوارعها أثناء القتال متباعداً حذر النبلة ؛ قال بعد أن وصف ما أحدثه مجىء السفن من هياج « لقد نظر الأوربيون إلى ذلك كأول عمل من أعمال الحرب وأصبح سلوكهم نحو الوطنيين ينطوى على التهديد ... وقد أزعج الهياج الأوروبيين وبخاصة الأنجليز والمالطيين فاتصلوا بقناصلهم يسألونهم عن الوسيلة التى يحمون بها أنفسهم إذا وقع الاضطراب ؛ وقد أخبرهم مستر كوكسن بأن عليهم أن يحموا أنفسهم ؛ وقد علم فى أواخر مايو أو فى أوائل يونيو أن أسلحة أرسلت من اليونانيين فى الأسكندرية ».

وقال جون نينيه يصف القتال : « ولكن على بعد نحو مائتى يارده كان الدهماء يتحركون كالبحر ورأيت طلقات نارية تنبعث من بعض النوافذ ، واتجه القتال سريعاً إلى حيث كنا نقف ، ولذلك تراجعنا حتى إذا كنا على مقربة من مدرسة لازارست ، رأيت أمام أحد المقاهى عدداً من اليونانيين مسلحين بالغدارات وقد أخذوا يطلقونها على الناس فى غير تمييز عقب مرورنا بهم مباشرة ... وعند ذلك رأيت عربة فى داخلها أحد رجال المستحفظين جريحاً أو ميتاً ، ولعله هو الذى طاف بالنذير ، ذلك لأنى رأيت فى إثره عدداً من المسلمين وبعضهم من السود والبدو قادمين من عدة جهات يحملون عصيهم ... ثم اتسع نطاق القتال وإطلاق النار واتخذت طريقى إلى بيتى »

ويقول أحمد رفعت بك ، وهو من كبار الموظفين وقد كان السكرتير العام لمجلس الوزراء فى وزارة البارودى « إن هناك شيئاً واحداً يحمل على اليقين وذلك أن هذا الحادث كان مدبراً من قبل ، فقد قام الدليل على أن عدداً من « النبابيت » قد وزع على الدهماء قبل يوم ١١ يونيو بأيدى بعض العناصر الخفية ، وأن هذه النبابيت ظهرت فى وقت واحد فى عدة أماكن فى المدينة فى نفس اللحظة التى قتل فيها أحد المالطيين حمارا لسبب تافه[١] » ويقول الشيخ محمد عبده

(١) أثبت لورد تشرشل تقرير أحمد بك رفعت فى اتهامه ، وقد أكد رفعت كلامه فى محضر استجوابه عند محاكمته

« فى هذه الحالة رؤى مستر كوكسن نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضرباً خفيفاً عندما أراد أن يركب » (١)

يضاف إلى ما سلف برقية مالت فى أواخر مايو التى سبق أن أشرنا إليها وهى قوله إن تصادما سوف يقع قريباً بين المسلمين والمسيحيين (٢) ، ولقد أشار الشيخ محمد عبده إلى هذه البرقية فى تلك الورقة التى كان يدون بها بعض ملاحظاته بقوله « مسألة تسلح الأوروبيين وإيهام مسيو كوكسن أن حوادث ستحدث » .

هذه كلها أدلة نقطع معها أن هذه المأساة كانت مبيتة قبل وقوعها ، وأنه لو لم يكن حادث السيد العجان والمالطى ، لوقعت المأساة عقب أى حادث من نوعه أو من أى نوع آخر ...

* * *

وإذا كانت المأساة مدبرة على هذه الصورة فجدير بنا أن ننظر من دبرها ، وسبيلنا فى ذلك أيضاً أن نورد الحقائق التى تنهض أدلة على ما نذهب إليه ...

ولما كان عمر لطفى باشا هو محافظ المدينة وقت وقوع المأساة فخليق بنا أن نبدأ به فنستعرض ما كان من مسلكه أثناء ذلك الحادث ، فمن هذا يتبين لنا مبلغ ما يقع على كاهله من تبعة ، إن كان الأمر فيما يتصل به أمر خطأ أو تقصير ، ومبلغ نصيبه من الجريمة إن كان أمر إجرام وتدبير ...

* * *

وإن أول ما نذكره عن عمر لطفى أنه كان بصفته محافظ المدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها كما نذكر أنه منذ استقالة الوزارة لم يكن لأحد عليه من سلطان إلا الخديو ، وذلك حسب الأمر الذى أصدره الخديو عقب استقالة الوزارة بعرض ما كان من اختصاص وزارة الداخلية على القصر ...

ونذكر بعد ذلك أن عمر كان من أنصار الحزب الوطنى حتى منتصف شهر

---

(١) ذكر ذلك جون نينيه كما ذكره بلنت ..

(٢) Blue Book, Êgypt, No. 8, P. 60

مايو ثم انحاز إلى الخديو فيمن انحازوا إليه بعد ذلك ؛ والدليل على ذلك أن الخديو عرض عليه منصب وزير الجهادية بعد سقوط وزارة البارودى ... على أنه ظل إلى ما بعد سقوط الوزارة يتظاهر بالولاء للحزب الوطنى فيحضر حفلات هذا الحزب بالأسكندرية ويحرص على الصلة بكبار رجاله ...

وتذكر بعض المصادر الهامة نبأ برقية من الخديو إلى عمر لطفى على أعظم جانب من الخطورة نعربها فيما يأتى « لقد ضمن عرابى الأمن العام ونشر ذلك فى الجرائد ، وقد تحمل مسؤولية ذلك أمام القناصل ؛ فإذا نجح فى ضمانه ، فإن الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ؛ يضاف إلى ذلك إن أساطيل الدول فى مياه الأسكندرية وأن عقول الناس فى هياج وأن الحرب قريبة الوقوع بين الأوروبيين وغيرهم ... والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابياً فى ضمانه أم هل تخدمنا »[١] .

وكان عرابى فعلا قد أخذ على عاتقه مسؤولية الأمن بعد إعادته إلى وزارة الجهادية وأعلن ذلك رسمياً فى الصحف بعد الاتفاق عليه مع الخديو ...

ويذكر عرابى باشا فى تقرير كتبه لبلنت قوله « قبل كل شىء أرسل الخديو إلى عمر لطفى محافظ الاسكندرية ليحضر إلى القاهرة بقطار خاص يوم ٩ يونيو ؛ وقد تحدث معه الخديو عقب وصوله مدة طويلة ، وأعطاه ما يلزمه من التنبيهات لأحداث فتنة فى الأسكندرية » .

وكان شرطة المدينة تحت رياسة عمر لطفى ، وقد اشترك هؤلاء فى الجرائم بدل أن يعملوا على القضاء عليها كما يقضى بذلك أول واجب عليهم ؛ واشتراك الشرطة فى المأساة ثابت من تقارير أشخاص لهم خطرهم ومن هؤلاء مستر جروسچيان السالف ذكره ، وقد كانت مهمته كما اختاره مالت بأشارة من جرانفل

(١) أكد أحمد رفعت هذه البرقية وقد ذكرها رندلف تشرشل فى اتهامه ، كما أكدها بلنت فى كتابه ، وذكرها الشيخ محمد عبده ويذكر برودلى فى رد منه على كتاب من تشرشل أن اثنين من المسجونين السياسيين أثناء المحاكمة ذكرا هذه الصلة وأن أحدهما عرفها من أحد موظفى التلغراف بالقصر نفسه ...

أن يجمع الأدلة على اشتراك عرابى فى الجريمة ؛ وقد قال جروسچيان إن الشرطة اشتروا قبل الحادث بأيام قليلة عدداً كبيراً من النبابيت وإنهم وزعوها على عدد من سفلة البدو ؛ وكان توزيعها من بيت قريب من مقر الضبطية ؛ ولم تتخذ إجراءات ضد موزعى تلك النبابيت ... كما يذكر جروسچيان أن عشرة من الأطباء الأجانب قرروا أن الجراح جميعاً كانت إما من النبابيت وإما من الحراب ، وكانت هذه هى أسلحة الشرطة ...

وقرر مستر چويس المهندس بالأسطول الأنجليزى « أن المستحفظين أو الخفراء قد أخذوا بنصيب فعال فى الفتنة ، فكانوا يقتلون المسيحيين حين لا يفعل الوطنيون ذلك ، وينظرون فى سكون فى حالة اعتداء الوطنيين » .

وذكر مستر هيوارت وهو من رجال المال وقد أقام سبعة عشر عاماً فى الاسكندرية « أن الشرطة بدل أن يقضوا على الفتنة عملوا على زيادتها ، وأن معظم الجراح كانت من أيديهم ، وأنهم كانوا يوزعون النبابيت على العرب وأن بعض الأوروبيين كانوا يلجأون إلى الضبطية فكانوا يذبحون على مقربة منها أو بداخلها وأنه لولا حضور الجيش فى النهاية لتفاقم الخطب وأن الأوروبيين يدينون بأرواحهم لرجال الجيش ...

ويقول مستر جورج بلافتشى « إن الشرطة قد انحازوا صراحة إلى الوطنيين فانهم كانوا يقودون كثيراً من الأوروبيين إلى مخافر البوليس حيث ينزلونهم من عرباتهم ويذبحونهم بحرابهم » .

وجاء فى رسالة لسكوكسن أرسلها إلى مالت بعد الحادث بنحو خمسة أيام يصف فيها ما وقع عليه من اعتداء قوله « وقد أعنت على النهوض والتوجه صوب مخفر الشرطة حيث لم يتحرك أحد منهم لحمايتى على الرغم من أن الدماء كانت تسيل من جسمى ومن خلفى بعض النابحين من العرب يضربوننى بالعصى » .

ويقول مستر أمبروزرالى « لكى نرى مبلغ خيانة المسؤولين فحسبنا أن نعلم أن الفتنة وقعت فى الساعة الثالثة وأن الشرطة تم على أيديهم معظم حوادث القتل وأن ذلك استمر حتى الساعة السابعة حين وصلت أخيراً فرقة من الجند كانت كفيلة

بأن توقف الفتنة فى ربع ساعة من بادىء الأمر لو أن المسؤولين أرادوا ذلك » .

وقال مستر إدون باربر « جاء عدد كبير من العرب من جميع الجهات ، وقد أمدوا بعدد من الهراوات كان يأتى بها من بيت مرتفع من بيوت العرب ملاصق للضبطية . . وبعد أن أغلقت بابى صعدت إلى أعلا منزلى فشاهدت بعض الأوروبيين قتلى فى الشوارع ورأيت الشرطة يعينون القتلة »[1]

ولقد وقف عمر لطفى موقفاً سلبيا من هذه الحوادث يتضح ذلك فى قول جون نينيه « تصادف أن قابلت عمر لطفى عند الساعة الثالثة ، وكان يمشى فى ملابس عادية ومعه بعض الشرطة فسألته لماذا لم يعمل شيئاً لإيقاف الفتنة فقال إنه كان مع القنصل الأنجليزى وقد اعتدى عليه ، فقلت لم لم تذهب بملابسك الرسمية وتستصحب نحو خمسين من الشرطة الفرسان لتقضى على الفتنة ، فأجاب بأنه لم يعثر على قنديل رئيس الشرطة ؛ فسألته ولم لم يعمل الجند شيئاً ؟ فقال إنهم لم يتلقوا أوامر فلا يستطيعون التحرك ؛ فسألته وماذا فعل القناصل فقال إنهم عقدوا اجتماعاً ؛ فقلت لم لم تبرق بما حدث إلى الخديو وإلى عرابى باشا فأجابنى فى خشونة قائلا « وما شأنك والمسألة عن هذا ؟ » .

ويقول رونستين « ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الأولى بعد الظهر واستمرت إلى حوالى الساعة الخامسة ... حدث ذلك كله ورجال البوليس كانوا تارة لا يفعلون شيئاً وتارة يشتركون فى الفتك والتقتيل ؛ أما عمر لطفى فكان فى أثناء ذلك قد استحوذ على محل التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ؛ ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء عن الفتنة إلا بعد مضى الساعة الرابعة . وحتى فى هذه الساعة قد أمر بأن يقود الجنود عزلا من السلاح . على أن الرجل تولى الأمر بنفسه فبرز فى الساعة الخامسة وأخمد ثائرة الذبحة »

ويقول عرابى « إن عمر باشا وهو المحافظ لم يرسل إلى أى نبأ عن الحادث مع أنه يعلم أنى أخذت على عاتقى حفظ الأمن والنظام فى البلد كله » .

---

(١) استخرجنا هذه الأقوال من الكتاب الأزرق ونكتفى بهذا القدر إذ أن ما بقى على كثرته لا يخرج عن هذا المعنى ...

وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين عمر لطفى وتوفيق مستمرة أثناء الحوادث كما يشهد بذلك أحمد رفعت بناء على ما وصل إلى علمه من موظفى التلغراف بالقصر ولقد كتب وهو فى السجن أنه يستطيع أن يثبت ذلك ولكنه بالضرورة لم يمكن من شىء . . .

وقرر كذلك جون نينيه أن مصلحتى التلغراف فى الأسكندرية والقاهرة قد شغلتا طول الوقت بالاتصال بين الخديو وعمر لطفى .

ويقول الشيخ محمد عبده فى تقرير له كتبه فى منفاه بسوريا « حتماً إن أكثر من اتهموا ومن قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يصيحون بقولهم : « لا لوم علينا فأن سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق »[1]

وجاء كذلك فى تلك الورقة المرقمة التى كان يثبت بها ملاحظاته قول الأستاذ « وعلى القرب من ززينيا رؤى عمر لطفى فسأله سائل كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعنينى . فسأله لم لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهراً سيفك فى خمسين من عساكر المحافظين وبذلك كان الأمر ينتهى ؟ فأجابه انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد ؟ »

وجاء فيها أيضاً قوله « لم يصل الخبر عرابى إلا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل إلا فى تلغرافات المحافظ حتى إن رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات فى اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغرافات المحافظ »

وقوله « ذهب نينيه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب وقام للمخابرة مع إخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابى وكانت الساعة ٤ بعد الظهر »

وقوله « سليمان سامى كان مستعداً لإرسال العساكر إذا ورد له الأمر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لأن الأمر بيد المحافظ » .

(١) عربنا هذه العبارة من كلام الشيخ عن تقرير تشرشل الذى احتواه الكتاب الأزرق رقم ٤ سنة ١٨٨٤ مصر .

وقوله « عمر لطفى باشا طلب إنزال عسكر إنجليزى لعجز عرابى عن الأمن » .

وقال أحمد رفعت « ولما كنت فى الأسكندرية بعد الحادث باثنى عشر يوماً سمعت الناس يقولون فى صوت واحد بأن المحافظ عمر لطفى هو الذى أدى بتفاقم الأمر إلى هذا الحد لأنه كان حاضراً ولم يصدر أى أمر لإيقافه »

هذا ما يتصل بموقفه السلبى من الحوادث ، ذلك الموقف الذى ينطوى على أشد الريبة ، وإنه ليصعب على المرء أن يتصور أن محافظاً فى مدينة ما يرى القتال بين الناس ثم يقف منه كما وقف عمر لطفى من حوادث الأسكندرية ، ثم لا يتهم بأنه إن لم يكن مدبر الجريمة فهو على الأقل راض عنها لأنها جاءت وفق ما يريد ..

على أن جون نينيه يذكر نبأ عظيم الخطورة عن هذا المحافظ ويقول إنه سمعه من سكرتير سيمور أدميرال الأسطول ومؤداه أن عمر لطفى ذهب إلى ذلك الأدميرال فى قارب بعد المأساة بأربعة أيام وطلب إليه أن ينزل جنوداً بالأسكندرية لأن عرابياً لن يقوى على حفظ الأمن ...

وقد رأينا أن الشيخ محمد عبده يشير إلى شيء مثل هذا فى مذكرته ، كما أن أحمد رفعت بك يذكر مثل هذا النبأ فيقول إن الخديو وقت الحادث أبرق إلى لطفى أن يستعين بجنود من الأسطول لا بفرق من الجيش المصرى كأنما يستعجل توفيق الاحتلال ويخشى أن تفلت الفرصة من يده .

ومن أخطر ما يتصل بموقف عمر لطفى أنه كان يعلم قبل المأساة أن الأوروبيين يسلحون أنفسهم ، ثم لم يتخذ أى إجراء احتياطى لما عسى أن يؤدى إليه هذا التسليح ، ولا هو أخبر عرابياً بشيء من هذا أو أخبر الخديو ليتصل بعرابى ؛ وكان علمه بهذا التسليح حقيقة ثابتة فقد ذكر كوكسن فى رسالة منه إلى مالت فى اليوم السادس من يونيو أنه يعد العدة للتسليح ثم قال « ويصح أن أذكر أن محافظ المدينة زارنى منذ أيام وكان معى بعض شركائى وأخبرنى أنه علم أن الأوروبيين يسلحون أنفسهم »[١] .

(١) مصر رقم ١١ ص ٥٣٠

ولننظر بعد ذلك فى موقف الخديو من هذه المأساة ، ولنبين ما عسى أن يكون من صلة بينه وبين عمر لطفى ، وما عسى أن يكون من مغزى لهذه الصلة بينهما …

ذكر اللورد راندلف تشرشل فى قرار اتهامــه الذى أثاره فى مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٨٣ أن الخديو توفيق ، اتصل ببعض البدو فى مديرية البحيرة وبخاصــة قبيلة أولاد على ، وذلك عن طريق مدير الأقليم ابراهيم توفيق ؛ وكان الخديو يرمى إلى غرضين : اتخاذ هؤلاء البدو قوة له يقاوم بها قوة الجيش ثم الاعتماد عليهم فى إحداث فتن وقلاقل تظهر الوزارة بمظهر العجز أمام دول أوروبا ؛ وقد أنفق الخديو على ذلك نحو عشرين ألفاً من الجنيهات وزعت على أشياخ هؤلاء البدو واستقبل توفيق هؤلاء الأشياخ فى مقره وأكرم مثواهم واتفق معهم على أن يدخلوا عدداً من أتباعهم القاهرة عن طريق الجيزة ، وكان يريد أن تقع الفتنة فى القاهرة ؛ ولــكن هؤلاء البدو تخاذلوا عن القاهرة لـما رأوا من يقظة الحــكومة ؛ على أن عمر لطفى قد استعان ببعض هؤلاء فى مأساة الأسكندرية[1] ..

وذكر بلنت فى كتابه هذه المؤامرة وأكدها ؛ وكذلك ذكر أحمد رفعت بك فى تقرير كتبه فى سجنه.

ويقول روثستين « فى هــذا اليوم وقعت بالأسكندرية مذبحة المسيحيين التى دبرها الخديو ومحافظ المدينة عمر باشا لطفى ، وقام بها رجال البوليس وجماعة من الفتاك المستأجرين ، وهى مثل صحيح لما يقع فى زمننا هذا من مذابح اليهود المدبرة .

لقد كان الخديو يعلم حق العلم أن هيجة صغيرة تقع بمصر إنما هى ضالة السياسة البريطانية التى ما برحت تنذر بأشد الويل للأوروبيين إذا لم يقض على « الفوضى » التى يؤيدها حزب سامى وعرابى بنفوذه «العسكرى» . وفى ٣١ مايو ، ليس قبل، أنهى السير إدوارد مالت إلى اللورد جرنفل أن المسلمين والمسيحيين قد يصطدم بعضهم ببعض وقتاً ما ، وقد رأينا أن ذلك أدى إلى تعزيز الأسطولين .

ومع هذا فأن الخديو باطلاع مستشاريه الأوروبيين ، أو بغير اطلاعهم قد عقد

---

(١) الــكتاب الأزرق . مصر رقم ٤ — ١٨٨٤ ص ٢ ؛ وجاءت الأدلة على استعانة الخديو بالبدو فى رقم ٧ ص ، ٧٨ ، ٩٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٤١

النية على أن يتعجل تلك الفتنة المنشودة بشيء من الكياسة ولطف الحيلة إذا كان سير الحوادث الطبيعي لا يعجل وقوعها . ولكن ترى أن تقع هذه الفتنة ؟ إنها إذا وقعت في القاهرة فلا تؤمن عاقبتها على الإطلاق . ففي القاهرة عرابي ورفاقه ، وفي القاهرة الجيش الذي يستطيع أن يقطع دابر الفتنة في طرفة عين ؛ أما إذا وقعت في الأسكندرية فإنها يكون لها شأن آخر . فمحافظ المدينة هو عمر باشا لطفي الذي كان وطني الميل زمناً ما ، والذي رشحه الخديو لنظارة الحربية في فترة اليوم التي أعقبت استقالة وزارة سامي ، فأصبح من مصلحته أن يعمل على سقوط عرابي »

وقال اللورد تشرشل بعد أن أشار إلى برقية توفيق الخطيرة إلى عمر لطفي « إن لدي أدلة على أنه أثناء الأسبوع التالي ، أرسل حيدر باشا ابن عم الخديو مرتين إلى الأسكندرية ؛ وكان يلقاه الخديو عقب عودته تحت ستار الليل ؛ وقد ثبت أن حيدر هذا نفسه كان حاضراً بالأسكندرية يوم الفتنة ومنها سافر إلى القاهرة عقب الحادث مباشرة »

وأورد أحمد رفعت بك مثل هذه الرواية عن حيدر باشا وزاد عليها أنه صحب الخديو بعد ذلك عند سفره إلى الاسكندرية .

ولا يفوتنا ونحن في صدد الكلام عن صلة توفيق بالمأساة أن نشير إلى برقيته الخطيرة إلى عمر لطفي ، التي طلب إليه فيها أن يختار لنفسه ، هل يكون معه أم يكون مع عرابي ...

كذلك لا يفوتنا أن نشير هنا إلى انحيازه لأنجلترة وقبوله المذكرة المشتركة الثانية وإلى رغبته في التخلص من عرابي وحزبه بأي ثمن ...

وقد ذكر أحمد رفعت بك فيما ذكره عن المأساة بعد نفيه من مصر « في يوم الأحد الموافق ١١ يونيو كان المندوب العثماني درويش باشا ، الذي وصل إلى مصر قبل ذلك بثلاثة أيام ، يقطع في عربته الطريق بين قصر الجزيرة وجسر قصر النيل وكان قد لقي في مقره عرابياً باشا والوزراء المستقيلين لقاء طويلا ، وكان متجهاً

إلى قصر الإسماعيلية حيث كان يقيم الخديو ليفضى إليه باتفاق كان يؤدى كافيـل إلى صلح بين الخديو والوزراء .

وعلى مقربة من الجسر قابله طلعت باشا سكرتير الخديو ، وقد أرسله سـيده لينبئه بأن فتنة وقعت فى الأسكندرية وأنها استمرت ثلاث ساعات وأن الأوروبيين والمسيحيين كانوا يقتلون أينما وجدوا ؛ وقد أدى طلعت الرسالة فى مظهر المنتصر وظهر عليه سرور شديد ، وكأنما كان يريد أن يقول إن عرابياً الذى عُمـل من أجله ما عمل كان سبب ما حدث ...

وأرسل درويش باشا أحد الضباط المرافقين له فى العربة ليعود من فوره إلى عرابى ولما كنت حاضراً فقد أفسحت لرسول درويش مكاناً فى عربتى وأخذته إلى بيت محمود سامى حيث كان عرابى حاضراً فى ذلك الوقت . وشاعت الأنباء سريعاً فى المدينة ، وقد انزعج لها الناس جميعاً ، واستولى الحزن على عرابى وصحبه ؛ أما فى قصر الخديو وحده فـكان الفرح واضح المعالم »

وقد جاء فى تقريره وهو بالسجن ما لا يخرج عن هذا ؛ وقد ذكر فى نهايته أنه يستطيع أن يثبت ما يقول بشهادة شهود لا يمكن أن يحوم حولهم شبهة ...

***

ومما هو جدير بالاعتبار أن الخديو عين عمر لطفى باشا على الرغم من سلوكه أثناء الفتنة رئيساً للجنة التحقيق التى كلفت بالبحث عن المسؤولين ؛ وكان أول شىء يجب أن يعمل لو سارت الأمور سيراً بريئاً أن ينحى عمر لطفى لـكى يستطاع سؤاله عن أسباب تقصيره ، ذلك التقصير الذى لا يستطيع أن يمارى فيه أحد ...

وكان الغرض من لجنة التحقيق إلصاق تهمة المذابح بعرابى وحزبه ، فلما لم يتيسر ذلك بأى وجه انسحب الأنجليز كما سنرى من لجنة التحقيق ، ونصح الخديو لعمر لطفى أن يطلب إجازة بحجة السفر إلى خارج القطر للراحة

وبقى عمر لطفى بمصر حتى أعلنت الحرب ؛ ولما عزل عرابى فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو عينه الخديو وزيراً للحربية مكانه

ومما يذكر فى صدد هذا أن يدر باشا كذلك قد ظفر بعقعد بين الوزراء ...

***

ننظر بعد ذلك فيما كان من أمر عرابى وحزبه تلقاء هذه الفتنة ؛ ولنبدأ بما ذكره روثستين فى هذا الصدد قال « وأعجب ما يتصل بهذا الحادث وأغربه أنهم حاولوا فيما بعد أن يجعلوا لعرابى يداً فيه مع أنه قاسى من جرائه مالم يقاسه غيره . فزعموا أنه ناسج برد المؤامرة لحمته وسداه ، والآمر بالمذبحة ، والناهى رجال الحامية عن التعرض لها . ولكن التهمة تطايرت بشكل يرثى له عندما أدركوا أن انجاح فى الأمر قد يزيح الستار عمن قاموا حقيقة بتلك الفظيعة المنقطعة النظير . ثم ظهرت الحقيقة على الرغم من ذلك كله ، وكان الفضل فى ظهورها راجعاً إلى مجهودات المستر بلنت . وفى سنة ١٨٨٣ بسط اللورد رندلف تشرشل لأعضاء البرلمان الأمر بأجمعه » .

ونحسب أن المسألة واضحة كل الوضوح فى بعد عرابى وحزبه عن هذه المأساة فما لا ريب فيه أنها موجهة ضدهم ، فقد ضمن عرابى الأمن ولا يمكن أن يطعن نفسه بنفسه فيأتى بما يهدم كل ما يدعى ؛ كذلك ما كان من الممكن أن يقف سليمان سامى قائد حامية المدينة مكتوف اليدين من المأساة لو أنه أحيط علماً بها وقد علم أن تبعة الأمن ملقاة على عاتق عرابى ...

وقد أرسل كوكسن برقية إلى مالت عقب إعادة عرابى إلى الوزارة يصف الأسكندرية فقال « كل شيء هنا هادىء . والسلطات المحلية تؤكد لى أنه لا خوف من وقوع اضطراب . وقد تلقت فرق الجيش رداً من القاهرة اتفقت بناء عليه أن تظل ساكنة فى الوقت الحالى »

ولم يكن لعرابى من سلطان على عمر لطفى إذ كان هذا بعد استقالة البارودى يتلقى الأمر من الخديو مباشرة ؛ وقد ثبت أنه لم يتصل بعرابى عند وقوع المأساة حتى يمكن أن يقال إن عرابياً تراخى فى الأشارة عليه بما يجب أن يعمل

هذا وقد أعاد الجيش الأمن إلى المدينة بأمر من عرابى بمجرد أن علم بالنبأ ؛

ومما هو جدير بالنظر أنه لم يحدث بعد ذلك فى المدينة حتى وقعت الحرب أى شغب منذ أن تدخل الجيش وفطن الحزب الوطنى إلى الدسيسة

ولقد كان وقع النبأ أليماً فى نفس عرابى ونفوس أصحابه : حتى إن عرابياً ظل صامتاً مكتئباً يضغط بيده على قلبه ويتنهد تنهدات طويلة [(١)]

واهتم عرابى بالتحقيق اهتماما كبيراً يتضح ذلك فيما أرسله إلى سليمان سامى إذ يقول « لست تجهل أهمية مركزك فى الوقت الحالى فيما يتصل بلجنة التحقيق ، وذلك لأن أعضاء اللجنة ليسوا كما تعلم مساوين فى العدد لأولئك الذين يهمهم شرف الجيش والأمة ؛ وهذا يجعل من الضرورى أن تتخذ كل الحذر أثناء التحقيق وأن تعمل على كشف الدافع الحقيق إلى هذه الفتنة »

والأمر كما نذكر لا يحتاج إلى كثير من القول ولا إلى قليل لبيان موقف عرابى وحزبه : فإذا أراد المرء أن يبحث عمن ارتكب جريمة ما فلينظر من له مصلحة فى اقترافها : ولقد كان فى هذه المأساة الضرر كل الضرر على عرابى وعلى قضية الحزب الوطنى

٭ ٭ ٭

يأتى بعد ذلك الكلام عن موقف الأنجليز من المأساة ، وأول ما نذكره أن ذلك المالطى الذى قتل السيد العجان كان أخا لخادم مستر كوكسن ؛ وقد يكون ذلك من قبيل المصادفات ، ولكنه لا يمنع من القول بأنه تجرأ على الطعن لما كان يعلمه من نية مبيتة بينه وبين أشباهه من المالطيين ...

وكذلك نذكر أنه كان بين القتلى رجل يدعى مستراكيت وكان خادماً للسير بوشمب سيمور أدميرال الأسطول وقد أقسم هذا الأدميرال العظيم الذى جاء لضرب الأسكندرية أن يثأر من أهل المدينة لمصرع خادمه [(٢)]

على أن هناك من الشبهات والقرائن ما هو أهم وأقوى من هاتين القرينتين ؛

---

(١) مما كتبه صابونجى إلى بلنت عقب الحادث ...

(٢) S, H, Blunt, P, 317,

وحسب المرء أن يقلب صفحات الكتاب الأزرق ليرى أنه تلقاء يقين لا يخالطه شك

ولقد أشرنا إلى بعض ما كان يدبره مالت وكوكسن وأشياعهما ؛ ونكرر هنا الأشارة إلى برقية كوكسن الخبيثة بأن تصادماً سوف يقع بين المسيحيين وبين المسلمين ، وكذلك نعيد الأشارة إلى ما أرسله مالت إلى جرانفل فى اليوم السابع من مايو ومؤداه أنه لابد من حدوث ارتباكات قبل تسوية المسألة المصرية وأن الأصوب استعجال هذه الارتباكات لا تأجيلها (١)

ونعود بالقارىء إلى ما سقناه من أدلة على أن المأساة مدبرة وبخاصة تسليح الأوروبيين أنفسهم ، ولنبسط القول بعض البسط فى هذه المسألة ، فنقول إن كوكسن كان دائب السعى فى تسليح الأوروبيين وبخاصة الأنجليز كما هو ثابت صراحة فى الكتاب الأزرق ، وقد اتصل بالسير سيمور أكثر من مرة كما اتصل بالسير إدوارد مالت مرات ، وكان يقول لمالت كل مرة إنه يحرص على سرية هذا التسليح مخافة أن يحدث ذعراً إذا عرف ، والواقع أن الغرض منه كان تبييت الغدر حتى تحين الساعة المقصودة ...

وليس يخفى ما ينطوى عليه هذا التسليح من تحريض على الفتنة بطريق الأيحاء ، ولعل ذلك ما دعا مالت إلى شىء من التحفظ ليفلت من التبعة ويتضح هذا التحفظ فى برقية منه إلى اللورد جرانفل يوم الفتنة بالذات إذ يقول « لى الشرف أن أذكر لفخامتكم أن قنصل السويد العام وصل اليوم من الأسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع العام عن الأوروبيين ورغب فى موافقة ممثلى الدول عليه ، وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف تمهيدا لهذا الدفاع عمل بالغ الخطورة ، وأنه بجانب ذلك عمل فى ذاته يفضى إلى التصادم فى أى وقت ؛ وعلى ذلك فقد اتصلوا بقناصلهم كيلا يشاركوا فى شىء من هذا ؛ وبناء على ذلك أبرقت إلى مستر كوكسن الا يشارك بعد الآن فى شىء منه ، وفى

---

(١) Blue Book, Egypt, No 7, P, 107

حال ما إذا خيف الخطر على البريطانيين فعليه أن يعتمد على مساعدة الأدميرال وأن يعمل حسبما يشير به من نصائح ؛ ولما وجدت الأمر يقضى أن تبقى تعليماتى سرية إذ أنها تتصل بالرجوع فجأة عن خطة باتت مملومة إلى حد ما ، فقد أشرت على مستر كوكسن بأن يجعل ما سلف من الأمور السرية وفى الوقت نفسه عليه أن يحاول أن يقضى على المخاوف بأن يذيع أنه ليس ثمة من نزاع بين الوطنيين والأوروبيين ، وأن المفاوضات فى الوقت الحالى فى يد درويش باشا المندوب العثمانى الذى يعمل باسم السلطان . وطلبت إلى مستر كوكسن أن يطلع على هذه التوجيهات الأدميرال السير . ب . سيموز »

وأدى من هذا التسليح إلى إثارة الشبهة موقف الأنجليز من التحقيق الذى أزممت وزارة راغب باشا إجراءه عقب تأليفها ...

أراد الأنجليز أن يعزوا هذه المأساة إلى عرابى ، ولم يعنوا بالبحث عن الحقيقة فى ذاتها ، وقبلت ضمائرهم أن يتجهوا هذا الاتجاه وهم الذين طالما عابوا على الشرقيين انحطاطهم وتفاخروا عليهم بمدنيتهم ؛ أرسل جرانفل إلى مالت يقول له « أطلب إليك أن تتخذ الخطوات التى تؤيد هذا الدليل وبخاصة ما يتصل منه بسلك نديم ووكلاء عرابى وعلاقة قنديل بعرابى »

ثم تلقى كارتريت نائب قنصل الأسكندرية من جرانفل برقية بتاريخ ٢٤ يونيو وفيها يقول « لقد ذكر فى الصحف العامة أن راغبا باشا أمر بأجراء تحقيق فى الاضطرابات التى وقعت بالأسكندرية يوم ١١ الحالى ؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالة الملكة ترغب منك أن تقف بمنأى عن هذا التحقيق ، وعليك أن تخبر قنصل جلالتها بما تلقيت من توجيهات فى هذه المسألة »

ونفذ كارتريت ما أمر به وأغرى زميله القنصل الفرنسى بأن يسلك مسلكه وكان سبب انسحاب هذين من لجنة التحقيق أن اللجنة أرادت أن تفتش منازل الأوروبيين والوطنيين على السواء ؛ وكان أولى بهما لو أرادا إنصافا أن يزدادا إطمئنانا إلى عدالة اللجنة بهذا القرار وأن يجعلاه سببا لانضمامهما إليها لا لابتعادهما عنها ...

وعرض راغب باشا على الأوروبيين أن يؤلفوا لجنة جديدة يحدد عملها فرفض كارتريت هذا العرض وأيده جرانفل فى رفضه .

وفى الوقت نفسه طلب إلى كارتريت أن يجمع المعلومات لحسابه هو وبخاصة ما يتصل منها بمسلك وزارة الجهادية تجاه الحادث وعما حصل من تأخير فى إرسال الجنود إلى أمكنة الاضطرابات[١]

علق اللورد رندلف تشرشل على ذلك بقوله «وهكذا نرى أن الاضطغان المتعمق فى نفس اللورد جرانفل على الحزب الوطنى ، وأن الاعتقاد القائم على غير أساس منه ومن السير إدوارد مالت بأن المذابح كانت من صنع الحزب العسكرى ، وبأن عرابيا وأصحابه أرادوا أن يطمسوا الحق بأى ثمن (وقد كانوا فى الواقع يعملون على إبرازه) ... نرى أن ذلك كان سببا فى صد التحقيق عن وجهه ، ذلك التحقيق الذى أجرى عقب الفتنة مباشرة وكان صنيعا فذا من عرابى باشا ؛ وفضلا عن ذلك فإنه كان من الأهمية بمكان عظيم أن يعقب التحقيق الفتنة مباشرة لا ابتغاء الوصول إلى معرفة مدبرى الفتنة فحسب ولكن لمنع ما قد يعقبها من ظلم ، وكان التحقيق عقب الحادث هو الوسيلة فى ذلك الوقت فقط التى بها يمكن الوصول إلى أدلة يوثق بها ؛ وليس من ريب فى أنه بناء على تعطيل التحقيق على يد اللورد جرانفل قد عوقب كثير من الأبرياء ومن سيىء الحظ بالموت والنفى والسجن » .

وثمة حقيقة أخرى جديرة بكل اعتبار فى صدد الكلام عن سياسة الانجليز فى المأساة وهى خليقة بأن تثير أكبر الشبهات ، وذلك أنه ما من برقية أو رسالة بين الخديو ومالت أو بين مالت وسيمور أو بين عمر لطفى والخديو ، عما كان يحدث أثناء الفتنه ، ما من شىء من ذلك أثبت فى مجموعة الكتاب الأزرق ، ولا يعقل بأية حال أن المخابرات انقطعت بين هذه الجهات أثناء وقوع الاضطرابات .

وحقيقة أخرى جديرة بالنظر ، وقد سلفت الأشارة إليها فى معرض آخر وتلك هى إطلاق النار من النوافذ على الوطنيين بمجرد مقتل السيد العجان على يد ذلك

---

(١) Egypt No. 17 P. 61 .

الالطى الذى هو شقيق خادم كوكسن ، فكأن الأجانب أعدوا هذا الحادث إيذانا ببدء ما سبق به الاتفاق …

ويتصل بذلك ماذكره چون نينيه فى قوله « وفى طريق قابلت مستر كوكسن فى عربة وأخبرنى أحد الواقفين بجانبى أنه كان فى بيت أحد السالطيين أثناء إطلاق النار ، وأنه اعتدى عليه عند خروجه من ذلك البيت لأن الدهماء عدوه مسؤولا عن إطلاق النار » .

ولا يفوتنا كذلك أن نشير إلى مساعى مالت وكوكسن بوجه عام ضد وزارة البارودى وضد عرابى منذ قامت هـذه الوزارة ؛ ومزاعمها عن تسلط الحزب العسكرى ، ورغبتهما الملحة فى إسقاط تلك الوزارة التى أعلنت الدستور وقضت على نفوذ الرقيبين الأجنبيين ، والتى زادت روح الوطنية تأصلا فى نفوس المصريين بحيث بات يخشى الأجانب استعصاءها على المقاومة لو تركت وشأنها ؛ ولقد ازداد غضب مالت وكوكسن بصفة خاصة منذ عودة عرابى إلى الوزارة بعد سقوطها والتجاء الأجانب والوطنيين إليه لحفظ الأمن ، وإعلانه أنه يأخذ ذلك على عاتقه ؛ وواضح أن نجاحه فيما تعهد به إسقاط لحجتهما من أساسها ، وقضاء على محاولتهما الشيطانية لتنفيذ السياسة المرسومة ، سياسة احتلال مصر …

***

والآن بعد أن أثبتنا أن المأساة مدبرة ، وبعد الذى عرضناه من مسلك عمر لطفى ومن ورائه الخديو ، ومسلك الأنجليز قبل المأساة وبعدها ، يمكننا القول فى غير أدنى شعور بالحرج أن المأساة كانت من تدبير مالت وكوكسن وقبيلهما من شياطين الاستعمار ، وأن عمر لطفى كان شريكا لهما فيما دبرا ، إن لم يكن بالتواطؤ الصريح فبالموافقة الضمنية ، كمن يعلم سلفا أن نارا سيشعلها بعض الجناة فيظل يرتقبها لأن له مصلحة فى إشعالها ، حتى إذا اندلعت ألسنتها تركها تأكل كل شىء ؛ ويزيدفى تبعته أنه كان بحكم منصبه المسؤول الأول عن الأمن فى المدينة .

والحق عندى أن كوكسن ولطفى كانا فى الشر سواء ؛ ولا يقل أحدهما تبعة عن صاحبه فى تدبير هذه المأساة ...

ولا يستطيع منصف أن يبرىء عمر لطفى إلا إذا استطاع أن يبرىء كوكسن ومالت ، ولن يبرأ هذان إلا إذا أدين عرابى وأصحابه ، وهو مالم يستطع أعداء عرابى بكل ما وسعهم من جهد أن يصلوا إليه ...

قال دى فرسنيه فى كتابه المسألة المصرية « وقعت حوادث الأسكندرية المشؤومة إثر نزاع بين وطنى ومالطى ، وكان المعتدى هو المالطى إذ قتل المصرى بيده فأدى ذلك إلى اجتماع عدد كبير من الدهماء من عرض الطريق ، فأطلق عليهم الأجانب النار وهم متحصنون فى نوافذ بيوتهم فى شارع القرير وكانت قد وزعت عليهم الأسلحة من قبل ، فأصابوا الوطنيين بكل سهولة وقتلوا منهم عدداً كبيرا على أن الجنود المصريين لم يتأخروا عن أداء ما يجب عليهم حينما حضروا ؛ وإن جاء حضورهم متأخرا ، حيث أنهم لم يظهروا فى الميدان إلا بعد أن صدرت أوامر عرابى إليهم ، ولم يصل خبر الفتنة إلى عرابى فى حينه إذ كان بالقاهرة ، وكيف كان يصل إليه نبأ الفتنة فى حينه وكان تلغراف الأسكندرية فى يد عمر لطفى ؟ »

قال الشيخ محمد عبده « وفى يوم هذه الحادثة توجهت إلى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام ؛ ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون إلا مايسر الخديو ، فإذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم[1] .

وبعد اثنى عشر يوما من هذا التاريخ كنت فى الأسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون إن المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة إلى هذا الحد لأنه كان مقيما فى البلد ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب إلى مكان الفتنة إلا بعد مضى وقت ،

---

(١) ذكر أحمد رفعت بك شيئا كهذا عن موظفى السراى .

ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع أنهم كانوا على مقربة منه ، وأجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ؛ وعلمنا أيضا أنه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان إلى آخر وإذا بأروبى فى شباك وفى يده مسدس فقال أحد البدو : أأرى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال لهارمه ، فأطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ؛ وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه فى ذلك اليوم الأسود ...

وقد سمعت أيضا أنه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وأنه أشار إلى البوليس أن لا يتداخلوا قائلا دعوا أبناء الكلاب يموتون .

ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى أسباب هذه الفتنة عمر لطفى عن شىء مما حدث مطلقا بل كان الخديو أوعز إليه بأن يستعفى بدعوى المرض .

كان عمر لطفى محافظ الأسكندرية زمن الفتنة ، وقد أهمل أمر القيام بحفظ الأمن العام على أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل أنه هو المحرض عليها ، فإذا كان فعل ما فعل إطاعة لأمر عرابى كما ادعى ، مع أن وظيفته تابعة رأسا إلى الخديو — لأن الخديو أصدر أمرا مخصوصا صرح فيه أنه بعد استعفاء وزارة سامى أفضت أمور الداخلية وشؤونها إلى السراى — فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحربية جزاء لطاعة عرابى وعصيانه لسيده الخديو ؟ وإذا كان الأمر إهمالا منه فكيف يصح مع إهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيرا للحربية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا عما جرى مع أنه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

لاريب فى أن استقراء سير الحوادث ، يظهر أتم الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب هذه الفتنة ، أى مذبحة الأسكندرية . »(١)

ويعتقد برودلى اعتقادا جازما بأدانة عمر لطفى ، فقد كتب إليه اللورد تشرشل يسأله رأيه عقب عودته من مصر ليقدم هذا الرأى إلى جلادستون ، فكتب برودلى

---

(١) تعريب ما ذكره الشيخ للمستر برودلى المحامى أثناء المحاكمة حسب ما أورده الشيخ رشيد رضا وهو يطابق الأصل الأنجليزى .

إليه ، بأنه سأل فى السجن اثنين من كبار السياسيين النابهين لا ترق إليهما شبهة ولا تخفى عنهما حادثة[١] فتوافقت روايتاهما بما يدين عمر لطفى وكانا كل فى معزل عن صاحبه فى السجن بحيث لا يمكن التقاؤهما ...

أما كوكسن فقد لعب فى هذه الفتنة دور الشيطان ، ويقينى أنه لو سار التحقيق كما أراد عرابى لأخذ بجريمته ، ولكن توفيقا بادر بتعيين عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولم يعارض عرابى فى هذا رغبة منه فى المحافظة على المودة بينه وبين الخديو ، وقد أقسم كل منهما قبل ذلك بأيام على أن يحمى الآخر كما يحمى نفسه ؛ ثم أحبط الأنجليز عمل اللجنة بانسحاب مندوبهم منها فنجا كوكسن من الاتهام .

* * *

أما الغرض من تدبير هذه المأساة فيتبين لنا فى تتبع سير الحوادث صوب الهدف المقصود ؛ وحسبنا أن نذكر الآن أنها كانت من أقوى الضربات التى أنزلت بالحركة الوطنية القومية وكانت فاتحة المآسى التى سوف يأتى بعضها فى إثر بعض حتى تقع المأساة الكبرى يوم التل الكبير ...

(١) كان يقصد الشيخ عبده وأحمد بك رفعت وقد حذف اللورد اسميهما وقتئذ خوفا عليهما

العدوان الفاجر

هذا هو العدوان الذى لا نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه أو أشد منه فجورا ، والذى سوف تنطوى العصور ويظل فى تاريخ الأنسانية من أبلغ الأمثلة على ما يفعل الأقوياء بالضعفاء ، وفى تاريخ الاستعمار المثل الرائع على ركوب أية وسيلة إلى الغاية فى غير مبالاة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة

هذا العدوان الفاجر الشنيع هو إطلاق المدافع من الأسطول الأنجليزى على مدينة الأسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وإنه لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جميعاً أن يذكروه ، كلما تحدث متحدث عن الضمير البريطانى وعن الشرف البريطانى وعن الحضارة الأوروبية بوجه عام فى هذا الشرق المسكين ...

وإنه لعدوان خليق بأن يخجل منه ساسة الأنجليز إذا نسوا أطماعهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من غدر وفجر

وإنه لثأر جدير بكل أب وبكل أم فى هذا الوادى أن يتحدثوا به إلى أبنائهم وبناتهم ، إذا أرادوا أن يغرسوا فى نفوسهم الغضب لكرامة وطنهم ، والاشمئزاز والنفور من الغاصب الدخيل ...

وما ندرى بأية وسيلة نصف ما نحس به تلقاء هذا البغى الأكبر وليس فى مقدورنا أن نعبر بالكلام عما يعتلج فى أطواء الشعور ...

***

قبل الخديو المذكرة المشتركة كما أسلفنا ، واستقالت وزارة البارودى فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ؛ وظن المتربصون بمصر أن الحزب الوطنى وأن الحركة القومية قد انتهى أمرهما بسقوط الوزارة ولكنهم ما لبثوا كما بينا أن

تبينوا أن الأمر أكبر مما يظنون ، واضطر الخديو إلى إعادة عرابى بعد يومين وزيراً للجهادية لحفظ الأمن والنظام

ولكن مالت بدل أن يكف عن دسائسه أمعن فيها ، وبات همه الشاغل استعجال الحوادث التى تفضى إلى احتلال مصر ؛ وكان جرانفل بالضرورة وإياه على اتفاق ، وكان من ورائهما جلادستون أحد دعاة الحرية والمشهرين بنصرتها !

وكانت السياسة الأنجليزية قد حددت سياستها نحو مصر وتتلخص هذه السياسة فى الانفراد باحتلال مصر وتحين الفرصة لذلك ، وهى فى الواقع سياسة قديمة ترجع إلى حملة نابليون على هذه البلاد ؛ وقد نشطت نشاطاً عظيما منذ فتحت قناة السويس ...

وكان أمام إنجلترة فى الخارج عقبتان : موقف فرنسا من المسألة المصرية ، وحق تركيا صاحبة هذه البلاد ؛ وفى الداخل عقبة كؤود هى الحركة القومية بزعامة عرابى ؛ وكان سبيلها فى الخارج المراوغة والتربص وسوف يكون سبيلها فى الداخل البغى والعدوان ...

ولتمض إنجلترة إذاً فى مراوغتها بعد المذكرة المشتركة ، ولتحرص أشد الحرص كما حرصت من قبل على أن تظهر لفرنسا والدول جميعاً أنها لا تنوى العمل بمفردها ، ولتدع تركيا إلى التدخل ، ولتطع فرنسا فى كل ما تدعو إليه ؛ لتفعل إنجلترة ذلك جميعاً فليس بضائرها شىء منه ، بل إنه لستار تختفى وراءه حتى حين ؛ ولن تعدم ذريعة لانفرادها بالتدخل حين تحين الفرصة ، وإنها لتفيد من تردد تركيا وتراخيها إذ يهيىء لها ذلك أن تقول إنها اضطرت آخر الأمر أن تضطلع بحماية الأجانب ومصالحهم وأموالهم فى مصر . .

وكانت إنجلترة منذ إرسال المذكرة المشتركة الثانية إلى وزارة البارودى تزعم دائماً فى صلتها بالدول وبخاصة فرنسا خطورة الحال فى مصر وتبالغ فى الأنذار والتخويف ..

وبعد سقوط البارودى بأربعة أيام أرسل دى فرسنيه إلى السفير الفرنسى

بلندن يقول « لم يعد من أمل فى حل سلمى بالضغط الأدبى القائم على وجود الأسطولين الفرنسي والأنجليزى وعلى المساعى الطيبة التى يبذلها عمال الدولتين فى القاهرة »

واقترح فرسنيه أن يعقد مؤتمر دولى لحل المسأله المصرية ، وكان غرضه من هذا كما فعل حين اقترح مجيء السفن إلى الأسكندرية أن يحول بين إنجلترة وبين الانفراد بالعمل فقد بات يتوجس خيفة من سياستها ...

وقبلت إنجلترة الاقتراح وأخذت تعمل فى نشاط لتنفيذ الفكرة مدعية أن الأحوال الداخلية فى مصر تتطلب عملا عاجلا حاسماً . ولن تخيب إنجلترة فى أن تجعل من المؤتمر أداة تنتفع بها فى إنفاذ ما تبيته ...

ومما يدل على حيرة السياسة الفرنسية أن فرسنيه كما أسلفنا كان يرى إبان أزمة وزارة البارودى أن لا داعى إلى التدخل فى شؤون مصر وأرسل رأيه هذا إلى جرانفل على لسان سفيره فى لندن

على أنه ما لبث أن رأى جرانفل يخطو خطوة صوب الانفراد بالعمل ، وذلك أنه كتب إلى اللورد دوفرين فى الثامن والعشرين من مايو أن ينصح للسلطان بمؤازرة توفيق وأن يرسل فى طلب عرابى وزميليه والبارودى إلى القسطنطينية ؛ وكتب فى نفس الوقت إلى مالت كى يشير على الخديو بطلب مندوب عثمانى يحافظ على حياته ... ثم إنه بعد ذلك أخبر فرسنيه بما فعل (١)

وصرح السير إدوار مالت قبل ذلك بيوم أنه لا يعد نفسه مقيداً باتباع الوسائل المنطوية على اللين والاعتدال والتى تضمنتها المذكرة المشتركة الثانية (٢)

وبعث أدميرال الأسطول الأنجليزى إلى حكومته بعد ذلك بيوم ينبئها أن مصر تنشىء طابية جديدة تجاه إحدى سفن الأسطول ويطلب إليها زيادة السفن وقد أجابته حكومته إلى طلبه دون أن تستشير فرنسا ..

---

(١) الكتاب الأزرق مصر رقم ٨ سنة ١٨٨٢ ص ٤٢

(٢) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ . رسالة رقم ١٤٥

من أجل ذلك اقترح فرسنيه عقد المؤتمر ظنا منه أن في ذلك عرقلة لسياسة جرانفل ؛ ولم يشأ جرانفل أن يرفض المقترح فيكشف سياسته ولذلك رحب به بل وعمل على تنفيذه …

وحرص جرانفل على أن يظهر بمظهر من لا غرض له إلا المصلحة الدولية العامة ، كما فعل حين كتب إلى الدول غداة وصول السفن إلى الأسكندرية يؤكد لها أن لا غرض لأنجلترة من وراء ذلك إلا إقرار السلام فى مصر وأنه ليس لها من مطمع ولا هى ترمى إلى الانفراد بالعمل و « أن الحكومة البريطانية لم تفكر قط فى أن تنزل إلى البرجنودا ولا أن تحتل البلاد احتلالا عسكرياً . وفى عزم حكومة جلالة الملكة ، متى أعيدت السكينة إلى مصر وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها وتسحب سفنها الحربية ، فإذا وقع عكس ما ترجو بأن تعذر حل المسألة حلا سلميا فانها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته هى والحكومة الفرنسية أنجح الوسائل »(١)

وكان مظهر حرص إنجلترة على التجرد من الغرض حين قبلت مقترح فرنسا لعقد مؤتمر أن أبدت رغبتها فى أن تشترك تركيا فى المؤتمر ، ثم أنها أرادت بهذه الرغبة أن تعرقل مسعى فرنسا لعقد المؤتمر إذ كانت تعلم أن تركيا لا تميل إلى هذا الاتجاه .

* * *

وكانت سياسة تركيا تجاه الدولتين فى مصر تدعو إلى الدهشة والأسف ؛ ومردها فيما نرى إلى أنها كانت فى حيرة بين توفيق وبين عرابى ، فهى إن آزرت توفيقاً فكأنما توافق على انحيازه إلى الدولتين وهو فى الواقع منحاز إليها منذ أن خلع أبوه ؛ وهى إن آزرت عرابياً وافقت على النزعة الدستورية الحرة فى مصر وقوت شوكة الفلاحين ضد الأتراك والشراكسة ، وقد كانت هذه اليقظة القومية التى تعد فى جوهرها موجهة ضد السيادة التركية تتمثل فى عرابى زعيم مصر الفلاح …

والواقع أن اضطراب سياسة تركيا نحو مصر يرجع كذلك إلى غفلتها عن كثير من دسائس الأنجليز وعن السياسة الدولية بوجه عام ؛ ثم إلى فساد رجالها

---

(١) المسألة المصرية لروتستين .

وإيثارهم مصالحهم الشخصية على مصالح الدولة ، وإمكان توجيهم بالرشوة الوجهة المطلوبة ولو كان فى ذلك ضياع دولتهم ...

ورفض السلطان أن يشارك فى المؤتمر ، ولكن ذلك زاد فى حرج موقفه ، إذ كيف يرفض إرسال مندوب إلى المؤتمر وفى الوقت نفسه لا يعمل عملا ما تجاه سياسة الدولتين فى مصر ؟ لذلك أوفد بعثة درويش ورأى فى ذلك سبباً عملياً يحتج به على رفضه فكرة المؤتمر ...

وجاءت بعثة درويش وقد رأينا ما كان من سياستها المزدوجة كما رأينا عجز درويش إزاء الرأى الوطنى العام وتأثره بهدايا الخديو ، وتذبذبه بسبب ذلك بين حاكم مصر وبين زعيم مصر ...

ورأينا إنعام السلطان على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر ، وفى ذلك فضلا عما بيناه من معان ، معنى آخر هو أن عرابياً لم يكن بالمتمرد ولا بالمتسلط ، بل إنه الرجل الذى لاذ به الجميع لحفظ النظام ، وبذلك فلا وجه لما يذيعه الأنجليز عن خطر الحزب العسكرى فى مصر ، ومن ثم فلا حاجة إلى مؤتمر ، ولا إلى تدخل من أى نوع كان . .

ولكن أين هذا الأسلوب من دهاء السياسة الأنجليزية وخبثها وطول مرانها على اللؤم والمكر السيىء ؟ لقد دبر الأنجليز وشركاؤهم مأساة الاسكندرية لتكون حجة لهم على صحة ما يقولون ... ومن هنا يتبين لنا خطر هذا الحادث المشئوم ...

ولذلك نعود بأشد اللوم على عرابى لأنه أذعن لتوفيق حين جعل عمر لطفى رئيساً للجنة التحقيق ، ولأنه تراخى بعد ما كان من إقدامه أول الأمر على أثر انسحاب الأنجليز من اللجنة ؛ وكان عليه أن يتعقب الجناة مهما كان شأنهم وأن يواجههم بالأدلة ثم يضرب على أيديهم ؛ ولو أنه فعل ذلك للعب لعبة بعيدة الأثر فى مجرى الحوادث إذ كان يفضح أعداءه ويحبط كيدهم ويردهم خاسرين ..

ولن يشفع لعرابى أنه آثر الحرص على مودة الخديو ، ولا أنه خشى أن يفسر عمله بالتحدى لسلطته فيهيىء لأعدائه دليلا على صحة ما يزعمون من تدخله وتسلطه ...

ان يشفع له شيء من هـذا فقد اضطلع بحفظ الأمن وتعهد بذلك وكان بعد استقالة البارودى الحاكم الفعـلى بل الحاكم الوحيد ، وقد أعيد إلى منصبه فى فى الوزارة لهذا الغرض بالذات .. الا إنه لخطأ من أكبر أخطائه السياسية سوف يعود عليه وعلى مصر بأوخم العواقب ...

واندع الآن موقف تركيا من المؤتمر لنعود إلى ما كان بين فرسنيه وجرانفل .

***

فى أول شهر يونيو أى فى اليوم التالى لاقتراح فرسنيه ، أرسل إليه اللورد جرانفل يقترح مرة أخرى رجاء الدول العظمى أن ترسـل إلى السلطان تطلب إليه إرسال جنود تركية إلى مصر ؛ ورد فرسنيه أن الأولى أن تنتظر الحـكومتان هل توافق الدول على عقد المؤتمر أم لا ؛ وأجاب جرانفل بأن سؤال السلطان إرسال جنود إلى مصر ينبغي أن يكون مما يشار به على اللورد دوفرين فيما يتصل ببرنامج المؤتمر. وأظهر فرسنيه تململه من هذا الرد ، لأن أجوبة الدول على الدعوة إلى المؤتمر لم ترد بعد

وكان جرانفل فى الواقع يماطل ويسوف عله يستطيع أن يتخلص من عقـد المؤتمر وإن تظاهر أمام فرنسا أنه يرحب به ...

ولما وقعت مأساة الأسكندرية عادت إنجلترة إلى تخويفها العالم من سوء الحال فى مصر علها تجد فى ذلك ذريعتها للتدخل قبل هذا المؤتمر الذى تشير به فرنسا .

أرسل مالت إلى جرانفل بعد المذبحة بيومين أى فى اليوم الثالث عشر من يونيو يقول إن بعثة درويش قد فشلت فشلا تاماً فى مهمتها ، وأن مندوب السلطان اضطر إلى الخضوع لسلطة عرابى وأنه أدلى إلى ممثلى الدول بقوله إنه تحت ضغط الظروف الملحة يشارك عرابياً باشا فى تنفيذ أوامر الخديو ؛ وأنه وزع الأوسمة على العرابيين وعلى الخديويين ، وأن تأثيره قد ذهب ...

وأراد فرسنيه أن يأخذ الطريق على السياسة البريطانية بفـكرة أخرى فأعلن

أنه بعد سيطرة عرابى على الوقف « قد تهيأ كل ما يمكن من تسوية المسألة المصرية بالاتفاق مع عرابى »

وردت الحكومة البريطانية على ذلك رداً حاسماً صريحاً قائلة « إنه لا يمكن وضع تسوية ثابتة مقبولة إلا بالقضاء على عرابى باشا والحزب العسكرى فى مصر »[١]

واهتم الأنجليز فى مصر أكثر مما قبل بإذاعة الأنباء عما يزعمونه من سوء الحال وذلك كى يردوا على قول درويش وقول السلطان من إن الحال هادئة لا تستدعى شيئاً من القلق ...

وأراد جرانفل أن يستغل حادث الأسكندرية قبل أن تظهر حقيقته فكتب فى اليوم الثالث عشر من يونيو دون الرجوع إلى فرسنيه ، إلى القناصل الأنجليز فى الدول المختلفة بأن يعرضوا على هذه الدول اقتراحاً مؤداه أن يطلب إلى السلطان إرسال جنود إلى مصر بشروط معينة أهمها عدم الاعتداء على الفرمانات المقررة ...

ورأى فرسنيه ألا يدع إنجلترة تتصرف وحدها فوافقها مرغماً مشترطاً أن أن تكون تلك الجنود خاضعة لأوامر الخديو العليا ؛ وقبل جرانفل هذا الشرط ، وإنه ليجعل من هذا كله ستاراً لنياته ... ثم كتب فرسنيه إلى قناصله لتفعل كما فعل القناصل الأنجليز ...

واتفقت الدولتان على عقد المؤتمر عاجلا بمشاركة إنجلترة أو بغير مشاركتها ؛ إذ أن السلطان كان لا يزال على رفضه بحجة أن درويشاً قد نجح فى مهمته ، وأن وزارة ألفت فى مصر وعادت الأمور إلى مجراها العادى ...

وبعد شيء من الأخذ والرد اجتمع المؤتمر فى الآستانة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونيو دون أن يحضر فيه أحد من قبل السلطان

ولندع المؤتمر ريثما ننظر نظرة فى الحال الداخلية فى مصر .

***

فى اليوم الثانى عشر من يونيو وهو اليوم التالى ليوم الفتنة ذهب قناصل

---

(١) Comer P, 228,

الدول إلى الخديو وطلبوا منه تأمين أرواح رعاياهم بمصر وأموالهم ، وكان ذلك بحضور درويش باشا ؛ فأرسل الخديو فى طلب عرابى وأخبره بذلك وطلب إليه « نشر التنبيهات والتأكيدات على كافة العساكر المصرية وضباطهم وأمرائهم الموجودين بمصر والأسكندرية والأقاليم والبنادر بزيادة الدقة والتحفظ »[1] .

وبناء على ذلك أرسل عرابى إلى جميع قادة الجند يخبرهم بما طلب الخديو ويدعوهم إلى اليقظة قائلا « يحق لنا الأمل فى هممكم التى علمت فيكم ونشاطكم الذى عرفتم به بحيث لا يقع أمر من الأمور صغيراً كان أو كبيراً فى أى نقطة من النقط التى أنتم بها إلا كنتم حصناً منيعاً بينه وبين سكان ديارنا على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم ؛ كما يجب على حضرتكم بذل الهمه ودوام السعى فى تسكين كل اضطراب ومنع ما يوجب قلقاً أو تشوشاً فى الأفكار ؛ وفى كل هذا تتخذون حسن المعاملة مع جميع الأهالى والأجانب شعاراً لوظائفكم مع التمسك بالآداب المدنية والحقوق الوطنية فى سائر الحركات والسكنات كما هو الواجب على كل وطنى محب لوطنه ساع فى حفظه ونجاح أهله ؛ ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لحفظ هذا النظام العائد ثمرته على الوطن العزيز »[2] .

وكانت الشائعات تنتشر فى الأسكندرية ولم يمض على الفتنة يوم أن الأوروبيين يستعدون لهجوم جديد فاجتمع رؤساء الجند وكتبوا إلى القناصل ليطلبوا إلى رعاياهم السكينة والنظام ؛ وأصدر القناصل نداء للأوروبيين يحثونهم فيه على التزام السكينة ...

وبارح الخديو القاهرة فى اليوم الثالث عشر من يونيو إلى الأسكندرية بحجة الاصطياف حسب عادته كل عام وصحبه درويش باشا ، وقد ودعه عرابى فى المحطة ، وقبل تحرك القطار أوصى الخديو عرابياً بالسهر على الأمن وأخذ الحيطة لمنع وقوع أى حادث .

وقد استراب الناس فى سفر الخديو فجأة عقب الفتنة ، وفسروا ذلك بأنه أراد أن يبتعد عن عرابى وحزبه ليكون فى حمى الأسطولين بالأسكندرية ؛ وأحسوا فى

(١، ٢) مذكرات عرابى المخطوطة

هذا السفر المفاجىء شيئاً من الخوف وقالوا إن الخديو على علم بقرب وقوع الحرب .

والواقع أن الخديو كان يريد السفر إلى الأسكندرية منذ مجيء السفن الأجنبية ، نجد الدليل على ذلك فى برقية قنصل فرنسا إلى فرسنيه فى اليوم الثامن عشر من مايو إذ يقول « إن أهم مسألة مستعجلة فى الوقت الحاضر هى إقناع الخديو بعدم السفر إلى الأسكندرية ، فإن هذا السفر يشبه أن يكون فراراً وتركه العاصمة فى الوقت الحاضر معناه العدول عن العودة إليها[1] » .

ونجد دليلا آخر فى برقية لمالت سلفت الأشارة إليها يصف فيها موقف الخديو فيقول عن الأنجليز إنهم هم الذين صرفوه عن السفر إلى الأسكندرية ومعنى ذلك أنه لولا مساعيهم لسافر إليها .

وقد علق فرسنيه على سفر الخديو بقوله « كانت رغبة الخديو متجهة منذ وصول العمارة الأنجليزية الفرنسية إلى الاتجاه إلى الأسكندرية ليكون قريباً من مدافعها ، وعبثاً أريد إقناعه بأن مركزه يجب أن يكون على رأس حكومته قريباً من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وعلى الأخص ملاحظتهم ، ولكن مذبحة الأسكندرية كانت له فرصة يحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد إليها بحجة تدارك الخطر مع أن النظام كان قد عاد إلى نصابه[2] » .

وفى الأسكندرية قوبل الخديو بفتور وقد أطلقت المدافع تحية له واصطفت الجند على الجانبين حتى سراى رأس التين ؛ وقد وجل الناس عند سماع المدافع ولم يكونوا يعلمون بمجيء الخديو وظنوها مدافع الحرب .

وزاره القناصل فى سراى رأس التين ما عدا قنصلى فرنسا وإنجلترة إذ كانا بالقاهرة ؛ فأعرب لهم عن أسفه لما حدث يوم الفتنة ، ووعدهم بأن يوجه عنايته حتى لا يحدث شيء من هذا فى المستقبل .

وسرعان ما ذاع فى الأسكندرية أن الخديو أسر إلى كالفن أنه لا يأمن تجدد

---

(١) الثورة العرابية للرافعى نقلا عن الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١١٥ .

(٢) المصدر السابق نقلا عن كتاب فرسنيه « المسألة المصرية » .

الفتن وأن بعثة درويش قد أخفقت وأنه لا بد من مجيء جنود عثمانية ، وكان ذلك ردأ على ما أثنى به درويش على رجال الجهادية[1] .

ويورد عرابى فى مذكراته أن الخديو طلب جنوداً إنجليزية « لأنه لا يصح أن يطلب جنوداً عثمانية من عامل إنجليزى مثل كلفن » .

ووقع ما أسر به الخديو إلى كلفن وقعاً مؤلماً فى النفوس ،وعادت إليها عوامل الخوف ، وزادت هجرة المهاجرين من الأجانب فى حالة أشبه بالذعر كأنما تنتظر الحرب بين ساعة وساعة ، أو ترتقب فتنة أشد هولا من الفتنة السالفة ...

وتتابعت هجرة الأوروبيين من الأسكندرية والقاهرة ومدن أخرى ، حتى ضاقت بهم عربات القطارات وازدحمت القوارب والسفن ، ورأى عرابى أن يدعو الناس إلى الاطمئنان فأصدر بلاغاً يقول فيه « ناظر الجهادية أحمد باشا عرابى يعلن كل سكان القطر المصرى من المصريين والأوروبيين رسمياً أن الحضرة الخديوية الفخيمة كفلت الأمن والراحة فى جميع جهات القطر المصرى أمام حضرات قناصل الدول المتحابة ، وتكفل ناظر الجهادية أيضاً بصيانة الأرواح والأموال وحفظ سكان البلاد على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم ، وقد انتقل الجناب الخديو إلى الأسكندرية بعائلته لدفع الأوهام من الأفكار واطمئنان القلوب . وبقى ناظر الجهادية بمصر لمراقبة الأحوال وصيانة البلد وكتب لأمراء العسكرية فى سائر الجهات بيث الراحة والسهر على حفظ الأمن وصيانة النفوس . وعلى هذا فديوان الجهادية يعلن الجميع حفظاً للأفكار من الأراجيف والأشاعات الكاذبة »[2]

وظل عرابى فى القاهرة ، وكان بيته حسب المعتاد يمتلىء كل يوم بالناس وفى مقدمتهم زعماء الحركة الوطنية ومن أبرزهم نديم ومحمد عبده والهجرسى والشريعى والسيد حسن المقاد ، وكبار رجال الجيش مثل البارودى وعبد العال وعلى فهمى وكان حديث هؤلاء لا ينقطع عن موقف توفيق من الأجانب وبخاصة منذ سفره إلى الأسكندرية ، وعن نيات درويش ، الذى كان يكرهه نديم أشد الكره

(١) مصر للمصريين ، لسليم نقاش .   (٢) مذكرات عرابى المخطوطة

ويوجس منه خيفة ، وطالما أعلن إلى أصحابه أنه لا يأمن الأتراك بوجه عام ولا يدرى هل جاء درويش للقضاء على عرابى أم للقضاء على توفيق ..

وكان عرابى يغشى بيت البارودى كثيراً حيث يجتمع أنصاره فيتحدثون أحاديثهم السياسية ؛ ويذكر صابونجى فى كتاب له أرسله إلى بلنت « أن الناس كانوا ينهضون وقوفاً على جانبى الطريق إذا أبصروا عرابياً فى عربته ويهتفون قائلين « الله ينصرك يا عرابى » .

ومما يذكره صابونجى كذلك أنه بينما كان فى بيت الشريعى باشا حيث كان هو وعرابى وسامى ونديم والهجرسى وعبد العال وعلى فهمى ضيوفاً على صاحب الدار ، إذ دخل ضابط ومعه كتاب من سيدة أجنبية تطلب حماية عرابى وقد نصح الناس لها بالهجرة من القاهرة ؛ فطلب إليه عرابى أن يكتب لها مؤكداً حماية عرابى إياها كما يحمى نفسه ...

ويقول صابونجى « إن عرابياً قد غدا بطلا عند كثير من الأوروبيات وقد سمعتهن يثنين عليه لما يعلمن من استعداده لحمايتهن ؛ وإنهن ليهرعن إلى الشرفات والنوافذ إذا سارت به عربته فى الشارع »[1] .

وكان عرابى شديد التشكك فى نيات توفيق ، فإذا تحدث عما تم بينهما من صلح قال إنه من جانبه لا يخون عهداً ولكنه إذا وجد الخيانة من غيره نقض عهده وإذا غشه الخديو « فسيدفع له من جنس عملته » .

وسأله صابونجى رأيه فى حليم فقال إنه يفضله على توفيق ، ولكنه يرى أنه لو تخلص توفيق من تأثير مالت فكل شىء يسير سيراً حسناً ، ولقد أضل كلفن صاحبه مالت ، ولقد سببا ضرراً بليغاً لدولتهما كما سببا ضرراً بليغاً لمصر وذلك بتشويههما الحقائق » .

وتحدث عرابى عما يتوقع من حرب فقال « لن نكون نحن المعتدين ، ولكننا سنقاوم كل من يعتدى علينا . نحن أمة مخلصة نعترف بالجميل لمن يأخذ

---

(١) S. H. Blunt, P.341

بأيدينا ويميننا على إصلاح وطننا ونحن لا نبغى إلا الأصلاح ؛ ولكن الذين يريدون أن يغشونا سوف يجدون منا كل غش » .

ويصف صابونجى زيارته الشيخ الأمبابى شيخ الجامع الأزهر ذات يوم صحبة عرابى ، فيقول إن الشيخ كان جالساً على وسادة فنهض واقفاً وتقدم خطوات يلقى عرابياً محتفياً به ؛ وقد خلع عرابى نعليه عند دخول الحجرة إجلالا للشيخ وقبل يده ؛ وكان مع الشيخ نفر من العلماء فتقدموا وسلموا على عرابى وحفوا من حوله مرحبين ، وقد طلب عرابى من الشيخ أن يذيع فى الناس نداء يحثهم فيه على الهدوء والسكينة ويطلب إليهم وفق تعاليم الدين الإسلامى ألا يعتدوا على أموال اليهود والنصارى ولا على أرواحهم ؛ ووعده الشيخ بإذاعة هذا النداء

* * *

وكان يسر الأنجليز ويهمهم أن تبقى البلاد بغير وزارة ، ففى ذلك ما ينتحلونه لأثبات مزاعمهم عن الفوضى الداخلية وتسلط عرابى وعجز الخديو وما إلى ذلك من البهتان ...

وكان يرضى الخديو كذلك أن يشهد الدول على أنه طالما توجد السلطة فى يد عرابى فلا أمل فى تأليف وزارة ولا رجاء فى إصلاح الحال ...

وكذلك كان يرى توفيق أن تأليف وزارة معناه الرجوع إلى حكم الدستور إذ لا يمكن لوزارة ما أن تحكم البلاد حكما مطلقا ؛ وهو يتطلع إلى اليوم الذى يقضى فيه على هذا الدستور الذى سلبه مشيئته وأتى بها فى يد الأمة ؛ وكان أكثر ما يغيظ توفيقاً أن يصل الحزب الوطنى أو حزب الفلاحين فى مصر كما كان يسميه الأتراك إلى ما وصل إليه ؛ وبلغ به الحنق أن كان لا يطيق سماع اسم عرابى الذى تتمثل فيه زعامة الأمة كما يتمثل مبدأ الحكم الدستورى ..

فلما وقعت الواقعة فى الأسكندرية أشفق قنصلا ألمانيا والنمسا ونصحا للخديو بأسناد الوزارة إلى رجل يرضى عنه العرابيون وقد فطنا إلى لؤم السياسة الأنجليزية وحيرة السياسة الفرنسية وعقم السياسة التركية ؛ وكانت دولتاهما غير مرتاحتين

إلى استئثار إنجلترة وفرنسا بالمسألة المصرية ، وقد أظهر بسمرك شيئاً من العطف على عرابى فى قوله « إن عرابياً قد غدا قوة يحسب لها حسابا » ولعله بهذا كان يرمى كذلك إلى مناوءة الدولتين

ولم يكن ليقوى توفيق على تبعة بقاء مصر بلا وزارة ، فأقل ما يقال فى ذلك إنه عاجزعن إقامة وزارة ؛ لذلك قبل على رغمه مشورة القنصلين الألمانى والنمسوى ، وعرض الوزارة على راغب باشا فقبلها فى اليوم السابع عشر من يونيو وصدرت المراسيم بتأليفها فى اليوم العشرين منه ...

ولم يكن راغب باشا من الموالين للخديو ولذلك وافق عرابى عليه ، فقد أرسل إليه الخديو ينبئه بأسناد الوزارة إليه ويدعوه إلى معاونته ، وجاء رد عرابى بالموافقة وبالثناء على راغب ؛ وظل عرابى فى وزارة راغب وزيراً للجهادية والبحرية

ولقد خاف جرانفل أشد الخوف من دخول ألمانيا فى النزاع ، فلم يكن بسمرك بالسياسى الذى يؤمن جانبه ، بل إنه وحده بين ساسة أوروبا الذى يلف لف الأنجليز ويدور دورانهم ويمكر مكرهم أو أشد من مكرهم

لذلك أرسل جرانفل إلى بسمرك يقول على لسان السفير البريطانى ببرلين « إن حكومة جلالة الملكة لم يكن لها يد فى النظام الذى وضع بمصر حديثاً [١] وإنه إذا كانت الحكومة قد سلمت بضرورة هذا النظام لحفظ حياة الأوروبيين وممتلكاتهم من الاعتداء فإنها لا تعده حلا للمسألة السياسية بحال من الأحوال »

ولا يفوتنا أن نلاحظ مغزى إخبار توفيق عرابياً بأسناد الوزارة إلى راغب فكأنما يقول بذلك إنه يستأذنه لأنه هو المتسلط ثم إنه يطلب معونته قال « فليكن فى علمكم إحالة مقام الرياسة لعهدة الباشا المشار إليه ، وكونوا جميعاً يداً واحدة فى المساعدة والمعاونة وصرف الاقتدار والامكان لما فيه انتظام الأدارة وحسن السير فى الأعمال واستتباب الأمن والراحة بأطراف وأكناف البلاد »

وكان فى رد عرابى شىء من التحفظ يتضح فى قوله « وحيث أن أوامر

---

(١) يقصد تأليف وزارة راغب باشا

الحكومة إنما تصدر لصالح البلاد ورفاهيتها وتمتعها بالراحة الكاملة ، فنحن مستعدون لتنفيذ تلك الأوامر ونؤدى واجباتنا فى ذلك بكل ما فى الوسع والطاقة ونسأل الله حسن التوفيق »[١]

ووضع راغب باشا فى كتابه الذى رفعه إلى الخديو منهاجاً لوزارته يتضح منه أنه كان ينوى أن يحكم البلاد حكما دستوريا قوميا ، يكفل للدستور الاستقرار والتقدم ، ويقطع الطريق على دسائس الأنجليز ؛ فبعد أن أشار راغب باشا إلى احترام الفرمانات المحددة مركز مصر واستقلالها ومراعاة الاتفاقات الدولية المتصلة بالديون واحترام مبدأ الدستور والسير وفق أحكامه قال« فجميع هذه الأصول الثابتة التى روعيت قبل الآن بكمال الضبط ستراعى فى هيئة النظارة الجديدة بغاية الدقة بل إن هذه الهيئة ستأخذ بجميع الأسباب الموجبة لتثبيت هذه الأصول وتقوية جانبها فبها ترى فى ذلك توفيقاً بين المصالح يعود على البلاد بأجل المنافع . وأما الأصول التى يجب بذل الجهد فى ترتيبها على قواعد أساسية موافقة للأصول الثابتة توضع باشتراك هيئة النظارة مع مجلس النواب وتصديق عظمتكم فهى الأصول الأساسية التى تعيد حقوق الحكام والمحكومين من كل صنف والقوانين الأدارية والقضائية وتنظيم حالة الأدارة والقضاء على وجه يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها المدنية فهذه الأصول ستأتى بما فى الوسع لأصلاحها ومنها ما نختصه بالذكر لضرورة الحوادث التى طرأت على البلاد أخيراً ويبتدىء العمل به من أول يوم يستلم فيه النظار وظائفهم وهو :

أولا — أن يصدر عفو عمومى ويدرج فى الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسوية عن كل من عليه مسؤولية أوله اشتراك فى الحوادث الأخيرة ؛ وهذا عدا المشتركين والمسؤولين فى حادثة اسكندرية وفى المواد الحقوقية ، فلا يشملهم العفو

ثانياً — لا يعامل أحد بجزاء إلا بعد محاكمته فى مجلس بمقتضى القانون وصدور الحكم عليه

ثالثاً — لا تجرى مخابرات فى المصالح السياسية من مأمورى الحكومة مع

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة.

أحد وكلاء الدول بالقطر المصرى إلا من طرف ناظر خارجية حكومتكم فقط، وعليه أن يستشير مجلس النظار فى الأمور المهمة وإن حصلت مخابرة من أحد المأمورين فلا تعتبر ولا يعتد بها ... [١]

رابعاً — الأوامر التى تصدر بالإجراء والعمل يكون إصدارها على موجب الديكريتو المالى المؤرخ فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . [٢]

ومما نرى الاهتمام به واجبا علينا إيجاد الوسائل لتوسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين أحوال الزراعة والتجارة وكل ما يعود على البلاد بالثروة ؛ فهذه يا مولاى هى المبادىء التى يكون عليها العمل فى هيئة نظارتكم الجديدة

ولا ريب فى أنها تكون كافلة لأهالى الديار المصرية بأتم الفوائد ؛ وإن لى وثوقا تاماً بأن الدول العظيمة ستعد هذه الأصول ضامنة للراحة والهدوء الأبديين، وأن جميعها ستساعدنا كل المساعدة على القيام برعايتها خصوصاً دولتنا العلية العثمانية التى لا يسرها إلا أن ترى أهالى أوطاننا فى أرغد عيش ورفاهية بال . فأن حسن لدى مولاى [٣] ما أوضحته فى هذا البيان فليحسن بالتصديق على التقرير وإنى لعظمتكم الخاضع والخادم المتواضع .. »

من ذلك نرى أن وزارة راغب باشا كانت كفيلة ببرنامجها هذا أن تعيد السكينة والهدوء إلى مصر ، وأن ترضى الوطنيين وتضمن حقوق الأجانب المالية ؛ ولقد وافق الخديو بكتاب رسمى إلى راغب باشا على هذا البرنامج الوطنى السليم . ولن يضيره أن يوافق فذلك كله فى نظره من الأمور الوقتية

وكان منهاج هذه الوزارة أبلغ رد على السياسة الأنجليزية وادعاءاتها ، ولو أنها وجدت فى مصر حاكما غير توفيق لنجت البلاد من الكارثة المحدقة ...

ولكن ما ذا كان فى طوق راغب أن يفعل ، وقد خاصم توفيق الدستور والوطنيين خصاماً لن يجدى معه تفاهم ، وآثر الانحياز إلى الأنجليز حتى لقد أحرق القوارب جميعاً من ورائه كما يقولون .

---

(١) يرمى بذلك إلى منع تدخل القناصل

(٢) يرمى بذلك إلى مبدأ مسؤولية الوزارة لمنع تدخل الخديو فى شؤون الحكم

(٣) أراد أن يقيد الخديو فى هذه الوثيقة الرسمية

وهل كان الانجليز يدعون راغباً ينفذ برنامجه ؟ وإذاً ففيم كانت دسائسهم الماضية جميعاً ؟ وهل هم انصرفوا عن احتلال مصر حتى يدعوا هذه الوزارة وشأنها؟

لقد قابلوها بأشد الجفاء من أول الأمر وأخذت أبواقهم تذيع ما كانت تذيعه عن البارودى ووزارته وأشد منه ، وعادوا إلى نغمتهم القديمة المرذولة وهى أن الوزارة فى يد الحزب العسكرى . وسوف يدأبون كما نرى على اختلاق الأكاذيب ، ووضع العراقيل فى سبيل هذه الوزارة ، وبخاصة ليؤثروا على المؤتمر الذى انعقد فى الآستانة بعد تأليف وزارة راغب بثلاثة أيام ...

وكانت أولى هذه العراقيل امتناع كارتريت بأمر من جرانفل عن تمثيل إنجلترة فى لجنة التحقيق التى ألفتها الوزارة للبحث عن مدبرى حوادث الأسكندرية ؛ ولم يكتف كارتريت بذلك حتى راح يثير الشكوك حول اللجنة متهماً أعضاءها بمالأة العرابيين خوفاً من نفوذ الحزب العسكرى ...

وكان توفيق لما علم بعزم الوزارة على تحقيق أسباب هـذه الفتنة وتأليف لجنة جديدة بدل اللجنة الأولى التى انحلت بانسحاب الأنجليز منها ، قد كتب إلى راغب يطلب إليه الاهتمام بهذا الأمر ويستنكر حوادث الأسكندرية ، وغرضه من هذا أن يظهر بمظهر المحايد الذى يريد تحقيق العدالة ...

***

اجتمع المؤتمر بدار السفارة الايطالية بالآستانة ورأسه الكونت كورتى سفير إيطاليا بصفته أقدم السفراء .

وكانت الجلسة الأولى فى اليوم الثالث والعشرين من يونيو كما أسلفنا القول وفيها قرر المؤتمر إرسال مذكرة إلى حكومة السلطان ينبئها باجتماعه ويعبر عن أسفه لعدم انعقاده برياسة وزير خارجية تركيا وعن أمله فى اشتراك تركيا فى الاجتماعات المقبلة.

وعقد المؤتمر جلسته الثانية فى الخامس والعشرين من يونيو وفيها وضع ميثاق « البراءة من الغرض » وهذا نصه « تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا أنها فى كل تسوية يقتضيها عملها المشترك لتنظيم شئون مصر لا تسعى إلى امتلاك

شىء من أراضيها ، ولا إلى أى إذن بأى امتياز خاص ولا إلى أى فائدة تجارية لرعاياها إلا ما كان عاماً يمكن أن تناله أية أمة أخرى »[١]

هذا هو الميثاق الذى وقعت عليه إنجلترة على رؤوس الأشهاد ، والذى لم يمض عليه ستة عشر يوماً حتى ضربت إنجلترة الاسكندرية بمدافعها الضخمة ، كذلك على رؤوس الأشهاد ؛ ولقد وقعت عليه إنجلترة التى لا تسكت قط عن التغنى بشرف سياستها ، بعد أن أعدت كل ما استطاعت لاحتلال مصر !

يقول روتستين « فالطريقة التى أنفذت بها إنجلترة هذا الاتفاق تعد فى تاريخ القانون الدولى من أشنع المخازى . ولا عجب إذا عنى المؤرخون الذين ينتصرون لها يتحاشى ذكر ذلك الاتفاق القاطع لحججهم كلها »

والواقع أن إنجلترة كانت قد فرغت منذ زمن طويل من تحديد ما تعمله فى المسألة المصرية ؛ يقول كرومر فى كتابه وقد جاء دور الكلام عن المؤتمر « ليس من الضرورى أن نقف طويلا عند إجراءات المؤتمر المملة ، فقد كان من الأمور الجلية كما قال اللورد سالسبرى فى مجلس اللوردات يوم ٢٤ يوليو أن المجمع الأوروبى ماهو إلا وهم ؛ وفى أحد الجانبين كانت الحكومة البريطانية ويمثلها فى المؤتمر رجل من أقدر دبلوماسيى ذلك الوقت ؛ وكان اللورد جرانفل واللورد دوفرين يفهمان تمام الفهم ما ذا يريدان ؛ ولقد رغبا فى أن يوطدا النظام فى مصر ، وكانا يقظين إلى تلك الحقيقة التى مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام » .

ومما يدعو إلى الأسف والسخرية أن تركيا ظلت غافلة عما تبيت إنجلترة حتى ذلك الوقت ، وظلت تأمل أن يفشل المؤتمر ؛ وكانت لا تفتأ تردد قولها على لسان سفيرها فى لندن إن وزارة ألفت فى مصر وإن الحال فى غاية الهدوء وإن تقرير درويش باشا يدل على طاعة الجند وبعدهم عن أى غرض سيىء .

وكان من الممكن أن يكون لكلام تركيا قيمته وخطره لو أنها اشتركت فى المؤتمر واستطاعت أن تقنع به مندوبى الدول أو بعضهم فتأخذ الطريق على إنجلترة

(١) العبارة من تعريب الأستاذين العبادى وبدران .

على أن إنجلترة لم تستهن بأقوال تركيا هذه فهى لا تأمن أن يلقيها فى المؤتمر مندوب دولة أخرى يكون لها غرض فى مناوءة إنجلترة ؛ ولذلك حرصت كل الحرص أن تصور الحال فى مصر حسبما تريد هى من السوء لا كما يشهد به الواقع.

وقد وصل تقرير درويش إلى الآستانة فى اليوم الذى اجتمع فيه المؤتمر ، وأنعم على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر بعد ذلك بيومين ، وأبلغ موزوروس باشا وزير خارجية تركيا جميع وكلاء تركيا لدى الدول الأجنبية مضمون ما جاء فى تقرير درويش باشا ، وطلب إليهم أن يبلغوا الدول باهتمام تركيا بشؤون مصر بحيث لا يدعو الحال إلى تدبير خاص ، وكان يقصد بذلك عقد المؤتمر الدولى .

وكانت إيطاليا قبل عقد المؤتمر قد اهتمت بكلام تركيا ، ولعل مرد ذلك إلى أنها كانت تميل إلى ألمانيا والنمسا ضد إنجلترة وفرنسا فى السياسة الأوروبية بوجه عام وقد كان بسمرك يعمل على إيقاع الخلاف بين إنجلترة وفرنسا فتدخل فى المسألة المصرية تدخلا ظهر فى نصيحة قنصله وقنصل النمسا للخديو بتأليف وزارة فى مصر

ويتبين اهتمام إيطاليا فيما أرسله باجت السفير البريطانى بروما إلى جرانفل من أن مانشينى وزير خارجية إيطاليا أفضى إليه بأن الكونت كورتى السفير الإيطالى بالآستانة تلقى من وزير الخارجية العثمانى ما يفيد بهدوء الحال فى مصر بتأليف وزارة راغب باشا وأنه لم يبق هناك من داع للمؤتمر الدولى ..

ويقول باجت إنه مازال بمانشينى حتى صرفه عن ميله إلى الاعتبار فى كلام تركيا « وقبل أخيراً أن ينتظر ما تخابره به سائر الدول فى هذا الشأن ليقف على آرائها »(١)

وكذلك اهتمت روسيا بمسألة مصر ؛ يقول روثستين « إن مسيوده جيير وزير خارجية هذه الدولة قد اهتم فى التعليمات التى أرسلها إلى سفرائه بمناسبة انعقاد المؤتمر بوجوب بقاء المؤتمر حتى يفصل فى أمر مصر ، قائلا إن كل حل للمسألة يأتى من غير هذا الطريق حل غير مقبول ، وإنه إذا لم يكف التأثير الأدبى فى تذليل الصعاب فان المؤتمر بأجمعه يقرر ما يراه من الوسائل الأخرى. فإذا اقتضت الضرورة

---

(١) مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٩

هـذا الأمر فتركيا أحق الدول باعادة المياه فى مصر إلى مجاريها . فان أبت تركيا ذلك فقـد يعهد الأمر إلى إنجلترة وفرنسا على شرط أن ترافقْ جيوشهما مندبون من قبـل الدول الأخرى . فإذا استقر النظام فى نصابه أعيد النظر فى جميع التزامات مصر الدولية بقصد إلغاء المراقبة الثنائية ووضع نظام دولى يحول دون عبث معتمدى الدول ويجعل كل تعرض آخر لشؤون مصر الداخلية أمراً مستحيلا »

لذلك كانت لا تأمن إنجلترة أن تعود إيطاليا أو غيرها إلى مناوءتها ، عمدت إلى التهويل فى تصوير خطر الحال فى مصر وأنها تنذر بأوخم العواقب .

فمن ذلك ما أذاعوه من أن أربعة عشر ألفا من المسيحيين قد غادروا مصر ، وأن ستة آلاف غيرهم ينتظرون فى لهفة وصول السفن التى تقلهم من البلاد ؛ ومن غريب أمر هؤلاء الأنجليز أن هذه الهجرة تمت بتحريفهم وإذاعتهم أنباء السوء فى الوقت الذى كان فيه عرابى يؤمن الأجانب على أرواحهم وأموالهم المرة بعد المرة والذى هـدأت فيه الحال بعد الفتنة التى كانت من صنع أيديهم ألا وهى مأساة الأسكندرية النكراء !

ومن ذلك ما أنذروا به الدنيا بالهول ألا وهو ادعاؤهم أن عشرة من اليونانيين وثلاثة من اليهود قتلوا فى بنها بأيدى المتعصبين من الوطنيين ، وقد أرسل كارتريت هـذا النبأ إلى جرانفل ، ولم يخجل من أن يقول إنه سمعه من مصدر يوثق به[1] وهذا كل أدلته على ما يزعم !

ومنه ما أشيع عن عرابى أنه عرض على مجلس الوزراء أنه تصادر أملاك كل مصرى يغادر مصر ؛ ومما يدعو إلى الضحك قول كرومر معقبا على ذلك بأن عرابيا يسلك فى ذلك مسلك اليعاقبة فى الثورة الفرنسية على غير وعى منه ؛ ثم يعود فيقول «إنه من الممكن أن يكون عرابى قد فعل ذلك بوعى منه ، فقد أخبرت من مصدر يوثق به أنه كان فى ذلك الوقت يوجه اهتماما كبيرا إلى دراسة تاريخ الثورة الفرنسية» ؛ وهكذا يكون عرابى عالما يقرأ ويطلع إذا شاء كرومر أن يكون

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٧

العلم وسيلة لاتهامه ، ويكون جاهلا طائشا إذا كان رميه الجهل وسيلة لتشويه حركته القومية ؛ وليس وراء ذلك فجر أو لؤم …

ومنه ما أرسله كارتريت إلى جرانفل فى اليوم السادس والعشرين من يونيو يقول « نظرا لما يلوح من أن فكرة تسود الآن فى الآستانة مؤداها أن وزارة راغب باشا تسير سيراً مرضيا ، وأن نفوذ عرابى يتناقص ، وأنه ليس ثمة مايدعو إلى تدابير لتهدئة الحال ، رأيت من الصواب أن أخبر سفير حكومة جلالة الملكة بالآستانة عما لا نزال نحسه هنا من عدم الاطمئنان الذى ترد كل أسبابه إلى مسلك الحزب العسكرى .

وخير ما يوضح لنا نفوذ عرابى الشامل هو تسلط الجيش تسلطا لا يتوقف وادعاءاته التى لاهوادة فيها وسلوكه مسلك التهديد؛ تلك الأمور التى أدى إلى ازديادها الاعتراف بعرابى فى الوزارة الجديدة » [1] .

وأبرق كارتريت فى برقيته هذه المنان لمزاعمه عن لجنة التحقيق ومن ذلك قوله « إن يعقوب باشا العضو العسكرى فى اللجنة والذى هو وكيل وزارة الحربية قد عارض معارضة شديدة وصمم على ألا يجرى تحقيق مرضى الأمر الذى أدى إلى انسحاب العضو الأنجليزى … وأن بطرس باشا وكيل وزوارة العدل والعضو المدنى فى اللجنة قد قرر أكثر من مرة بأنه مامن شخص يجرؤ على تقديم أدلة لا يرضاها الحزب العسكرى وأنه هو نفسه مضطر إلى تأييد يعقوب باشا ولو أنه يخالفه فى آرائه كل المخالفة … وأنه لايزال فى السجن عدد من الأوروبيين ، احتجزوا هناك منذ ١١ يونيو ، ويرفض يعقوب باشا إطلاقهم لأن ذلك يغضب الجنود وفى مثل تلك الحال لا يسأل عن حفظ النظام » .

وقال عن راغب « إنه لا يستطيع أن يعمل عملا فيه إغضاب للجيش على أية صورة ، وأذكر تأكيدا لذلك أن لغة سعادته أصبحت مطابقة للغة عرابى » .

وقال عن عرابى « إن إنعام جلالة السلطان على عرابى باشا فى الوقت الذى كاد يكون فيه شخصه هو الوحيد الذى يبعث على القلق ، قد أدى إلى زيادة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٥ .

ارتفاع مقامه زيادة عظيمة ، كما أدى إلى ازدياد ثقة الجيش فى نفسه وسيادته ، وأينما ظهر عرابى باشا فى المجتمع أعدت المظاهرات لاستقباله وأنه هو وحده بين الوزراء الذى يحيط به كوكبة من الفرسان كتلك التى تحيط بسمو الخديو »[1] .

ثم أخذ يبالغ فى وصف تسلط العسكريين فى جميع دواوين الحكومة وكيف يشكو المديرون فى الأقاليم وسائر الموظفين من تدخل الجند فى كل شىء .

وبعد ذلك بيومين أبرق كارتريت مرة ثانية إلى جرانفل « يلقى راغب باشا صعوبة شديدة فى محاولته السيطرة على العنصر العسكرى فى وزارته ؛ وعلمت أن سعادته يشعر بالقنوط تلقاء مايلقى من فشل ، ويجد الجند أكثر اشتغالا بمشروعاتهم الحربية وتدابيرهم من أن يوجهوا أى انتباه جدى إلى الوسائل المؤدية إلى الطمأنينة أو إلى الحاجة إلى خطوات جديدة يقصد بها إقرار النظام » .

وعقد المؤتمر جلسته الثالثة فى اليوم السابع والعشرين من يونيو ؛ وكأنما عاودت إيطاليا الشكوك فى نية إنجلترة فقد قدم العضو الإيطالى اقتراحاً هذا نصه :

« ينبغى أن يكون معلوماً أنه ليس لاية دولة أن تقوم بعمل انفرادى فى مصر ما دام المؤتمر منعقداً »

وأحس اللورد دوفرين أن إيطاليا وقد قبل المؤتمر هذا الاقتراح قد ضربت مطامع إنجلترة فى مقتل ولكنه بدهائه تدارك الأمر ، فما زال بالمؤتمر حتى أقنعه بإضافة تحفظ إلى هذا الاقتراح مؤداه استثناء ماتقتضيه الظروف القاهرة كضرورة محافظة كل دولة على أرواح رعيتها ؛ وقد استعان فى دفاعه عن وجوب قبول هذا التحفظ بما قدمه من أنباء عن سوء الحال فى مصر ؛ ومن أعجب العجب أن المندوب الفرنسى أيده فى هذا التحفظ بعد التشاور فيما بينهما !

وكتب دوفرين إلى جرانفل ينبئه بهذا الانتصار قائلا « إن الغرض من إضافة ذلك التحفظ إطلاق أيدينا فى العمل إذا طرأ طارىء ما ... وإننا فى الحقيقة لم نعد اقتراح السفير الإيطالى ذا شأن كبير بعد هذا التحفظ الذى نرجع إليه عند الحاجة »

ولكن جرانفل لم يرض أن تكون الظروف القاهرة مقصورة على محافظة

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٦ .

كل دولة على أرواح رعاياها فذلك مجال ضيق ، وكتب إلى دوفرين ليتدارك الأمر وما كان دوفرين بالذى تعوزه حيلة إذا كان الأمر أمر ختل ومكر .

وعقدت الجلسة الرابعة فى اليوم الثلاثين من يونيو ؛ فتقدم دوفرين بسؤال . ماذا يكون الموقف إذا لم يعترف السلطان بالمؤتمر وأرسل من تلقاء نفسه جنوداً إلى مصر ؟ وقال قائل يمنع الأسطولان جنود السلطان من النزول ؛ واعترض مندوب فرنسا قائلا إنه ما دام المؤتمر منعقداً فليس للأسطولين أن يتدخلا بهذه الصورة . فقال دوفرين « إذاً نعد من الظروف القاهرة مثل هذا التدخل من السلطان ، كذلك لو هددت قناة السويس أوجد فى الحال السياسية تغير فجائى أو مخيف يخشى منه على المصالح الخاصة[1]

ومن غريب أمر المندوبين أنهم قبلوا هذا من دوفرين ، فألغوا بذلك المقترح الإيطالى !

وفى الجلسة الثالثة للمؤتمر ألقى دوفرين خطبة عن الحال فى مصر ، فملأها بالمطاعن على مصر وأهلها وحركتها القومية ؛ وكان مما ادعاه ، أن الفوضى قد شاعت فى مصر بسبب تمرد الجيش وخروجه على سلطة الخديو ، وقد اختلت الأدارة وارتبكت الحال بوجه عام ، وشلت حركة التجارة ، وعجزت الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية ، وعجز الأهالى عن سداد الضرائب ...

وعقب على فتنة الأسكندرية واتهم الوطنيين بتدبيرها ، وبالغ فى الكلام عما يتعرض له الأرروبيون من خطر وأشار إلى هجرتهم المتزايدة كل يوم من البلاد ، ونفى ما ذكرته تركيا من أن الحال هادئة وأن وزارة راغب قد أعادت الأمور إلى مجراها العادى وسمى هذه الوزارة ، الوزارة الهزلية قائلا إنها أداة فى أيدى المتمردين ، وأن الخديو سليب الأرادة لا حول له ولا قوة

ثم قال إن إنجلترة وفرنسا لا يسعهما السكوت على هذا الوضع فى مصر ؛ وكشف النقاب عن وجهه فصرح بوجوب التدخل المسلح فى مصر ، وأهاب

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٧

بالدول أن تضرب على أيدى الثائرين وأن تأخذ الثورة بالشدة وإلا استفحل نفوذها واستعصى بعد ذلك قمعها ..

على أنه يرى أن هذا التدخل يجب أن يكون من جانب السلطان؛ ثم قال إنه علم من مصدر يوثق به أن درويشاً باشا اعترف بأخفاقه فى مهمته، وأنه لايستطيع أن ينقذ الخديو من تسلط الجيش إلا بقوة حربية لا تقل عن عشرين طابورا؛ وأن الوزارة المصرية الجديدة ما هى إلا أداة فى يد عرابى وسيبقى الخديو سليباً من كل إرادة ما لم ينفذ إليه جيش يعيد إليه سلطانه ..

وكان يتلو دوفرين على المؤتمر البرقيات التى أرسلت إلى جرانفل ويسوقها مساق الأدلة، ولن يكون عبث بالعقول أشد من هذا مدعاة إلى السخرية والاشمئزاز ! ألم تك تلك البرقيات من صنع الأنجليز ؟ ولم تكون هى المصدقة وتكون أقوال تركيا المكذبة ولا فرق على الأقل بين هذه وتلك فى قابليتها للكذب أو للصدق ؟

كان أعضاء المؤتمر يصغون إلى دوفرين ولديهم من الأنباء ما يحملهم على عدم تصديقه فى كثير مما يقول، وقد صرح بعضهم فعلا أنهم لا يستطيعون قبول هذه الآراء .

ولكن المؤتمر رأى ما تبيته إنجلترة من نية الانفراد بالعمل فى مصر فمال إلى تقييدها بآخر قيد بقى لديه وهو أن يكون التدخل على يد تركيا؛ ولهذا قبل الأعضاء النظر فى اقتراح دوفرين وقرروا مخابرة دولهم بشأنه على أن ينظر فيما بعد فى تفاصيله، إلا العضو الفرنسى فأنه جاهر بما يشبه التحفظ على الاقتراح المذكور[1]

وأبرق دوفرين يزف نبأ انتصاره الجديد إلى جرانفل فقال « أخبرتك فى رسالتى السالفة عما ينزع إليه المؤتمر فى مسير أعماله . وأخبرك أن ما أطلعته عليه من أنباء المذبحة فى بنها قد كان عظيم الوقع فى نفوس زملائى ، وكذلك أحدث مثل هذا الأثر فى نفوسهم ما سردته من الأمثلة على طغيان الحزب العسكرى

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٦ .

وعلى مظاهر الخراب المالى الذى جاء تفصيله فى برقية مستر كارترايت بالأمس ؛ وقد كان لزميلى الفرنسى اليوم الزعامة إذ أصر فى حماسة عظيمة على ضرورة اتخاذ علاج ناجع للفوضى المتزايدة فى مصر ، تلك الفوضى التى يخشى كما قال أن تؤدى فى وقت ما إلى استحالة الأقاليم الأفريقية على سكنى الأوروبيين .

ولما رأيت من الأعضاء الآخرين ما يشعر بتسليمهم بخطورة الحال أكثر من زميلهم الفرنسى أو أقل ، بدا لى أن الوقت ملائم لأتقدم باقتراح صفته ، مؤداه دعوة السلطان لأن يرسل تحت شروط معينة ومن أجل غرض خاص ، جنوداً تركية إلى مصر لها من القوة ما تسيطر به على الموقف وتقضى على استبداد العسكريين . ولاحظ زملائى واحداً بعد الآخر أنهم لا يستطيعون إبداء الرأى فى اقتراح هام كهذا دون الرجوع إلى حكوماتهم ولكنهم فى الوقت نفسه أعلنوا استعدادهم لدراسته فى جميع احتمالاته ؛ وفى ظنى أنه يحق لنا أن نرضى بالصورة التى قوبل بها مقترحنا . ولقد وافق كل شخص على أنه لا بد من عمل شىء ، ولم يجرؤ أحد على أن يقترح خلاف ذلك »[١] .

ظن المؤتمر كما ذكرنا أن خير وسيلة يقيد بها إنجلترة هو إقراره مبدأ تدخل تركيا بقوة حربية ؛ وكانت إنجلترة على يقين من أن السلطان لن يفعل ذلك لتردده وارتباك شؤونه المالية والسياسية . وبعد ذلك يسهل عليها وهى لا تكف عن الإنذار بالويل من سوء الحال فى مصر ، أن تضطلع هى بعبء التدخل متظاهرة أنها تفعل هذا لا على أنه ضرب من القرصنة أو الخروج على قرار المؤتمر وإنما على أنه عمل توجبه الأنسانية والشهامة لأنه دفاع عن الرعايا الأجانب فى مصر ودفاع عن الأوروبيين كافة ؛ وما أسهل عليها وهى التى دبرت بالأمس مأساة الأسكندرية أن تخلق ما تدعى أنه من « الظروف القاهرة » ! ألا ساء ما يفعل الأقوياء وما أرذل ما يتبجحون به من الشرف والحق فى هذا الشرق الذى لا ندرى متى يفيق ! أخذ المؤتمر يدرس كيفية التدخل التركى ونظر فى ذلك ثلاث جلسات ؛ وكان

(١) مصر رقم ١٧ ص ٤٧ .

دوفرين يستعجل المؤتمر لينوه عليه أن الحال فى مصر لا يقبل معها إبطاء ؛ وإنه ليقظ إلى كل ما عساه أن يحبط سعيه ؛ وإنه ليوحى إلى شياطين الاستعمار فى مصر أن يحرضوا على هجرة الأوروبيين وأن ينشطوا فى نشر المزعجات من مختلق الأنباء

وفى آخر شهر يونيو أرسل دوفرين إلى حكومته يقول « إن المؤتمر لم يفعل شيئاً حتى ذلك الوقت ، وأنه ما لم تتخذ خطوة عاجلة فأن إطالة مدة وجوده تظهر عديمة الجدوى » .

وفى اليوم الثانى من يوليو قرر المؤتمر « أنه إذا رفض السلطان الدعوة الموجهة إليه لأرسال جنود إلى مصر فأن المؤتمر يحتفظ بحق التعبير عن رأيه فيما عسى أن يتخذ فى الفرصة المناسبة » .

وقد أبرق كارتريت إلى جرانفل فى التاسع والعشرين من يونيو يقول : « إن هجرة الأوروبيين وإعدادهم العدة للهرب بعد أن خفت زمناً عادت إلى الزيادة فى صورة شديدة . وإن الفنادق تغلق أبوابها وعمال السفن قد نقلوا مقرهم إلى مقربة من الشاطىء ، وإن ما بقى من المصارف يعد العدة لنقل الموظفين إلى السفن ، ومن المستحيل تصور الانهيار والخراب ، الذى دهم البلد هكذا فجأة ... إن الوطنيين حتى أشياخ الدين منهم ، يرفعون أصواتهم اليوم ضد الحزب العسكرى ، ويغادر القطر عدد كبير من ذوى الاحترام من العرب كما يتزايد بصورة شديدة رحيل الأسر التركية » .

وأبرق إليه أول شهر يوليو يصف سوء الشعور فى القاهرة تجاه الأوروبيين ويستأذن أن يسمح لهم بالهجرة .

وأبرق إليه ثانى أيام الشهر يقول « لى الشرف أن أخبركم أنه فى جلسة مجلس الوزراء بالأمس ألح عرابى باشا وزير الحربية على زملائه ليقرروا إعلان التجنيد العام توقعاً للأعمال العدائية ، وقد عارض بشدة محمود باشا الفلكى وزير الأشغال وعبد الرحمن بك وزير المالية ، وعلى ذلك لم يتخذ المجلس هذا القرار وفى نفس الوقت يستدعى الاحتياطى وعساكر الرديف فى نشاط » .

وفى اليوم السادس من شهر يوليو أصدر المؤتمر فى جلسته السابعة هـذا القرار الخطير وذلك بعد أخذ ورد بين دوفرين ودى نواى العضو الفرنسى « إن الدول الكبرى مقتنعة كل الاقتناع بأنه أثناء وجود الجند العثمانى بمصر سيحتفظ بحال البلاد المعتادة ولا يتعرض للأمور التى أعفيت منها مصر ، ولا لما خصت به من الامتيازات بموجب الفرمانات السابقة ، ولا لعمل الأدارة المعتادة ، ولا للنظم والاتفاقات الداخلية المبنية عليه . وأن تكون مدة بقاء الجنود الشاهانية التى سيعمل ضباطها بالاتفاق مع الخديو ثلاثة أشهر ما لم يسأل الخديو مد هذا الأجل ؛ فأذا فعل ، حدد الأجل الجديد بالاتفاق مع تركيا والدول الكبرى . وأن تتحمل مصر نفقات الاحتلال ... وأنه إذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فأن إنفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضوع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا » .

وأرسل المندوبون هذا القرار إلى حكوماتهم ولبثوا ينتظرون ما ترد به .

وظنوا أنهم قيدوا إنجلترة ، وحالوا بينها وبين الانفراد بالتدخل فى مصر ، كما ظنوا أنهم حالوا بينها وبين الانفراد بتركيا والضغط عليها ؛ وفاتهم أن إنجلترة قد أعدت عدتها لجميع الاحتمالات ...

كان على انجلترة أن تخلق هذا الظرف القاهر قبل أن تعتمد الدول هذا القرار المشترك وتقدمه إلى الباب العالى وأن تضرب الأسكندرية فتضع المؤتمر أمام الأمر الواقع ، وتذر قرار المؤتمر قصاصة من الورق لا قيمة لها ؛ فليتدبر فى ذلك الذين يسخطون ويتكلمون كما تتكلم الببغاوات كلما ذكر عرابى فيردون سبب الاحتلال إليه ... ليتدبر هؤلاء فى مسلك إنجلترة فها هى ذى على الرغم من كل شىء تصمم على احتلال مصر تنفيذا لسياستها المرسومة سواء وجد عرابى أم لم يوجد ، فلو لم يكن عرابى لكانَ أى رجل غيره من الناس أو أى حادث ذريعة لها ...

وكانت إنجلترة قد فكرت فى الظرف القاهر فعلا قبل ذلك وأعدت له كثيراً من الصور فأن لم تفلح هذه لجأت إلى تلك ...

ولم يتوان الأنجليز فى مصر عن إذاعة أنبائهم المختلقة ومن ذلك ما أبرق به كارتريت فى اليوم الخامس من يوليو قائلا « فى مجلس الوزراء الذى عقد بالأمس تكلم عرابى باشا كلاماً عظيم العنف ضد السلطان ، وفوق ذلك فأنه أمر ضباط الجيش المصرى أن يقطعوا كل صلة بدرويش باشا الذى يجب أن يفضى إليه بأن بعثته فى مصر انتهت » .

وبعد خمسة أيام فحسب من قرار المؤتمر أى فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو ذلك التاريخ الأسود وقع من الأنجليز عدوانهم الفاجر على مصر ، وأنف الدول جميعاً فى الرغام ، والمؤتمر قائم فى الآستانة لا يدرى ماذا يفعل ، وتركيا لم تبت فى الأمر بعد .

وستبلغ مهزلة المؤتمر تمامها حين يعقد جلسته بعد ضرب الأسكندرية بأربعة أيام لينظر فى الأمر !

فكر المؤتمر طويلا فى التدخل المسلح فى مصر وقد اتخذ قراره كيف يكون هذا التدخل ، ولكنه ما فكر لحظة أنه يتدخل لقتل حركة قومية صادقة فى مصر قوامها الحرية والحكم الدستورى ؛ وإذا كانت إنجلترة موطن الحكم النيابى والديموقراطية قد أذهلتها عن مبادئها أطماعها الاستعمارية فجعلتها كعادتها فى كل مواقف الاستعمار ذات سياستين : صراحتها ونزاهتها فى حكم نفسها ، ونفاقها وفجرها فى معاملة الأمم وبخاصة أهل الشرق ؛ وإذا كانت الروسيا والنمسا وألمانيا قد انصرفت بحكم أوتوقراطيتها عن نداء الدستور والحرية ، فكيف غفلت عن ذلك فرنسا موطن الثورة الكبرى ومبعث الحرية والأخاء والمساواة ؟ ؛ وكيف ذهلت عنه إيطاليا المجاهدة ، بلد مازينى وجاريبلدى وكافور ؟ ولكن الأنسان هو الأنسان مهما اهتدى إليه عقله من مبادىء ، ولن تزال الأثرة هى أساس كل تعامل بين أفراد هذا النوع من الحيوان مهما تبجح بعلمه وسموه ، ولن تزال هى الرابطة التى تقترنه على رغمه بدواب الأرض من العجماوات .

***

كانت إنجلترة قد أعدت بالفعل تدبير «الظرف القاهر» قبل أن يقترحه دوفرين فاقرأ خرافة الذئب والحمل فى صورة جديدة هى قصة النزاع بين بوارج الأسطول الأنجليزى وقلاع الشواطىء بالأسكندرية .

فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ، أى قبل تحفظ دوفرين بنحو شهر ، أخبر السير بوشامب سيمور أدميرال الأسطول البريطانى بالأسكندرية اللورد جرانفل، كما سبق أن ذكرنا ، أن المصريين يقيمون تحصينات فى شواطىء الأسكندرية وأن هذا يعد عملا عدائياً موجهاً إلى الأسطول ، وطلب زيادة السفن وقد أجابته حكومته إلى ما طلب دون استشارة فرنسا .

واستفهمت إنجلترة الباب العالى عما يراد بهذا الأجراء ، فردت تركيا بأنه لا تحصين هناك ولا استعداد وإنما هو إصلاح فى بعض الحصون المتهدمة ، ومع ذلك فقد أمرت تركيا بوقفه ؛ وأعربت تركيا عن أملها فى أن يتجنب قائدا الأسطولين ما عسى أن يثير أدنى نزاع ... ووقفت المسألة عند هذا الحد .

ولكن الأدميرال سيمور عاد فى أول يوليو فأبرق إلى سكرتارية الأدميرالية أن عرابياً يستمد بجمع السلاح والرجال وأنه يعلن أن النبى يوحى إليه كل ليلة ، وأنه سوف يضع الأسطولين فى فخ وذلك بسد البوغاز بالأحجار[1] .

وفى اليوم الثانى من يوليو أبرق كارتريت إلى جرانفل بأنه سمع أن مجلس الوزراء المصرى قرر استئذان السلطان فى العودة إلى أعمال التحصين بشواطىء الأسكندرية . وأبرق جرانفل إلى سيمور فى نفس اليوم ينبئه بذلك ويطلب إليه أن يأخذ حذره[2] .

وتلقى سيمور فى اليوم الثالث هذه البرقية الخطيرة « امنع كل محاولة لسد البوغاز إلى الميناء ، وإذا استؤنف العمل فى التحصينات أو إذا وضعت مدافع جديدة ، فاخبر القائد الحربى بأن لديك أوامر بمنع ذلك فإذا لم يوقف ذلك فوراً

(١) مصر رقم ١٧ ص ٦٢

(٢) المصدر عينه ص ٦١

لخطر التحصينات وأسكت البطاريات إذا أطلقت نيرانها »[١] .

وتلقى كارتريت فى الوقت نفسه نبأ ما أرسل إلى سيمور ، مشفوعاً بالتنبيه عليه أنه فى حالة ما إذا أقدم سيمورعلى عمله فيجب أن يُخطر الرعايا البريطانيون فى القاهرة وغيرها ليغادروا مصر قبل فوات الوقت[٢] .

وأرسلت برقيـة أخرى إلى سيمور نصها « قبل أن تأتى عملا عدائياً أدع الأدميرال الفرنسى إلى التعاون معك ولـكن لا تؤجل العمل كما طُلب إليك لأن الفرنسى رفض الانضمام »[٣] .

وفى اليوم الرابع من يوليو أبرق كارتريت إلى جرانفل أنه توجه وبصحبته القنصل الفرنسى إلى راغب باشا ، فأجابهما إجابة شبيهة بما اعتاد أن يجيب بها فى مسائل أخرى ومؤداه أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف وذكر كارتريت أنه أنذر الرعايا البريطانيين ليكونوا على أهبة للسفر[٤] .

وفى اليوم الخامس أبرق كارتريت إلى جرانفل « أنه رغبة فى أن يهيء زمناً للرعايا البريطانيين كى ينسحبوا من القاهرة فقد اقترحت على الأدميرال السير بوشامب سيمورأن يؤجل إلى يوم الخميس اتصاله بقائد حامية المدينة بشأن مسألةوضع البطاريات فى الحصون ؛ ذلك أنى أخاف أن يؤدى الاتصال السريع إلى تعجيل سير الحوادث وبذلك يجعل من الصعب انسحاب البريطانيين من القاهرة[٥] .

وفى نفس اليوم أبرق كارتريت يقول « لى الشرف أن أخبركم أن وكيل وزارة البحرية قابل الأدميرال السير بوشامب سيمور أمس بعد الظهروذكر له تأكيدات بشأن عمل إصلاحات فى مدخل الأسكندرية وبعد ذلك بقليل تلقى الأدميرال من قائد الحامية إجابة مكتوبة صيغت فى عبارة شبيهة بعبارات صاحبه ؛ وتلقى الخديو صباح اليوم برقية من السلطان ينبئه أنه سيعد هو ووزراؤه مسؤولين إذا لم توقف

(١و٢) مصر رقم ١٧ ص ٦٩
(٣و٤) ص ٧٤
(٥) ص ٨٠

أعمال التحصينات . لأن هذه الأعمال إذا استمرت سوف تؤدى إلى ضرب الأسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى ، وسيجتمع مجلس الوزراء اليوم للنظر فيما جاء من السلطان[(١)] » .

وفى اليوم السادس ، وهو اليوم الذى اتخذ المؤتمر فيه قراره النهائى أبرق كارتريت إلى جرانفل يقول « لى الشرف كذلك أن أخبركم أن الأدميرال[(٢)] السير بوشامت سيمور قد أرسل لتوه إلى قائد الحامية يطلب إليه إيقاف التحصينات والمبانى الشاطئية ؛ وقد أرسلت تبعاً لذلك تحذيراً رسمياً أخيراً إلى الرعايا البريطانيين ليغادروا القاهرة، وسوف أخبر فى الحال القناصل الأجانب بما اتبع من الخطوات »[(٣)]

وأرسل سيمور للمرة الثانية إلى طلبة باشا قائد حامية الأسكندرية فى اليوم السادس من يوليو يقول « البارجة إنفنسبل فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ : سيدى : لى الشرف أن أحيط سعادتكم علماً بأنى علمت من مصدر رسمى أن مدفعين أو أكثر أضيفا بالأمس إلى خطوط الدفاع البحرية ، وأن استعدادات حربية يجرى عملها فى الواجهة الشمالية للأسكندرية ضد الأسطول الذى تحت قيادتى ؛ وأرى لزاماً على والحالة هذه أن أنبه سعادتكم إلى أنه إذا لم توقف هذه الأعمال أو إذا أوقفت ثم استؤنفت فأن واجبى يقضى بأن أطلق مدافعى على الأعمال الجارى بناؤها »

ورد طلبة باشا بقوله « عزيزى الأدميرال الأنجليزى « لى الشرف أن أبلغكم أنى تلقيت كتابكم المؤرخ ٦ يوليو الذى تخبروننى فيه أنكم علمتم من مصدر رسمى وضع مدفعين وأن أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر ، فرداً على ذلك أؤكد لكم أنه لا أساس لهذه الأخبار ، وأنها من قبيل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم من كذبه ...

وإنى لمعتمد على مشاعركم الأنسانية الصادقة وأرجو أن تتقبلوا احتراماتى »[(٤)] .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٨١

(٢) ص ٩٢

(٣) ص ٩٢

(٤) ص ١٠٣

وأبرق جرانفل فى اليوم السابع إلى سفير حكومته بفرنسا يقول « أرسل إلى لوردات الأدميرالية صورة برقية وردت من السير بوشامب سيمور بتاريخ أمس يقرر فيها أن قائد الحامية أكد له أنه لم توضع حديثاً مدافع أو تجرى عمليات حربية ، وقد أكد هذا درويش باشا أيضاً . وقد قرر الأدميرال أنه لم يلاحظ عمليات منذ يوم ٥ بعد الظهر ، ولكنه لن يتوانى عن العمل إذا استؤنفت العمليات ، وقد ألقى إلى الأدميرال الفرنسى أن ينسحب فى حالة الاعتداء »[١] .

وقد جاء فى برقية سيور إلى الأدميرالية قوله إن وقف العمليات منذ التاريخ الذى أشار إليه ربما كان إطاعة لأمر السلطان[٢] وفى هذا دليل بل اعتراف من سيمور بأن العمليات أوقفت .

واليوم السابع كتب القناصل بالأسكندرية إلى سيمور يسألونه عما إذا كان مقتنعاً برد الحكومة المصرية بشأن أعمال التحصين ، ويخبرونه بأنهم على استعداد لأن يأتوا له بما يقنعه ؛ ويرجون منه أن يخبرهم ماذا بقى لديهم من وقت لحماية رعاياهم ، ثم يشيرون إلى أن ضرب الأسكندرية على أية حال يفضى إلى ضرر جسيم بالمسيحيين بالمدينة وبالوطنيين كذلك ، كما أنه يحطم كثيراً من الممتلكات الأوروبية .

ورد الأدميرال رداً رسمياً حاسماً قائلا « إنه إذا كان لهم من النفوذ ما يحمل قائد حامية الأسكندرية على الأخلاص فلا يستمر فى أعمال التحصين ، فأنه مستعد لأجابة طلبهم ، أما التأكيدات الكتابية مهما كانت عبارتها فأنها قليلة الجدوى لديه فيما هو بصدده وإنه لا يقصد ضرب المدينة وإن عمله إذا لزم الحال سيكون ضد الحصون ، وإنه سوف يخبر حكومته بكتاب القناصل ، بيد أنه لا يزال عند عزمه حسبما أخبر قائد الحامية إذا لاحظ استئناف أدنى عمل دفاعى . وعلى أية حال فسوف تكون هناك مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة[٣] .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧

(٢) ص ٩٨

(٣) ص ١٠٠

وأبرق كارتريت إلى جرانفل فى اليوم التاسع يقول « لى الشرف أن أحيطكم علماً بأن الأدميرال السير بوشامب سيمور تلقى نبأ بأن مدفعين أضيفا إلى قلعة السلسلة تجاه الميناء الجديد ، ولن يستطيع الأدميرال أن يتغاضى عن هذا العمل المدائى ، ولذلك صمم على أن يفتح أفواه نيرانه فى مطلع شمس الثلاثاء ١١ الحالى ، وسأخبر هذا المساء القنصل العام والخديو ودرويش باشا وسأعد ما يلزم لينزل جميع الرعايا البريطانيين إلى السفن الليلة أو صباح الغد » .

وأبرق سيمور فى اليوم التاسع إلى سكرتيرية الأدميرالية البريطانية يقول : « إلحاء إلى برقيتى المؤرخة ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ أقول إنه ليس لدى أى شك في حدوث الاستعدادات الحربية ، وقد وضعت مدافع جديدة فى حصن السلسلة ، وسأخطر قناصل الدول الأجنبية صباح غد وأبدأ بالضرب بعد أربع وعشرين ساعة ما لم تسلم إلى الحصون القائمة فى شبه جزيرة رأس التين والحصون المشرفة على مدخل الميناء »[١]

وجاء فى برقية إلى سيمور من سكرتارية الأدميرالية طلب إليه فيها أن يستبدل بكلمة «تسلم» الواردة فى برقيته عبارة «تسلم مؤقتاً بقصد تجريدها من السلاح»[٢]

وفى صباح اليوم العاشر من يوليو تلقى طلبة باشا إنذاراً نهائياً هذا نصه « لى الشرف أن أخطر سعادتكم أنه لما كانت أعمال الاستعدادات المدائية الموجهة ضد الأسطول الذى أتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول نهار أمس فى حصون صالح وقايتباى والسلسلة ، فقد عقدت العزم أن أنفذ غداً ١١ الحالى عند شروق الشمس ما أعربت لكم عنه من عمل فى كتابى المؤرخ يوم ٦ الحالى وذلك إن لم تسلموا إلى فى الحال قبل هذه الساعة البطاريات الموضوعة فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الأسكندرية الجنوبى بقصد تجريدها من السلاح »[٣] .

* * *

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٥ .
(٢) ص ١١٦ .
(٣) مصر رقم ١٦ ص ٤ .

هذه هى قصة النزاع بين بوارج الأسطول الأنجليزى وقلاع الشواطىء بالأسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل فى صورتها الجديدة …

وما ندرى بأى كلام نعقب عليها وأى عبارات اللغة تفى بوصف سماجة السير بوشامب سيمور ذئب هذه الأقصوصة ؟

لقد قرر دى فرسنيه رئيس الوزارة الفرنسية فى كتابه المسألة المصرية أن المعلومات التى لديه « لم تكن بالخطورة التى تبدو من رسائل الأميرال سيمور بحيث أن ضرب الأسكندرية فى الظروف التى وقع فيها إنما كان عملا هجومياً لادفاعيا وقرر كذلك أن « سد البوغاز لم يشرع فيه فى وقت من الأوقات[١] .

وقد أرسل الأدميرال الفرنسى كونراد إلى حكومته يصف تحرش سيمور ويذكر أنه لم يشاهد أى عملية فى الحصون[٢] .

ويقول نينيه وقد حضر ضرب الأسكندرية « إنى أؤكد بشرفى ما تحققته إذ كنت أزور الحصون يوميا مصحوباً بكبار الضباط أنه منذ يوم مجىء أوامر السلطان بالكف عن الترميمات لم يطرأ أى تغيير على أية بطارية من جهة الميناء أو على البحر، ولم يحصل أى ترميم فى الحصون ولم ينصب فيها أى مدفع جديد»[٣]

ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف يكون تحصين أمة شواطئها تلقاء سفن أجنبية تهددها عملا عدائياً يسوغ الشر والاعتداء ؟ ! إن مثل ذلك كمثل لص أراد أن يقتحم داراً وسلاحه فى يده والشر فى معارف وجهه ، فأذا تناول صاحب الدار شيئاً يدفع به عن نفسه هذا العدوان عد ذلك منه حقاً للص يسوغ له أن يقتله ويأخذ متاعه وداره ؛ وليس فى تاريخ العدوان كما ذكرنا أقبح من هذا ولا أشد منه فجوراً …

وكيف يجوز فى عقل أن تكون قلاع الأسكندرية هى المعتدية على بوارج

---

(١) المسألة المصرية ص ٢٨١

(٢) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٠ وثيقة رقم ١٦٢

(٣) الرافعى : نقلا عن كتاب جون نينيه — عرابى باشا ص ١٤١

الأسطول والقلاع لم تنتقل إليها لتضربها وإنما جاءت السفن تهدد المدينة والمؤتمر الدولى قائم فى الآستانة ينظر فى المسألة المصرية ؟!

إن من حق كل دولة بل من واجبها أن تعد وسائل الدفاع عن كيانها فى كل وقت وفى غير مناسبة معينة ، وتكون أكثر التزاماً بأداء هذا الواجب إذا تهددها عدو ؛ ذلك ما لا يستطيع أن يمارى فيه أحد .

ولكن الأدميرال العظيم السير بوشامب سيمور أو قل ولكن جلادستون زعيم الأحرار وجرانفل السياسى القدير رأيا فى هذا الواجب الذى ثبت أن مصر لم تؤده فيما يتصل بحصون الشواطىء ، مسوغاً لأطلاق نيران المدفعية على مدينة وادعة مسالمة كمدينة الأسكندرية ... ألا ما أتعس هذا الشرق المسكين !

ويزيد فى سماجة هذا التحرش السخيف من جانب الأدميرال العظيم أنه اعترف بأن أعمال الرم أوقفت ؛ والحق أنه كان يظهر الهدوء ريثما ينقل الرعايا البريطانيون، فلما تم ذلك عاد إلى إنذاره ثم لم يكتف بما تقدم به أولى الأمر حتى طلب تسليم بعض الحصون !

ولقد طلب تسليم بعض الحصون لأنه من المستطاع إقامة الدليل المادى على أنه ليست هناك تحصينات وبذلك تسقط حجته إن كانت هذه حجة ، وإن ذئب الأقصوصة هذا ليعلم أن هذا التسليم لن يكون ؛ وبذلك تواتيه الذريعة السمجة المضحكة لضرب الأسكندرية ؛ ولقد ضربها سيمور وكوفىء على ذلك بأن أصبح اللورد ألسستر !

يقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية يصف عمل إنجلترة « إن عملها هذا كان يخشى منه عليها ، ولكنه أفلح كما يفلح كل عمل وقح تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان » .

وقال أيضاً « والحق أنه لا شىء أحط قيمة ولا أصرح نفاقاً من الحجة التى شرع بها الأنجليز فى ضرب الأسكندرية » .

وقال « وهذه حجة أجاد تسخيفها المستر ريشردز فى البرلمان إذ قال : أجد

رجلا يحوم حول بيتى وعلائم الأجرام بادية عليــه . فأبادر إلى إحضار الأقفال والمتاريس وأحكم سد نوافذى فيقول إن هذا إهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابى ، ويعلن أنه إنما فعل ما فعل دفاعاً عن نفسه ليس غير » .

ولقد خطر لنا هذا الذى يذكره المستر ريشردز قبل أن نقع عليه ولا ريب أنه يخطر على بال كل من يقرأ قصة هذا العدوان الفاجر ...

ومما يزيد الأمر غرابة ويزيد موقف إنجلترة سخفاً أنها تجعل مما ادعته من أعمال التحصين « ظرفاً قاهراً » لتدخلها فى الوقت الذى كانت قد فرغت فيه من نقل رعاياها من البلاد !

***

بعد أن أرسل سيمور إنذاره النهائى إلى طلبة عصمت ، أرسل كارتريت إلى رئيس الوزارة المصرية يقول « سيدى الوزير: بناء على البلاغ الذى أرسله الأدميرال السير بوشامب سيمور صباح اليوم إلى قائد حامية الأسكندرية ، أرانى مضطراً إلى أن أخلى قنصلية صاحبة الجلالة ، وأن أقطع فى الوقت الحاضر العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل القنصل العام عن جلالتها فى مصر » .

والواقع أن العلاقات تعد مقطوعة بين الأنجليز ووزارة راغب باشا منذ قيامها؛ فقد قابلوها كما ذكرنا بالجفاء الشديد ، يتبين ذلك من ردهم على إخطار الحكومة المصرية إياهم بقيام هذه الوزارة إذ لم يزيدوا على قولهم إنهم علموا بما أخطروا به ، دون أى عبارة من عبارات المجاملة المعتادة ...

وقد غادر مالت القنصل العام الأسكندرية منذ اليوم السابع والعشرين من يونيو وأناب عنه كارتريت وغادرها أيضاً كوكسن إبليس مذبحة الأسكندرية وشيطان يوم عابدين ، وأوعزت الحكومة الأنجليزية إلى أوكلند كالفن الرقيب المالى الأنجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ...

ويذكر بلنت فى كتابه أن رحيل مالت كان بمساعيه إذ كتب إليه صابونجى وكيله بالقاهرة يقول بضرورة إخراج مالت من مصر فكل الناس لاعنه وكلهم

قاتله إذا بقى ، فذهب بلنت إلى وزارة الخارجية والتمس نقل مالت إلى إحدى السفن وأجيب إلى طلبه .

ومهما يكن من الأمر فأن الأنجليز منذ مجيء سفنهم إلى الأسكندرية كانوا يترقبون اليوم الذى يطلقون فيه مدافعهم على المدينة ...

أما الخديو فهو فى كنف الأنجليز وحمايتهم منذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية بتاريخ اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو ، وذلك فى ظل السفن الأجنبية ، بل إنه فى كنفهم منذ يوم عابدين ، أو فى الواقع منذ عملوا على تعيينه بعد خلع أبيه

لهذا كان يجارى وزارة راغب انتظاراً لتدخل الأنجليز ؛ وكان فى الوقت نفسه يتعجل هذا التدخل وقد رأينا ما كان منه ومن عمر لطفى فى فتنة الأسكندرية

ولم يكن يضيره أى اتفاق مع راغب ، وهو يوقن أن العاقبة للأنجليز ؛ بل لقد كانت مداراته راغباً ستراً لنياته أمام درويش حتى ينفض يده من كل ذلك عما قريب ويركن إلى الغالبين ...

ولسنا نرسل هذا الكلام الخطير على عواهنه ؛ ولسنا كذلك نكتفى بما سلف من مواقف الخديو وهى فى ذاتها براهين تثبت ما نقول وبخاصة قبوله المذكرتين المشتركتين واحدة بعد الأخرى ، وقد جاء فى أولاهما إشارة الحكومتين إلى بقائه على العرش و « أن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج إليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلاده وشعبه »[1] ، وقد كانت الثانية تدخلا فعلياً فى شئون البلاد الداخلية ، ولا نقتصر على الأشارة إلى موقفه من الحركة القومية الدستورية بوجه عام وشدة كراهته عرابياً بوجه خاص لا نكتفى بذلك كله وإنما نعرض على القارىء نص البرقيتين الآتيتين .

كانت البرقية الأولى من كارتريت إلى جرانفل فى اليوم السابع من يوليو وفيها يقول « أتشرف بأخبار فخامتكم أن الخديو استدعى السير أوكلند كلفن هذا الصباح ليدلى إليه بالطريق الذى يقترح سموه اتباعه فى مواقف معينة تتصل بحركاته

(١) راجع ص ١١٦ من هذا الكتاب .

الشخصية . إن سموه يعتزم البقاء فى مصر إذا وقع الضرب ، فأنه لا يستطيع كما ذكر أن يعتزل الذين وقفوا بأخلاص إلى جانبه أثناء المحنة ، كما لا يستطيع أن يغادر مصر إذ تهاجمها دولة أجنبية لمجرد - كما يصح أن يقال - أنه يريد أن يضمن سلامته الشخصية ؛ وإذا حاولت تركيا الغزو ولقيت جيوشها مقاومة فأن سموه ودرويش باشا سوف يملنان الجيش أنهما كرجلين من رعايا السلطان الوالين يعدان نفسيهما مقصرين فى أداء واجبهما إذا أقرا المقاومة وعلى ذلك فأنهما يأويان بأحسن وسيلة ممكنة إلى يخت درويش باشا ؛ وفى حالة ضرب الأسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى سيأوى سموه إلى قصر ترعة المحمودية حيث يرافقه درويش باشا . وكلما كان الفراغ من الأمر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصياً. وقد كانت لهجة سموه أثناء المقابلة كلها هادئة وكان يضبط نفسه واختتم حديثه بأن رجا من السير أوكلند كلفن أن يطلع فخامتكم على ما اعتزمه ...

وإنى أقترح فى حالة الضرب أن أخبر درويش باشا قبل إقلاعى أن حكومة جلالة الملكة تلقى على عاتقه تبعة سلامة سموه الشخصية »[1] .

أما البرقية الثانية فهى من جرانفل إلى كارتريت فى اليوم التالى وهذا نصها : « توافق حكومة جلالة الملكة على ما ذكرته فى برقيتك بالأمس وهو أنك ترى أن تخبر درويش باشا فى حالة ما إذا أدت الضرورة إلى ضرب الأسكندرية بأنك تلقى على عاتقه سلامة الخديو الشخصية »[2] .

ولسنا بحاجة إلى التعقيب بكلمة واحدة على كلام الخديو ، فما يأتى كلام أصرح من كلامه فى موقف كهذا الموقف وبخاصة قوله « إنه كلما كان الفراغ من الأمر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصياً »

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٠٢

ولسوف يزداد شأن توفيق وضوحاً فيما يأتى من الحوادث إن كان شأنه يحتاج إلى وضوح ...

* * *

لم يكن هذا التحرش السخيف من جانب سيمور ليطرأ على بال أحد ، وبخاصة لانعقاد مؤتمر الآستانة واتخاذه قراره بدعوة السلطان إلى إرسال جيش إلى مصر ؛ لذلك لم تأخذ وزارة راغب باشا أهبتها لتقوية مدفعية الأسكندرية وإعدادها للقتال كما زعم الأنجليز من مزاعم اتخذوها ذريعة لعدوانهم ...

وأراد راغب باشا أن يتلافى الخطب بكل ما فى وسعه فاستمان عقب تلقى الأنذار بقنصل إيطاليا العام ليدعو زملاءه القناصل ابتغاء السعى لدى سيمور عسى أن يرجعوه عن عزمه ؛ واجتمع القناصل ولكنهم لم يستطيعوا عمل شىء لأنهم كانوا على يقين أن ضرب الأسكندرية غدا أمراً مقرراً ...

وأشار القناصل على راغب أن يذهب بنفسه لمفاوضة الأدميرال ، فتوجه يصاحبه عبد الرحمن رشدى بك وزير المالية وتجران بك سكرتير مجلس الوزراء ، وقابلوا سيمور على ظهر البارجة إنفنسبل فوجدوا منه إصراره على إنذاره فأعلنوه أنهم سيرسلون ردهم فى المساء ؛ وتوجه راغب باشا لمقابلة الخديو ...

وعقد الخديو مجلساً من الوزراء وكبار رجال الدولة شهده درويش باشا ، لينظروا ماذا يكون جواب الحكومة على إنذار سيمور .

وبعد أن تداول المجلس طويلا انتهت أغلبيته إلى رفض ما طلب الأدميرال ؛ وكانت المداولة فى أمرين : هل تقبل مطالب الأنجليز تجنباً للعدوان ، أم هل ترفض إبقاء على الكرامة القومية وتفادياً للمذلة ؟

وكانت حجة القائلين باختيار الرأى الأول أن الحصون ضعيفة لا تجدى مقاومتها ، وأن الحكومة أخذت على غرة فلم تأخذ للأمر أهبته ؛ وكان أصحاب الرأى الثانى يقولون إن العدوان واقع لا محالة سواء قبلت مطالب الأنجليز أم لم تقبل ، فلن يعجز الأنجليز عن تحرش من نوع آخر ...

ورجح رأى الفريق الثانى ؛ بيد أن الوزارة رأت أن تسلك سبيل الحكمة حتى آخر لحظة ؛ يقول عرابى فى مذكراته « تقرر بالمجلس المذكور بأنه لا يمكن إجابة طلب الأميرال المذكور لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد حيث أن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما أنشئت إلا لحفظ الثغور والعساكر ما وجدت إلا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية إلى آخر رمق من حياتهم دفاعاً عن شرف الوطن . ولكن قفلا لباب الشر وقطعاً لاحتجاجات الأميرال سيمور رئيس الدونتمة الأنجليزية رؤى أن يرسل له وفد مركب من عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وقاسم باشا وكيل البحرية السابق ومحمد كامل باشا وكيل البحرية حينذاك وتجران بك باشكاتب مجلس النظار ويتطلفوا معه فى المقال ويوضحوا بأن المصريين ليسوا أعداء للأنجليز وأنه لا يمكن سد البوغاز بالأحجار كما قيل وأنه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالأحجار عند شروعها فى العمل إن وجدت ... وأما إنزال المدافع فهو أمر لا يمكن قبوله لما فيه من مخالفة قوانين البحرية ولما يتبع ذلك من الأهانة والذلة . وإنما يمكن إجابة لطلبه وفضاً للأشكال تنزيل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى أحدها طابية المكس والثانية طابية صالح والثالثة طابية برج السلسلة وأن يكتفى بذلك رداً لشرف الدونتمة كما يزعم ... فذهب الوفد وبلغ الرسالة ثم رجع وأخبر بأن الأميرال المذكور لم يقبل ما عرضه عليه وصمم على وجوب إنزال جميع المدافع كما طلب ، وإنما تكرم بأن عافى عساكره البحرية من معاناة مشقة إنزال المدافع وتخريب الطوابى وسمح للعساكر المصرية بأن يعانوا هذه الأعمال ويخربوا معاقلهم بأيديهم وزاد على ذلك أنه يطلب من الحكومة أمراً صريحاً بأعطائه طابية المكس وما وراءها من الأراضى وطابية العجمى وطابية باب العرب لاتخاذها معسكراً

للمساكر الأنجليزية وأنه إذا لم يجب إلى طلباته المذكورة باشر القتال عند طلوع الشمس فى يوم غد » .

ويؤيد ما ذكره عرابى ما أورده اللورد تشرشل فى اتهامه عن هذا الوقف فقد أثبت نص برقية لمراسل المانشستر جارديان يذكر فيها أن الخديو عقد مجلس الوزراء برياسته فى اليوم العاشر من يوليو ، وكان عرابى غائباً عن هذا المجلس وقد قرر المجلس أن يرسل رئيس الوزراء إلى سيمور يعرض عليه إنزال ثلاثة مدافع إما من حصن واحد وإما من ثلاثة حصون ، وإبقاء على علاقات المودة بين الحكومة المصرية والأمبراطورية البريطانية ؛ وكلف الخديو رئيس الوزراء بأن يكتب بهذا إلى الأدميرال فأذا رفض وأصر على ضرب المدينة فأن الحصون لن تجيب إلا بعد الطلقة الخامسة من البوارج ، وبعد ذلك يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »[١] .

وأرسل الوزراء فى المساء الرد الآتى على الأنذار النهائى « لم تأت مصر شيئاً يقضى بأرسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ؛ ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية أنها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسؤوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الأسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب » .

---

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥

وتأهب الأدميرال العظيم لضرب المدينة ، ويجدر بنا قبل أن نصف هذه المأساة الشنيعة أن ننظر ماذا كان موقف فرنسا وقد كان لها أسطول بالأسكندرية ، ثم ماذا كان موقف تركيا وكان لها الحق فى مصر ...

فى اليوم الرابع من شهر يوليو أبلغ اللورد لايونز سفير إنجلترة فى باريس المسيو دى فرسنيه نبأ التعليمات التى أرسلت إلى سيمور قبل ذلك بيوم باستعمال القوة ضد قلاع الأسكندرية ؛ وسأل السفير المسيو فرسنيه عما إذا كانت فرنسا سترسل مثل هذه التعليمات إلى الأدميرال كونراد .

وكان كونراد قد أبلغ حكومته ما رأى وما علم ، وقد قرر كما أسلفنا أنه لم يكن هناك أعمال فى الحصون كما ادعت إنجلترة .

وعقد فرسنيه مجلس الوزراء ، ولم تكن فرنسا رسمت لنفسها خطة بشأن هذا التحدى المفاجىء ، ولم يدر بخلد فرسنيه أن تجرؤ إنجلترة على هذا العمل مهما بلغ من تطلعها إلى الانفراد بضرب مصر ، وذلك لأن المؤتمر قائم فى الآستانة يدرس كيف يكون التدخل فى شؤون مصر ؛ وكانت تظن فرنسا أنها بهذا المؤتمر الذى اقترحته قد أخذت السبيل على إنجلترة فجعلت المسألة المصرية مسألة دولية .

وكذلك كانت فرنسا مطمئنة إلى أن الظرف القاهر الذى أضافه دوفرين إلى مقترح السفير الأيطالى لم يظهر بعد ، وليس فى شؤون مصر ما يدعو إلى القلق ، وقد كان فرسنيه يقظاً إلى أن الأنجليز يبالغون فى تصوير ما يزعمون من سوء الحال فى مصر ...

وقرر مجلس الوززاء الفرنسى لسوء حظ مصر الامتناع عن مشاركة إنجلترة فيما هى مقدمة عليه ، وذلك لأن هذا العمل يعد خروجاً على مؤتمر الآستانة ، وهو يجر إلى اعتداء لا موجب له على مصر ولا يمكن عده عملا دفاعياً ؛ هذا إلى أن الحكومة لم تعرض الأمر على مجلس النواب الفرنسى ، ولا يمكنها أن تدخل فى حرب بدون إقرار هذا المجلس .

وكتب دى فرسنيه إلى السفير الفرنسى بلندن ليخبر الحكومة الأنجليزية

بقرار مجلس الوزراء الفرنسي وبأنه أرسل التعليمات للأدميرال كنراد أنه إذا أمر القائد الأنجليزي على ضرب الأسكندرية فعليه أن يغادر الأسكندرية بالأسطول الفرنسي ويرسو قرب بور سعيد .

وهكذا تخلى فرنسا السبيل لأنجلترة لتنفرد بضرب مصر ؛ وكم لحقت بمصر النكبات من جراء ضعف السياسة الفرنسية ؛ وما تنسى مصر أن فرنسا بعد أن شدت أزر محمد على وأغرته زمناً بالوقوف فى وجه إنجلترة تخلت عنه أمام تهديد بالمرستون وتركته ينهار وحده ...

الحق أن فرنسا كانت تفطن إلى أن إنجلترة تريد أن تنفرد باحتلال مصر ، ولم تأنس فرنسا فى نفسها القوة لتناوىء إنجلترة مناوأة فعلية مخافة أن يدب الخلاف بينهما وألمانيا التى ضربتها تلك الضربة القاصمة منذ اثنى عشر سنة فى حرب السبعين لم تزل لها بالمرصاد ؛ ولم يزل بسمارك يرمى إلى إضعاف فرنسا حتى لا تنهض من كبوتها فتثأر لما لحقها من هوان .

لهذا تغافلت فرنسا على كره منها وأفسحت السبيل لأنجلترة فأضاعت بذلك جهودها الدبلوماسية الماضية جميعاً فى عرقلة السياسة الأنجليزية ...

أما تركيا فقد تراخت وتهاونت فى الأمر وأظهرت ضعفاً وتردداً وحيرة هى خليقة بدولة مثلها قامت على القوة والدسائس وعدمت الوسائل الدبلوماسية الصحيحة

فى اليوم الثامن من يوليو أبرق دوفرين إلى جرانفل يقول « أتشرف بأخباركم أن وزير خارجية تركيا قد خرج لتوه من عندى ، وجاء يتوسل لاعتبارات إنسانية أن تطلبوا إلى الأدميرال سيمور ألا يفعل شيئاً يعجل الأزمة فى الأسكندرية ؛ وأجبته أن الأمر كله بيد السلطات المصرية هناك ، وما عليهم إلا أن يعملوا حسب ما طلب إليهم وبذلك فلن تطلق قذيفة واحدة ؛ ولاحظ سعادته أنه ربما كان فيهم بعض ذوى النزق والحمق ؛ فقلت لم لم يذهب السلطان بجنوده إلى هناك ليجبرهم على النظام ؟ ثم ذكرت له أنه إذا استطاع أن يدع لدى من الضمانات ما يؤكد لى أن السلطان سيفعل كما أردنا ، فأن ما أدلى به إلى فخامتكم بشأن مقترحاته سوف

يلقى منكم الاعتبار الودى ؛ فى حين أن مجرد طلبه الذى أراد أن أبلغه إليكم لا يكون له الأثر المطلوب طالما أنه لا يقوم على شىء ؛ فقال إنه لا يملك أن يعطينى أى تأكيد فأن المسألة تدرس الآن وأمله أن يستطيع يوم الاثنين أن يفضى إلى بشىء ... ولم يقل أكثر من ذلك ... ولما ألححت على سعادته قال إن عرابياً اتخذ سبيل العناد والواضح أنه لا بد من عمل شىء »[1] .

ومن هذه البرقية يتبين لنا مبلغ ما فى السياسة التركية من حيرة وتردد وما فيها من ضعف يتجلى فى هذا التوسل باسم الأنسانية ؛ وترينا هذه البرقية الهامة كذلك مبلغ ما فى السياسة الأنجليزية من لؤم وكذب ؛ فأن استعداد الأنجليز للرجوع عن ضرب الأسكندرية إذا عمل السلطان كما يحبون فيه أبلغ دليل على أن خوفهم من أعمال التحصينات المزعومة وعدهم ذلك ظرفاً قاهراً للتدخل كان من أسخف الأكاذيب وأحطها ؛ وأن ضرب الأسكندرية كان نية مفروغاً منها ...

وفى اليوم العاشر من يوليو أبلغ دوفرين حكومة تركيا ما يأتى « تتشرف سفارة حكومة جلالة الملكة بأن تخبر حكومة الباب العالى بأنه بناء على استمرار السلطات الحربية فى مصر فى تسليح الحصون بالأسكندرية ، فأن الأدميرال الأنجليزى سوف يعلن هذا الصباح أنه ما لم تسلم الحصون مؤقتاً بقصد تجريدها من السلاح فأنه سيطلق مدافعه بعد أربع وعشرين ساعة »[2] .

وأبرق فى نفس اليوم إلى حكومته يقول « أتشرف بأن أخبركم أنى ناشدت السلطان للمرة الأخيرة بكرة هذا الصباح ، وأخبرته أن ما تلقت به حكومة جلالة الملكة تأكيداته من اقتناع قد قضى عليه قضاء تاماً بسبب مسلكه بعد ذلك . وأجاب السلطان أنه سوف يرسل إلى فى الساعة الخامسة من صباح الغد إجابة مبوبة على رسالتى ؛ وفى نفس الوقت طلب أن يؤجل ضرب الأسكندرية فأجبت

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٤
(٢) ص ١٢١

جلالته رداً على ذلك أنى سأبلغ فخامتكم رسالته ؛ ولكن إذا رفضت الشروط التى طلبها الأدميرال سيمور — تلك الشروط التى بلغها الوزير صباح اليوم بناء على توجيهكم — فأنه لا يبقى لدى أمل فى تعديل اتجاه ما اعتزم عمله »[1] .

وفى نفس اليوم العاشر أبرق جرانفل فى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر إلى سفرائه فى باريس وبرلين وفينا وروما وبطرسبرج والآستانة ، ليبلغ كل منهم الدولة التى يوجد بها أن « المسلك الذى سلكه أدميرالنا لم يكن إلا عملا مشروعاً لا أقل ولا أكثر للدفاع عن النفس ، وأن عمله ، إذا أدى سوء الحظ إلى العمل لن يكون رائده غير هذا دون أن يكون لنا أى مأرب خفى ؛ ولقد تبين من تقريره أن السلطات فى الأسكندرية مستمرة فى تدبيراتها العدائية على الرغم من أوامر السلطان ومن رغبة الخديو ، ومما ذكروه لنا مراراً من تأكيدات » .

وأضيف إلى هذه البرقية عبارة لدوفرين خاصة وهى : « وإننا نعتقد أننا نعمل وفق مصالح السلطان المفهومة حق الفهم ، وقد أغفلت سلطته فى مصر »[2] .

وللقارئ أن ينظر فيما فى هذه البرقية من حجة الدفاع عن النفس ومراعاة مصلحة السلطان ، واستمرار السلطات فى الأسكندرية فى تدبيراتها العدائية ، ليرى مثلا رائعاً للسياسة الأنجليزية كيف تلجأ إلى الكذب الصريح فى سبيل تحقيق أطماعها الاستعمارية ! ...

وفى اليوم الحادى عشر ، وهو اليوم الذى حدث فيه الضرب ، أبرق دوفرين إلى جرانفل فى الساعة الرابعة صباحاً يقول : « حضر إلىّ الآن سعيد باشا وزير الخارجية ليسلمنى مذكرته المرسلة مع هذا ... وليخبرنى أنه فى المساء يستطيع أن يقترح علىّ حلاً معقولا للمسألة المصرية ؛ وقد طلبت إليه إيضاحاً ؛ فقال : إن كل ما عنده الآن أن الحل سيكون معقولا ؛ فقلت إنه لا مجرد دخول عضو تركى فى المؤتمر ولا مجرد العودة إلى دعوة عرابى باشا إلى هنا يكون حلا معقولا ، فعاد

---

(١) ص ١٢١

(٢) ص ١١٤

يكرر قوله إن الحل سيكون معقولا . ورجانى أن أرسل إليكم وإلى الأدميرال سيمور ما سلف فى الحال ومشفوعاً بتوصية بقصد تأجيل الأنذار لكى يدع ذلك متسعاً من الوقت يسمح بأن تصل رسالة أخرى من الباب العالى إلى فخامتكم ؛ فقلت إنى لم أمنح سلطة التدخل فى عمل الأدميرال سيمور ، وأن عبارة الحل المعقول من الغموض بحيث لا تدع لى أكثر من أن أعيد لفخامتكم ما قال بنصه ؛ وأضفت إلى ذلك قولى إنى على أى حال سوف أرسل إلى السير بوشامب سيمور صورةً برقية لمذكرة الباب العالى ولما طلبه منى أخيراً ، مقترحاً أنه فى حالة ما إذا كانت التعليمات المرسلة إلى الأدميرال تسمح له بالتأجيل ، أن يؤجل سعادته الضرب ثلاث ساعات أو أربع ابتغاء إفساح الوقت لتصل إليكم رسالة الحكومة العثمانية إذا كنتم ترغبون أن ترتبوا عليها عملا ما ... وقد جرؤت على أن أبين لسعيد باشا مبلغ ما كان فى التراخى الدبلوماسى من حمق وبين أيدينا مسائل عظيمة كهذه حتى أصبح من المستحيل مادياً أن نتدخل فى مجرى الحوادث »(١)

أما مذكرة الباب العالى فهذا نصها وكانت بتاريخ اليوم العاشر « رداً على المذكرة الشفوية لسفارة صاحبة الجلالة البريطانية بتاريخ ١٠ الحالى والتى تلقاها الباب العالى بعد ظهر اليوم نفسه ، تتشرف وزارة الخارجية بأخبار السفارة أنه وفقا لتلغراف أرسل اليوم من الخديو والماريشال درويش باشا ، قد أعلن سموه والحكومة المصرية أدميرال الأسطول البريطانى بالأسكندرية أن السلطات المحلية سوف لا تتعرض بمقاومة فى حالة ما إذا أقدم الأدميرال على الضرب (٢)

ومن الجلى أن عملا كهذا إذا وقع يؤدى إلى افتيات خطير على الحقوق الملكية لصاحب الجلالة الشاهانية السلطان وعلى مصالح الأقليم . وإن الحكومة الشاهانية لواثقة من أن مجلس وزراء سان جيمس إذ ينظر إلى ما ذكر نظرة

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٢٢

(٢) يشير إلى أن الرد على الأنذار النهائى يكتفى بألقاء تبعة الضرب على الأنجليز دون أن يذكر عدواناً بعدوان

الاعتبار الجدى يتخذ الخطوات التى تؤدى إلى أن ينصرف الأدميرال سيمور عن أى عمل من طبعه أن يفضى إلى مثل هذا الوضع النهائى وأن يرسل إليه التعليمات بهذا المعنى . وإن الحكومة الشاهانية على أى حال سوف تتشرف بأخبار سفارة صاحبة الجلالة البريطانية عن القرار الذى ربما وصلت إليه غداً الثلاثاء فى الليل بشأن رسالة السفارة السالف الأشارة إليها بأعلا هذا ؛ وبشأن البرقية الواردة من الخديو والمارشال .

وإن الباب العالى ليرجوا من مجلس وزراء سان جيمس أن يتكرم بسرعة إرسال التعليمات بما طلبنا أعلاه إلى الأدميرال »[1]

هذا كل ما فعلته تركيا ولا نجد فى المكاتبات الدبلوماسية أسوأ من هذه البرقيات التى تنطق بالحيرة والضعف والتسويف والارتباك ...

* * *

تُركت مصر وحدها تتلقى ضربات الاحتلال الأولى ممثلة فى الاعتداء الآثم على الأسكندرية ؛ وسوف يبذل الوطنيون ما فى وسعهم تلقاء هذا الاعتداء وإن كانوا ليوقنون أن قوتهم المادية أضعف كثيراً من قوة أعدائهم ؛ ولكن الحر إذا وجد نفسه فى موطن يوقن فيه أنه هالك لا محالة كان عليه أن يبذل ما فى وسعه من مقاومة أنفة منه وحفاظاً ...

ولكننا والأسف يملأ نفوسنا سنجد أول خطوة من خطى التخاذل فى مسلك الخديو توفيق منذ يبدأ الضرب وسوف يكون لمسلكه بعد هذا أبعد الأثر فى بث روح التردد والانقسام حتى يفضى الأمر إلى الهزيمة ؛ وعلى الذين يعنون بتاريخ مصر أن يذكروا أن وجود توفيق باشا على رأس حكومة مصر يومئذ كان العامل الجوهرى فى نجاح مدبرى الاحتلال ...

ثم انتقل الخديو فى عصر اليوم العاشر من يوليو من سراى رأس التين فى فى موكبه الرسمى إلى سراى الرمل ، وسيبقى بها حتى يقع الضرب ويتبين عاقبته ثم

(١) رقم ١٧ ص ١٢٣

يعود إلى رأس التين حيث يتلقاه سيمور ويعد له ترجمانا يلازمه ويضع البوارج على مقربة من القصر لحمايته .

وكان كارتريت قد أشار عليه قبل ذلك الحديث الذى أفضى به إلى كلفن ، بأن يأوى إلى إحدى سفن الأسطول ولكنه رأى أن الوقت لم يحن بعد لهذه الخطوة الجريئة ، كما أنه كان فى شك من العاقبة ...

يقول الشيخ محمد عبده « ١١ يوليه : أحد الميرالايات الذين فى معية الخديو قال له : ما مصير الأسكندرية لو ضربها الأنجليز ؟

فأجاب الخديو : ستين سنة ... وهز كتفه .

فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الأميرال ، والوقت لم يزل يسمح بذلك ؛ استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية ...

فأجاب : فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ؛ حرب بحرب؛ كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الأروبيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب ...

الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا »(١) .

ويقول بلنت فى كتابه بعد أن ذكر ما أفضى به توفيق إلى كلفن « كان هذا هو البرنامج الذى سار على وفقه الخديو ولم يخرج عنه إلا فى أنه لم يذهب إلى قصر المحمودية وإنما ذهب إلى سراى الرمل على ثمانية أميال من الأسكندرية وهو مكان أكثر أمنا فى حالة إطلاق النار من مدافع سيمور .

وبعد الحرب بزمن قصير وقعت بطريقة غريبة على سبب تردد توفيق وذلك من مصدر له معرفته الوثيقة ، ولم يكن هذا المصدر غير اللورد شارلس برسفورد نفسه الذى قاد السفينة كندور من سفن المدفعية بالأسطول وقت الضرب والذى صار

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا ص٢٥٢

ماريشال الأسكندرية بعد ذلك ؛ فقد ذكر لى أن الخديو فى لحظة من لحظات الصراحة غير عادية شرح له سبب بقائه فى المدينة أثناء الضرب . ولم يكن ذلك سوى أنه كان فى حيرة شديدة أى المتحاربين سيثبت أكثر من خصمه قوته ؟ فقد كان الرأى السائد فى مصر أن السفن سوف تُغرق ، ولقد ظل الخديو فى حالة من الشك الباعث على الذعر طول نهاره فى الرمل حتى لقد كان يهرول إلى سطح القصر كل نصف ساعة ليرى ماذا كان من أمرها ؛ ولما أن تبين فى المساء أنها ظلت سليمة وأن الحصون قد أسكتت ، عقد العزم عند ذلك فقط على أن يضع نفسه تحت حماية سيمور ... وقد أدت تجاريب برسفورد فى الأسابيع التى قضاها بالأسكندرية إلى أن ينظر نظرة الاحتقار إلى توفيق ، وأن يشعر بشىء من العطف على عرابى والفلاحين الذين نهضوا بأعباء الحرب على الرغم من انشقاق أميرهم »[1]

***

فى الساعة السابعة من صباح اليوم المشؤوم ، الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ؛ أطلق الأدميرال المظيم السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على مدينة الأسكندرية ، باسم الدفاع العادل المشروع عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغى الأكبر ، وليس فيها دولة يتأثم ضميرها مما تصبه إنجلترة على الحركة القومية القائمة على السلم والدستور فى مصر !

كانت حصون الشاطىء تمتد من ناحية المجمى فى الغرب إلى أبوقير فى الشرق وكان عددها نحو عشرين حصناً أو طابية كما كانت تسمى ويدخل فى ذلك اثنان فى داخل المدينة هما كوم الناضورة وكوم الدكة ...

وإذا استثنينا الحصنين الأخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباى وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر كانت بقية الحصون من منشآت محمد على ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت إلا بعض إصلاحات أدخلها عليها إسماعيل ، وكانت مدافعها وتبلغ تسعة وعشرين ومائتين ، قديمة الطراز ضعيفة ، قريبة المرى ،

(١) S, H' Blunt, P, 380,
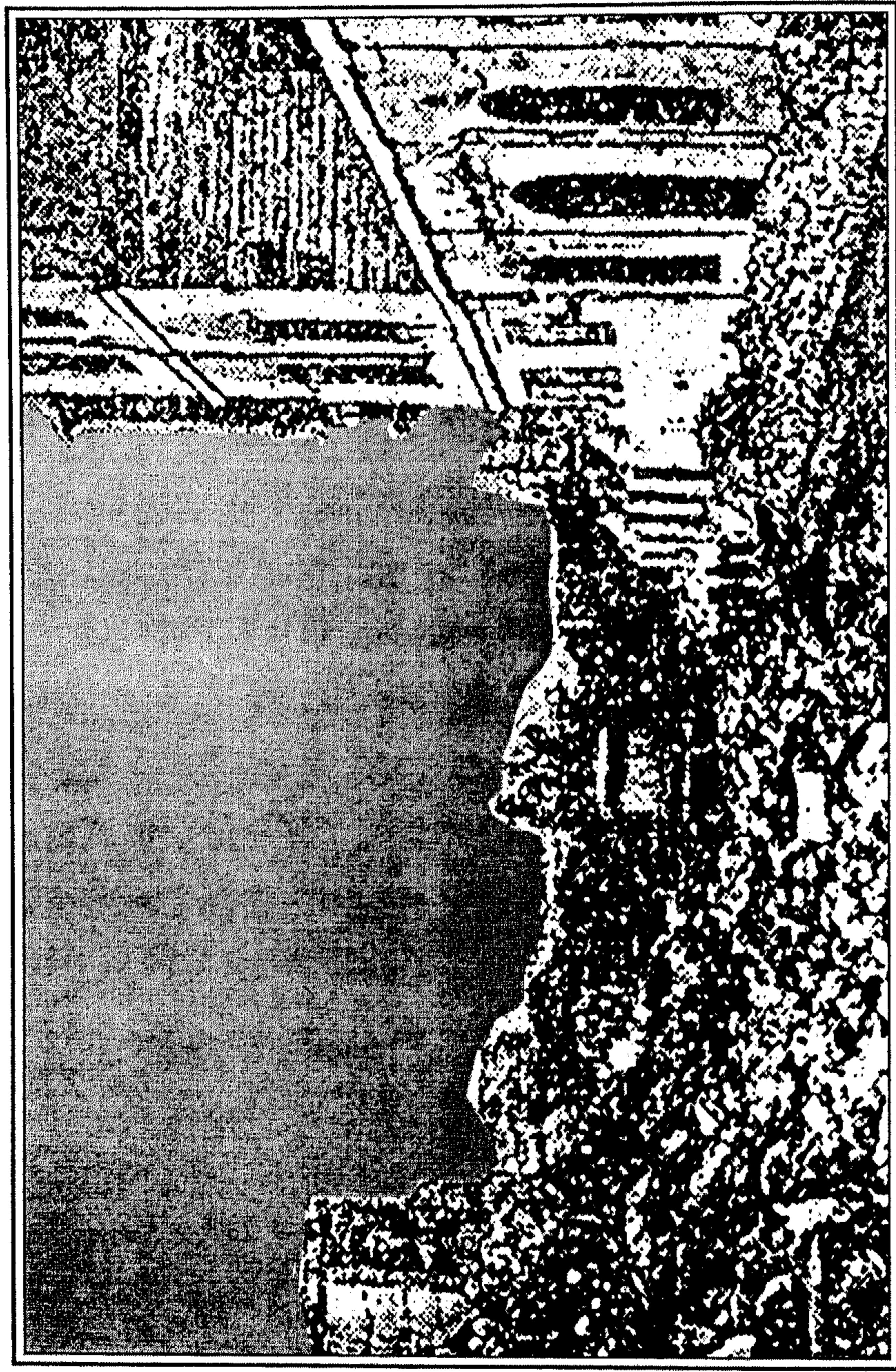
الأسكندرية المتهدمة : ميدان المنشية)

ولو لا أن إسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفعاً من المدافع القوية من طراز أرمسترنج ما صلح فيها للدفاع من شيء …

وكان الأسطول البريطاني مكوناً من ثماني مدرعات كبيرة وخمس مدفعيات وسفينة للطوربيد وأخرى لأعمال الكشف ؛ وكانت مدافع الأسطول ويبلغ عددها سبعاً وسبعين من النوع الضخم القوي من طراز أرمسترنج …

والمعروف في الحرب البحرية أن من أكبر الأخطار تعرض السفن للقلاع ذات المدافع القوية ، فشتان بين مايستند إلى الماء وبين مايستند إلى الصخر؛ هذا إلى ارتفاع القلاع وتمكنها وصلتها بما تطلب من العتاد والرجال …

ولكن للسفن ميزة عظيمة على القلاع الضعيفة المدافع ، فان السفن تستطيع أن تتجمع فتدك قلعة بعد قلعة ، في حين أن القلاع لا تستطيع أن يدفع بعضها عن بعض … وكذلك كان الحال مع شديد الأسف في قلاع الأسكندرية …

وكان آلاي طوبجية السواحل يتألف حسب الاحصاء الرسمي من اثنين وستين وسبعمائة وألف رجل مابين ضابط وصف ضابط وجندي ، وكان يقودهم الأميرالاي إسماعيل بك صبري … ولكنهم يوم الضرب كانوا دون ذلك كثيراً فقد ذكر عرابي في مذكراته أنهم كانوا لا يزيدون عن سبعمائة

وكان بالمدينة من قوات الجيش أربعة آلايات ، يكون اثنان منهما اللواء الثالث ورأسه خورشيد باشا طاهر تحت قيادة الفريق إسماعيل باشا كامل ؛ ويكون الباقيان اللواء الثاني بقيادة طلبة باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية ؛ وكان مجموع هذه الآلايات اثني عشر ألفاً من المشاة …

أصدر عرابي باشا تعليمات إلى صبري في الليلة السابقة للصباح المشؤوم وأعلمه أن مجلس النظار قرر ألا تجيب الحصون إلا بعد الضربة الخامسة من الأسطول ؛ ووزع صبري ضباطه على الحصون استعداداً للمعركة ؛ وكان يعاونه وكيله محمد بك نسيم الذي وكل إليه صبري الدفاع عن الحصون الغربية …

وكان عرابى ليلتئذ بالترسانة يصحبه محمود فهمى باشا وطلبة عصمت باشا ومحمد كامل باشا وكيل نظارة البحرية ...

ووزع عرابى حامية المدينة وراء الحصون من قلعة العجمى إلى برج السلسلة وعهد إلى أورطتين من الفرسان بالمراسلة بين الحصون ...

أجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ؛ واستماتت آلاى السواحل فى الدفاع وأبدى همة ونشاطاً وحماسة وطنية شهد بها كثير من الأجانب ، وذلك على الرغم من عنف المدافع الأنجليزية وشدة فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن الأنجليزية فى الابتعاد والاقتراب والاعتصام بدخان كثيف يغطيها أثناء الضرب ، وشباك قوية من الفولاذ كانت ترد عنها قذائف الحصون ...

واستمر الضرب من الجانبين حتى الساعة الحادية عشرة ، وكانت قذائف الأنجليز تلقى النار والدمار على المدينة فى شدة مروعة ؛ وسكتت السفن قليلاً ثم استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر ...

قال صابونجى فى رسالة إلى بلنت يصف هذا الضرب وقد كان فى سفينة على مقربة من الأسطول « فى صباح اليوم الثلاثاء عند الساعة السابعة تماماً انبعثت أول طلقة على الحصون ، وقد كنت على ظهر السفينة سميد على مقربة من الأسطول الأنجليزى ... غادر درويش الأسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر إلى حيث لا يدرى أحد مكانه . ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا معى هذا الصباح وشهدوا الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابى وأنصاره . وعندما انبعثت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والأيدى ، مشفوعة بالهتاف وعلامات الرضاء . وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم متهللين جذلين يتنبأون بسقوط الحصون فى ساعتين ؛ ولكن شعورهم بالخيبة ما لبث أن ظهر . الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران من الجانبين ؛ وإن الدفاع يعد حتى الآن فائقاً . ولا يمكن لأحد أن يقول الآن ما عسى أن تكون النتيجة ... أكتب إليك من ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب وأثبت

كل ما أستطيع أن أراه ؛ ولكن ماذا عسى أن يرى المرء خلال سحب كثيفة من الدخان إلا الرعد والبرق من المدافع ... لم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القناصل واثقين من عزم إنجلترة على الحرب . ولم أكن أنا واثقاً من ذلك »(١)

واستأنف الأسطول الضرب بعد الساعة الثانية واستمر يرسل قذائفه الهائلة فى شدة حتى منتصف الساعة السادسة ، أى قبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ثم نزل الليل وقد سكتت الحصون فلن تجيب بعد ، إذ قد دمرتها مدافع الأسطول تدميراً ... وتهدمت فى المدينة أبنية كثيرة ومساكن واحترق بعضها ، وقد هجرها كثير من أهلها منذ بدأ الضرب فى هرولة ورعب ...

وهكذا وقف المصريون وإن حاقت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة ، وليس يمارى أحد فى أنهم فعلوا فعل القلة تحارب من تكاثروا عليها حتى تهلك أو ينثلم سلاحها ..

وإنه لمما يذكر فى مواطن الفخر ما أظهره نفر من أهالى المدينة من الحمية والبسالة وبخاصة النساء ؛ أشار إلى ذلك عرابى باشا فى مذكراته فقال « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات »

وقال الشيخ محمد عبده « تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الأسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الأميرال ومن أرسله »(٢)

وقال محمود فهمى باشا « ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول »(٣)

(١) Blnnt, P, 556'

(٢) تاريخ الأستاذ الأمام ص ٢٥٠

(٣) البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر ص ٢٢٠

وقد وصف عرابى المعركة فى مذكراته فقال « أطلقت ألكسندرة مدفعها الأول فى الساعة السابعة والدقيقة أربعة وكان مركزها فى الطرف الشرقى من خط القتال موجهة نحو استحكامات رأس التين …

وبعد ذلك بخمسة دقائق بدت من جانب الأنفنسبل علامة الحمل العام على استحكامات الاسكندرية فأخذت السفن مونارك وبينلوب وألكسندرة وسلطان وسوبرب تطلق مدافعها على بطاريات رأس التين وطابية الفنار ، فأجابتها القلاع بنار شديدة حامية ، وقد أصاب السفينة مونارك من أسباب الانقطاع عن إطلاق النار أكثر مما أصاب غيرها …

وكانت السفن الثلاث ألكسندرة وسلطان وسوبرب تنتقل على التعاقب من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى وتطلق مدافعها على الاستحكامات إطلاقاً متوالياً؛ وتقدمت الدفعية سينت إلى جهة رأس التين وأخذت ترميها بالنار .

وكانت السفينة إنفلكسيبل تطلق مدافع أحد برجيها على رأس التين والآخر على حصن المكس وحذت حذوها الدارعة بينلوب وكذلك الدارعة تمرير .

ولقد أصاب طابية المكس ناراً لاتبقى ولا تذر فتعطلت مدافعها ما عدا أربعة منها من العيار الأعظم فقد ثابرت على رمى سفنية الأميرال « انفنسيبل » وقد أحكمت مقذوفاتها إلى هذه السفينة جيداً . وفى الساعة العاشرة ونصف وقعت قنبلة على مخزن البارود الكائن فى طابية المكس فأشعلته وكان لدوى التهابه صوت هائل .

ولما وصلت حال القتال إلى هذه الدرجة عمد حصن مارابوت[١] إلى الاشتراك فى الدفاع فوجه ناره على السفن الثلاثة التى كانت مستقرة فيما داخل المضايق فانسلخت الدفعية كوندور عن الدارعة تمرير لعدم احتياجها إليها واندفعت نحو ذلك الحصن ترميه بنارها فاشتبك بينهما القتال شديداً ؛ وفى الساعة العاشرة ونصف قدم لنجدتها السفن بيترن وبيكن ودكوى وسينت واستمرت على القتال حتى

(١) هو اسم آخر لقلعة العجمى

تعطلت مدافع الحصن المذكور ولم يبق منها غير مدفع واحد صالح للعمل ...

ثم اتجهت السفن الأربع المذكورة إلى ناحية الحصن واشتركت مع الدوارع في تدميره فتركته أثراً بعد عين ، وكذلك تقدمت السفن ألكسندرة وسلطان وسوبرب على مسافة ٧٠٠ متر من حصن فاروس وطابية أطه وأخذت في إطلاق مدافعها عليها غير غافلة عن رمي بطاريات رأس التين ببعض القنابل ...

وكان إسماعيل بك صبري في الطابية أطه يدير حركة القتال في الحصنين المذكورين فصب على السفن السابق ذكرها من لهيب ناره ما اضطرها إلى طلب النجدة من الدارعتين إنفلكسيبل وتمرير وأبلى في قتالها بلاء حسناً .

وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر اندفعت قنبلة من السفينة إنفلكسيبل نسفت مخزن البارود الكائن في حصن طابية أطة . وعند الساعة الرابعة خمدت نار الحصنين المذكورين إثر تخريبهما وتعطيل أسلحتهما واستشهاد رجالها .

وفي الساعة الخامسة استأنفت الدارعتان مونارك وبينلوب إطلاق المدافع على حصن نابليون والاستحكامات الواقعة في داخل الميناء.وفي الساعة الخامسة ونصف انقطعت النار عن خط القتال بناء على أمر الأميرال » ...

وقال يصف المدافع المصرية « ومن الأسف أن مقذوفات المدافع القديمة كانت لا تصل إلى المراكب الأنجليزية ومدافع الأرمسترنج لم يكن لها مساطر التي بها تعرف المسافات وتحكم الأصابة بواسطتها اللهم إلا مسطرة واحدة كانت في محل التعليم بالمباسية (بالبوليجون) استحضرت ليلا وسلمت إلى الشهم القدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار فكان يطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل إلى آخر ويحكم الأصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظم الدوارع التي تعطلت ، من جراء المقذوفات التي أحكم إطلاقها . ولو كانت مدافع الأرمسترنج كلها ذات مساطر لأمكنها تعطيل الدوارع الأنجليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة » .

ووصف جون نينيه ما فعله الأدميرال المظيم في قوله « وكان رجال المدفعية

المصرية يطلقون قذائفها فى إحكام وحماسة أدهشنا خصومهم الذين ظل عملهم الجهنمى متصلا عشر ساعات ونصف ساعة ، دون أن يستطيعوا المباهاة بالنصر الحاسم ؛ وكانت تغطى المدينة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الآذان ... وكنا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحر فى منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول ؛ وقد أدى رماة مدافع أرمستربج عملهم على خير ما يرجى وذلك على الرغم من أن مدافعهم كانت أقل عياراً من مثيلاتها من المدافع الأنجليزية وقد أصابوا سبع مدرعات إصابات بعضها خطير وبعضها ضئيل ...

وكانت سفن الأسطول تجرى ها هنا وهنا ترمى قذائفها وهى على مسافة بعيدة فتصيب الشاطىء ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولا وتزن ٤٨٠ رطلا وتحتوى على ٣٧٠ رطلا من البارود ، وكان ثمن كل واحدة منها سبعين جنيهاً ؛ وسقطت أولى هذه القذائف الضخمة فى قلعة رأس التين دون أن تنفجر فنظر إليها الجند والضباط ، وقال أحد الضباط مشيراً إليها : هلم أيها الأخوان لتشهدوا مثلا من إنسانية إنجلترة ؛ وقد أدى عبارته بلهجة تنم عن الذكاء والسخرية ، وضحك إخوانه جميعاً ، وواجهوا ما يلقى عليهم باسمين .

وكانت السفن الأنجليزية تسير مثنى مثنى فى تؤدة وروعة تجاه كل طابية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكا ، وبعد ذلك تقترب منها شيئاً فشيئاً ، وتنسف ما انقلب عن موضعه من المدافع بفعل قذائف الأسطول ، ثم تفتك بالرجال فتكا ذريعاً بنار المترليوزات المركبة فى ساريات البوارج ...

ولا يسعنا إلا أن نعترف بأنها كانت مجزرة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة إلى الدماء . وكنت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين كانوا يضربون ويطلقون مترليوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون إلى بلادهم ويتحلقون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخريب ؟ إنى لفى شك من
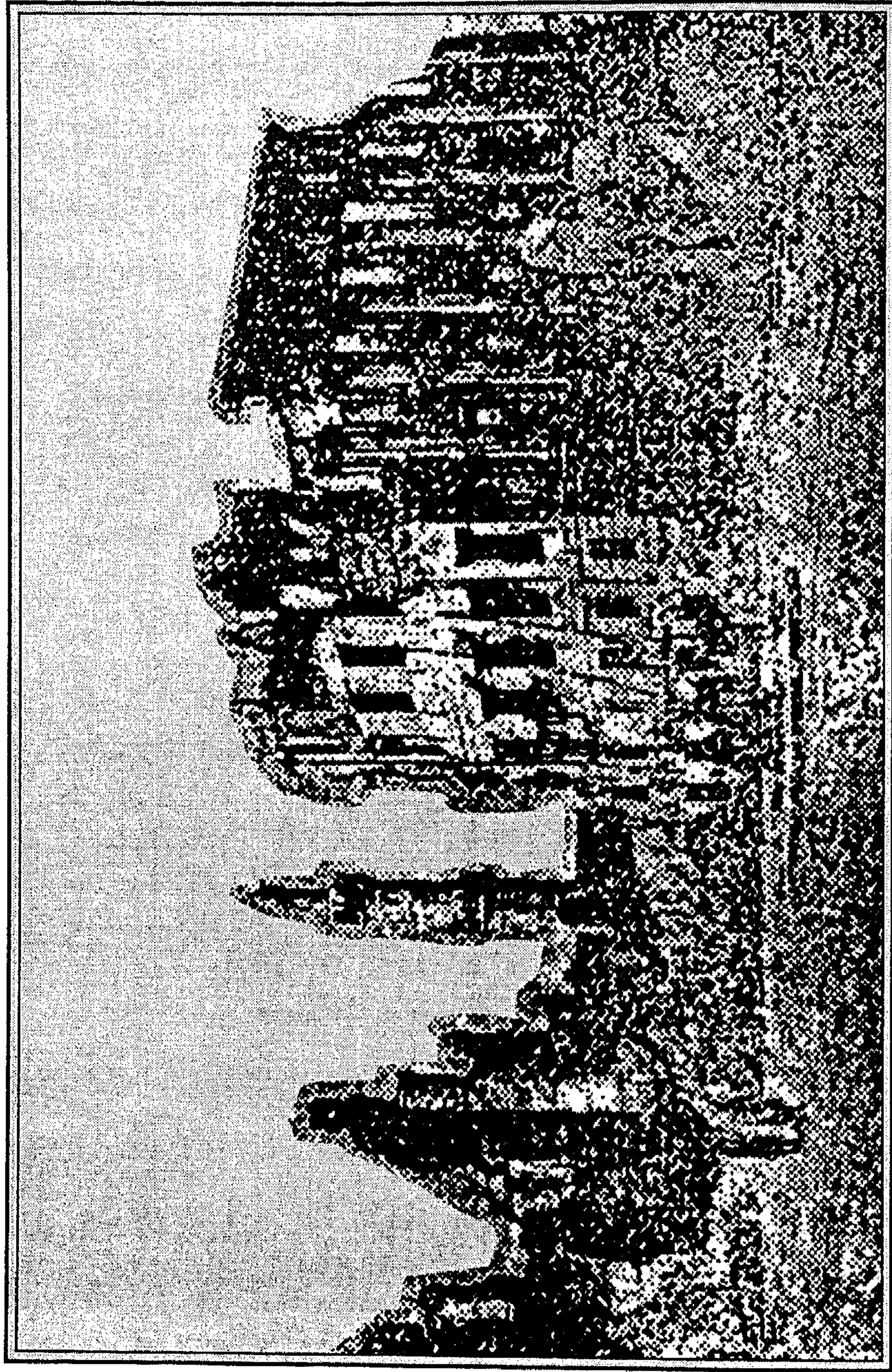
(الأسكندرية المتهدمة. شارع جامع إبراهيم باشا)

هذا؛ فأية إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر من مصر على هذه الصورة الفظيعة؟

ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كأنما هم فى استعراض حربى لايخافون الموت الذى يحيط بهم؛ وكانت معظم الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس؛ ومع هذا فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الموت ، قد بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران مدافعه؛ وكان القادة يزورون الحصون ويستحثون الرجال ، ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كباراً وصغاراً؛ ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وإنما كانت تثير الحماسة فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم فى مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام ...

وقد بدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحاً ، وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة إلى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى ...

وكان الجرحى ينقلون إلى المستشفى على عربات النقل . وكان مما يؤلم النفوس حقاً منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الأهالى أو الجند وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات، والدماء تقطر من أجسامهم وكان بعض الأمهات يحتضن أبناءهن وهم يلفظون أنفاسهم وكان النسوة يجرين جموعاً خلف العربات نادبات صائحات ، يلعن من كانوا سبب هذه المجازر ...

وكنت واقفاً عند منعطف « الأجبسيان بار » فمرت أمامى عربتان تحملان جثث القتلى ، ولحق النسوة هناك فصحن مولولات واستنزلن على اللعنات ، إذ كن يلعن كل إنجليزى وكل أوروبى ، وصرخن فى وجهى قائلات أتقتلون أبناءنا وتتفرجون على جثثهم؟ اقتلوا هذا ، اقتلوه » ... وكاد يحاط بى لولا أن رآنى

أحد رجال الأمن فأنقذني وعاد بي إلى داري ؛ وقد قل رجال الحفظ ولم أعد أرى أوروبياً واحداً في الشوارع والحارات ، فقد خيم السكون الرهيب على هذه الشوارع التي كانت من قبل عامرة بالناس زاخرة بالحياة حتى غدت كأنما هي شوارع مدينة أودى بأهلها الوباء ...

وكانت الدكاكين والنوافذ والأبواب مغلقة في المدينة كلها ، وخيل إلى أنني في بلدة محاها الخراب الأبدي ؛ وكانت قذائف الأسطول الضخمة تنصب على المدينة وتخترق أحياءها في كل جهة ، وكانت تدور فوق رؤوسنا وهي تدوى في صورة مفزعة ، وكانت تدمر المنازل هنا ، وتشعل النار هناك وترسل الموت إلى كل مكان

وقد مرت من فوق سطح المنزل الذي كنت أتيم به تجاه حمامات كارتوني بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الإنسانية الغربية » على حد تعبير أحد الضباط ؛ وأصابت إحداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض قصور الأغنياء على مقربة من شارع باب شرقي فهدمتها ، وقتلت الخامسة أحد عشر شخصاً وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يقابل هذه القذائف الفتاكة شيء من جانب المصريين ، فقد رأى عرابي منعاً للخراب ألا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة في الضرب لوجودهما وسط المدينة ...

وكنت أرى بمنظاري القرب على بعد ١٨٠٠ متر على الأكثر طابية قايتباي أو ما تسمى قلعة فاروس ، قائمة بالمينا الشرقي في أقصى حاجز الأمواج الأبيض ، وكانت هذه القلعة رائعة المنظر ببنائها الضخم وبروزها على صخرة تحيط بها أمواج البحر ومخاطره في ذلك البساط الأزرق من مياه البحر الأبيض المتوسط على صورة تنجذب إليها المشاعر ... وكان يزينها مسجد بني منذ سنة ١٤٥٠ للميلاد ، تعلوه منارة تعد من بدائع الفن العربي ومن تحفه ، مزدانة بالنقوش العربية الجميلة التي يقدرها أصحاب الفنون ... وكانت هذه القلعة هدفاً لضرب شديد استمر منذ شروق الشمس حتى تخربت بين الساعة الحادية عشرة ووقت الظهر ... وكم كانت دهشتي إذ رأيت في نحو الساعة الرابعة مساء سفينتين شامختين من سفن الانجليز

ترابط غربي القلعة وتقذف نيرانها من جديد على هذا البناء الذى هوت معظم مدافعه وانقلبت على الأرض ...

ولكن الأنجليز الذين ضربوا قلعة برج السلسلة وقلعة كوم الدكة ولم تشتركا فى الدفاع ، قد أرادوا كما يبدو لى هدم هذا المسجد الجميل .

ولم يسكت المصريون تلقاء هذه الوحشية فأطلقوا بعض القذائف من مدفعين كانا لا يزالان قائمين فى الجهة الغربية الشمالية من القلعة ... ولكن قذائفهم لم تجدهم شيئاً إذ قد أنصبت عليهم القذائف الهائلة من السفن ؛ وقد أحصيت بنفسى اثنتين وثلاثين من هذه القذائف تصوب إلى هذا البناء الأعزل الجميل وقد طاش نصفها فلم يصب الهدف تماماً ؛ وكانت معظم القذائف تصيب الصخور فتنسفها وتذريها فى الهواء ، ثم إذا بها تنصب فى الماء وتنبعث ثانية فى دوى هائل فتبعث فى الهواء عموداً من الماء كأنه إعصار بحرى لا يقل ارتفاعه عن ستين قدماً ... ألا ما أشد روعة هذا المنظر ...

وهوى المسجد الصغير المسكين فى منتصف الساعة السادسة مساء وقد تهدم كله ووقعت أنقاضه على اثنى عشر جريحاً كانوا يأوون إليه فدفنوا تحته ...

ولقد شاهدت بمنظارى أولئك الجرحى التعساء وهم يأوون إلى المسجد حيث ماتوا. ولم يكن فى الأمكان نقلهم إلى المستشفى العسكرى تجاه برج السلسلة إذ كانت قذائف الترليوزات المدة للأجهاز على الجرحى تنصب منذ الصباح متصلة كالمطر فتمنع الصلة بين القلعة والأرض اليابسة على الرصيف الضيق الذى يصلها بالمدينة .

وانفجر مخزن البارود فى قلعة الأطة بعد الظهر بوقت قصير فسكتت مدافع هذه القلعة التى امتازت بقوتها فى الدفاع ...

ووقف الضرب من جانب الأسطول فى نحو الساعة السادسة مساء ، وقد بث الأدميرال سيمور الموت والدمار فى أنحاء المدينة وهو الذى تعهد ألا يضرب إلا القلاع ، ورأيت النيران تندلع ألسنتها فى جهات كثيرة دون أن يقوى أحد على إخمادها »

هذا ما ذكره جون نينيه السويسرى المحايد الذى شهد الحوادث بنفسه ، وأهم ما جاء فى كلامه شهادته ببسالة المدافعين وقوة روحهم المعنوية على الرغم من تفوق عدوهم عليهم فى عتاده ، ثم تقريره أن القذائف كانت تنصب على المدينة ذاتها وأنها أحدثت بعض الحرائق ؛ ولهذا القول أهميته ، لأن الأنجليز الذين دبروا من قبل مذبحة الأسكندرية وألصقوها بعرابى وحزبه قد أحرقت قذائفهم المدينة اليوم فعادوا يتهمون بالحريق كذلك عرابياً ورجاله !

* * *

اشتد ذعر الناس حين سمعوا المدافع الراعدة ترسل صواعقها المدمرة على المدينة ولم يكن لهم عهد بمثل ذلك من قبل وتعاظم الفزع حين مشت الشائعات بين الناس بما حدث من دمار وفتك وحين رأوا العربات تحمل جثث القتلى والجرحى، ورأوا سحب الدخان من المنازل والأبنية المحترقة تدفعها الرياح فى سماء المدينة ، وزاد الأمر هولا ما يصحب الأنباء من مبالغات فى مثل هاتيك الأحوال ؛ على أن الهول فى ذاته كان يغنى عن التهويل ، فحسب الناس أن تتساقط القذائف عليهم من السماء فتدمر بيوتهم تدميراً ...

لذلك لاذ الناس بالهجرة فهرولوا جموعا إلى المحطة وتزاحموا على القطارات التى أعدت لنقلهم بالمجان ؛ ولم يطق كثيرون منهم التزاحم على القطارات فخرجوا من أبواب المدينة إلى حيث يبتعدون عنها فحسب لا يدرون أين يذهبون ولا يقعد بهم التعب من المشى عن طلب النجاة من الهول حتى نزلوا بالقرى والبنادر ، وبلغت أفواج منهم القاهرة فى حالة تبعث على الرثاء وتطلق عصى الدمع ...

وقد وصف الشيخ محمد عبده هذه الهجرة وكان مع عرابى بالمدينة يوم الضرب فقال « نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان مجردين من كل شىء أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى ؛ الموت والفزع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة .

كانت المهاجرة تكون خطوطاً سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة
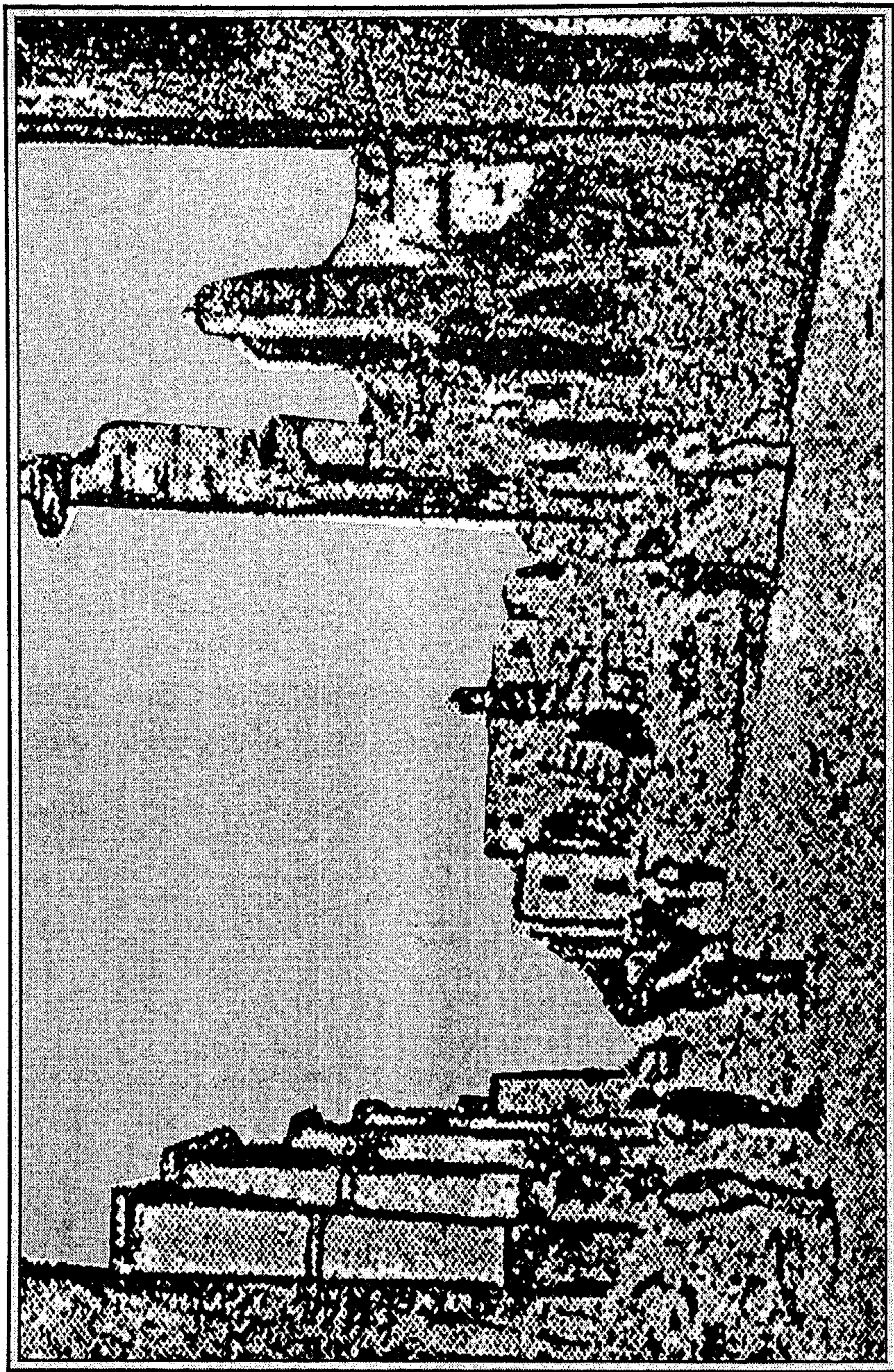
(الأسكندرية المحترقة. شارع شريف)

فى كل جهة ، أشبه بسلسلة إنسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرق تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة .

أما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كالماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكين ، فى حالة عقلية أشبه بالجنون سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها .

فى هذه الحالة حالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديداً ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن فى أخلاط لا يمكن التعبير عنه ؛ عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل ؛ روائح شى اللحم ؛ صياح على المارة : الخبز ! الخبز ! »[١]

على أن بنى مصر قد أحسنوا إيواء المهاجرين وجادوا بالتبرعات أينما نزل فريق منهم ، وظهرت فى أجمل مظاهر عواطف الوطنية المصرية فى القاهرة وفى القرى ؛ وعنيت الحكومة بأمر المهاجرين فأسكنتهم فى القاهرة مدرسة المبتديان بالناصرية وأمدتهم بما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ...

***

فى اليوم التالى عاودت الأدميرال المظم رغبة فى الضرب ، وقد أسكرته لذة النصر على تلك الحصون البالية كأنما هدمت مدافعه قلاعاً اشتد خطرها عليه فأحس ما يحسه الأبطال من نشوة بعد خوض الشدائد ...

وعادت مدافعه تضرب المدينة فى الساعة العاشرة وأرسلت قذائفها على طابية قايتباى وطابية الاسبتالية ...

وكان مجلس الوزراء قد اجتمع فى اليوم السابق للنظر فى الأمر برياسة الخديو وحضره عرابى باشا ؛ وبعد أن تداول الوزراء والخديو قرر المجلس الاتصال بالأدميرال

(١) تاريخ الأستاذ الأمام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

وإبلاغه أن ما كان يطلبه قد تحقق له بضرب الحصون فلا داعى بعد ذلك للضرب وانفض المجلس على أن ترفع فى الغد الراية البيضاء وهى راية طلب الهدنة للمفاوضة .

ورفعت الراية البيضاء على بعض الحصون وعلى وزارة البحرية ، فوقف الضرب وذهب طلبة باشا يصحبه ترجمان فصعد إلى ظهر اليخت الخديوى « المحروسة » وهناك التقى بمندوب من قبل سيمور . فسأله هذا عما يريد من رفع الراية البيضاء فأبلغه طلبة قرار مجلس الوزراء ، فأجاب المندوب فى صلف وسماجة بأن الأدميرال يطلب الترخيص له بإنزال جند من بحارة السفن لاحتلال ثلاث قلاع هى العجمى والدخيلة والمكس ، فإن لم يأته الرد فى الساعة الثانية بعد الظهر استأنف الضرب .

وهكذا يأبى الأدميرال العظيم أن يتكلم إلا بلسان مدافعه ، فليس الأمر أمر تفاهم وإنما هو أمر قوى يملى إرادته على ضعيف لا يملك له دفعاً ...

وطلب عصمت باشا أن يطيل الأدميرال ما تفضل به من مهلة ليستطيع أن يبلغ الخديو رده ويعود إليه ولكن سيمور رفض حتى هذا الطلب ..

وذهب طلبة باشا فعرض الأمر على الخديو ، واجتمع لدى الخديو مجلس احتوى الوزراء والكبراء ممن تصادف حضورهم واتفق رأى الحاضرين على أنه لا يجوز لمصر أن تسمح بنزول جنود أجنبية إلى البر ؛ وذهب وفد برياسة طلبة باشا يبلغ سيمور هذا القرار ...

ولكن الوفد لم يجد أحداً يتصل به ، إذ عاد مندوب سيمور إلى السفن ، وأمر سيمور فى نحو الساعة الرابعة باستئناف الضرب فأرسلت إنفنسبل قذيفة واحدة على قلعة المكس ، فلم تجاوب القلعة ؛ ثم رفعت الراية البيضاء ثانية على بعض الطوابى ، فوقف الضرب ؛ وظلت السفن فى موقف القتال حتى الساعة السادسة مساء وأرسل سيمور سفينة إلى الميناء وبها مندوب من قبله فلم يجد المندوب أحداً يتفاوض معه ، فعاد ينبىء الأدميرال بأن المدينة تبدو وكأن ليس بها أحد .

* * *

بلغ عدد الضحايا من المصريين فى الأسكندرية نحو ألفين غير من جرحوا

أما الأنجليز فلم يزد قتلاهم عن خمسة وجرحاهم عن تسعة عشر ، وقد ذكر عرابى أنه استشهد من رجال الطوابى وحدهم مائة رجل ، وقتل هناك امرأتان من المتطوعات كانتا تمنيان بالجرحى ...

أما السفن الأنجليزية فقد أصيبت انفنسبل ثلاث عشرة إصابة عطلت ست الأجزاء غير المدرعة منها وجرحت واحدة ست رجال ، وأصيبت سلطان بثلاث وعشرين ضربة وأتلفت سواريها ومدخنتها . واخترقت قذيفتان جدرانها غير المدرعة وتعطلت الزوارق الملحقة بأنفلكسبل ، واخترقت قذيفتان درع سوبرب ومدخنتها وقد أصيبت عشر مرات وعطل فى بنلوب أحد مدافعها ؛ ولحق ضرر خفيف بالكسندرة على الرغم من أنها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفعان من مدافعها

* * *

وأما المدينة التى كانت تراوحها نسائم البحر الندية وتغاديها فقد اندلعت فيها ألسنة النيران فى صورة مروعة كأن الجحيم تزفر عليها بنارها ، وقد لبثت النار بها بضعة أيام ، وظلت سحب الدخان تتراكم وتنعقد فوق شوارعها الموحشة المتهدمة وخيمت الكآبة على الثغر الذى مات بسمته أياماً طويلة نتيجة لعدوان سيمور ...

ولقد ذهبت الآراء عدة مذاهب بشأن هذا الحريق ، وقد حاول الأنجليز أن يعزوه إلى عرابى كما عزوا إليه من قبل مذبحة الاسكندرية التى اقترفوها ، على أن التحقيق فيما بعد قد برأه منها كما برأه من مذبحة الأسكندرية كما سيأتى بيانه فى موضعه

وذهب جون نينيه إلى أن النيران كانت من فعل قذائف الأسطول ؛ قال عن اليوم الأول « رأيت فى ذلك الصباح عدداً كبيراً من القذائف يمر فوق دارى ، وسقطت بعض القذائف من ذات الحجم الأكبر تحمل اسم «الأسكندرية» فى الدار المجاورة لدارى ، وقد قتلت القذيفة الثالثة من القذائف التى مرت فوق دارى أحد عشر رجلا وجوادين عند باب محرم بك ؛ وهدمت وحرقت بيوت كثيرة ومبان فى كل ناحية بفعل قذائف السفن » .

وقال عن اليوم الثانى « كان عدد من قبيلة أولاد على ينهبون دكاكين المدينة

وقد دخلوا إليها من ناحية القبارى أو باب عمود بمبى ، وقد رأيت كثيرين منهم قد قبض عليهم وسودر ما يحملون بأمر من سليمان بك سامى أثناء محاولتهم الهرب من المدينة بمنهوباتهم؛ وكان عرابى باشا قد أمر قبل مغادرته المدينة بأغلاق هذا الباب لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ النظام فيها كما أنه ترك فرقتين من الاحتياطى

وكان طلبة باشا فى الرمل بعد الظهر يفاوض الخديو ؛ وكنت طول ذلك الوقت فى حجرة ميس الضباط قرب باب رشيد ! وكان هناك كثير من الباشوات منهم محمود سامى البارودى ومحمود فهمى باشا ؛ وقد غادرت المدينة معهم وعدد من الأطباء والضباط عند الساعة السادسة لألحق بالجيش ... وبعد أن غادرت المدينة حملت الريح الدخان إلى حيث كنا وكانت المدينة تحترق فى عدة جهات ، ولم يكن فى المدينة نار حين غادرناها ، ولم يشعل الجند ناراً بالمدينة ، بل لقد بذلوا كل ما فى وسعهم لمنع امتداد النيران التى سببها الضرب ... ومن الممكن أن يكون بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا بالمدينة قد شاركوا البدو فى النهب ، وكان هذا مخالفاً بالضرورة لأوامر عرابى باشا والضباط ... وأستطيع أن أؤكد أنه لم يخطر ببال عرابى باشا أو أحد من الضباط بأى حال أن مدينة الاسكندرية ستحرق بأيدى البدو او غيرهم ، وإنى أعلم أن عرابياً ومن كان معه من الضباط أظهروا أسفهم ودهشتهم عند رؤية المدينة تحترق عقب مغادرتهم إياها وعبروا عن أملهم فى أن يبذل ذو الفقار باشا محافظ المدينة ومن أكبر أصدقاء الخديو ما فى وسعه لإخماد النار وإعادة النظام »[1]

ويقول نينيه فى موطن آخر من كتابه «عرابى باشا» إن عدة عناصر اشتركت فى هذا الحريق ، منها بعض الأوروبيين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، ومنها بعض الأروام والمالطيين من أصحاب الدكاكين كى يطلبوا بعد ذلك تعويضاً كبيراً ومنها بعض البدو من قبيلة أولاد على وبعض عساكر الرديف ، وبعض الأشقياء الذين أخرجوا من سجن الترسانة ...

ويقول الشيخ محمد عبده « بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب

(١) S. H Blunt P. 557

رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهـم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهالى الاسكندرية ، ومنهم أوروبيون بقصد المبالغة فى التعويضات وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم »(١)

وهناك من يذهب إلى أن سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس هو الذى أمر جنوده بإضرام النار فى المدينة كعمل يقتضيه الدفاع إذ أراد به أن يعرقل نزول الأنجليز إلى المدينة . أو لعله فعل ذلك بدافع الحق والغيظ من عزم الأنجليز على دخول المدينة ، ولقد شهد عليه كثيرون أثناء المحاكمة ، وكانت أقواله هو دليلا عليه ففيها ما يشبه الاعتراف وبخاصة اتهامه عرابيا بأنه هو الآمر بحرق المدينـة ليتنصل هو من التبعه يتبين ذلك فى مثل قوله :

س . هل كان عرابى أعطاك أمراً بالكتابة بحرق المدينة ؟

ج . أمرنى شفاهاً

س . هل يجوز فى قانون الجهادية حرق مدينة بناء على أمر شفاهى ؟

ج . لا يجوز وأنا لم أفعل سوى إبلاغ ما نبه به (ثم قال إنه ليس متحققاً إن كان القانون يجيز ذلك أم لا(٢)

على أن عرابياً فى مذكراته يعقب على أقوال سليمان سامى فى التحقيق بقوله « الحقيقـة أن سليمان بك سامى لما شاهد هول تأثير مقـذوفات مراكب الإنجليز حصل له هلع وطيش أثر على مخيلته فصار يتحفز ويميل لعـمل غير العقلاء فبدرت منه كلمات تدل على جنونه كقوله احرق واضرب ياولد فى حالة هيجانه ، وقوله إنى أمرته بكل ما يتخيله فى مخيلته . ولكن أجمعت الشهود على أنه لم يفعـل من ذلك شيئاً وأنه خرج بآلايه من المدينة قبل الغروب وأنه ترك المنشية وخرج إلى باب شرق الساعة ١١ عربى ولم يعد إليها وأن الحريق لم يبتدىء إلا بعد الغروب وبعد خروج العساكر من المدينـة كشهادة سعد بك أبو جبل وعلى بك داود وغيرهم وأن الحريق لم يكن إلا من أوباش الخدم والأعراب وغيرهم من الأوروبيين والفقراء

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٢٥٢ (٢) محضر استجواب سليمان سامى

الذين تخلفوا فى مدينـة اسكندرية ليتحصلوا على شىء من الصيد والغنيمة ولذلك لم يقل أحد بأنه رأى سليمان سامى يفعل الحرق بنفسه ولا بغيره ، وعلى ذلك يكون سليمان سامى ذهب شهيد طيشه وهيجانه والحساب على الله

وثمة رأى على أعظم جانب من الخطورة ، وذلك أن سليمان سامى كان متواطئاً وأنه أحرق المدينة بأمره ؛ وقد صرح بهذا الرأى فى مجلس العموم الأنجليزى اللورد تشرشل فى حملته على وزارة جلادستون سـنة ١٨٨٣ بعد إعدام سليمان سامى قال صابونجى فيما أورده من كلام تشرشل أن هذا ذكر فى المجلس قوله « إن الخديو الذى كان يرغب فى الذهاب إلى الأسكندرية نهار الأحد ما استطاع الدخول إليها قبل موت سليمان سامى لأ لا يرى بعينيه شنق الرجل الذى أحرق اسكندرية بأمره وطاعته (فلما قال اللورد تشرشل هذا الكلام قامت فى البرلمان ضجة أعقبتها دهشة) ثم قال لورد تشرشل « إن الأمر الصادر بحرق اسكندرية كان مختوماً عليه من الخديو نفسه وأنا أطلب للميدان كل وزراء الحكومة الغلادستونية إذا كان فيهم من يتجاسر على أن ينكر هذه الحقيقة ، وإنى أقول علناً إن مستر غلادستون ووزراءه وأحزابه قد ارتكبوا جناية من أقبح الجنايات فى قتل سليمان داود ، وإن دم هذا الرجل على رأس مستر غلادستون وشركائه إلى الأبد وهم المطالبون به » (١)

ومما ذكره تشرشل فيما أورده صابونجى أن الحكومة الأنجليزية عجلت بشنق سليمان سامى قبل أن يبوح بأسرار خطيرة تدين الخديو ، وذلك لأن محاميه طلب بدء التحقيق من جديد ومواجهته بمن شهدوا عليه ...

ومهما يكن من الأمر ، فمن الخطأ أن يرد الحريق إلى سبب واحد من الأسباب التى ذكرت ، والمعقول أن تسببه هذه العناصر جميعاً ، وبخاصة قذائف الأسطول وطيش سليمان سامى .

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة وقد أورد عرابى كلام صابونجى تحت عنوان : الفصل السادس فى أعمال البرلمان الأنجليزى فى المسألة المصرية بقلم القس لويس صابونجى .

غادر عرابى الأسكندرية على رأس حاميتها ، فلندعه الآن ولننظر ماذا كان من أمر توفيق منذ أن أوى إلى قصر الرمل ...

كان مما تحرص عليه الحكومة الأنجليزية أن يظل الخديو منحازاً إليها لتمشى عند الحرب بالتفرقة بين الأمة ، لأن من أكبر المخاطر عليها أن تكون الأمة صفاً واحداً حتى ولو غلبت على أمرها ؛ لأن إنجلترة فى مثل ذلك الوضع لا تستطيع أن تضرب فريقاً بفريق كما تفعل فى الأمم التى تستطيع أن تجعل منها معسكرين أو أكثر ...

ويدلنا على اهتمام الأنجليز بهذا الأمر هذه البرقية التى وصلت من جرانفل إلى كارتريت فى اليوم الثانى عشر من يوليو أى فى ثانى يومى الاعتداء قال جرانفل : « رأيت أن أرسل إليك هذا لتعمل مع الأدميرال السير ب . سيمور على بذل ما يمكن من المحاولات لاستحضار أنباء بشأن الخديو فأن حكومة جلالة الملكة تحس كثيراً من القلق من جراء الاهتمام بسلامته ويشاركها أهل هذه البلاد » .

وكان الخديو كما ذكر نينيه يهرول إلى سطح القصر بين حين وحين فى اليوم الأول يستطلع أنباء القتال ، وكان يخشى جانب الجيش أشد الخوف لما يعرف عنه بينهم من أنه فى جانب الأنجليز ؛ وقد نمى إلى علمه أن عددا من عرب البحيرة بلغ نحو خمسمائة جاءوا فى اليوم الثانى للضرب إلى مكان قريب من قصره ، فلما سئلوا عن سبب مجيئهم قالوا إنهم جاءوا لنجدة الخديو فهم عبيده وخدمه ، ثم لم يقف لهم أحد على أثر بعد ذلك .

على أن هناك رواية مؤداها أن سليمان سامى قد أرسل إلى القصر فى نفس اليوم نحو أربعمائة من الفرسان بقيادة البكباشى محمود منيب وكتيبة من المشاة وأحاط هؤلاء بالسراى ؛ فأوجس الخديو خيفة وأرسل يسأل القائد عن سبب وجود هؤلاء الجنود ، فأجاب بأنهم جاءوا لحماية الخديو والمحافظة على السراى .

وذهب بعض رجال السراى يذيعون فى أنحائها أنهم سمعوا من البكباشى منيب أن هؤلاء الجند جاءوا للقبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة .

وذكر طلبة باشا فى محضر استجوابه أثناء المحاكمة أن وفداً جاء من قبل الخديو لمقابلة عرابى ، وأخبرهم عرابى أنه لا يعلم بما حدث وأرسل طلبة باشا لرفع هذا الحصار فرفعه ؛ ويقول طلبة إنه قابل الخديو فقال له الخديو « لماذا أحضرتم هؤلاء العساكر وحاصرتم السراى بهم هل أنتم خائفون أنى أهرب ؟ » .

ويقول إنه بعد عودته من السراى قابل عرابياً وسأله عمن أمر بهذا العمل فأجابه بأن سليمان سامى هو الذى أصدر هذا الأمر(١) ...

ويقول عرابى فى مذكراته « وفى صباح يوم ١٢ يوليو جاءنا رسول من قبل الخديو يدعونا إليه فتوجهنا مع راغب باشا تلبية لدعوة الخديو وكان فى الرمل فأخبرنا بأنه قد حضر قسم من العسكر إلى السراى وسألنى عن سبب حضورهم فأجبته بأن لا علم لى بذلك ولعلهم حضروا لتقوية الحرس فقال لا لزوم لذلك فأن فرقة الفرسان الموجودة هنا كافية فمرهم بالرجوع إلى مكانهم فتوجهت إلى القشلاق ووجدت أربع بلوكات من آلاى سليمان بك سامى ومعهم الصاغ على أفندى أبو غنيمة (أو هشيمة) فسألته عن سبب حضوره بالعساكر إلى سراى الخديو فقال إن حكمدار الآلاى سليمان بك سامى أمره بذلك لحضر لتقوية الحرس الخديوى فأمرته بالعودة إلى آلايه مع عساكره لعدم لزوم تلك القوة » .

وسواء كانت رواية طلبة أو رواية عرابى هى الصحيحة وقد تكونا صحيحتين معاً ، فأن ما يستخلص منهما أن سليمان هو الذى فعل هذا ؛ ولقد كان سليمان من أكبر المتحمسين الساخطين على الخديو وعلى الأنجليز ...

وفى اليوم الثالث عشر شاور الخديو من كان معه من الأمراء والكبراء ماذا يعمل إزاء احتلال الأنجليز مدينة الأسكندرية ، فلم يرض أحد أن يبقى بها وأشار عليه درويش باشا بالسفر إلى بنها ثم إلى السويس ، وأشار غيره بالذهاب إلى العاصمة فما يليق بحاكم البلاد أن يظل مقيما فى بلد وقعت فى يد أعدائه .

ولكن هؤلاء كانوا يشيرون بذلك ، على أساس أن الخديو لا ينتوى شيئاً ؛

---

(١) محضر استجواب طلبة باشا : مذكرات عرابى المخطوطة

ولكن الخديو فاجأهم بقوله « إن أهم الأمور أن نجعل الأميرال سيمور على علم بأمرنا إذا أمكن لنا ذلك»[١]

ويبدو أن الخديو ذهب بنفسه إلى الميناء على ظهر يخت درويش باشا فى اليوم الثالث عشر من يوليو فقد أرسل سيمور فى هذا التاريخ برقية قصيرة نصها :

« علمت أن الخديو ودرويش باشا سالمان على ظهر سفينة فى الميناء »[٢]

والذى نلاحظه أن الكتاب الأزرق حريص كل الحرص على أن يقتصد ما أمكن فى ذكر حركات الخديو وبخاصة ما يظهر نياته الحقيقية نحو الاحتلال …

وفى اليوم الرابع عشر أبرق سيمور برقية جاء فيها « لقد احتلت رأس التين ووضعنا فيها بحارة ومدفعية كما وضعنا ست بطاريات تواجهها ، لا تزال الأسكندرية تحترق ، ولكنى أرفع الأنقاض من الشوارع ، والخديو سالم فى قصره يحرسه ٧٠٠ من البحارة »[٣]

والواقع أن الخديو آثر أن يخطو الخطوة الأخيرة ، وقد اطمأن إلى قوة الأنجليز فانضم إليهم صراحة ، ونأى بجانبه عن السلطان ومندوب السلطان ؛ أما المصريون وقادة الحركة الوطنية فما كان يعترف بهم فى يوم ما …

أرسل الخديو إلى سيمور رسولا يخبره أنه اعتزم الحضور إلى سراى رأس التين ومعنى ذلك أنه اعتزم أن يكون فى رعاية الأنجليز وحمايتهم وأنه اختار لنفسه ما يحلو

قال بلنت يتحدث عن حصار قصر الرمل « كان ذلك فى الواقع لكى يبقى توفيق تحت المراقبة وبقصد أن يرسل إليه عرابى أنه نظراً لأن سيمور يهدد بإعادة الضرب فإنه يرى أن يسحب الحامية ، ويدعو الخديو إلى أن يبتعد معهم عن مرمى مدافع الأنجليز ومن ثم يذهب إلى القاهرة … وكان يجب على عرابى بغير شك أن يذهب بنفسه مرة ثانية ليرى أن هذه الدعوة لم تهمل لأى عذر من الأعذار ، وأن يحمل معه توفيقاً بالقوة أسيراً إذا لزم الأمر ، فإن مثل باى تونس كان أمامه ، وكان لديه مما جربه بنفسه من أساليب الخديو ما يكفى لأن يجعل من المستحيل أن

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

(٢،٣) مصر رقم ١٧ ص ١٤١ ، ١٤٢

يكل شيئاً إلى شرفه ... ولقد كان إهمال عرابى هذا الأمر من الأخطاء الجسيمة ؛

على أن عرابياً كان مشغولاً فى الصباح بحركة إخلاء المدينة من الجند ، بحيث لم يكن لديه وقت ليذهب ثانية إلى الرمل ؛ وتمكن الخديو بعد الظهر بما بذل من « بقشيش » — كما أخبر بذلك أصدقاءه الأنجليز — أن يفلت من حرسه إلى الأسكندرية فى نفس القطار الذى أرسل ليحمله إلى القاهرة وهناك وضع نفسه صراحة تحت حماية سيمور ! وقد أخذ معه جميع من كانوا فى القطار بما فى ذلك درويش والوزراء ، وبذلك أظهرهم إلى حد ما شركاء له فى خيانته »

ويؤيد كلام بلنت برقية من كارتريت فى اليوم الثالث عشر من يوليو جاء فيها « عاد الخديو من الرمل إلى الأسكندرية فى الساعة ٤ بعد ظهر اليوم بعد أن ضمن ولاء الحرس والجند والفرسان الذين تركهم عرابى لمراقبته »(١) .

وأرى أن إشارة بلنت إلى ال« بقشيش » وإشارة كارتريت إلى ضمان ولاء الحرس تلقى ضوءاً على الرواية القائلة بأن البكباشى منيب انشق ومعه نحو خمسين ومائتين من الجند الذين أرسلهم سليمان سامى ، وأعلن ولاءه للخديو وأقسم أنه وجنوده يموتون بين يديه إذا دعت الضرورة(٢) ولئن صحت هذه الرواية ، رأينا فى هذا العمل أولى بوادر الانقسام وأولى خطوات الهزيمة فى الجيش المصرى .

وبلغ الخديو السراى فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الثالث عشر من يوليو فإذا الحرس ببابها من جنود البحر البريطانيين وإذا بالأدميرال سيمور يتلقاه فى ساحتها يحيط به عدد من كبار رجاله ؛ ولقد هنأوا الخديو بسلامته ، ودخل توفيق القصر ومن هناك سوف يعود إلى عاصمة بلاده فى حماية جيش الاحتلال ، فيتلقاه فى قصره الثانى قواد الاحتلال مهنئين بسلامة الوصول كما تلقاه فى الاسكندرية سيمور .

وهكذا نرى الأمة من أول الأمر فريقين ، أولياء الاحتلال وعلى رأسهم الخديو ونفر ضئيل من المصريين ، والمجاهدين الأحرار يقودهم عرابى ومن ورائهم الأمة المصرية كبراؤها وعلماؤها وفلاحوها ... ونعود فنكرر القول إن موقف الخديو هذا سوف يكون أقوى عامل فى نجاح الأنجليز .

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

وبعد فهذه قصة العدوان الفاجر على مصر ، قصة البغي الأكبر على بلاد كل ذنبها أنها تطلب الحرية ، والحكم الدستورى أسوة بأوروبا المتمدنة ؛ ومن أعظم الأمور إثارة للنفوس وأدعاها إلى الكفران بمدنية الغرب ومبادىء الغرب أن يأتى هذا العدوان على يد رجل مثل جلادستون .. بيد أن المطامع الاستعمارية وإقامة صرح الأمبراطورية شيء ، ومبادىء القومية والحرية شيء آخر !. ولكن متى يفهم ذلك المفترون بضلال أوروبا ؟

على أن الحرية لا تعدم أنصاراً حتى فى أحلك الساعات وإن لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، فقد استقال مستنكراً الضرب المسترجون برايت أحد أعضاء وزارة جلادستون لأن ضميره وذمته لم يتسعا لهذا العدوان الذى وصفه بأنه « انتهاك صارخ للقانون الدولى ومبادىء الأخلاق »

ولقد احتج أحد نواب الأحرار على العدوان فى الثانى عشر من يوليو بمجلس العموم قائلاً « إنه شناعة دولية وعمل ينطوى على القسوة والجبن والإجرام »

ويقول روتستين فى كتابه المسألة المصرية « ياله من تدهور فى عالم الشهرة والمبدأ مؤلم للنفس وقد يكون أشد مما شاهدناه فى أيامنا مدة حرب البوير »

وقال كذلك « إن إنجلترة قد خرقت حرمة القانون الدولى وأتت أمراً همجياً لم يسبق له مثيل ، أمراً لو صدر من دولة أضعف منها لحوسبت عليه حساباً عسيراً »

* * *

وإنه ليحلو لبعض الكتاب والمؤرخين أن يعيبوا على عرابى وأنصاره أنهم تركوا حصون الأسكندرية ضعيفة فلم تستطع مقاومة السفن الأنجليزية بسبب ذلك ؛ ولا ندرى كيف يلقون هذا القول ولا يتذكرون أنه طالما كان الخديو فى صف الأنجليز والفرنسيين منذ حضرت سفن الدولتين ، لم يكن فى وسع الوطنيين عمل شيء ؛ ولقد قبل الخديو المذكرة المشتركة وقبل استقالة الوزارة الوطنية بمجرد أن واتاه شيء من القوة . . .

ألا فليعلم هؤلاء العائبون أن الخلاف الداخلي الذى فصلنا قضيته كان سبب كل ضعف ؛ وماذا عسى أن يصنع حزب وطنى فى البلاد يخاصمه الخديو من أجل تمسكه بالحكم المطلق ورغبته فى القضاء على الدستور ؟

هل كانت تستطيع وزارة البارودى أن تمد المدة لمحاربة إنجلترة والخديو الذى يملك حق إبعادها عن كراسيها فى صف الأنجليز ؟

على أن عرابياً قد بذل فى وزارته جهداً محموداً فى إصلاح الحصون ولولا إسقاط وزارة البارودى لـكان يرجى أن يسير فى هذه السبيل حتى يتم ما بدأه[1]

لقـد قامت القيامة وأنذر الأنجليز الدنيا بالويل لنبأ من مفترياتهم هم ألا وهو ما زعموه من تحصين فى قلاع الأسكندرية واتخذوا من ذلك وسيلة لإنذارهم مصر ثم الاعتداء عليها ، فـكيف يجوز فى عقل عاقل أن يقال إن الوزارة ملومة لأنها لم تقو الحصون ؟

فإذا أضـفنا إلى ذلك أن عمل إنجلترة كان مفاجئاً لا لمصر وحدها ولـكن للمؤتمر الدولى القائم فى الآستانة تبين لنا مبلغ ما فى هذا اللوم من ضعف وسخف

على أن الوطنيين قد جاهدوا فى الوطن حق جهاده وأبوا أن يسلموا بما طلبت إنجلترة إلا مكر هين ، ولم يفروا أو يتخاذلوا من ضعف أو مباغتة ...

والآن بعد أن أقدمت إنجلترة على عملها الإجرامى المعدوم النظير ، وبعد أن ألقى الخديو بنفسه فى أحضانهم ، ستجاهد الأمة المصرية أصدق الجهاد ؛ وستعد ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل ، وستبدو وطنيتها وحميتها قوية رائعة على الرغم من قعود نفر من بنيها من الأممات والمستضعفين والطامعين ...

---

(١) راجع ص ١٥٨ من هذا الـكتاب .

عرابى بطل الجهاد

رأى عرابى نية الخديو قبل عودته إلى رأس التين ، وإنه ليعلم ما يكنه توفيق فى نفسه للحركة القومية منذ يوم عابدين …

لذلك أيقن عرابى وأصحابه أن الحرب غدت أمراً محتوماً بين الأمة المصرية وبين إنجلترة ؛ ورأوا أن الأسكندرية لا تصلح ميداناً للقتال ، وأن الدفاع عنها بعد تحطيم حصون الشواطىء مستحيل ، وهو أكثر استحالة بعد انضمام توفيق إلى الإنجليز …

وكان الخديو يأمل أن يدافع عرابى زمناً عن قلعة المجمى ، وبذلك يستطيع الأنجليز أن ينزلوا جنداً يقطعون عليه الطريق ويأسرونه فى الأسكندرية ؛ يقول بلنت فى ذلك « لقد كان جيشه جيشاً مكسوراً ؛ ولو أنه لم يفقد روحه المنوية إلا أنه كان من السهل أن يصل إلى ذلك لو أن قوة صغيرة نزلت من السفن واستولت على سكة الحديد وقطعت طريق ارتداده ؛ ولقد كان من المؤكد فى خطة الأنجليز أنهم كانوا يريدون تطويق عرابى إذا أمكن ؛ وربما كانت تلك الحمية التى بدت فى الدفاع على غير ما كان منتظراً ، أو كانت خدعة الراية البيضاء هى التى حالت بين سيمور وبين إنزال جنده »[1] . .

ولذلك حنق توفيق على عرابى لانسحابه ، ولم يكن مبعث حنقه أنه ترك المدينة بغير دفاع كما سيزعم عند الضرورة . قال عرابى فى تقريره الذى كتبه إلى محاميه المستر برودلى فى السجن « أصدر الخديو أمره فى مجلس الوزراء إلى جنودنا ليحتلوا قلعة العجمى ويمنعوا نزول الجنود البريطانية ، فأفهمت سموه أن الشاة

(١) S, H, Blunt P ,390

لا يستطيعون ذلك لأنهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيراً ويكونون عرضة كذلك لأن يقطع عليهم الطريق إلى الأسكندرية ، فظهر على الخديو الغضب وقال : لماذا تسمون أنفسكم جنوداً إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عدواً من أن ينزل جنوده فى بلادنا ؟[1] .

لذلك انسحبت الحامية لتتخذ مكاناً حصيناً يصلح لأقامة خطوط الدفاع عن داخل البلاد ؛ وقد اتخذت جهة كفر الدوار موطناً لهذا الدفاع .

وهكذا ينتقل تاريخ الثورة القومية إلى فصل جديد هو الحرب بين مصر الناهضة بالأمس القريب مما رزحت تحته زمناً طويلا من الحكم الفردى المطلق ؛ والتى لم تستوف أسباب القوة المادية بعد أن حطمت الدول قوى محمد على ، وبين إنجلترة ذات الأمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس !

ولم يكن أمام مصر إلا أن تختار إحدى سبيلين : التسليم بالاحتلال ومايقضى به على نهضتها القومية الحرة وقبول هذه الذلة طائعة مختارة ، أو الحرب التى تبذل فيها الأموال والأنفس والتى تنتهى إما إلى نصر يتحقق به كل شىء ، وإما إلى هزيمة تذهب بكل شىء إلا الشرف والكرامة .

واختارت مصر السبيل الثانية تحت راية عرابى ؛ وتركت للخديو ومن شايعه السبيل الأولى ، وما كان لعرابى وأصحابه أن يفعلوا غير ما فعلوا وإلا كانت حركتهم القومية ونهضتهم الأصلاحية هزواً ولعباً من أول الأمر ، وما كانت لعمر الحق إلا الجد كأعظم وأجل ما يكون الجد ...

يقول بلنت فى هذا الصدد « إن خير صفات عرابى كما اعتقد هى إصراره على ألا ينصرف عن وضع كان هو الأصل في إعلانه وذلك أنه وإن كان على استعداد لأن يسالم الدنيا كلها ، إلا أنه كان يرى من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير . وبهذا قد أدى لبنى وطنه فى تلك الأسابيع خدمة لا تقدر ؛ خدمة أرى أن من الحق أن يذكروا بها ؛ فليس هناك شىء أكثر يقيناً من أنه لو كان عرابى أقل

(١) How we Defended arabi P. 127

عناداً مما كان فى رفضه التهديد أو الرشوة[١] عند ما طلب إليه مغادرة مصر ولم تنشب الحرب تبعاً لذلك ، لبقى الفلاحون كما كانوا سنة ١٨٨٠ عبيداً لسادتهم الأتراك وعبيداً للأوروبيين ؛ وماذا يرى أى وطنى ما كان عسياً أن ينتج من إذعان عرابى ؟ أهو حرية من أى نوع ؟ أهو استمرار لحكم الشعب نفسه ؟ أهو حكم أجنبى أخف وطأة مما هو عليه الآن ؟[٢] لا شىء من ذلك يقينا . إن ما كان ينتج يتضح فى النظام الذى أقيم فى القاهرة عقب الحرب ، إنه كان لا يخرج عن نوع من استبداد الشرطة والغدر والعقوبات الخفية ، دون أن يخفف من ذلك أى اهتمام بعد بالقومية المصرية كما ينظر إليها بالمعنى المفهوم فى أوروبا ؛ ومن الممكن من الوجهة الشكلية أنه كان يسمح لمجلس من الأعيان أن يظل يعقد بعض جلسات ، من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ، ولكنه لن يكون ذا قوة كما أنه لن تكون له قط روح وطنية . وكان يعاد الحكم الشركسى أشد مما كان ، وكانت تحرص الرقابة المالية — وقد قويت شوكتها بسلطة سياسة جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح ، أوروبية بحتة — على ألا تحرر الفلاحين من سادتهم الأتراك وقد غدا هؤلاء الأتراك عبيداً لأوروبا ؛ وكانت تذهب أسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء فى صورة مشينة ، لأن الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار ... وكانت المطبوعات القومية تهوى إلى مثل ما هوت إليه فى تونس ؛ وكان لا يجد المرء أثراً للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ولا لأى اعتبار للحقوق القومية ؛ وكانت مصر فى الواقع ترى كما رؤيت سنة ١٨٨٣ أرضاً لا يستطيع المرء فيها أن يزيد على الهمس ولا يأمن جاره أن يشى به ...

وقد خلص عرابى بنى وطنه على أقل تقدير من هذا كله ... ولئن لم يتفق لهم أن يروا فيه جندياً كما رأوا فيه وطنياً ، فأنه أنقذهم من وصمة شنيعة ، وتلك أنهم لم

---

(١) قيل إن بيت روتشلد تعهد أن يدفع له معاشاً ضخماً إذا هو غادر مصر حسب المذكرة المشتركة .

(٢) يقصد الحكم الأجنبى بعد الاحتلال فقد صدر كتابه سنة ١٩٠٧ .

يحاربوا قط فى المرة الوحيدة التى أتيحت لهم فى مدى تاريخهم حين واتتهم الفرصة ليدافعوا عن حريتهم »[1] .

وإن عبارة بلنت هذه لتلخص القضية كلها أبلغ تلخيص وأجمله وما نجد خيراً منها نسوقه للذين ينعون على عرابى أنه حارب ، ويقولون فى سذاجة مثيرة إنه حارب لجلب البلاء على مصر؛ كأنما كانت هذه الحرب لعبة طرأت على خياله فلعبها ... أوهكذا يفكر هؤلاء كما يفكر الصبيان ...

وقفت مصر إذن تدافع عن حريتها وعن شرفها ، وتخوض حرباً لأول مرة فى تاريخها تحت قيادة فلاح من بنيها يعاونه فى القيادة فلاحون مثله فأما إلى النصر وإما إلى القبر ... وهى فى أقل ما توصف به مظاهرة للشرف والكرامة .

***

أعلنت الأحكام العرفية فى مصر ابتداء من اليوم الحادى عشر من يوليو فقد أرسل راغب باشا إلى جميع المديرين برقية هذا نصها « حيث ابتدأت الحرب بيننا وبين الأنجليز فبمقتضى القانون تكون الأدارة تحت أحكام العسكرية ، والخيول والبغال الموجودة جميعها بالمديريات والمحافظات ترسل لديوان الجهادية بأثمان موافقة على الجهادية فليسرع بالمبادرة بأرسالها »[2] .

وهذه البرقية صريحة فى أن الحرب ابتدأت بين مصر وبين الأنجليز، وصدورها من رئيس مجلس الوزراء لن يكون إلا بأذن من الخديو ...

ومنذ أن قرر الخديو ومجلس وزرائه رفض الأنذار النهائى تعتبر البلاد فى حال حرب مع إنجلترة؛ وقد أصدر الخديو أمره إلى عرابى باشا بدعوة خمسة وعشرين ألفاً من الاحتياطى بالأقاليم ، هذا وإن القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء فى اليوم العاشر من يوليو، ذلك المجلس الذى كان عرابى غائباً عنه ، والذى أشار إليه اللورد راندلف تشرشل فى مجلس العموم متعجباً من أن الكتاب الأزرق أغفل نشره ومبيناً أن

(١) S. H, Blunt P, 283—84،

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢

مرد ذلك إلى أنه صريح فى أن توفيقاً أعلن الحرب على إنجلترة ، نقـول إن ذلك القرار كان ينص نصاً صريحاً على أن الحصون سترد على ضرب الأدميرال بعد القذيفة الخامسة من جانب السفن[1] ..

ولينظر القارىء بعد هذا فيما كان من راغب وتوفيق فى هذا الجهاد القومى الذى لم يكن لعبة لاعب وإنما كان حياة أو موتاً لأمة ...

أرسل راغب باشا فى اليوم الخامس عشر من يوليو إلى وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يطلب إليه إعادة المهاجرين إلى الأسكندرية لأن الحال قد تحسنت وأن « جميع من خرجوا من البلد جار رجوعهم إليها وإن أبوا العودة أرسلوهم ولو جبراً »[2] .

وكأن راغباً باشا يريد أن يقول إن البلاد ليست فى حرب مع الإنجليز مع أن الأنجليز قد احتلوا الأسكندرية فعلا منذ غادرتها الحامية واتخذوها قاعدة يزحفون منها إلى داخل البلاد ...

وهكذا ينقلب راغب فأذا هو من الأمعات ، وإذا هذا الشيخ الذى نيف على السبعين يختار أن يختم حياته أسوأ خاتمة .

ولم يقف راغب عند هذا بل كتب فى اليـوم السابع عشر من يوليو إلى الأدميرال سيمور يقول وما أسخف وأشنع ما قال « لى حظ الشرف أن أعلن لحضرتـكم أن عرابى يشتغل الآن بأعداد وسائل للدفاع ، وذلك مخالفة لأوامر الجناب الخديو ، وقد صدر له الأمر بالـكف عن هذه التجهيزات ، فكونوا إذن على علم بأن الجناب الخديوى عزم على عزله من وظيفته . فهو لذلك وحده المسئول عما يحدث ، فأرجوكم أن تعلنوا مآل هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملكة »[3] .

---

(١) أورد برودلى كذلك هذا القرار فى ذيل ص ١٢٤ فى كتابه كيف دافعنا عن عرابى

(٢) الوقائع المصرية ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢

(٣) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٢٧ . وقد أشار كارتريت إلى هذا الكتاب كذلك فى مصر رقم ١٧ ص ١٦٨

وإن المرء ليتملكه العجب والأسف معاً بل الحزن العميق ، أن يرسل رئيس وزارة مسئول كلاما كهذا إلى أدميرال دولة أجنبية معتدية لا تزال أرض الوطن مخضبة بدماء من فتكت بهم قذائفها فى غير مسوغ !

وهل غدا سيمور حاكم البلاد الشرعى حتى يكتب له راغب هذا الكلام ؟ كلا فلن يزال توفيق حاكمها الشرعى من قبل السلطان الذى عينه ؛ ولكن سيمور قد غدا صاحب النفوذ الفعلى فى الأسكندرية على الخديو الذى لاذ به وعلى الوزراء الذين أصبحوا منذ أن صحبوا توفيقاً إلى رأس التين أشبه بسجناء فى المدينة ...

وليس أدل على ما بات لسيمور من سلطة من ذلك المنشور الذى أصدره باسم الخديو فى اليوم السابع عشر من يوليو يحث فيه الناس على الهدوء والنظام ويعلن إليهم أنه مكلف بذلك من جانب الخديو ...

وهكذا أخذ الأنجليز يخطون خطواتهم نحو احتلال البلاد والسيطرة عليها باسم الخديو والدفاع عن الخديو الحاكم الشرعى أمام العصاة الثائرين من بنى شعبه ، تلك الدعوى التى ادعوها منذ حضور سفنهم ، والتى ألقوها فى روع الخديو منذ يوم عابدين ...

ولن يفسر عمل راغب إلا بأنه تم بعد اتفاق بينه وبين سيمور وتوفيق ، وهذه بديهية لا تحتاج إلى دليل ...

وأدهى وأمر من فعلة راغب وأدعى إلى الأسف والألم والدهشة جميعاً برقيه الخديو الآتى نصها والمرسلة فى اليوم السابع عشر من يوليو إلى عرابى بكفر الدوار حيث أخذ يبنى خطوط الدفاع عن الوطن فى نشاط وبسالة ؛ قال توفيق وما أعظم ما تحس النفس من ألم وثورة تلقاء ما قال « اعلموا أن ما حصل من ضرب المدافع من الدونتمة الأنجليزية على طوابى اسكندرية وتخريبها ، إنما كان السبب فيه استمرار الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الأميرال ، فأفاد أنه ليس للدولة الأنجليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة ، وأن

ما حصل إنما هو فى مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونتمة ، وأنه إذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة الأسكندرية إليها ، ولذلك إذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الأنجليزية تحترمهم وتسلم إليهم المدينة ، فقد تحقق من هذا أن الدولة الأنجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وأنه تقرر من كافة الدول المعظمة بالقونفرانس [١] بأنه لا يصير مس امتيازات الحكومة المصرية ولا حريتها . ولا مس حقوق الدولة العلية ، بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت ، وأن يصير إرسال عساكر شاهانية لأجل استتباب الراحة بمصر ، فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا ، وتحضروا حالا إلى سراى رأس التين لأجل إعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار »[٢]

وفى هذه البرقية العجيبة الذى لا ينتهى عجبنا منها يحمل توفيق عرابياً تبعة ضرب الأسكندرية ويعلن حسن مقاصد الأنجليز وأنهم لا يبتغون إلا الخير لمصر !. ويقول إن سبب الضرب « يرجع إلى الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها »

وتناسى الخديو أنه أرسل برقية إلى السلطان فى اليوم السابع من يوليو ينفى فيها حدوث هذه الأعمال التى يشير إليها ، ويقول إن التأكيدات أرسلت إلى الأدميرال بنفيها [٣]

وكانت دعوة عرابى إلى الأسكندرية خدعة مكشوفة لا تجوز على أبسط الناس عقلا ، بغية القبض عليه بحجة أنه ثائر متمرد خارج على إرادة الخديو داع إلى الفوضى ، ولسنا بحاجة إلى تلمس الدليل على صحة ما نقول فحسبنا أن نورد نص البرقية الآتية التى أرسلها كارتريت إلى جرانفل فى اليوم الخامس عشر من يوليو قال

(١) المؤتمر

(٢) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنه ١٨٨٢

(٣) مصر رقم ١٧ ص ٢٠١

« قلت النار قلة محسوسة . يعود الأوروبيون إلى المدينة .. أنشىء شرطة وطنيون ليعملوا مع البحارة الأمريكان ؛ أبرق عرابى باشا هذا الصباح من كفر الدوار إلى الخديو يقول إنه سوف يسر سموه أن يعلم أن الرديف قادمون ليعينوه فى محاربة الأنجليز وأجاب الخديو بدعوته إلى هنا . إذا حضر فسيقبض عليه ؛ وإذا رفض فسيعلن عصيانه وخروجه على القانون . القاهرة هادئة كما نعتقد . الشعور القوى إلى أقصى ما نستطيع أن نراه فى جانب الخديو . مع عرابى نحو ٤٠٠ جندى »(١)

والواقع أن الخديو كان قد فرغ من عرابى وقضى فيه قضاءه بعزله من وزارة الجهادية قبل أن يستدعيه إلى الأسكندرية بيوم نجد ذلك صريحاً فى برقية لكارتريت بتاريخ اليوم السادس عشر من يوليو جاء فيها « أتشرف بأن أخبركم أن الخديو عزل عرابى باشا من منصب وزير الجهادية ، وأصدر أمره بمنع جميع المصريين من مساعدته ، وسيذاع هذا الأمر بكافة الوسائل التى فى متناول سموه؛ وبناء على اقتراح الخديو أنفذ الأدميرال السير بوشامت سيمور سفينتين من سفن جلالتها إلى أبو قير مخافة أن يقطع عرابى الساحل ويدع ماء البحر يطغى »(٢)

وهكذا يعزل توفيق عرابياً قبل أن يستدعيه ولم يعلن قرار العزل رسمياً إلا فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو

واندفع لعرابى الرد على توفيق فقد أبرق إليه رداً على برقيته يقول « مولاى .. فى شريف علم مولاى المعظم أن المحاربة التى وقعت بيننا وبين الأنجليز وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رياسة سموكم بحضور كثير من ذوات البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ، ولما تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد قر رأيهم على معارضة طلب الأميرال ولو أدى ذلك إلى الحرب ؛ وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة خمسة وعشرين ألف عسكرى وصدرت الأوامر إلى المديريات بطلبهم ؛ وقرر المجلس أيضاً أنه لا تطلق المدافع من جهتنا إلا بعد

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٤٧
(٢) ص ١٤٧

إطلاق خمسة مدافع من السفن الأنجليزية ؛ ولما ابتدأت السفن بضرب النيران على مدينة الأسكندرية لم نقابلها إلا بعد عشرين طلقة ، ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد ، لاستمرار الأوامر بعدم الاستعداد ، ثم بعد ذلك أعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم إلى جميع جهات الأدارة بصيرورة البلاد حربا مع الأنجليز وأنها صارت تحت الأحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب ... وبهذه الأسباب يامولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الأنجليز بوجه الحق والشرع ، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدونانمة كما هو معلوم لدى عظمتكم ، وإنما كانت الحرب عدوانا من الأنجليز على الحكومة التى لم يبد منها أى شىء يستوجب الحرب ، فأن كان الأميرال فى مخابرته مع سموكم أظهر أنه عدل عن المحاربة إلى المسالمة فذلك بعد وقوع الحرب بعد طلباً للصلح وسعياً فى تجديد الملاقات ، ولا يجوز أن يكون إنكاراً للحرب بالمرة وتبرأ من العدوان بعد وقوعهما ، ولا شك فى أنى أطابق أفكار سموكم فى الميل إلى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة؛ وإن كان الأميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الأنجليزية هدماً وحرقاً فها هو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه ، مستعد لأن يستلمها بعد براح المراكب عن مياه الأسكندرية ، وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعداد العسكرى كما وافق رأى سموكم أولا حتى تفارق المراكب السواحل المصرية خوفاً مما عسى أن يحدث من قبيل ما سبق ، فقد صارت الحادثة الماضية برهاناً جلياً على أن الوعد بالمسالمة من الأنجليز لا يمكن كمال الثقة به ، وإنما هو لأجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد ؛ وإننى كنت أتمنى أن أمتثل بين يدى عظمتكم لأبداء هذه اللحوظات : لكن من الأسف أنه تحقق عندى من الاكتشافات الحقيقية أن مدينة اسكندرية مشغولة الآن بعساكر الأنجليز ، فمن المعلوم عند مولاى أنه لا يمكننى الحضور بتلك المدينة لهذا السبب ، فأذا حسن

لدى مولاى فليصدر أمره السامى بحضور حضرات النظار أو سعادة رئيس مجلس النظار إلى مركز الجيش للمداولة فى هذا الأمر لنكون على بينة من الحقيقة حتى يمكننا بعد ذلك صرف العساكر وترك التجهيزات الحربيه والحضور إلى المدينة ، والأمر لمن له الأمر » (١)

* * *

ووقف عرابى فى خطوط دفاعه ، لا لينتظر شيئاً من الخديو بعد ذلك ،ولكن لينتظر كلمة الأمة المصرية تحكم بها بينه وبين الخديو وأعوانه من الأنجليز والخوارج من المصريين ؛ وعما قليل ستأتيه الأنباء من أعماق مصر بأن الأمة الذى يجدته بالأمس زعيما قومياً مناضلا فى سبيل حريتها ودستورها ، ستنضوى اليوم تحت لوائه قائداً مجاهداً مدافعاً عن الحرية التى استخلصها لها وعن الدستور الذى حرس مهده ، وعن شرفها الذى يمتحنه ببغيه الاحتلال

وحسبه مجداً وفخراً وجزاء بما جاهد وصابر أن ترى فيه أمته رمز الخلاص وبطل الجهاد ...

(١) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

نصرك الله يا عرابى

ما ذاعت فى القاهرة والأقاليم أنباء ما فعل الأنجليز فى الأسكندرية وما كان من موقف الخديو بعد ذلك ، وما ذاع رد عرابى على استدعاء توفيق إياه حتى امتلأت القلوب عطفاً على عرابى وإجلالا له ، وازدادت محبة الناس له أضعافاً مضاعفة ، وصار من الكلمات الشعبية التى يسمعها المرء فى المدن أينما سار فى شوارعها ودروبها وأينما حل فى مقاهيها ومنتزهاتها ، وفى القرى أينما وجدت شمالا أو جنوباً تلك الكلمة التى غدت شعار الشعب وهى « الله ينصرك يا عرابى »[1]

ولم تقتصر الأمة على الهتاف والدعاء ، فسوف نرى أنها بذلت من أبنائها ومن أقواتها وأموالها ما هو خليق أن يسجل لها فى تاريخ الحركات القومية مثلما يسجل للأمم الأبية الكريمة من دواعى الفخار ...

* * *

فطن عرابى منذ أن جاءته برقية الخديو إلى أن الأنجليز من أول الأمر سيتخذون من الخديو أداة لتحقيق أغراضهم ، وكان أول اتجاه نحو هذا أن يصدر قرارات ضد عرابى تذيع الانقسام فى البلاد ...

لذلك رأى أن الظروف تحتم عليه أن يقضى على هذا السلاح ، فبادر بإرسال برقية إلى جميع المديريات والمحافظات يعلن للناس فيها انضمام الخديو إلى الإنجليز ويحذرهم من اتباع أوامره ويدعوهم إلى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال[2]

وأرسل عرابى برقية أخرى يعلن فيها للمديرين أن الوزراء أسرى عند الخديو

---

(١) أثبت محاميه مستر برودلى هذه الكلمة بالعربية مذهبة على غلاف كتابه الأنجليزى « كيف دافعنا عن عرابى » وأثبتها فى الصفحة الأولى منه بالعربية كذلك وكتب تحتها « هتاف الشعب فى القاهرة يوليو سنة ١٨٨٢ » .

(٢) الوقائع المصرية ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ومصر رقم ١٧ ص ١٨٤

وأنه يريد أن يتخذ منهم أداة لتنفيذ أغراضه فى شل حركة الدفاع عن الوطن وعلى ذلك فليعلم الحكام والمديرون أن ما يأتى من رئيس الوزراء من البرقيات بطلب الكف عن الاستعداد أنما هو مجبر عليه فلا طاعة له ؛ وأن الذين يخونون وطنهم لا يكون جزاؤهم العقاب وفق قوانين الحرب فحسب ، بل سيلعنون فى الآخرة [١]

وأرسل كتاباً خطيراً فى اليوم السابع عشر من يوليو إلى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يملى إليه فيه خيانة الخديو للبلاد وأنه سبب ما نزل بها من الكوارث ويدعوه إلى عقد جمعية من الكبراء والعلماء للنظر فى الأمر وإصدار قرار بشأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمة وتقرير مدى « صلاحية هذا الوالى عليها » [٢]

وقد اهتم الانجليز بأنباء هذه الاتصالات وغاظهم أن يسبقهم عرابى إلى السلاح الذى أرادوا أن يحاربوه به ، وأبرق كارتريت إلى جرانفل فى اليوم الحادى والعشرين من يوليو يقص عليه أمرها ، فرد عليه جرانفل ببرقية فى نفس اليوم هذا نصها «بالنظر إلى لهجة عرابى باشا فى بلاغاته التى ذكرتها لى فى برقيتك اليوم ، رأيت أن أوجهك بشدة إلى أن تؤثر على الخديو بضرورة إصدار بلاغات مضادة من جانبه إلى الشعب المصرى ، وأن تخبر سموه بأن حكومة جلالة الملكة تمد المدة لإرسال قوة كبيرة إلى البحر الأبيض المتوسط »

ومعنى ذلك أن إنجلترة كانت تعد حملتها لاحتلال مصر وأنها خافت من نشاط عرابى وقطعه الطريق على أساليبها

وكان الخديو قد أعلن أمره فعلا بعزل عرابى فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وبنى قرار العزل على أمور نسبها إليه سوف نذكرها ، ولكن الأنجليز لم يكتفوا بذلك وأرادوا أن يستمر الخديو فى إصدار القرارات ضد عرابى ...

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٨٤ (٢) الوقائع المصرية عدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ وقد أورد ترجمة كلام عرابى فى مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٧٥

وكان يعقوب سامى باشا من المخلصين للثورة الوطنية وكان يكره أشد الكره من الخديو انضمامه إلى الأنجليز ، ويرى أن ذلك خيانة منه للبلاد ؛ وكان يعقوب باشا كذلك من أكبر أنصار عرابى المتحمسين له ...

فلما جاءته برقية عرابى اجتمع فى نفس اليوم فى مقر وزارة الحربية بقصر النيل مع عدد من صفوة أنصاره وتشاوروا فى الأمر ؛ واستقر رأيهم على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفى ، وسيبقى يدير شؤون الحرب والأدارة طول مدة القتال .

وقرر المجلس العرفى فى نفس اليوم دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الأديان والعلماء ووجوه الأمة ممن يوجدون بالقاهرة وكبار موظفى الدولة ، للنظر فى هذه الأمور الخطيرة واتخاذ القرارات التى يراها صالحة للبلاد ...

وانعقدت الجمعية العامة أو مجلس العموم كما سميت فى مساء الإثنين السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ الموافق غرة رمضان سنة ١٢٩٩ فى وزارة الداخلية ، وشهد هـذا الاجتماع الخطير نحو أربعمائة عضو ، كان بينهـم الأمراء الموجودون بالعاصمة ورؤساء الأديان وفى مقدمتهم الشيخ الإمبابى شيخ الإسلام ، ثم كبار العلماء وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية والنواب ووكلاء الوزارات والقضاة وكبار الأعيان والتجار ...

وعرضت على أعضاء الجمعية البرقيتان المتبادلتان بين الخديو وعرابى ، والبرقية التى أرسلها عرابى إلى يعقوب سامى وبعد أن تشاوروا طويلا فى الأمر ، اتخذوا قراراً خطيراً يدل على قوة روح الأمة ومناصرتها المجاهدين من أبنائها ، وذلك أن الجمعية رأت الاستمرار فى إعداد العدة للقتال مادامت سفن الأنجليز فى الشواطىء المصرية وجنودهم فى الأسكندرية ، كما رأت استدعاء الوزراء من الأسكندرية لسؤالهم عن حقيقة الأمر ؛ وأوفدت لجنة من ستة مندوبين من أعضائها للسفر إلى الأسكندرية لإبلاغ الوزراء قرار الجمعية ...

* * *

وكان الخديو فى قصر رأس التين بالأسكندرية يحيط به أعوانه من الأنجليز ويختلط بحرسه بحارة الأسطول البريطانى وإنه لينتظر بصبر فارغ ذلك اليوم الذى يؤتى إليه فيه برأس عرابى حياً أو ميتاً .

أرق كارتريت فى التاسع عشر من يوليو يقول « أرسل الخديو فى طلب السير أوكلند كلفن صباح اليوم وطلب إليه أن يستحث حكومة جلالة الملكة لتخطو خطوة جديدة بلا إبطاء . ويقول سموه إنه من ناحيته يرى أن هذا العمل ضرورى جداً ، وأنه يسر سموه إذا أحيط علماً بالخطوات التى ينظر فيها . وقد وصف سموه قوة عرابى باشا بأنها الآن بلغت من العظمة حداً ينشر الرعب ويبثه فى عقول الوطنيين جميعاً ، وأن سيطرته على البلاد وبخاصة القاهرة يجعل عائلات جميع الموالين للخديو وأملاكهم تحت رحمتـه ، أو الذين يستراب فى أمرهم أنهم موالون . ومن ناحية أخرى فأن هناك إشاعة مستفيضة بأن إنجلترة سوف يحال بينها وبين خططها بسبب الخلاف بينها وبين الدول . وستكون عاقبة هذين الاعتبارين أن يصبح من الصعب على سموه أن يحتفظ بمن يشايعونه متحدين »(١)

وهـذه البرقية صريحة فى أن الخديو لا ينضم إلى الأنجليز فحسب ، بل إنه يستعديهم على مصر ويستحثهم فى صورة من القول لا تحتاج إلى تعقيب ...

وجاء إلى الأسكندرية من بور سعيد عمر باشا لطفى بطل مأساتها ؛ يقص على الخديو والأنجليز مزيجاً مهوشاً من الأباطيل ليس فيـه من الحق إلا ما كان من صالح الخديو إعلانه ، وحتى هـذا القدر من الأنباء قد جاء به على صورة ممسوخة أملتها ضغائنه ومن ذلك ما ذكره عن حوادث اغتيال بعض الأوربيين داخل البلاد

ومن ذلك وصفه المجلس العرفى بأنه مجلس عدائى حضره نحو مائة من العلماء والباشوات والتجار ، ومنه ما ذكره عن الشيخ حسن العدوى أنه قال إنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديو بعد اليوم وإن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد وافقه الشيخ عليش على ذلك ؛ ومنه أن أحد الباشوات اعترض على الشيخين

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

وتشكك فى صحة ما أرسله عرابى من الأنباء وطالب بالدليل عليها فوثب إليه بعض الضباط وأرادوا قتله ؛ ولما أعيد النظام أبدى بعض الحاضرين أنه إذا كان للأمة أن تشكو شيئاً من الخديو فأن السلطان هو الذى ينظر فى شكواها وليس للمجلس هذا الحق ؛ وقال بطريق الأقباط إننا سمعنا من جانب واحد هو جانب عرابى ولم نسمع شيئاً من الخديو ... إلى آخر هذا الخلط المرذول ...

ومما أورده بطل مذبحة الأسكندرية كذلك مشوهاً ممسوخاً قوله ، إنه شاهد من القطار وهو مسافر إلى القاهرة عقب ضرب الأسكندرية جثث كثير من الأوروبيين ملقاة على الطريق وقد اغتالهم الجند وقطاع الطرق ، وأنه شهد فى محطة طوخ مقتل ألمانى وزوجته ، وأن طنطا ودمنهور والمحلة نهبت نهباً تاماً وقتل جميع من كانوا فيها من الأوروبيين .

وأنه بأمر عرابى باشا قد سجن من كبار الوظفين إبراهيم باشا أدهم مدير الغربية وحسن بك مدير المنوفية وكمال بك مدير القليوبية .

وأن الضباط يعقدون اجتماعات كثيرة برياسة محمود سامى باشا فى قصر النيل ؛ وأن عرابياً باشا قد طلب إلى المديريات إرسال سدسى عدد الذكور فى كل منها إلى كفر الدوار مسلحين بالنبابيت ؛ كما أنه طلب للخدمة جميع الجنود القدامى من كل سن ومنهم من بلغ أرذل العمر إذ كانوا فى جيش محمد على نفسه .

وأن الخيل والأقوات تجلب قسراً من داخل المديريات ، وأن المديريات جميعاً فى حال عامة من الفوضى التامة ؛ ويسود القاهرة ذعر عظيم وإن لم يقع فيها حتى الآن ما يخل بالنظام ... (١)

وقد أبرق كارتريت بأقوال عمر لطفى هذه إلى حكومته لتنتفع بها فى الحملة على عرابى فى كل فرصة دولية تسنح لها ...

وليس أدل على تشويه عمر لطفى الحقائق وبعده بعداً كبيراً عن الأمانة من إيراده نبأ حبس الموظفين فى صورة تشعر المرء بطغيان عرابى ، مع أنه حبس هؤلاء

---

(١) محصر رقم ١٧ ص ١٨٦

الموظفين رهن المحاكمة لأنهم تهاونوا فوقعت حوادث اغتيال فى أقاليمهم استاء لها عرابى أعظم الاستياء ، وكان فى مقدمة المتهاونين إبراهيم أدهم باشا مدير الغربيـة فقد تمارض وترك الغوغاء يعيثون فى الأرض فساداً حتى لقد شاركهم بعض خفراء الدورية ، وكان من جراء ذلك أن قتل فى طنطا نحو ثمانين من الأجانب وفى المحلة نحو تسعة ..

وقد أرسل عرابى فرقاً من الجيش على الفور إلى طنطا والمحلة وشبين الكوم ، وأرسل قطارات تنقل من يشاء السفر من الأجانب بالمجان إلى الإسماعيلية وبورسعيد

وممن كان لهم همة مشكورة فى تسكين هذه الفتنة أحمد باشا المنشاوى فقد آوى فى بيتـه نحو ثلاثمائة من الأوروبيين والمسيحيين وظلوا فى حمايته ورعايتـه حتى انتهت الحرب ...

ما بلغ الخديو قرار الجمعية العامة حتى أعلن قراره فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو بعزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ، ذلك القرار الذى صدر منذ اليوم السادس عشر كما جاء فى برقية كارتريت إلى جرانفل ، وكان الخديو فى هذه الأيام الستة بين إصدار القرار وإعلانه يحاول استدراج عرابى إلى الإسكندرية كما بينا للقبض عليه غدراً وعدواناً ...

وقد أعلن الخديو أن هذا الأمر بالعزل كان بناء على قرار من مجلس الوزراء وعين الخديو عمر باشا لطفى مكان عرابى ناظرا للجهادية .

أما قرار العزل فهذا نصه « إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحباً العساكر وإخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة إلينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم باسكندرية واستمراركم فى التجهيزات الحربية وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوماً » (١)

---

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وأذاع الخديو عملا بنصيحة كارتريت وتنفيذا لتعليمات جرانفل منشورا علق على الجُدُر بشوارع الأسكندرية فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وفيه يبرر الخديو عزله عرابياً ، ومما احتواه هذا المنشور قول الخديو : — ليعلم كل من يقرأ هذا الأمر سبب عزل أحمد عرابى باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب الشواطىء حطمت قلاعنا وحطم أربعمائة مدفع من مدافعنا وقتل القسم الأكبر من رجال مدفعيتنا أو عطلوا ، بينما لم يفقد الأسطول الأنجليزى إلا خمسة رجال ولم تصب سفنه إصابات ذات بال ؛ وجاءنا حينذاك أحمد باشا عرابى يعلن إلينا النبأ المؤلم عن تحطيم حصوننا . وقد طلب الأدميرال الأنجليزى منا إخلاء قلاع العجمى والدخيلة والمكس لتحتلها جنوده ، ولما كان مجلس الوزراء منعقداً بحضور درويش باشا فقد تقرر أنه لا يمكن إخلاء القلاع إلا بأمر من صاحب الجلالة الشاهانية السلطان ، وأنه على عكس ذلك صار من الضرورى العمل على تدبير وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة تمنع نزول الجنود الأجنبية ؛ وفى نفس الوقت أرسلنا برقية بذلك إلى الباب العالى ؛ ولكن عرابياً باشا توجه إلى جهة باب رشيد بالأسكندرية دون أن يتخذ أى إجراء حربى ، فأرسلت إليه أحد ياورى ليذكره بأنه يجب عليه إرسال إمدادات إلى القلاع المذكورة ، فأجاب بأنه لا يستطيع أن يرسل جندياً واحداً ، وأمر الجند ، بأن ينسحبوا معه وعسكر فى كفر الدوار تاركا المدينة بغير دفاع »(١) .

وإن المرء ليعجب حتى ما يفرغ عجبه من هذا الكلام ! ويتساءل بحق هل كان الخديو يقرأ هذا قبل إذاعته ؟ إذ كيف يجمع الخديو بين هذا القول وبين ما جاء فى برقيته إلى عرابى بكفر الدوار إذ حمله تبعة الضرب نظراً « لاستمرار الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها » وإذ دعاه إلى أن « يصرف النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية » !..

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧٢

ومن المضحك المؤلم معاً أن يقول توفيق فى نفس الوقت « ولو لم يتحق لدينا أن نية الأنجليز والفرنسيس ليست نية استيلاء بل نية إصلاح أو كان عندنا أدنى شبهة فى ذلك لكنا أول من يقوم بالمدافعة بأرواحنا وأموالنا إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا »(١) .

ولكن ماذا عسى أن يقول توفيق غير هذا وهو لا يستطيع أن يجعل من من الباطل حقاً ، ولا يستطيع فى الوقت نفسه أن يسكت ومن ورائه كارتريت وفى دخيلة نفسه شديد مقته لعرابى وعظيم سخطه على الثورة ؟

وأرسل كارتريت فى اليوم الثانى والعشرين كتاباً إلى جرانفل يقول « إلحاقاً إلى رسالتى بتاريخ الأمس بشأن ما حدث فى قصر الرمل أثناء الضرب وبعده ، أفيدكم أنى تلقيت من المصدر نفسه زيادة على ما سلف أن عرابياً باشا حينما سأله الخديو ماذا ينوى عمله فى المستقبل أجاب بأنه سوف يلجأ إلى تدبيرات غير نظامية حيث أنه لا قبل له بمقاومة الأنجليز . وكأن عرابياً بهذا يمهد لما كان من إحراق المدينة وتخريبها وحبس الماء عنها(٢) ، ولقد لمح عرابى باشا قبل ذلك فى حديث له مع رجل إنجليزى إلى ما سوف يتبعه من وسائل المقاومة .

ومن الجلى أن قوة عرابى الرئيسية كائنة فى وسائله البربرية التى لا وازع يصرفه عنها ؛ وإنه ليسود بين موظفى القصر الآن خوف شديد مما عسى أن يصنعه عرابى بأملاكهم فى القاهرة وفى غيرها ، حتى إن ذلك ليشل عمل الخديو ؛ وإن سموه ليحجم عن إعلان عصيان عرابى بسبب ما يفضى إليه ذلك من مكايلته بكيله

وفى مقابلة لى مع سمو الخديو بالأمس حاولت أن أصور له ما يحدثه مثل هذا الإعلان من أثر أدبى ، وما يبثه من الشجاعة فى قلوب من لا يزالون موالين لسموه فى فى القاهرة وغيرها ؛ فأجاب الخديو بأنه ليس ما يدعو فى الأسكندرية إلى القول بأن قوة عرابى قد ذهبت ؛ أما عن القاهرة فأنه أبرق إليها الآن بعزل عرابى ، من

(١) الوقائع المصرية ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨١

(٢) يقصد ما ذكره فى برقية سالفة من أن عرابياً أخذ يسد ترعة المحمودية

بور سعيد ، وليس لديه وسيلة لأذاعة بلاغ ضده هناك . وأضاف سموه أن المديرين فى الأقاليم لا يجرؤون فى الظروف الحالية إطاعة أوامره ، ولكنه يتخذ الخطوات لأذاعة منشور فيهم بأيدى بعض البدو ...

وإنه ليؤسفنى أن أقرر ، أنه على نقيض ما يذكر الخديو بشأن الأسكندرية ، لا يزال يغادرها كثير من العرب لينضموا إلى عرابى ؛ وربما كان مرد ذلك إلى خوفهم مما تهدد به من عقاب فى بلاغاته الأخيرة وإن كان يمكن القول إلى حد ما بأن ذلك يرد إلى الذعر الذى استولى عليهم من نقصان الماء نقصاناً واضحاً »(١) .

ومن عجيب ما يذكر فى هذا الصدد ، أن كارتريت قد اقترح على حكومته الاعتراف بوزارة راغب باشا بعد طرد عرابى منها وتجديد العلاقات معها على أساس المودة ، مع أن راغباً يعد مسئولا عن كل شىء يسأل عنه عرابى ، بل هو بحكم كونه رئيس مجلس الوزراء أكثر مسؤولية منه إذا سلمنا جدلا بأن فى الأمر مسؤولية ، ومما يزيد الأمر غرابة أن عرابياً كان نائباً عن المجلس الذى انعقد فى اليوم العاشر من يوليو بقصر رأس التين برياسة الخديو ، ذلك المجلس الذى قرر أن الحصون سترد على الأسطول بعد القذيفة الخامسة ... فكيف تجدد الحكومة الأنجليزية علاقتها بوزارة راغب التى أصدرت هذا القرار وتمعن فى معاداتها عرابياً الذى لم يشهد هذا المجلس ؟

وللقارىء أن يمعن النظر فى هذه البرقية التى أرسلها كارتريت إلى جرانفل فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو قال « بما أن الوزراء قد تجنبوا الآن كل فكرة عدائية وبما أنهم يظهرون صراحة ولاءهم للخديو ، فقد طلب إلى سير أ . كلفن أن أعرض على فخامتكم مايذهب إليه من أنه مما ينصح به تجديد العلاقات الدبلوماسية معهم مع استثناء عرابى باشا بالضرورة من بينهم ؛ وإن مثل هذه الخطوة كفيلة بأن تساعد الوزارة المصرية فى محاولتها كسب الشعب ثانية إلى جانب توفيق باشا كما أنها تبث الثقة فى نفوسهم بشأن ما تنوية الحكومة الأنجليزية ؛ وقد شرح

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧١

السير أوكلند كلفن فى مقابلة شخصية بينه وبين وزير المالية سبب المعارضة التى كانت توجهها المراقبة إلى الوزارتين اللتين اشترك فيهما عرابى ، فذكر أن ذلك يرجع إلى أن هاتين الوزارتين كان قيامها خطراً على قانون التصفية ، ولم يكن فى الأمر أى اعتبارات سياسية أو دولية ، ولما كان الخديو قد أسقط عرابياً باشا ، فقد أصبح من الأمور الهامة أن نستعيد ثقة البلاد ، وأن نثبت للملأ أن المعارضة التى كان يوجهها من قبل ممثلو حكومة جلالة الملكة لم يقصد بها إلا العصابة العسكرية الذين كانوا يؤدون بسياستهم إلى القضاء على الوضع المقرر والإخلال بمالية الدولة ! ولا يمكن أن تقصد بها وزارة تؤيد بولائها الخديو ، وتجلس فى كراسيها بإرادته ! ويقول السير أوكلند كلفن إن شرحه هذا قد صادف نجاحاً كبيراً ، ويرى أنه إذا لقيت الوزارة الحالية اعترافاً من حكومة جلالة الملكة (دون أن يؤثر ذلك بالضرورة فى حرية الخديو فى العمل بشأن استمرارها أو تغييرها فى المستقبل) أدى ذلك إلى تأثير حسن بوجه عام ، وفى حالة ما إذا صادف هذا الرأى قبولا لديكم فإنه يقترح أن يسمح للرقيبين ثانية بحضور اجتماعات مجلس الوزراء » (١)

وفى هذه البرقية الخبيثة أبلغ الأدلة على أن الحكومة الإنكليزية لم ترم إلا إلى القضاء على الحركة الوطنية القومية التى يمثلها عرابى ، إن كان الأمر لا يزال يحتاج إلى دليل ...

لم تحفل الأمة بأمر الخديو القاضى بعزل عرابى ، بل لقد زادها ذلك استمساكا به والتفافاً حوله ، وكان الناس يتجهون بوجوههم إلى السماء ويرفعون أكفهم كلما ذكر عرابى قائلين « الله ينصرك يا عرابى »

وكره الناس انضمام الخديو إلى الأنجليز أعظم الكره ، ونظروا إلى عرابى نظرهم إلى المدافع عن كيان البلاد فى وجه الناصب المتعدى الذى لم يرع حرمة لقانون والذى أطلق مدافعه على الأسكندرية فى غير وازع من ضمير أو شرف

---

(١) ١٢٣

ولذلك أضاف الناس إلى ألقاب عرابى رئيس الحزب الوطنى وقائد الجيش الوطنى ، لقباً جديداً هو « حامى حمى الديار المصرية » . وهذا ماخاطبته به الجمعية العامة

وفى هذا الذى فعلته الأمة المصرية دليل على أن الثورة القومية قد تغلغلت إلى أعماقها لا كما يقول بعض المؤرخين عن جهل مشايعين فى ذلك كتاب الاحتلال .

وأما عرابى فلم يعبأ بقرار عزله وقد وطد نفسه على الدفاع عن مصر ووقف فى خطوط كفر الدوار معتمداً على تأييد الأمة وعلى عدالة قضيته وشرف جهاده فى سبيل الحق والحرية ...

وأرسل عرابى إلى يعقوب سامى باشا ليدعو الجمعية العامة ثانية للنظر فى الأمر واجتمع المجلس العرفى وقرر دعوة الجمعية إلى الانعقاد .

وفى يوم السبت الموافق الثانى والعشرين من يوليو اجتمعت الجمعية بوزارة الداخلية ، وكان اجتماعا قومياً خطيراً أعظم وأشمل من الاجتماع السابق ؛ فهو مؤتمر وطنى عام شهده نحو خمسمائة من وجوه الأمة المصرية وفى مقدمتهم ثلاثة من الأمراء هم الأمير إبراهيم باشا ابن الأمير أحمد باشا ، والأمير كامل باشا فاضل ابن الأمير مصطفى فاضل وهو ابن عم الخديو توفيق ، والأمير أحمد باشا كمال ابن الأمير أحمد باشا ...

وشهده كبار علماء الأزهر وفى مقدمتهم شيخ الإسلام الأمبابى وقاضى قضاة مصر والمفتى ونقيب الأشراف وكان من أبرز الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى

وشهده كذلك بطريق الأقباط ووكلاء البطريكخانات وحاخام اليهود ...

وشهده وكلاء الوزارات والنواب وعدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وكبار موظفى الدولة الإداريين والقضاة ومديرو الأقاليم ،

ومن الأهالى شهده كبار التجار والأعيان ورؤساء العشائر من الأقاليم ...

وعندى أن أهم ما امتاز به هذا الاجتماع التاريخى العظيم هو تمثيل الأسر المصرية الكبرى فيه من معظم مديريات مصر صعيدها وريفها ،(١)

(١) لم يتخلف إلا جرجا وقنا وأسوان لبعدها ولصعوبة المواصلات بعد أسيوط .

فقد شهده من كل إقليم عدد من كبار العمد كانوا هم فى الوقت نفسه عمداء أسرهم وكبراء الجهات التى ينتمون إليها ، وبذلك كانت مصر كلها ممثلة فى هذا المؤتمر الوطنى العظيم .

وفى ذلك أبلغ رد على الذين يزعمون أن الحركة القومية فى مصر كانت فتنة عسكرية لم تؤيدها الأمة المصرية فها هى ذى الأمـة بجميع طوائفها تقول قولها الفصل فى موقف من أعظم مواقف الثورة ، موقف الجهاد والذود عن كيان البلاد تحت راية زعيم الثورة أحمد عرابى باشا

وكان الاجتماع برياسـة حسين باشا الدرملى وكيل الداخلية ، وتولى قراءة المـكاتبات الشيخ محمد عبده ؛ وقد تليت فى الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد أبو العلا الخلفاوى مؤداها أن الخديو بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعد مارقاً عن الدين ...

ثم تداول المجتمعون فى الموقف الحربى وانتهوا إلى قرار خطير أجمعوا عليـه وذلك هو عدم الاعتراف بقرار الخديو الصادر بعزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ؛ ... وهكذا تأكدت لعرابى زعامة الأمة .

وهذا القرار الخطير فى الواقع مضافاً إلى فتوى مروق الخديو من الدين هو بمثابة خلع توفيق من منصبه ...

وسأل يعقوب سامى باشا أعضاء المجلس قائلا « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه فى الوظيفة فأرجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصـدر إلىّ من جنابه ، وكذلك مايصدر من حضرات نظاره القيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ »

وتداولت الجمعية فى هـذا وأصدرت القرار الآتى : « بعـد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديو أولا وآخراً وفيها الأمر الصادر بعزل أحمد عرابى باشا وتلاوة منشورات عرابى باشا ، وبعد سماعنا ما عرضه وكيل الجهادية (بصفة هذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لإدارة أشغال الحـكومة) على المجلس وهو هل وجود

الخديو فى الأسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الأنجليز يقتضى عدم تنفيذ أوامره أم لا ، وإذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها أم لا ، رأينا أن وجود العساكر فى الأسكندرية والمراكب الأنجليزية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا بمدافعة العدو يقتضى وجوب بقاء الباشا المشار إليه فى نظارة الجهادية والبحرية مداوماً على قيادة العساكر ومتبعاً فى أوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله من تلك الوظيفة ، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ، ويلزم عرض قرارنا هذا على الأعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات »(١)

أما المجلس العرفى برياسة يعقوب سامى باشا فكان هو الذى يتولى شؤون الإدارة العامة فى البلاد وكان أشبه بمجلس الوزراء وقد أدى المجلس واجبه على خير ما يرجى من الهمة والوطنية ؛ ومن أهم قراراته ، وضع الرقابة على الصحف والتلغراف ، ومنع السفر إلى الخارج ما دامت الحرب قائمة .

وكان الفيضان عالياً فى تلك السنة فبذل المجلس همة عالية فى حراسة ضفاف النيل حتى لا يدهم البلاد خطر الغرق فى وقت الحرب …

هذا إلى ما أمد به الجيش فى خطوط الدفاع بالذخيرة والرجال والعتاد فى نشاط وحمية وإخلاص ، وما أظهره من كفاية فى حفظ الأمن والنظام داخل البلاد .

***

وكان نفوذ الخديو لا يعدو الأسكندرية ، بل إنه فى الواقع لم يكن له شىء من النفوذ هناك ، فقد كان الأمر كله للانجليز ، ولم يعد الخديو إلا اسماً يستترون خلفه ويصدرون قراراتهم وأوامرهم منسوبة إليه .

ونشط السير بوشامب سيمور كما زعم فى المحافظة على النظام والقضاء على الفوضى حتى لقد عاقب ثلاثة من الوطنيين وواحداً من اليونانيين بالقتل رمياً

(١) الوقائع المصرية ٢١ يوليو سنة ١٨٨٢

بالرصاص بتهمة إثارة الفوضى ، ولكن فاته أن يؤدب جنوده الإنجليز الذين يستمين بهم على إقرار النظام والذين جاءوا مصر للقضاء على عرابى وأصحابه من العصاة ، فقد سرق هؤلاء الأنجليز قصر الخديو بالرمل وانطبق عليهم بذلك المثل السائر « حاميها حراميها »

أبرق كارتريت إلى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو يقول « تلقى الخديو كتاباً من الرمل بالأمس فيه أن جنداً بريطانيين اقتحموا قصر سموه وعاثوا فى أنحائه للسرقة ؛ وقد توجه إلى هناك فوراً الميجور جنرال سير ا . اليسون الذى أخبر بهذا الحادث لتحقيق المسألة ... وقد أخبرنى صباح اليوم الميجور أردغ الذى رافق الجنرال أنه يعتقد أن القصة لا أساس لها ؛ وظهر أن مدخلا فتح خلال شباك فى الطابق الأسفل وقد أفرغت محتويات الصناديق والعوارين جميعاً ، ولكن ليس هناك من ريب فى أن هذا عمل بضع ساعات وأنه وقع قبل وصول فرقنا »[1]

وانظر إلى هؤلاء الأنجليز كيف يهونون الأمر هنا وينفونه عن جنودهم بنفس الأسلوب الذى يتبعونه حين يهولون ويسرفون فى محاولة إلصاق تهمة لا دليل عليها بالمصريين وبعرابى بوجه خاص ...

وتولى رياسة البوليس فى الأسكندرية شارلز برسفورد ، وقد أذن للتجار فتح دكاكينهم ليلا ، كما حتم على كل شخص يسير بالليل أن يحمل مصباحاً وإلا قبض عليه ، وذلك ريثما تعود شركة الغاز إلى عملها ...

وأخذت الحياة تعود إلى المدينة شيئاً فشيئاً ، وبذل البوليس جهداً كبيراً فى إزالة الأنقاض ودفن جثث القتلى ؛ ولم ينته شهر يوليو حتى أضيئت المدينة بالغاز كما كانت وفتحت القنصليات أبوابها .

على أن أشد ما خوف الأنجليز والأجانب عموماً هو تناقص الماء الآتى من ترعة المحمودية ، فقد سدها الجيش بالقرب من جهة كنج عثمان ، ولذلك أصدر البوليس بطاقات لتوزيع الماء من الصهاريج حسب الحاجة ، ويتبين مبلغ خوف

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢١

الأنجليز من سد الترعة فى برقية أرسلها كارتريت بهذا الشأن فى العشرين من يوليو ، يقول فيها إن ذلك سوف يؤدى إلى هجرة الوطنيين إلى داخل البلاد وإلى التجاء الأوروبيين للسفن ليشربوا من ماء الأسطول ... وكذلك أبرق سيمور يبدى تخوفه من هذا العمل ، ولعلهما بذلك كانا يستحثان حكومتيهما لأعداد الحملة على مصر ...

***

وأما تركيا فقد ظلت على حالها من التلكؤ والتردد ، ولم تصدر شيئاً بشأن توفيق ولا بشأن عرابى ؛ على أن درويش باشا الذى غادر مصر خفية فى اليوم التاسع عشر من يوليو ، قد أعرب عن استيائه من موقف الخديو حتى من قبل أن ينضم صراحة إلى الأنجليز ، وذلك فيما أرسله إلى كارتريت فى اليوم العاشر من يوليو رداً على تحميله تبعة سلامة الخديو فقد قال درويش بعد أن استعرض قضية الضرب كلها فى صراحة وقوة وأظهر تعسف الأنجليز وتنكبهم طريق الصواب « أما عن دعوتك إياى أن أعمل بكل ما فى قوتى على ضمان سلامة سمو الخديو فيجب على أن ألاحظ أنه ليس من سلامة المنطق أن يفرق بين الذات الفخمة ، ذات سمو توفيق باشا ، وبين حكومته ؛ وأنه من الأمور الطبيعية أن يشغل الخديو نفسه بضمان أمن البلاد التى يحكمها وسلامتها أكثر مما يشتغل بما يهم شخصه »(١) .

***

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى خدعة ثانية أراد بها الخديو أن يتصيد بها عرابياً أو يبث فى صفوفه التردد والانقسام ، وذلك أنه أرسل إليه على لسان على مبارك باشا أحد أعضاء الوفد الذى أرسلته الجمعية العمومية إلى الأسكندرية عقب اجتماعها الأول يقترح تأليف لجنة للصلح ممن ينتدبهم عرابى من رؤوساء الجند لتنضم إليهم لجنة أخرى من الأعيان ...

وكانت خطوة على مبارك باشا خدعة لا ريب فيها ، وإن ذهب بعض المؤرخين

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

إلى أنها كانت رغبة منه فى إصلاح ذات البين ، بل إنا لنقول فى غير إسراف إن عمله بالنسبة إلى عرابى وأصحابه من قادة الثورة القومية يعد ضرباً من الخيانة ؛ وإنا لنشعر بعظيم الأسف إذ نثبت هذا عن رجل له جلائل أعماله وله مكانته فى نهضة مصر الحديثة ، ولكن الحق فوق كل اعتبار ، وحسبنا أن نورد ما يأتى من الأدلة على سوء ما فعل .

أبرق كارتريت إلى جرانفل فى الرابع والعشرين من يوليو يقول « أتشرف بأخباركم أن على مبارك باشا وزير الأشغال السابق فى وزارة رياض نجح فى الوصول إلى الأسكندرية من القاهرة ؛ كان يسود الهدوء فى القاهرة وقت مغادرته إياها ، ولكن هناك قدراً من القلق بين الناس . وعند كفر الدوار رأى عرابيا باشا وهو يصف وصفاً حياً ماراًى هناك من الأمور . أعلنت الحرب المقدسة ، بتأثير الأشياخ . ويأتى إليه أعداد كبيرة من المتطوعين القرويين ؛ ويوزع السلاح على القادمين ويبلغ المجموع الكلى للقوات الآن ٠٠ ر٣٠ رجل . وتتوافر لديه الأقوات والخيل ؛ ويقول ضباط عرابى إن رغبة إنجلترة هى طرد عرابى باشا نفسه وتسريح الجيش ، وتكوين فرق أجنبية أو تركية تحل محله ولكن هذا لن يكون ... ويقول على باشا مبارك إن الملاقات بين عرابى والبدو ليست متينة ؛ وقد علمت من مصدر آخر أن البدو اعتزلوا معسكره كلية » .

وأبرق كارتريت بعد ذلك بيوم يقول « إيماء إلى رسالتى بالأمس بشأن التقارير التى تلقيناها من القاهرة وكفر الدوار ، أخبركم أن على مبارك باشا الذى جاء بها زار سير ا . كلفن صباح اليوم ، وأفهمه أن عرابياً باشا وطلبة باشا يترددان فى الواقع فى السير فى الطريق التى يسلكانها الآن ... بل لقد استحثاه بصفة شخصية أن يجس نبض الأنجليز بشأن شروط للصلح . وقد أجاب سير ا كلفن بأنه لا يملك عمل شىء ، وأنه يصح أن يذهب على باشا مبارك إلى الأدميرال السير بوشامب سيمور ؛ ولكن الأمر على كل حال بيد المؤتمر ولا يستطيع الأدميرال أن يعمل إلا عمل الوسيط ؛ وبعد سماع هذه التحفظات استمر على باشا مبارك فى

كلامه فقرر ما يأتى :— إنه يظن أنه بعد أن زال فى الحال السد من ترعة المحمودية كدليل على الأخلاص سوف يقترح العصاة على السير بوشامب سيمور أن يسرح الجيش وأن يعود الجميع إلى مواطنهم ويكتفى بنفى القادة المحرضين . فقال السير أ . كلفن إن كان ثمة من شروط ما تُقترح فيجب ألا يُضيع شيئاً ما من الوقت لأن قوات عظيمة تعد الآن ، ولما كان كل مخرج ممكن من البلاد محاصراً فأن خاتمة المحرضين قد فرغ منها ... وأضاف إلى ذلك أنه إذا ابتدأ القتال فأنهم سيسلكون الطريق التى رسموها ...

ورد على باشا مبارك فأفصح عما فى نفسه بالتحديد قائلا إن معظم الضباط وفيهم طلبة يتلهفون إلى ضمان سلامتهم ، وأنهم إذا نجحوا فى الحصول على شروط لأنفسهم بانسحابهم عن عرابى ، فأنه وأشياعه الأقربين مهما يبدو من إصرارهم سوف يضطرون في عزلتهم إلى طلب الصلح ؛ ويعتقد أنه بهذا يمكن بعثرة الجيش وبذلك تنتهى المقاومة ... وأكد له سير أ . كلفن ثانية أن كل مقاومة سوف لا تجدى ، وأنه لا يترتب على أعمال التحطيم إلا خراب مصر لأنه لابد من فرض غرامة عليها ، وانصرف على باشا مبارك مصمماً أن يتصل بطلبة باشا ؛ ولكن السير أ . كلفن كان حريصاً فلم يذكر أى اقتراحات عما تكون عليه الشروط ولا عما عسى أن يتوقع إذا قبلت شروط من أى نوع ما ... وقد علم السير بوشامب سيمور بما حدث ، ومن الخير أن ترسل إليه بعض التعليمات ليهتدى بها فى حالة الضرورة »

ورد جرانفل فى نفس اليوم فقال « تؤيد حكومة جلالة الملكة بقوة لغة السير أ . كلفن فى هذا الأمر ، ولكنها ترى ألا يشار إلى شىء من هذا فى المؤتمر فى المرحلة الحالية . وحكومة جلالة الملكة على استعداد أن تنظر فى أى مقترحات من جانب عرابى على شرط أن يكون أساسها الأخلاص ، ولكن يجب أن يكون مفهوماً بأنها لا تقبل إلا الخضوع التام ... على أنه إذا فتحت ترعة المحمودية فسوف تعد هذه الخطوة من جانبه علامة على حسن مقاصده ؛ ولما كانت حكومة جلالة الملكة واثقة من ثبات السير أ . كلفن فأنها تكل كثيراً من الأمور إلى حكمته .

وفى الوقت نفسه فأن حكومة جلالة الملكة لن تتراخى فى تدبيراتها الحربية . اتصل بالأدميرال بشأن موضوع هذه الرسالة »(١) .

هذا ما صنعه على باشا مبارك الذى يؤسفنا أشد الأسف أن يكون مثله من دعاة التردد والهزيمة وأن يكون طليعة هؤلاء الذين سوف يكونون أشد على عرابى خطراً من أعدائه الأنجليز ...

وعظمت دهشة عرابى أن يكون اقتراح الصلح على أساس قبول عرابى ما جاء فى المذكرة المشتركة الثانية التى استقالت بسببها وزارة البارودى ، ولذلك بادر برفض هذا الاقتراح السخيف معلناً أنه لا يجوز تأليف لجان بعد قرار الجمعية العمومية

وأذاع عرابى من فوره بلاغا إلى داخل البلاد حتى لا تثمر هذه الخدعة ثمرتها من الانقسام والتخاذل وذلك إذ يعلم الجيش وتعلم البلاد أن عرابياً يطلب الصلح وقد جاء فى هذا البلاغ أن الخديو انضم إلى الأنجليز فلا طاعة له على الناس واختتم بلاغه بقوله « وها نحن بجيشنا الظافر المنصور فى مراكز الحرب قد بعنا أنفسنا فى حياة بلادنا وحفظها من الأعداء ولا يردنا عن ذلك إلا الظفر والنصر أو ارتحال العدو من مياه اسكندرية بأساطيله ورجاله وإلا فإننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لأحد وفيها ذو روح يتنفس والله يؤيد بنصره من يشاء »(٢) .

وكان يقرأ الناس هذا البلاغ فيرددون كلهم التى ألفوها والتى صارت شعار البلد كله « الله ينصرك يا عرابى » .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣

(٢) الوقائع المصرية ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كفر الدوار

رابط عرابى عند كفر الدوار ، وهذا المكان هوما يعرف فى الثورة باسم الميدان الغربى ، ولقد اختاره عرابى عند انسحاب الحامية من الأسكندرية ، كما ذكر محمود فهمى باشا فى محضر استجوابه ، وكما ذكر عرابى فى التقرير الذى كتبه لمحاميه وهو فى سجنه ؛ قال محمود فهمى باشا « توجهنا إلى كفر الدوار .. وطالمنا إلى المحطة ومنها إلى كنج عثمان وكان تقابل معنا حسن بك ابن كنج عثمان فوجدنا هناك تلا قديماً فسأل عرابى عن اسم هذا التل فقال له حسن بك اسمه تل الناصر فالتفت إلى عرابى وقال إن ابتداء استحكاماتنا يكون هنا . وأمرنى بأنشاء استحكامات وحرر بطلب العساكر وطلب الأنفار للعملية »

وقال عرابى « وجرت مناقشة فيما عسى أن نفعل إذا أعاد الأدميرال الضرب ، وإلى أى مكان ينسحب الجيش إذا اضطررنا لأخلاء المدينة ؟ وسمحت لمحمود باشا فهمى وخليل بك كامل أن يذهبا إلى المحمودية ويفحصا الجهة ابتداء من حجر النواتية إلى كفر الدوار ويضعا رسماً للموضع الذى يريانه أليق من غيره » (١)

وقال فى مكان آخر « أمرت قوادهم أن يتجهوا بفرقهم صوب ترعة المحمودية ... وعند الغروب بلغت جسر السكة الحديد الذى يعبر الترعة وهنالك وراء الجسر مباشرة اخترت مكان المعسكر ، وتوافد الجند من الأسكندريه والرمل أثناء الليل : وكانت الساعة الثانية صباحاً حين وصل الجند الذين تركتهم بالأسكندرية فقد تأخروا بسبب الزحام الشديد من الناس والدواب والعربات فى الطريق ... وفى الصباح وجدنا أن معسكرنا معرض للضرب من السفن فانتقلنا

---

(١) How We Defended Arabi B' P, 269

مبتعدين بجنودنا إلى مكان يسمى عزبة خورشيد على بعد نحو خمسة آلاف متر من محطة الملاحة » [١]

ويعزو بلنت اختيار هذا الموضع إلى محمود فهمى باشا ويصف المكان فى قوله « وكان الفضل فى اختيار هذا المكان المنيع الواقع على الخط الحديدى إلى القاهرة والذى تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض المناقع راجعاً فيما أعتقد إلى مهارة محمود فهمى الهندسية ، ولم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيراً من اتخاذه هذا المكان مستقراً لمعسكره الجديد ؛ لقد كان بعيدا البعد الكافى عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق الضيق الذى مهده خط سكة الحديد . وبهذا لم يكن يمكن اقتحامه من جهة الأسكندرية فى حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بأمداداتها التى لا تكل ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة . وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الأنجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات بل يدفع العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الأسكندرية ؛ ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح » [٢]

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة « إن الاستحكامات فى كفر الدوار كانت تمتد من عزبة خورشيد إلى كفر الدوار وأنشأوا فى كفر الدوار واستحكاما من ترعة المحمودية إلى الملاحة وحفروا خندقاً عرضه أربعة أمتار ، وجُعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية إلى الملاحة ، وجعل ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك التلال الكائنة بين المحمودية وسد أبو قير .. وقد تم إجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الأهالى من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية »

وممن كان لهم عظيم فضل فى بناء هذه الاستحكامات الميرالاى محمد بك شكرى

(١) المرجع السالف ص ١٢٩

(٢) S. H. Blunt P. 389

أحد الضباط المصريين النابهين فى أركان حرب الجيش المصرى

وكانت خطوط الدفاع فى هذا الميدان ثلاثة يمد كل واحد عن الذى يليه بأربعة آلاف أو خمسة آلاف متر وكان بين كل خطين خندق عمقه خمسة عشر قدماً ، وبنيت على جميع المرتفعات الصالحة قلاع وضع فيها نحو خمسين مدفعاً

* * *

وأقام عرابى خيمته عند كنج عثمان ، وكان يفد إليه فيها غير ضباطه وأركان حربه ، الأعيان والعلماء وكبار التجار وغيرهم من ذوى المكانة والجاه ؛ وكانت خيمة فخمة هائلة وحسبك أنها خيمة سعيد باشا نفسه ، تفضلت أرملته فقدمتها إلى عرابى هدية قومية مشفوعة بأصدق أمانيها أن يؤيده الله بنصره (١)

وكانت مصر كلها يومذاك فى قبضة عرابى ، تدين له طوعا لا كرها ، شعارها « الله ينصرك يا عرابى » . لأن انتصار عرابى كان فى نظر الأمة خلاصها من جشع الأجانب ومن استبداد الترك والشراكسة

واستجابت الأمة لا بالدعاء فحسب ، لهذا الفلاح من بنيها الذى يقف موقف الشرف والكرامة ، وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال

وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتى قامت على ما بذل الشعب طائعاً من أقواته وأمواله ودمه .

وإن المرء ليتملكه شعور الأعجاب والفخار تلقاء هذه الصفحة المشرقة التى هى بحق أنصع صفحة فى تاريخ هذه الحرب ، والتى نسوقها دليلا جديداً على قوة روح هذه الأمة وكرم عنصرها ، وعلى أن ثورتها القومية كانت منبعثة من أعماق القرى ، وأنها كانت تهز مشاعر بنيها هزاً ، وتنفض عنهم سبات القرون الطويلة .

هؤلاء فلاحون يعملون فى خطوط الدفاع ، إلى جانب جند فلاحين من إخوانهم ، يقودهم مثلهم فلاحون ، وجميعهم تحت إمرة فلاح نجم مثلهم من قرية

(١) S. H. Blunt P. 394

صغيرة ، ولم يكن أبوه من الباشوات ولا كان يفتخر بنسب شركسى أو تركى ، وإنما كان هو محمد عرابى شيخ بلدة هرية رزنة …

وكان هؤلاء الفلاحون يدافعون عن مبدأ استشمرته أنفسهم وإن لم يدرك أكثرهم كنهه كما يدرك المتعلمون منهم المثقفون ؛ وكانوا فى حملتهم أشبه حالا بأبناء فرنسا أيام ثورتها الكبرى فالبذل والتطوع كان قوام الحركتين ، ولكن ثوار فرنسا كان وراءهم تاريخ طويل من المعرفة والثقافة ، فى حين لم يكن وراء ثوار مصر إلا ما عانوه وما عاناه آباؤهم وأجدادهم زمناً طويلا من الجهل والمذلة .. على أن ذلك لن يضير المصريين شيئاً ، بل إنه ليحسب لهم لا عليهم ، فحسبهم أن يقفوا وقفتهم هذه ونهضتهم بنت الأمس …

وقال الشيخ محمد عبده فى تقريره الذى كتبه لمستر رودلى وهو بالسجن ؛ « هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؟ فكان يتألب المسلمون والأقباط والأسرائيليون لنجدته بحماس غريب ، وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والأنكليز … إنى لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره ؛ وقد رسخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه لأنه لم يمتثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءاً لنزول غزاة من البحر …

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين، ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانكليز ؛ وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الأبيارى فى طليعة المتهبين غيرة ووطنية فنشر قصيدة إبراهيم دريد . فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم ، وهى عبارة عن دعاء وابتهال ، وقد أضاف إليها أبياتاً من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخارى …

وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية ، حتى

النســـاء ، بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية …

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الأنجليز وقد شمل هذا الحماس الأقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا »[1]

وقال نينيه « كانت ترد كل يوم إلى كفر الدوار إعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية ؛ وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى إمداد الجيش ، وفى مقدمتهم أحمد باشا المنشاوى زعيم طنطا الوطنى ، الذى أنقذ من الموت فى حوادث ١٣ ، ١٤ يوليو عدداً من المسيحيين واليهود ؛ وقد بدا من الأهلين ما يدل على شديد تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا بمظهر الشرف » [2]

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة تحت عنوان « كرم المصريين وسخاؤهم » . قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الأنجليزى المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية وأنزلها فى الدونننمة الأنجليزية قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها …

وبناء على ذلك تحرر من المجلس العام إلى المديريات بتحصيل الأموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ؛ ومن شاء أن يتبرع بشىء إعانة لأخوانهم المجاهدين فى سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر …

---

(١) ورد هذا التعريب لكلام الأستاذ فى كتاب الشيخ رشيد رضا وقد راجعناه على الأصل الأنجليزى (٢) « عرابى باشا » ص ٢١٦

ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيـــــل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضروات ، حتى حطب الحريق ...

ومنهم موسى بك مزار الرجل الوطني البحت فقد تبرع بألف وثلثمائة ثوب بفتة وثلاثين عجل بقر عن طيب خاطر ، ومنهم والدة الخديو اسماعيل فقد تبرعت بجميع خيول عرباتها وجاراها فى هذا المضمار باقى أفراد العائلة الخديوية ؛ وكذلك حرم خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وحرم رياض باشا وكثير غيرهم من الذوات رجالا ونساء ، كل ذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتضميد جراح العساكر وغيرهم . ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فأن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة مالم يسبق له عهد فى القرون الخالية ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » (١)

وجاء فى كتاب أرسله عرابى من منفاه إلى صابونجى فى يوليوسنة ١٨٨٣، قوله « أرجو أن تذكر صديقنا المستر بلنت ، فضلا عما كتبناه إليه بتاريخ ١٥ الحالى أن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السـلاح ، ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب . ولكنه عنـد نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون من

(١) فرغ المرحوم عرابى باشا من كتابة هذه المذكرات سنة ١٩١٠ أى قبل وفاته بسنة ، جعل الله الجنة مثواه .

الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها ... ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » (١)

وتجلت حماسة الأمة للثورة وللحرب فيما ألقاه نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بنضج هؤلاء وحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبوديه ؛ وإن الذى يقرأ ذلك يوقن أنه حيال حركة صادقة قوية جديرة بكل ثناء وإعجاب ، ولو اتسع المجال لأوردنا طائفة منها ؛ فلنكتف بذكر أسماء نفر من أصحابها ؛ وقد كان في مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الأشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد عبده أحد أفذاذ الحركة الأعلام والأستاذ الشاعر الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر والشيخ على الليجى والشيخ محمود ابراهيم خطيبا أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسجد الحنفى ، والشيخ حميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله واللازم على أفندى غالب والشيخ أحمد سيف البارى وغيرهم من الخطباء ورجال القلم ...

* * *

وكان جيش مصر العامل تحت السلاح عند بدء الحرب لا يزيد عن عشرة آلاف كما ذكر عرابى ولعل عرابياً يقصد القوات التى كانت فى كفر الدوار ؛ فقد ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته احصاء عدد الجيش فقال « كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب . وكان يوجد فى أبى قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً ؛ أما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلا » (٢)

وإحصاء الشيخ محمد عبده قريب من إحصاء عرابى لأنه كان يقصد بالثمانية

---

(١) S; H, Blunt P, 541

(٢) تاريخ الأستاذ الأمام ص ٢٠٥

آلاف التى ذكرها أولا الجيش القائم فى كفر الدوار ، فأذا أضيفت هذه إلى تلك الآلاف الأحد عشرة الموزعة على النحو الذى ذكر كان الجيش فى مجموعة نحو تسعة عشر ألفاً

ويقول بلنت إن الجيش المصرى لم يكن يزيد عن ثلاثة عشر ألفاً من الجنود النظامية كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار ...

وذكر نينيه أن الجيش النظامى لم يكن يزيد عن تسعة عشر ألفاً ، كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار ، وثلاثة آلاف وخمسمائة فى أبى قير وألفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، ويتفق هذا الاحصاء مع ما ذكره الشيخ محمد عبده

أما الصحف الانجليزية فقد بالغت فى عدد الجيش المصرى حتى كانت ترتفع بهذا العدد أحياناً إلى ما يقرب من خمسين ألفاً ...

وانضمت إلى الجيش النظامى أعداد من المتطوعين لم يتوصل إلى حصرهم ، ولعل هذا هو السبب فى اختلاف الآراء فى إحصاء عدد الجيش المصرى وقت القتال ؛ والواقع أن المتطوعين كانو أضعاف النظاميين وقد وزعوا على أعمال مختلفة تتصل بالجهاد ...

وقد عين عرابى باشا محمود فهمى باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الأسكندرية وكان محمود باشا فهمى من أكفأ رجال الهندسة الحربية فى مصر ، وقد تخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ونبغ فى الفنون الهندسية أثناء التحاقه بالجيش المصرى ، ثم عين أستاذا لعلم بناء الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية فى عهدى سعيد وإسماعيل باشا وقد عهد إليه بتحصين الشوطىء المصرية الشمالية فأكسبه ذلك خبرة عملية ، كما أنه اشترك فى حرب البلقان التى نشبت بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٦ فاكتسب مرانا وخبرة ...

وقد وضع محمود فهمى باشا خطة حكيمة للدفاع عن مصر كانت كفيلة بأن تصد الأنجليز وتنقذ مصر من تدبيرهم وسوء مكرهم ؛ وسنرى مبلغ ما دخل على

محمود فہمی

هذه الخطة من عوامل أضعفتها وأحبطتها فى النهاية ...

عين محمود باشا خمسة مواقع رئيسية للدفاع ، أولها فى كفر الدوار ، وثانيها فى رشيد وثالثها بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها فى دمياط ، وخامسها فى الصالحية والتل الكبير ، وكان الغرض من هذا الأخير صد هجوم الانجليز من ناحية قناة السويس

وقد سد محمود باشا ترعة المحمودية بالقرب من كنج عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ؛ كما أشار بسد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبور سعيد ؛ وبسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانجليز ...

أما القيادة فقد عين طلبة عصمت باشا قائداً لفرقة كفر الدوار تحت إمرة عرابى ؛ وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبو قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط وعبد العال باشا حلمى على دمياط ومحمود باشا سامى البارودى على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسنى لخطوط الدفاع فى الميدان الشرقى .

وبعد فهذه أمة ممثلة فى مؤتمر وطنى وقد نهضت نهضتها بالأمس القريب ، وهذا جيش أمة يقوم على تطوع بنيها ، وهذا قائد أمة يذود عنها فى وجه إنجلترة صاحبة الأمبراطورية العظمى ، ومالكة الأساطيل الضخمة ، وذات النفوذ السياسى العظيم ...

وقد واتت إنجلترة الفرصة لتحقيق حلمها الذى ساورها منذ إخراج حملة نابليون من مصر ، والذى بدده محمد على سنة ١٨٠٧ حين أجبر فريزر على الانسحاب بعد أن أحبط كيده وقد كان يمنى نفسه أن ينضم إليه بعض زعماء المماليك كما ينضم الخديو إلى سيمور اليوم ... والذى عاد يغازل خيالها حين فتحت قناة السويس وصار فيها النفوذ لفرنسا ، والذى باتت منه اليوم على قيد خطوات بعد ضرب الأسكندرية واحتلالها ...

ونحب من الذين لا يزالون ينكرون الحرب على عرابى أن ينظروا فى هذا الذى

نقول ، وأن يذكروا ما قدمناه فى صفحات هذا الكتاب من الأدلة على أن نية إنجلترة فى الاستيلاء على مصر كانت سابقة لعهد عرابى ، وأن يستعيدوا ما قلنا فى أكثر من موضع إنه لو لم يوجد عرابى لعمل الأنجليز على خلقه ...

وليذكر هؤلاء حقيقة أخرى لا يخلق بمصرى أن يجهلها ، وهى أن الأنجليز حاربوا الحركة القومية الدستورية فى مصر لأنها قامت حين قامت فى أواخر عهد اسماعيل لتنقذ مصر من دسائسهم ومن شباكهم المالية ولأنهم أيقنوا أنهم لو تركوها وشأنها استعصى عليهم بعد ذلك قمعها وضاعت فرصة اصطياد مصر من أيديهم !

ونظن أنه لم يعد فى مصر من يمارى فى هذه الحقائق ، وعلى ذلك فمن لغو القول ومن تفاهة التفكير وسخفه أن يردد إنسان فى مثل نغمة الصبية قول الجاهلين بحقيقة هذه الثورة القومية وحقيقة أطماع الانجليز فى مصر ، إنه لولا عرابى وثورته ما دخل الانجليز مصر ...

ما سعى عرابى إلى هذه الحرب ، ولكنه لما رأى أن إنجلترة قد ساقت البلاد إليها بسياستها ، وأيقن أن الأمر بات أمر كرامة وشرف ودفاع عن حرية يراد بها أن تخنق ، لم يجد بداً من خوض غمرتها كما ذكرنا فإما نصر يتحقق به كل شىء وإما هزيمة تذهب بكل شىء إلا الشرف والكرامة ؛ ولم يكن ينتظر من وراء التسليم بلا قتال كما ذكر بلنت شىء يخالف ما حدث فعلا بعد الحرب ، وعلى هذا فضلت مصر أن تقف موقف الكرامة ، وما حملها عرابى على هذا الموقف كرهاً وإنما كان ممثل إرادتها وقائد ثورتها ...

وقد حاول عرابى ورجال الحزب الوطنى أكثر من مرة أن يقنعوا جلادستون بعدالة قضيتهم وبأن العدوان عليهم ليس طريق الصواب ، وكان سفيرهم فى هذا السعى صديقهم مستر بلنت ؛ ولكن المسألة كما ذكرنا فى أكثر من موطن فى هذا التاريخ لم تكن مسألة إقناع وإنما هى نية مبيتة ، والأنجليز فى سبيل إمبراطوريتهم ومطامعهم الاستعمارية لا يبالون بشىء ...

وكانت آخر محاولة من عرابى فى هذا السبيل ما أملاه على صابونجى ليرسله

عبد العال حلمى

إلى بلنت كى يحمله هذا إلى جلادستون وكان ذلك فى اليوم الثانى من يوليو أى قبل العدوان الفاجر على البلاد بتسعة أيام ... قال عرابى بعد أن أنذر بسوء ما يترتب على نية إنجلترة فى الشرق الأسلامى كله « لقد سمحت الحكومة الأنجليزية لنفسها أن يخدعها وكلاؤها فكلفها ذلك مكانتها فى مصر . وستجد إنجلترة نفسها أنها عملت بنصح أسوأ إذا حاولت أن تستعيد ما فقدته بالقوة الوحشية ، قوة المدافع والحراب ... ومن الناحية الأخرى فأن هناك وسائل إنسانية ودية إلى هذا الغرض؛ إن مصر على استعداد بل إنها لترغب فى أن تصل إلى تفاهم مع إنجلترة على أساس أن تكون صديقتها وأن تحمى مصالحها فى مصر كما تحمى طريقها إلى الهند ، وتكون حليفتها ؛ ولكن يجب على إنجلترة أن تظل فى حدود ما تخوله لها القوانين ؛ وإذا آثرت إنجلترة أن تظل على انخداعها وأن تتباهى علينا وتتهددنا بأساطيلها وفرقها الهندية فلها أن تختار ما تشاء ، ولكن على ألا تقدر وطنية الشعب المصرى قدراً ينزل بها عن حقيقتها ؛ إن ممثليها لم يطلعوها على التغير الذى طرأ علينا منذ أيام طغيان إسماعيل .

وإن الأمم فى عصرنا هذا لتخطو خطوات مفاجئة هائلة فى طريق التقدم ؛ وجملة القول إنه ينبغى أن تكون إنجلترة على يقين من أننا عقدنا العزم على أن نحارب ، وأن نموت شهداء أوطاننا كما يقضى بذلك ما جاء به رسولنا أو ننتصر فنعيش سعداء مستقلين ؛ وإن السعادة فى الحالين هى ما نوعد به ، وإن أمة تؤمن بهذا لن يعرف لشجاعتها حد »(١) .

واختارت إنجلترة سبيل القوة وضرب أسطولها الأسكندرية واعتدت عدوانها الفاجر على مصر والمؤتمر الدولى الذى انعقد فى الآستانه والذى قرر أن يكون للسلطان وحده حق التدخل فى مصر لا يزال قائماً لم ينفض ...

* * *

اختلقت إنجلترة الظرف القاهر الذى اتخذته ذريعة لضرب الأسكندرية ، ثم

(١) S. H. Blunt P. 372

فعلت ذلك فى غير تحرج من شناعة ما تفعل ؛ والآن بعد أن خطت الخطوة الأولى وأنزلت جنودها بالأسكندرية ، اتجهت سياستها إلى إتمام ما بدأت وتحقيق حلمها القديم باحتلال مصر .

وانحصر همها الآن فى أن تصل بسياستها إلى أحد أمرين : إما أن تظفر من المؤتمر بتفويضها بدخول مصر وبذلك يلغى قراراته جميعاً ، وإما أن تفعل ذلك دون مبالاة بالمؤتمر كما فعلت حين ضربت الأسكندرية .

وكان الخطر الذى زعمت أنه محدق بالأجانب هو الذى خوفت به المؤتمر بالأمس فماذا تخوف المؤتمر اليوم وقد رحل الأجانب عن داخل البلاد وبقى منهم من بقى بالأسكندرية ؟ ولكن هل يعدم الانجليز حيلة ؟ لقد راحوا يخوفون المؤتمر وينذرونه بويل جديد هو الخطر المحدق بقناة السويس ...

وأحست إنجلترة أن أمامها صخوراً يجب أن تتجنبها فى حذق ويقظة ، فهى لا تأمن أن تراجع فرنسا نفسها فيما فعلت فتطرح حيادها ، وهى لا تأمن جانب الدول الأخرى كالروسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ؛ وهى لا تستبعد أن توافق تركيا على الانضمام إلى المؤتمر وقبول قراره الذى أصدره فى اليوم السادس من يوليو وإرسال قوة تركية إلى مصر بناء على هذا القرار ...

لذلك عادت إنجلترة إلى مراوغاتها ، وقد أعدت لكل أمر حسابه ؛ وسوف تعتمد هنا كذلك على سياسة الأمر الواقع تلك السياسة التى نبغت فى اتباعها ، والتى تسبقها بمفاوضات ومراسلات تقصد بها إلى التعمية ، ثم تباغت بالخطوة المبيتة ، كما تفعل سفنها إذ تثير الدخان من حولها ثم تضرب ضربتها ...

ما كاد يفرغ سيمور من ضرب الأسكندرية حتى أرسل جرانفل إلى دوفرين بياناً مطولا ليفضى به إلى زملائه ، وفيه تفصيل للحوادث التى أدت إلى ضرب الأسكندرية ، واختتمه بقوله « إن حكومة جلالة الملكة لا ترى الآن غير اتباع القوة للقضاء على حال لن تطيق بعد صبراً عليها ... وإنها ترى أن أصلح وضع وأقربه إلى مبادىء القانون الدولى والعرف أن يكون الجيش الذى يؤدى هذا الفرض

هو جيش الدولة صاحبة السيادة : فأذا لم يتيسر ذلك لتردد السلطان صار من الضرورى النظر فى طرق أخرى ... ولا تزال حكومة جلالة الملكة عند رأيها الذى أبدته فى منشورها بتاريخ ١١ فبراير ومؤداه أن كل تدخل فى مصر يجب أن يكون مظهراً لأرادة أوروبا وتضامنها »[١] .

إذن ترى إنجلترة الاستمرار فى الحرب ولكن ماذا تقصد «بالطرق الأخرى»؟ ذلك ما سوف تتكشف عنه سياستها ؛ وهل تكون الطرق الأخرى غير انفرادها بدخول مصر كما انفردت بضرب الأسكندرية ؟

وفى اليوم الخامس عشر من يوليو أى بعد ضرب الأسكندرية بأربعة أيام اجتمع المؤتمر لاستئناف أعماله فبلغت المهزلة فى تاريخه أقصى ما تبلغه ؛ فنى ذلك اليوم تلقى أعضاء المؤتمر اعتماد حكوماتهم للمذكرة المشتركة وأرسلت إلى تركيا الدعوة للاشتراك فى المؤتمر وإرسال جيش عثمانى إلى مصر تنفيذاً لقراره ..

وتباطأ السلطان وتلكأ وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، حتى بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد ، ويبدو أن إنجلترة كانت واثقة من أن السلطان لن يقبل ما طلبت الدول ، فقد أبرق جرانفل إلى دوفرين فى اليوم التاسع عشر يطلب إليه إما أن يمهل السلطان اثنتى عشرة ساعة أو يشرع فى البحث عن وسائل أخرى[٢] وأخيراً فاجأ السلطان المؤتمرين فى اليوم التاسع عشر نفسه بأنه قبل الاشتراك فى المؤتمر للمباحثة فى إقرار الوسائل الكفيلة بأعادة الأمور إلى وضعها السليم !..

ولعل تركيا كانت تتوقع أن تؤيدها ألمانيا فتضع العراقيل فى سبيل إنجلترة ، إذ كانت ألمانيا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ تميل إلى ملاينة تركيا واستدراجها إلى جانبها تحقيقاً لأطماعها فى البلقان والشرق ؛ ولكن بسمرك كان يرى من جهة أخرى إلى الأيقاع بين إنجلترة وفرنسا وذلك بأطلاق يد إنجلترة لتنفرد بالدخول فى مصر فتثير بذلك فرنسا ؛ كما أنه في الوقت نفسه كان يريد أن يوقع إنجلترة

---

(١) مصر رقم ١٠ سنة ١٨٨٢ ص ١٧٣

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

وحدها فى سوء عملها ليحاسبها على ذلك عند الضرورة ؛ ولهذا رأى بسمرك أن يترك إنجلترة وشأنها فلم يمنحها تفويضاً كما فاوضته وساومته ولم يضع فى وجهها العراقيل كما توقعت تركيا أن يفعل ؛ ففى اليوم العشرين من يوليو أبرق دوفرين إلى جرانفل خلاصة حديث جرى بينه وبين القائم بأعمال السفارة الألمانية فقال « إنه بعد انفضاض الاجتماع أعاد على وعلى السفير الفرنسى ، القائم بأعمال السفارة الألمانية ما سبق أن ذكره فى اليوم السالف ومؤداه أن دول الشمال لن ترضى بتفويض ما وأنه خير لنا أن نتقدم وحدنا من غير إبطاء ، وأن كل إنسان يقر أن التحفظ الذى أثبتناه باسم الظروف القاهرة يشمل كل ما نضطر إلى عمله فى مصر ؛ وقد حذا حذوه السفير النمسوى فى الاجتماع الأخير »[1] .

ولقد كان سفير النمسا أكثر صراحة من القائم بأعمال السفارة الألمانية وذلك أنه قال « إنه لا يعارض فى أن تعمل إنجلترة أو فرنسا على شرط ألا يفهم من ذلك أنها تعمل بتفويض من أوروبا »[2] .

ويبدو أنه لما يئست تركيا من ألمانيا وأحست ما كان بين مندوبها وبين دوفرين مالت أخيراً إلى الاشتراك فى المؤتمر .

وكان عمل تركيا هذا خليقاً أن يسبب ارتباكا شديداً للسياسة الأنجليزية ، ولكن إنجلترة سوف لا تبالى به ولن تعدم أن تخلق شروطاً ومباحثات مع تركيا حتى تباغتها بالأمر الواقع ...

ولم تنتظر إنجلترة ما عسى أن يفعل المؤتمر ولا ما عسى أن تفعل تركيا ، فقد رأت فى موقف ألمانيا والنمسا ما يسهل لها عملها تسهيلا كبيراً .

ففى اليوم الثانى والعشرين من يوليو شرح جلادستون سياسة الحكومة الأنجليزية فى مجلس العموم حيال المسألة المصرية فجاء بتصريح جلى وصل به إلى وضع المؤتمر تلقاء الأمر الواقع ؛ وواضح أنه كان يقصد به إلى الرد على قبول تركيا

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢١٦

(٢) ص ٢٠٢

دخول المؤتمر وتنفيذ قراره قال « إننا نشعر أننا لم نؤد واجبنا إذا لم نحاول أن نغير الحال الداخلية القائمة فى مصر الآن من الفوضى والفتن إلى السلام والنظام ؛ وسوف ننظر فيما تبقى لدينا من وقت فى تعاون دول أوروبا المتمدنة وإيانا إذا كان سبيل ذلك التعاون مفتوحاً أمامنا » ثم أضاف إلى ذلك بين هتاف النواب واستحسانهم قوله « فاذا أعيتنا جميع الوسائل المؤدية إلى التعاون فأن هذا العمل سوف تضطلع به إنجلترة وحدها »[1] .

ولكن إنجلترة لم تكن تريد أن تذهب فى معارضة تركيا إلى حد إغضابها وذلك لأنها كانت تدخرها لأمر خطير ذلك هو أن يعلن السلطان عصيان عرابى فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة فى نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين ... لذلك سوف تعمد إنجلترة إلى المراوغة والمصانعة حتى تظفر بهذا التصريح الخطير ثم تدير ظهرها لتركيا آخر الأمر فى غير مبالاة وفى غير هوادة ..

وهل يمنع إنجلترة قبول تركيا تنفيذ قرار المؤتمر والاشتراك فيه عن إعداد حملتها على مصر والسير فيها إلى نهاية الشوط ؟ كلا بل إن ذلك كان حافزاً لها على سرعة البت لتضع تركيا وغيرها حيال الأمر الواقع ...

وما كانت معارضة تركيا سياسة إنجلترة لتغنى عنها شيئا ، وإن إنجلترة لتفهم ما بين الدول من تيارات خفية يصعب معها إجماع كلمتها على مناهضتها ، وتدرك مبلغ استعداد كل منها للتدخل الفعلى فى شؤون مصر . .

ومضت إنجلترة فى سياستها ، ففى اليوم السابع والعشرين من يوليو وافق البرلمان على المبلغ اللازم للحملة وقدره ٢٫٣٠٠٠٫٠٠٠ جنيهاً بأغلبية ٢٧٥ عضواً تلقاء ١٩ من المعارضين ...

وأعد خمسة عشر ألفاً من الرجال للسفر إلى مالطة وقبرص ، وأمر بإرسال خمسة آلاف من الهنود إلى مصر وعين السير جارنت ولسلى قائداً عاماً للحملة الأنجليزية على مصر « ليقضى على ثورة عسكرية فى تلك البلاد ورغبة فى تأييد

(١) M, E, Cromer P, 234

سلطة سمو الخديو كما قررتها الفرمانات السلطانية والعلاقات الدولية القائمة » .

وكانت إنجلترة قد أخذت تعمل على وضع الصعاب فى وجه تركيا منذ أن ثبت لديها أنها قبلت قرار المؤتمر فأرسل جرانفل إلى دوفرين فى الحادى والعشرين من الشهر يطلب إلى السلطان « فى عبارات مناسبة أنه بعد المراسلات التى جرت والتباطؤ الذى حدث ، لم يبق له من أمل به يستعيد ثقة حكومة جلالة الملكة إلا أن يعلن فى الحال بلاغاً فى صالح الخديو وفيه قرار بأن عرابياً يعد من العصاة »(١)

وكانت تركيا ترى بذلك إلى المراوغة كما ذكرنا ريثما تمد العدة لحملتها وتتبين سياسة الدول الأخرى ولعلها كذلك تظفر بهذا البلاغ الذى سوف تعيد الكرة لا الفر به مهما كلفها ذلك من جهد ...

أما عن موقف فرنسا ، فكان يتحكم فى سياستها نحو المسألة المصرية عامل قوى ، وذلك أنها كانت لا تستطيع إغضاب إنجلترة ، لأن سياسة بسمارك كانت موجهة فى نشاط إلى وضعها فى عزلة سياسة ، وكانت تدرك فرنسا بعد أن انضمت إيطاليا فى مايو سنة ١٨٨٢ إلى التحالف بين ألمانيا والنمسا ، أن سياسة بسمارك فى طريقها إلى النجاح ، وأنه خير لفرنسا أن تحرص على مودة إنجلترة وروسيا ؛ وهى لا تأمن إن شاركت إنجلترة فى حملتها على مصر أن يؤدى ذلك إلى الخلاف بينهما ، كما أنها بالضرورة لا تستطيع أن تقف منها موقف المعارضة لهذا الاعتبار .

وكان بسمارك لا يفتأ يلاين إنجلترة فى المسألة المصرية ليثير بذلك فرنسا عليها فيصيب بذلك غرضين : أن يجعل فرنسا فى وضع لا يبعد فيه أن ينشب الخلاف بينها وبين إنجلترة ثم توزيع جزء من قواتها فى مصر وقد وزع جزء منها فى تونس منذ احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ ...

لهذا انقسم الرأى العام فى فرنسا قسمين ، ففريق يرى التدخل فى شؤون مصر وفريق يدعو إلى عدم إثارة ما يمس التحالف بين إنجلترة وفرنسا ... على أن كلا الفريقين اتفقا على وجوب اتخاذ الوسائل الفعلية للدفاع عن قناة السويس بقطع النظر عن دخول مصر .

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٨٧ .

وكان رئيس الوزارة المسيو فرسليه يرى أن أسلم حل هو أن تتولى تركيا التدخل وفقاً لقرار المؤتمر ، وبذلك لا تنفرد إنجلترة باحتلال مصر ولا يكون هناك مجال للخلاف بينها وبين فرنسا ولكن أنى له أن يظفر بهذا الحل ؟

وفى الثانى والعشرين من يوليو أرسل جرانفل إلى السفير الأنجليزى فى باريس يقول له « قدم هذه المقترحات إلى الحكومة الفرنسية : أولا . ما لم يرد من الباب العالى موافقة من نوع يمكن أن نعول عليه فى الحال ، ففى هذه الحال ترسل تعليمات إلى المندوبين الأنجليزى والفرنسى ليقولا لبقية السفراء إن إنجلترة وفرنسا لم تعودا تعتمدان على التدخل التركى : ولما كانتا تريان ضرورة العمل السريع لمنع أى خسارة جديدة فى الأرواح ولمنع استمرار الفوضى ، فأنهما تعتزمان — إذا لم يكن لدى المؤتمر خطة أخرى — أن تبحثا مع دولة ثالثة الوسائل المؤدية إلى حل .

ثانياً — أن يطلب إلى إيطاليا أن تكون هى الدولة الثالثة .

ثالثاً — أن نتشاور فى الحال فى تقسيم العمل .

رابعاً — أن تكون قناة السويس ضمن المشروع العام لهذا العمل الائتلافى »[1]

وفى الرابع والعشرين رد القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن على هذه المقترحات « بأن الحكومة الفرنسية قد صممت على أن تفصل مسألة حماية قناة السويس عن المسألة التى عرفت بالتدخل فى مصر ... وأنها ستبتعد عن أى عمل فى داخل مصر إلا إذا كان لرد عدوان مباشر ، وإذا كان الجيش الأنجليزى يرى من الملائم أن يضطلع بهذا العمل فليس له أن يعتمد على مشاركة فرنسا ؛ وفى الوقت نفسه فأن مسيو فرسنيه يرغب أن يكون مفهوماً أن الحكومة الفرنسية لاتعارض فى إقدام إنجلترة على هذا إذا عزمت على الإقدام[2] .

وبعد ذلك بيوم أرسل السفير الأنجليزى بباريس إلى جرانفل يقول إنه قابل

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٩٤

(٢) ص ٢١١

فرسنيه فقال إن رد الحكومة الفرنسية « هو أنها فى الوقت الحالى لا ترى الذهاب إلى ما هو أبعد من التعاون المحدود على حماية قناة السويس ، ذلك الذى تم الاتفاق عليه » وأضاف السفير الأنجليزى أن فرسنيه لم يبد اعتراضاً على اعتزام الحكومة الأنجليزية دعوة إيطاليا[١] .

وكان غرض إنجلترة من دعوة إيطاليا فى الواقع أن تتمادى فى إدعائها أنها لا تريد الانفراد بالعمل وأنها لما لم تجد عوناً من فرنسا التمسته عند إيطاليا ، وأنها تبذل ما فى وسعها فى سبيل التعاون الدولى الذى زعمه جلادستون فى تصريحه بمجلس العموم لـكيلا يكون لأوروبا بعد ذلك حجة على إنجلترة ...

واشتدت المعارضة فى وجه فرسنيه فى المجلس التشريعى الفرنسى على أثر اتصال بينه وبين السفير الألمانى فى باريس ذكر فيه ذلك السفير أن ألمانيا ترى أن خير وسيلة لحل المسألة المصرية هو التدخل التركى ...

ورأى الفرنسيون أن بسمرك يريد بذلك أن يسند وزارة فرسنيه ، وعدوا ذلك تدخلا فى شؤونهم الداخلية فغضبوا على وزارتهم أيما غضب .

وفى الوقت نفسه أرسلت إنجلترة إلى فرنسا تقول فى اليوم السابع والعشرين من يوليو « إن حكومة جلالة الملكة وإن كانت تقبل اشتراك تركيا فيما يتعلق بالتدخل فى مصر إلا أنها ستمضى فيما شرعت فيه من الوسائل »[٢] .

لذلك حينما استمرت المناقشة فى المجلس التشريعى الفرنسى فى التاسع والعشرين من الشهر ، خذلت الوزارة بأغلبية ٤١٦ عضوا حيال ٧٥ ، فاضطرت إلى الاستقالة وخلفتها وزارة سوف تنفض يدها عما قريب من المسألة المصرية .

ففى اليوم التالى ردت الحكومة الأيطالية على اقتراح اشتراكها فى التدخل برفضها هذا التدخل من جانبها تاركة إنجلترة تتحمل تبعة التدخل وحدها .

ومما يحمل على العجب أن إيطاليا كانت قد ثارت ثائرتها أول الأمر لرغبة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٩

(٢) مصر رقم ١٧ ص ٢٣٤

إنجلترة فى الانفراد بالعمل وحملت الصحف الأيطالية على سياسة إنجلترة حملة شديدة وحملتها تبعة ما وقع فى مصر من ارتباك ونددت بمطامعها الاستعمارية ؛ وكانت إيطاليا الطامعة فى شمال أفريقيا حانقة على فرنسا التى استولت على تونس وزاد حنقها على إنجلترة التى همت بالتهام مصر . وكان من أسباب دعوة إنجلترة إياها لشاركتها فى مصر هذا الحنق ؛ ووجه العجب أن تنفض يدها بعد ذلك من المسألة بهذه السهولة .

وأشارت روسيا على مندوبها بعدم حضور المؤتمر فى نهاية يوليو وذلك «لأنها اشتركت فيه على أن تكون قراراته ذات قيمة لا على أن يكون مسجلا لحقائق واقعة فحسب »(١)

وبذلك أخلت جميع الدول سبيل إنجلترة للعمل بمفردها ، وهى إن لم تظفر بتفويض من المؤتمر بتدخلها لن يضيرها ذلك ما دامت قد أطلقت يدها ، وما كانت إنجلترة تعبأ يوماً بالشكل دون الجوهر .

ولم تعد إنجلترة تحفل بتركيا ، وإنما استمرت فى خطتها التى راحت بها توهمها أنها جادة فى دعوتها إياها للعمل على حل المسألة ، حتى تظفر منها بأعلان قرار العصيان الذى ترمى عرابياً به فتصميه ، وتنال به منه أكثر مما تنال بجنودها وأسلحتها ...

واندع المؤتمر عند هذا الوضع من مهزلته لنعود إلى خطوط الدفاع عند كفر الدوار ، ولنا بعد ذلك عودة لنبلغ بمهزلة المؤتمر نهايتها ولنتتبع سياسة إنجلترة حتى نهاية الشوط ...

***

كان أول عمل من جانب المصريين هو سد ترعة المحمودية كما سلفت الأشارة إليه لمنع المياه العذبة عن الأسكندرية ، ولقد انزعج الأنجليز من هذا العمل وأخذتهم منه حيرة ...

---

(١) مصر رقم١٧ص٢٥٩

وفى اليوم السادس عشر من يوليو أبرق كارتريت إلى حكومته أنه يخشى من هجوم ليلى على الأسكندرية ، وأن الأدميرال أرسل سفينتين إلى أبو قير مخافة أن يقطع عرابى الشاطىء ويدع ماء البحر ينساب ؛ وقد سلفت إشارة منا إلى ذلك .

بقى الحال على ذلك بقية شهر يوليو وإنجلترة تمد المدة لحملتها الكبرى وتبذل نشاطها السياسى فى المؤتمر وفى المواصم الأوربية حتى أطلقت يدها فى نهاية الشهر كما بينا ...

ففى اليوم الخامس من أغسطس بدأ الأنجليز هجومهم ببعض ما لديهم من الجند قبل أن يأتيهم المدد ، فزحفوا من الرمل فى نحو ألفى مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ؛ فلما صاروا على بعد ألف وخمسمائة متر من الخطوط المصرية ، تصدى لهم المصريون فى أورطتين فى مثل عددهم تحت قيادة البكباشين أحمد البيار ، ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم .. ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكات من الفرسان ، وحمل المصريون على الأنجليز حملة قوية ، وبعد ثلاث ساعات ونصف ساعة اضطر الأنجليز إلى التقهقر وفروا إلى الرمل مهزومين(١) .

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة تعقيباً على هذه المعركة التى سماها واقعة أبو قير « ولم يستشهد أحد من عساكرنا الأبطال ، وكان ابتداء المحاربة الساعة الأولى من النهار وانتهاؤها فى آخر الساعة الرابعة فمدة القتال ثلاث ساعات ونصف أبلت فى خلالها رجالنا بلاء حسناً ، بيد أنه لم يعرف خسائر العدو لرفعه إياها من من الميدان أولا فأولا »(٢) .

عاد الأنجليز إلى الهجوم فى اليوم التالى وقد أعدوا له عدة قوية هذه المرة ، فتقدمت ميمنتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرتهم على ضفة الترعة المحمودية من الرمل ، وتحرك القلب من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية ، وكان يقودهم أليسون

---

(١) الوقائع المصرية ٨، ١٠ أغسطس ١٨٨٢

(٢) الوقائع ٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ . وقد اعتمدنا فى تاريخ المعركتين على ما جاء فى مذكرات عرابى المخطوطة .

وثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً ، ودافعوا فى هذه المركة دفاعا مجيداً ؛ وقد شهدها من المصريين طلبة عصمت الذى ولى القيادة بعد أحمد عبدالغفار وكان على رأس الفرسان والبكباشية محروس ومحمد فوده وسليمان تميلب ورزق الله حجازى والقائمقام أحمد عفت ...

وأبلى البكباشى محروس بلاء حسناً فى صد ميسرة الأنجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله وكذلك أظهر البكباشى محمد فوده بسالة وجلداً عظيمين فى الهجوم على قلب الأنجليز وميسرتهم ؛ وجاءه المدد مرات بقيادة أحمد عفت وتميلب وحجازى ، ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار ؛ وبعد ست ساعات من القتال الشديد ، ارتد الأنجليز منهزمين ولحق بهم المصريون حتى حجبهم الظلام عنهم ...

وقد عقب عرابى على هذه المركة بقوله « فلما قربوا مسافة ٨٠٠ متر اشتبكوا فى القتال مع أورطة محروس أفندى البكباشى وأورطة المستحفظين حكمدارية محمد أفندى فودة الذى أظهر من الشجاعة ما يقصر اليراع عن وصفه ؛ ولما اشتد القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه أورطة سليمان أفندى تميلب وأورطة رزق الله حجازى البكباشى ، وأصلوا العدو ناراً حامية ، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الآلاى برنجى سوارى حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وحرك الأورطة جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الأبيض وجهاً لوجه ؛ ولما أظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعاً وعساكرنا فى إثره تأخذ عليه الطريق وتضيق عليه السبل وتضربه حتى حال الظلام بين الفريقين ... وعند تفقد عساكرنا وجد من المستشهدين ٢٩ من الأنفار والصف ضباط والملازم الشجاع أحمد أفندى على والجرحى البكباشى محروس أفندى الذى توفى بسبب جراحه واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف ضباط والأنفار ...

ولقد أبدى كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الموقعة

ما يستحقون من أجله الثناء الجميل فى الدنيا وعظيم الأجر فى الآخرة ...
وخسائر العدو كانت عظيمة وقد ترك عساكر الأنجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها
اللازم ديز وسار دفنه فى جسر المحمودية ، وقد شوهد الكثير من عساكر
الأنجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ، وفى اليوم الثانى كانت ساحة القتال مشوهة
بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة فى نقط عديدة »

* * *

ولما استيقن الأنجليز أنهم عاجزون عن زحزحة المصريين عن خطوطهم القوية
انكفأوا راجعين إلى الأسكندرية لينتظروا هناك ما يأتيهم من المدد ...

أما عرابى وأصحابه فما زالت تسعى إليهم الوفود فى خيمته عند كنج عثمان ،
حاملة للجيش ما جادت به البلاد من مال وثمار وماشية للدفاع عن الوطن وكرامته

وأما الخديو فقد بادر بتهنئة الأنجليز على ما أصابوا من انتصار فى المركتين !
كأنما يستحيل على توفيق أن يتصور الأنجليز إلا غالبين ولو كانت هزيمتهم أمراً محققاً

وفى الوقت نفسه أصدر توفيق بلاغاً فى اليوم السابع من أغسطس يحذر فيه
المصريين من مشايعة عرابى ، ورماه فيه بالعصيان والثورة وتوعد كل من يشايعه
بعقاب شديد من لدنه(١)

واستمر مجىء المدد إلى الأنجليز ، فأصبح لديهم فى الإسكندرية حوالى اليوم
العاشر من أغسطس نحو أربعة عشر ألفاً من المشاة وثلاثة فرق من الفرسان ونحو
ألف من رجال الدفعية ونيف وخمسمائة من المهندسين ، وعدد آخر من المختصين
بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية ...

وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل إلى الأسكندرية السير جارنت ولسلى
القائد العام للحملة الأنجليزية ...

* * *

لنعد بعد ذلك إلى مهزلة المؤتمر أو إلى مراوغة السياسة الأنجليزية وانتصارها

---

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢

تحت سمع المؤتمر وبصره وسلوكها وأنوف أعضائه فى الرغام سبيلا غير التى أرادوها من أول الأمر ...

انطلقت تركيا من جمودها آخر الأمر كما بينا وانضمت إلى المؤتمر وقبلت إرسال جنـد عثمانية إلى مصر ، أى أنها قبلت أن تعمل بما كانت تلح به إنجلترة عليها من قبل ؛ ولـكن إنجلترة لن تسمح لها اليوم بشىء من هذا ...

فى اليوم السادس والعشرين من يوليو أفضى سـعيد باشا وزير الخارجية وعضو المؤتمر إلى الأعضاء بأن الجنود العثمانية على أهبـة السفر إلى مصر ؛ وفى الوقت نفسـه أفصح للمؤتمر عن أمل حـكومته فى « أن التدخل الحربى بجنود أجنبية فى مصر لم تعد له ثمة ضرورة » .

ولو أن المؤتمر كان يريد الإنصاف لـكان فيما يتقدم به سعيد باشا أقرب وضع إلى الحل المنشود الذى وضع المؤتمر قراره فى اليوم السادس من يوليو ...

ولـكن الدول كما بينا تراجعت فى صورة مضحكة مخجلة عن قرارها للأسباب التى بيناها وجنحت إلى ترك إنجلترة تعمـل على مسؤوليتها مكتفية بأنها لم تعطها تفويضاً بهذا . وهل كانت إنجلترة تطمع فى أكثر من أن تعمل على مسؤوليتها ؟

وليتدبر القارىء فى رد إنجلترة على كلام سعيد باشا ولينظر مبلغ ما فيه من مناقضة لسياستها يعد من أكبر دواعى الخجل لو أن السـياسة الأنجليزية كانت تعرف الخجل يوماً ما ؛ قالت إنجلترة فى برقية إلى دوفرين فى التاسع والعشرين من يوليـو « إن حكومة جلالة الملـكة تقبل وصول قوات عثمانيـة إلى مصر وتقبل التعاون معها على شرط أن تكون الصـفة التى تأتى بها محددة تحديداً مقنعاً ، وأن تـكون خالية من كل ما يحملها تؤول تأويلين بسبب تصريحات السلطان السابقة »[1]

وكانت ترمى إنجلترة بهذه العبارة « خالية من كل ما يحملها تؤول تأويلين » أن يصدر السلطان قراراً ضد عرابى ورجاله وذلك أن الصدر الأعظم كأنه قد أخبر

(١) مصر رقم ١٧ ص ٨ : ٢

دوفرين قبيل ذلك « أنه ليس من الحكمة إصدار هذا القرار قبل بلوغ الجنود العثمانية مصر » وقد رد عليه دوفرين بقوله « إذا كان السلطان يرغب فى التعاون مع حكومة جلالة الملكة ، فإن من الضرورى أن يحدد فى وضوح ما يعتزم اتباعه نحو عرابى وعصابة الثوار »(١)

وفى نفس هذه البرقية قالت إنجلترة « ترغب حكومة جلالة الملكة أن تخبر سعيداً باشا والمؤتمر بأنها لا يمكنها سحب جنودها من مصر ولا التراخى فى إعداد المدة » ...

وقالت كذلك « إن قعود السلطان عن العمل ذلك القعود الذى طال أمره حيال وضع كهذا الذى تمثله الحال فى مصر قد ألقى على عاتق إنجلترة عبئاً تضطلع به الآن فى سبيل الصالح العام وفى سبيل صالحها كذلك ؛ وإن حكومة جلالة الملكة ترغب فى أن يكون معلوماً لدى المؤتمر أنه حالما ينتهى العمل الحربى المراد فإنها ستستمين الدول فى وضع نظام قويم لحكم مصر فى المستقبل »

إذن فإما أن يعلن السلطان ذلك القرار الخطير الذى تريده إنجلترة فتقبل تعاونه معها فى بلاده وإما أن يحجم عن ذلك فتمضى إنجلترة إلى غايتها ؛ وهكذا تستدرج إنجلترة السلطان خطوة فخطوة ، وسوف يضطر إلى قبول هذا الشرط ليظفر بتفضل إنجلترة عليه بقبول معونته إياها فى بلد هو صاحبها الشرعى ؛ ولكن هل تجود إنجلترة عليه بهذا الفضل حتى بعد قبوله ما تشترط ؟ ذلك ما نرى الجواب عليه فيما يلى :

فى اليوم الثانى من أغسطس تعهد سعيد باشا أن يعرض على المؤتمر صيغة قرار يعلن فيه السلطان أن عرابيا من العصاة(٢) وهكذا تخطو تركيا على رغمها خطوة أخرى فى صالح السياسة الأنجليزية ، وذلك كى يسمح لها بالتدخل فى بلاد هى صاحبتها ! ألا ما أشد وما أقسى ما يجلبه الضعف من مذلة ، وهذا فى الوقت نفسه هو عبد الحميد الذى لا يتنفس الناس فى بلاده إلا بأذنه ! ...

---

(١) M' E. Cromen p. 241

(٢) « « « «

وردت إنجلترة على ذلك بأنها فضلا عن إعلان قرار العصيان الذى تعده ضمانا لأغراض السلطان ، ترى من الأمور الضرورية أن يعقد مؤتمر حربى بين الدولتين للنظر فى التعاون كيف يكون بينهما

وأبلغ دوفرين حكومة الباب العالى فى الخامس من أغسطس « أنه مالم يعد السلطان قراراً ذا صفة مرضية ومالم توافق الحكومة التركية على الدخول فى مؤتمر حربى مع حكومة جلالة الملكة ، لن يسمح للجنود العثمانية بالنزول فى مصر »[١]

ومن ذلك نرى أن إنجلترة حين رأت السلطان يقبل إعلان العصيان المنشود ذلك القرار الذى تصل به إلى ضالتها ، ابتدعت المؤتمر الحربى لتؤجل تدخل تركيا حتى تفرغ هى من دخول مصر فلا يكون ثمة داع إلى جنود عثمانية ... ولا يمكن أن يكون فى الصلات الدبلوماسية أكثر من هذا استهتاراً من أمة قوية بأمة ضعيفة ؛ كما لا يمكن أن يبلغ الضعف بأمة أكثر مما يبلغ بتركيا التى يشبه موقفها هذا الاستجداء الذليل ...

وأبلغ دليل على ذلك هذه البرقية التى أرسلها جرانفل إلى دوفرين فى الرابع من أغسطس أى قبل الاتصال بالباب العالى ينبئه فيها أنه أرسل تعليمات إلى سيمور ، قال « أرسلت تعليمات إلى الأدميرال سيمور أنه إذا قدمت أى سفينة تحمل جنود تركية إلى بور سعيد أو إلى الأسكندرية أو إلى أى جهة أخرى فعليه أن يخبر قائدها فى أكثر الصيغ مودة ورفقاً أنه ينتظر تعليمات من حكومته بشأن مؤتمر حربى بين تركيا وإنجلترة الغرض منه معاونة الأولى لنا فى القضاء على العصاة ، ولكنه لم يتلق أنباء بأن هذا المؤتمر قد عقد وبناء على ذلك فأن ارسال جنود تركية لابد أن يكون عملا سابقاً لأوانه أو بنى على سوء فهم ، وأن الأوامر التى لديه هى أن يطلب إلى القائد أن يواصل السير إلى كريت أو أى جهة أخرى وان يخاطب الحكومة التركية لأرسال تعليمات أخرى نظراً لأن الأدميرال سيمور لا يستطيع أن يدعوه

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩١

إلى النزول فى مصر ... وقد سمحنا لسيمور أن يمنع نزول الجنود إذا لم ينتصحوا بنصحه » (١)

تلقاء هذا اضطرت تركيا إلى أن تعلن فى المؤتمر فى السابع من أغسطس أن الباب العالى يقبل الدعوة إلى التدخل الحربى فى مصر على أساس المذكرة المشتركة بتاريخ ١٥ يوليو بما تحتوى عليه من بنود وشروط »

ومعنى ذلك أن تركيا تقيدت بالشروط التى وضعها المؤتمر فى السادس من يوليو والتى وافقت عليها الحكومات فى الخامس عشر منه والتى كانت تركيا تعارض فيها أشد المعارضة (٢) ؛ وهى إذ تتقيد بهذه الشروط تلتزم فى الوقت نفسه بأساس التعاون مع إنجلترة ، أى أن التدخل الآن ليس لتركيا وحدها وإنما هو بصفتها شريكة لإنجلترة ... ولكن إنجلترة سوف لا تمكنها حتى من هذا الوضع الذى هو دون ما رفضته من قبل بمراحل ..

وفى التاسع من أغسطس أرسل قرار عصيان عرابى إلى دوفرين ليطلع عليه وفى العاشر منه قبلت صيغة القرار بعد إدخال بعض التعديل عليه

وأخذت إنجلترة تتصل بتركيا بشأن المؤتمر الثنائى الذى يحدد طريقة العمل بينهما مع أنه يتعارض مع قرار المؤتمر العام الذى جاء فيه أنه إذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فأن إنفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا »

وكانت إنجلترة ترمى من وراء المؤتمر الثنائى ، إلى الأخذ والرد بينها وبين تركيا حتى ينتهى الأمر كما ذكرنا وذلك ما سوف تؤيده الحوادث

أما المؤتمر العام فقد بلغت مهزلته منتهى سخفها ، حين قرر فى اجتماع عقده فى اليوم الرابع عشر من أغسطس تأجيل انعقاد جلساته إلى أجل غير مسمى ، وبذلك أسدل الستار على أسخف مهزلة فى تاريخ المؤتمرات السياسة ...

***

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٨٧

(٢) راجع ص ٣١٨ من هذا الكتاب

ولنمد إلى مصر ؛ فنجد عرابياً فى خطوط دفاعه تمده الأمة بما تجود به ويؤيده أبناؤها جميعاً كبراؤها وفلاحوها وتتطلع إليه القلوب فى موقفه المجيد وقد ازداد الناس أملا فى النصر بعد ما كان بين الجيش المصرى وبين الأنجليز من تلاحم أثبت فيه المصريون أنهم جادون وأنهم إذ يحاربون إنجلترة ذات الأمبراطورية الكبرى لا تنخلع أفئدتهم فرقاً كما يظن بهم أعداؤهم من فاجر الظنون . .

وكان عرابى قد أرسل إلى السلطان برقية أورد نبأها دوفرين فيما أرسله إلى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو إذ قال « علمت أن عرابيا باشا أبرق مباشرة إلى السلطان يعبر عن ولائه للخلافة ، ويقول إنه وقد حمل حملا على الحرب عتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير ؛ وإنه لا يصدق ما يؤكده أعداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقا عثمانية فى طريقه فأن ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل إخوانه فى الدين معاملة الأعداء (١)

وفى اليوم الخامس من أغسطس أبرق جرانفل إلى دوفرين يقول « نشرت جريدة الطائف فى تأييد عرابى باشا تقول إن الباب العالى أرسل برقية يهنىء بها الجنود المصرية على ما أبدوه من شجاعة أثناء ضرب الأسكندرية ، كما ورد إلى تركيا فى برقية كان قد أرسلها درويش باشا » (٢)

أما توفيق فأن يد السلطان مكفوفة عنه منذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية فى الخامس والعشرين من مايو ، وقد بلغت به الجرأة أن أفضى إلى كاتمن فى الحادى والثلاثين من يوليو « أنه شديد الخوف من دسائس الترك وأنه يثق من أن الترك سوف يراقبون مراقبة دقيقة » (٣)

ولقد كان السلطان يريد عزله وتعيين حليم مكانه ، وتقدم بهذا الاقتراح إلى

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢٢

(٢) رقم ١٧ ص ٢٩٠

(٣) M. Ê. Cromer P' 241

إنجلترة عقب ضرب الأسكندرية مباشرة ممتدحاً حلما قائلا « إنه يكون حاكماً ممتازاً » وأن تعيينه « يحقن الدماء ويرضى كل إنسان » ؛ ولقد رفضت الحكومة الأنجليزية هذا المقترح رفضا باتا عاجلا ؛ وأبلغت السلطان أنه « يضيع الوقت فحسب بعرضه مثل هذه الاقتراحات »(١)

***

فى التاسع عشر من أغسطس أذاع الجنرال ولسلى البلاغ الآتى : « بأمر الحضرة الخديوية . إعلان للمصريين : يعلن الجنرال قائد الجيوش الأنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصرى ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية ، وعساكرنا يحاربون فقط الحاملى السلاح ضد سموه ، فعموم الأهالى الذين فى سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وإنسانية ولا يحصل لهم أدنى ضرر ، بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم ، والأشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها ، وعليه ندعو الأهالى لتقديم ذلك ؛ وأن الجنرال قائد الجيوش يسر جداً من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية »(٢)

وفى نفس اليوم أعاد الأنجليز وقد جاءهم المدد هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات كبيرة نقلتها القطارات المسلحة من جهة القبارى وأعانتها قوات أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة شديدة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس ؛ وكانت قيادة المصريين لطلبة عصمت وكان معه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيد بك محمد وأحمد بك عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت والقائمقام سليمان سامى داود وحكمدار المدفعية بدوى بك.

---

(١) المرجع السالف ص ٢٤٠

(٢) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ومصر رقم ١٨ سنة ١٨٨٢ ص ٣، ومذكرات عرابى المخطوطة ص ١٢٥ .

وارتد الأنجليز إلى الأسكندرية بعد أن خسروا خسائر جمة

وأعاد الأنجليز الكرة عقب ذلك أياما ثلاثة متوالية ، كانت تنشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى الغروب ، والمصريون يردونهم كل يوم إلى الأسكندرية بعد دفاع قوى مجيد

وهكذا كانت وقائع كفر الدوار أو الميدان الغربى سجلا مجيداً لحرب الثورة ، وحسب هؤلاء الفلاحين فخراً أن يخوضوا غمار المعارك لأول مرة فى تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أجل المبادىء الأنسانية ألا وهو مبدأ الحرية الزهراء ، وحسب قائدهم أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية فى قومه ثم وقف يذود عنها فى ميدان من ميادين القتال ، وإنه لأمر وأيم الحق جليل

ولكن توفيقاً رد على هذه الجهود الوطنية الرائعة بهذا البلاغ الذى جعل عنوانه « إلى جميع أهالى وسكان القطر المصرى » والذى قال فيه « ليس خافياً ما أقدم عليه أحمد عرابى وشيعته الضالة من الأعمال المغايرة والتسببات الفوضوية التى أخلت بنظام القطر وأضعفت الثقة به ، بل أورثته الخسائر والأضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى إليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الأحوال وخيفت العواقب فبادرت الدول إلى عقد المؤتمر الدولى بالآستانة للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها ، وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصاً على عمارية القطر واحترازاً مما عسى أن يلم به من الدمار

ولما كانت الدولة البريطانية الأنجليزية لها فيه المنافع الكبرى ولا سيما بالنظر إلى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة ، فقد أخذت على عهدتها وتحت إمرتها التداخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقوق السلطنة ولا الامتيازات المصرية ، ولتحققنا أن نيتها سليمة

فى الظاهر والباطن ليس إلا الأصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك بأهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيراً منهم للعامة وتبغيضاً لهم فى الأمة الأنجليزية على حسن مقاصدها المذكورة ؛ ولا يزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى إلى زيادة الخراب حتى اعترفتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للأحكام الشرعية فاستدراكا للأمر ومراعاة المصلحة العمومية قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الأنجليزى بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسائهم لمحاكمتهم بما يستحقون من أشد العقاب ...

وبما أن العساكر الأنجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم « ليعود » (١) الأمن والراحة وزول الشقاء عن العباد ومن كانت هذه صفتهم فأنهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من من جهتهم بوجه من الوجوه ، فينبغى أن لا يرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوءا أو مكروهاً وأن لا يعاملوا بما يستوجب المنافرة ، بل على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالأكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون إليه من المؤونة بأثمانها السائرة التى هم مستعدون لأدائها فوراً فمن فعل ذلك فقد وفى بما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله ، ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعا فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها . وتحققنا أنه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم .

هذا وإنما نحذر الناس جميعاً من سكان البنادر والبلدان وبالأخص المحروسة عن المهاجرة من بلادهم وانحيازهم إلى العصاة طوعا وكرهاً منهم فيدهمونهم بما دهموا به أهل الأسكندرية عندما خدعوهم على إخلائها فى أقل برهة ، وبخروجهم

---

(١) ليست هذه الكلمة بالأصل فوضعناها ليستقيم المعنى ولعلها سقطت سهواً

تمكن الباغون المنافقون من نهب المدينة وإحراق أهم جزء فيها بغتة فليعتبر العاقل بغيره .

فعلى علماء وذوات وعمد ومشايخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والأخلاص الحقيق لجانب الحكومة ويعز عليهم وطنهم ولهم الخبرة بالعواقب أن يذعنوا ويمتثلوا لأوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لصالحهم ومصلحة القطر ويلزموا العامة باتباعها كيلا يتزعزعوا ويكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من قبل العساكر الأنجليزية فلا يمسهم ضرر ولا يلحقهم كدر ما داموا مجتنبين العصاة وهذا ما اقتضته إرادتنا »(١)

وأصدر توفيق كذلك منشوراً إلى ضباط الجيش وعساكره ، يدعوهم فيه إلى طاعة ولسلى وأوامره كما لو كانت صادرة من توفيق « فمن يخضع له فكأنه خضع لنا شخصياً ومن خالفه كان عاصياً لنا ويعامل معاملة العصاة » (٢)

وفى العشرين من أغسطس أشير على وزارة راغب بالاستقالة ، وأسندت الوزارة إلى شريف باشا ، وكان من أهم أعضائها رياض وقد استدعاه الخديو من أوروبا وأسندت إليه الداخلية ، وعمر لطفى بطل مأساة الأسكندرية وأسندت إليه الجهادية والبحرية ، وعلى مبارك وأسندت إليه الأشغال ، وحيدر أحد المتآمرين فى فتنة الأسكندرية وقد أسندت إليه المالية ...

ويلاحظ أن الخديو وقد شد الأنجليز أزره ، لم يعد يطاوع شريفا إلى مبادىء الحرية التى يميل شريف بفطرته إليها ، فقد ذكر شريف فى كتاب تأليف وزارته « وكما أنه لا يلزم أن نتجاوز حدود لوائح ديسمبر كذلك لا ينبغى أن نحذف منها شيئاً ؛ ويقصد شريف الدستور الذى وضعه فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ...

وجاء فى رد الخديو قوله « ونرى أيضاً أنه لابد فى زمن الاضطراب من انتشار سلطتنا على الشعب وإدارة الأعمال انتشاراً أكثر قوة ووضوحاً ؛ ولذلك

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ١٢٣

(٢) مصر رقم ١٨ ص ٤١

فأننا نستدعى عند الاقتضاء التئام مجلس النظار برياستنا للبحث فى المسائل المهمة خارجية كانت أم داخلية ، وبما أن لنا السيادة العليا على القوات البرية والبحرية فتنفيذ أوامرنا يجب أن يتم بدون أن تمس اختصاصات ناظر جهاديتنا »

وهكذا نرى دليلا جديداً على ما سبق أن بيناه من أن توفيقا كان يميل بطبعه إلى الاستبداد وأنه لذلك خاصم الحركة الدستورية الحرة التى تتمثل فى عرابى الفلاح الزعيم والتى كان قوامها أن يكون الفلاحون مصدر السلطات ، لا أن يكون السيف والسلطان للشراكسة وليس عليهم واجب ما ، وللفلاحين الفأس وحدها وعليهم الطاعة والأذعان .
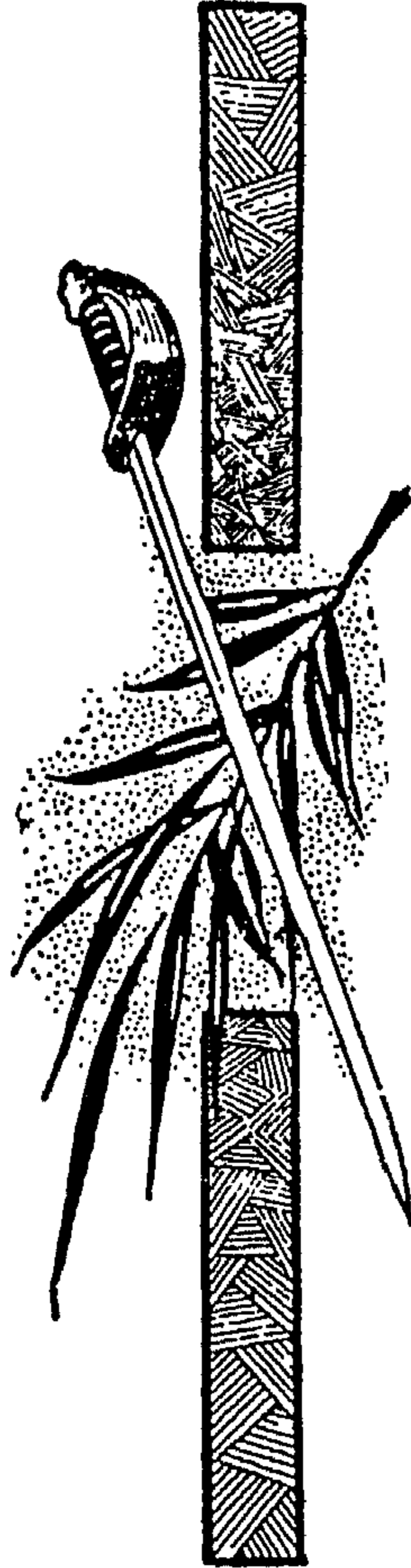
التل الكبير

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقى فى جهاد الثورة كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربى ؛ ولقد دارت فى هذا الميدان الشرقى معارك فى مجال أوسع وفى أعداد أكبر مما كان فى كفر الدوار ؛ وكانت فى هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة يطرب لها قلب كل مصرى وتتهلل أسارير وجهه وصفحات مظلمة يندى لها جبين كل مصرى وتتلون صفحة محياه . كانت فيها البطولة الباهرة إلى جانب الخيانة السافرة الفاجرة ؛ وكان فيها الإخلاص المتين للوطن المستصرخ أحاط به العدو من كل ناحية إلى جانب الأثرة الحقيرة على حساب هذا البلد المسكين نكب بفريق من الخائنين كانوا أشد عليه من أعدائه ؛ والحق أنه قلما نجد فى تاريخ الحروب معركة جمعت بين النقيضين كهذه المعركة التى لم يرفيها العدو طريقا توصله إلى غرضه إلا سلكها مهما كان فيها من عدوان على الفضيلة والحق ، ولم يتورع فيها الخوانون المستضعفون عن اقتراف كل ما ينزل بالأنسان عن مرتبة الإنسانية …

فى هذه المعركة استشهدت الحركة القومية ، ووضعت الأغلال فى عنق الحرية وفيها اختتم أسوأ خاتمة جهاد زعيم أحاط به من الخيانة ما لم يحط قط بزعيم من قبله ولا من بعده ؛ أجل … ولكن ترك فيها الأحرار من دمائهم ومن أشلائهم ما قدموه مهرا غاليا للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم وإن غلبوا فى صف الحركات التى طبعها بطابع الخلود والمجد ، والتضحية والفداء …

* * *

كان أكبر أخطاء عرابى وأركان حربه فيما أعتقد إهمالهم هذا المنفذ الشرقى إلى مصر إهمالا قل أن نجد نظيرا له ، وصرف همهم كله إلى كفر الدوار ، ولعل مرد ذلك فيما أفهم من حوادث هذه الحرب إلى خطأ آخر لا يقل خطره عن هذا

الخطأ الأول ألا وهو اطمئنان عرابى وأصحابه إلى حيدة قناة السويس وحرصهم على إرضاء الدول بالمحافظة عليها ... ولنأت بالحديث على سرده حتى يتبين لنا فى هذه القضية وجه الحق ...

ماكاد الإنجليز يفرغون من ضرب الإسكندرية حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من خطر محدق بقناة السويس وتأهبوا ليلعبوا نفس الدور الذى لعبوه فى ضرب الإسكندرية ...

وكانوا يريدون من إثارة المخاوف كما أسلفنا أن يزعموا أمام دول المؤتمر أن الظرف القاهر الذى يستلزم التدخل الحربى فى شئون مصر لا يزال قائما على الرغم من رحيل الأوروبيين

وهم من جهة أخرى يتخذون من إذاعة هذه المخاوف المزعومة ذريعة لخطوات يخطونها فى الناحية الشرقية تتصل بخطتهم الحربية العامة ، دون أن يظهروا تلك الخطة ، إذ أنهم كانوا لايزالون يموهون على الدول أنهم لايبتغون تدخلا بمفردهم وأنهم ينتظرون رد تركيا على قرار المؤتمر الذى زعموا أنهم يحترمونه كل الاحترام ..

وهكذا توصل الإنجليز إلى السير فى خطتهم الحربيـة المرسومة عقب ضرب الأسكندرية فى غير إبطاء ، إذ كانت سياسة الأمر الواقع هى مُعَـولهم الذى حرصوا عليه ليواجهوا بها الدول والوطنيين على حد سواء ...

والواقع أن إنجلترة بدأت تظهر ما تزعمه من مخاوف عن القناة منذ أواخر شهر يونيو كما يتبين فيما أرسله جرانفل إلى سفير إنجلترة فى باريس فى الرابع والعشرين من يونيو ليخبر فرسنيه بأن « حكومة جلالة الملكة تلقت أنباء مزعجة لديها من الأسباب مايحملها على تصديقها ، مؤداها أن خطط وضعت ضد القناة نفسها »(١)

وزادت إنجلترة فى إثارة المخاوف عقب ضرب الأسكندرية مباشرة ، فقد أرسل جرانفل فى الثـانى عشر من يوليو إلى سفراء إنجلترة فى كل من باريس وبرلين وروما وفينا وبطرسبرج والقسطنطينية ليخبر كل الدولة المقيم فيها بما

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩

يخشى من خطر على القنـاة ، ويسألها ما ذا تراه من « علاج لحالة قد تفضى إلى كارثة بالتجارة الدولية »(١) .

ودارت بعد ذلك الاتصالات بين فرنسا وإنجلترة للنظر فى اتحاد الدولتين على ما يعمل لحماية القناة ، حتى استقالت وزارة فرسنيه على نحو ما ذكرنا من قبل ، بعد أن أظهرت من التردد حيال هذه المسألة مثل ما أظهرت حيال ضرب الأسكندرية

وكذلك اتصلت إنجلترة بأيطاليا ، وطلبت معونتها فى هذا الأمر حتى نفضت إيطاليا يدها من المسألة المصرية كلها .

ومهدت إنجلترة بهذه التعمية المقصودة لانفرادها بالعمل هنا كذلك على نحو ما فعلت فى ضرب الأسكندرية ، وفى الثانى والعشرين من يوليو عادت إنجلترة إلى نغمتها السمجة فى الشكوى من تحصينات تقام على الساحل غربى بور سعيد ، فى طابية الجميل على مدخل بحيرة المنزلة ؛ ومن ثم أصدرت الحكومة الأنجليزية أمرها إلى الأدميرال العظيم بوشامب سيمور فاتح الأسكندرية باحتلال بورسعيد والأسماعيلية .

وفى السادس والعشرين من يوليو اخترق الأنجليز قناة السويس غير مبالين بشىء ولا حاسبين لقانون حساباً ؛ أو ليسوا يدافعون عن القناة مما يحدق بها من خطر لينقذوا التجارة الدولية من كارثة محققة ؟

اقتحمت القناة فى هـذا اليوم من الشمال السفينة الحربية أوريون بقيادة فتزورى ، وفى اليوم التالى وقفت فى بحيرة التمساح على ثمانمائة متر من الأسماعيلية.

وفى التاسع والعشرين منه ، وصل إلى السويس على مقربة من مدخل القناة من الجنوب الأدميرال هوت يقود أربع سفن حربية ووصل إلى بور سعيد على مقربة من مدخل القناة من الشمال الأدميرال هوسكن ، وكان فتزورى كما رأينا فى بحيرة التمساح على مرأى من الأسماعيلية ...

وفى اليوم الثانى من أغسطس أنزل الأنجليز عساكرهم فى السويس واحتلوا

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٣٣

ثكناتها التى أخلاها الجيش المصرى بغير مقاومة ...

ولا ريب أن إخلاء السويس على هـذه الصورة كان من أكبر العيوب فى هذا الميدان . على أنه جزء من العيب الشامل ألا وهو إهمال تحصين المدخل الشرقى إلى مصر ، كله ...

وأرسل جرانفل إلى دوفرين فى السابع من الشهر يقول « فى حالة ما إذا سئلت عن شرح لاحتلال السويس يمكنك القول إن حكومة جلالة الملكة لم ترسل تعليمات بهذا الشأن ؛ ولكن الرير أدميرال سير و . هيوت كانت لديه السلطة أن ينزل جنودا حيثما وجد الضرورة تدعو إلى ذلك ؛ ولقد فعل ذلك بناء على ماتعرضت له المدينة من خطر ووافقته حكومة جلالتها على ما فعل ؛ وقد كان يعمل لصالح الخديو الذى أعطى قائد القوات البحرية البريطانية السلطة ليتخذ من الخطوات ما يراه ضروريا لحماية القناة باسم سموه »[1]

ولينظر القارىء مبلغ مافى هذه البرقية مما يشبه حال اللص إذ تعوزه الحجة ومبلغ ما فيها من استغلال اسم الخديو واتخاذ الأنجليز انضمامه إليهم وسيلة لتحقيق خطتهم فى التهام مصر ...

ومما يعجب له المرء أن الأنجليز كانوا بعد هذا الذى بلغوه من سيطرة على القناة يزعمون أنهم لم يعتدوا عليها بشىء ، وإنها لفى قبضتهم الآن فى واقع الأمر وإن لم يمنعوا دخول السفن فيها بعد كما سيفعلون ؛ نجد هذا الزعم فى قول جرانفل فى آخر هذه البرقية « وأحب أن أشير إلى أن مدينة السويس تمد خارجة عن القناة » ...

* * *

يفسر موقفُ عرابى من قناة السويس إهمالَه وأركان حربه تحصين الميدان الشرقى ؛ ونقصد بموقف عرابى من القناة مسألة حيادها ؛ ولقد رأى كثيرون ممن كتبوا عن عرابى أنه ارتكب خطأ من أكبر أخطائه بأحجامه عن ردم

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٨

القناة حتى ضاعت الفرصة واحتلها الأنجليز ، ونحن نوافقهم كل الموافقة على رأيهم هذا فى غير تردد فما كان غرضنا من كتابة هذه السيرة إلا وجه الحق مجردا من كل محاباة ، ولكنا نخالفهم كل المخالفة فى أمور أحاطوا بها هذا الخطأ فأسرفوا فيها إسرافا شديدا وبخاصة كتاب الأنجليز ممن دافعوا عن الاحتلال

نخالفهم فى أن دى لسبس كان يخادع عرابيا وأن عرابيا جازت عليه الخدعة ونخالفهم فى أن عرابيا لم يفطن بسبب جهله إلى أهمية ردم القناة كوسيلة من وسائل الدفاع ؛ ونخالفهم فى أن عدم ردم القناة كان السبب الأساسى للهزيمة ؛ ونخالفهم فى أن عرابيا أحجم بسبب جبنه عن ردم القناة ؛ ونخالفهم فى أن العمل كان من السهولة كما يصفون . أجل نخالفهم فى ذلك كله مستندين إلى ما نقدم من أدلة نثبت بها ما نقول ...

ومن الصعب على المرء أن يمحو من الأذهان فكرة استقرت فيها بفعل السنين منذ أن أذاعها خصوم عرابى مهولين فى الأمر قبل يوم الناس هذا بنيف وستين عاما ، ولم تجد ردا عليها طول هذه المدة كأنها من الحقائق المقررة التى لا تحتاج إلى نظر ؛ وإنك لتتحدث إلى الناس فى سيرة عرابى فتسمع فيما تسمع قولهم لقد كان عرابى ساذجا خادعه دى لسبس وغرر به فصدقه أو على حد تعبيرهم العامى «ضحك عليه» دى لسبس فلم يردم القناة ...

ولكن الخطب يسير إذا نظر المرء فى هذا الأمر نظرة مجردة من المزاعم السالفة جاعلا غايته الوصول إلى الحق فى غير محاباة لعرابى ولا تجن عليه ...

فى التاسع عشر من يوليو ذكر كارتريت فيما أبرق به إلى جرانفل قوله «أتشرف بأخباركم بوصول السيو دى لسبس إلى الأسكندرية ؛ ويظهر أنه فى مقابلته للخديو لم يتحدث كثيرا عن الموقف السياسى ؛ ولكن مجيئه إلى مصر الآن يعد من سوء الحظ »[1]

وفى الثلاثين من الشهر أبرق جرانفل إلى سفير انجلترة بباريس يقول « إيعاء

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

إلى الطريق الذى يسلكه المسيو دى لسبس فيما يتصل بحماية قناة السويس أرغب أن تبسط للمسيو دى فرسنيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من المسلم أن المسيو دى لسبس لم يعط سلطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية ؛ وعليك أن تطالب برد سريع بحقيقة الأمر ويسر حكومة جلالة الملكة أن تتلقى الضمان قبل أن ينفض يديه كلية من مقاليد الحكم »(١)

وفى الرابع من شهر أغسطس أبرق جرانفل البرقية الخطيرة الآتية إلى نفس السفير يقول « أرغب أن تبسط للحكومة الفرنسية أن حكومة جلالة الملكة وصل إلى علمها أن المسيو دى لسبس يعارض معارضة قوية أعمال حكومة جلالة الملكة فى مصر ، وذلك بتهديده بتعطيل القناة إذا أنزلت جنود بريطانية فى أى مكان فى القناة أو على مقربة منها ؛ وحكومة جلالة الملكة لا ترغب الآن أن تتخذ شيئا تلقاء ما حصل منه نظراً لأنه من رجال فرنسا ذوى المكانة ولأنه رئيس مجلس إدارة الشركة ، إلا إذا ألجأتها الضرورة المطلقة إلى ذلك . وإن الحكومة لتأمل أن تتجنب هذه الضرورة وذلك بما تبسطه الحكومة الفرنسية للمسيو دى لسبس مما يصرفه عن مسلكه ، وإن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أن لها أن تتوقع هذا من الحكومة الفرنسية نظرا لما بين الدولتين من علاقات الصداقة ولا تفاق مصالحهما فى القناة وفى شؤون مصر بوجه عام »(٢)

وفى الخامس من أغسطس عقد مجلس إدارة الشركة اجتماعاً غير عادى وكان مما أعلنه فيه تمسكه بحياد القناة وانضمامه تبعاً لذلك إلى رئيسه فيما يدافع به عن حقوق الشركة المهددة ووجه الثناء إلى هذا الرئيس ؛ وقد خالف هذا القرار العضو الأنجليزى مستر ستانذن(٣)

من هذا يتبين أن دى لسبس كان جاداً فى المحافظة على حيدة القناة ، وأنه كان

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٤

(٢) ص ١٥٤

(٣) ص ٢٨٥

يخشى من سياسة الأنجليز أن تؤدى إلى سدها او تحطيمها بأيدى الوطنيين :
ولذلك كان شغله الشاغل أن يحمل بمعارضة الأنجليز حكومته على التدخل لحماية القناة
وإذا رجعنا إلى سياسة فرسنيه وجدنا أن دى لسبس كان على حق فى انتظار تأييد حكومته ، ولذلك وقف من الأنجليز موقف الجد والصرامة ، فأن فرسنيه وإن لم يوافق على التدخل فى مصر إلا أنه كان لا يمانع فى مشاركة إنجلترة فى حماية قناة السويس كما بينا إذ أنه فصل المسألتين إحداهما عن الأخرى وقد خطا فعلا خطوات فى هذا السبيل واعتمد له المجلس التشريعى المال اللازم ، وأرسلت التعليمات إلى الأدميرال الفرنسى ببور سعيد ليتفق مع هوسكن على ما يصح عمله(١)
لكن سقوط وزارة فرسنيه فى آخر يوليو ذهب بهذه السياسة إذ كان برنامج خلفه الابتعاد عن المسألة المصريه كلها ومن ثم ضعف دى لسبس ، وتنمرت الحكومة الأنجليزية وأبلغت فرنسا التهديد الذى أشرنا إليه
ولا يمكن مع هذا الذى أوردناه من الحقائق أن يكون دى لسبس مخادعاً لعرابى ، فليس فى الأمر خديعة وإنما غلب دى لسبس على أمره بسياسة الأمر الواقع
والحق أن عرابياً لم يحجم عن ردم القناة منخدعا بأقوال دى لسبس وإنما كان هناك اعتبار على قدر عظيم جداً من الأهمية يشغل ذهن عرابى ، وذلك هو ما كان يحيط به من ظروف ...
كانت إنجلترة تصور عرابياً وأنصاره أنهم عصاة مخربون ، وإن لم يعملوا شيئاً ما يبرر هذه التهمة النكراء . فكيف يكون الحال لو أن عرابياً أقدم على ردم القناة والمؤتمر منعقد بالآستانة ، ومجلس إدارة الشركة خائف يترقب ؟ ولقد رأينا كيف خوفت إنجلترة الدنيا مما زعمته من خطر محدق بالقناة قبل أن يحدث أى شىء
للقارىء أن يصور لنفسه مبلغ ما كان يصيب الحركة القومية فى مصر من سوء السمعة ، الأمر الذى كان ينفر عرابى منه أشد النفور لأنه كان شديد الحرص على أن يظهر للملأ أن حركته عادلة سليمة وأنه لا يبدأ بالعدوان أحداً وإن كان لا يحجم عن رد ما يوجه إليه من عدوان ...

(١) M. E. Cromer P. 235.

وليت الأمر كان يقتصر على سوء السمعة ، بل إن الدنيا كلها كانت تصبح عدوة لعرابى وحركته ، وحسبه ما كان يلاقيــه من إنجلترة التى لم تدع وسيلة لتشويه حركته إلا أذاعتها ...

وليس لأحــد أن يقول وما ذا صــنع المؤتمر بإنجلترة وقد خرجت على قراره وضربت الأسكندرية ، لأن هذا قياس مع فوارق بينة ، فإنجلترة فعلت فعلتها الآثمة بحجة الدفاع عن مصالح الأوروبيين فى مصر وأرواحهم ، وإنجلترة تستند إلى قوتها وأسطولها ونفوذها السياسى ، وإنجلترة تزعم أنها تعمل عملا مشروعاً لتأديب قوم تمدهم من العصاة ؛ وأين هذا كله من عرابى الذى لم يجد أحداً يعطف عليه وهو المظلوم فــكيف إذا ظهر بمظهر الطاغية الذى يردم القناة ويعطل تجارة الدنيا ؟ .

ولسنا نريد بذلك أن نبرر عدم ردم القناة وإلا فما كان هنالك مجال لأن نناله باللوم ، وإنما قصدنا أن نبين سبب تردده وإحجامه وأن ننفى أنه كان فى ذلك ساذجا جازت عليه خدعة دى لسبس التى زعمها المبطلون أو الجاهلون ..

وقد أحسن جون نينيه تلخيص هذه القضية فى كتابه «عرابى باشا» فى قوله «فلما حل موعد المعركة لم تركن إنجلترة إلى قوانين القتال وقواعد الحرب ، ولم تأبه بحيدة القناة التى تضمنها الدول بل أسرجت خيول سان جورج[1] ، وأطلقتها فى ميدان السبق لتحرز نصراً قائما على الغــدر والخيانة ومستنداً إلى الدسيسه والرشوة ... وقد وقع نزاع خطــير فى فرنسا حول الدفاع عن قناة السويس وذلك لــكى يبر دى لسبس بما وعد به عرابياً ، فإنه تعهد لزعيم الثورة المصرية وقائد الجيش المصرى بأن تقاوم قوة حربية إلى جانبه إذا أنزلت إنجلترة جنودها فى الأسماعيلية أو اعتدت على حياد القناة الدولية ... ولم يكن دى لسبس كاذباً ، ولــكن السياسة عرضة للــكذب فقد تقدم مسيو دى فرسنيه إلى المجلس التشريعى بفتح اعتماد لإعداد الحملة الحربية للدفاع عن القناة فلم يجبه المجلس إلى طلبه فاستقال فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢ » [2]

---

(١) عبارة مجازية معناها الجنيهات الأنجليزية الذهبية .

(٢) الواقع أن المجلس وافق على الاعتماد وكانت الاستقالة لسبب آخر كما ذكرنا

وقال عن عرابي بعد أن أشار إلى نصحه إياه بردم القناة « وكان حوله رجال أفذاذ أولو بأس وشجاعة وذوو عقول مدبرة وعلى جانب عظيم من فنون الحرب والهندسة ولكن عرابياً باشا لم يسمع لنصحهم ، فكان يخشى بالوهم ما يسميه الرأى العام الأوروبي ، ولطالما أفهمته أن هـذا الرأى العام حديث خرافة ، وأن أوروبا طامعة فى الشرق كله » ...

ونحب أن نورد ما كتبه الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد وما ذكره بلنت فى تعقيبه على رسالة من رسائل عرابي إلى دى لسبس ، قال الأستاذ الأمام « عرابي اعتمد على دى لسبس فى حماية القنال ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم لهذا ترك هذه الناحية عوراء ، وعند ما أحس دى لسبس بأن الجيش المصرى قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابي يقول له من المستحيل أن عساكر الأنكليز تمر من القنال . . وبعد واقعة مهمة فى ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دى لسبس يقول : لا تشرع فى شيء يمس القنال . لا يمر عسكرى إنجليزى إلا ومعه فرنساوى . أنا مسؤل عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر إرسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء ، وقبل أن يتحرك عسكرى إلى ناحية القنال ، وكان الجيش الأنكليزى قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة فى مخابرة دى لسبس ، ويظهر أنه كان فى الحاضرين خونة حملوا الأخبار وأخطأوا فى المخابرة »(١)

وأوجه نظر القارىء إلى قول الأستاذ الأمام : « وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم لهذا ترك هذه الناحية عوراء » وإلى قوله « فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر إرسال جيش » ففى هاتين العبارتين ما يلخص المسألة كلها ويقطع بأن الأمر أمر تردد له سببه الوجيه لا أمر خدعة طال فيها كلام العائبين ...

أما بلنت فقد أورد فى كتابه أحد ردود عرابي على دى لسبس وهذا نصه : « لما كنت أحترم حيدة القنال احتراما كليا وبخاصة لاعتبار أنها عمل من الأعمال

---

(١) تاريخ الأستاذ الأمام ص ٢٥٧

العظيمة ، ولأن اسم سعادتكم سوف يقترن بها فى التاريخ ، فأنى أتشرف بإخباركم أن الحكومة المصرية سوف لا تمتدى على هذه الحيدة إلا عند الضرورة القصوى وفى حالة ما إذا ارتكب الأنجليز بعض الأعمال العدائية فى الإسماعيلية وبورسعيد أو فى أى جزء آخر من القناة »

ويعقب بلنت على ذلك بقوله « هنا نجد المبدأ قد وضع وضعاً طيباً فى وضوح ولكن موضع الضعف فيه يرى فى أنه يدع للعدو أن يقترف أول خطوة عدائية بدل أن يحول بينه وبين ذلك من قبل ويمنعه »

وأين الانخداع فى كلام عرابى مع هذا التحفظ الذى يبديه فى كتبه وفى كلامه ؟ ألا إن العيب كله ينحصر فى التردد الذى أضاع الفرصة وهو ما استحق عليه عرابى اللوم بلا مراء ، لا فى الغفلة التى حاول زوراً أن يلصقها به المغرضون ...

أما قصته مع دى لسبس فأمرها هين وإن ألقى عليها المغرضون شبهات من الأهمية والخطر ... يقول عرابى فى مذكراته « فى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلغراف من السيودى لسبس مدير شركة القنال المذكور يستعلم عن رأينا فى القنال بالنسبة للحركات الحربية فأجبته فى التاريخ المذكور بالتلغراف أيضاً أننا نعتبر القنال حراً للمنافع العمومية الدولية ولذلك فإنا لا نتعرض له بضرر إذا أمكنه منع المراكب الحربية الأنجليزية من خرق حرمة الحياد واحترامها لقانون الشركة وإلا فنكون أحراراً في مقابلتهم بالمثل ...

فورد تلغراف فى اليوم المذكور يفيد أنه ضامن ومتكفل بمنع الأنجليز عن اختراق القنال ما دام فيه عرق ينبض فظننا أن فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية القنال ولا تلدغ من جحر مرتين »

واستمرت المراسلة بين عرابى ودى لسبس ، ونكتفى منها بما أرسله عرابى بتاريخ السابع والعشرين من يوليو والرابع من أغسطس والخامس عشر والعشرين منه وثلاثة أخرى بغير تاريخ وكلها تبين لدى لسبس ما يقف عليه عرابى من حركات الأنجليز العدوانية فى منطقة القنال ، وقد تساءل عرابى فى بعضها أهذا ما يريده

دى لسبس بحياد القناة ... ومعنى ذلك أن عرابيا كان على بينة من ضعف دى لسبس أمام الأنجليز وأنه لم ينخدع بأنه قادر على منعهم من دخول القناة ، وأنه إنما تردد لذلك الاعتبار الدولى الذى بيناه .

وقد حصل بلنت على هـذه المكاتبات من دى لسبس أثناء المحاكمة وأثبتها فى آخر كتابه ، وقد أرسلها إليه دى لسبس مع كتاب منه جاء فيه « إنى أرسل إليك الترجمة الفرنسية لتلك المكاتبات التى من شأنها أن تشرف متهماً يحملك كرمك على الدفاع عنه »(١)

وأخيراً لما لم يجد عرابى بداً من العمل خرج من تردده وأصدر أمره بردم القناة ولكن بعد أن فاتت الفرصة وهو ما عددناه من أكبر أخطائه بلا جدال .

ولم يكن عرابى يجهل أهمية هذا العمل فى الدفاع عن مصر كما زعم خصومه ، فقد نصح به محمود باشا فهمى فى خطته التى ذكرناها ، ونصح به چون نينيه إلى عرابى أكثر من مرة كما ذكر فى كتابه إذ قال « فأحجم عرابى عن سد القناة فى حينه وتمسك برأيه على الرغم مما كانت تقضى به الخطط الحربية الفنية ، وعلى الرغم مما ذهب إليه زملاؤه وما ذهبت إليه أنا وكررته له عشر مرات تارة بشديد الكلام وتارة بالكتابة .. على الرغم من ذلك كله ظل عرابى على رأيه فمهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف فى تاريخ الحروب »(٢) وإذ قال فى موضع آخر « لن يجد الأنجليز صعوبة فى احتلال القناة فهم لا يبالون بالمعاهدات والقوانين ولا يعنيهم إلا مصالحهم ، وإذا بلغوا الأسماعيلية فمعنى ذلك أن الحملة بلغت النهاية »(٣)

ومما يزيدنا ثقة فى أن عرابياً كان يدرك أهمية هذا العمل أنه صرح به لمراسل إحدى الصحف فى الأسكندرية قبل ضربها قائلا « سوف نحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلالنا ، ولكن إذا نشبت الحرب فأننا سنهدم القناة مؤقتاً عند أول طلقة من مدفع ، وسأفعل ذلك آسفاً لأن القناة من طرق التجارة المحايدة »(٤)

وكذلك نجد دليلا على هذا فى ذلك الكتاب الذى أملاه عرابى على صابونجى

---

(١) S. H. Blunt p. 571

(٢ ، ٣ ، ٤) جون نينيه ص ١٠٥

ليرسله إلى بلنت كى يحمله بلنت إلى جلادستون والذى أوردنا طرفاً منه فى الفصل السابق ، فقد ذكر فيه عرابى أن الحرب تجعل مصر فى حل من الالتزام بالعهود والمعادات وأنها سوف تحطم جميع القنوات وتعطل كل المواصلات »(١)

وأما قول القائلين إن عدم ردم القناة كان السبب الأساسى للهزيمة ، فينفيه ما حدث فى معركة القصاصين الثانية إذ كان المصريون على قاب قوسين من النصر ولولا الخيانة كما سنبينه فى حينه لتغير وجه الحرب كلها ... ولكان اليوم لعرابى تماثيل فى كبريات عواصمنا ... وكل ما يمكن أن يقال هو إن دخول الأنجليز من القناة قد سهل عليهم إلى مدى عظيم النجاح فى خطتهم بوجه عام ...

وأما أن عرابيا أحجم عن ردم القناة لجبنه فرأى سخيف لأن تردده لذلك الاعتبار السياسى الذى فصلناه فسر بالجبن وفرق بين أن يجبن الإنسان عن تحمل تبعة فعل من الأفعال وبين أن يقارن بين فعله وتركه فيرى حينا أن تركه أجدى عليه وعلى قضيته من فعله فيقف زمنا موقف الحيرة بين الرأيين ...

وأما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابى فى نعيهم عليه أنه لم يفعله فى الحال ، فذلك ما ينفيه الواقع ؛ وذلك أن الأنجليز ما كادوا يفرغون من ضرب الأسكندرية حتى اتجهوا إلى حماية القناة ؛ وكان على عرابى أن ينشىء خطوط كفر الدوار ليصد الأنجليز الذين دخلوا الأسكندرية فعلا ؛ فأذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الأسكندرية فى اليوم الثانى عشر من يوليو وأنهم سيطروا على مدخلى القناة قبل نهاية الشهر ، واحتلو السويس فى ثانى يوم من الشهر التالى وأن جانبا من أسطولهم كان يستطيع الانتقال فورا إلى بور سعيد ، إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا مقدار ما كان يواجه عرابيا ورجاله من صعوبة إذا هم أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس

وليس معنى ذلك أنه كان يستحيل عليهم هذا العمل وإلا سقط عنهم اللوم وذلك ما لم نقله ، وإنما كان الأمر صعبا وقصاراهم أنهم كانوا يستطيعون أن

(١) S H B p. 371

يوزعوا جهودهم بين كفر الدوار وقناة السويس ، ولا يخفى ما يكون فى ذلك من خطر على الميدان الغربى

والواقع أن سرعة الأنجليز ورسمهم خطة محكمة من زمن بعيد هو الذى أوقع المصريين فى الحيرة ، ولا يصح أن يقال إن عرابيا ملوم على كل حال لأنه كان عليه أن يبادر بالعمل من قبل ذلك ؛ ولقد رددنا على مثل هذا فى الكلام عما وجه إليه من لوم بشأن حصون الأسكندرية

والقضية كلها تتلخص فى كلمة ، فطالما كان عرابى وزيرا فى وزارة يملك الخديو إسقاطها فى أى وقت ، وطالما كان الخديو فى صف الأنجليز ، فلن يستطيع عرابى ان يتأهب للحرب فضلا عن إقدامه على عمل كردم قناة السويس ، وما كان يستطيع عرابى أن يفعل شيئا إلا بعد سقوط الوزارة وبعد عجز توفيق عن إقامة وزارة غيرها واضطراره إلى إبقاء عرابى فى وزارة الجهادية ، والمدة بين عودة عرابى إلى الوزارة وبين ضرب الأسكندرية هى شهر ونصف انشغل فيها عرابى بالأمن وقضيته ومأساة الأسكندرية وما جرته فى أعقابها ، ودرويش وبعثته ودسائسه مما لم يدع له مجالا للاستعداد ولو سرا ، هذا إلى أن عملا كردم القناة لا يكون إلا فى موقف له مبرراته ، أعنى لا يكون إلا عند نشوب الحرب أو توقع نشوبها بين حين وحين وهو ما لم يخطر ببال أحد فى مصر على هذه الصورة من السرعة وبخاصة بعد انعقاد مؤتمر الآستانة ...

* * *

ولم يقتصر نشاط الأنجليز فى المنطقة الشرقية من مصر على ما فعلوه بشأن قناة السويس ؛ وإنما لجأوا كذلك إلى أسلوب فيه أقوى الأدلة على مبلغ ما للشرف البريطانى عندهم من رعاية واحترام ، ويتضح هذا فيما فعله الأستاذ بالمر وشريكه الكابتن جل ... وفيما استعان به الأنجليز بعد ذلك من رشوة خسيسة ودس دنىء ...

كانت إنجلترة تدرس خطة احتلال مصر منذ أوائل سنة ١٨٨٢ أى قبل

إنفاذها فعلا بنحو ستة أشهر ، وقد أشرنا إلى حديث جرى بين مستر بلنت والجنرال ولسلى فى الخامس عشر من شهر مارس تحدث فيه ولسلى عن أسهل الطرق إلى القاهرة وأبدى اهتماما بالصحراء الشرقية(١)

وفى منتصف شهر يونيو أى عقب مذبحة الأسكندرية قررت وزارة الحرب بالاتفاق مع الأدميرالية تمهيد السبيل للحملة وذلك بالاعتماد على رشوة واسعة النطاق وبخاصة بين البدو فى المناطق الشرقية(٢)

واستدعت إدارة الأدميرالية البريطانية إدوارد پالمر أستاذ اللغات الشرقية فى فى كمبردج ، وقد رأت فى هذا الرجل خير من يصلح لأداء العمل المراد لمعرفته اللغة العربية ولخبرته بالمنطقة المقصودة إذ تصادف أنه كان من قبل عضوا فى جمعية كشف فلسطين

وتحدث إليه اللورد نور ثبروك وعرض عليه أن ينهض بهـذا العمل الوطنى المشرف كما قال ألا وهو ضمـان انضمام البدو شرقى القناة إلى الجيش الأنجليزى وذلك بالأفادة من قابليتهم للرشوة ؛ وقدم له نور ثبروك خمسمائة جنيه غير نفقات الرحلة ووعده بمكافأة عظيمة إذا اتفق له النجاح ...

وكان الأستاذ پالمر معسرا فقبل الاضطلاع بهـذا العمل الوطنى المشرف ؛ وتهيأ للسفر وهو يرجو لعمله هذا النجاح . ويقول بلنت إنه صرح به قبل سفره وتظاهر أنه عين مراسلا لجريدة استاندارد ، وطلب منه أن يزكيه لأصحابه من رجال الحزب الوطنى فى مصر؛ وكان ذلك ليخفى كما يذكر بلنت ، العمل الذى كلف بأدائه ...

أما التعليمات التى ألقيت إليه فهى أن يذهب إلى الأسكندرية حيث يتشاور فى خطته مع سيمور؛ وبعد ذلك عليه أن يذهب فى غير إبطاء إلى يافا حيث يتنكر فى

---

(١) راجع ص ١٨٧ من كتابنا هذا .

S, h, Blunt p. 400 (٢)

زى عربى ويزور الصحراء جنوبى غزة وغربيها ، ويتصل بقبيلتى الطياحة والطرابين ...

وقد اطلع بلنت على يوميات بالمر وأورد منها بعض فقرات كقول الأستاذ « أعطانى الأدميرال مسدسا وبندقية وكثيرا من الطلقات » وقوله عن الأدميرال إنه قال « يهنأ الوطن بوجوده رجلا قديراً مثلى يضطلع بمثل هذا العمل الصعب »

وانطلق بالمر إلى يافا على ظهر قارب بخارى فوقه العلم البريطانى وكان معه فى القارب بحاران ؛ وهناك اتصل بالقنصل الأنجليزى ، وأرسل القنصل ابنه إلى غزة ليمهد السبيل للرحلة ؛ واشترى بالمر الملابس العربية المطلوبة وبدأ بعد ذلك رحلته الصحراوية متظاهرا أنه من تجار الأبل ...

واستمر بالمر فى رحلته وقد ذكر فى يومياته أنه اتصل ببعض مشايخ الطرابين وأنه تعاقد مع الطياحة ، وأنه قطع شوطا كبيرا صوب النجاح ، وأن البدو كانوا يحبونه ويقبلون عليه ويدعونه عبد الله أفندى ؛ وكان يسمعهم الشعر العربى فيطربون له وقد أكل معهم الخبز واللحم كعهد بينهم وبينه أن يحمى كل منها الآخر حتى الموت ...

وفى أول أغسطس بلغ بالمر السويس واشترك مع الجند الذين احتلوها ثم خرج إلى الصحراء ثانية ليعمل على قطع أسلاك التلغراف وإحراق الأعمدة لتنقطع المواصلات بين عرابى وتركيا ...

وبعد ذلك بيومين التقى بالكابتن جل وقد أعطاه هذا عشرين ألف جنيه لتوزيعها على البدو ولقى بالمر حتفه فى السابع من أغسطس هو وجل وانجليزى آخر إذ صادفهم فى صحراء سينا عدد من البدو من قبيلتى الحوايات والحويطات ، فعرفوا أن معهم مالا كان يحمله بالمر إلى الطياحة ؛ فأوثقهم البدو وأخذوا المال وقتلوهم رمياً بالرصاص فى وادى صدر

ولم يقل نشاط جل غربى القناة عن نشاط بالمر شرقيها فقد اتصل باثنين من أكبر مشايخ البدو هما سعود الطحاوى فى جهة الصالحية ومحمد البقلى فى وادى الطميلات

كما جاء فى يومياته ويذكر جل فى هذه اليوميات أنه تلقى هذين الاسمين من الخديو نفسه وقد كتبهما الخديو بخط يده ؛ وكان آخر ما كتبه جل فى اليوم السادس من أغسطس أى قبل مصرعه بيوم قال « يسرنى أنى تخلصت من العشرين ألف جنيه إذ أننى أعطيت هذا المبلغ لبالمر ليوزعه على البدو » …

***

ونرى قبل أن نتكلم عن وقائع الحرب فى الميدان الشرقى أن نذكر ما كان من سعى الخديو واتصالاته فى هذه الجهة ، وذلك لما كان لفعله هذا من عظيم الأثر فى نتيجة الحرب …

كان من أكبر أعوان الخديو فى هذا الميدان أولا الكابتن جل ، فقد أرسله توفيق إلى الشيخين البدويين الطحاوى والبقلى وكان الإنجليز يمينون رسل الخديو من المصريين كذلك ويعدونهم بما يطلبون من سلاح ومال …

ويلى الكابتن جل فى هذا المضمار محمد سلطان باشا الذى كان رئيس الحزب الوطنى قبل رياسة عرابى إياه والذى لقب يوما ما أبا المصريين ، والذى نراه اليوم يسمى سعيه جنديا متحمسا للخديو وللانجليز …

قال الشيخ محمد عبده فى مذاكرته « مركز الدسائس والمخابرات كان فى اسكندرية فى مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الإنجليز من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر ؛ وكان روح الجميع سلطان باشا. عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الإنجليز لايفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الأرواح ، فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان واختار لبث الأفكار الحاوى الطحاوى أحد ثقاة عرابى »

وقال أيضاً « فى ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الأسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد على من عائلة مشهورة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه إلى رؤساء القبائل وبعض

الضباط يدعوهم إلى ترك عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لأخضاع العصاة ... استنطقوا فاعترفوا بكل شىء ، وذكروا أن جنديا بحريا أنكليزيا يسمى جيل حمل ثلاثين ألف جنيه من سيمور ليلحق بالأستاذ بالمر يستميل معه عربان غزة وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان فى الشرقية ، وأن مبلغاً لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الأنكليزى إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة بالمر وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والآستانة » .

وقال بلنت « ولم يكن ذلك الشخص غير زعيم حركة الفلاحين القديم ذلك الذى لم يساوره الخجل وقد ألقى بنفسه فى أحضان الأنكليز كاية ، أن يبذر بذور الانشقاق بين أولئك الذين لا يزالون يتمسكون بوطنيتهم ؛ ولقد يبدو من الصعب على الجيل الحديث فى مصر أن يفهم كيف يهوى رجل اتصف بصفة عالية هى صفة الوطنية إلى ذلك السبيل الوضيع .. وقد أرسل كتباً إلى عدد من أصدقائه السابقين فى القاهرة يشرح لهم فيها أن التحالف بين الخديو والأنجليز إنما هو ضرورة مؤقتة ، ويقول إن الجنود الأنجليز لن تبقى بمصر بعد إعادة سلطة الخديو ، وإن عرابياً قد فقد ثقة الساطان ، وإن المقاومة المستمرة فى القاهرة أمر ينقم عليه المسلمون ... وقد أحدثت أثرها هذه الكتب التى أحكم توزيعها ، ولعب المال مرة ثانية دوره القوى ... » .

وقال فى موضع آخر « لقد وجدت هذا مكتوباً فى يومياتى عن سنة ١٨٨٧[١]

١٣ فبراير . زارنى عبد السلام المويلحى من مؤسسى الدستور وعضو مجلس سنة ١٨٨٢ ، وأخبرنى أنه كان صديقاً حميما لسلطان باشا ومن أعوانه وأنه كان أحد الذين انضموا إليه فى خصومته لعرابى ، ولكن الأسف يتملكهم جميعاً الآن أن لم يتحدوا ؛ وهو لايقر مسلك سلطان أثناء الحرب . فقد خدع مالت سلطاناً الذى غرر به ليفعل ما فعل واعداً إياه وعداً واضحاً أن حقوق البرلمان المصرى سوف

(١) يلاحظ أن بلنت نشر كتابه سنة ١٩٠٧ .

محترم ؛ وقد وعد مالت هذا الوعد شفويا وطلب سلطان أن يكتب له هذا ولكن الخديو صرفه عن الإلحاح فى هذا الطلب قائلا إن كلمة الوكيل الأنجليزى لها قيمة الصك . ولما رأى الرجل الشيخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حزن حزناً شديداً ومات وهو يأمل أن يسامحه عرابى وألا ينتقل اسمه فى الأعقاب موسوماً بالخيانة لوطنه » .

وقال نينيه فى كتابه « وكان بجانب الأمناء فى جيشنا بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الأنجليز ويعدونهم بالمال ويحرضهم توفيق باشا ويمدهم ؛ وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على جنس الفلاحين المصريين ، ومن هؤلاء على يوسف الشهير بخنفس ، وقد زعم البعض أنه من صميم المصريين والحق أنه من حثالة الأتراك ، وكان مع الأسف الشديد قائد قلب الجيش المصرى وهو الذى اشترى سلطان باشا ذمته للأنجليز فانسحب بفرقته فأفسح الطريق لجيش ولسلى » .

وكان سلطان باشا أثناء القتال يرافق الجيش الأنجليزى نائباً عن الخديو ، فقد أصدر الخديو أمره بتعيينه نائباً عنه لمرافقة الجنرال ولسلى فى زحفه على العاصمة[١]

من هذا الذى ذكرناه عن سلطان يتبين لنا مبلغ ما بذل من نشاط فى صفوف المدنيين والعسكريين ، ومبلغ ما أدى من خدمة لجيش الاحتلال على حساب وطنه ولقد كوفىء بعد الحرب بلقب السير من الأنجليز وبعشرة آلاف جنيه قبضها من الخديو ... ألا بئس ما باع به نفسه ووطنه ...

أما من اشتراهم سلطان بالمال فمن أشهرهم سعود الطحاوى من البدو ، وعلى يوسف خنفس وعبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى وراغب ناشد وهو قائمقام فى القدمة ، وسيأتى مع عظيم الأسف والخجل الكلام على خيانة كل من هؤلاء فى موضعها .

وممن عمل غير سلطان من المصريين مثل عمله عثمان بك رفعت ياور الخديو الذى وصفه بلنت بالمهارة والذكاء وقال إنه أحدث تأثيراً كبيراً فى نفوس عدد

(١) مصر رقم ١٨ ص ٣٩

كبير من الضباط وبخاصة من كانوا من أصل شركسي إذ راح يريهم ألا فائدة من المقاومة وأن الخير للشخص منهم أن يتجنب سوء العاقبة قبل فوات الوقت وسبيل ذلك هو الولاء للخديو ؛ وكان عثمان بك يعرف فريقاً من الضباط فاستطاع أن يتصل بهم سراً ويغريهم ...

ومما يبعث على الأسف أن بعض الضباط المصريين من الموالين للخديو غير من اشتراهم سلطان من الذين أخفوا خيانتهم فى أنفسهم حتى يحين الوقت ، قد رافقوا الجيش الأنجليزى وأرشدوه وأعانوه بالاستطلاع والتجسس بأمر الخديو وهم الأميرالاى زهراب بك والقائمقام يوسف ضيا بك واليوزباشي توفيق أفندى(١)

وسوف نرى أن السبب الأساسي للهزيمة كان مرده إلى هذا السعى الأثيم الذى قل أن يوجد نظير له فى تاريخ بلد من بلاد الأرض .

***

كانت الخطة الأساسية للحملة الأنجليزية غزو مصر من الشرق كما ذكرنا ؛ وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس واتخاذ الأسماعلية قاعدة للزحف على القاهرة

وقد رأينا ما كان من نشاط الأنجليز فى هذه المنطقة حتى أوائل شهر أغسطس وما كان من إهمال المصريين إياها حتى ذلك التاريخ ؛ وفى اليوم التاسع عشر من أغسطس أبحرت الحملة الأنجليزية من الأسكندرية إلى بور سعيد تحت قيادة سيمور وكان الأنجليز قد حصنوا مدخل الأسكندرية تحصيناً قوياً مخافة أن يدخلها الجيش المصرى من كفر الدوار وربطوا بينها وبين بورسعيد من البحر بأسلاك التلغراف

وفى الأسبوع الأول من أغسطس كان عرابى قد أرسل محمود فهمى باشا لبناء ما يمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية . وبعض المواضع الأخرى ؛ كما أرسل بعض القوات فرابطت على مقربة من الأسماعيلية ...

وفى العشرين من أغسطس بلغت السفن الأنجليزية المقلة للحملة بور سعيد ، وكان عدد رجال الحملة نحو ثلاثين ألفاً ؛ وفى هذا اليوم احتل الأنجليز بورسعيد واقتحمت السفن الحربية قناة السويس وأنف القانون فى الرغام وعلى حيادها ألف

(١) مصر رقم ١٨ ص٢٤

سلام ؛ ومنعت السفن التجارية من دخول القناة من الشمال ومن الجنوب إذ كان لدى هوت في السويس تفاصيل الخطة المرسومة .

واحتلت جنودهم الأسماعيلية كذلك فى هذا اليوم ، وشرعوا فى إنزال عتادهم بها ليتخذوها قاعدة لزحفهم على القاهرة ؛ وتحقق لهم بذلك خطوة هامة من خطوات حملتهم ، فبين الأسماعيلية والقاهرة ما لا يزيد عن تسعة وخمسين ومائة كيلو متر فى حين أن بين الأسكندرية والقاهرة نيفاً ومائتى متر ... هذا وإن الطريق فى الصحراء أسهل منه فى الدلتا حيث الترع التى تعوق سير الجيش وحيث يخشى قطع الجسور وتهديد مؤخرة الجيش الزاحف ، من القرى والمدن .

وأرسل عرابى إلى دى لسبس فى هذا التاريخ يقول « بما أن الأنجليز اعتدوا على حياد القناة، فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتعطيلها لمنع عدوانهم عليها »

وهم الجيش بتنفيذ هذا العمل فلم يستطع إذ حرس الأنجليز بسفنهم ومدفعيتهم شواطىء القناة فكان كلما قرب الفعلة من مكان أبلغت طلائع الأنجليز عنهم فأقبلت القوارب بمدافعها تصليهم نارقذائفها فيولون مبتعدين ؛ ولم يتسن للمصريين إلا سد الترعة العذبة فمنعوا وصول الماء إلى السويس والأسماعيلية ...

وكانت السفن الأنجليزية منذ وصولها لا تنفك تضرب نفيشة أول معسكر للمصريين بقنابلها لتشغلهم عن العمل فى ردم القناة ولتلقى الرعب فى نفوسهم ؛ ولا تبعد نفيشة عن الأسماعيلية إلى الغرب إلا بنحو ثلاثة كيلومترات ...

بلغ ولسلى الأسماعيلية فى الحادى والعشرين من أغسطس ، وبدأ يعد العدة للزحف على الصحراء ؛ وفى هذا اليوم وصلت القوات الهندية إلى السويس ...

يقول عرابى فى مذكراته « فى ٢١ أغسطس توجه الفريق راشد باشا حسنى إلى الخط الشرقى ومعه فرق من البيادة والطوبجية والسوارى تحت إمرة خالد باشا نديم ومحمد بك عبيد الميرالاى وعبد القادر بك عبد الصمد الميرالاى، ثم صار وضع أورطة فى محطة فايد وأخرى فى نفيشة وجعلوا المركز العمومى فى المسخوطة بواسطة الأهالى المتطوعين وسد الترعة الحلوة »

وفى الثالث والعشرين من الشهر التحم الأنجليز والمصريون أول التحام فى الميدان الشرقى ، وبعد قتال شديد ارتد المصريون عن نفيشة فاحتلها الأنجليز ...

وفى اليوم التالى هاجم الأنجليز موضع سد الترعة الأسماعيلية وكان يسمى المجفر واحتلته جنودهم .

ودارت معركة عنيفة بين الجيشين فى المسخوطة فى الخامس والعشرين من أغسطس ، وقد أبلى راشد باشا بلاء حسناً فى هذه المعركة ، ولكن تكاثر العدو عليه اضطره إلى الانسحاب فسقطت المسخوطة

وفى هذه المعركة أصيب الدفاع الوطنى بضربة من أشدالضربات وخسرخسارة كبرى وذلك بأسر رئيس أركان حرب الجيش وكبير مهندسيه محمود فهمى باشا.. كأنما قدر على الجيش المصرى أن يصادفه النحس فى أول خطواته

وبيان ذلك أنه خرج فى المساء وكان يلبس ملابس مدنية ومعه ياوره فترك الياور فى قرية هناك وسار وحده حتى بلغ قمة تل غير مرتفع على الجانب الآخر من وادى الطميلات ليلقى نظرة على الصحراء فى اتجاه الأسماعيلية ، وتصادف أن كانت ثلة إنجليزية صغيرة بهذا المكان فأحاطت به وظنته يتجسس ، ولكنه أوهم هؤلاء أنه مالك من أصحاب الأرض فى القرية القريبة وكادوا يصدقونه ويطلقونه ، ولكن رئيس هذه الثلة رأى أن يأخذه إلى معسكر الأنجليز فربما كان فى الأمر شىء ، وبقى الياور فى القرية لا يدرى ماذا وقع لرئيس أركان حرب الجيش ... وهكذا تلحق الجيش المصرى هذه الخسارة الفادحة فى أيسر صورة

ولهذا ظن عرابى الظنون بمحمود فهمى باشا وحسب أنه فعل هذا ليأسره الأنجليز ، فقد قال فى مذكراته « وأما محمود باشا فهمى فأنه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآثر الوقوع فى الأسر على البقاء فى الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا [1] وطمعاً منه في قبوله لدى الخديو بسبب استسلامه إلى

---

(١) لعل عرابياً يقصد موافقة تركيا على طلب إنجلترة بشأن هذا المنشور وذيوع هذا النبأ وذلك لأنه لم يصدر إلا فى ٦ سبتمبر .

الأنكليز ، ولذلك خالف خالد باشا وثبت على موقفه مع خادمه حتى قبض عليه الأنكليز بصفة كونه نفر بسيط »

واستولى الأنجليز على المحسمة فى نفس اليوم الذى استولوا فيه على المسخوطة وهى على اثنين وعشرين كيلو من نفيشة ونحو أربعة وعشرين كيلو من التل الكبير ، وكانت خسائر المصريين فى المحسمة سبعة مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وقطار محمل بالذخيرة ...

ودخل الأنجليز القصاصين بعد مناوشة صغيرة فأصبحوا على خمسة عشر كيلو من التل الكبير وعند ذلك رأى عرابى أن ينتقل إلى الميدان الشرقى فسافر إلى هناك من كفر الدوار بالقطار يصحبه عدد من الضباط وقوه من الحرس ، وكان معه عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها وقد جاء يستنهض الهمم بأحاديثه وخطبه بين فرق الجيش

واستقبل عرابى فى الزقازيق استقبالا عظيما فقد خف للقائه الأعيان والعمد والموظفون وأرباب الطرق الصوفية وحيته الجموع المتزاحمة لرؤيته بالدعاء المعروف « الله ينصرك يا عرابى » وكان النساء والصبية على خط سكة الحديد يرددون أغنية أولها « يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز » ثم يهتف أحد الشباب قائلا الله ينصرك » فتردد جموع الشباب قائلة « يا عرابى » ... وتألف من هذا مظاهرة شعبية جميلة فيها الدعاء وفيها الرجاء ...

وأقيمت لعرابى بالتل الكبير خيمة سعيد باشا التى كان يقيم بها فى كفر الدوار وأحيطت بالحرس خوفا من كيد الكائدين

وتشاور عرابى وكبار رجاله فى الموقف الحربى فتقرر اتخاذ خطة الهجوم فى الحال ، وقد وصل إلى الميدان الشرقى من القاهرة على باشا فهمى يقود الآلاى الأول من المشاة ؛ ثم وصل بعد ذلك عيد بك محمد بآلايه من كفر الدوار وكذلك أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن ومعهم الفرسان ، ووصل من دمياط خضر بك خضر ومعه أورطتان من السودانيين
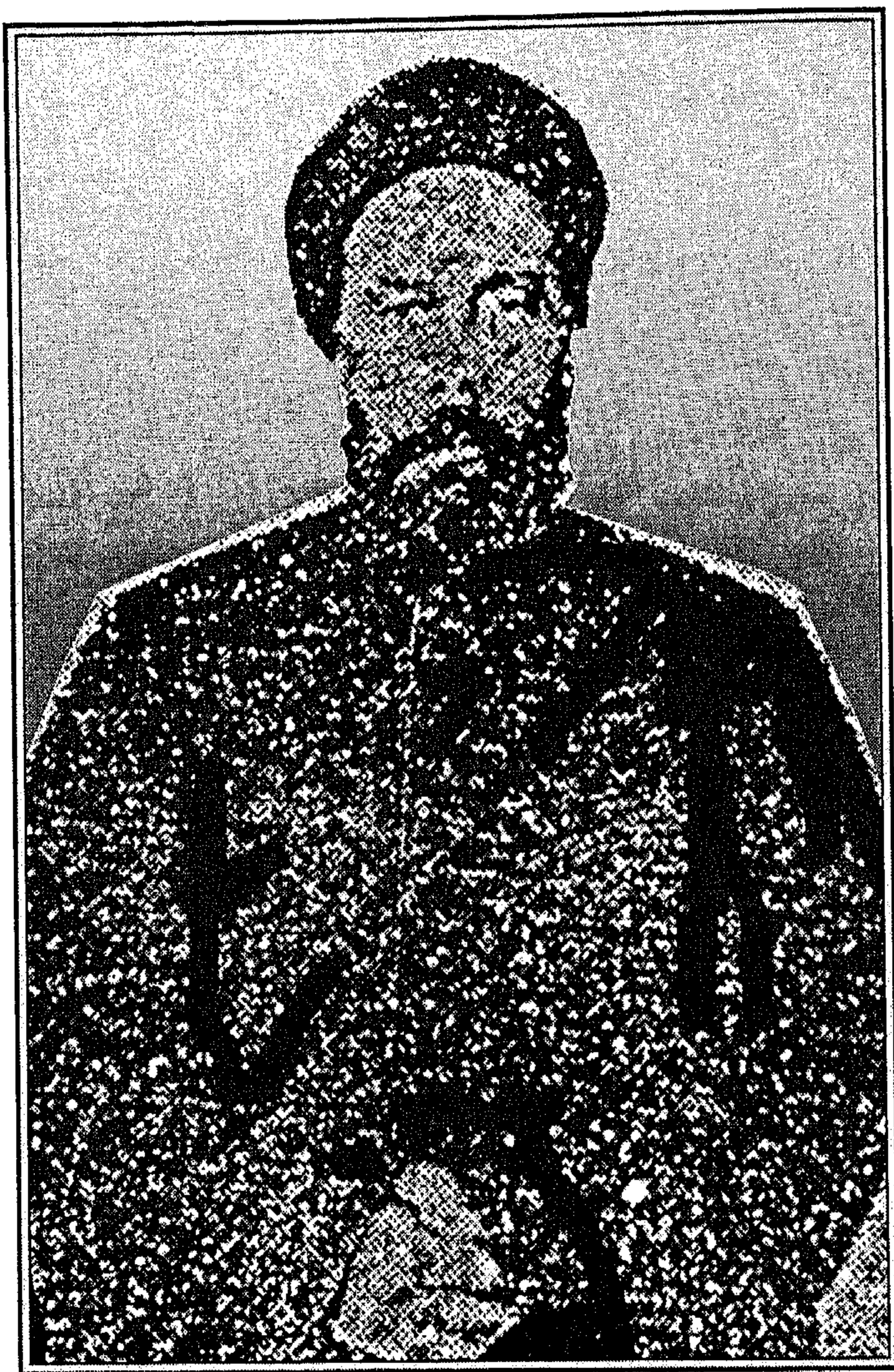
عبد الله نديم

على أن مجموع هذه القوات لم يكن يزيد فى الميدان الشرقى عن ثلاثة عشر ألفاً من الجند النظامية ، أما المتطوعة والأنفار والفعلة فكان عددهم يزيد كثيراً عن ذلك

وفى الثامن والعشرين من أغسطس تهيأ المصريون للهجوم وقد استمرت الحماسة فى نفوسهم على الرغم مما انبث فيها من أسف على أسر محمود فهمى باشا ...

يقول عرابى فى مذكراته « ثم عقد مجلس حربى تحت رياستنا وتقررت فيه هيئة الهجوم على العدو وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره وأعطى لكل واحد منهم رسم الشكل الحربى مبينا فيه الدقيقة التى يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو حيث كان معسكراً فى القصاصين ؛ وكان الترتيب على هيئة شكل مقعر يكتنف العدو من كل جهة فكانت أورطة محمد أفندى الرملاوى فى الجناح الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة من السوارى ومدفعان وجانب من العربان ، وفى هذا الجناح من يسار الترعة اجى الاى بيادة حكمدارية أحمد بك فرج وخلفه مدفعان ، وفى القلب ثلاث أورط يتقدمها ثمانية مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البيادة وستة مدافع والجميع تحت حكمدارية على باشا فهمى والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت ، وفى الجناح الأيسر ست أورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وأورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك ، وقومندان هذا الجيش هو راشد باشا حسنى ؛ وكذلك محمود باشا سامى حكمدار الجيش المعسكر فى الصالحية وهو مركب من اثنى عشر ألف عسكرى يقوم بجيشه ليلا بحيث يصل إلى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ، ويحيط بميمنة العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعربان يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة ، وبذلك لا يتمكن العدو من الفرار ، وقد كان مع العدو الدوق أوف كنوت ثالث أنجال ملكة الأنجليز ؛ وانفض المجلس على ذلك »

وهى خطة محكمة كما نرى ، وقد نفذت كذلك بأحكام ؛ فهجم المصريون

على مواقع الأنجليز فى القصاصين فى الثامن والعشرين من أغسطس بقيادة راشد باشا حسنى الشهير بأبى شنب فضة ، ودارقتال شديد جداً وتحمس المصريون وقويت روحهم المنوية وكأنما تذكروا المبادىء التى يحاربون فى سبيلها فشدوا على الأنجليز مستبسلين وعظمت قوة هجومهم فأجلوا الأنجليز عن مواقعهم الأمامية واستولوا عليها .

واستعاد الأنجليز قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وقد هبط الليل والحرب سجال بين الجانبين ؛ وقتل من الأنجليز فى المعركة ثمانية منهم ضابط وجرح واحد وستون منهم عشرة من الضباط ... وهذا هو إحصاء الأنجليز أنفسهم (١) وتعرف هذه المعركة بمعركة القصاصين الأولى

أما التقرير الرسمى الذى أعلنه وكيل الجهادية بناء على ما ورد إليه من ميدان القتال ، فيقول إن المصريين أسروا سبعين إنجليزياً وإن جثث الأنجليز فى ساحة المعركة بلغت ثمانمائة « وجدوهم مجندلين بأسلحتهم وألبستهم وذخيرتهم وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد وغير الذين أمكن للعدو حملهم إلى مراكزهم أو إحراقهم فقد ورد إلينا من على باشا فهمى أنه رأى حريقاً فى جهة الكبرى فأرسل إلى تلك الجهة من يستكشف خبر هذا الحريق فأخبرالمرسلون بعد الاستكشاف أنه حريق قتلى الهنود من جيش الأنجليز ... وقد استشهد من عساكرنا فى هذه الواقعة ٦٠ شهيداً وجرح ٨٥ » .

أورد عرابى فى مذكراته تقريرين للانجليز عن هذه المعركة ومما جاء فى أولها .
« وكان العرابيون بعدد عظيم لم تقو عليه الفرق الأنجليزية فوردت إليها نجدة من المحسمة ثم اشتد القتال واستمر إلى أول الليل فتشتت شمل العرابيين وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الأنكليز . أما خسارة الأنكليز فكانت قتيلا واحداً و ٦ جرحى من الضباط و ١٩ قتيلا و ٥٢ جريحاً من الجند »

(١) الحملات الأنجليزية فى أفريقيا للسكيرنل سبتان ص ٣٠٩

ومما جاء فى التقرير الثانى وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة « فى الظهر أطلق العصاة علينا ناراً شديدة من مدافع الميار الأول فلم يلحق بنا أقل ضرر وفى الساعة الثالثة بعد الظهر أمرت رجالى بالرجوع إلى مراكزهم فعادت فرقة الخيالة إلى المحسمة وكانت قد وفدت على إمدادات ونجدات وفى الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة من الأعداء وحاولت التغلب على ميمنة جيشى وإكراهه على التسليم » ... ولم يشر هذا التقرير بشىء إلى القتلى والجرحى ..

والذى يستخلص من هذه الروايات على أى حال هو تكافؤ الجانبين فى المعركة ، ولا نجد أحسن من هذا نرد به على الذين يتحدثون عما ليس لهم به علم ، أو الذين أضلهم الاحتلال فقالوا إن المصريين لم يحاربوا فما هو إلا أن رأوا الأنجليز حتى فروا هاربين ؛ وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء بترديد تلك الأباطيل عن جيش أمتهم ؟ أذلك كله لكى ينكروا الجهاد على عرابى ؟ ألا ما أشد ما اتى هذا الرجل من نكران !

ويجدر بنا أن نلاحظ أمراً على جانب عظيم من الأهمية وهو أن الانجليز الذين كانوا يوالون الزحف إلى الأمام قد توقفوا بعدهذه المعركة أياما ، ولم يستأنف القتال إلا بعد أن هجم المصريون عليهم مرة ثانية فى التاسع من سبتمبر ؛ وما ذلك إلا لأن دسائس سلطان وأقرانه لم تكن قد أفرخت بعد ، فخشى الأنجليز التقدم دون أن يستعينوا بهذا السلاح الدنىء سلاح الرشوة والخيانة والغدر ، ثم إنهم كانوا يعدون لعرابى الضربة القاصمة وهى إعلان قرار عصيانه ؛ وحسبنا هذا دليلا على تهيب الأنجليز من خطوط المصريين وعلى أنهم وقد خبروا ثبات المصريين واستبسالهم فى هذه المعركة قد تبين لهم أن الأمر جد لا لعب

والحق أن المصريين منذ معارك كفر الدوار حتى نهاية معركة القصاصين الأولى ، قد خلا جهادهم المشرف من كل شائبة ، وهو حتى هذا الطور خليق بكل ثناء وإعجاب ، فحسب المرء أن يبذل كل ما فى وسعه فى سبيل النجاح وفى سبيل الشرف ، أما إدراك النجاح فعلا فقد يفلت من أعظم القواد كفاية ومن أقوى

الجيوش بأساً لأمور لم تجر لأحد فى حساب ...

***

لا بد لنا قبل أن نتتبع أدوار الحرب ، من أن ننظر فيما كان من أمر تركيا والمؤتمر الحربى بينها وبين إنجلترة ، ومساعى الأنجليز كى يصدر السلطان قراره بعصيان عرابى ...

أرادت تركيا أن يظل المؤتمر العام منعقدا أملا فى أنه ربما جد خلاف بين الدول ، ولذلك لم توافق على التأجيل وأعلنت احتفاظها بحقها فى دعوة المؤتمر فى أى وقت ، ولكن مساعيها ذهبت هباء ، وذهب كذلك المؤتمر إلى غير رجعة

ووجهت تركيا همها إلى المؤتمر الحربى الثنائى بينها وبين إنجلترة ، وكان السلطان يتحرق شوقا إلى اليوم الذى تنجح فيه مساعيه للاشتراك مع إنجلترة فى الحملة على مصر وذلك بالسماح له بأرسال جنود إلى مصر التى هى جزء من سلطنته !

واستغلت إنجلترة هذا الاهتمام الشديد لتظفر ببغيتها ألا وهى قرار العصيان وراح دوفرين يتهدد تارة ويصانع تارة أثناء المناقشة فى الشروط المقترحة للعمل المشترك وهو فى حالتيه إنما يهوش على الحكومة التركية ويعاملها معاملة الشيخ الخبيث الماكر ، حدثا لا يحيط مما حوله بشىء ، بغية اكتساب الوقت والظفر بقرار العصيان فحسب ...

وكان السلطان راغبا عن هذا القرار لما يكون من سوء أثره فى العالم الأسلامى ولأنه يوقن أن عرابيا إنما يدافع عن حقوقه فى مصر ؛ وأراد السلطان أن يظهر شيئا من الغضب فمنع إرسال عدد من البغال اشترته إنجلترة لجيشها فى مصر ؛ ولكن ما كاد دوفرين يحتج على ذلك فى عنف حتى تراجع السطان وأرسل إليه رسولا خاصا ينبئه أنه أمر بأرسال البغال المطلوبة ...

واغتنم دوفرين الفرصة فأخبر رسول السلطان بأن الحال فى مصر تستدعى عملا حاسما وهو يشير بذلك إلى القرار المطلوب ؛ وفى الثالث والعشرين من أغسطس

زار دوفرين سعيدا باشا ، وبعد مناقشة فى احد بنود المؤتمر المطلوب عقده ، إذ كان السلطان يريد أن تنزل جنوده بالأسكندرية بينما كانت إنجلترة إطالة منها للوقت تقترح غير جادة أن يكون ذلك فى أبى قير ورشيد ودمياط ، أشار دوفرين إلى قرار العصيان ؛ وأجاب سعيد باشا بأن حكومته ترى أنها خطوة ليس من الميسور خطوها لأول وهلة وتريد أن تستبدل بها قرارا آخر يقوم على النصح لعرابى ومناشدة ولأنه مناشدة أخيرة ، وإذا ذاك نهض دوفرين غاضبا معلنا أنه من المستحيل أن يعود ثانية إلى التحدث مع تركيا بشأن المؤتمر أو فى أى أمر آخر[1]

وأحدثت هذه الغضبة أثرها إذا رافقه سعيد باشا وقاسم باشا إلى أسفل الدار ثم إلى الشارع معتذرين وقالا إنهما تقدما بهذا الاقراح على غير مشيئتهما ؛ ورد دوفرين فى صلف أنه لن يوقع على قرار عقد المؤتمر إلا إذا وصله قرار العصيان باللغتين العربية والفرنسية .

وفى اليوم الخامس والعشرين من أغسطس أرسل دوفرين إلى حكومته يقول إن السلطان عاد يضع العقبات فى سبيل مايمده التجار لإمداد الأنجليز بما يريدون إرساله إلى جيشهم فى مصر وأنه يتهدد بالسجن أى تركى يرافق الحيوانات المزمع إرسالها بقصد المحافظة على حياتها ...

وفى اليوم نفسه أبرق مالت إلى جرانفل يشكو من أن عمل السلطان من شأنه ألا يجعل العصاة يصدقون أنه سوف يساعد الحملة ، لذلك فأن الحملة لن تحصل منه على التأييد الأدبى المطلوب ، ويقول إن شريفا ورياضا يعارضان فى مجيىء جنود تركية إلى مصر ويخشيان مما ينجم من المتاعب بسبب ذلك فيما بعد[2]

وفى السابع والعشرين من أغسطس عاد سعيد باشا يلح وقد أفضى إلى دوفرين بأن تركيا مستعدة لقبول الشروط التى تراها إنجلترة لعقد المؤتمر وأن قرار عصيان عرابى يصدر عقب التوقيع على الاتفاق الأخير ...

ووافقت انجلترة على شرط أن يعلن قرار العصيان حالا وهو فى الواقع ما كانت تبتغيه إنجلترة بهذه الاتصالات وعلم ذلك فى مصر فى الحادى والثلاثين من

(١) M, E, Cromer P, 244 (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٥

أغسطس على أثر برقيته إلى مالت ؛ وعاد السلطان يبذل آخر محاولة لأن تنزل جنوده بالأسكندرية وذلك فى ضراعة وتوسل يدلان على مبلغ ما انحدر إليه هذا الطاغية المستبد فى قومه أمام الأنجليز من هوان ، فقد أرسل دوفرين يقول « إن السلطان جاث على ركبتيه وإنى لأجرؤ على أن أتقدم إلى حكومة جلالة الملكة فى إخلاص أن تقبل تضرعاته »[1] ! وزاد دوفرين على ذلك «أن السلطان يعد فى نظير ذلك أن يعمل كل شىء تريده إنجلترة بشأن القرار ضد عرابى وأن يأمر الصحف بتغيير لهجتها »

وعلى الرغم من هذه الذلة فى الرجاء لم تقبل الحكومة الإنجليزية نزول الأتراك بالإسكندرية التى هى من أملاك السلطان ! وفى اليوم السادس من سبتمبر أعد السلطان القرار ونشر فى الصحف قبل أن يرسل إلى دوفرين

ولما أن ظفرت إنجلترة بتوقيع السلطان على القرار ، راحت فى لؤم ليس مثله لؤم تتنصل من وعدها بقبول المؤتمر بحجة أن قرار العصيان لم يكن فى الصيغة التى أرادتها إنجلترة تماما ! ...

واستؤنفت بعد ذلك الاتصالات بين الدولتين فى صورة مملة حسبنا منها هذا القدر لنعود إلى الحرب فى مصر ...

***

فى اليوم التاسع من سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكانت آخر معركة أثبت فيها المصريون شجاعتهم وكاد جيش مصر على قلته يظفر بالجيش الإنجليزى على كثرته ، ولكن واأسفاه كانت الدسائس قد أفرخت فحيل بين المصريين وبين الظفر وهم منه على خطوة ، ولذلك كانت هذه فى الوقت نفسه أول معركة سجل فيها نفر من المصريين على أنفسهم عار الخيانة فى أقبح صورها وأشنعها ، وبسبب هذه الخيانة الفاجرة حلت الهزيمة السوداء حين التمعت بوارق النصر ...

كانت لا تخرج خطة هذه المعركة فى جوهرها عن خطة المعركة الأولى ، وكان

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٤٦ وفى الأصل الإنجليزى « صلواته »

المصريون هنا كذلك البادئين بالهجوم على الأنجليز ، وهى ظاهرة تسجل لهم بالحمد إذ كان عمل المصريين فى كفر الدوار قاصراً على الدفاع ...

وقد وصف بلنت هذه المركة بقوله « إنها كانت أفضل فرصة أتيحت للمصريين لصد تقدم الأنجليز وآخرها ، ولم تكن بعيدة جداً من النجاح » ..

ويقول بلنت « ولو أنها نجحت فليس يعرف ما كانوا لا يحصلون عليه من الاعتراف بهم ومصالحتهم ، وذلك لأن الرأى العام فى إنجلترة كان قد تغير فعلا فى هذا الوقت بالذات وأخذ الناس يشعرون بالخجل من حرب تشن على الفلاحين الذين يحاربون ليخلصوا حريتهم من استبداد قديم »

وكان قد وصل فى الحادى والثلاثين من أغسطس كما ذكرنا إلى مصر نبأ موافقة السلطان على إصدار قراره بعصيان عرابى ونشرت صحف الآستانة هذا النبأ وتناقلته الصحف الأنجليزية والصحف الموالية للخديو ؛ وقد طرب لهذا النبأ توفيق باشا وأعوانه أيما طرب ، وهرول سلطان باشا إلى الأسماعيلية ليعمل على الاتصال ببعض ضباط الجيش المصرى بعد معركة القصاصين الأولى ، ورأى أن الفرصة سانحة ليوهم بعض المستضعفين أن نجاتهم فيما بعد تتوقف على ما يفعلون الآن

قال عرابى فى مذكراته ، « ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعة أرسل وفداً إلى الأسماعيلية مؤلفاً من محمد سلطان باشا وعمر لطفى باشا وفريد باشا وزكى بك ابن أخت يعقوب باشا سامى وعثمان بك رأفت ومعهم مقادير عظيمة من نسخ الجوائب المندرج فيها منشور السلطان بعصياننا ومنشور الخديو القاضى بمساعدة الأنجليز وأنه لا مطمع لهم فى بلادنا ، وقد انضموا إلى زهراب بك المعين مع الجيش الأنجليزى من قبل ليبثوا العيون والجواسيس على جيشنا وليتخابروا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت عقائدهم وضعفت عزائمهم ويوزعوا عليهم تلك المنشورات ... وقد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل فى البلاد الريفية ليدعوا العمد والأعيان لطاعة الأنجليز ومساعدتهم اتباعاً للمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم إليهم فى هذه الجناية السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفية

وأحمد افندى عبد الغفار عمدة تلا وغيرهم من المصريين الذين انخلعت قلوبهم من منشور السلطان المندرج بالجوائب المشار إليها »

أحكم عرابى ورجاله وضع خطتهم للهجوم على الأنجليز وقد ذكر عرابى لصديقه مستر بلنت أن السير شارلز ولسن أحضر لى خطة المعركة حين كنت بسجنى فى القاهرة وسألنى عما إذا كانت من رسم يدى فأجبته : نعم ، فأخبرنى كيف حصلوا عليها ، ثم قال إنها خطة جيدة وربما كنتم بها تنتصرون علينا »

ولكن ما جدوى إحكام الخطة مع الخيانة فى أشنع صورها وقد أحدثت دسائس سلطان أثرها فى بعض صغار النفوس فهووا إلى موضع يتندى وايم الله جبيننا خجلا إذ نذكره ! وأى شىء يخجل منه مصرى يتحدث عن تاريخ وطنه هو أشد وأفظع من أن يقول إن مصرياً من بنى وطنه أرسل وا أسفاه خطة المعركة بحذافيرها إلى العدو بل لقد سرق النسخة الأصلية التى رسمها عرابى بيده فأضاف إلى جريمة الخيانة فضيحة السرقة فكانت خيانة على خيانة ؟ وكان هـذا المصرى الخائن هو على يوسف خنفس الذى وقف بآلايه فى ميسرة خط القتال ؛ وأى فضيحة فى تاريخ الحروب أفظع من هذه الفضيحة الفاضحة ؟

قال عرابى فيما تحدث به إلى بلنت « إن الخطة أفشيت للعدو على يد على يوسف خنفس الذى أرسل الرسم الأصلى الذى رسمته بيدى إلى الجنرال ولـلى ؛ وكان هو وغيره من رجال الجيش قد أفسدهم أبو سلطان الذى كان يعمل لصالح الخديو »

وقال الشيخ محمـد عبده « فى واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغى وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الأنـكليزى ، وما راع القواد المصريين إلا وجود الفرق الأنكليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق فى الساعة واحدة ... وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب الجيش وإلى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا ومراسلة العربان »

وليس فيما يذكره المتحدثون عن فنون القتال من شىء هو أشـد خطراً على جيش محارب من أن تـكون خطته معروفة لعدوه ، ذلك لأنه بنى هذه الخطة على

أساس مباغتة العدو وأخذه من حيث لا يدرى ، فإذا عرف العـدو الخطة انقلب الوضع وفوت على عدوه قصده وكان هو المباغت ، هذا فضلا عما يحدثه انكشاف الخطة فى النفوس من ذعر وقت القتال ...

قاد الجيش المصرى فى المعركة الفريق راشد باشا حسنى ، وقد بدأ الهجوم فى الثلث الأخير من الليل ، والتحم الجيشان والعدو على علم بالهجوم فلم يباغت وإن كان قد فوجىء بابتداء المعركة ، لأن علمه بخطتها ساعد على ثباته حتى ينجلى النهار ؛ وأسفر الصبح والمعركة حامية بين الجيشين ، والمدفعية من الجانبين ترسل قذائفها فى سرعة وقوة ، وتـكافأ الفريقان على الرغم من تفوق الأنجليز فى المدد ..

وتلفت قواد المصريين يتوقعون دخول محمود باشا البارودى الميـدان قادماً بجيشه من الصالحية ليـكر على ميمنة العدو ، ولـكنه تأخر عن موعده فلم يدخل فى غبش الفجر كما كانت تقضى به الخطة ، ولما كان الأنجليز على علم بمقدمه فقد رصدوا له قوة من المدفعيـة حالت بينه وبين الوصول إلى موضـعه من المعركة ، ومما يذكر مع عظيم الأسف أن رجال سعود الطحاوى هم الذين أضلوه عن وجهه فى الصحراء فتأخر وصوله ...

ومتع النهار ونار الحرب مستعرة ، وقد توالى الجزر والمد بين الجيشين ، وأثبت كل من البطلين المصريين على باشا فهمى وراشد باشا حسنى بطولة فذة طول النهار ومن حولهم الجيش المصرى لا يتزحزح ولا يهن ...

ولـكن المعركة قد انقلبت من أولها بسبب الخيانة إلى معركة دفاعية بعد أن كانت خطتها هجومية ؛ قال مستر بلنت : « بناء على أقوال الجانب المصرى عن المعركة قد فوجىء العدو بالهجوم ، وظلت المعركة زمناً طويلا غير معروفة العاقبة ، وأوشك دوق كنوت فى وقت ما أن يقع أسيراً » . ثم أشار بلنت إلى تأخر البارودى وسببه بما لا يخرج عما ذكرناه إلى أن قال : « ومن المؤكد أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان رفقاءه عن قصد » .

وظل القتال على أشده طول النهار ، ولـكن القدر أبى إلا أن يصيب المصريين

بمصيبة لا تقل شأناً عن أسر محمود فهمي باشا كأن لم يكفه ما أحاط بهم من خيانة ، وذلك أن كلا من بطلي المعركة علي فهمي وراشد حسني قد تلقى رصاصة في جسمه أقعدته ، الأول في ساقه والثاني في قدمه ، فخرجا من المعركة ، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين وانقضى اليوم ولم يظفر بالنصر هؤلاء ولا هؤلاء .

قال عرابي في مذكراته « وأما راشد باشا حسني وعلي باشا فهمي ومن معهما من الجيش ، فقد ثبتوا ثبات الأبطال إلى آخر النهار ، حتى إذا جرح راشد باشا حسني في قدمه برصاصة ، وعلي باشا فهمي برصاصة أيضاً في ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التي كانت مقذوفاتها كالمطر الصيب في الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الأنجليز ، إذ كانت قوة الجيشين عظيمة ، وثباتهم نادر المثيل ، تراجع الجيشان بانتظام » .

قال الأستاذ محمد رفعت بك في كتابه تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة : « وقد أبلى المصريون بقيادة الفريق راشد حسني باشا المعروف بأبي شنب فضة في هذه الموقعة بلاء حسناً ، فأوقعوا خسائر جمة بصفوف الأنجليز وزحزحوهم عن مواقفهم ، وكادوا يظفرون بالنصر إلى أن جرح راشد حسني جرحاً بليغاً ، فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقهقرون » .

وإن وقفة المصريين على هذه الصورة الرائعة في معركة القصاصين الثانية على قلة عددهم بالنسبة لعدد الأنجليز ، إذ كان هؤلاء يقربون فيها من ضعفهم ، لتجعلنا نعتقد في غير تردد أنه لولا الخيانة لأحاط المصريون بجيش ولسلي فهزموه في صحرائهم وهم القادرون على شمسها وحرها في شهر سبتمبر ، ولولد في هذا المكان عصر جديد في تاريخ مصر ، ولازدانت ميادين عواصمنا بتماثيل عرابي منقذ مصر ...

***

أرسل البطلان الكبيران علي فهمي وراشد حسني إلى القاهرة مع جرحى المعركة في القطار الخاصة التي أقلتهم ؛ وهكذا خلا الميدان الشرقي من ثلاثة رجال هم من أعظم قواد عرابي خبرة وبسالة .

وأخذ ذلك يحدث أثره فى نفوس المصريين ، فليس بالأمر الهين غياب رجال من المعركة تعقد عليهم الآمال فى النصر ، وليس يخفى ما يكون لشهرة القواد ولأسمائهم من وقع فى نفوس الجند به تشتد عزائمهم وتنتعش آمالهم .

على أن أعظم ما أثر فى النفوس وبث فيها التردد الذى هو مقدمة الهزيمة ، إنما هو ما سعى به سلطان وأعوانه من تخويف الجند والضباط من عاقبة بقائهم على الولاء لعرابى ، وقد جاءوا فى ساعة الفصل يوهمونهم أن النصر للانجليز ، ولن يشفع لأحد بعد ذلك شفيع ، وسبيل الخلاص من العقاب الشديد هو ترك جانب عرابى على الفور قبل أن يحمى العصاة الثائرون على الخديو ، وإن حسابهم فى غد لعسير ...

ومن أكبر ما كفل النجاح لسلطان هو إذاعة قرار الخليفة بعصيان عرابى ، ذلك القرار الذى بذلت إنجلترة ما بذلت من جهد للحصول عليه من عبد الحميد الذى يعد بفعلته هذه شريكا فيما وقع من خيانة ، فقد طعن بهذا القرار عرابياً من وراء ظهره بعد الذى أبداه من عطف عليه وعلى حركته ، ولئن كان بالأمس قد أنعم عليه بالوسام المجيدى الأكبر ، فها هو ذا اليوم يثبت فى ظهره الخنجر ...

ولقد نشط سلطان ومن أخذ إخذه من أعوان الخديو فى نشر أنباء القرار بمجرد أن وافق عبد الحميد على إصداره ، وراحوا يوزعون على الجند والضباط كما بينا أعداداً من الصحف التى نشرت هذا النبأ منذ نهاية أغسطس ، بل لقد أرجفوا به قبل ذلك ، وما زالوا يرجفون حتى أصبح إرجافهم حقيقة ، فلما نشر القرار فى اليوم السادس من سبتمبر ، وأذاعت نصه جريدة الجوائب ، استحضر الأنجليز آلافاً من نسخ هذه الجريدة ، وشمر سلطان وفريقه فوزعوا هذه النسخ على الجيش قبيل معركة التل الكبير ...

ومن السهل أن ندرك مبلغ ما كان لهذا القرار من أثر فى نفوس الجند الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنياً دينياً فى وقت واحد ، فهم جند مصر وجند السلطان خليفة المسلمين الذى يعتدى الأنجليز الكفرة على حقوقه .

وكان نص هذا القرار ما يأتى : « إن الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا ، وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ، ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ، ونال أيضاً من الحضرة السلطانية العفو العام ؛ وإن الشرف الذى ناله أخيراً من الحضرة العلية السلطانية ، إنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم .

وقد تحقق الآن رسمياً أن عرابى باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد برياسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسؤولية عظيمة لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية ...

وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

وأن تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر إلى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة ؛ وإن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية (١)

والواقع أن هذا المنشور كان ضربة شديدة لعرابى ، بل إنا لا نسرف إذا قلنا إنه قد فعل وحده بجيش عرابى مالم تفعله الجنود الإنجليزية مجتمعة ...

قال عرابى « ولما نشر منشور السلطان بعصياننا ومن معنا بجرنال الجوائب إرضاء للانجليز أرسل منه مئات الألوف إلى الهند والأفغان والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الأقصى وجميع بلاد الإسلام بواسطة أبو سلطان باشا ومن معه من المخدوعين كما أسلفنا ... وتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا إننا إذن

(١) من مذكرات عرابى المخطوطة

علی فهمی

عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه إبراهيم باشا ومن مات منا مات عاصياً لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية ؛ فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الإسلامى لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الإسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وأن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور وإنما هو دسيسة إنجليزية تمكنوا من إنفاذها بواسطة الرشوة ؛ ولو فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لأحكام الدين ...

إلا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى آلاى سوارى وعلى بك يوسف ميرالاى ٣ جى بيادة ، ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحناه لهم وأسروا الغدر والخيانة ، والحساب على الله »

* * *

واشتدت حيرة عرابى بعد إصابة على فهمى وراشد حسنى ، من يخلفهما على القيادة ، وكان عبد العال حلمى خير من يصلح لهذا ولكنه كان بدمياط مع الآلاى السودانى للدفاع عن هذا الموضع الهام مخافة أن ينزل الانجليز به فرقا بقصد تطويق التل الكبير ...

واستدعى عرابى على باشا الروبى من مريوط ، فكان حضوره قبل معركة التل الكبير بيوم واحد ، ولذلك لم يستطع أن يدرك حقيقة الحال فى الميدان إدراكا تاماً ، ولم يكن له فى الواقع مثل منزلة على فهمى أو راشد حسنى فى القيادة ولكنه كان من أكبر المخلصين لعرابى ..

لم تكن خطوط الدفاع فى التل الكبير متينة كخطوط كفر الدوار لأنها أنشئت على عجل ، وقد عمل فى إنشائها آلاف الفلاحين بأشراف محمود باشا فهمى قبل أسره ، وكانت عبارة عن خنادق جافة تمتد نحو ستة كيلو مترات من الجنوب

إلى الشمال وتتراوح أعماقها بين متر ومترين واتساعها بين مترين وثلاثة أمتار .

وكان مركز الجيش المصرى على هضبة وراء هذه الخطوط يبلغ ارتفاع قمتها نحو ثلاثين متراً وتنحدر انحداراً بطيئاً نحو الشرق والشمال ، وعلى المنحدر الشرقى للهضبة وراء مركز الجيش أقيمت خيمة عرابى على بعد أربعة آلاف متر من الخطوط الأمامية .

وكان لا يزيد جيش عرابى عن اثنى عشر ألف جندى من الجنود النظامية(١) وكانت بقية الفرق النظامية فى كفر الدوار بقيادة طلبة عصمت وفى دمياط بقيادة عبد العال حلمى ... على أن عرابياً استحضر أورطتين من الآلاى السودانى بدمياط فانضمتا إلى جيش التل الكبير ... وكانت مدفعية هذا الجيش تتألف من نحو سبعين مدفعاً ...

أما جيش ولسلى فكان يتألف من ثلاثة عشر ألف حسب ما جاء فى تقريره الذى أرسله إلى حكومته عن الواقعة وكان معه نحو ستين مدفعاً .

وكان سعيد الطحاوى لا يفتأ يلقى فى روع عرابى أن الأنجليز لم يعدو العدة للزحف بعد ، وكان كلما سأله عرابى عن حركات الجيش الأنجليزى أملت عليه خيانته أن يهون أمرها ويوحى إلى عرابى أن بين الأنجليز وبين الزحف أيام ويقبض ثمن هذا الكلام ، ثم يذهب إلى المعسكر الأنجليزى فيطلع ولسلى على كل ما يهمه معرفته ويبسط يده لذهب الأنجليز ولا ينسى نصيبه كذلك من سلطان ...

وفى اليوم الثانى عشر من سبتمبر أرسل على يوسف من القدمة إلى عرابى يقول إن الأنجليز لن يتحركوا اليوم فركن الجيش إلى الراحة بأمر قواده ..

وإن بعض المؤرخين ليعيبون على عرابى أنه لم يضع فى مقدمة الجيش طلائع ترشده عن حركات العدو ، وإنه يحق للمرء أن يعجب من إنكار الحقائق على

(١) حسب إحصاء بلنت وقد استقاه من عدة روايات مصرية .

هذه الصورة فهل كان هؤلاء يريدون أن ينسبوا الخطأ إلى عرابى ، أم كانوا يريدون أن يخفوا خيانة على يوسف ؟

وفى مساء ذلك اليوم نفسه الثانى عشر من سبتمبر تأهب ولسلى للزحف ، واختار الليل كى يتقى حر النهار وكى يتخذ من الليل ستاراً لخطته القائمة على الباغته التى هيأ نجاحها سعيد الطحاوى وعلى خنفس !

وزحف الجيش فى سكون بعد منتصف الليل بساعتين ، وقد شدد ولسلى التحذير وأمر بألا يرتفع صوت أو توقد نار ، إلا نار المسكر الأنجليزى التى تركوها وراءهم إيهاماً للجيش المصرى بأنهم لا يزالون قائمين فى خطوطهم لا يتحركون .

وكان يرشد الجيش الأنجليزى فى الصحراء ضباط من بحارة الأسطول ممن يمنون الاهتداء بالنجوم ، ولكن علمهم لم يغنهم شيئاً فكان اعتماد ولسلى على نفر من الضباط المصريين الموالين للخديو تقدم ذكرهم ، وعلى فريق من عرب الهنادى اشترى ذممهم الأنجليز بالمال إن كان لهم ثمة من ذمم .

وتقدم جيش ولسلى مطمئنا لايتهيب طلائع الجيش المصرى ، ولكن فيم التهيب وقد كان فى مقدمة الطلائع عبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ثم يليه من ورائه خنفس ؟ وكان عبد الرحمن قد انضم إلى الإنجليز والخديو كما انضم خنفس ، وقبل الرشوة كما قبلها خنفس ، ولم يعرف مقدارما أخذ عبدالرحمن ، أما خنفس فأنه بعد الحرب لم يخجل من أن يشكو لأنه لم ينل سوى الف جنيه ولأنه لم يمنح ماوعد به وهو عشرة آلاف جنيه[١] ، كأنما كان يريد أن يكون نصيبه مثل نصيب سلطان نفسه كبيرهم الذى علمهم الخيانة !

وكان عبد الرحمن يحرس الطريق الآتى إلى الصحراء من الشرق ، فاتجه بفرقته الى الشمال ، وترك الجيش الأنجليزى يمر فى سلام وأمن وليت شعرى كيف تبلغ خيانة هذا الآدمى مبلغها هذا ، وفى أى معارك الدنيا تقع على مثيل لها؟

ومر الجيش الأنجليزى حتى كان على مقربة من موضع خنفس ، فكان هذا أعظم

---

(١) S, H, Blunt P, 421

خيانة من سالفه فأنه لم يكتف بترك الجيش الأنجليزى يمر بل وضع له الفوانيس على المسالك التى يخترقها فى يسر ، وإنا لنحتقر مافعل خنفس أن نعقب عليه بكلمة

وكان المصريون نائمين فى خطوطهم فما راعهم الا أصوات البنادق والمدافع وإلا الرصاص يحصدهم فى صورة وحشية مروعة ، وكان ذلك فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً ...

وكان هجوم الأنجليز على نصف دائرة فأحاطوا بميمنة المصريين وميسرتهم وتقدمت فرقة من المدفعية حتى صارت وراء خطوطهم وفتكت بنادق الأنجليز ومدافعهم بالمصريين فتكا ذريعا ، ولم تكن هذه فى الواقع معركة ولكنها كانت فرصة فى الصحراء لا ندرى كيف يجعلها الأنجليز من مفاخر ولسلى فينعمون عليه من أجلها بلقب اللورد وكان خليقا بهم أن يدركوا أنها من مخازيهم ومخازيه فهذا السطو القائم على الخيانة والغدر أقرب إلى عمل اللصوص منه إلى عمل الجند وإن تبجح العسكريون بأن الحرب تبرر كل شى ...

وفر أكثر الجيش المصرى مذعورين ، ولكن الميدان فى هذه المحنة وفى هذه المباغتة التى تطيش فيها الأحلام لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم من الانهيار ، فأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم والهول محيط بهم والموت يأتيهم من كل مكان ؛ وإن جلال عملهم هذا ليمحوا من النفوس شيئا كثيرا مما تركته فيها خيانة خنفس ومن حذا حذوه من الخزى والألم ، وهؤلاء الأبطال الميامين البواسل هم الشهيد البطل الميرلاى محمد عبيد وأحمد بك فرج وعبد القادر بك عبد الصمد وحسن أفندى رضوان

وقف هؤلاء الأربعة بفرقهم مستبسلين وكان مجموعها لا يزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرهم بسالة وإقداما محمد عبيد بطل الهجوم على قصر النيل يوم أن أخرج عرابياً وصاحبيه من سجنه ، فقد صمد هنا للانجليز برجاله السودانيين وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديداً فنى فيه معظم رجاله فتقدم واستقبل الموت راضياً مرضياً وذهب شهيد وفائه وبطولته

(الشهيد البطل محمد عبيد)

يلى محمد عبيد فى البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الأنجليز ناراً حامية بمدافعه وأوقع بهم على تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحاً فى الميدان ، ولما حمل أسيراً إلى ولسلى وأقبل يقدم له سيفه لم يشأ أن يأخذه منه احتراماً له وأثنى على بسالته ...

واستمرت المعركة بين هؤلاء البواسل وبين الأنجليز نحو أربعين دقيقة ، وكان قتلى المصريين نحو ألفين ، أما الجرحى فلم يحص عددهم لفرارهم ؛ وأما الأنجليز فقد قتل منهم سبعة وخمسون منهم تسعة ضباط وجرح اثنان وأربعمائة منهم سبعة وعشرون من الضباط .

وأما غنائم الأنجليز فكانت مدافع الجيش المصرى ومهماته وذخائره ومؤونته جميعاً ...

وأما عرابى فكان يؤدى صلاة الفجر فانتبه على صوت المدافع وكانت خيمته على نحو ألف متر من المعركة ، وأرسل إليه على الروبى لينتقل إلى موضع آخر حيث أن الأنجليز أوشكوا أن يحيطوا بالجيش ...

وأدى عرابى الصلاة ولبس ملابسه العسكرية وركب جواده واتجه إلى حيث كان يوجد نحو ألفين من الرجال على مقربة من خيمته فدعاهم ليذهبوا معه صوب المعركة ولكن كان أكثرهم من الاحتياطى فولوا الأدبار خائفين ؛ فاتجه صوب المعركة إلى حيث كان يقف محمد عبيد فرأى الفارين قادمين فى ذعر ، وعبثاً حاول أن يحملهم على الوقوف ، وكانوا يلقون أسلحتهم وما منهم إلا من يعدو على ساق نعامة !

واقترب الأنجليز حتى صاروا على نحو ستمائة متر من خيمته وأطلقوا عليها قذيفة اقتلعتها وأطارتها فى الهواء ، وألح على عرابى خادمه محمد سيد أحمد[1] أن ينجو بنفسه إذ لا فائدة بعد ذلك من القتال ولوى عنان فرسه بالقوة وما زال يتوسل إليه حتى أطاعه .

ويذكر چون نينيه فى كتابه أن الذى حمل عرابياً على طلب النجاة هو طبيبه

(١) S, H, B, P. 422

لا خادمه قال « ونجا كل الخونة لأنهم دبروا فرارهم قبل خوض غمار المعركة الصورية المزيفة ليعلنها الأنجليز نصراً مؤزراً ، وهم يعلمون أنها كانت تكون لهم هزيمة منكرة لو لم يلجأوا إلى الخيانة والرشوة ... وكنت بجانب عرابى وبيدى بندقية ، ولما أوشك الأنجليز أن يطبقوا على عرابى رجوته فى الثبات فاستمد للموت والاستشهاد ولكن طبيبه الدكتور مصطفى بك نصح له بالفرار على صهوة جواده »[١] .

وفى قول چون نينيه أبلغ رد على الذين يقولون إن عرابياً ما كاد يعلم نبأ ما حدث فى المعركة حتى ركب جواده ولاذ بالفرار ...

أما بعض من لا تمتلىء قلوبهم سخيمة على عرابى فيقولون إنه كان خيراً له لو أنه استشهد فى معركة التل الكبير ؛ ونحن نميل إلى رأيهم هذا فلو أنه قتل فى المعركة لتخلص من السجن ومن النفى إلى سيلان ومما تقول عليه المبطلون من الفرار والجبن وما إليهما ، كما كان خيراً لنابليون لو أنه قتل فى وترلو ولم يذهب إلى سنت هيلين ...

ولكنا نعجب أشد العجب من جرأة الذين يجترئون على الحق بقولهم إنه فر من خوف ويأس ، فإن من الحقائق الثابتة بالأدلة كما سنبين ذلك فى موضعه أنه عجل بالذهاب إلى القاهرة ليدافع عنها قبل فوات الوقت وقبل أن تؤثر فى نفوس أعضاء المجلس العرفى أنباء الهزيمة .

وأدعى من هذه الجرأة إلى العجب إنكار الذين ينكرون عليه محاولاته الدفاع عن القاهرة ؛ وإن هؤلاء لمن الذين يكتبون التاريخ كما تشاء أهواؤهم لا كما حدثت حوادثه ، وذلك لأنهم يريدون بالكتابة غرضاً فى أنفسهم .

يقول عرابى عن معركة التل الكبير ما يأتى :— « وطلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى فحضر فى عصر يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ — ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه تواً إلى المقدمة

(١) العبارة من تعريب الأستاذ محمد لطفى جمعة .
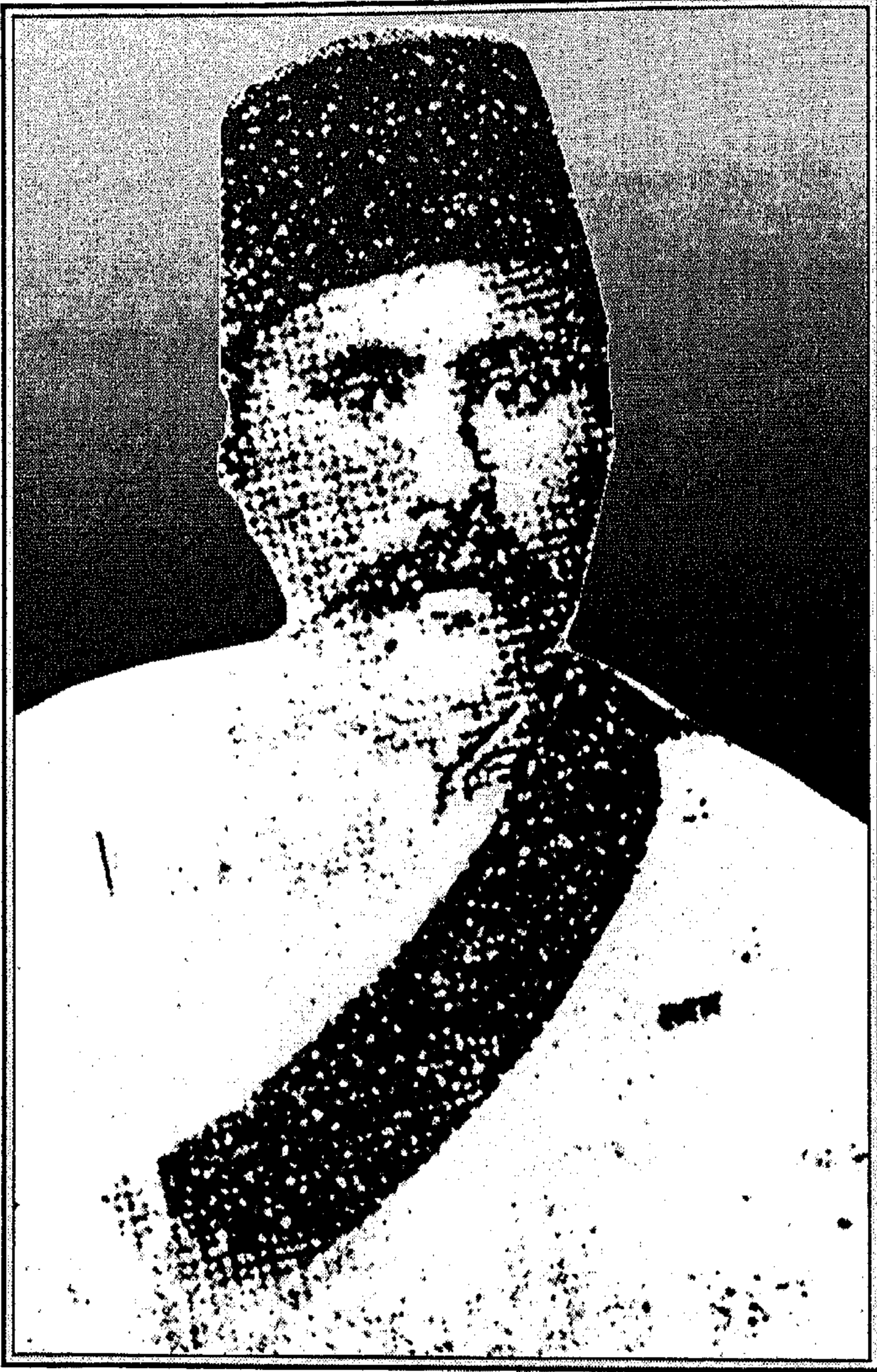
(حسن رضوان)

فأمر بانتقال آلاى على بك يوسف (خنفس) وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الأيسر الذى كان مائلا إلى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى العسكر من هجوم العدو ، ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة إلى الجهة الشرقية ، وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل ، فعمل عبد القادر بك عبد الصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الأيسر ، وأما على بك يوسف فأنه جمع عساكر آلايه فى هيئة القول ، ولم يجر عمل شىء يقيهم مقذوفات العدو إذا هجم على الجيش؛ وتقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى إلى الأمام على بعد ألفى متر ليمنعوا تقدم العدو إذا أراد الهجوم على معسكرنا ولكن وا مصيبتاه خاب الأمل فيهما ؛ وفى يوم الأربعاء ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ — ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت فى صلاة الفجر إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة ، فخرجت ونظرت فوجدت ضرب النار على طول خط الاستحكام ، ورأيت بطارية طوبجية سوارى على مرتفع من الأرض تبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ستمائة متر صبت مقذوفاتها على مركزنا العمومى ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك إلا الأهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد ، وجابر بك من بندر ببا بمديرية بنى سويف وكانوا نحو ألفى نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ، ودهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، ولم يجد ذلك نفعاً بل تفرقوا فراراً ، فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد يخبرنى باتخاذ مركز آخر ؛ ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحماً بالخيل والجمال والعساكر متشتتين ومولين ظهورهم العدو ، فذهبت إلى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر عن الفرار ، وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، وأذكرهم بالشرف الأسلامى والعرض والوطن فما كان من سميع ولا بصير ؛ فالقوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا إلى البر الغربى ، فذهبت إلى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ

مركز آخر لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة ، وكان معى أخى السيد صالح عرابى وخادمى محمد إبراهيم وجاويش بروجى يدعى عطية محمد ، فقط ، وكانت مقذوفات الطوبجية السوارى تتساقط علينا من كل جهة حتى تركنا حدود التل الكبير ، فلما وصلت إلى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى إليها ، فسألته عما دهاهم ، فلم يزد على قوله إنه خذلان ، وكان على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا ، فأرخينا للخيل أعنتها حتى وصلنا إلى محطة أنشاص ، فوجدنا هناك قطاراً فركبناه وذهبنا إلى القاهرة لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم إليها ، وأسباب هذا الخذلان هو أنه فى خلال تلك الأيام كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو إلى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الأنجليزى لم يحضر إلى مصر إلا بأمر من السلطان خدمة للخديو وتأييداً لسلطته ، وكانت توزع تلك الرسائل بواسطة محمد باشا أبى سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه الذين هم مع الأنجليز ، فى الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد عبد الغفار عمدة تلا والسيد الفقى المضون فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، وأثروا على قلوب على بك يوسف قومندان الآلاى الثالث وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدار آلاى السوارى الثانى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية ، واستمر ذلك إلى أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فأشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الأنجليز لا يخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم ، ولذلك لم يفعل ما أمر به على باشا الروبى من عمل خط استحكام من التراب ، وجمع عساكره فى نقطة واحدة فى شكل قول وكانت العساكر الأنجليزية قد سارت من أول الليل وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا إلى الخديو بطرف الأنجليز ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق واستمروا سائرين إلى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل ؛ وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تناوش العدو القتال وتوقف

(الفريق راشد حسنى باشا)

سيره رجعت أمامه كأنها تقوده إلى ان بلغوا محل ألاى على بك يوسف الذى كان خالياً من عساكره فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم ، وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والأمام ، وأوقعوا بالجند على حين كان راقداً ، فدهشت العساكر وتولاها الانذهال حيث رأوا ضرب النار عليهم من خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لأنفسهم إلا آلاى المشاة الأول حكمدارية أحمد بك فرج وآلاى محمد بك عبيد وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد فأنهم ثبتوا فى مراكزهم وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية ، فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح ، وصار الميدان ظلاماً من دخان البارود ، واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة فى تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديد التى بها الذخيرة الحربية وما جاورها من عربات المؤونة من مقذوفات الطوبجية السوارى التى عمدت إلى ضرب المركز العمومى وهكذا تم استيلاء الأنجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره ، وبه كانت نهاية الحرب والخسارة عظيمة بسمو الخديو ومن انحاز إليه من المصريين الذين نشأوا تحت ضغط الاستبداد ، واستمرأوا عيش الاستعباد وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعربان الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو خصوصاً الشيخ أحمد أبو سلطان وإخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية ، فأن الخديو أقطعهم خمسة آلاف فدان في رأس الوادى مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فيه » .

وقال فى حديثه الذى أفضى به إلى صديقه بلنت بعد عودته من المنفى « أديت الصلاة وأمرت بجوادى إلى حيث كان يوجد الاحتياطى ، وناديتهم ليذهبوا معى ، ولكنهم كانوا جماعة من الفلاحين فحسب ، وكانت القذائف تتساقط بينهم فولوا هاربين ؛ فاتجهت وحدى بجوادى إلى الأمام ولم يكن معى إلا خادمى محمد ، فحينما رآنى وحيداً وأدرك أنى ذاهب إلى الموت المحقق أمسك بحصانى وتوسل إلى أن أرجع ؛ ولما رأيت أننا خسرنا المعركة وأن الجميع كانوا يفرون ، رجعت ومعى

محمد وعبرنا الوادى عند التل الكبير وسرنا فى محاذاة ترعة الأسماعيلية حتى بلغنا بلبيس ؛ وهناك كونت معسكراً جديداً ورأيت على الروبى قد سبقنى إلى هناك فاتفقنا على الوقوف فى بلبيس ؛ ولكن ما إن وصل فرسان دروري لوحتى هم الجميع بالفرار ولم يرض أحد أن يقف فتركنا كل شىء وركبنا قطاراً إلى القاهرة »

* * *

من مهازل السياسة حقاً أن تركيا كانت حتى ذلك اليوم ، يوم التل الكبير لا تزال تفاوض إنجلترة فى شروط إرسال جيش عثمانى إلى مصر ، وكان السلطان فى نفس هذا اليوم قد دعا إليه دوفرين فى قصره فمكث عنده احدى عشرة ساعة فى أخذ ورد ...

ولما بلغت أوروبا هزيمة التل الكبير كانت فرنسا أول من أشار على إنجلترة بأنه لم تعد ثمة حاجة إلى ذلك المؤتمر الثنائى الزمع عقده ، وكانت فرنسا لا تميل إلى وجود جند عثمانيين بمصر وذلك جريا وراء ميلها من أول الأمر ...

وأفضى الخديو إلى مالت « أنه إن كان ثمة شىء من شأنه أن يزيد قيمة النصر ، فذلك أنه قد قضى على كل حجة للتوقيع على مؤتمر مع تركيا ؛ وإنه لينظر إلى الماضى والحزن ملء نفسه إذ يفكر فيما كان عسياً أن يحيق بمصر من خطر لو أن السلطان استطاع بجنوده أن يتدخل فى شؤون مصر »(١)

لذلك أبرق جرانفل عصر ذلك اليوم المشؤوم إلى دوفرين يقول « إن حكومة جلالة الملكة ترى وقد قضى الأمر أن صاحب الجلالة السلطان لم يعد يجد هناك حاجة لإرسال جند إلى مصر » . وانقطعت بذلك المفاوضة بين الدولتين وأسدل الستار هنا كذلك على مهزلة من أسخف مهازل السياسة

وبادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى مقابلة جرانفل وهنأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار . ولم تدر فرنسا أن هذا الانتصار هو خيبة كبرى

---

(١) M, Ê, Cromer, P' 248

لسياستها فى مصر، أو لعلها كانت تتبع مثل أسلوب النعامة ؛ ورد جرانفل بقوله « إن واقعة التل الكبير إنما هى انتصار لأوروبا فلو أن الجيش الأنجليزى قد هزم فيها لكان ذلك كارثة على جميع الدول التى يقلقها التعصب الإسلامى »(١)

وهنأ مسيو دوكلرك رئيس وزراء فرنسا السفير الأنجليزى بباريس قائلا : « إن انتصار الأنجليز على العرب فى مصر أمر طيب النتائج لفرنسا فى كل من تونس والجزائر »(٢)

والمسألة كلها من جهة فرنسا مسألة جشع استعمارى لا أقل ولا أكثر ، والحق إن المرء قلما يقع على ما هو أقبح وأرذل من جشع فرنسا فى الاستعمار ، تلك الدولة التى تزعم أنها موطن الحرية وبلد الديموقراطية ، ألا إنها أوهام انخدع بها الشرق زمناً فسهل التهامه ثم أخذ يتعلم المدنية والحرية على أيدى آكليه! عقب روثستين فى كتابه المسألة المصرية على انتصار إنجلترة بقوله « وهكذا صدقت الأحلام . إننا إذا جرينا على رأى أنصار الاحتلال قلنا إن مصر إنما صارت إلى الأنجليز مصادفة واتفاقاً . ولكن الذين يكونون قد قرأوا هذه القصة بشىء من التنبه والالتفات يقولون معنا إن السياسة البريطانية والجمهور البريطانى لم يهملوا قط الانتفاع بكل حادث من شأنه إسلام مصر إلى إنجلترة ، وأنهم كانوا إذا ما أعوزتهم الحوادث خلقوها بالكيد والاحتيال ، وأن إنجلترة فى جميع علاقتها بمصر لم تخفف عنها الوطأة لحظة واحدة ، بل كانت على العكس تجتهد فى شد الوطأة عليها ما استطاعت وفى إحلال نفسها محل فرنسا التى كانت تنافسها وتباريها ، وأنه لم يكن من سبب لجميع عدائها لأسماعيل باشا ثم لعرابى من بعده غير خوفها بحق أن مصر إذا كانت دستورية سهل عليها الأفلات من قبضتها ، وأنها لم يمنعها أن تتغلظ على مصر ويضطرها إلى استعانة الباب العالى

---

(١) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ — ٨٢ وثيقة رقم ٦٤

(٢) الكتاب الأزرق رقم ١٨ وثيقة رقم ١٣٣ .

غير ظنها أن كل محاولة منها لضم مصر توقعها فى حرب مع أوروبا أو على الأقل فى مشاكل لا يستهان بها وأنها عندما رأت أن هذه المخاوف لا أساس لها اغتبطت بتلك المفاجأة اللذيذة . ولا يفوتنا أن نذكر أنها هى نفسها إلى هذا كله كانت عاملا فعالا فى الأمر ، فقد سمت إلى تلك « المفاجأة » عندما برزت إلى حومة الوغى وتحدت بضربها الأسكندرية دون أوروبا كلها »(١)

(١) العبارة من تعريب الأستاذين العبادى وبدران .

أودت الخيانة بعرابى

« الولس كسر عرابى » ... هذه هى الكلمة الجديدة التى حلت فى أفواه المصريين وأسفاه محل الكلمة السالفة « الله ينصرك يا عرابى » ولا يزال الناس فى القرى حتى يومنا هذا كلما استفظع أحد الغش أو الخيانة وأراد أن يعبر عن سوء عواقبهما قال فى جد وألم « الولس كسر عرابى » ...

وها نحن أولاء نرى بعد معركتى القصاصين الثانية والتل الكبير مبلغ ما فى هذه العبارة من صدق .

ولسنا نريد بذلك أن الخيانة وحدها هى التى أدت إلى الهزيمة فقد كان للهزيمة عاملان آخران على قدر كبير من الأهمية ألا وهما إهمال الميدان الشرقى وانضمام الخديو إلى الأنجليز من أول الأمر ، وإنما نريد أن نقول إن العامل الجوهرى فى الهزيمة كان الخيانة ، بمعنى أنه لو لم ينكب بها الجيش لكان من المرجح نجاحه فى رد الغزو عن البلاد ، وبعبارة أخرى لو فرضنا أن المصريين كانوا حصنوا حدودهم الشرقية كما حصنوا خطوط كفر الدوار ، وردموا القناة ، ثم وقعت الخيانة على الصورة الشنيعة التى ذكرناها لانحلت العزائم ووقعت الهزيمة ولو بعد حين .. إذ أنه ليس من الضرورى أن تفعل الخيانة فعلها أثناء القتال فحسب ، فمن الميسور إحداث فتنة داخلية أثناء الحصار تؤدى إلى انهيار الدفاع كله ، وكنا نرى الهرب والخوف وقطع المدد عن الجيش فى الخطوط وما إلى ذلك من عوامل الفشل . وما كان سلطان ومن معه يغفلون عن هذه الناحية التى بدأوا بعض خطواتهم الأثيمة نحوها فعلا ، والتى أغناهم عنها ما حدث فى صفوف الجيش ...

ولقد رأينا مبلغ اهتمام الأنجليز والخديو بهذا السلاح ، فجاءت الخيانة على عدة

صور فقبائل البدو فى الصحراء قد أفسدها بالمروجل وسطان ، وبعض ضباط الجيش أصبحوا فى جانب العدو إلى درجة لم يعرف لها نظير فى تاريخ الحروب والسلطان نفسه يعلن عصيان عرابى فى الساعة الفاصلة ؛ وليت شعرى ماذا كان يصنع بونابرت نفسه لو أنه أحيط بما أحيط به عرابى ؟

وثمة صورة أخرى من صور الخيانة أحاطت بعرابى ، الا وهى حقد بعض رجاله عليه إذ رأوه وقد كان دونهم يغدو رجل الأمة ومناط رجائها ، ولعل ذلك هو ما أحفظ سلطانا عليه وجعله يسمى سميه ضده ...

ولكن خطر هذا الحقد كان فى صفوف الجيش وقد أشار بلنت إلى ذلك فى قوله « ولو أن طبقات الجيش الدنيا قد اتبعت عرابياً فى ولاء وحماسة شديدين ، إلا أنه أثار حقداً ليس بالقليل بين رجال طبقته العليا من الضباط وذلك لأنهم كانوا يعدون أنفسهم كجند أكفأ كثيراً منه »(١)

وذكر بلنت فى موضع آخر فيما أورده فى يومية من يومياته لسنة ١٨٨٤ أن الأمير كاملا(٢) قال له « إن عرابياً قد خانه كل من كانوا حوله ، وقد خانه بعضهم ابتغاء الحصول على الذهب وبعضهم بدافع الحقد ، وقد كان محمود سامى يحقد على عرابى ولذلك أفسد معركة القصاصين الثانية فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ولكنه لم يصل فى الموعد الذى اتفق مع على فهمى عليه »(٣)

ولقد شك بلنت فى يعقوب سامى نفسه رئيس المجلس العرفى وقال عنه إنه تأثر كذلك بمسعى الخديو آخر الأمر ولو أن الخديو نفاه مع من نفوا إلى سيلان « وإن الأوراق لناطقة بالأدلة القوية على حقده على عرابى ، ومن الممكن أنه بعد أن عجز على فهمى بسبب إصابته ، أن يكون قد بذل أقصى ما فى وسعه ليضع عرابياً فى عزلة كى يعجل انهياره فى التل الكبير ، فإنه بدل أن تعطى القيادة لعبد العال

---

(١) S. H. B. P 431

(٢) الأمير كامل باشا فاضل ابن الأمير مصطفى فاضل

(٣) S. H. B. P. 452

أعطيت لرجل موال ولكنه غير كفء لها وذلك هو على باشا الروبى »[1]

ومن السهل على المرء أن يرى الهزيمة ماثلة فى جيش هذا حاله ، وأن يدرك استحالة النصر على قائد يحيط به مثل هذه المهلكات التى تكفى واحدة منها للقضاء عليه ...

نقول من السهل أن يدرك المرء ذلك حتى ولو لم يعلم بما حدث من خيانة سافرة فاجرة أثناء القتال ؛ وحسب المرء أن يذكر من هذا إرسال الخطة إلى العدو فى معركة القصاصين الثانية على يد على يوسف خنفس ؛ وقد زاد الأمير كامل على ذلك فيما تحدث به إلى بلنت فى ذلك الذى أثبته فى تلك اليومية المشار إليها « أنه حدث أثناء هذه المعركة أن كان نحو ثمانية عشر ألفاً من المصريين على مقربة من نحو ألفين وخمسمائة من الأنجليز فيهم دوق كنوت ، ولو أن على يوسف الذى كان يقود القلب تقدم لسحق الأنجليز ولأسر الدوق ، ولكنه تأخر برجاله وترك العدو يحيط بالجناحين »

ولقد رأينا كيف كانت خطة هذه المعركة محكمة الوضع ورأينا كيف أثنى عليها أحد قواد الأنجليز أنفسهم قائلا إنه كان يمكن بها أن يتحقق للمصريين النصر ...

ولولا خيانة على يوسف وتأخر البارودى بسبب خيانة الطحاوى لكان من أقرب الظنون إلى اليقين أن يولد فى القصاصين عصر جديد فى تاريخ مصر

قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية » عن الجنرال ولسلى « لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاية العالية فى فى القيادة ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية ، بل كل ما عرف عنه أنه اشترك من قبل فى حرب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الأنجليزية ، وكان لم يزل برتبة قائمقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر

(١) المرجع نفسه ص ٤١٩

سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه ألقاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد (فيكونت) والى أف كايرو ، ورتبة جنرال وغير ذلك من علامات التقدير ؛ على أنه تولى فيما بعد سنة ١٨٨٢ قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ؛ فانتهت بأخفاقها ومقتل غوردن باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الأنجليزى فى حرب البوير بالترنسفال فباء بالهزيمة والخسران ، وعدته حكومته مسؤولا عن النكبة التى حلت بالجيش الأنجليزى ، فأنحته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس ؛ من هذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الأنجليزى وذات الجيش الأنجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها ، لولا الانقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها »

والواقع أن ما يخرج به المرء من أنباء معركة القصاصين الثانية ، هو شعوره بأن المصريين لم يكن بينهم وبين الظفر بالأنجليز إلا خطوة فكيف لو لم تقع الخيانة ؟

أما فى التل الكبير فكان مثل المصريين كمثل قوم ناموا فى دارهم ووضعوا على بابهم حارساً يوقظهم إن قرب منها عدو ، ولكن الحارس سار مع العدو جنباً إلى جنب حتى وقف به على رؤوس النائمين وقال له اضرب من تشاء فى غير خوف ...

لقد أحيط بجيش نابليون فى وترلو ولم يكن ذلك على حين غفلة كما أحيط بجيش عرابى فى التل الكبير ، ففر الفرنسيون البواسل ، وطلب نابليون الموت ففاته حتى الموت ففر نابغة الحروب ونادرة العصور مع الفارين عسى أن يملك الدفاع عن باريس . . . . وكذلك الحال فى كل جيش يحاط به فإما الفرار أو التسليم أو الموت ...

ولعل معركة التل الكبير التى كانت فى الحقيقة مذبحة هى أروع مثل فى تاريخ الحروب للخيانة كيف تودى بجيش من الجيوش ؛ وماذا بعد أن يؤخذ القوم وهم نائمون ؟

الخيانة كما رمزت إليها صحيفة فرنسية فى ذلك الوقت

هكذا كسبت انجلترة المركة بالذهب ، وليته كان ذهباً خالصاً ، فقد كان رصاصاً يغطيه الذهب كما ذكر الأمير كامل للمستر بلنت ؛ وقد ظهر فى القاهرة بعد الحرب فأسرعت الحكومة إلى شرائه من السوق وكان الجنيه يباع بخمسة فرنكات أو عشر وقد كسر الأمير بعض هذه القطع ورأى ما فيها من رصاص فكأنما تأبى انجلترة إلا أن تخون حتى فى أداة الخيانة !

تبقى بعد ذلك مسألة يوردها خصوم عرابى ساخرين منه بها جاعلين منها سبباً من أكبر أسباب هزيمته وذلك لكى يقللوا من شأن الخيانة أو لكى يصرفو عنها الأنظار ويحصروها فيما زعموه من أخطاء عرابى ألا وهى أنه سهر طول ليلة المعركة فى حلقه ذكر مع جيشه وفى قراءة الأدعية مع رجال الطرق الصوفية ، فلم ينم العساكر وبذلك لم يستطيعوا الحرب فى الصباح

ولسنا ندرى أبلغ الاستخفاف بعقول الناس هذا الحد فجعل هؤلاء الخراصين ينتظرون أن يجوز كلامهم هذا على الناس ، أم أنهم كانوا هم البلهاء فصدقوا ما يذيعونه فى الناس ..

وبعد فليتهم صدقوا ! وليت العساكر قد قاموا الليل يذكرون الله إذن لما استطاع العدو أن يدهمهم وهم نيام ؛ وكيف يجتمع مثل هذا العدد فى حلقه ذكر مع قائد الجيش وقد كان بين خيمته وبين خطوط الدفاع الأولى نحو أربعة آلاف متر؟

وإذا صح أن عرابياً قد استدعى عدداً من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين قدموا عليه ، فأرسلهم إلى الفرق فى مراكزها يستحثونهم ويستنهضونهم ويثيرون حماستهم فى الله والوطن وهذا ما نعتقد أنه هو ما حدث ، فما عيب هذا؟ وأى عيب فى أن يقرأ عرابى القرآن فى خيمته ويدعوا الله مع نفر من رجال الدين؟ هل جعل ذلك كل عدته للجهاد فدعا الله أن يمده بالملائكة مسومين ليضربوا له العدو ثم نام ؟ ألا خسأ الخراصون الأفاكون ...

وأى فرق فى جوهر الأمرين بين أن ينشد رجال الدين بين الفرق أناشيدهم الدينية يقصدون استنهاض هممهم وإثارة حماستهم ، وبين الأناشيد التى يهتف بها الجند

فى كافة الجيوش الحديثة؟ وما الغرض من الموسيقى الحربية والخطب والنشرات؟
أليست كلها وسائل تبعث الروح المنوية فى الجند وتهز عواطفهم النبيلة للفداء
والنضال؟ وإذا لجأ عرابى إلى الوسائل التى كانت تتفق مع البيئة ومع العصر الذى
كان يعيش فيه وهى لا تخرج فى جوهرها وفى الغرض منها عن وسائل الجيوش
الحديثة فكيف يعد ذلك مما يسخر به منه ولا يعد مما يسجل له الالتفات إلى كل
معنى يراد به بث الحمية فى قلوب الجند؟

إن مرد المسألة كما قلنا إلى الرغبة فى صرف الأنظار عن الخيانة وإلى الرغبة
فى قلب محاسن عرابى كلها مساوىء بطريقة مدبرة محكمة جاز أكثر مفترياتها
زمناً على البسطاء

ومن أحسن ما يذكر فى هذا الصدد أن هذه الحملة الأنجليزية بالذات قد
أقيمت لها الصلوات عند خروجها من إنجلترة وباركها كبير الأساقفة مع عدد من
رجال الدين، وقد أورد ذلك هربرت سبنسر فى كتابة «أصول علم الاجتماع» أثناء
كلامه على الدين وأثره فى حياة المجتمعات؛ ومن أجمل ما علق به على ذلك قوله
إن «هذه الحملة كانت موجهة إلى قوم يحاربون فى سبيل الحرية والاستقلال»

ألا إنها الخيانة الفاجرة السافرة هى التى أودت بعرابى، وكانت كفيلة بأن
تودى بأى قائد غيره فى مكانه، وفى التاريخ شواهد كثيرة. على أثر الخيانة فى
انهيار الجيوش واملنا لم ننس الأمس القريب حين كان الجنرال ويفل فى صحرائنا
الغربية يجمع بقلته المتهيبة جموع الطليان جمعا فيأسرهم بلا قتال لأنهم كانوا
فريقين: أحدهما فى صف الملك والثانى فى صف الزعيم، كما كان المصريون فريقين
أحدهما فى صف الخديو والثانى فى صف عرابى

والخيانة مسألة تكمن فى النفوس، ولن يستطيع أن يعرف الخونة ليردهم عن
وجهتهم الآثمة قائد، وما لم يكن لهم وازع من ضمائرهم فان خطرهم فى الساعة الفاصلة
شديد، وعلى ذلك فلن يلام عرابى على وجود الخيانة فى جيشه وقد رأينا كيف
تمكن اثنان أو ثلاثة من هؤلاء المنافقين من القضاء على ذلك الجيش وهم يظهرون
له الولاء والفداء، وماحيلته أوحيلة غيره فى نفوس تشترى بالمال كما يشترى الرقيق؟

بعد وترلو

ما أشبه حال عرابى بعد التل الكبير بحال نابليون بعد وترلو ، كلاهما هرول إلى عاصمة بلاده بعد أن حلت الهزيمة بجيشه على غير انتظار ، وكلاهما دعا قومه إلى مواصلة الجهاد ولكنهم خذلوه ، وخلعوا طاعته فى غير خوف وقد زال عنه سلطانه بزوال النصر أو على الأصح بحلول الهزيمة ، وهما موقفان تتمثل فى كل منهما مأساة من مآسى التاريخ سوف تبقيان فى فرنسا وفى مصر بقاء الزمن ...

مضى عرابى إلى القاهرة فبلغها قبل الظهر وبصحبته على الروبى وقصد من فوره إلى قصر النيل ، وكان المجلس العرفى منعقداً منذ الصباح ينتظر أنباء من التل الكبير ، ولكنه لم يتلق شيئاً فساور الأعضاء كثير من القلق ، وكان يعقوب باشا قد تلقى وهو فى مكتب التلغراف كثيراً من الأنباء ولكنه لم يفض بشىء منها إلى أحد حتى فاجأ الحاضرين بقوله إن عرابياً باشا قادم بعد حين إلى القاهرة ، فوجمت الوجوه وعرف الأعضاء ما حدث وإن لم يزد يعقوب باشا شيئاً على هذه الكلمة .

وبلغ عرابى مقر المجلس العرفى فتلقاه الأعضاء واجمين ، وكان الأسف الشديد بادياً على محياه ، ولبث لحظة لا يدرى ماذا يقول ؛ ثم أظهر المجلس على كل شىء وشكا كثيراً من الخيانة ومن تفرق كلمة الجند وفرارهم لا يلوون على شىء وهو يدعوهم فلا يستجيبون له ...

وانضم إلى المجلس العرفى بعض الأمراء والكبراء ، وتشاوروا فيما يعملون : أيسلمون القاهرة للانجليز أم يدافعون عنها ؟ ...

وكان عرابى يستحثهم على الدفاع ذاكراً لهم أنه من الوجهة الحربية لم يزل الأمل قوياً فهناك حامية القاهرة فى القلعة بمدفعيتها وهناك حامية دمياط بقيادة عبد العال وفى إمكانها التحرك أثناء الدفاع عن القاهرة لرفع الحصار عنها وكذلك

هناك حاميـة كفر الدوار وفى استطاعة طلبة أن يرسل المدد المطلوب فبالثبات والصبر يمكن معالجة الأمر ، فليس طريق الأنجليز سهلا كما ظن البعض .

ونهض الأمير ابراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو وأهاب بالحاضرين أن يثبتوا وأن يقاوموا وقال « إن مصر غاصـة بالجند والمخازن ملأى بالمؤن والذخائر ، والأسلحة ومعدات الدفاع متوفرة فالواجب علينا إذن الدفاع ما دام فينا بقيـة فأجاب الجميع بالاستحسان » [(١)]

وأخذ شبح اليأس يبتعد عن عرابى ونهض من فوره ليعـد العدة للدفاع ، وكان قد ترك فى بلبيس عـدداً من التلغرافات فى مكتب التلغراف يستنهض بها البلاد لترسل المدد لمقاومة زحف الأنجليز ؛ ومضى عرابى إلى العباسية ومعه بعض الفنيين لأنشاء خط استحكامات هناك للدفاع عن القاهرة ...

وفى هـذا الذى فعله عرابى ما يثبت الـكذب الوضيع على الذين عابوا عليه فراره من التل الـكبير قائلين إنه فعل ذلك لينجو بنفسه لا ليستأنف الجهاد الذى كان ممكناً لو أنه أراده ؛ ومما يملأ النفس أسى وألمـاً أن يعمد هؤلاء إلى إنـكار الحقائق وهم يعلمونها ؛ وأمرهم فى ذلك عجب ، فأننا نفهم أن يخطىء المرء فهم حقيقة أو أن يؤولها بدافع الغرض والهوى تأويلا يساير هواه ، ولـكننا لا نفهم كيف يعمد إنسان إلى قلب الوضع قلباً تاماً فيقول فى موقف كهذا شهدت به أكثر المصادر إن عرابياً هرب لا ليقاوم ولا ليدافع عن القاهرة ولـكن لينجو بنفسه فحسب ! ...

ولم يكن الاستيلاء على القاهرة بالأمر الهين لو وجـدت من يدافع عنها ؛ قال المسيو بيوفيس » ولم يكن الجنرال درورى لويسير فى زحفـه فى طريق آمنة إذ لم يكن معه سوى عدة مئين من الجند ، وكان أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية قوية كبيرة العدد ترابط فى العباسـية والقلعة وفى المعاقل التى بنيت أخيراً فوق جبل المقطم ، وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التى سببت المتاعب والخسائر

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ١٨٧ ج ٢ .

الكبيرة لنابليون وكليبر خلال الحملة الفرنسية ، ولكن جبن الرؤساء العرابيين قد أخرجه من المأزق » [١] ...

قال عرابى « ثم استقر الرأى على إنشاء خط دفاعى فى ضواحى المحروسة ، وبناء على ذلك ذهبت إلى العباسية ومعى محمود باشا الرعشلى باشمهندس الاستحكامات ومحمود باشا رضا لواء الخيالة وحسن باشا مظهر لواء مأمور تشهيل إرسال الذخائر الحربية إلى مركز الجيش ، وتقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس يستند يمينه على الجبل ويمتد شمالا إلى ترعة الاسماعيلية ، ثم ينعطف غرباً على الترعة المذكورة إلى النيل عند فم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا ... ثم ذهبنا جميعاً إلى مركز الطوبجية وأردنا استعراض العساكر الموجودة هناك فلم نجد إلا نحو ألف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو أربعين نفراً من السوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الأميرالاى أحمد بك نير ، فقال الأميرالاى المذكور إنه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم » ...

أين الجند وأين الضباط ؟ .. هنا أدرك عرابى مرة ثانية ما فعلته الخيانة وما فعله قرار السلطان بأعلان عصيانه فقد انحلت العزائم وهرب الرجال وأصبح هم كل امرىء الدفاع عن نفسه ؛ وعاد اليأس فأحاط بعرابى من كل ناحية ووقف وحده لا يجد من يمد يد المعونة إليه والأنجليز زاحفون على القاهرة فى غير إبطاء ، واندفع عرابياً يقص علينا نبأ هذه المحنة قال « فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حصل فى الأسكندرية ما دامت المقاومة لا تجدى نفعاً ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية السيئة الحظ ، فرجعنا إلى المجلس الآنف الذكر وأخبرناه بما عن لنا ، ثم قلنا حيث أن الأنجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه إليهم ففى إمكانه توقيف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ويصنع بنا بعد ذلك ما هو أهله ...

فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة باسمنا إلى الخديو نعترف

---

(١) الرافعى ص ٤٦٠ عن بيوفيس — الفرنسيون والأنجليز فى مصر ص ٢٩١ .

فيها بإيقاف الحرب ونلتمس منه الوساطة لدى الأنجليز بعدم دخولهم القاهرة حفظاً لها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع ، فحرروا العريضة وأرسلوها إليه بعد أن ذيلتها بإمضائى ، مع بطرس باشا غالى ورؤوف باشا وعلى باشا الروبى ويعقوب باشا سامى رئيس المجلس العسكرى فى قطار خاص ، وكان ذلك فى يوم الخميس الموافق غرة القعدة سنة ١٢٩٩ و١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فلم يجدهم ذلك نفعاً فإن مساعيهم أخفقت وآمالهم خابت بأن أبى الخديو قبول العريضة وإجابة الالتماس وأمر بإلقاء يعقوب باشا سامى وعلى باشا الروبى فى السجن فسجنا فى الأسكندرية » ...

ودخل الأنجليز بلبيس والزقازيق فى نفس اليوم الذى وقعت فيه معركة التل الكبير ، وفى اليوم التالى الخميس الرابع عشر من سبتمبر بلغ الجنود الأنجليز العباسية فى نحو الساعة الرابعة مساء ... وتلقى عرابى نبأ ذلك فى الساعة السادسة وكان فى بيت على باشا فهمى ولم يكن على باشا قد برىء من جرحه بعد ، فأرسل عرابى إلى قائد ثكنات العباسية يأمره بالتسليم ...

ونصح چون نينيه وكان فى بيت على باشا فهمى ، لعرابى ولطلبة عصمت وكان هذا قد جاء إلى القاهرة ، ولمحمود سامى بتسليم أنفسهم أسرى حرب للجيش البريطانى خوفاً عليهم مما يحل بهم على يد توفيق ، واستصوب رأيه عرابى وطلبة ورفضه البارودى قائلا « إنى ذاهب إلى منزلى فإن أرادونى فإنهم يعرفون أين يجدوننى »

وذهب عرابى إلى بيته فلبس رداءه العسكرى وتقلد سيفه وتأهب ومعه طلبة للتسليم قال يصف ذلك « وفى عصر يوم الجمعة الموافق ٢ القعدة سنة ١٢٩٩ ، ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من الجنرال لو خيالة الأنجليز بالعباسية إلى إبراهيم بك فوزى مأمور ضبطية القاهرة بأنه يريد مقابلتى بالعباسية ومقابلة طلبة عصمت باشا ... فتوجهنا إلى العباسية واجتمعنا بالجنرال المذكور فابتدرنا بقوله هل تقبلون أن تكونوا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ فقلنا له نعم نريد ذلك حقناً للدماء فلو أن عندنا من القوى الحربية ما يمكننا بها إطالة زمن القتال والمدافعة عن البلاد لما

قبلنا ذلك ولكنا قاتلنا حتى يقضى الله بيننا ، ولكن حيث علم لنا أن الأنجليز لا مطمع لهم فى الاستيلاء على بلادنا وما كان مجيئهم إلى مصر إلا ليؤيدوا السلطة الخديوية ويسلموا البلاد إلى الخديو ثم يعودوا إلى بلادهم فنحن كففنا عن القتال ورضينا بأن نسلم سيوفنا إلى قائد الجيش الأنجليزى واثقين بعدالة الأمة الأنجليزية أن تعاملنا كأسرى حرب ؛ وسلمنا سيوفنا وقضينا تلك الليلة داخل غرفة من غرف قشلاق الطوبجية لا فراش فيها ولا غطاء وكان الجنرال فى غرفة أخرى مثلها .

وفى عصر يوم السبت قمنا من العباسية بكوكبة من خيالة الهنود وضابط إنجليزى إلى قشلاق عابدين فوجدناه محتلا بآلاى حرس ملكة الأنجليز حكمدارية الميرالاى تين من بيت شريف فى أحرار الأنجليز ، فقابلنا الميرالاى المذكور وقال لنا أنتما أسيرا حرب عند جلالة ملكة الأنجليز فلا بأس عليكما ... وأقمنا فى غرفة مقابلة للغرفة التى هو فيها وكان أميراً كريم السجايا يأتى إلينا كل يوم ويعزينا على ما أصابنا ويعترف بظلم الأنجليز لنا وأن الاستبداد لا يزال كامناً فى قلوب الأنجليز أكثر من كل الأمم ... وبعد ذلك وصلت جيوش الأنجليز إلى القاهرة أفواجاً أفواجاً ، وكانت نساء رجال حكام المصريين المستبدين يحيين عساكر الأنجليز عند مرورهم فى الشوارع بلباسهم الأحمر واسلحتهم السوداء على عواتقهم ، بالزغاريد تقرباً إليهم وشكراً لهم على إطفاء شعلة الحرية المصرية » ...

وعصف الغضب برؤوس بعض المدنيين من سكان القاهرة وثارت النخوة فى نفوسهم ولم تكن الرشوة قد فعلت بهم ما فعلته بالجيش فتجمعوا من باب الشعرية والحسينية وتهيأوا للثورة ، وكادت القاهرة ترى ما رأته أيام نابليون وكليبر ولكن محافظ المدينة بذل أقصى جهده للقضاء على الفتنة فى مهدها مبيناً للثائرين أن عملهم لا يجدى نفعاً وليس وراءه إلا سفك الدماء ...

وفى نفس هذا اليوم الجمعة ١٥ سبتمبر دخل الجنرال ولسلى القاهرة وكان يصحبه سلطان باشا نائباً عن الخديو ؛ ونزل ولسلى فى سراى عابدين وقد أعدت له بأمر الخديو .

وكان الأنجليز قد استولوا على القلعة من طريق الجبل فى اليوم الذى بلغوا فيه القاهرة وقد سلمهم مفاتيحها مغتبطاً على خنفس منتظراً ما وُعد به من الذهب قبل معركة التل الكبير ، ولكن الأنجليز أداروا له ظهورهم فلم تمد بهم حاجة إليه واحتل الأنجليز قصر النيل كما احتلوا القلعة والعباسية وهكذا أخذوا القاهرة من أطرافها ، وصح حلمهم الذى ساورهم منذ عهد محمد على ...

وبعد فهذه قصة تسليم عرابى ، لا نرى فيها شيئاً مما افتراه المفترون من مذلة وهوان ، فالقانون العسكرى يقضى بأن يسلم القائد المغلوب سيفه ، ولقد سلم عرابى سيفه للجنرال لو قائلا إنه يفعل ذلك على رغمه فلو أنه استطاع مواصلة القتال ما سلم وماذا كان فى وسع عرابى غير هذا ، ولم يكن أمامه إلا الفرار والهرب إلى بلد آخر أو التسليم للجيش المنتصر ، ولو أنه هرب ثم قبض عليه وجيء به إلى مصر أو لم يقبض عليه وظل طريداً شريداً أكان ذلك يعجب خصومه ؟

لست أفهم ماذا كان هؤلاء يريدون؟هل سلم سيفه والجيش من حوله يستطيع المقاومة والدفاع أم أنه فعل ذلك حين هرب الرجال فلم يجد حوله إلا أربعين رجلا فى خطوط الاستحكامات ؟

غلب نابليون على أمره بعد أن وضع إحدى رجليه فى مدريد والأخرى فى موسكو ، فكتب إلى الأمير الوصى على عرش إنجلترة يقول : « يا صاحب السمو الملكى : رأيت أن أختم حياتى السياسية إذ رأيتنى معرضاً للخلاف الذى يفرق بنى وطنى شيعاً ، وللعداء الذى تناصبنى إياه دول أوروبا الكبرى فجئت كثموستكليز لألقى بنفسى فى جوار الشعب الأنجليزى ؛ وإنى أضع نفسى فى حماية قوانينه وأرجو من سموكم الملكى أن تمنحونى هذه الحماية حيث أنكم أقوى أعدائى وأطولهم مصابرة وأعظمهم كرماً »[1] .

وصعد نابليون إلى ظهر إحدى السفن التى كانت تراقب الشاطىء فحيا ضابط هذه السفينة برفع قبعته الأمر الذى لم يكن يفعله كثيراً من قبل تلقاء الملوك

(١) إميل لدوج : نابليون . ص ٥٣٧ .

والقياصرة ؛ فهل يعاب على نابليون ويتهم بالجبن والمذلة من أجل كتابه هذا ومن أجل تسليمه نفسه على هذه الصورة ؟

ولكن الذين كتبوا سيرة عرابى عقب الاحتلال من أعدائه لم يدعوا ناحية من هذه السيرة إلا شوهوها لكى تُثبِّتَ فى أذهان الجيل القادم الصورة التى وضعها الاحتلال لعرابى فجعله رجلا جاهلا طائشاً لم يحارب من أجل مبدأ من المبادىء وإنما كانت تحركه أطماعه الشخصية ، وما زال يخبط فى حماقته وجهله حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يسلم سيفه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الانجليزى .

وأما أن يكون عرابى ضحية مبادىء سامية حارب فى سبيلها حتى لم يبق فى قوسه منزع ، وأما أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية والدستور وأول زعيم وطنى وضع جهاد وطنه على أساس قوى فافتتح بذلك فصلا جديداً فى تاريخ هذا الوطن ، فذلك ما لا يطيق أن يسمعه الاحتلال أو يسمح حتى أن يُهمس به .

توفيق يدخل العاصمة

انتظر توفيق بضعة أيام ريثما تسلم بقية المعاقل كي يدخل القاهرة دخول الظافر ، ولسوف يدخلها في حماية الأنجليز كما دخل البربوني لويس الثامن عشر باريس في حماية الحلفاء بعد هزيمة نابليون مما جعل الفرنسيين يقولون إن جلالتـه جاء بين الحقائب في عربة البضاعة .

توقفت حاميات أبو قير وصربوط ورشيد بعض الوقت عن التسليم ، ولعل ذلك لأنهم لم يصدقوا نبأ الهزيمة ، وتوقف عبد العال باشا عن تسليم دمياط مدة أسبوع ثم لم يجد بداً من التسليم فسلم وقبض عليه وأرسل إلى القاهرة ؛ أما معاقل كفر الدوار فقد تركها الضباط والجند منذ أن رحل طلبة باشا إلى العاصمة واستولى الأنجليز عليها ونسفوا ما فيها من الحصون ...

وفي اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر أي بعد اثني عشر يوماً من معركة التل الكبير سافر الخديو بقطاره الخاص من الأسكندرية إلى القاهرة وفي معيته كبير وزرائه شريف باشا والوزراء إلا رياضاً الذي كان في القاهرة يعد العدة لاستقباله ...

زينت العاصمة بالأعلام على جانبي الشوارع وفي الشرفات والمنافذ ، ولكن الناس كانت ترتد أبصارهم خاسئة إذ يرون بين الرايات المصرية هنا وهناك راية جديدة هي راية الجيش المحتل .

ولم ير المصريون وا أسفاه على جانبي الشوارع أولئك الجنود المصريين والسودانيين الذين ألفوا رؤيتهم في مثل هذه المناسبة فقد ألغى الخديو الجيش المصري بجرة قلم ، وإنما رأوا نمطاً عجيباً من الجند حمر الوجوه طوال الأجسام يضعون فوق رؤسهم القبعات ويبعث منظرهم في قلوب المصريين الرهبة ، ويشعر

المصريون حيالهم بالاشمئزاز والكره الشديدين ولكنه شعور خفي مكبوت لايجرؤ أن يظهره أحد .

وقد بلغ عدد هؤلاء الحمر المقبعين نحو خمسة آلاف اصطفوا من المحطة إلى سراى الأسماعيلية ، ليمر من بين صفيهم الطويلين خديو مصر القادم إلى مقرحكمه .

وبلغ القطار القاهرة فى منتصف الساعة العاشرة صباحاً ، ونزل توفيق فتقدم لتحيته الأمراء ثم ولسلى قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملكة فكتوريا وإدوارد مالت المعتمد البريطانى ... ثم محمد سلطان باشا ورياض باشا وكبراء المصريين من العلماء ورجال الدولة والأعيان .

وتقدم الشيخ عبدالهادى نجا الأبيارى بين يدى الخديو ودعا له بالتأييد والنصر وكان يردد الحاضرون دعاءه .

وكانت المحطة مفروشة بالبسط مزينة بالرايات والرياحين ، وقد حشد فيها رياض ما أمكنه حشده من أعيان البلاد وهتف رياض باشا عند مرور الخديو من بينهم « يعيش الجناب العالى مؤيداً بالنصر والأجلال » وردد الحاضرون هتافه ويعلم الله كم كان فيهم من انبعث هتافه من قلبه وكم كان فيهم من أيقن مع ما كان يرى حوله أن هذا نصر وأن هذا إجلال .

وكانت مدافع المحطة ترسل طلقاتها مدوية احتفاء بالخديو الظافر ، وكانت تجاوبها مدافع القلعة ، كما كانت الوسيقى تصدح بالسلام الخديو .

وجلس عن يسار الخديو فى مركبته دون كنوت وجلس أمامه ولسلى ومالت وأحاطت بهذه المركبة كوكبة من الفرسان الأنجليز ، ومن ورائهم مركبات الأمراء والوزراء ورجال الدولة .

ونظر أهل القاهرة ساخطين إلى فاتحة عهد الاحتلال ، ولسوف يبقى هذا السخط كامناً فى نفوسهم الجريحة حتى يأذن الله ببعث من يثور على الاحتلال ...

وظن توفيق أنه استعاد سلطانه ولكنه لن يلبث حتى يجد نفسه مجرداً من كل سلطان ، وحسب أن له السيادة اليوم ولكنه لن يلبث حتى يرى أن هذه

السيادة تتمثل فى مظاهر كاذبة ... فى حرس يحيط به وفى موسيقى تصدح أمام قصوره وفى ألقاب التمجيد تضاف إلى اسمه ؛ أما فيما عدا ذلك فالسيادة للانجليز ؛ ولقد بدأ كبار المصريين يولون وجوههم قبل من أصبح لهم السلطان الحق فى البلاد ...

ففى الثامن والعشرين من سبتمبر ذهب سلطان إلى رياض ومعه وفد من عمد البلاد وأعيانها ، فأبلغ الوزير أن هؤلاء الأعيان يريدون تقديم هدايا من السلاح الفاخر إلى سيمور وولسلى ولو شكراً لهم «على إنقاذ البلاد من غوائل الفتنة الماضية»

وأعدت الهدايا بعد سفر هؤلاء الثلاثة وأرسلت إليهم فى إنجلترة ، إلى سيمور مخرب الاسكندرية وولسلى بطل مذبحة التل الكبير ولو أول من دخل القاهرة من الأنجليز وآسر عرابى ...

وأرسل هؤلاء كتب الشكر لسلطان باشا ومن انضم إليه من الأممات وطلائع أعوان الاحتلال . قال عرابى فى مذكراته « وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفد على نظارة الداخلية محمد سلطان باشا وأحمد بك السيوفى وغيرهما من المخدوعين ، وأبلغوا رياض باشا بأنهم على عزم أن يقدموا نوعاً من الأسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر الثمينة هدية منهم للأدميرال سيمور قائد الدونانمة الأنكليزية وللجنرال ولسلى قائد الجيش الأنجليزى وللجنرال لو الذى كان أول قادم إلى القاهرة بعد سقوط التل الكبير فاستحسن رياض باشا منهم تلك الأريحية ورخص لهم فى تقديم الأسلحة الفاخرة المذكورة للقواد المومأ إليهم ؛ وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن يؤلفوا لجاناً من كل جهة ينشئون فيها اكتتاباً لجمع نقود كافية لانفاذ هذا القصد ولكنهم فشلوا فى ذلك واكتفوا بشراء الهدية من مالهم الخاص فأعطوا الجنرال ولسلى سيفاً مجوهراً وكذلك الجنرال لو سيفاً وأما الأميرال سيمور فأهدوه طبنجة مجوهرة بالماس مكافأة لهم على احتقارهم للأمة المصرية وإذلالها » ...

وفى الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصطف الجيش الأنجليزى فى ميدان عابدين ، فى المكان نفسه حيث وقف عرابى قبل ذلك بسنة وقفته المشهودة ومعه

الجيش المصرى فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ يسمع الخديو مطالب الأمة ويعلن إليه مشيئتها ...

ولا تقع عينا توفيق الآن على جنود يتحدونه بل تقع على جنود يحيونه ويحييهم رافعاً يده بالسلام العسكرى ، ولكم أثلج فؤاده أن يرى هذه القوة التى ظن أنها تسند عرشه ؛ ولو أنه فكر قليلا لفطن إلى أنها كانت تمتهن ذلك العرش !

وكان الخديو فى المقصورة التى أعدت له يرتدى ملابسه الرسمية ، وكان يحيط به الوزراء والكبراء كذلك بأرديتهم الرسمية وأوسمتهم ...

وكان الجنرال ولسلى والدوق كنوت على ظهر جواديهما إلى جانب مقصورة الخديو ؛ وسارت فرق الجيش الأنجليزى أمامه حتى انتهى عرضها فى ساعة ونصف ثم أبدى الخديو سروره وإعجابه وأثنى على الجيش ورؤسائه .

وقد جاء فى عدد الوقائع الصادر فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٢ أنه قد «انشرحت صدور الحاضرين وأعجب الجناب الخديوى المعظم بما رآه من مهارة رؤسائهم وضباطهم وحسن انتظام العساكر وكمال نظامهم ، وشكر الكل لهم ما قاموا به من إخماد فتنة العصاة وإطفاء ثورتهم » .

ومما يدعو إلى أعظم الأسف ما نشر عن احتلال العاصمة فى هذه الجريدة فى الحادى والثلاثين من سبتمبر أى فى اليوم التالى للعرض وقد جاء فيه « حضرت العساكر الأنجليزية إلى العباسية فى غروب يوم الخميس غرة ذى القعدة فسلمت العساكر التى كانت مجتمعة فيها أسلحتها وتوجهوا إلى بلادهم من غير أن يمس أحد منهم بسوء ، ثم دخلوا مصر ليلة الجمعة واحتلوا الأماكن العسكرية كالقلعة وقصر النيل وقشلاق عابدين وغيرها فسلمت العساكر التى فيها أيضاً أسلحتها وتوجهوا إلى بلادهم آمنين ؛ وبعد هذا قبض على الشقى أحمد عرابى ، ومشت العساكر الأنجليزية فى شوارع المحروسة بالهدوء والسكينة ولم يظهر واحد منهم أدنى شىء ينفر منه طبع أحد المصريين خلافاً لما كان يزعمه ويشيعه أحمد عرابى

العاصى وأتباعه الأشقياء ، ولهذا لم نر شيئاً تعطل من المصالح ولا من الأعمال لا فى المحروسة ولا فى ضواحيها » .

وفى ليلة الثلاثاء الثالث من أكتوبر أقام الخديو مأدبة كبرى وحفلة سمر باهرة ساهرة فى سراى الجزيرة تكريماً للقواد والضباط الأنجليز ، وكان فى مقدمة من شهدها سيمور وولسلى ودوق كنوت ومالت ولو ؛ وفى هذه الحفلة الكبرى أنعم الخديو على ستين من هؤلاء الأنجليز بالأوسمة المختلفة .

يقول عرابى فى مذكراته « وكانت تلك النياشين التى حضرت من الآستانة بطلب درويش باشا المندوب السلطانى لأجل إعطائها للضباط المصريين » .

ثواب وعقاب

بالقضاء على الثورة الوطنية وبدخول توفيق العاصمة فى حماية جيش الاحتلال بدأ فى تاريخ مصر عهد من أسوأ العهود التى يمنى بها تاريخ أمة من الأمم ؛ فهو العهد الذى ينطوى فيه الأباة على ما فى أنفسهم خوف النكال والهلاك ، والذى يمالىء المستضعفون فيه الأقوياء إما جلباً لمنفعة أو دفعاً لضرر ، والذى ينتقم فيه من خصومه من واتته الفرصة للانتقام ، والذى يرتزق فيه حثالة الناس بوشاية بعضهم ببعض ، والذى يتسلط فيه المستبدون فيأخذون بالظنة رغبة فى إظهار جاههم وسلطانهم فحسب ، والذى يضيع فيه الحق فى ضجيج الباطل فلا سميع ولا شفيع ...

هذا هو العهد الذى اختفت فيه روح الوطنية وتوارت شعلة الحرية ، والذى وئد فيه الدستور وهو فى مهده ، وقتلت القومية المصرية وهى لا تزال تحبو ؛ والذى نفى فيه عن مصر أباة الرجال ، وتسلط فيها الاحتلال ...

وهذا هو العهد الذى بدأ فيه الأنجليز يبثون فى النفوس هيبة الاحتلال وهيبة جيش الاحتلال ، وأخذوا يعلمون الوزراء وكبار الموظفين من المصريين وعلى رأسهم الخديو إن كانوا فى حاجة إلى تعليم أن السلطة للانجليز والطاعة للانجليز وأن نصائح المعتمد البريطانى فى مصر واجبة الاتباع .

وقد افتتح هذا العهد بما يشا كله من الثواب والعقاب ، أما الثواب فللذين عدهم الخديو من الموالين له والذين سماهم المصريون الخائنين ، وأما العقاب فللذين كانوا فى رأى الخديو عصاة ثائرين وإن عرفهم بنو مصر مجاهدين فى الله والوطن صادقين ...

وكان أول من حظى بالثواب محمد سلطان باشا الرئيس الأول للحزب الوطنى والذى سماه الناس من قبل كما ذكرنا أبا المصريين وقد أنعم عليه توفيق بالوسام

المجيدى من الدرجة الأولى جزاء له على بث روح الخيانة فى الجيش المصرى ، ثم منحه فوق ذلك عشرة آلاف من الجنيهات ذهباً لا زيف فيه وذلك كما قال الخديو « لما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعرائهم بالمخاطرة على حياته وما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه وأقاربه وإتلاف موجوداته ومقدار جسيم من مزروعاته » ...

أما الأنجليز فقد جملوه السير محمد سلطان فأنعمت عليه ملكة إنجلترة بوسام سان ميشيل وسان چورچ مكافأة له على ما بذل فى سبيل نجاح معركة التل الكبير ...

وظهر الثواب بعد ذلك فى المناصب بصورة واسعة ومن أمثلة ذلك إعادة ابراهيم أدهم باشا مديراً للغربية وإعادة الشيخ محمد العباسى المهدى شيخاً للجامع الأزهر بعد إقالة الشيخ الأمبابى وذلك علاوة على منصب الأفتاء الذى كان يشغله وقد تجلت هذه الروح فى تأليف وزارة شريف فرأينا فيها عمر لطفى ورياضاً ومبارك ومدحت ...

وأما العقاب فقد بدأه الخديو بالغاء الجيش المصرى جملة بحجة أنه انضم إلى العصاة ، وكان هذا توطئة لمحاكمة قواده وضباطه إلا من انحاز أثناء الحرب إلى الخديو ...

وكان سلطان باشا يأمر بالقبض على من يشاء وإلقائه فى السجن ، ولذلك تم الكثير من الاعتقالات بأمره قال عرابى فى مذكراته أنه « أمر بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيان إلا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو فسجنوا جميعاً إلا على بك يوسف وأحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم فى التل الكبير .. وكذلك صار سجن جميع الذين بالمديريات والمحافظات من المستخدمين والموظفين والعمد والأعيان والقضاة والمفتين وغيرهم

من عامة الناس حتى غصت بهم السجون بما يربو على ثلاثين ألفاً من المصريين[١] » .

وللمرء أن يتصور مبلغ ما كان يرتكب من المظالم فى حال كهذه يقع فيها القبض على الناس بغير حساب ولا رقابة من قانون أو عرف ؛ وما أشبه هذا الموقف بعهد الأرهاب الأكبر فى فرنسا أيام ثورتها : يقول عرابى « وانتهز حكام المديريات من رجال الاستبداد فرصة القبض على وجوه البلاد وأعيانها وانتزفوا مادة ثروتهم حتى أثروا وامتلكوا الأراضى الواسعة ومن ضن عليهم بماله كان جزاؤه الأعدام بدعوى أنه من العصاة وأنهم مصرون على الانتقام » ...

وقد اعتقل كبار رجال الجيش من الثوار وجميع زعماء الثورة من المدنيين إلا عبد الله نديم فقد اختفى ولم يعرف له مقر ، وعدد كبير من العلماء فى مقدمتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد الخلفاوى والشيخ محمد عليش ، وعدد من كبار الموظفين كان بينهم أحمد رفعت بك مدير المطبوعات وأحمد بك ناشد مدير الشرقية ويعقوب بك صبرى مدير الفيوم وعدد من النواب وعدد من الأعيان والتجار ...

كما قبض على حسن باشا الشريعى وزير الأوقاف فى وزارتى البارودى وراغب ، وعبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى ، وذلك لاستنكارهما انضمام توفيق إلى الأنجليز وعزله عرابى وهو بكفر الدوار .

هذا عدا من أشرنا إلى القبض عليهم من الكافة فى القاهرة والأسكندرية وطنطا وغيرها من جهات الأقاليم مما فزعت منه البلاد زمناً كان فى مصر حقاً عهد الأرهاب ...

وكان السيد حسن موسى العقاد والقائمقام سليمان سامى داود قد فرا على ظهر إحدى السفن إلى كريت ، فعلمت الحكومة بمقرهما فأرسلت إلى الحكومة التركية تطلب تسليمهما فأرسلا إلى الأسكندرية مقبوضاً عليهما فى التاسع من نوفمبر سنة ١٨٨٢ ...

---

(١) ذكر محمود فهمى باشا أن عدد هؤلاء بلغ تسعة وعشرين ألفاً .

وأصدر الخديو أمره بتأليف لجنة للتحقيق بالقاهرة وذلك فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكانت تسمى القومسيون أو اللجنة المخصوصة وقد تكونت من عشرة أعضاء برياسة اسماعيل أيوب باشا وكلفت باستجواب كل من اتهم بجريمة العصيان أو التعدى على سلطة الخديو أو إتيان أى عمل فيه إهانة للجناب العالى ، سواء كان المتهم فاعلا أصلياً أو شريكا لغيره ؛ وكان من سلطة هذه اللجنة القبض على أى شخص بمجرد أن تبلغ ذلك إلى وزير الداخلية ؛ ولها أن تقدم من ترى أنه مدين إلى المحكمة العسكرية التى تؤلف للحكم فى هذه التهم وإيفاد مندوب من قبلها لأقامة الدعوة أمام هذه المحكمة .

وتألفت من هذه اللجنة لجنة فرعية لتحقيق التهم المنسوبة لأهل الأقاليم والمدن ...

وصدر أمر من الخديو فى نفس الوقت بتأليف محكمة عسكرية لتحاكم من ترى اللجنة تقديمهم إليها ، وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وهو من الموالين للخديو وكان أعضاء المحكمة إلا واحداً من أصل تركى أو شركسى وكانوا جميعاً من الناقمين على عرابى وحركته القومية وممن يدركون حق الأدراك ماذا يريد الخديو ؛ لأنه اختارهم على هذا الأساس .

* * *

وألفت محكمة عسكرية بالأسكندرية تعاونها لجنتان لتحقيق حوادث الأسكندرية وطنطا على نحو ما يحدث فى القاهرة واختير أعضاء اللجان جميعاً بالضرورة لا من المحايدين الذين يريدون وجه الحق ولكن من أنصار الخديو المملوءة قلوبهم غيظاً وحقداً على عرابى وعلى الثورة ...

وكان رياض باشا من أشد الناقمين على عرابى وزعماء الثورة ، يتطلع فى صبر فارغ إلى اليوم الذى يرى فيه وهو وزير الداخلية جسد عرابى متدلياً فى حبل المشنقة أو ممزقاً برصاص الجند ...

وكان شريف باشا كذلك ساخطاً على هؤلاء جميعاً منذ أن أخرجوه من الوزارة بسبب أزمة الميزانية ولئن ظل حريصاً على الدستور كمبدأ للحكم إلا أنه قد امتلأ قسوة وغيظاً على الثوار ، وقد كان بطبعه يكره التطرف ، ولذلك نظر بمنظاره إلى عرابى وأنصاره فكانوا عنده من أشد المتطرفين وإن لم ينكر بينه وبين نفسه أنهم طلاب دستور وحرية وأنهم من حيث المبدأ كانوا فى الواقع يتجهون اتجاهه القائم على محاربة الاستبداد والنفور منه ...

البطل السجين
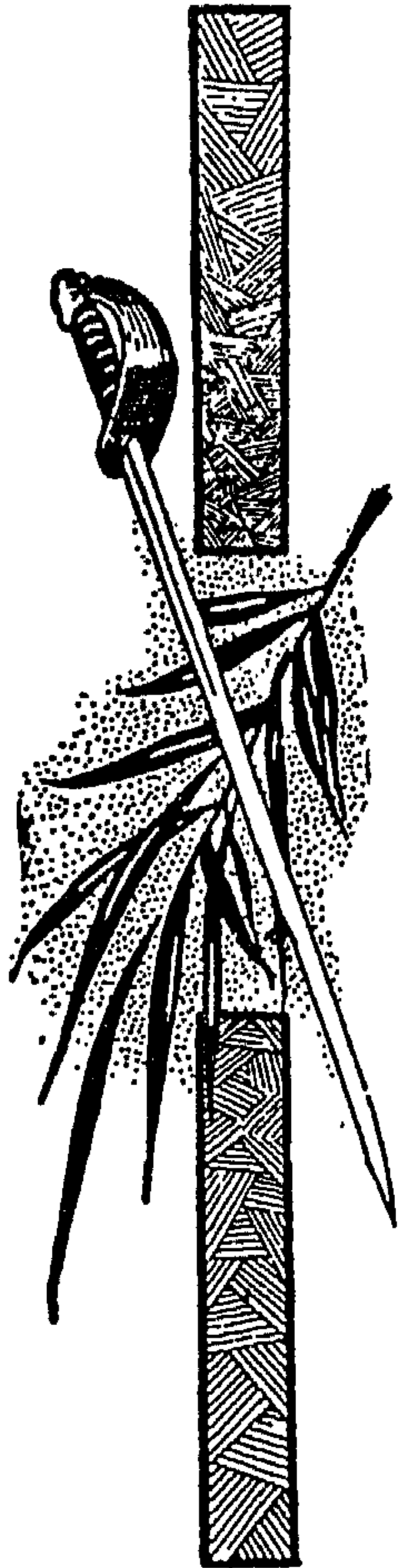
ظل عرابى معتقلا فى قشلاق عابدين حتى اليوم الخامس من أكتوبر ، ثم أسلم إلى الحكومة المصرية ، فألقت به مع زعماء الثورة وعدد كبير من المعتقلين فى بناء الدائرة السنية الذى أحالته إلى معتقل عام ، وجعلت فيه حجرة للجنة التحقيق .

وبانتقال عرابى إلى سجنه هذا بدأ عهد إهانته على صورة لولا أننا نريد أن نوفى هذا التاريخ حقه ما ذكرناها لفرط ما نحس من مجرد ذكرها من خزى وألم .

قال عرابى فى مذكراته المخطوطة « وصار نقلنا من قشلاق عابدين إلى سجن الدائرة السنية المذكورة لأجل المحاكمة ومعى طلبة باشا عصمت ، وسجن كل منا فى غرفة منفرداً أسوة بمن فيها من المسجونين ، ثم أغلقوا النافذ ومنعوا عنا السراج ليلا بعد أن فتشونا وأخذوا ما معنا وأهانوا البعض منا خصوصاً عبد العال باشا حلمى »

وقال فيما كتبه وهو فى سجنه لمحاميه المستر برودلى « بعد ذلك أسلمنا إلى السلطات المصرية ووضعنا فى السجن المصرى يوم الثلاثاء الخامس من أكتوبر ؛ وكان ذلك من أيامى الحزينة التى لا تنسى فقد فصل بينى وبين صديقى طلبة باشا ، وألقى بى فى حجرة ليس فيها شىء حتى الكرسى وأغلقوها على ، وجاء خادمى إلى ولكن الحراس لم يسمحوا بأدخال شىء إلى إلا بساطاً وملحفة ...

وعقب ذلك أقبل فريق ممن أرسلوا لأهانة السجناء وتهديدهم كما تبين من أمرهم ، وفتشونى وأخذوا كل ما لدى من الأوراق الخاصة التى طلبتها لجنة التحقيق ؛ وبعد هذا جاء فريق ثان ومعظمهم من موظفى الخديو وكان بينهم عثمان بك القائم على شؤون خيله وحسين أفندى فوزى وله صلة بشؤون الخديو
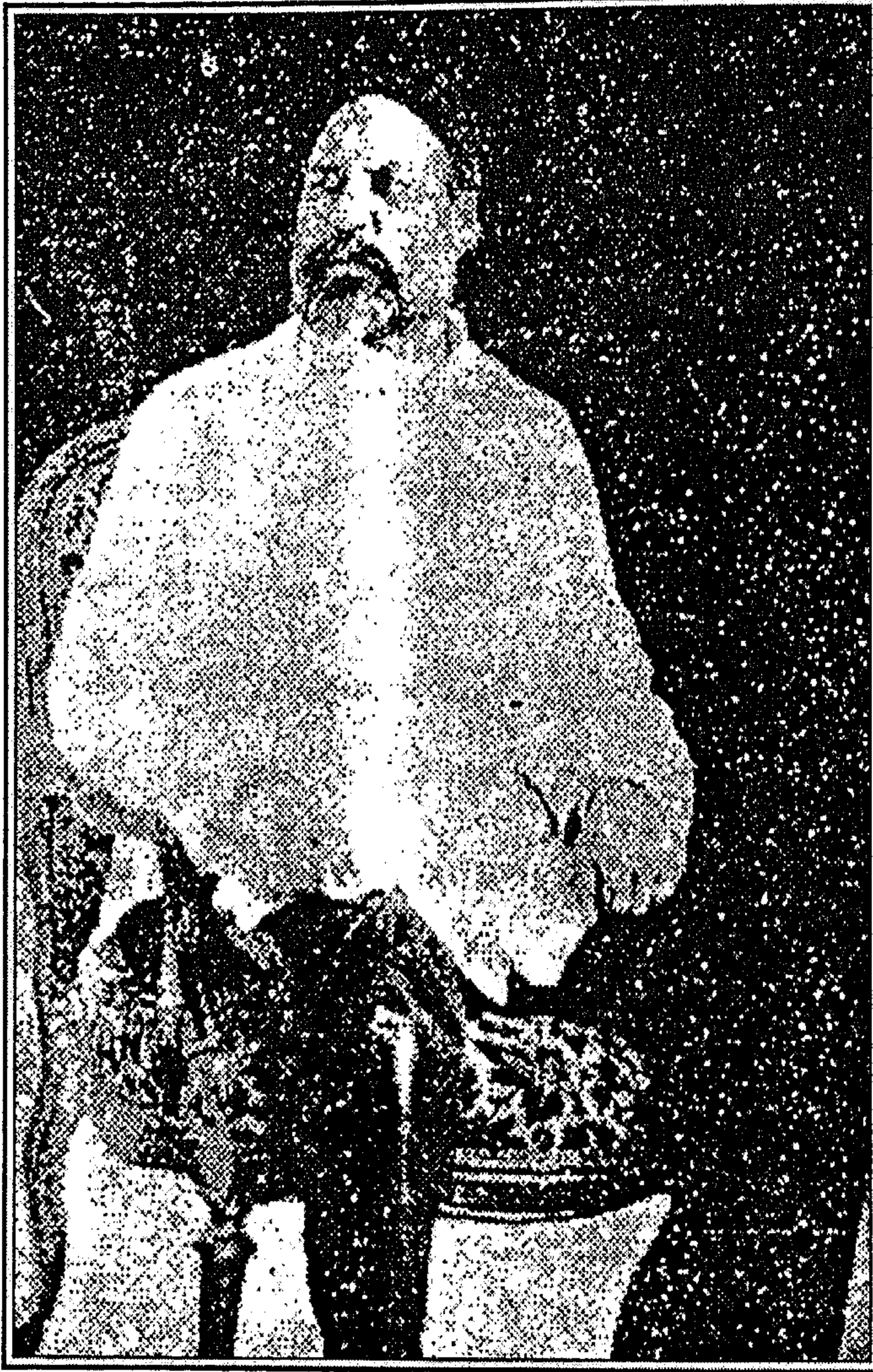
(عرابى فى معتقله بعابدين)

المنزلية الخاصة ومعهما أغا تركى هو الذى يركب أمام سموه حيث أنه أحد رجال حرسه الخاص ، وقد أعاد هؤلاء تفتيشى حتى أنهم نزعوا قميصى ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً إلا تميمة كنت ألبسها فانتزعها أحدهم بقوة ، ولما قلت إنى أخلعها بنفسى صاح أحدهم قائلا : كلا لقد أمرت أن أفعل ذلك وأن أخلع حتى حذاءك لأفتشه ...

وبعد ساعة جاء لبزورنى بشارة تكلا محرر جريدة الأهرام وظننت أنه قدم ليعزينى وليبدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد مناوأنه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين؛ ولكنه لما دخل على توقح أشد التوقح ثم قال : أى عرابى ما ذا صنعت وماذا حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ؛ ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف .

وما هى إلا دقيقة ثم جاء فريق ثالث معظمهم من خدم الخديو وأتباعه وفيهم أتراك وجند من حرسه ، وفتشوا بساطى وملحفتى وقلبوهما ظهرا لوجه ثم انصرفوا ، وأقاموا طول الليل على باب غرفتى حراساً على وعلى السجناء » (١)

هذا ما عومل به عرابى أول يوم أدخل فيه السجن ؛ ولكن خصومه لم يروا فى ذلك مايشفى ما فى نفوسهم من غل ، فأوفدوا إليه بعد أربعة أيام من الحق به ، وهو السجين الذى لا يملك الدفاع عن نفسه ، إهانة يؤسفنا ويخجلنا أن نذكرها ولندع عرابياً يصف ما حدث ...

قال « فى ليلة التاسع من أكتوبر سمعت الباب يفتح حوالى الساعة التاسعة والنصف وقد خلعت ملابسى واضطجعت لأنام ودخل على جماعة تتألف من عشرة أو اثنى عشر شخصاً ؛ ولما كان الظلام حالكا لم أستطع أن أتبين منهم أحداً ، وصاح أحدهم فجأة .. إه .. عرابى ؛ ألا تعرفنى ؟ وحسبت أنه قادم ليقتلنى فنهضت قائلا . كلا لست أعرفك ... فصاح بى أنا إبراهيم أغا ثم أخذ يقسم الأيمان متوعداً وقال لى أيها الكلب .. أيها الخنزير وبصق على ثلاث مرات . فوقفت

---

(١) How we Defendedarabi P, 139,

سا كنتاً فى هدوء ثم تبينت شيئاً فشيئاً أنه ابراهيم أغا حقا توتونجى الخديو » (١)

وقد أعاد عرابى ذكر هذا الكلام لمحاميه يصف به الحادث الشنيع وذلك فيما كتب له من تقرير عام وكان قد شافهه به حين زاره لأول مرة ، وسلمه ورقة جاء فيها ما يأتى « لقد سلمت سيفى وشخصى إلى الجنرال لو ممثل القائد العام للجنود البريطانية ، وكان ذلك منى ركوناً إلى شرف إنجلترة .. وفى الخامس من أكتوبر ألقى به فى سجن مصرى حيث ألحقت بى إهانة على صورة تظل صارخة فى وجه الشرف البريطانى ووجه كل إنجليزى » ثم أورد عرابى الحادث بما لم يخرج عما سلف واختتم ورقته بقوله « إن مسلكا كهذا لا يمكن أن يرضى شرف إنجلترة وسمعتها وبخاصة نحوى أنا الذى أسلمت نفسى مصدقاً بشرف الشعب الأنجليزى »

ولم يكن عرابى وحده مصدر هذه الرواية حتى يمكن أن يقال إنه اختلقها أو أسرف فيها ؛ فقد عرفها بلنت بين ما عرف من صديق له لا يمكن أن يتطرق الشك إلى معلوماته ألا وهو المستر بيمان ترجمان مالت والذى اختاره مالت ليحضر التحقيق نائباً عنه وكان بيمان يجيد اللغة العربية وكان قائماً بأعمال مالت القنصل العام فى الأسابيع التى سبقت ضرب الأسكندرية وقد أرسل هذه المعلومات فى السادس من نوفمبر؛ ويقول بلنت إن المعلومات التى أخذها عن بيمان على أعظم جانب من الأهمية التاريخية ؛ قال بيمان عن حادث إبراهيم أغا : أحسب أن حادث إبراهيم أغا وحده كاف ليظهر الخديو على حقيقته ، ولقد سمعت القصة كلها من القصر مباشرة وكيف أن توتونجى حامل غليون الخديو قد لثم يد الخديو ورجا منه أن يسمح له بأن يبصق فى وجوه السجناء؛ وكان ذلك هو ما استقصى عنه السير شارلز ولسن (٢) ووجده صحيحاً ؛ وعلى الرغم من تبينه صحة الحادث ، فقد أغفله وذلك لأنه كان للخديو قطعة قذرة جداً من القماش يجب أن تغسل فى هذا الموضوع ؛(٣) ولقد اقترحت إذ رأيت الشهود

(١) نفس المصدر
(٢) هو الذى انتدبه الأنجليز لحضور جلسات لجنة التحقيق
(٣) كناية عن فضيحة له فيه

جميعها يحنثون فى أيمانهم أن يحموا يمين الطلاق الثلاث ، وكان السير شارلز ولسن يميل إلى ذلك ولكن مقترحى ما لبث أن أسكت ، وإن أسرة سموه لا تستطيع الآن أن تنكر فيما بينهما وقوع هذا الحادث ؛ وبعد فهذا هو الرجل الذى من أجله جئنا إلى مصر »(١)

ويقول بلنت « إن حادث إرسال توفيق أغواته لأهانة زعماء الحركة القومية فى السجن قد ذكره الشيخ محمد عبده الذى كان من أوائل المقبوض عليهم والذى كان من ضحايا الحادث ، وقد ذكر ما اتى فى السجن فى تصريح قدمه إلى السير شارلز ولسن فى التاسع والعشرين من أكتوبر ولكنه لم يرد فى الكتاب الأزرق »(٢)

وقد ذكر مستر برودلى فى كتابه « كيف دافعنا عن عرابى » أنه زار كلا من على فهمى وعبد العال حلمى والشيخ محمد عبده فى حجراتهم وأن عبد العال ذكر له « أن ابراهيم أغا توتونجى الخديو دخل حجرتى ومعه ثلاثة أشخاص وقال لى ياعبد العال أتعرف من أنا ؟ فقلت كلا لست أعرفك ، فقال : أنا إبراهيم أغاتوتونجى الخديو ثم دنامنى وبصق على وجهى وضربنى بقلم كان فى يده على وجهى مرتين وقال انتظروا لغد وقدتم يا أولاد الكلب سأريكم »

وقال الشيخ محمد عبده « إنى أعلن مع عظيم احترامى لسمو الخديو حفظه الله أن ابراهيم أغا التوتونجى حضر إلى فى الخامس من هذا الشهر وأهاننى ، وكان معه بعض أتباع الخديو ، وقد فتشونى وأخذوا منى ثلاثة مجلدات ، اثنان منها هما كتاب العقد الفريد والثالث هو الجزء الأول من تاريخ العصور الوسطى وهو معرب عن الفرنسيه ... ولما سألتهم لماذا يأخذون الكتب ، ألكى يعيدوها إلى بيتى ؟ قال لى ألك بيت ؟ فرأيت أن أسكت »

وأحسب أن هذه الفضيحة لا تحتاج إلى تعقيب سوى الأشارة إلى ما نحسه من الحسرة والخجل من أن ينزل الناس فى الخصومة إلى مثل هذا الحد ، وأن

(١و٢) S' H, B, P' 348

يعامل رجال كهؤلاء هم بنفوسهم وجهادهم سادة أعزة وفى مقدمتهم زعيم ثورة وقائد جيش ووزير دولة ، معاملة لا تليق بأصغر الناس وأحقرهم شأناً

وكان عرابى يقضى أيامه فى سجنه على هذه الحال من سوء المعاملة وليس فى حجرته كرسى واحـــد كما ذكر هو وكما شهد محاميه ولم يجد فيها محاميه مستر برودلى وزميله مستر نابيير عندما سمح لهما بزيارته إلا البساط والملحفة وحشية ووسادتين ومصحفاً وبعض الآنية من الخزف والنحاس

وكان يلبس عرابى سروالا حربياً وقميصاً أبيض وسترة كان يستبدل بها أحياناً استامبولية سوداء أو معطفاً تركياً ، وكانت فى يده مسبحة صغيرة لا تفارقها إلا نادراً كما ذكر مستر برودلى

ويقول محاميه إنه بناء على طلب السير شارلز ولسن قد أحضر له ولزميليه منضدة وبعض الكراسى

وكان لا يزيد اتساع الحجرة عن أربعة عشرة قدما فى مثلها وكانت مرتفعة السقف ، وكان ينفذ إليها بعض النور من نافذتين صغيرتين تطلان على الشارع ؛ أما بالليل فكانت حالكة الظلمة حيث لم يسمح بمصابيح أو شموع لأحد من السجناء

ولهذه الظلمة قصة فقد طلب عرابى على لسان محاميه أن يسمح له بالنور ليلا فرفضت إدارة السجن لأنها علمت أن الخادم أراد أن يدخل له النفط ليحرق السجن ، ومن أجل ذلك منع الخدم من أن يدخلوا الطعام إلى السجناء ، وقد غضب عرابى لهذه التهمة التى أشارت إليها التيمس غضباً شديداً ، وكتب إلى مراسل التيمس بالقاهرة تكذيباً لها قائلا إنه لم يسمح له برؤية خادمه منذ اليوم الخامس من أكتوبر وأنه ليس ما يدعوه إلى أن يحرق نفسه ويموت ضد القانون فهو لم ييأس يوماً من براءته مما نسب إليه »

وكان مما يؤلم نفس عرابى فى سجنه أسلوب سجانه فى تقديم الطعام له وحق له أن يتألم وأن يأسى قال يصف هذه المعاملة « منذ أن ألقى بى إلى السلطات المصرية يأخذ أحد الحراس وهو تركى الطعام من خادمى متى حضر ويفتح الباب دقيقة
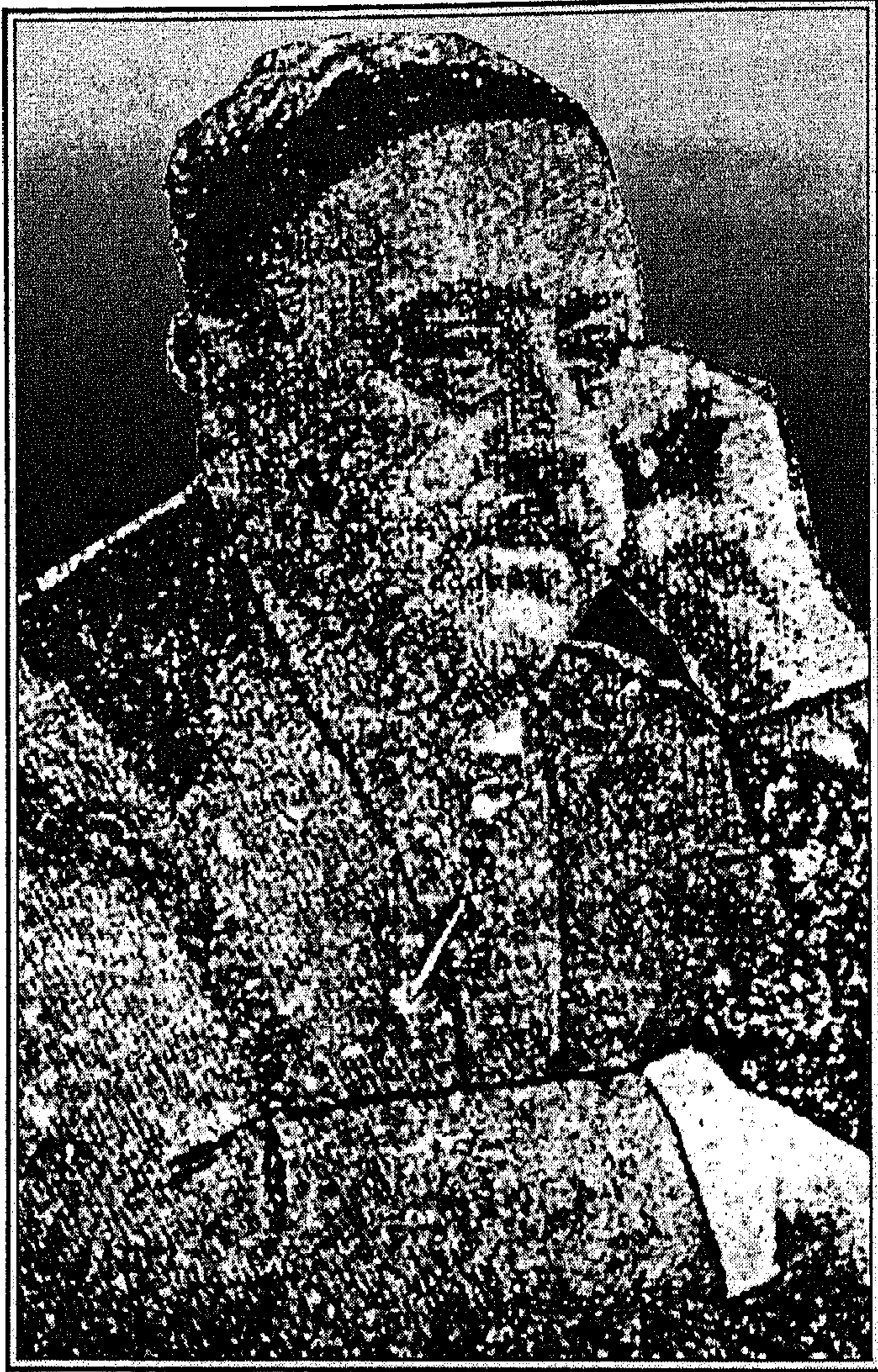
(برودلی)

ويلتى بالطعام أمامى ثم يغلق الباب فى غلظة كما لو كنت وحشاً فى قفص » .

وقد شكا عبد العال إلى برودلى مخاوفه وقص عليه قصة محاولة قتله بالسم منذ بضعة أشهر مما دعا برودلى إلى تصديقها ولذلك طلب من السير شارلز ألا يكون مقدمو الطعام للسجناء أتراك أو شراكسة .

✲✲✲

ولندع عرابياً فى سجنه لننظر كيف أتيح له أن يدافع عنه برودلى وزميله فأن لهذا قصة هى قصة الوفاء والنجدة والمروءة ...

لم يكن يجرؤ أحد من المصريين بالضرورة فى مثل هاتيك الأيام أن يفكر فى الدفاع عن عرابى وإلا عد من العصاة والجناة وقبض عليه وأودع السجن ، وربما كان نصيبه الموت ، وحسب كل امرىء أن ينجو بنفسه من هذا الأرهاب الذى يكاد يحصى على الناس أنفاسهم ...

وكان توفيق يريد رأس عرابى بأية صورة ، وقد عقد العزم على ذلك وإنه ليتطلع منذ أشهر إلى هذا اليوم الذى يظفر فيه برأس خصمه وكان رياض يذهب مذهب توفيق ولا يقل عنه حنقاً وتطلعاً ..

وكان الأنجليز يريدون التخلص من عرابى بالموت ، ويقرر مستر بلنت أنهم كانوا لا يترددون فى رميه بالرصاص فى موضعه لو أنهم أسروه فى التل الكبير ؛ ويقول إن هذا ما عقد ولسلى عليه العزم ولم يرده عن رأيه إلا السير جون أداى وهو قائد أكبر سناً وأكثر تجربة من ولسلى وقد بين له ما يكون فى مثل هذا العمل من عار ، إذ كيف لا يظفر قائد جيش نظامى استدعى مجىء ثلاثين ألفاً من الأنجليز لمحاربته ، بما يظفر به كل قائد فى مثل ظروفه حسب قوانين العالم من من معاملة شريفة عادلة ؟[1]

وسنرى فيما وقف عليه بلنت من معلومات أثناء مسعاه للوصول إلى تحقيق عادل والسماح لمحام إنجليزى بالدفاع عن عرابى ، أن الحكومة الأنجليزية نفسها

---

(١) S. h. B' P. 327

كانت ترمى إلى التخلص من عرابى بالموت على أن يأتى ذلك على يد توفيق ، وما أسلم عرابى إلى السلطات المصرية إلا لهذا الغرض ، ولنأت بهذه القصة ، قصة محاولات بلنت على سردها ...

يقول بلنت إن أخوف ما كان يخافه بعد هزيمة عرابى أن يعمد جلادستون إلى تغطية مذبحة التل الكبير وذلك بأن يجعل عرابياً كبش الفداء عن هذه الخطيئة فيقتله ويجد ما يعتذر به عن ذلك فيما يزعمه من أنه قصاص عادل من ثائر عاص لا يمكن أن يعامل معاملة زعيم وطنى أو قائد جيوش نظامية ...

وبعد أن أورد بلنت ما علمه عن اعتزام ولسلى الذى أشرنا إليه وعن موقف السير جون أداى قال « وكان جلادستون مصمماً على هذا الاتجاه تصميم جرانفل أو أى شخص آخر من لوردات الهويج فى مجلس الوزراء » ثم ذكر بلنت أن برايت الوزير الذى استقال محتجاً على ضرب الأسكندرية قد أسمع جلادستون احتجاجه على هذه النية التى تنويها الحكومة وأن الضغط الشديد من جانب الرأى العام البريطانى هو الذى صرف الحكومة الأنجليزية عن أن تجعل عرابياً يؤدى بحياته الفداء عن جريمتها السياسية ...

واستعان بلنت صديقاً له من رجال الصحافة هو مستر بكتن مراسل جريدة التيمس وبحسن مسعى هذا الصديق نشرت التيمس أنه لن يعدم عرابى أو أحد من رفاقه إلا بعد موافقة الحكومة الأنجليزية وأنه سوف يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم على يد محام كفء .

وتوصل بلنت بهذا إلى أن يضع الحكومة الأنجليزية ، كما قال ، فى نظر الرأى العام فى وضع كريم بحيث يصعب عليها أن تتراجع عن عمل إنسانى نسب إليها ...

ثم زار بلنت مستر برودلى فى بيته فى التاسع عشر من سبتمبر أى بعد التل الكبير بسبعة أيام وكان لا يزال عرابى فى معتقله بعابدين ، واتفق معه على أن يكون هو محامى القضية وجعل له أجراً على ذلك ثمانمائة جنيه غير ما يلزم من مصروفات ...

وكتب بلنت فى نفس اليوم عملا بمشورة برودلى كتاباً مطولا إلى جلادستون

وكان مما ذكره فيه أنه يخشى من عدة أمور فى التحقيق مع عرابى فأعضاء المحكمة العسكرية لابد أن ينحازوا إلى الخديو ، وإذا فرض أنهم لن يفعلوا ذلك فأن الشهود من الوطنيين سيؤدون أقوالهم تحت تأثير الخوف ، وسيعمد الكثيرون إلى التزوير أما الشهود من الأوروبيين فسيتكلمون عن ضغن وحفيظة . وسيكون المندوب الأنجليزى نفسه فى لجنة التحقيق تحت تأثير الاتجاه السياسى الذى يتسلط الآن على الموقف فى القاهرة ؛ وإذا أضيف إلى المحكمة العسكرية ضباط من الأنجليز كما نأمل أن يحصل ، فأن جهلهم باللغة العربية سيحول بينهم وبين تتبع أقوال الشهود وسيكون اعتمادهم على التراجمة الذين لا يؤمن جانبهم ... وبناء على ذلك فأنه لن تتحقق العدالة ما لم تتبع خطوات خاصة نحو هذا الغرض ...

ثم ذكر بلنت أن العلاج الذى يراه هو أن يسمح بأن يدافع عن المتهمين محام إنجليزى كفء ، وأن يصحبه بلنت إلى مصر ليجمع له المعلومات ، وأن يرافقهما صابونجى الذى يجيد عدة لغات منها العربية والأنجليزية ، والذى يعرف الكثير عن أحوال المتهمين وأشخاصهم ... واختتم كتابه بوعد منه ألا يتدخل فى السياسية أثناء ذلك وأفصح عن عظيم رجائه أن ينال مقترحه قبولا لدى جلادستون وأن يأتيه منه رد سريع على كتابه ...

وتلقى بلنت رداً من دوننج ستريت فى الثانى والعشرين من سبتمبر مؤداه أن جلادستون قرأ كتابه ، وكل مايستطيع قوله فى الوقت الحاضر أنه سوف يعرض هذا الكتاب على اللورد جرانفل ليرى فيه رأيه كى يشاوره فيه ، ولكنه لايمكنه أن يؤكد أنه سوف ينتهى به الأمر إلى القبول ...

وكتب بلنت إلى عرابى كتاباً فى الثانى والعشرين من سبتمبر يقول له فيه إنه خليق أن يدرك وهو الجندى الوطنى لماذا لم يكتب له أثناء الحرب ، ثم ذكر له أنه وقد انقضت الحرب سوف يرى أن صداقته له أعظم من أن تكون كلاماً فحسب ، وينبئه بما اتخذ من خطوات فى سبيل الدفاع عنه ويطلب إليه أن يرسل تفويضاً بذلك إلى محاميه الذى اكتتب عدد من الملية الأحرار فى دفع أجره ،

ويؤكد له أنه سوف يعنى بأسرته أثناء اعتقاله ، ويدعو له الله أن يهبه الشجاعة ويكون فى عونه ...

وأرسل بلنت كتابه هذا إلى صديقه عن طريق السير إدوارد مالت ، ولكن ما كان أشد أسفه وألمه ، إذ رد مالت إليه ذلك الكتاب مشفوعاً بكلمة قصيرة جافة مؤداها أنه يفعل ذلك بأمر الحكومة الأنجليزية ؛ ويقول بلنت إنه ليس أدل على ما كانت تنوى الحكومة أن تفعل بعرابى وأصحابه من هذا الذى صنعه مالت

وسافر رودلى إلى تونس وقد طال انتظاره البت فى الأمر ، ورأى بلنت أن يبقى فى إنجلترة حتى يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه فى مصر لن يظفر بشىء مما يريد ما لم يكن لديه ما يثق به طريقه من سلطة يحصل عليها من الحكومة الأنجليزية ...

وزاد لغط الصحف بتوقع الحكم على عرابى بالموت ولم يرتفع بالاحتجاج على ذلك إلا أصوات خافتة ضئيلة ؛ وتلقى بلنت من صديق إنجليزى من ذوى المكانة بالقاهرة كتاباً يقول فيه « إنى أشك أكبر الشك فى أنه سوف يسمح بشىء من قبيل التحقيق العادل فأنهم يعلمون حق العلم أنهم إن فعلوا ذلك أدى إلى إدانتهم هم ، وإن رجال السياسة أشد مكراً من أن يدفعهم أحد إلى شىء من هذا القبيل ، وعلى أية حال فأنك على حق فى محاولتك الوصول إلى تحقيق عادل » .

ولم يجد بلنت مناصاً من أن يكتب ثانية فى السابع والعشرين من سبتمبر إلى جلادستون يسأله عن مصير كتابه الأول وعن رأيه ورأى جرانفل فى الأمر بعد تشاورهما ، ويشكو إليه مما فعل مالت من رد كتابه إلى عرابى إليه وينبئه أنه اتفق فعلا مع أحد المحامين النابهين لهذا الغرض ؛ وأنه قرأ فى جريدة التيمس برقية من القاهرة مؤداها أن المحكمة العسكرية سوف تعقد غداً وأن الخديو وشريفاً ورياضاً يصرون بشدة على أن الضرورة القصوى تقضى بالحكم بالموت على زعماء المجرمين ، ويقول شريف باشا وهو من اشتهر بسماحة خلقه إنه يرى ذلك لا لأنه يحمل أى ضغن لهم ولكن لأنه أمر حتمى كى يضمن الأمن لكل من يريد أن

يعيش فى هذه البلاد ؛ واختتم بلنت كتابه الثانى بقوله إن إلحاح الضرورة هو ما يجعله يرجو رداً عاجلا ...

ولـكن هذا الـكتاب الثانى لم يصل جلادستون فى موعده وذلك لسفره إلى خارج لندن ، وقد أحاله الوظف القائم على شؤون رسائله إلى وزارة الخارجية ، وكتب إلى بلنت يخبره أنه سوف يتلقى رداً رسمياً من جرانفل عما قريب وفهم بلنت من ذلك أن جلادستون خرج عن لا ونعم بأحالة الأمر إلى جرانفل ؛ ولم يتلق من جرانفل شيئاً إذ كان هذا كذلك خارج لندن ؛ ولـكن ما لبث أن أبلغه أحد الموظفين أن اللورد جرانفل اطلع على كتابيه وأنه يأسف ألا يستطيع الدخول معه فى مراسلات بشأن هذا الوضوع ...

وهكذا ذهبت محاولات بلنت عبثاً ؛ ولـكن اليأس لم ينل منه ، فقد ظل ما نشرته التيمس يلزم الحـكومة أدبياً ، ولذلك عاد بلنت يستعين صديقه بـتن وعد بتن وقد كانت له مكانة ممتازة لدى شنرى رئيس تحرير التيمس ، بأن ينشر ثانية ما يفيد قضية بلنت وأن يلح حتى يحمل اللورد جرانفل على الاتجاه صوب تحقيق عادل مع عرابى وأصحابه .

وعول بلنت على أن يبرق إلى رودلى فى تونس ليكون على أهبة للسفر إلى القاهرة ، وطفق يبحث عن محام آخر يسبق بلنت إلى مصر ليعمل باسمه حتى يحضر فوقع على رجل هو خير من ينهض بهذا الأمر وذلك هو مارك نابيير ، فقد كان نابيير لبقاً ذا همة وعزم يفهم ألاعيب السياسة كما كان ضليعاً فى القانون يجيد اللغة الفرنسية ويحسن المجادلة والمخاصمة ...

وسافر نابيير ليطلب إلى مالت السماح له بالاتصال بعرابى بصفته محاميه ؛ وقد طلب إليه بلنت أن يحتج ما وسعه الاحتجاج إذا رفض مالت طلبه وألا يدع وسيلة لأثبات هـذا الرفض إلا سلـكها ؛ وكان نابيير خفيفاً إلى غايته ليس فى يده إلا حقيبة صغيرة كانت كل متاعه ...

أما بلنت فقد صمم أن يستأنف المعركة فى وزارة الخارجية وفى الصحف ، وقد

نمى إليه أن خطة الخديو وحكومته هى أن يقدم المتهمون إلى محكمة مصرية تنظر فى أمرهم فى مدى يومين ثم تقضى بأعدامهم وقد تبين لها أنهم عصاة ، وألا يسمح لمحامين من الأنجليز بالدفاع عنهم لأن هذا يعد تدخلا من الأجانب لا يُسمح به فى الوضع التشريعى للبلاد .

وما زال أحد اللوردات من أصدقاء بلنت وهو اللورد دى لاوور حتى حصل من جرانفل على تصريح يؤكد به أن الخديو سوف يتيح كل فرصة معقولة للدفاع عن المتهمين ؛ وهو تصريح مبهم لا يفيد المرء منه شيئاً ، ولكن بلنت لعب دور الصحفى اللبق فنشر فى التيمس ما يأتى : « كتب اللورد جرانفل بأن يمنح المسجناء فى مصر وأصدقاؤهم كل ما من شأنه أن ييسر لهم الوصول إلى محامين يدافعون عنهم » وغضب جرانفل مما كتبته التيمس ولكنه لم يستطع أن يتراجع فيكشف سياسته وسياسة حكومته ، فاضطر إلى السكوت الذى هو نوع من الرضاء ... وقد رأى بلنت أنه كسب المعركة على هذه الصورة بوسيلة هينة ...

وأبرق بلنت إلى برودلى ليسافر إلى القاهرة فى الحال ؛ واتجهت نية الحكومة الأنجليزية إلى إنجاز المحاكمة فى سرعة لتتم قبل أن يصل برودلى إلى القاهرة ، ولم يكن لديها علم بنابيير واشتراكه فى الدفاع ...

وأصدرت الأوامر بنقل عرابى من معتقل الجيش البريطانى إلى السلطات المصرية ، حيث تحول بينه حكومة الخديو وبين أية صلة بالعالم خارج السجن وتكون الحكومة الأنجليزية بعيدة بذلك عن اللوم ، ثم أوعز إلى الحكومة المصرية أن تعلن أنه لن يسمح لأحد بالمرافعة إلا باللغة العربية ...

واختارت الحكومة الأنجليزية رجلين ليمثلاها فى التحقيق هما السير شارلز ولسن والمستر بيمان ، وكانا كلاهما صديقين لبلنت ويشهد بلنت أنهما من ذوى الضمائر الحية والقلوب الرقيقة وأن اختيارهما كان من المصادفات الطيبة .

ولم يظفر نابيير من مالت بأكثر من اعترافه بشرعية موقفه كمحام عن عرابى وأصحابه ؛ وظل يطلب منه السماح له بمقابلة عرابى فى غير جدوى إذ كان يحيله

على رياض باشا ، وكان رياض يماطل ويراوغ حتى أدرك نابيير أنه يعبث به ، ثم رأى الحكومة المصرية تستعجل التحقيق كي يتم قبل أن يبت في مسألة قبول المحامين الأنجليز …

وفي الثاني عشر من أكتوبر تلقى بلنت من اللورد دي لاوور أنه بناء على معلوماته « مالم تتخذ خطوات عاجلة حاسمة فأن حياة عرابي في خطر عظيم » وأسرع بلنت إلى بتن فأفضى إليه بهذا النبأ السيء ، ووجد لديه من المعلومات ما يتفق مع هذا النبأ كل الاتفاق ، وصمم الرجلان على الاحتكام إلى الرأي العام في صورة قوية أخاذة …

وكتب بلنت كتاباً إلى جلادستون يحمل فيه على جرانفل وسياسته ويذكر جلادستون بعطفه ذات يوم على زعيم الحركة القومية في مصر ، ويشير إلى تبعة الحكومة البريطانية فيما ينوي الخديو عمله في المحاكمة …

وطلعت التيمس صباح الجمعة ومقالها الافتتاحي يدور حول هذه المسألة وذكرت أن المحاكمة سوف تكون يوم السبت وأن الحكم سوف يصدر يوم الاثنين وأن إعدام عرابي سيعقب الحكم مباشرة ، فأيقظت الرأي العام ونبهت شعوره في صورة اهتم بها جلادستون وحكومته أشد الاهتمام …

وذهب الوزير المستقيل الحر مستر برايت وأفضى شخصياً إلى جلادستون برأيه وصارحه بأنه سوف يقرن اسمه بالعار في صفحات التاريخ لانحرافه عن مبادئه الأنسانية بأقراره مثل هذه الجريمة الكبرى …

وكللت مساعي بلنت بالنجاح إذ لم يجد جرانفل بداً من أن يبرق إلى مالت بقرار الحكومة الأنجليزية القاضي بالسماح بدفاع إنجليزي عن المتهمين …

وقد عقب بلنت على قصة سعيه بقوله « لقد وجدت الضرورة تقضي أن أفصل قصة محاكمة عرابي ، وذلك لأنه بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن أقضي على تلك الأسطورة السخيفة الكاذبة التي نجمت في مصر ومؤداها أنه كان هناك من أول الأمر شيء من التفاهم السري بين جلادستون وعرابي على حفظ حياته ؛ وإني لأستطيع

أن أؤكد أن جلادستون قد بلغ من بعده عن الرثاء لحال « كبير العصاة » أو التفاهم وإياه على أى صورة ما أنه قد اتحد مع جرانفل فى العمل على موته وذلك بأيدى أعوان الخديو المتأهبين لهذا العمل ، بعد محاكمة صورية ، من شأنها الا تثير أسئلة ؛ وبهذا يتحقق لهما أضمن وسيلة وأسرعها للوصول إلى السكون ولتبرير أخطائهما الأدبية الهائلة أثناء الأشهر الستة الأخيرة فى مصر . ولم يكن تأثم جلادستون هو الذى منعه عن السير فى خطته إلى النهاية ؛ ولكن الذى منعه عن ذلك هو صوت الرأى العام الفاجيء الذى أخافه وأنذره أن فى ذلك خطراً على ما ذهب له من الصيت وهذه هى حقيقة المسألة فى بساطتها ، مهما بلغ ما يضيفه إليها المدافعون عن جلادستون وعن سمعته الأنسانية ، ومهما يكن من خيال كتاب فرنسا السياسيين الذين أرادوا أن يجدوا سبباً لتسامح مستر جلادستون حيال عرابى بعد الحرب فلم يبد للمسألة عندهم وجه مفهوم إلا أن يكون هناك تفاهم سرى سابق بين رئيس الوزارة البريطانية وزعيم الثورة المصرية »[1] .

***

بلغ نابيير القاهرة فى السابع من أكتوبر أى بعد نقل عرابى إلى سجن الدائرة السنية بيومين ؛ وفى القاهرة أشرك نابيير معه أحد رجال القانون من أصدقائه المشتغلين بالاستشارات القضائية ويدعى المستر ريتشارد إيف ، وظل نابيير يسعى سعيه لدى مالت كما ذكرنا عدة أيام دون أن يظفر بشيء سوى أنه كان يحيله على رياض باشا ...

وحاول نابيير أن يظفر بشيء من السير شارلز ولسن ولكن هذا كان يحيله كذلك على رياض باشا ؛ وتخلص منه رياض باشا بقوله إنه سوف يتصل بالسير إدوارد مالت .

وقدم نابيير مذكرة كتبها صديقه إيف ، إلى رياض باشا يطلب فيها إيف بصفته مستشار عرابى باشا أن يسمح له بالاتصال به فى سجنه ليتفق معه على أوجه

(١) S, H, B, P, 341

الدفاع عنه فى التهم المنسوبة إليه ؛ ولـكن رياضاً لم يرد على هذه المذكرة ؛ وذكر لهما السير إدوارد مالت أن رياضاً لن يقبل إلا محامين وطنيين وأنه سيتصل بوزارة الخارجية يسألها عما إذا كان لديها تعليمات أخرى ...

وكتب نابيير احتجاجاً على منعه من الاتصال بعرابى وعلى موقف رياض باشا منه على الرغم من أنه أعلنه مراراً أنه قدم للدفاع عن عرابى ، وعلى عدم إخبار عرابى حتى ذلك الوقت بمجيىء محام للدفاع عنه ...

وفى الرابع عشر من أكتوبر جاءهما السير شارلز ولسن بالنبأ السار ألا وهو السماح لهما بالدفاع عن عرابى وقرب مقابلتهما إياه

وكتبا من فورهما طلبا قدماه إلى رياض باشا ليدخلا على عرابى ، ولـكن ولسن ما لبث أن جاءهما مرة ثانية يخبرهما بأن الحـكومة المصرية عدلت عن موافقتها

وفى اليوم التالى علما أن مجلس الوزراء المصرى انعقد بضع ساعات وأنه يؤثر الاستقالة على السماح لهما بالدفاع عن عرابى وأصحابه ...

وذهبا إلى مالت واليأس ملء نفسيهما فأخبرهما بأن التحقيق لن يبدأ إلا بعد أن يريا عرابياً والمتهمين وأنه سوف يسمح لهما بالوقت الـكافى لأعداد دفاعهما عنه .

وفى الثامن عشر من أكتوبر بلغ برودلى القاهرة وسمع من نابيير هذه الأنباء وأعجب بنشاطه ونشاط صاحبه وأثنى على حسن مسعاهما ...

وفى الحادى والعشرين من أكتوبر أرسل السير شارلز ولسن رقعة صغيرة إلى برودلى جاء فيها هذه العبارة « اسمح لى أن أقدم إليك نجل عرابى باشا »

وشكا محمد بن عرابى باشا إلى مستر برودلى ما تلقاه أسرته وزوجته من سوء المعاملة والأهانة وبخاصة منذ أن نقل عرابى باشا إلى سجنه الحالى بالدائرة السنية، ولـكن محمداً ما لبث أن طاب نفساً حين علم أن برودلى وصاحبيه ذاهبون من فورهم إلى لقاء أبيه فى سجنه توطئة للدفاع عنه ، ولم يستطع الفتى أن يحبس دمعه من الفرح ...

ودخل المحامون على عرابى يصحبهم السير شارلز واسن ، يقول برودلى « ولما أن ظهر الكيرنل ولسن نهض رجل طويل قوى البنية من فوق سجادة كان يجلس عليها فى ركن إلى جوار النافذة وأقبل يحييه ... وقدمنا إلى عرابى وطلب السير واسن منضدة وبعض الكراسى ... وبعد أن انصرف السير شارلز واسن قدمت إليه كتاباً من المستر بلنت أحضره معه المستر نابيير واستأذننا فى قراءته ..

وبينما كان يفعل ذلك أتيحت لى فرصة نادرة لأدرس وجه رجل هو ملء أسماع أوروبا كلها ؛ ورأيت أنه فى حال سكونه ترتسم على محياه تقطيبة ثابتة ويخالطها عبوس فيلقيان فى روع المرء الشعور بما اصاحبهما من جهامة ؛ ولكنى لم ألبث أن وجدت أن ذلك يرد إلى التفكير الطويل العميق أكثر مما يرد إلى الجفاء أو عنف المزاج ؛ ولقد جعل اعتياد عرابى التفكير الدائم عدداً كبيراً من الناس أعداء له وهؤلاء ممن يحكمون على الأمور بظواهرها .. فإذا تهلل محياه كان التغير الذى يطرأ على وجهه من العجب بحيث يصعب عليك أن تتبين أنه الرجل نفسه ؛ وإن عينيه لتمتلئان بالذكاء ، وإن فى ابتسامته لكثيراً من الجاذبية ؛ ويرى محياه أرق من محيا ابنه ولكن أنفه الأفطس الذى يبلغ فى ذلك حداً كبيراً وشفتيه المالغتى الغلظ يحولان دون أن أصفه بالملاحة ... ويزيد طوله عن ستة أقدام ويتناسب عرضه مع هذا الطول ؛ وقد تغير منظره مادياً أثناء وجوده فى السجن ودلت بإطلاق لحيته الشهباء ؛ ويدور حول معصمه وشم أزرق على عادة الفلاحين ، ولا يدع من يده مسبحته السوداء الصغيرة إلا نادراً ويدير حباتها بين أصابعه أثناء الحديث ؛ وقد انقشعت شيئاً فشيئاً سحب القلق التى أحاطت به وكاد يعود إلى بشاشته قبل أن تنتهى مدة سجنه

وكان عرابى يبتسم غالباً أثناء قراءته كتاب المستر بلنت وكان يرفع يده إلى جبينه علامة الشكران وعرفان الجميل وكانت هذه العادة التى تظهر من عرابى فى تناول رسائله تروعنى دائماً بما تنم عليه بصورة خاصة من كرم السجية ؛ وكانت وداعته على الصورة الخاصة به تؤثر دائماً فيمن لهم به صلة .

وبعد أن فرغ عرابى من قراءة الكتاب استأذننى أن يستعمل المداد والأقلام التى أحضرناها معنا ليكتب كلمة شكر للمستر بلنت وزوجته ؛ ولما فرغ من ذلك أشار عليه المستر إيف أن يكتب توكيلا للمستر نابيير ولى ليكون محامييه ؛ وقد أجاب هذا الطلب فى الحال وختم على التوكيل بخاتمه .. ثم سألت عرابى أن يثق فينا كل الثقة وأن يتكلم فى غير تحفظ عما يدافع به عن نفسه ، فكان أول ما ذكره — وذلك كما فعل من قبله كثير من القواد غيره ممن فاتهم النجاح — أنه وضع سيفه وشرفه بين يدى الجنرال لو وقد فعل ذلك واثقاً كل الثقة أن أعداءه فى الميدان لا خصومه السياسيين هم الذين سوف يكونون قضاته . وقال إنه حفظ النظام ، وراعى أصول الحرب عند الأمم المتمدنة وعامل سجناءه بالرفق والانسانية . وحق له فى الواقع أن يطلب أن يعامل معاملة خيراً مما لقى على أيدينا ؛ أو ليس فى مجيئنا اليوم إليه على الرغم من أعدائه ما يدل على أنه لم يكن مخطئاً من جميع أقطاره ؟ لقد قاد المصريين فى جهادهم من أجل الحرية ، وقطع شوطاً فى طريق النجاح قبل أن توقف جنودنا تقدمه ثم تحطمت مطامحه التى كان يظهرها للملأ بإرادة الأمة كلها وذلك بهزيمته فى التل الكبير ثم سحقها سحقاً لا أمل معه ما أعقبها من قسوة الأتراك والشراكسة ..

وقال عرابى « إنكم إذا بحثتم فسوف تجدون أن مصر كلها كانت إلى جانبى وسوف يمكنكم إقامة الدليل على ذلك فكانت تؤيدنى عائلة الخديو ورجالها القدامى الباقون من عهد محمد على ، كما كان يؤيدنى العلماء والجيش والفلاحون؛ ولكن فى حالتنا الراهنة من القبض والسجن والأرهاب من يعترف بى الآن ؟ إنى لن أعجب إذا أنكرنى أولادى أنفسهم تلقاء وجهى إذا مثلوا أمام لجنة التحقيق » ...

وذكر عرابى ما لحقه فى سجنه قائلا إنه إذا كان يعامل هذه المعاملة فماذا عسى أن يبقى لأتباعه وبخاصة الطبقة المتواضعة من أمل ؟ ثم ذكر أن أتباعه فى طول البلاد وعرضها قد ألقى بهم فى السجون ، وأن كل من يعرف هذه البلاد يدرك ما يكون لهذا من تأثير فى عقول الناس ؛ ولقد استجوبته اللجنة ولكن

لم يكن له حيلة إزاء ما سمته أدلة ذكرتها ؛ وإنه ليخاف مما رأى أن يجبن أقوى أتباعه جنانا من أمثال محمود سامى ويعقوب سامى وذلك لما يرون من تعذيب أدنى وبدنى ولما يحسونه من عجز فى وضعهم الحالى ..

وفيما يتصل بسلوكه هو فأنه يحسب أن لديه دفاعاً جيداً عنه ، وقال « إنى أقسمه قسمين ، ما حدث قبل ١١ يوليو وما حدث بعده ؛ ولن أعد عاصياً فى هذا ولا ذاك. فلقد وافق الخديو على رأينا فى وجوب الرد على نيران الأنجليز وعبر السلطان مرات عن رضائه عن أعمالى . وبعد ذلك أصبح الخديو أسيراً عندكم ، وبقيت أنا أنفذ أوامر مجلس الوزراء التى أيدتها الأمة كلها وأكسبتها مشروعيتها والتى ظل السلطان يقرها ؛ وإذا كان الخديو والسلطان رئيسى فإنى أكون عدواً لكم ولكنى لن أكون عاصياً لهما . وإنى آمل أن أستطيع إقامة الحجة على ما أقول ولست أخاف شيئاً طالما أنه لم تكن لى صلة بفتنة الأسكندرية فى يونيو ولا بما أعقب ضربها من تخريب ونهب »

ووعد عرابى أنه حالما يستطيع مقابلة ابنه سوف يمدنا بما يفيد قضيته من أوراق ؛ وقال إنه يتوق إلى أن يضع بين أيدينا تعليمات تتصل بالدفاع عنه ولا ينقصه إلا أن يسمح له ببعض أدوات الكتابة ..

وأفصح عرابى عن أمله ألا ننسى إخوانه السجناء حتى ولو وجدناهم أجبروا على أن يرموه بالتهم أو يشركوه معهم فيما يتهمون به وكل ما طلبه فيما يتصل بالسجن هو أن يسمح له بالنور ليعمل ليلا ، وأن يسمح لخادمه بأحضار الطعام إليه حتى مكانه ؛ ثم شرح لنا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى ما يتعرض له الطعام من خطر بمروره بين أيدى الحراس الشراكسة ، وقص علينا كيف أوشك صديقه عبد العال أن يموت مسموماً فى مرحلة مبكرة من مراحل الحركة القومية ؛ ولهذا ليس مما يدعو إلى العجب فى مثل هذه الظروف أن يطلب إلينا عرابى أن يوضع حراس من الإنجليز داخل السجن كما يوضعون خارجه .

وغادرنا السجن وفى نفوسنا شعور طيب جداً تركه فيها حديث موكلنا

ذى الصيت الذائع وما رأيناه من ثباته وتجمله . »[١]

هذا ما ذكره برودلى عن عرابى فى سجنه والحق إنه لما يدعو إلى الأعجاب بزعيم الحركة القومية ؛ ولكم يروقنا هذا الوفاء الذى يتجلى فى توصيته بأخوانه حتى ولو آذوه وذلك مع ما هو فيه من محنة ، وهكذا شأن عظماء النفوس وأحرار الشمائل ...

ولقد أثنى بلنت على شجاعته وقوة روحه وحرصه على كرامته قائلا إنه كان يمتاز إلى درجة عالية بالشجاعة الأدبية وأن الفرق كان عظيما بينه فى تجمله وثباته وبين أكثر الذين سجنوا مثله ، ولم تخب قط شجاعته فى أن تحمل على الأعجاب به كل من رآه ؛ وذكر بلنت من أدلة شجاعته ما كتبه بلا تردد فى سجنه من تقرير أثبت فيه تاريخ الحركة القومية فى صراحة وأسلوب أخاذ

ولقد جاء فى هذا التقرير ما يدل حقاً على إباء نفسه وشجاعة روحه وعلى أنه فطر على الشمم والقوة . ومن أمثله ذلك قوله « دخل الخديو الأسكندرية وأسلم نفسه وقد أخلت المدينة من الجيش ومن الناس ، ولم يكن تبعاً لقوانيننا مما يليق بحاكم أمة ولا مما يُسمح به أن يفعل ذلك فينحاز إلى أمة تحاربنا ، أمة عقد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها ؛ وإن قانون الأنسان وإن كلمة الله لينهيان عن هذه الأعمال الهادمة للشرف . ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلماً ولا أن يحكم فريقاً من المسلمين »

وقوله عن الحرب إنه يدهش كيف أن دولة عظيمة الصيت كأنجلترة تقول إنها صديقة الأنسانية وأنها تحرر العبيد وتحترم القوانين التى تبين الحق من الباطل ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة أمة كل جريمتها أنها قاومت حاكمها حين رأته لا يحترم قانون شعبه ولا حقوق هذا الشعب »

ومن أدلة شجاعته كذلك فى هذا التقرير ذكره ما لحقه من إهانة فى سجنه

---

(١) How we Defended Arabi P. 56—70.

وتعقيبه على ذلك بما أشرنا إليه من قوله إن هذا يصرخ فى وجه الشرف البريطانى وفى وجه كل إنجليزى …

وهذا التقرير تلخيص أمين حسن السياق الحركة القومية وأطوارها والحرب وأدوارها ، وقد كتبه عرابى فى سجنه مع ما كان يحيط به من آلام وبغير أن يرجع إلى كتاب أو مذكرة وفى ذلك برهان قوى على خصوبة ذهنه وحسن إلمامه بما يجرى حوله …

وبعد فهذه قصة الدفاع عن عرابى نبسطها صفحات مشرفة ونقذف بها على باطل الذين يكتبون التاريخ بلا علم والذين يكتبون عن هوى فيقولون كيف يليق بزعيم وطنى أن يدافع عنه محاميان إنجليزيان . فهل غاب عن هؤلاء صفة المحكمة العسكرية التى ألفت لمحاكمته وهل غاب عنهم ما كان يريده توفيق ورياض به فى غير وازع من ضمير أو رادع من قانون ؟ أم أنهم يعلمون ذلك ومع علمهم هذا يطلبون من الرجل أن يسلم نفسه إلى من يريد قتله بأى ثمن فلا يدافع عن نفسه دفاعاً ينقذ به شرفه حتى ولو لم ينقذ به حياته ؟ وإذا قيض الله له هذا الدفاع على يد صديق مد له يد المعونة فى محنته ، أكانوا يريدون منه أن يرفضه ؟ وأين كان يجد عرابى الدفاع الوطنى عنه ؟ أكان يجرؤ أحد من المصريين حتى على أداء الشهادة الحق عنه وسيف الطغيان مسلط على الأعناق ؟ وأين هم المصريون ومنهم ثلاثون ألفاً فى السجون ؟

الحق أننا فى حيرة مما يقول هؤلاء الجاهلون والمغرضون وفى عجب كيف لم يدعوا ناحية من حياة عرابى إلا شوهوها بالباطل ، وحاولوا طمس حقائقها باللغو ، ولكن الباطل لا يعيش واللغو لا يجدى شيئاً ولن يموت الحق ولا مناص من أن يظهر وإن طال احتجابه .

ومن أسخف أنواع البهتان وأدلها على جهل هؤلاء الذين كتبوا عن عرابى كتابة هوى وحقد ، قولهم إن الأنجليز كانوا يعطفون عليه

وأن جلادستون كان يهتم بحياته ؛ وأنه كتب فى السجن يتملق الحكومة الأنجليزية وأن ذلك من أشد ما يعاب على زعيم وطنى ؛ ولن يعترف هؤلاء له بالزعامة الوطنية إلا حين يتمنون أن ينالوا منه بأفكهم وما ينالون إلا من أنفسهم ولكن لا يشعرون ! ولقد بينا مبلغ ما بين أقوالهم هذه وبين الحق من بعد وفصلنا كيف آن للتاريخ أن ينصف عرابياً على الرغم من باطل هؤلاء المبطلين وجهل هؤلاء الجاهلين ...

ويؤلمنا قبل أن ندع الكلام عن البطل السجين أن نشير إلى ما حل ببيته وأهله ، وهو من أشد الأدلة على ما بلغ بالطاغين من روح الطغيان وعلى مبلغ ما هووا إليه من انحطاط فى الخصومة بل من بعد عن الأنسانية ...

كان أول ما شكا منه محمد أحمد عرابى إلى برودلى ما يتعرض له هو وأمه وأسرته من إهانات متصلة على أيدى بعض خدم الخديو وأتباعه ، وقد أشار إلى ذلك برودلى كما أسلفنا عند كلامه على لقائه نجل عرابى

وذكر بلنت فى صدد الكلام عن أوراق عرابى أن زوجته وأهله لم يسمحوا لمحاميه ومن معه بالبحث عنها إلا بعد لأى وذلك لأنهم فيما كان يحيط بهم من إرهاب قد سبقت لهم كذلك بعض « الزيارات » من جانب خدم الخديو وأعوانه.

ويذكر برودلى فى كتابه ما يأتى : « عند دخولنا القاهرة كان قد تحطم أثاث عرابى كله أثناء البحث عن أوراق تثبت إدانته وخيانته ، وقد تمزقت الفرش والوسائد ... وكانت قد طلبت الليدى ستراتجفورد أن تأخذ المنزل وأعطاها الخديو إياه ، ولست أدرى كيف استولى عليه ؛ وكانت حجراته الفسيحة المرتفعة التى كانت قبل ذلك بثلاثة أشهر تزدحم بالمعجبين ملائمة كل الملاءمة لما استعملت فيه الآن »

وكانت هذه السيدة قد أحالت بيت عرابى إلى مستشفى وقد امتلأت حجراته بالجرحى من ضباط الأنجليز وعساكرهم ومما يذكره برودلى أن بعض خصوم عرابى قد خوفوا هذه السيدة من قطة سوداء كبيرة ذات ذنب أبيض كانت لا تزال تغشى البيت كأنما تبحث عن سكانه السالفين ؛ وكانوا يحدثونها عما به

عرابى فى المنزل من الأرواح الشريرة ، ولكن عرابياً وقد علم بذلك من برودلى أرسل إليها صورته وشكرها على عملها الأنسانى قائلا إنه ليس أحب إليه من أن يستعمل بيته فيما استعمل فيه ...

وقالت أخت الخديو ذات مرة لصديقة من صديقات الليدى سترانجفورد : ليت عرابيـاً يصيبه المرض فينقل إلى هذا المستشفى لنعطيه فنجاناً من القهوة على الطريقة الشرقية ...

وامتدت قسوة خصوم عرابى إلى المرضى والأطفال من المرضى ، فقد أصاب المرض طفلا له ، فلم يجرؤ طبيب وطنى على التقدم لعلاجه ؛ ونحب أن ينظر فى هذا الذين أنكروا منه أن يستعين بمحامين من الأنجليز ...

ولما ضاقت السبل بنجله محمد ، ذهب إلى مستر برودلى وشكا إليه هذا الاضطهاد ، وأرسل برودلى إلى طبيب إنجليزى صديق كما أرسل نابيير إلى طبيب الليدى سترانجفورد ، فذهبا من فورهما لمعالجة الطفل وأديا هذا العمل الأنسانى الذى أحجم عنه الأطباء المصريون فكان إحجامهم مثاراً للغط جديد من جانب القصر إذ قال شيمة الخديو إن فى ذلك لدليلا على أن عرابياً ليس يحبه أحد .

أما الذين يشايعون عرابياً فقد رأوا كما يذكر برودلى فى هذا العمل دليلا على قسوة خصومه ... وتجادل الطبيبان على صفحات الجريدة الطبية الأنجليزية فيمن كان له منهما شرف معالجة ابن عرابى وتخاصما فى ماهية المرض الذى ألم به .

واهتمت جريدة التيمس نفسها بالأمر فنشرت كلمة بعنوان « طفل عرابى » قالت فيها « ترى الصحيفة الطبية الأنجليزية أن طفل عرابى الذى أصيب بمرض قيل إنه خطير والذى أحجم الأطباء المصريون لأسباب سياسية عن معالجته مصاب بتهيج فى الجلد وقد تبين ذلك بعد عرضه للعلاج على أطباء بريطانيين » .

ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف تصل القسوة ببعض بنى الأنسان إلى حد أن يجعلوا إسعاف طفل مريض عملا يجلب الغضب على صاحبه ، ولولا أن رأى

الأطباء المصريون ذلك ما أحجموا عن معالجة هذا الطفل المسكين ؛ وفى هذه المسألة وحدها ما يكفى لبيان مبلغ ما كان يحيط بعرابى وأهل عرابى من اضطهاد ومبلغ ما كان يشيع فى مصر كلها من إرهاب .

وهكذا يتنكر الناس لعرابى إلا الفلاحين والعامة فقد كانت قلوبهم معه وإن لم يملكوا له عوناً ، وكثيراً ما كانت تطوف جماعات منهم بسجنه ، يتطلعون ولا يتكلمون ولا يرون شيئاً إلا الحراس من الأنجليز ، فينصرفون وهم يدعون الله أن ينقذه من الموت …

زاره ذات صباح مستر برودلى فوجده فى شغل بكتابة مذكراته التى كان يكتبها فى ثبات ويقين ونشاط : يقول مستر برودلى « ثم وجه عرابى الحديث إلى فجأة قائلا : أتحب أن أريك برهانا على أن شعب مصر كان معى ؟ أنظر هنا . وأخذ بذراعى وقادنى إلى نافذة فرأيت خلال ثقوبها عدداً من النساء والصبية يبكون على الجانب الآخر من الشارع وكان يزداد الازدحام شيئاً فشيئاً كل يوم حتى ليضطر الحراس إلى تشتيتهم ، ولم أر عرابيا أكثر ضيقاً مما رأيته عند ذاك »

ويقول برودلى إن كثيراً من الأوروبيين كانوا يعطفون على عرابى فى سجنه ، وقد أرسل محاميان ، أحدهما إنجليزى والثانى فرنسى إلى برودلى يقترحان بعض أوجه الدفاع عنه ، وكانت سيدات أمريكيات يتنافسن بغية الحصول على صورته وكن يرسلن إليه تحياتهن راجيات له الخلاص من أعدائه .

مهزلة المحاكمة

عقدت لجنة التحقيق أو القومسيون المخصوص كما كانت تسمى أولى جلساتها فى اليوم العاشر من أكتوبر برياسة إسماعيل أيوب باشا وبدأت أعمالها باستجواب أحمد عرابى باشا ، وقد استغرق استجوابه ثمان جلسات وامتد بضعة أيام ؛ وكان مما تريد اللجنة أن تلصقه بعرابى من التهم تدبيره مذبحة الأسكندرية ثم إحراقها بعد إطلاق مدافع الأسطول قذائفها على الطوابى ، وعدم مراعاة القانون الحربى الخاص برفع الراية البيضاء ، وعصيان الخديو ...

واستجوبته اللجنة أياماً فلم تستطع أن تفحمه فى مسألة واحدة ، وإن من يطلع على محاضر استجوابه ليزداد إعجاباً به وإدراكا لحقيقة شخصيته ، فلم يتنصل عرابى من حادث ، وترفع أن يكذب أو يداجى أو قل إنه بطبعه لم يستطع أن يكذب هذا إلى حضور ذهنه وقوة بديهته ومتانة حجته وشجاعة قلبه ، ولولا أن هذه المحاضر تقع فى قرابة مائتى صفحة ما تركنا منها كلمة واحدة الا أوردناها ، وقصارانا أن نلم بأهم ما جاء فيها ...

ناقشته اللجنة فى الجلسة الأولى فى مظلمته إلى رياض باشا بشأن عثمان رفقى فأجاب بما لم يخرج عن كلامه وقت تقديم هذه المظلمة ، وكذلك كان الحال فى إجابته عن حادث قصر النيل وقال إن الخديو أصدر عفوه عما وقع فكأنه لم يكن ...

وسئل عن ذهابه بالجند إلى قصر الخديو « ولماذا تجاسر على هذا الفعل المضاد للنظام العسكرى » يوم عابدين ؛ فأجاب بقوله « إن الأسباب التى دعت لذلك هى عدم الأخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات شأن البلاد التى لم يكن فيها قوانين أوفيها ولم يراع فيها الأجراء على مقتضاها فلذلك اعتمد أعيان البلاد على أبنائهم رؤساء العسكرية وتاقت أنفسهم إلى تشكيل مجلس نيابى بالبلاد يحفظ لهم حقوقهم ويدفع

(بعض المصريين حول سجن عرابى)

عنهم ما ألم بهم من المظالم ... فأجمعوا أمرهم على ذلك وتحرر منهم بذلك عرضحالات وختم عليها من نحو ألف نفس من عمد وأعيان وتجار وغيرهم ولخوفهم من البطش بهم أنابونى مع إخوانى الضباط فى عرض طلباتهم لكوننا إخوانهم وأبناءهم وهم أهلونا يضرنا ما يضرهم وينفعنا ما ينفعهم »

ووجهت إليه اللجنة سؤالا فى غاية السخف هذا نصه : « لو فرض أن الحضرة الخديوية لم تسلم بهذه الطلبات فماذا كان يحصل » ؟ وما أعجب وأغرب أن يسأل المرء عن شىء لم يحدث ! وإن هذا فى سخفه ليذكرنا بقصة الخجول الذى سأل عروسه أيحب أخوها التفاح ؟ فلما ذكرته أن ليس لها من أخ عاد فسألها « أقصد إذا كان لك أخ أكان يحب التفاح » ؟

ورد عرابى على لغو اللجنة بقوله : « لا لزوم للفرض والتقدير لأننا واثقون بكرم الخديو ووفائه بوعده » ..

واتهمته اللجنة بأنه نادى مع المنادين بخلع الخديو فى اليوم التالى لسقوط وزارة البارودى ، فانظر إلى إجابة هذا الرجل الذى رماه خصومه بالجبن قال « مما توضح يعلم أنه لشدة تأثير اللائحة المذكورة التى قبلها الجناب الخديو ، ما كان يمكن قبولها ولو أدى ذلك إلى خلع الخديو وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى » ...

وسئل لماذا لم يغادر مصر مع علمه بقبول الخديو اللائحة ، فأجاب فى شجاعة بقوله : « إن أفكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الأمة منعتنى من ذلك ، وأما ما ذكر من لزوم موافقة النظار للحضرة الخديوية لما لها من الامتيازات الخصوصية فذلك لا يكون أمراً لازماً فى الحكومات الشورية خصوصاً وأن جنابه الكريم أوجب على نفسه جعل الحكومة شورية وأن يشترك مع نظاره ونواب البلاد فى الرأى ؛ ولحرص النظار على تلك الامتيازات وما رأوا فى قبول تلك اللائحة من التدخل فى الأمور الأدارية ومس الامتيازات المصرية لم يصر قبولها كما تقدم الإيضاح بالأجوبة السابقة » .

وسئل عن رفضه ما أشار به عليه درويش باشا من الذهاب إلى الآستانة

فقال : « قلت له إنى أود ذلك بل هو أعظم شىء أعناه ولكن اتعلق الناس بى وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لا يمكنوننى من تناول غذائى الذى هو من ألزم لزومياتى الماشية إلا بمشقة ، أخشى أن يحولوا بينى وبين ذلك إذا علموا أنى أريد السفر إلى خارج القطر لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية » .

وانتقلت اللجنة إلى مأساة الأسكندرية فاتهمت عرابياً بأنه أرسل تعليمات إلى وكيل الجهادية بإبعاد الشبهة عن الأهالى والعساكر وهذا ما يفهم منه أن الحادثة « إما أن تكون بأمركم أو بتعليماتكم » ...

ونفى عرابى أن يكون حادث كهذا من تعليماته وهو الذى يحافظ على الأمن حرصاً على سمعة مصر ؛ وكان اتهام اللجنة ضعيفاً جداً فى هذا الحادث فلم تجد لديها إلا كتاباً من عرابى كان قد أرسله إلى وكيل الجهادية المنتدب فى لجنة تحقيق ذلك الحادث فتلته عليه وسألته هل له علم به وكيف يقول مع ذلك إنه لم يرسل تعليمات؟

والذى يدعو إلى الدهشة حقاً أن هذا الكتاب مما يصح أن يقدمه عرابى دليلاً على براءته وهذا مما يدل على تخبط اللجنة وأنها كانت تريد مجرد الاتهام لعلمها أن الحكم فى نهاية الأمر معروف ، فلم يكن الغرض الوصول إلى الحق وإنما هو تحقيق صورى فحسب ...

وقد جاء فى هذا الخطاب قول عرابى « ولا تقبلوا كل ما يقال فى جانب الوطنيين والحكومة من غير تدقيق وبحث طويل وتحقيق تعرفون صدقه وعدم تصنعه ولا تميلوا بجانبكم لأحد من أعضاء اللجنة خشية أن يخدعكم ويستميلكم لأمر ظاهره الأصلاح وباطنه الفساد ... وأما ما يلزم للمراقبة العمومية فيلزم أن تلاحظوا البلد وأخبارها وتتثبتوا مما تسمعونه وترونه وتبادروا بإخباركم أولا فأولا عن جميع الأعمال » .

وأجاب عرابى بقوله : « نعم صدر منى هذا الجواب الذى هو عبارة عن الأخذ بالحزم فى إظهار الحقيقة والعمل بالحق وليس فيه ما ينكر عليه » ...

وسئل عن سبب إصراره على عدم إبطال التجهيزات بالطوابى وعدم امتثاله لأمر الخديو فقال « إنه على حسب العادة السنوية كان جارى ترميم بعض طوابى اسكندرية ولما ورد تلغراف من الحضرة السلطانية إلى الحضرة الخديوية بناء على تبليغات سفير إنجلترة بالآستانة بأبطال إنشاء تجديد استحكامات اسكندرية إذ يعد ذلك تهديداً للمراكب الحربية الأنجليزية ، وصدر أمر الخديو بذلك فى الحال صار إبطال الترميمات وتعيين من لزم من رجال المعية لمشاهدة إبطال العمل » .

ومن أهم ما سئل عنه فى الجلسة سبب رفضه أمر الخديو وعدم مجيئه إلى الأسكندرية وتلى عليه كتاب الخديو الذى استدعاه فيه ، فأجاب عرابى فى صراحة وشمم قائلا « إن الحرب التى حصلت لم يسبق لها مثيل إذ هى خارجة عن حد القياس حيث أن الحرب المذكورة ما صار إجراؤها إلا بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من النظار والذوات الاختيارية تحت رياسة الحضرة الخديوية بحضور أعضاء الوفد العثمانى ، فكان إجراؤها على مقتضى الحق والقانون . ثم بعد خروج العساكر من اسكندرية توجه الجناب الخديو من سراى الرمل إلى داخل اسكندرية التى تركها أهلها والعساكر فلما بلغنا ذلك تحقق لنا أن انتقال جنابه العالى إلى الأسكندرية مع حصول المناوشات الحربية بين مقدمات العساكر المصرية والعساكر الأنجليزية إما أن يكون لأخذه أسيراً وإما لانحيازه إلى الطرف المحارب لبلاده ، فمن أجل ذلك كتبنا لوكيل الجهادية يعقوب باشا سامى بما حصل للمشاورة مع رجال الحكومة فى هذا الأمر الذى لم يسبق له مثيل .

وبناء على ذلك صار عقد اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والأمراء والعلماء وشيخ الأسلام والقاضى السيد السادات والسيد البكرى وأعيان التجار والعمد وغير ذلك تشاوروا فيما بينهم فى هذا الأمر الذى دهم البلاد واستقر رأيهم جميعاً على إعطاء قرار بعدم استماع أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الأعمال حيث أنه توجه للطرف المحارب للبلاد وعرضوا ذلك تلغرافياً للحضرة السلطانية ببيان أسماء الشاهدين من أعضاء ذلك المجمع العام »

وفى الجلسة الرابعة سئل عن صلته بنديم وهل يعلم أنه سافر إلى الأسكندرية قبيل المذبحة فأثارفيها الفتنة وعما كان يكتبه بجريدته « الطائف » وأجاب عرابى بأنه لم يعلم بأثارة الفتنة ولم يكن له أن يمنع نديماً عن كتابة ما يشاء فى جريدته

وسئل عن سبب اختفاء حسن موسى العقاد فأجاب بقوله « يؤخذ من هذا السؤال أنى أسأل عن كل من غاب من الناس ولم يوجد ، مع أنى لست بمأمور عليهم ولا مسؤول عنهم »

وسئل عن صلته بحليم باشا وهل وصلت إليه من الآستانة صورته « فأجاب بأنه وصلته صورة منه وأن كثيراً من الناس وطنيين وأجانب كانوا يرسلون إليه صورهم

ووجهت إليه اللجنة هذا السؤال « لما كنت بكفر الدوار هل صدر منك تلغراف إلى كل من راشد باشا قومندان خط الشرق ومحمود فهمى باشا رئيس أركان حرب بردم قنال السويس المالح وسد الترعة الحلوة ! »

وأجاب عرابى بقوله « التلغرافات التى تداولت بينى وبين المسيو دى لسبس تعلن وتؤكد احترام قنال السويس ما دام على الحياد ولم تتخذ فيه أعمال حربية فلغاية دخول المراكب الحربية الأنجليزية فى قنال السويس وحصول الضرب منها فى نفس الأسماعيلية على العساكر التى كانت بجهة نفيشة كان قد حصل احترام القنال المذكور . ومن بعد ذلك حيث اتخذ القنال المذكور ميداناً للحرب وانا الحق فى كل ما أمكن إجراؤه من الأعمال الحربية ، إذ ذاك تحرر لرئيس أركان حرب محمود فهمى باشا بتلك الجهة باتخاذ ما يمكن إجراؤه من التدابير الحربية وسد الترعة الحلوة لما صار إعلان الموسيو دى لسبس بأن الحالة الحربية جبرتنا على ذلك لعدم احترام الأنجليز لحياد القنال »

وسئل عرابى عن المجلس العرفى من شكله فلم ينتصل منه وقال إن الذى شكله وكلاء النظارات بموافقته

وأهم ما وجه إليه فى الجلسة الخامسة أن ما سماه مساعدات من جانب الأمة لم يكن إلا إجباراً لها على ذلك بالقوة فأجاب « قد قلت بأجوبتى المتقدمة فى هذا

خصوص أنه لا يتصور أحد اصلا حصول تهديدات بمجلس مؤلف من أعيان الأمة المصرية ورؤسائها ونبهائها يزيدون عن الأربعمائة نفس كما أن المساعدات والتبرعات التي كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية لم تكن بتهديدات أيضاً بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومن الناس من تبرع بماله أجمع ابتغاء مرضاة الله وغيرة على الوطن ، ومنهم موسى باك مزار تبرع من ماله بثلاثة آلاف أردب غلال وثلاثين رأس من الخيل وألف ومائتي ثوب بفتة تبرعاً لمساعدة الجيش إذ أن الحرب الشرعية إما أن تكون بالنفس والمال أو بالمال فقط أو بالرأى ، ومنهم حميد بك أبوستيت تبرع بألف وخمسمائة أردب غلال ، ومن ضمن من تبرع وافتتح باب المساعدة دوائر العائلة الخديوية وفي مقدمة الجميع دائرة والدة الخديو السابق وأغلب الذوات تبرعوا أيضاً ، ولو استكشفت التلغرافات التي كانت ترد من جميع أهالي المديريات حتى من مديرية إسنا بدون واسطة مديرياتهم يعلم أن الأمة المصرية جميعها كانت محاربة بمالها ونفسها ، ورأيها متفق على ذلك ولو استكشفت قوائم التبرعات لعلم أنه لم يتأخر أحد من أولى الرياسة في المساعدة ، ومن ضمنهم دائرة سعادة خيرى باشا حالة كونه لم يشهد الحرب بل كان في الأسكندرية مع الخديو عند الأنجليز ، ومن ضمنهم دائرة دولتو رياض باشا ، غير هؤلاء ، أفكل هذا كان جبرا عن جميع الناس ؟ ومن ذا الذي كان يجبرهم ؟

إن هذا الأمر حق تعرفه أهل البصائر الثاقبة والضمائر الحقة ؛ وأما الذين وجدوا مسجونين في القلعة فأعظمهم لا يزيدون عن مائة نفس من أرباب الجنايات المحكوم عليهم بالحبس ومحضرين من المديريات وأنه لم يصدر مني أصلا أمر بسجن أحد في القلعة أو غيرها ، وأما طلب ابراهيم باشا أدهم فذلك مبنى على ما حصل بطنطا بين مهاجرى اسكندرية وبين الأوروبيين ؛ كما أن شاكر باشا وغيره لم يكن عزلهم من المديريات التي كانوا بها إلا بأمر المجلس الأدارى لا بأمرى » .

وفي الجلسة السادسة اطلع عرابي على كتاب وقع عليه بأنه رئيس الحزب الوطني وسألته اللجنة سؤالا يدل على تعسفها ولغوها قالت « تعلمون أنه بالممالك

المنتظمة ووجود الحضرة الخديوية بمقر الحكومة ، لا يجوز وجود أحزاب حتى تمضوا تلك المكاتبة بصفة رئيس الحزب الوطني فهل تصرح لكم من الحضرة الخديوية بذلك ؟ وإن كان لم يتصرح لكم فهل جعل نفسكم رئيساً لحزب داخل الحكومة لا يعد عصياناً ؟ ، وإن كنتم ترتكنون على عدم وجود وظيفة لكم وقت تحرير هذا الجواب أفما كان يمكن أن توضعوا في الأمضاء ناظر الجهادية سابقاً كالجارى فيمن يرفتون من مأمورى الحكومة ؟ » ... وأجاب عرابى بقوله « من المعلوم بداهة أن مصر مأهولة بأجناس مختلفة وعناصر متنوعة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزباً كما أن أهل البلاد وهم حزب قائم بذاته يعتبر عند الآخرين منحطاً عنهم ويطلقون عليه لفظ فلاحين إذلالا لهم وتحقيراً ، وأولئك هم الحزب الوطني وهم أهل البلاد حقيقة . وحيث أنهم أنابونى عنهم فى طلب ما يكفل لهم الحرية فى حفظ الحقوق وكنت أنا القائم بطلب ذلك ولم تكن لى صفة فى الحكومة فى ذلك الوقت فوضعت إمضائى بذلك لما لى من حق الرياسة على الحزب الوطني وليكون ذلك أدعى لاجتناب ما يخل بأمر الراحة العمومية كما هو واضح بالكتاب المذكور ولا يعد ذلك عصياناً لأن كل أمة من الأمم المتمدنة الراقية فيها أحزاب مختلفة قائمون بحفظ حرية بلادهم والمدافعة عن حقوقهم » .

وفى الجلسة السابعة وجه إليه السؤال الآتى : « قد وجد فى الأوراق التى ضبطت ورقة محرر فيها صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديو لأسباب تمويهية مخترعة فى تلك الصورة فها هى الورقة المذكورة اطلع عليها وأفد»

ونفى عرابى معرفته بهذه الورقة وقرر أنها ليست بخطه وقال إنه ربما كانت مع أحد الناس «وتركها على الترابيزة التى عليها الأوراق»

وسألته اللجنة هذا السؤال « فى مدة أيام سقوط وزارة محمود سامى كنتم جارين تحرير محاضر بمنزلكم بعزل الخديو وجارين إحضار الأهالى والعلماء لتختيمهم عليها بالجبر عنهم واستحضارهم لمنزلكم كان بواسطة ضابطين من الآلايات وأشخاص من مستخدمى الضابطية كما هو متضح من التحقيقات التى

جرت بهذا القومسيون فأفيدوا عن اسباب ذلك »

وأجاب عرابى « لما تقدمت اللائحة المقدمة من قنصلى دولتى الأنجليز وفرنسا وقبلها الخديو ولم تقبلها الوزارة ، وحضر أعضاء مجلس النواب وأشيع ذلك بين الناس توارد الناس أفواجاً أفواجاً من المديريات والمحافظات ومصر واسكندرية لرفض اللائحة المذكورة ورفض من يقبلها محررين بذلك أعراضات ومحاضر . أفهل كذلك كان كل هذا جبراً على الناس و كنت أنا الجابر لهم ؟ ألحق أن جميع المسلمين تأثروا لقبول هذه اللائحة وأنكروها بل إن جميع المصريين أنكروها لما فيها من تداخل الأجانب فى أمور البلاد الداخلية »

وسألته اللجنة « إلى أين توارد الناس ! هل إلى منزلكم أو لأى جهة وهل كانت المحاضر التى يحررونها ترد إليكم مختومة أو تختم بمنزلكم وما الذى أجريتموه فى ذلك ؟ »

أجاب بقوله « كانت تأتى المحاضر مختومة وكان حضور الناس بها جهرة لا خفية وبحضور الجميع لمنزلى ولمنزل رئيس النظار محمود باشا سامى ، وكانوا يأتون بها ويقدمونها إلينا إعلاناً بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها . وكان ذلك بحضور كثير من أعضاء مجلس النواب وكلهم مصادقون على ذلك . وكما قلنا أولا إن الأمة المصرية لم تختلف فى هذه الكارثة ، وكانت تلك المحاضر باقية بطرف أربابها وبحضور دولتو درويش باشا وتشكيل وزارة راغب باشا وصدور العفو العمومى صرف النظر عن هذا وذاك »

ولم يكن فى الجلسة الثامنة شىء ذو بال ، وعلى ذلك فرغت اللجنة من التحقيق ومنه يتبين أن ما وجه إليه لم يعد حد الاتهام ، فلم تستطع اللجنة أن تثبت عليه شيئاً مما حاولت أن تلصقه به من عصيان أو فتنة أو إحراق ؛ ولو أن أن هذا التحقيق أجرته لجنة عادلة لما وجدت فيه ما يدعو إلى إرسال المتهم إلى المحكمة ...

واستدعت اللجنة عدداً كبيراً من المتهمين ومن الشهود ، وليس يعنينا إلا أقوال زعماء الحركة من أصدقاء عرابى . وهم على فهمى وعبد العال حلمى ومحمود سامى ويعقوب سامى وطلبة عصمت ومحمود فهمى ... وقد نفوا جميعاً كل ماحاولت اللجنة إلصاقه بعرابى من التهم وبخاصة فتنة الإسكندرية وإحراقها ...

أما تهمة العصيان التى وجهتها اللجنة إليهم جميعاً ، فكانت تتلخص فى أنهم أطاعوا عرابياً بعد أن علموا بقرار عزله ؛ وكانت إجاباتهم عن ذلك قوية إذ أنهم أرجعوا ذلك إلى رأى الأمة ممثلة فى المجلس العام الذى أقر بقاء عرابى واستمرار القتال وعدم إطاعة أوامر الخديو .

وكانت إجابات كل من على فهمى وعبد العال حلمى قائمة على تصوير الوقائع صورة شرعية لا أثر فيها لعصيان الخديو ، ولكن لم يحاول أحدهما أن يسىء إلى عرابى أو إلى الجند بشىء ...

أما البارودى فقد أساء إلى الحزب العسكرى بأن نسب إليهم العنف والأرهاب وقال إن إرهابهم تناوله هو كذلك بالذات ، ولكن البارودى لم يذكر عرابياً بسوء ولا اتهمه بشىء ...

ولما سئل البارودى عما يعلمه عن حريق الإسكندرية أجاب بقوله « هذه المسألة شنيعة جداً وكل الناس وبالجملة أحمد عرابى استقبحها »

ومما يعاب على البارودى أنه حاول التنصل من مسألة اعترف بها أكثر المتهمين ولم يجدوا فيها ما يدعو إلى التنصل منها وهى مسألة القسم الذى أدوه بقشلاق عابدين والذى تلى عليهم صيغته الشيخ محمد عبده ؛ ولما واجهته اللجنة بالشيخ محمد عبده قال البارودى إن الشيخ محمد عبده يكذب ؛ ولما واجهته بيعقوب سامى باشا عاب عليه يعقوب باشا إنكاره وذكره بأنه كان حاضراً وأقسم مع من أقسموا فاضطرب البارودى وناقض أقواله السالفة ...

واعترف محمود فهمى بأنه أسلم نفسه للانجليز طائعاً ، وهذا يتفق مع رأى عرابى فى هذا الحادث قال محمود باشا : « أما أنا وخادمى فسكنا ضفة الترعة البحرية

قاصدين الحسمة فسألني خادمي عن قصدي فقلت له إننا سنتوجه لطرف الأنكليز وأمرته بقطع غابة وتعليق منديل أبيض فيها ، وحصل ذلك وتوجهنا ودخلنا عند الأنكليز في مقدمة جيشهم فقابلني ضابط إنكليزي يعرف فرنساوي ولما رآني لابس ملابس ملكية قال لي أنت شيخ البلد ؟ فقلت له نعم » .

وسألته اللجنة « لماذا كنت لابساً ملابس ملكية ؟ »

فأجاب بقوله : « لأني ما كنت أريد أن أحارب ، فإني لو كنت أريد المحاربة كنت لبست كسوتي الرسمية وطبنجتي وحاربت »

ولما سئل محمود باشا فهمي عما يعلم عن إحراق الأسكندرية ، شهد أن عرابياً اهتم بالأمر ولم يرض عنه وأرسله في طلب سليمان سامي فلما حضر سليمان نهره عرابي وقال له « إني برىء مما فعلته »

ومما يجدر بنا الأشارة إليه في هذا المقام بعض أقوال الشيخ حسن العدوى وكان شيخاً يستشرف للثمانين فلم تفل السن ولا السجن من شجاعته ؛ ولندع لبرودلي أن يقص علينا ما شهده من بسالة هذا الشيخ الجليل الذي تبيض به وبأمثاله صفحات التاريخ المصري ...

قال برودلي : « وفي صوت كصوت الرعد سأل إسماعيل أيوب باشا الشيخ الضعيف الطاعن في السن ألم يوقع ويختم بخاتمه على قرار يقضي بأن سمو الخديو توفيق باشا يستحق العزل ؟ وظهر على حسن العدوى كأنما استعاد حمية شبابه ؛ واتكأ على المنضدة وبسط يده وأثبت نظره في وجه إسماعيل أيوب وقال : أيها الباشا لم أر الورقة التي تتحدث عنها ولا يمكنني أن أقول شيئاً عما إذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمي ، ولكني أقول لك ما يأتي : إنك إذا أحضرت إلى ورقة تحتوى على مثل المعنى الذي ذكرته فأني أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمي في في حضورك الآن ، أإذا كنتم مسلمين أتستطيعون أن تنكروا أن توفيقاً باشا وقد خان بلاده وذهب إلى الأنجليز لم يعد يصلح لأن يحكمنا ؟ »

ولو أن قذيفة ألقيت فجأة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم والغم مثل

ما أعقبته كلمات الشيخ ، لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى إسماعيل أيوب السمراوين ولم ينبس أحد لحظة ببنت شفة ، ثم طلب إلى الشيخ فى رفق أن يبرح الحجرة ؛ ولم يفكر أحد بعدها فى استجوابه قط ؛ وبعد بضعة أيام أطلق سراحه على شرط أن يذهب إلى قريته حيث لا تكون له صلة بعد بتاريخ مصر »(١)

وكذلك يخلق بنا أن نشير إلى جرأة أحمد رفعت بك وحسن دفاعه ولندع كذلك برودلى يتلو علينا بعض ما رأى من ذلك قال « ... وبعد تبادل التحيات وتقديم القهوة والسكائر أدخل رفعت وكان يبدو فى حالة عصبية شديدة وأجلس على كرسى بجانبى وأظن أنى أسأت إلى ولاء الأعضاء بمصافحته ؛ ولن أنسى أبداً التماع الشر فى عينى إسماعيل أيوب حين تناول عدداً قديماً قذراً من جريدة الطان(٢) كان يحتوى على مقارنة صريحة لا مجاملة فيها بقلم أحمد رفعت بين المدنية الفرنسية والرصاص الأنجليزى ؛ وقال رئيس اللجنة يخاطبنى : يا صديقى العزيز : أظن أنه يجب أن تتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ؛ وألقى إلى بالصحيفة ؛ وقرأت المقال وكتبت على رقعة صغيرة من الورق « لو أننى كنت فى مكانه لفعلت عين ما فعل » ...

وسأل رئيس اللجنة المتهم عن برقيـة فى تلك الصحيفة فيها دفاع عن عرابى أكان هو مرسلها فقال رفعت بك « نعم وذلك بأمر مجلس الأمة الذى كنت أنت نفسك عضواً فيه » ...

وقال الرئيس « إنى أنفى نفياً قاطعاً أنى كنت حاضراً أثناء بحث هذه المسألة »

وأجاب رفعت فـكان مما جبه به الرئيس قوله : « لست أتذكر ما إذا كنت سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولـكنى أذكر أنك ذهبت معى يوم الجمعة الثامن عشر من أغسطس فى قطار خاص وكان بصحبتنا رؤوف باشا وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرملى ، إلى عرابى بكفر الدوار لتعبر له عمـا ترجوه له من نجاح » ...

---

(١) How we Defended Arabi P. 37o (٢) Temps

(الشيخ حسن العدوى أمام لجنة التحقيق)

وقال الرئيس محتداً : إني أمنعك عن الكلام لولا أنك تتكلم عني ، وعاد رفعت يذكره أنهم جميعاً تغذوا مع عرابي وأن طلبة طاف بهم على خطوط الدفاع وأنه أي الرئيس تمنى وهو الجندي القديم لو أتيح له الاشتراك في القتال ، وفطن الرئيس إلى ما رمى إليه رفعت في دهاء وكياسة ، فقال إن كل إنسان يعلم أني ذهبت إلى هناك بما في ذلك الخديو وكان هذا بدافع حب الاستطلاع ...

وأحس الرئيس كذلك أنه صار في مثل موقف المتهم فتدارك الأمر وسأل رفعت عما إذا كان ما جاء في البرقية من أفكاره ؛ وأجاب رفعت بقوله « نعم من أفكاري كما أنها من أفكار كل امرىء سواي »

وسأله الرئيس كيف سمح وقد كان مديراً للمطبوعات أن تنشر جريدة الطائف مقالات فيها طعن على الخديو ، فكان مما أجاب به رفعت « إن ما قالته الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق الرأي العام من مسلك الخديو بعد انعقاد المجلس العام مرتين بوزارة الداخلية ، وأن الطائف عبرت عما اعتاد أن يقوله حتى الصبية في الشوارع » . وسأله الرئيس هل معنى ذلك أنه يقر ما جاء بتلك الصحيفة ؟ فأجاب رفعت في شجاعة « لقد تقرر في المجلس العام الذي انعقد بوزارة الداخلية والذي شهده العلماء والقواد والأعيان أن الخديو خرج على الشرع المقدس وبما أني مصري فلم يكن في وسعي أن أخرج على ما أجمع عليه الناس فأعاقب الطائف مخالفاً بذلك ما في نفسي » . ووجه إليه الرئيس هذا السؤال « لقد ذكرت من قبل أن الخديو أمرك أن تحضر بعض السجلات وأنك آثرت أن تتبع أوامر عرابي فكيف تفسر ذلك ؟ » .

وكان مما أجاب به رفعت قوله « بما أن عرابياً كان ناظر الجهادية والبحرية ، وكانت السجلات المذكورة تتصل بعمله فقد ذهبت إليه لأخبره بأمر الخديو ثم أسلمها لسموه ؛ ولكن عرابياً باشا أمرني ألا أسلمها له قائلا إني مسئول شخصياً إذا فعلت ذلك ، فكتبت في الحال لمحمد بك خليل أخبره بذلك ولم أتلق إلا جواباً شفوياً » .

وبعد يومين استؤنف استجواب رفعت بك ويذكر برودلى أنه دخل قاعة الجلسة هذه المرة وليس يبدو عليه شيء من الاضطراب …

وأطلعه الرئيس على صور لبرقيات أرسلت إلى الآستانة وسأله عنها فقال رفعت إن المجلس العام كان يريد إخبار الباب العالى بكل شيء ، وأن برقية منها كتبت بموافقة رؤوف باشا[1] وأنه يعتقد أنها لم تصل إلى غايتها بسبب قطع الأسلاك .

وسأله الرئيس عما إذا كان ما جاء بهذه الأوراق يتفق مع آرائه أم أنه أجبر على إرسالها ؟ وعاد رفعت يؤكد أن البرقيات إنما أرسلت بقرار من المجلس الذى كان يمثل الرأى العام فيه أعضاء يرجع صيت بعضهم إلى عهد محمد على ، وأنه لم يجبر على شيء …

وقال الرئيس إنه يرى من إحدى البرقيات أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من رأى المتهم ؟ وأجاب رفعت بك بأنها كانت ضرورة قضت بها الحرب وأنه يأسف لذلك …

ووجه إليه الرئيس هذا السؤال « جاء فى إحدى البرقيات المرسلة إلى القسطنطينية أن المجلس العام أمر محافظ السويس بأن يخبر الأدميرال الأنجليزى أن المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة الشرعية فى مصر ، فهل كانت هذه عقيدتك ؟

وأجاب رفعت بكل قوة « لقد قلت فى اليوم السابق أن قوة سمو الخديو قد وُقفت بمقتضى قرار المجلس العام الذى عقد فى القاهرة والذى تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد ؛ وبناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقية لمصر وقد أيدته وعضدته الأمة كلها واضطلع بالدفاع عن الوطن » .

وسأله الرئيس « هل وقعت على هذا القرار ؟ وهل كان هذا باختيارك ؟ » فقال رفعت « وقعت عليه بمحض إرادتى ولم أجبر أنا ولم يجبر أحد غيرى على التوقيع » .

---

(١) رئيس المحكمة العسكرية .

ورفعت الجلسة على أن تعقد في اليوم التالي ؛ وكان أحمد بك رفعت قد أدلى بأقوال للجنة قبل مجيء مستر برودلى فيها مطاعن واتهامات لرجال الجيش بأنهم لجأوا إلى العنف والتهديد وأنه كان مجبراً على ما فعل ...

فلما عقدت اللجنة في الموعد المحدد ، سأله الرئيس عن سبب تناقض أقواله وطلب إليه أن يبين وجه الحق ، فقال « إذا سمحت لى أن أتكلم في صراحة فأنى أشرح هذا التناقض ، وإن هذا حق يسمح به لأى مجرم عادى وأنا أطالب به » .

وقال الرئيس « يمكنك أن تفعل ذلك إذا التزمت بالمسائل التي يدور حولها الكلام » .

وأجاب رفعت « لقد عوملت أسوأ معاملة في السجن فأن إبراهيم أغا توتونجى ... »

وقاطعه الرئيس قائلا « كف عن هذا ... ليس هذا هو الموضوع . ونحن نعلم جميعاً أنه لم يشك من توتونجى إلا عرابى وعبد الغفار » .

ورد السير شارلز ولسن قائلا « ليس الأمر كذلك . وإنى أشعر أن واجبى يقضى على أن أقول إنه أثناء زياراتى الأسبوعية سمعت من جميع السجناء تقريباً شكواهم من زيارات هذا الرجل ومن إساءاته » .

واستدعى الرئيس المسيو بورلّى المستشار القضائي للحكومة وسأله مستر برودلى عما إذا كانت المحكمة ملزمة بأن تسجل إجابة المتهم كلها ، وأجاب بورلى أنها ملزمة ولكن يجب عليه أن يوجز .

ومضى رفعت فقص على اللجنة ما لقيه من إهانة وتهديد بالموت في سجنه وقال إنه عقب ذلك استدعى للوقوف أول مرة أمام لجنة التحقيق .

***

قضت اللجنة نحو شهر ولم تضع يدها بعد هذه الاستجوابات على شيء تدين به عرابياً ، وكانت أكثر أسئلتها للمتهمين جميعاً ترمى إلى إدانة عرابى وبعد ذلك يحق عليهم بالتبعية ما حق عليه ...

وكان برودلى ذات ليلة عقب الفراغ من استجواب رفعت عند عرابى ، فقص

عليه عرابى أن شيئاً ذا بال حدث فى مقر اللجنة ؛ وذلك أنه بعد مغادرة السير شارلز واسن السجن عاد أعضاء اللجنة فاجتمعوا بعد أن كانوا قد تفرقوا وأقاموا فى هذا المبنى حتى ساعة متأخرة من الليل ، واستطاع عرابى أن يسمع أن اجتماعاً عقد فى الحجرة المجاورة وأنه استمر بضعة ساعات كما استطاع أن يرى من بين ألواح الخشب فى نافذته أن رسلا من القصر كانوا يجيئون ويذهبون ...[1] وارتاب عرابى فى أن شيئاً يدبر ...

وسمع برودلى مثل هذا الذى ذكره عرابى من رفعت ومن سجين آخر هو خضر بك خضر ؛ وظل فى حيرة إلى أن علم من الحراس أن سليمان سامى استجوب فى مقر اللجنة ساعات متوالية ؛ فطلب برودلى من السجناء أن يكتبوا له ما سمعوا وانطلق إلى مسكنه ضائق النفس بما أيقن أنه يدبر فى الخفاء ...

وكان سليمان سامى قد أحضر من كريت فوصل إلى الأسكندرية فى التاسع من نوفبر ؛ وظل تحت مراقبة أعوان الخديو منذ أن بلغ الأسكندرية حتى دخل السجن فى بناء الدائرة السنية فلم يتصل به أحد قط ، وذلك أنه اتفق معه على أن يكون شاهد إثبات !

فقد طلعت صحيفة الأجبشيان جازيت بعد ثلاثة أيام أو أربعة من حضوره تملن للناس نبأ مدهشاً وذلك أن سليمان بك سامى اعترف بأنه أحرق الأسكندرية وأنه فعل ذلك بأمر من عرابى باشا ألقاه إليه على مرأى ومسمع من بعض الناس ؛ واعترف كذلك بأمر أعظم خطراً ألا وهو أن عرابياً أرسله ليقتل الخديو بقصره فى الرمل ولكنه قابل وهو فى طريقه إلى القصر كلا من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى ، وحالما رأى هذين الرجلين ثاب إليه رشده وندم على اعتزامه ما اعتزم واعترف لهما به ثم عاد أدراجه ...

قال برودلى « وكان لدى ما قاله فى التحقيق كل من سلطان وحسن الشريعى

---

(١) How we Defended Arabi P, 257,

فلم أجد فيه أقل إشارة إلى شيء من هذا الذى لو أنه حدث لذكره سلطان على الأقل إذا كان لديه أى سبيل لتأكيده » .

وكتب برودلى إلى إسماعيل أيوب باشا يحتج ويذكر أن ما حدث بغير حضوره يخالف ما اتفق عليه ولذلك فهو لا يتقيد بهانيك الأقوال التى جاءت على لسان سليمان ويعدها كأن لم تكن .

وفرح رجال القصر وأعوان الخديو فرحاً عظيما ؛ ولكن فرحتهم لم تطل ، فأن جميع من ذكرهم سليمان سامى فى كلامه عند ما واجهوه فى اليوم التالى أمام اللجنة رفضوا أن يشايعوه فيما ذهب إليه ؛ وأنكر حسن الشريعى وكان سجيناً رواية سليمان كما أنكرها سلطان باشا كل الأنكار ...

يقول برودلى « وكان أحد الأوروبيين من أشد الناقمين على الحركة القومية حاضراً عند ما جاء وفد من قبل اللجنة يسأل سلطاناً فى داره عن رواية سليمان ؛ ونفى سلطان نفياً باتاً حدوث ما سئل عنه فقال زائره الأوروبى : يا للأسف إن إجابة مخالفة لهذه كانت تحسم الأمر كله » .

ويعقب برودلى على ذلك بقوله « فهل كانت تؤلم بقية من الضمير عقل سلطان باشا فى أخريات أيامه ؟ إنى أظن ذلك »

وكان يرد إلى برودلى كتب من مجهولين مما يدل على مقدار ما كان يساور الناس من خوف ، ومن أعجبها هذا الكتاب الذى يعزوه برودلى إلى أحد الأعضاء الماسونيين قال مرسله « عزيزى الأخ : النصر للحق ! أتشرف بأخبارك أن سلطاناً باشا ينفى أنه رأى سليمان سامى فى طريقه إلى قصر الرمل . وقد أفضى إلى كثير من الناس أخيراً بأن عرابياً لم يحرق الأسكندرية ولا أصدر أمراً بأحراقها وذكر أيضاً أنه تحقق من ذلك بنفسه حينما ذهب إلى عرابى ليتحدث إليه بشأن الجند الذين أحاطوا بقصر الرمل يوم ١٢ يوليو . فأنه وجد عرابياً خارج الباب الشرقى يسخط بأعلى صوته على أعمال النهب والحرق ويعنف الجند على ما حدث حتى لقد أخذ من أيدى بعض الجند ما نهبوه وأمر بأحراقه ؛ وسأله سلطان من

فعل هذا فأجاب عرابى إنهم يقولون إنه سليمان سامى . أرجو منك أن تزور سلطاننا فأن لديه كثيراً مما يريد أن يقوله لك . حقاً إنه فى انتظارك . وسوف يؤكد لك ما أقوله الآن . إحرق هذا ولك الفضل ... من أخيك ...؟ »

ويقول رودلى « أما عرابى فلم يبد عليه أنه اهتم كثيراً بما اتهمه به سليمان ولم يؤلمه إلا شدة شعوره بما يحيط به من خيانة هو ضحيتها ؛ ... قال : إنى لم يعلم عنى قط أنى أسأت أو ألحقت الضرر بأى مخلوق ؛ وقد كنت أحرس الخديو فى القاهرة مدة ثلاثة أشهر حراسة شديدة يوماً بعد يوم ؛ ولو كنت أردت مرة أن أغتاله لكان ذلك فى وسعى فى أية لحظة . فلم إذن أفكر فى قتله فى الوقت الذى كنت أعده من أسوأ أوقاتنا جميعاً ؟ »

☆ ☆ ☆

هذا ما كان من أمر التحقيق وقد كان ما تبتغيه اللجنة إثبات التهم التى ذكرناها على عرابى ؛ ولكن برودلى كان من ناحيته يعد كل ما فى وسعه للدفاع لا عن عرابى وحده بل عن كبار أنصاره ...

وأول ما وجه إليه برودلى اهتمامه هو الحصول على أوراق عرابى ، ففى الثالث والعشرين من أكتوبر زار برودلى عرابياً فى سجنه ، وطلب إليه ما أخفى من أوراق ، ويقول برودلى إنه تحدث إليه طويلاً فيما يلزم من ثقة تامة بين المحامى وموكله وفيما ينجم من خطر إذا كتم الموكل عنه شيئاً حتى اقتنع عرابى وقال « لكى تحصل على ما تريد لا بد لى أن أرى نجلى محمداً أو خادمى محمداً بن أحمد ، فأنه لا يزال لدى أوراق كثيرة ، بعد أن أخذت كمية منها من بيتى فى القاهرة وكمية من خيمتى بالتل الكبير » ...

واستمال برودلى السير ادوارد مالت والسير شارلز ولسن ، حتى سمح لمحمد بن أحمد خادم عرابى بالدخول على سيده مع محاميه ؛ ولثم محمد يد سيده فى احترام شديد وناوله رقعة علم برودلى أنها من أميرة مصرية لم يذكر اسمها من نصيرات الحركة القومية وقد رجت فيها من عرابى أن يعطى الأوراق المطلوبة لمحاميه ؛ وأمر عرابى

خادمه أن يعطى الأوراق للمستر برودلى ودله على الأمكنة التى يجدها فيها ؛ ومضى الخادم وقد وعد أن يحضرها في الصباح بعد أن أوضح له برودلى أهمية ذلك ... وجاء الخادم فى الصباح ومعه محمد بن عرابى فقالا إن زوجة عرابى وقد أحاط بها الخوف قد اختفت وأخذت معها الأوراق ؛ وإذ ذاك غضب برودلى وكلمها محتداً فوعدا أن يبحثا مرة ثانية ثم عادا بعد ساعتين ومعهما الأوراق المطلوبة ، وفرح برودلى وزميله فرحاً عظيما ، وحملا الأوراق إلى القنصلية الأنجليزية لتكون فى مأمن وليسهر بيان على ترجمتها ...

ويقول برودلى « لو أن معركة الدفاع استمرت حتى نهايتها المرة لكان لهذه الوثائق التى ألقى بها عرابى فى أيدينا أهمية عظمى فى إثبات براءته من تهمة العصيان » ...

كانت تحتوى هذه الوثائق على الكتابين اللذين جاءاه من السلطان على لسانى محمد ظافر وأحمد راتب[1] وهما وثيقتان على أكبر جانب من الخطورة فى صدد ما اتهم به عرابى من عصيان لأنهما شهادتا براءته وفيهما رضاء السلطان عن أعماله حتى قبيل هزيمته فى التل الكبير ...

وكان فى تلك الأوراق كذلك ما يثبت كما يقول برودلى « أن الأمة كلها كانت معه » على حد تعبير عرابى نفسه ؛ فقد جاءته من مصر كلها من أقصى الصعيد إلى الأسكندرية ، كتب عليها مئات التوقيعات من أعيان البلاد وكبرائها وعلى بعضها آلاف ، وكلها تؤيد عرابياً فى رفضه المذكرة المشتركة الثانية وتقرر الثقة التامة به وبوزارة البارودى الوطنية ؛ وتستنكر « اللائحة ومن يقبلها » ...

وكان من بينها فتوى موقع عليها من كبار العلماء ومؤداها أن الخديو بقبوله اللائحة قد انحرف عن الشرع وقد أورد فيها العلماء قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذُوا اليهودَ والنصارى أولياء : بعضهم أولياء بعض ومَن يتولهم منكم فإنه منهم)[2]

---

(١) راجع صفحة ٢٥٣ من هذا الكتاب .

(٢) أورد برودلى فى كتابه ترجمة الفتوى وترجمة الآية الكريمة

ويعقب برودلى على هذه الوثائق بقوله « إنها كانت أكثر ما يلزم لنفى تهمة العصيان فى معناها العادى ، وإنها لتبين أنه إن يكن قد ثار فأنما فعل ذلك قائداً لخمسة ملايين من الأهالى وأنه كان على رأس شعب مصر كله » ...

واعتمد برودلى كذلك فى دفاعه على ما كتبه له أحمد بك رفعت والشيخ محمد عبده ويعقوب سامى باشا ؛ وكان ما كتبه رفعت بك والشيخ محمد عبده يدور حول معنى عام هو أن الأمة فى مجلسها الشامل قد أعلنت كلها وأيدت عرابياً فى الدفاع عن الوطن وقررت عدم إطاعة توفيق لانحيازه إلى الأجانب ، وعلى ذلك فكل عمل ينسب إلى عرابى وأصحابه بعد هذا التاريخ هو عمل مشروع لأنه وليد إرادة الأمة ... أما يعقوب سامى فقد كان أكثر اهتمامه بنفسه ...

وأثنى برودلى على رفعت بك لثقافته الفرنسية وذكائه وذوقه الأدبى ، كما أثنى على الشيخ محمد عبده وقال إنه له بين هؤلاء الزعماء مكانة عظيمة فهو أكثرهم علماً وفطنة ونوراً ...

وقال برودلى إنه بزيارته لرفعت بك قد ازداد أملا وثقة وذلك لما بدى له من شجاعته ودفاعه عن زعيمه وتصويره إياه أنه كان زعيم شعب بكل ما تحمله الزعامة من معنى وأنه ظفر بمحبة الناس وعطفهم عليه وأن حركة مصر القومية من أقوى الحركات وأنبلها ؛ وأن الحق سوف يظهر وسيعرف عرابى على حقيقته وتتبين قضيته الوطنية للعالم ...

أما يعقوب سامى فقد انخلع عنه عزمه وكان يبكي فى سجنه ويشكو مر الشكوى مما لحقه من إهانة وذلك كضربه والبصق على وجهه ؛ وقد تنكر لزعامة عرابى وتخلى عنه فى غير خجل ، ولما ناوله برودلى كتاباً من عرابى يعبر له فيه عن اهتمامه بأمره ومواساته له قال « أرجو أن تخبروا عرابيا أنى لا أستحق هذه الكلمات الطيبات التى يرسلها إلىّ »

وكان لايهمل عرابى فى سجنه أن يرد على كل ما يقع عليه من اتهام لقضيته ، وكان يعنى بالقضية العامة أكثر مما يعنى بشخصه ، وكان يبدى آراءه فى شجاعة
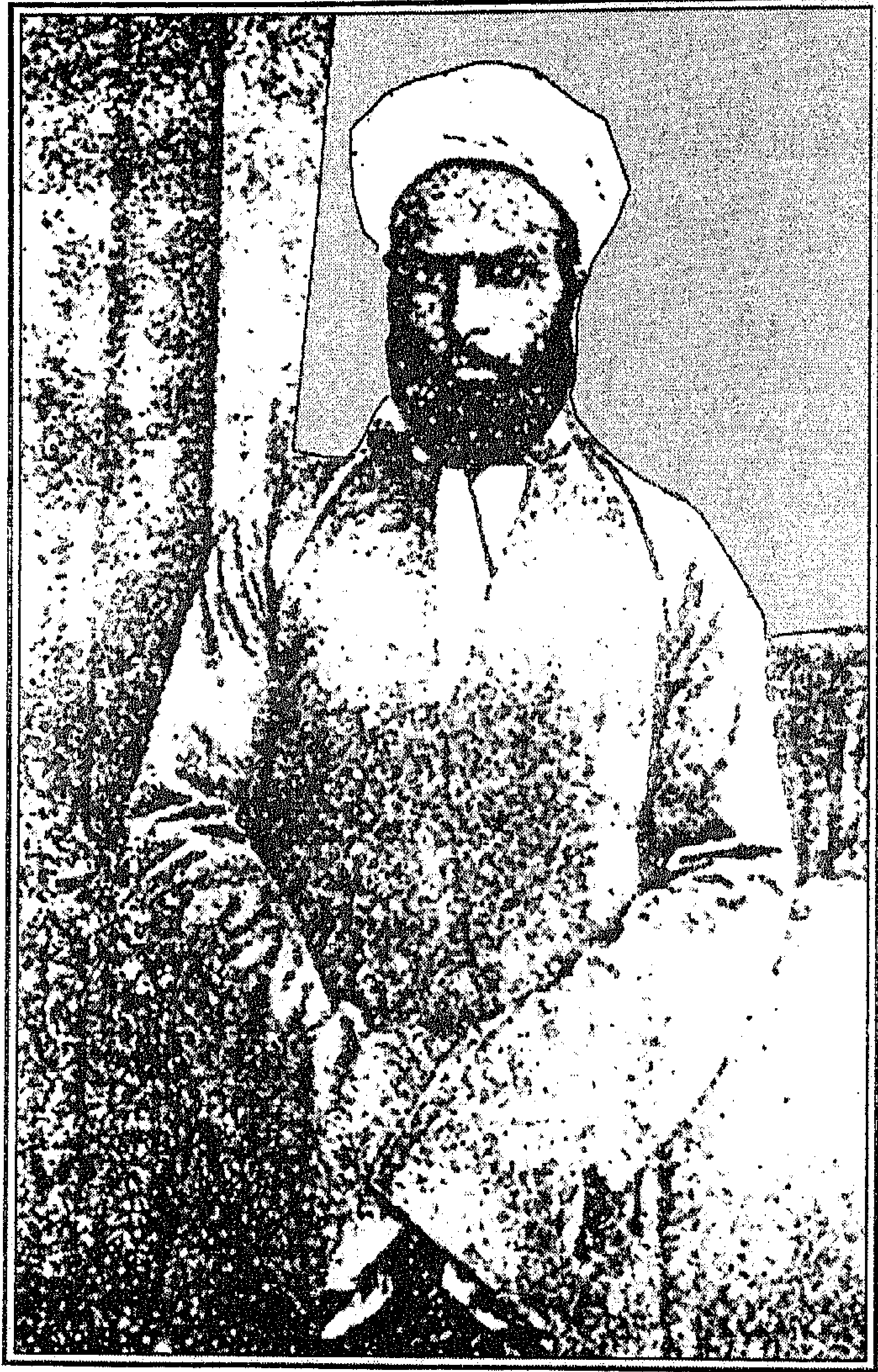
الشيخ محمد عبده أيام اعتقاله

وصراحة جديرتين حقاً بأعظم الثناء والأعجاب ؛ وإذا كان خصومه بعد الذى قدمناه من سيرته لا يزالون فى حاجة إلى برهان جديد على إبائه وقوته فليقرأوا هذا الذى أرسله إلى التيمس من سجنه لينشر ويذاع فى العالم وليتدبروا فيما جاء فيه عن الخديو ومسلكه ، وكان ذلك رداً على جريدة الجوائب التى كانت تعترف ببطولته حتى صدر قرار السلطان بعصيانه فصارت تنعته بالعاصى وقد اطلع فى السجن على مقال نشرته وفيه مطاعن على الحركة القومية فكتب يقول «سيدى: اطلعت فى العدد ١١٠٥ من جريدة الجوائب تحت عنوان « القبض على العاصى فى مصر» على مقال ذكر فيه أنه ألقى فى السجن عدد كيت وكيت من الضباط والعلماء والأعيان والتجار والمديرين وشيوخ البدو ؛ والآن يا حماة الحرية إذا كان الجند هم العصاة فلماذا ألقى فى السجن من ذكر من العلماء والأعيان والقضاة حيث أذيقوا الهوان ؟ وإذا كانت الأمة كلها بكافة طبقاتها تتجه اتجاهاً واحداً وتفكر تفكيراً واحداً فلماذا تميزون الجند باسم العصاة ؟ إنى أعلن باسم الحق إنه لظلم مبين أن يعاملوا هذه المعاملة ؛ لقد كانت الحرب وفق قانون الله وقانون الأنسان ، وقد أعلنت بناء على قرار موقر لمجلس عقد برياسة الخديو ودرويش باشا مندوب السلطان ؛ وبعد أن غادر الجيش والأهالى الأسكندرية ذهب الخديو إلى هؤلاء الذين كانوا يحاربون أمته ، الأمر الذى ينهى عنه كل قانون .

لقد أجمعت الأمة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا لخروجه على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار فى أعمال الدفاع عن الوطن بقرار رفع إلى جلالة السلطان ؛ أبعد هذا نكون عصاة ؟ إننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والأنسان ، وكل من يقول غير هذا كائناً من كان فهو عبد للهوى والمال ؛ وأضيفُ إلى ذلك أن علماء الأسلام والمسلمين فى كل بلاد العالم ، يعلمون أننا لم نعد حدود ما أنزل الله فى كتابه وهم يستنكرون ما نلقى من سوء المعاملة لأنه يتنافى مع العدل .

يا دعاة الحق ! أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ويأخذ الأجانب

أما كنهم ومن حضر إلى مصر من الشراكسة والألبان والبلغار بحيث أن جميع الرتب حتى أحطها مثل رتبة اليوزباشي في الجيش قد احتلها الأجانب دون أبناء مصر؟ ولكنا سنجد بين حماة الأنسانية من يدافعون عن الحق في وجه طغيان هذا العهد الذي يسود منه وجه الأنسان ... أحمد عرابي المصري[١]».

هذا ما كتبه في سجنه عرابي الجاهل الجبان! ألا ما أجمل هذا الجهل وما أعظم هذا الجبن وما أحط ما ذكره عنه المغرضون من بهتان.

***

وكان برودلي في شغل دائم بأعداد دفاعه الذي أقامه على ما اقتنع به من أمور هامة وصل إليها بطول أناته وإحاطته بموضوع القضية التي هو بصددها جملة وتفصيلا، وكان من ذلك الذي اقتنع به نبل الدوافع التي دفعت عرابيا في حركته من أول الأمر، وموافقة توفيق إياه حتى الثاني عشر من يوليو، وكذلك موافقة السلطان إلى ما بعد ذلك التاريخ، هذا إلى انضمام الأمة كلها إلى عرابي مما يجعل حركته حركة قومية عامة لا حركة فردية وسلوك عرابي مسلكا إنسانيا فائقا أثناء الحرب ...

هذا من ناحية عرابي، أما من ناحية خصومه فقد أعد برودلي الأدلة على سخف التهمة القائلة بأهانة الراية البيضاء وبطلان تهمتي الاشتراك في فتنة الأسكندرية وإحراقها ...

ثم إنه اعتزم أن يقيم الأدلة على عدم شرعية المحكمة العسكرية في تأليفها على هذه الصورة؛ وعلى ما كان في إجراءات التحقيق من نقص قبل مجيئه هو وزميله، وعلى مالقي السجناء من إهانة وتعذيب بقصد إرهابهم قبل استجوابهم وحملهم على غير ما يريدون ...

كذلك أراد برودلي أن يتبين كيف كان توفيق يطمن الأنجليز في رسائل منه إلى الآستانة، حتى إذا اطمأن إليهم ألقى بنفسه في أحضانهم وأدار للسلطان ظهره ...

---

(١) howwe D. Arabi P, 150

ولكن قوة الدفاع لا تغنى شيئاً فى جو كذلك الذى كان يحيط به وزميله منذ مجيئهما ، فقد عمدت الحكومة المصرية وبخاصة رياض ، ومن ورائه توفيق ، إلى وضع الصعاب فى سبيله هو وزميله منذ حضورهما ؛ ولجأت لجنة التحقيق إلى أساليب أقل ما توصف به أنها ملتوية ومن أمثلة ذلك ما كان من أمر سليمان سامى ، ثم خروجها فى كثير من الأحوال على الاتفاق الذى وقعه برودلى وزميله بشأن ما يتبع من أصول أثناء التحقيق وفى ساحة المحكمة ...

والواقع أن السماح لعرابى بمحاميين إنجليزيين ، قد ألقى الفزع من أول الأمر فى نفس الخديو ورجال حكومته فقد يقلب التحقيق فرحهم غماً ويكشف عن أمور ظنوا أنهم بانتصار الأنجليز والقضاء على عرابى قد خلصوا منها إلى الأبد ؛ ولذلك لجأوا إلى وسائل الغش والتدليس والأرهاب وإعداد شهود الزور والتجسس على رسائل برودلى وزميله إلى حد فض الكتب وتلك أمور جعلت عملهما شاقاً محفوفاً بالخطر ، وزادهما خوفاً أنه لا يبعد أن تغمض الحكومة الأنجليزية عينيها وتدع الخديو يصنع ما يشاء بعرابى وزملائه ، ولن تحجم المحكمة العسكرية عن أن تعلن آخر الأمر على الرغم من كل دفاع أنها اقتنعت بأدانتهم ثم تحكم عليهم بالموت وينفذ حكمها فى الحال ويسدل الستار على المأساة ، وتذهب جهود برودلى وزميله عبثاً ؛ وتتنصل إنجلترة بعد ذلك من كل تبعة قائلة إنها فعلت ما كان فى وسعها أن تفعله وهو السماح لعرابى بدفاع حر ، ولم يكن فى وسعها أن تتدخل فى حكم المحكمة العسكرية ..

وكان المتفق عليه من أول الأمر بين بورك نائباً عن الحكومة المصرية وبين برودلى تجنب الخوض فى الأمور السياسية ، والاكتفاء بالأشارات التى يقتضيها المقام إذا دعت الضرورة إلى ذلك ؛ وقد أرسلت الحكومة الأنجليزية إلى مالت فى الثالث عشر من أكتوبر رغبتها فى ألا يسمح بمجادلات أو أدلة تتصل بالدافع أو الأسباب السياسية التى تبرر التهم المعلنة ، إلا ما كان منها لأثبات أو نفى تلك التهم »[١]

(١) How we D. Arabi P. 45

وقبل برودلى ذلك لأنه سمح له بشروط معقولة لأجراء التحقيق والمحاكمة ومن أهمها أن يسمح للدفاع بدعوة من يشاء من الشهود وأن يناقشهم بحضور المتهمين بصرف النظر عما إذا كانوا أدوا شهادة قبل ذلك أم لا ...

ولكن حدث بعد ذلك أن الحكومة المصرية وقد كان أخوف ما تخافه هذا الشرط ، لم تتقيد بما وافقت عليه ؛ وتجلى ذلك فى شاهدين وقع عليهما برودلى مصادفة ، أما أولهما فهو على راغب وقد رأى برودلى فى الممر المؤدى إلى مقر اللجنة وذلك فى اليوم الثانى من نوفمبر فتحدث إليه بالأنجليزية حديثاً مقتضباً فى حذر وخوف إذ كان يحيط به الجند قائلا إن إسمه على راغب وهو الضابط البحرى الذى كان يحمل كتب عرابى إلى الآستانة ويحمل كتب الآستانة إليه ، وأنه حكم عليه بالنفى إلى السودان عشر سنوات مع الأشغال الشاقة ، ولديه معلومات تفيد قضية عرابى ويرجو أن يؤدى الشهادة عنه ؛ ولكن حينما طلب برودلى استدعاءه بادرت الحكومة بأرساله إلى السودان ليمضى هناك خمس عشرة سنة لا عشر ... وأما ثانيهما فشخص يدعى كارمى كان يقيم فى بيروت أثناء الحرب وكان يتمتع بالحماية البريطانية ، وقد كان كاتباً لدى أسرة الشمسى ؛ وقد حدث أن أعيد إلى وظيفته مدير الشرقية الذى فصل وقت الحرب ، وواتته الفرصة الآن للانتقام من شخصين ظن أنهما عملا على فصله وهما أمين بك الشمسى وأحمد بك أباظة وكانا من أنصار عرابى ، فجىء بهما من سجن القاهرة إلى سجن الزقازيق ، حيث ألقيا فى حجرة مظلمة والأغلال فى أيديهما ، وأجبرا وهما من علية القوم على كنس السجن وتنظيفه ؛ وتصادف أن جاء كارمى فأرسلته أسرة الشمسى إلى برودلى ليقدمه شاهداً وسرعان ما قبضت عليه الحكومة وقد أخبرها عنه جواسيسها وأخرج من مصر عنوة إلى بيروت ...

وفى السابع من نوفمبر استدعت اللجنة برودلى وزميله وسألتهما عما ينويان عمله ؛ يقول برودلى « ووجدنا أننا أمام اللجنة كأنما خضعنا لنوع من الاستجواب يقصد منه القضاء على ما أعددناه من إجراءات الدفاع ؛ كم يستغرق استجوابنا الشهود من أيام ؟ ومن يوجه الأسئلة عملياً ؟ وأى التراجمة يعول على ترجمته ؟ وهل يسمح

للمتهمين بالكلام ؟ وهل لدينا ما يمنع عن إرسال أوراق عرابى إلى اللجنة فى الحال؟ ثم أليس السجناء فى إنجلترة يُقضى فى أمرهم بعد استجواب هين ؟ إلى أمثال ذلك من أسئلة وجدنا أنها عقبات تدل على ما تنويه اللجنة ... »

وكان من أكبر الصعوبات كذلك فى طريق برودلى وصاحبه أن اللجنة كانت تستدعى شهود الأثبات وتسألهم فى غيابهما ، وكانت تلجأ إلى ما تستطيع من وسائل التهديد والأغراء لحملهم على ما تريد ، وكانت تطلب إليهم أن يقدموا إليها كتابة ما يعرفونه عن الاتهامات وتوحى إليهم ما يفعلون[١]

وفى الرابع عشر من نوفمبر منع رياض باشا المستر برودلى من زيارة موكليه فى السجن ما عدا عرابياً بحجة أن موظفيه من الكتبة ينقلون أنباء من السجناء إلى ذويهم خارج السجن مما يخشى منه أن يؤدى إلى هياج .

وظل الأفق هكذا مظلماً أمام برودلى وصاحبه تتجمع فيه السحب من كل جانب ، وكانا رسلان إلى بلنت بهذه الأنباء الكدرة وقد طالت إقامتهما بمصر وكثرت نفقات القضية كثرة أوشكت أن تعجزه ..

وفى رسالة من بيان إلى بلنت فى اليوم السابع عشر من نوفمبر تبين أن السحب قد تمزقت فى بعض نواحى الأفق قال بيان « أكتب إليك هذه الكلمة لأخبرك أن الأمور تسير الآن سيراً طيباً ؛ فأن شهادة سليمان سامى التى طرب لها الاتهام ما لبث أن تبين أنها لا تساوى قلامة ظفر إذ أنها لفقت لوقتها وليس فيما مضى من الأقوال ما يؤيدها . وإن السؤال القائم الآن هو هل يطلق السجناء بغير محاكمة أم هل تهيأ لهم الفرصة فى عدالة ليتكلموا مدافعين عن أنفسهم ؟ وإنى مقتنع هنا أن الحكومة تبذل كل ما فى وسعها للقضاء على إجراءات التحقيق لأن الحقائق التى سوف يبرزها استجواب الشهود سوف تمس كل شخص تقريباً ممن بيدهم السلطة الآن ، وسوف تكشف عن أشياء تتصل بالخديو مما لا يحمد ؛ ولهذا السبب الأخير أحسب أن حكومتنا ستحس فى نفسها الميل إلى أن تعرض على عرابى بعض شروط

(١) S, H, B, P, 352

مخافة أن يظهر التحقيق أن أكبر الاعين فى مصر هو الرجل الذى أحضرنا جيشنا لنصرته ؛ فأنى أكاد أجزم شخصياً أن الخديو وعمر لطفى هما مدبرا فتنة الأسكندرية لتكون ضربة لعرابى الذى أعلن قبلها مباشرة أنه يضمن الأمن العام »[1] .

والحق أن بيان قد تسقط هذه الأنباء مما كان يُتحدث به همساً فى الحلقات الأنجليزية منذ مجيء دوفرين إلى مصر فقد أوفدته الحكومة الأنجليزية إلى مصر لحل هذه المعضلة فبلغ القاهرة فى السادس من نوفمبر سنة ١٨٨٢ ...

وأقام دوفرين بقصر النزهة يستقصى ويستفهم الأنجليز وغير الأنجليز ، وقد تلقى هذا الداهية برودلى وصاحبه بقصر النزهة حيث كان يقيم . يقول برودلى : « وفى حجرة من حجرات هذا القصر لقينى اللورد دوفرين وزميلى نابير فى الحادى عشر من نوفمبر وهيأ لى فى الحال أتم فرصة لأسمعه قضيتى ، فقصصت عليه فى عناية كل ما وقع لنا منذ حضورنا حتى ساعة لقائه وكان يصغى فى صبر وصمت إلى كل ما قلت ، ولم يتكلم إلا قليلا شأن السياسى المحنك ؛ وشعرت أنى مقتنع كل الاقتناع أنه آن للزعماء القوميين ألا ييأسوا من العدالة » .

وتلقى بلنت برقية من برودلى فى الثامن عشر من نوفمبر هذا نصها « أعتقد أن من الممكن الوصول إلى تسوية طيبة . لا تهاجم إدارة الشؤون الخارجية . الحرص على السر أمر جوهرى » .

ولكن السحب ما لبثت أن تقاربت لتجتمع ثانية على الأفق يتبين ذلك من البرقيات الآتية :—

فى العشرين من نوفمبر أبرق برودلى يقول « لندن تشاور دوفرين . ضعف ميل الحكومة المصرية إلى عقد تسوية وذلك لظنها أن الرأى العام فى إنجلترة قد تغير بسبب أقوال سليمان سامى » .

وفى الحادى والعشرين أبرق يقول « أزمة خطيرة ماثلة . يؤكد أصدقاء الحكومة المصرية تصميمها على شنق عرابى . إبق فى لندن » .

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٥٤ .

وفى نفس اليوم أرسل برقية أخرى يقول « لا يعبر أى كلام فى استطاعتى عن مسلك الحكومة المصرية الشائن ؛ إنها تضرب باتفاقنا وإياها على إجراءات التحقيق عرض الحائط ، ويقول إنها لا تبالى بشىء طالما أنها تعالج المسألة دبلوماسياً لشنق عرابى » .

وأبرق نابيير كذلك فى اليوم نفسه يشكو من الحكومة المصرية ويشير إلى ما يرجى من معاونة دوفرين ، ولكن الوزارة المصرية ماضية فى سبيلها بسرعة نحو غايتها ...

وعاد إلى برودلى شىء من التفاؤل بعد بضعة أيام فأبرق إلى بلنت فى السابع والعشرين « ألقيت بالبريد ما يشرح لك الموقف شرحاً كاملا . لدى ما يجعلنى أعتقد أنه لو وافق عرابى ومحمود سامى وطلبة موافقة صورية على تهمة العصيان أعنى الاستمرار فى الحرب على الرغم من أوامر الخديو ، فأن الحكومة المصرية توافق على نفيهم أو اعتقالهم فى رأس الرجاء الصالح أو فى أى جهة أخرى »

ورد بلنت فى الثامن والعشرين يقول « لا أقبل الشروط المقترحه ورأس الرجاء بوجه خاص . سأشاور أحد أصدقائى الليلة بشأن النفقات . موقفنا من الوجهة السياسية فى منتهى القوة . سيصلك الرأى القاطع بعد » .

وكان برودلى قد بسط الموقف فى كتابه الذى أرسله بالبريد قائلا إنه لم يبق صعوبة فى القضية إلا حادث حرق الأسكندرية فأنه وإن كان عرابى برىء من حرقها إلا أن فى مسلكه أموراً تجعل للاتهام سبيلا للجدل والكلام ، ومن ذلك أنه لم يبذل أية محاولة لوقف النار والنهب ، كما أن صلته بسليمان سامى استمرت بعد ذلك ، ولم يعاقب المسؤولين ؛ فضلا عن وجود أوراق فيها شراء كميات كبيرة من النفط هذا إلى ما بدا من الجند من الميل إلى ازدياد الحريق بدلا من انطفائه ...

واقترح برودلى أن تقبل التسوية وإلا فأمامهم محاكمة طويلة لا يؤمن معها تقلبات الرأى العام ؛ على أنه على استعداد لخوض غمار المعركة فى قوة حتى نهايتها .

وكتب نابيير كذلك إلى بلنت فى السابع والعشرين من نوفمبر يقترح قبول

التسوية ، وإن كان على استعداد هو وزميله للمرافعة قائلين إنهما قادران على أن يذرا تهمة إحراق الأسكندرية هباء ، وأن يجملا من مذبحة ١١ يونيو مسألة حامية بينهم وبين خصومهم .

وفى الثامن والعشرين أبرقا معاً إلى بلنت يقولان « قابلنا دوفرين طويلا . نرجو منك أن ترسل إلينا نصحائك انحصل على أحسن شروط ممكنة . الأبطاء يقضى علينا . اعتمد على حُكمنا . لا جدوى فى انتظار المونة من إدارة الشؤون الخارجية . يميل دوفرين إلى أن يزيد تعليماته لصالحنا . يحكم دوفرين الحكومة المصرية . الدفاع عن مسألة إحراق الأسكندرية يحيط به شىء من الشك . هذا هو مبعث القلق . اغتنم الفرصة الحالية . خدمات دوفرين الطيبة ضرورية جداً . أبرق لنا بتعليماتك . سنقابل دوفرين غداً فى العاشرة » .

وأبرق نابيير إلى بلنت فى اليوم نفسه « أقول لك بشرفى إنى موافق على البرقية السالفة . الأمر يستدعى أشد استدعاء أن ترسل تعليماتك ليس ثمة أى مصلحة شخصية فيما طلبنا » .

وذكر برودلى فى كتابه أنه منذ السابع والعشرين من نوفمبر مالت جميع الجهات إلى تسوية للموقف ، فالحكومة الأنجليزية التى أعلنت من قبل عصيان الجند والتى سمت الحركة كلها ثورة عسكرية والتى أرسلت حملة لقمعها أنفقت فيها ملايين الجنيهات لا يمكنها أن تطلق عرابياً بعد هذا بلا قيد ولا شرط ، ولن يوافق جلادستون على قرار مؤداه أن عرابياً قد سقطت عنه تهمة العصيان بعد كل هذا ؛ ولكن الحكومة الأنجليزية من ناحية أخرى لم تعد تقوى على إقرار حكم بالموت على عرابى ؛ وإن كانت لا تعترض على الحكومة المصرية إذا ألقته فى السجن إلى أى أمد تشاء .

وكانت تركيا تريد أن تنتهى هذه المسألة على أى وجه إلا الكابوس الذى يزعجها وهو محاكمة عرابى ، ويعتقد برودلى أنها استعانت ألمانيا لتتوسط لدى دوننج ستريت لمنع ذكر ما من شأنه أن يمس السلطان من فضائح فى القاهرة

ورأت حتى الحكومة المصرية ما عدا رياضاً أن تتجه هذا الاتجاه وذلك بعد أن عجز سليمان سامى عن إقامة الدليل على عرابى وبعد أن أخبر شريف باشا بأن الحكومة الأنجليزية لا تستطيع أن تقر حكما بالموت على عرابى؛ وأصبح هم الخديو أن يخرج العصاة من مصر جملة على حد تعبيره[1] ...

وفى الثامن والعشرين من نوفمبر أبرق بلنت إلى برودلى يقول « لا أقر شيئاً أقل من نفى : ريف . عدن . مالطة . قبرص . فى حدود هذا أترك الأمر لحكمتك »

واتُفق على أن تكون التسوية كما يأتى : تستبعد جميع التهم عن عرابى ما عدا تهمة عصيان أمر الخديو ويقدم إلى المحاكمة متهماً بهذه التهمة الأخيرة ويعترف بها ؛ وتصدر المحكمة حكمها عليه بالموت ؛ ولكن مرسوماً خديوياً بتعديل الحكم يتلى فى قاعة الجلسة ويقضى بنفيه من مصر ؛ ويصدر بعد ذلك قرار بتجريده من لقبه وممتلكاته ما عدا ممتلكات زوجته ؛ ثم يقسم عرابى بشرفه أن يذهب إلى الجهة التى تحدد له وألا يبرحها إلا إذا سُمح له بذلك ...

وقد كان هذا الاتفاق من وضع اللورد دوفرين ، ويقول برودلى إن الحكومة المصرية قبلته على رغمها ، وقد غضب له رياض غضباً شديداً إذ كان يصر على موت عرابى ، وسوف يستقيل عقب تنفيذه وإن لم يذكر سبب استقالته ...

وأوعز رجال السراى إلى مراسلى الصحف الفرنسية فأثاروا حملة شديدة على الأنجليز وعلى عرابى ، حتى لقد أبرقوا إلى صحفهم بأن هناك اتفاقاً سابقاً بين الحكومة الأنجليزية وعرابى .

وينتقد برودلى مسلك الحكومة المصرية انتقاداً شديداً ، ويقول إنها بدل أن تظهر شيئاً من الصفح والتسامح يبعد عنها الشبهات قد أدت بما فعلت إلى إظهار نفسها بمظهر المغلوبة على أمرها الأمر الذى لا يليق بكرامة أية حكومة ، ولكن الخديو هو الذى كان يدبر ذلك كله من وراء ستار .

ولم يكن عرابى حتى اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر يعلم شيئاً من هذا

(١) How we Defended Arabi P. 307,

كله ، فلما ذهب إليه برودلى فى صباح ذلك اليوم ومعه ترجمانه المستر سانتلا قص عليه القصص وقال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

وتفكر عرابى قليلا وقد أخذه شىء من الدهشه ، ثم قال « أعترف بصراحة أنى كنت أفضل المحاكمة لأسمع أوروبا كلها قضيتى وأتى من اتهمونى بها وجهاً لوجه فى ساحة المحكمة » وتساءل عرابى « أليس يرجى أن يفضى ما عسى أن يلقى من ضوء على المسائل المصرية فى المحكمة إلى تحقيق الأصلاحات التى عجزت عن تحقيقها بالحرب ؟ » .

وذكر له مستر برودلى ما يكون من الخطر عليه من جانب محكمة كهذه المحكمة ، فتدبر ثم قال « إذا قبلت ما تتحدث عنه من شروط فماذا عسى أن يكون مصير إخوانى ؟ » وأخبره محاميه أنهم سيعاملون مثل معاملته ...

وأطرق عرابى لحظة ثم صاح قائلا « كيف أقول إنى عاص ؟ ألم أفعل ما أمر به السلطان والخديو ؟ وإذا كان الخديو قد انحاز إلى الأنجليز فهل أسمى أنا عاصياً لأنى أطعت إرادة الأمة المصرية ؟ » .

وحار برودلى لحظة ماذا يقول ثم أجاب بقوله « إن الحكومة الأنجليزية لا يمكنها أن تتراجع عما أعلنته ولذلك قضت الضرورة بهذا الحل » .

ولكن عرابياً سأله « وهل عاملت الحكومة الأنجليزية عدواً غلب على أمره من أعدائها مثل هذه المعاملة من قبل ؟ » .

وكان اللورد راندلف تشرشل قد سأل جلادستون هذا السؤال فى البرلمان الأنجليزى قبل ذلك بثلاثة أسابيع ، ورد جلادستون بأن حال نابليون بعد فترة المائة يوم هى أشبه شىء بحال عرابى اليوم .

وذكر برودلى ذلك لعرابى فقال عرابى وأين أنا من نابليون حتى أعامل بما عومل به ؟ فذكره برودلى بأن الذى عقد هذه المقارنة هو خصمه الذى يقرر مصيره

ونهض البطل السجين وأخذ يمشى فى غرفته جيئة وذهاباً وفى وجهه أمارات التفكير العميق ، وظل على هذه الحال زمناً ليس بالقصير ثم اتجه إلى محاميه قائلا

« عند ما جئت إلىَّ هنا أول مرة ائتمنتك على حياتى وشرفى ، وإنى أفعل الآن ما فعلته يومذاك ؛ وعلى ذلك فأنى مستعد أن أقبل نصحك ؛ فأما مايتصل بالألقاب فلست أعبأ بأن أفقدها لأنى ما سعيت إليها ، وأما الممتلكات فليس عندى إلا ما خلفه لى أبى وهو لا يكاد يطعمنا الخبز ؛ إنى لست أنتظر أن تغير إنجلترة ما عقدت عليه العزم الآن ولكنى على يقين أنها سوف تفعل ذلك فى المستقبل وسأكتب لك كتاباً يتيح لك من السلطة ما توافق به على ما تراه عادلا مشرفاً من الشروط ؛ ولكنى أرجو منك أن تكون شهيداً على أنى أفعل ذلك ابتغاء إنقاذ إخوانى أكثر مما أفعله من أجل شخصى »(١)

وكتب عرابى هذا الكتاب ، وذكر فيه أنه يدع للمستر برودلى أن يفعل ما يراه لصالحه «مع تذكر أقضية إخوانى السياسيين وغيرهم من الواطنين السجناء » وأنه يثق أن ذلك سوف يكون كما يشاكل شرف إنجلترة « حيث أننا أبرياء جميعاً من التهم الوحشية الموجهة إلينا »

هذا موقف عرابى المؤمن بعدالة قضيته ، والذى ظن أن خصومه فى مصر يريدون وجه الحق وما كانوا يريدون إلا رأسه بأى ثمن وعلى أية صورة ؛ ولو أتيحت له محاكمة عادلة على أيدى قضاة عدول لكانت البراءة الناصعة عاقبته فى غير مشقة ، فليقبل اليوم حكم الظروف وقد حرم حكم القضاء ...

كان على برودلى بعد ذلك أن يعد تمثيل المهزلة مع المسؤولين ؛ وكان بورلى قد استقال لأنه «لايستطيع الاشتراك فى مهزلة سياسية كهذه » كما قال ، ويذكر برودلى أن الخديو هو الذى أوعز إليه بهذا ففعله مشايعة لبقية بنى جنسه الفرنسيين ولذلك كان على برودلى أن يتصل بتجران باشا الذى حل محله وقد بذل تجران أقصى ما فى وسعه ليكتم غمه من اضطلاعه بهذا العمل ...

وكان على ممثلى المهزلة أن يبحثوا فى القانون العثمانى عن مادة تنطبق على مثل

(١) How we D. Arabi P. 824 .

هذا العصيان ، فوجدوا بغيتهم فى المادة ٩٦ من القانون العسكرى والمادة ٥٩ من قانون العقوبات ...

وكتبت لجنة التحقيق إلى المحامين تنبئهما أنها رأت تقديم عرابى إلى المحكمة العسكرية بمقتضى هاتين المادتين ، وتسألهما إن كان لديهما اعتراض على هذا ...

ورد برودلى وصاحبه أنهما لا يعترضان ؛ وعلى ذلك أرسل إسماعيل أيوب باشا عضو المجمع الشعبى العام وضيف عرابى فى كفر الدوار[١] إلى رؤوف باشا عضو ذلك المجلس العام أيضاً[٢] يقول إنه بعد استجواب عرابى باشا اقتنع بتقديمه إلى المحكمة العسكرية وفقاً للمادتين المشار إليهما .

على هذه الصورة فُرغ من إعداد المهزلة فى اليوم الثانى من ديسمبر ، واتفق على أن يكون تمثيلها فى اليوم الذى يليه ...

* * *

كانت قاعة مجلس النواب المصرى[٣] قد أعدت من أول الأمر لانعقاد جلسات المحكمة العسكرية ؛ ووضعت فيها المقاعد لجمهور كبير يشهد الحكم على عرابى بالموت ؛ ومما يذكره المستر برودلى وقد شهد القاعة عقب مجيئه إلى مصر أنه لم يكن فيها مكان للدفاع ...

وشاءت الأقدار لهذه القاعة التى كانت مجالا لنواب الأمة والتى كان فيها منبر حريتهم ، والتى هى الآن مقر مجلس شيوخها الموقر ، ألا تشهد حكماً كهذا على زعيم الحركة القومية فى مصر أحمد عرابى باشا .

وكان تمثيل المهزلة فى مكان غير هذا الحرم الشعبى الجليل ، فقد اختيرت قاعة من قاعات مبنى الدائرة السنية حيث كان السجناء وحيث كان مقر لجنة التحقيق ..
وفى صباح الأحد الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٢ بدأ تمثيل المهزلة ، فتأهب

(١و٢) هذا تعقيب برودلى على اسميهما .

(٣) قاعة مجلس الشيوخ الحالية .

رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية بملابسه الرسمية ووسامه المجيدى الأكبر ، وتأهب بقية القضاة بأوسمتهم وملابسهم الرسمية كذلك فى حجرة مجاورة .

ودخل قاعة الجلسة بعض الأنجليز من العسكريين والمدنيين وبعض الأوروبيين وعدد صغير من الأوروبيات وفريق من مراسلى الصحف الأجنبية ، كالتيمس وستاندارد والديلى نيوز والديلى تلغراف ، والنيويورك هرالد والجرافيك والألستراسيون وغيرها ؛ ولم يكن شهود الجلسة أو الملهاة يزيدون فى مجموعهم عن أربعين ...

قال برودلى « ... ودنا منى إسماعيل أيوب باشا وفى يده ورقة وقال إنه يأمل ألا أعترض على قراءته من أجل بعض الظاهر فقط ، عبارة من وضعه ، فأجبته فى غير التواء أن له أن يفعل ما يقضى به رأيه ، ولكن إذا استعملت أية رقعة غير الرقعتين اللتين اتفق عليهما فسيعلن عرابى أنه غير مذنب ... فتنهد تنهدة طويلة فى هدوء ودس رقعته تحت المنشفة ولم يعرف عنها شيء بعد » ...

أما الرقعتان المتفق عليهما ففى إحداهما عبارة قصيرة وقع عليها عرابى هى « إنى بأرادتى وعملا بنصيحة محامىّ أقر ما يتلى على الآن من اتهام » وفى الثانية يتعهد كجندى أن يبقى فى المكان الذى تحدده له الحكومة الأنجليزية وفقاً للحكم الذى يتلى عليه ...

وكان مراسلو الصحف المصورة يرسمون القاعة ومن فيها تاركين موضع القضاة فى أوراقهم خالياً حتى يحضروا وكذلك موضع المتهم ، وقد أعد الذين لم يبلغهم نبأ المهزلة أوراقاً كثيرة وأقلاماً يحسبون أنهم سيملأونها بالأوصاف والأنباء ...

يقول برودلى « وفى الساعة الثامنة دخل القضاة المتسمة قاعة الجلسة ، وجلسوا على كراسيهم ذات الظهور المخملية الحمراء . وجلس السير شارلز ولسن على يمين المكان الذى خصص للسجين ، وجلست أنا وراء قمطر يواجه هذا المكان ، وكانت المنصة المخصصة لممثل الاتهام خالية ...

وبعد دقائق رأيت عرابياً من الباب المفتوح يقطع الفناء ومعه نابيير فى ردائه التقليدى وعثمان شريف وحارسان شركسيان ودار عرابى حول مؤخرة القاعة ، وبعد أن مر بمقعد طويل كان مخصصاً لجلوس نحو عشرين شخصاً على الأقل ، جلس بجوارى ، واتخذ المستر نابيير كذلك مكانه إلى جانبى ، وساد الصمت العميق هنيهة ؛ وكان يبدو على عرابى بعض الاضطراب العصبى أول الأمر ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه ؛ وتناول رؤوف باشا رقعة وتلى ما بها ونصه كما يأتى :—

« أحمد عرابى باشا ... أنت متهم الآن أمامنا بناء على قرار لجنة التحقيق بجريمة عصيان سمو الخديو ، مخالفاً بذلك المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة ٥٩ من قانون العقوبات العثمانى ، فهل أنت مذنب أم غير مذنب » ؟

وقد نهض عرابى بمجرد أن أخذ رؤوف باشا يتلو هذه العبارة ، فلما فرغ منها أجاب عرابى قائلا « إن محاميَّ سوف يرد عنى » .

ونهضت وتلوت الترجمة الفرنسية لاعتراف عرابى وأبرزت الأصل العربى وعليه خاتمه وقرأه كاتب كان يجلس على مقربة من الرئيس ، ونظر رؤوف باشا إلى عرابى متسائلا فأومأ برأسه علامة الموافقة ، فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ...

وفى الموعد المحدد ازدحمت القاعة بشهود الجلسة وحضر عدد غير قليل من السيدات وكانت بينهن زوجة نابيير ، وكان الطريق أمام الدائرة السنية مزدحماً بالناس وانعقدت المحكمة ، فناول رؤوف باشا كاتب الجلسة نص الحكم وأمره بتلاوته فتلاه ... وبعد فترة قصيرة من السكون ناوله ورقة أخرى واتجه إلى عرابى قائلا : « أحمد عرابى . ستسمع المرسوم الصادر من سمو الخديو ؛ وتلى المرسوم المذكور » ...

وكان الحكم يقضى بالموت على عرابى ، والمرسوم يستبدل به النفى المؤبد ، وانفضت الجلسة بعد عشر دقائق وأسدل الستار على المهزلة ...

(عرابى يستمع للحكم عليه)

وتقدم المهنؤون إلى عرابى وتزاحم عليه مراسلو الصحف مصافحين إياه فى حماسة وقدمت له بعض السيدات الأوروبيات باقات من الزهر فتقبلها شاكراً .

ويذكر مستر برودلى أن زوجة زميله المستر نابيير كان أمامها باقة زهر صغيرة كانت أعدتها لترسلها إلى عرابى بعد المحاكمة فأخذها أحد الجالسين من غير شعور ووضعها فى يد عرابى ؛ ولقد أثار هذا كثيراً من اللغط وبخاصة من جانب أعوان الخديو إذ عجبوا أن تفعل ذلك سيدة على أعين الناس ؛ ولكن هذا اللغط ما لبث أن ذهب بظهور حقيقة ما حدث .

وأعيد عرابى إلى السجن ليبقى فيه ريثما ينفذ الحكم ...
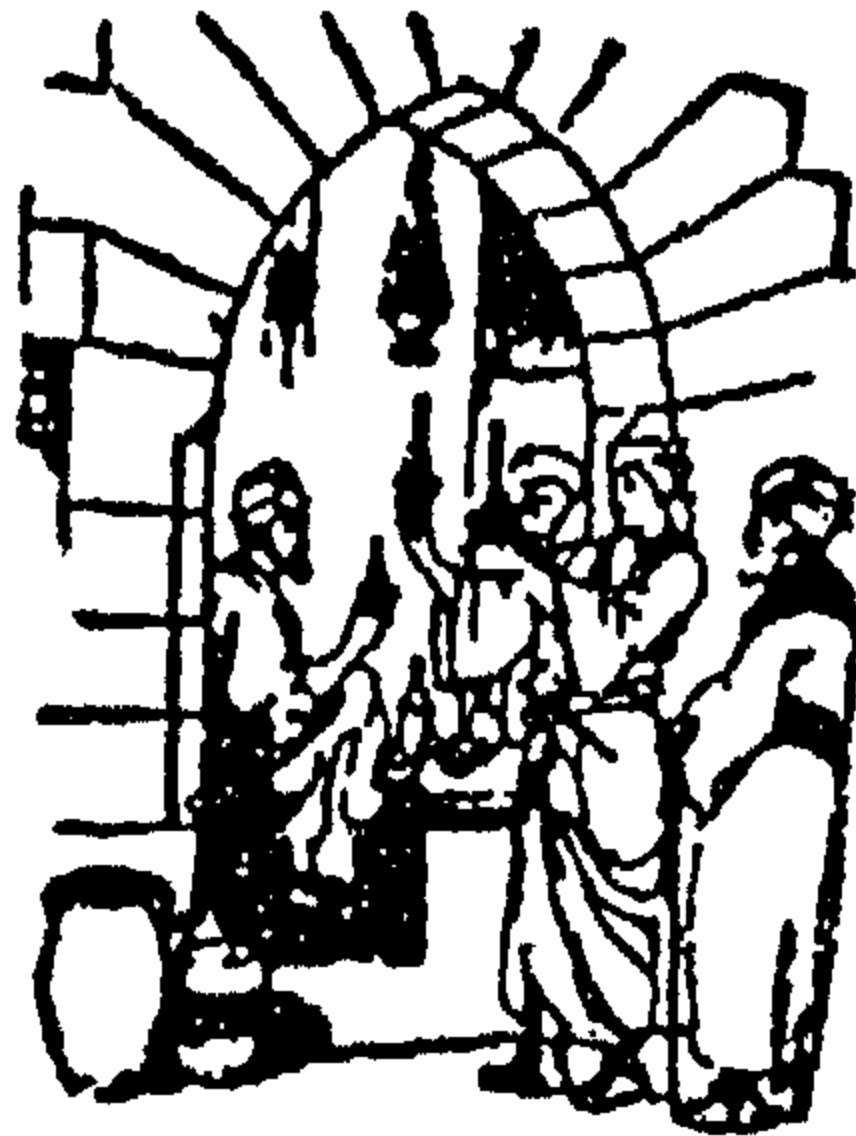
إلى المنفى

كان أول شيء فعله عرابي بعد عودته إلى سجنه أن صلى لله وأطال سجوده شكراً له سبحانه ؛ ولما خرج من الصلاة وجد محاميه فى الحجرة فوجه إليهما بعد الله شكره ؛ وأعادا عليه تهنئتهما وخرجا بعد حديث سار بينهما وبينه ، وتركاه ليكتب كتاباً لصديقه مستر بلنت الذى أبلى فى سبيل إنقاذه ما أبلى

وذكر برودلى أنه علم علم اليقين أن الوطنيين من أهل القاهرة قد باتوا ليلتهم فى فرح عظيم وإن لم تخرج مظاهر الفرح من بين جدران المنازل خوفاً من الحكومة والخديو ، فوزعت الصدقات والملابس وأطعم الفقراء وأقيمت الصلوات وكان فرح الناس عاماً منبعثاً من أعماق نفوسهم أو على الأصح مستقراً فى تلك الأعماق .

وزاره برودلى صباح اليوم التالى فأخبره أنه لم يبق لديه مما يشغل باله إلا قلقه على إخوانه السجناء ورغبته أن يبين لأهل أوروبا حقيقه اعترافه الشكلى بعصيانه أمر الخديو ...

وطاب عرابى نفساً بما ذكره له برودلى من أنه يأخذ على عاتقه قضية إخوانه ، وأنه لن يألوا جهداً فى العمل على إنقاذهم ...

وكتب عرابى إلى التيمس كتاباً تاريخياً طويلا فقال فيه بعد أن أثنى أعظم الثناء على محاميه أنه اتبع ما أشارا به عليه وذكر « أن الوزراء الأنجليز قد أعلنوا قبل ذلك أكثر من مرة أنى ثائر ولست أتوقع أن يغيروا رأيهم فجأة » وأشار إلى تبرئته من تهمتى الذبحة والحريق ، وقال إنه « يغادر مصر مرتاح الضمير وملء نفسه الثقة فى المستقبل لأنه يعتقد أن إنجلترة لن تستطيع أن تعوق الأصلاحات التى حارب فى سبيلها . وعما قريب ستلغى الرقابة الأنجليزية الفرنسية ، وتتخلص

(برودلى ونابيير ينبئان عرابياً أنه ذاهب إلى سيلان)

مصر من قبضة الموظفين الأجانب الذين يشغلون كل منصب دون المصريين ، وستطهر محاكمنا الوطنية من العيوب . وستوحد القوانين ويكون لها سلطة ، وسيكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع وله حق التدخل فى شؤون الشعب المصرى ، وسيطرد المرابون من القرى ؛ عندما يرى الشعب الأنجليزى تحقيق هذا كله يستطيع أن يتبين أن عصيانى كان له مسوغ عظيم .

إنى ابن فلاح مصرى وقد بذلت جهد طاقتى فى سبيل الحصول على هذه الأصلاحات لوطنى العزيز الذى أنتمى إليه والذى أحبه أشد الحب ، ولكن سوء حظى حال بينى وبين ما أردت ... وإذا لم تقف إنجلترة فى وجه هذه الأصلاحات وسلمت مصر للمصريين كما تقتضيها ذمتها وشرفها فيومئذ يتبين للعالم كله حقيقة مساعى عرابى الماضى وحقيقة أغراضه » .

وأثنى عرابى أعظم الثناء على مستر بلنت « الذى لم يأل جهداً ولا مالا ليمينتى فى ساعة محنتى وحاجتى ، حين تخلى عنى جميع أصدقائى المصريين الذين كانوا يلازموننى فى أيام اليسر »

واختتم الرسالة بقوله « إنى أغادر مصر مقتنعاً كل الاقتناع أنه كلما مرت الأيام اتضح للعالم عدالة قضيتنا شيئاً فشيئاً وسوف لا تندم إنجلترة على ما أظهرت من إنسانية وتسامح إزاء رجل حاربها وحاربته » .

وبعد أربعة أيام من الحكم على عرابى قدم إلى المحكمة العسكرية كل من محمود سامى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت وكان مصيرهم مثل مصيره وكذلك كان مصير محمود فهمى ويعقوب سامى بعد هؤلاء بثلاثة أيام ...

واتُفق أخيراً على أن تكون سرنديب منفى عرابى فذهب إليه برودلى ونيبان ينبئانه بذلك فى الثامن من ديسمبر فسر عرابى بذلك المكان ، قائلا « إنى أخرج من مصر بستان الدنيا لأذهب إلى سرنديب جنة آدم » ؛ وأخذ يحدث بلنت عما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف أنه حل بهذه الجزيرة

فصارت تعرف بجنة آدم كما ذهبت حواء إلى الحجاز فصار يعرف بجنة حواء ... واستبشر عرابى وشاع فى نفسه السرور ...

ويذكر برودلى أن اللورد شارلز برسفورد كان يجمع المعلومات عن أسباب الحرب أثناء مقامه بالقاهرة فأحب أن يعلم ما يقول عرابى ؛ وحمل نابيير إلى عرابى هذه الرغبة فكتب له تاريخاً موجزاً للأيام السابقة لضرب الأسكندرية ثم وصف كيف قررت الحرب وكيف بدأت ...

وكان عرابى شديد التطلع إلى معرفة ما تكتبه عنه الصحف الأوروبية ، وقد آلمه تغير الصحف العربية وتنكرها له ولحركته ، وعرب له التراجمة أقوال بعض الصحف الأنجليزية مثل التيمس وستاندارد والديلى نيوز . فسرى عنه كثيراً ، وكان ذلك من أسباب كتابته للتيمس .

وكتبت صحيفة تروث الأنجليزية(١) تمدح عرابياً وتثنى على الحركة القومية فى مصر فسر عرابى بما كتبت سروراً عظيما وأعجبه إسمها وهو بالعربية «الحق» وقال إنه يريد أن يعبر عن الحق فى صحيفه «الحق» ، فكتب إلى محررها المستر لابوشير رسالة افتتحها بقوله « أرجو أن تسمح لى بأن أقدم إليك أصدق شكرى على ما أعلنته دائماً من الحق فيما يتصل بى وبأخوانى فى أيام سوء حظهم ؛ وإنى مقتنع كل الاقتناع ببراءة مقاصدك وأنك أردت دائماً أن تظفر بما يتفق مع الحق من عدالة وليس من شك فى أن أولى العدل من الرجال الذين يجودون بالعون لمن لحقهم سوء الحظ ، فى ساعة حزنهم » .

وبعد فأنه لما كان لا يعنينى شىء أكثر مما يعنينى رخاء وطنى وتقدمه وسعادة أهله، وذلك على الرغم من أنى أغادره الآن مغادرة أبدية ، فأنى أحب أن أذكر لك بعض الأمور الجوهرية التى لو روعيت جلبت الخير الكثير لوطنى وأفادت أهله فائدة عظيمة ، وأحسب أنه لن ينبئك بهذه الأمور فى غير هوى مثل رجل مجرب فقد كل شىء فى حب وطنه » .

(الزعماء يكتبون قوائم مرافقيهم قبل السفر)

ومضى عرابى يذكر ما يرجوه من أوجه الأصلاح معقباً على كل وجه بما يفسره ، فأشار إلى ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس انتخاب حر كما هو الحال فى الأمم المتمدنة ، يسأل أمامه الوزراء وينعقد لمدة محدودة لا تنقص عن خمس سنوات ؛ وإلى ضرورة المساواة بين المصريين فى المعاملة وفى الضرائب ، وإلغاء السخرة بحيث يؤجر الناس على مايؤدون من أعمال لأن حياة الفقير تتوقف على عمله اليومى ، وإلغاء الربا فى القرى ، ووضع قانون عادل يطبق فى المحاكم ولا يعتدى عليه أحد ، وأن تكون وظائف الدولة للوطنيين جميعاً على أساس الأهلية والاستعداد ، ولا بأس من أن يستخدم بعض الأوروبيين مع مراعاة حال البلد المالية ...

واختتم رسالته بقوله « وإذا وافقت إنجلترة على آرائى هذه فلست أبالى بالنفى أو بأى شىء آخر يخبئه لى القدر »[1] .

وما زال يسعى برودلى حتى رفعت الحواجز الخشبية الغليظة التى كانت تفصل بين الردهات والحجرات ، واستطاع السجناء السبعة أن يلتقوا فى الثالث عشر من ديسمبر ، فكان لقاء اهتزت له نفوسهم ، فثمة عناق وضغط على الأيدى ودموع فى المآقى ؛ وأصبحت حجرة عرابى ملتقاهم كل يوم حيث كانوا يتحلقون أمامه وينظرون إليه جميعاً كما كانوا يفعلون من قبل نظرتهم إلى كبيرهم وزعيمهم ؛ وكانوا لا يبرمون أمراً إلا برأيه ولا يتباحثون فى شىء إلا فى حضرته ..

وامتلأت الحجرات بالزائرين والزائرات من الأقارب القاهريين والقرويين ، وكان أقارب السجناء جميعاً يذهبون إلى حجرة عرابى فيلثمون يده ويحظون بالجلوس ساعة بين يديه وأعينهم لا تتحول عن وجهه ...

وأحضر الخدم ما يلزم من متاع فى المنفى ، من سرر وكلل وستائر وبسط وآنية وغير ذلك حتى امتلأت به الحجرات ...

وطلب إليهم صديقهم المستر برودلى أن يعد كل منهم قائمة بأسماء من يريد أن

(1) How we D. Arabi P. 388

برافقوة إلى المنفى ليحمل هاتيك القوائم إلى وزير الداخلية وكان وقتذاك إسماعيل باشا أيوب الذى حل محل رياض ...

وذهب برودلى فقابل الوزير وأخبره الوزير أن الحكومة تفكر فى أن ترسل بعض المنفيين إلى هنج كنج فغضب برودلى لأن فى ذلك إخلالا بالشروط المتفق عليها ، وبعد جدال طويل ومحاجة عدل الوزير عن رأيه ؛ ولكنه أبدى اعتراضاً على القوائم وأصر على وجوب إنقاصها ، ولم يجد برودلى بُداً من أن يعود بها إلى السجناء لينقصوها وقد وقع ذلك من نفوسهم وقعاً سيئاً ولكنهم نزلوا على حكم الضرورة ...

وفى الرابع عشر من ديسمبر صدر أمر الخديو بمصادرة أملاك الزعماء السبعة وأموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك أى مِلك فى الديار المصرية بطريق الأرث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة ما مع ترتيب معاش سنوى لكل منهم بقدر الضرورى لمعيشتهم ...

وما أن صدر هذا القرار حتى سلكت الحكومة مسلكاً يدل على الصغار والحقارة فى الخصومة ، إذ أسرعت بإرسال جند اقتحموا منازل الزعماء فى غلظة ولم يراعوا لشىء حرمة ، وكانوا يقلبون الأمتعة رأساً على عقب ولا يسمحون بدخول أحد أو خروجه إلا بعد تفتيشه ، ولقد بلغت بهم الفظاظة والقحة أن كانوا يقتحمون على السيدات خدورهن ؛ وكانت السيدات فى تلك الأيام لا يرين الرجال إلا والنقاب على وجوههن ، وللمرء أن يتصور مبلغ ما نالهن من ألم وفزع ...

ولقد شكا الزعماء إلى برودلى مما حل بأزواجهم وبيوتهم وذهب برودلى فقابل إسماعيل أيوب فتظاهر بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا وأحاله إلى رئيس الشرطة أو الحكمدار ، وهو يومذاك عثمان باشا غالب ...

ويقول برودلى إن غالب باشا ظل ساعة يتحدث فى غير ماجاءه من أجله ، ثم أشار إلى قمطر فى حجرته وقال إنه ملىء بصور عرابى الفوتوغرافية ، وأنه حطم فى دكاكين بعض المصورين زجاجات لصورة عرابى وصادر آلافاً مطبوعة منها ، وقال

إنه لا يفهم وقد فشل عرابى ماذا يريد الناس بعد ذلك منه ؟

وبعد إلحاح برودلى وعد غالب ألا يدخل الحراس بيوت الزعماء وألا يفتشوا الداخلين والخارجين على هذه الصورة المهينة ولكنه لم يف بما وعد ...

ويذكر برودلى أن زوجة نابيير أرسلت إلى زوجها كتاباً من بيت على فهمى تخبره بأن الحراس اقتحموه وروعوا السيدات واقتحموا الحجرات وطلبت من زوجها أن يأتى إليها لأنها تخشى أن يمنعها الحراس من الخروج ...

وذهب برودلى ونابيير إلى هناك ، وتصادف أن كان الخديو فى طريقه من عابدين إلى قصر الأسماعيلية وكان يمر ببيت على فهمى ، فما راعه إلا سيدة حاسرة الرأس تعترض عربته فتوقفها وتصيح به « يا توفيق حاربت الرجال ، ألم يكفك هذا حتى تحارب النساء ؟ إنك ترانى الآن بغير نقاب وفى وضع ينال من شرفى ولكن عار ذلك يلحقك كما يلحقنى » وتقدم بعض من شهدوا المنظر فقادوا هذه السيدة فى رفق إلى منزلها وهى زوجة على باشا فهمى ، ولم يعد الخديو يسلك بعد هذا الطريق ... وشكت السيدة ألمها إلى برودلى وصاحبه من وراء ستار بكلمات تتخللها إجهاشات مؤلمة ...

ولم تكف الحكومة عن هذا الطغيان إلا بعد أن تدخل دوفرين فى الأمر ، فلم يجد برودلى مناصاً من الشكوى إليه ...

وحدث أن أبدت الحكومة تعنتاً فى أمر جديد ، وذلك أن السفينة لا تتسع للزعماء جميعا ومن معهم ، وعلى ذلك فهم لن يسافروا معا ؛ وكتب اثنان منهم رقعة وقعا عليها ليرسلاها إلى الحكومة وقد دعيا فيها للخديو بالتوفيق ، وما أن رآها عرابى حتى صاح بيعوب سامى مغضباً أشد الغضب « هل وقعت على هذه ؟ إنى أوثر أن أمزق إرباً قبل أن أفعل شيئاً كهذا ؛ لقد قلت ولا زلت أقول إن توفيقاً لم يكن يصلح لأن يحكمنا فكيف أكذب اليوم وأدعو له ؟ إننا على أية حال لم نبلغ هذا القدر من السقوط » .

وفى الرابع والعشرين من ديسمبر ، نشرت الوقائع المصرية أمراً خديوياً آخر

بتجريد الزعماء السبعة من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها ، ومحو أسمائهم من سجلات ضباط الجيش المصرى محواً مؤبداً ...

وفى الخامس والعشرين من ديسمبر ، وهو يوم عيد الميلاد زار برودلى عرابياً وأصحابه فى سجنهم ، وهنأه عرابى وزملاؤه بالعيد ، ولم يجد عرابى لديه ما يقدمه له هدية وذكرى غير مسبحته وبساطه ، وقبلهما برودلى شاكراً وتبادل وعرابى وأصحابه الصور ، وقد أعربوا له جميعاً عن خالص مودتهم وعظيم شكرانهم له ولزميله وللمستر بلنت ...

وأبت الحكومة إلا أن تمضى فى صغارها وتمعن فيه قبل أن يسافر المنفيون فأتت عملا سخيفاً أساء إليها أكثر مما آلم الزعماء ، وذلك أنها أبت إلا أن تتلو عليهم قرار تجريدهم من ألقابهم على أعين بعض الجند والناس .

أحضرت عربتان إلى باب الدائرة السنيه ، وأمر السجناء فجأة بعد الساعة الثانية بقليل أن ينزلوا فى غير إبطاء ولم يكن آمروهم بالضرورة ليستطيعوا أن يقولوا لهم شيئاً عما يراد بهم ، ولكن إنزالهم على هذه الصورة كان مؤلماً لشعورهم إذ أنه لا يختلف عن معاملة المجرمين العاديين ...

ونزل الزعماء وهم يخشون أن يكون فى الأمر غدر جديد فأمروا بالدخول فى العربتين ، وسارتا بهم في حراسة بعض الضباط إلى قصر النيل ، حيث اصطف بعض الجند على شكل مربع : وحيث اجتمع فى شرفة عدد من عساكر الأنجليز وضباطهم يتفرجون ويصفقون ووضع الزعماء وسط المربع وأخذ أحد الضباط يتلو عليهم قرار الخديو ، ولما فرغ هتف الجند « يعيش سمو الخديو » ؛ وسئل الزعماء عن سيوفهم وشاراتهم أين هى وهو سؤال سمج لأنهم بملابسهم المدنية وليس معهم شىء ، ثم أعيدوا إلى العربتين فسارتا بهم إلى مقرهم فى السجن وملء نفوسهم الألم والسخط على هذه الصغار وهذه الحقارة ...

وكان قد اجتمع عدد من الناس خارج قصر النيل فنظروا إلى عرابى وصحبه فى ألم ولم يستطع إلا واحد أن يهتف « حماكم الله » ثم اندس فى الجمع ؛ وكان

يشهد الحادث خادم مصرى كان قد استأجره المستر برودلى منذ أن جاء إلى مصر ويدعى حسنا وكان شديد التحمس لعرابى وقد اشتد تأثره وهو يقص على برودلى ما رأى وعقب على غياب السيوف والشارات التى كانت تكسر وتنتزع لو أنها وجدت ، بقوله « الله أكبر ! حتى الخديو لم يستطع أن ينال من عرابى » .

وذهب برودلى ونابيير إلى السجن ، وأخذا يهدئان خواطر الزعماء بالكلمات الطيبات ؛ ويقول برودلى إنه تنفس الصعداء إذ علم أن السفينة ماريوتس[١] دخلت قناة السويس فعلا لتكون على أهبة السفر من السويس إلى سيلان فى مساء اليوم التالى ...

وبقيت مسألة هامة ، فليس مع عرابى ولا أحد من أصحابه مال ؛ وقد بذل برودلى مساعيه حتى صرف لكل منهم ثلاثون جنيهاً مقدماً مما قرر صرفه لهم بسرنديب ...

وقد كتب بيان بعد ذلك بنحو سنة معقباً على ذلك فى إحدى الصحف[٢] فكان مما قاله « إن عرابياً الذى كان يستطيع أن يجمع لنفسه مليوناً من الجنيهات لم يجد ما يشترى به ملابس له عند سفره وقد أرسل له بعض أصدقائه حقيبة ملأى بالملابس والقطار على أهبة السفر ، وكانت أسرته تعيش وهو فى السجن على صدقات يدفعها بعض محبيه سراً وكنت أنا الذى أحملها إليها بيدى ... ولست أكتب هذا بدافع عبادة البطولة ؛ وإنما لأبين لماذا اختار الشعب المصرى رجلا نشأ من طبقة الفلاحين وتعلق به لأنه يعرف مايشكو منه وكيف يدافع عن حقوقه المكتسبة وآثر ذلك على أن يظل خاضعاً للسلطان الموروث » .

وفى اليوم السادس والعشرين من ديسمبر تأهب عرابى وأصحابه للسفر ؛ وأرسلت إليه بعض فضليات السيدات على يد برودلى كثيراً من الهدايا[٣] فى حذر

---

(١) مريوط .

(٢) Fort Nightly Review, November 1983

(٣) لم يذكر برودلى أسماءهن واكتفى بقوله بعض العظيمات ولعلهن من الاميرات .

خوفاً من توفيق ، فأرسلت إحداهن حقيبتين إنجليزيتين كبيرتين وأخرى مصحفاً فخماً وثالثة سجادة للصلاة ، ورابعة حقيبة ملأى بالملابس وخامسة سلة جميلة …

ولندع لبرودلى وصف هذا الرحيل قال « كان المتفق عليه أن يبرح القطار الخاص قصر النيل إلى السويس فى الساعة العاشرة على وجه التحديد … وفى الساعة الأخيرة أخبرنا أن الرحلة ستؤجل إلى ميعاد آخر بسبب رداءة الجو فى السويس ؛ ولكننا أخذنا الحيطة فتركنا حسناً عند السجن لينظر ماذا يحدث مخافة أن نفاجأ مفاجأة أخرى .

وأقبل حسن قبيل الساعة العاشرة منقطع الأنفاس من العدو فأخبرنا أن الزعماء غادروا لتوهم الدائرة السنية وكان نابيير فى شغل بالبحث عن متاعه لأنه كان يتأهب لمرافقتهم حتى السويس ؛ فركبت عربة وأسرعت إلى قصر النيل …

وكان منظر القصر واضحاً فى نور القمر الساطع الذى كاد يمحو نور المشاعل التى حملها بعض الحراس المصريين ؛ وكان أمام عربات القطار بعض شهود الرحيل وكان بينهم السير شارلز ولسن والمستر ماكنزى ولاس وعثمان باشا غالب .

وكان القطار عظيم الطول يكاد يمتد من أول الفناء إلى آخره ؛ وكان فى مقدمته السيدات ومعهن أطفالهن وفى مؤخرته الخدم والمتاع الثقيل وفرقة من الحراس الأنجليز تحت إمرة الميجور فريزر ؛ وبعض الجند والضباط المصريين الذين أمروا أن يرافقوا المنفيين حتى السويس ؛ وخصصت فى وسط القطار عربة من عربات الدرجة الأولى لعرابى وأصحابه ؛ وكانوا قد أخذوا أماكنهم فى القطار عند ما بلغ قصر النيل … وبدا عليهم من البشاشة أكثر مما كان يبدو على وجوه فريق مثلهم من الأنجليز لو كانوا فى مثل موقفهم ؛ وأسرعت إلى النوافذ لأسمعهم بعض كلمات التوديع ، وأعاد عرابى على كلمات ثنائه وشكره الطيبات …

وكان الأمر بالرحيل على وشك أن يصدر ، ولكن بيان أعلن أن الشرطة عند بيت عرابى منعوا زوجة ابنه وأختها من مغادرته … وما الحيلة ؟ لقد حانت ساعة الرحيل ، ولم يكن ناظر محطة القاهرة يسمح بأى تأخير للقطار وكان الحى

الذى يقع فيه بيت عرابى بعيداً ؛ وعندئذ قال السير شارلز ولسن لعثمان غالب باشا فى لهجة حاسمة إن القطار لن يبرح مكانه إلا إذا حضرت السيدتان ؛ وأرسل غالب باشا عربته ليجىء بهما ... وأعقب ذلك فترة صمت محير ... وقد جاء بعض الخدم يحيوننى ، وبحث المستر نابيير عن مكان له ولحقائب عرابى وتقدم بعض الضباط الأنجليز فصافحوا عرابياً وجلس إلى جانبه الميجور فريزر ، الأمر الذى ارتاح له عرابى ارتياحاً ظاهراً ووصلت أخيراً سيدتان تلبسان ملابس بيضاء وسرعان ما توارتا فى إحدى العربات بين فريق السيدات . ولم يكد يغلق الباب عليهما حتى صدرت الإشارة برحيل القطار ، وغاب عرابى وأصحابه وراء جدر قصر النيل ...

هكذا أخرج عرابى ليلا إلى حيث لا يرجو له خصومه عودة ، لم يره من الشعب المصرى أحد ولا ودعه من محبيه أحد ، وتنفس توفيق وحزبه الصعداء مرة ثانية ...

***
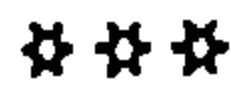
ولئن حيل بين عرابى وبين بنى قومه وأخرج على هذه الصورة المدبرة ، فها نحن أولاء نودعه على صفحات هذا التاريخ بما هو أهل له من التوقير والأجلال

أخرج عرابى من مصر مغلوباً على أمره وأسدل الستار على حركته ، ومهما يكن من حقد خصومه عليه ومن محاولاتهم المتصلة الناشطة لتشويه حركته من يوم أن طار صيته بحادث عابدين ، فأن شيئاً واحد هو حسبه من المجد والفخر سوف يبقى على الرغم من كيدهم وسوف تزيده الأيام وضوحاً ورسوخاً ألا وهو أن عرابياً كان الزعيم القومى الأول فى مصر ، فهو أول فلاح من أعماق القرى هتف بحرية مصر واستخلص لها الدستور وأنف أن يخضع لحكم الفرد ، وفرق بين ما هو حركة إسلامية عامة وبين ما أصبح بحق فى مصر حركة قومية مصرية قوامها أن يكون أبناء مصر من الفلاحين هم السادة وهم مصدر كل سلطة لأنهم عماد الثروة ودافعوا الضرائب ، ولأنهم قبل ذلك أهل البلاد وأصحابها الحقيقيون ...

وهذه هى الديموقراطية بأحدث معانيها كما يفهمها الناس اليوم ...

كانت حركة عرابى حركة قومية على الرغم من باطل المبطلين ، وقد جحد بها كثيرون من خصومه واستيقنتها أنفسهم ولم يستطع حتى كرومر نفسه كما ذكرنا من قبل أن ينكر قومية هذه الحركة وقد جاء فى موضع آخر من كتابه قوله « إن حركة عرابى أكثر من أن تكون مجرد فتنة عسكرية . لقد كان فيها إلى حد ما طبيعة الحركة القومية الحقيقية ؛ ولم تكن هذه الحركة موجهة كلها أو فى جوهرها ضد الأوروبيين والتدخل الأوروبى فى الشؤون المصرية ولو أن النفور من الأوروبيين والتجنى عليهم كانا يسيطران على عقول قواد هذه الحركة ؛ إنما كانت هذه الحركة إلى مدى عظيم موجهة من المصريين ضد الحكم التركى »(١) .

ولقد بينا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب كيف التفت الأمة حول عرابى وقد تجلى هذا المظهر بوجه خاص فيما جادت به طوائفها جميعاً أثناء القتال ، كما تجلى فى المجلس العام الذى مثلت فيه طوائف الأمة جميعاً حتى الأمراء فكان هذا المجلس بحق مؤتمراً وطنياً عاماً يتكلم باسم الأمة ...

وممن كتبوا عن عرابى فأنصفوه وأنصفوا حركته السير ماكنزى ولاس الذى رافق اللورد دوفرين إلى مصر قال « لم يظهر من عهد محمد على أو من قبل ذلك بزمن بعيد رجل فى مصر كان له على البلاد من السيطرة مثل ما كان لعرابى ، فأنه لم يقتصر أمره على أن الشرطة والجيش كانا رهن إشارته بحيث يستطيع أن يأخذ بالأرهاب كيف يشاء ، بل كان يتمتع كذلك بعطف كل الطبقات فى مصر تقريباً . ولم يحصل عرابى على نفوذه أو يحافظ عليه بالأرهاب لأنه عند بدء حركته لم يكن لديه أية قوة يضر بها أحداً ؛ ولم يعلم عنه أنه فى أثناء قوته ذبح شخصاً أو شنقه أو رماه بالرصاص ؛ ولو أنه خاض معركة انتخابية خالية من وسائل الغش وكان خصمه فيها توفيق لفاز عليه بأغلبية هائلة من أصوات الناخبين الأحرار»(٢)

---

(١) M. E. Cromer P. 251

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 379

وقال فى موضع آخر « إذا كنا لم نرد أن نقيم نظاماً دائماً فى مصر فلماذا ذهبنا إلى هناك ؟ وإذا كنا لم نرم إلى إقامة حكومة صالحة حقاً فلماذا قضينا على الحزب القومى الذى كان لديه فرصة لإقامة نظام من أى نوع، كان خيراً مما يصنع الخديو الذى أعدناه إلى سلطته »(١)

وكذلك ممن أنصفوا عرابياً اللورد شارلز برسفورد الذى اشترك فى ضرب الأسكندرية فقد كتب فى التيمس بتاريخ الثامن من يناير سنة ١٨٨٣ « حقاً إن من الممكن أن تسمى حركة عرابى حركة قومية ، فقد نمتها بعض الأنجليز بهذا فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ عند ما تحرجت الأمور تحرجاً خطيراً ، وكان منهم بعض الضباط البحريين من ذوى المكانة والذين حضروا فى الأسطول الذى جاء إلى الأسكندرية ... ونحن إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة النظر المصرية لا يخالجنا أدنى شك فى أن عرابياً كان يحظى بعطف الشعب المصرى ... ويستطيع عرابى وأصحابه أن يقولوا إنهم كانوا يحاربون فى سبيل الأصلاح ، وإن الدليل الذى يؤيد عدالة قضيتهم هو أن إنجلترة آخذة فى تنفيذ إصلاحاتهم بالذات ؛ ويستطيعون كذلك أن يبرهنوا بحقيقة أخرى هى أنهم لم يأخذوا من الشعب قرشاً واحداً إلا ما رأوا أنه ضرورى لخير الشعب الأمر الذى يعد نادراً فى الشرق » ...

أما برودلى فيقول عن عرابى « إنى لا أكتفى بأن أقول إن الأمة كلها كانت فى جانب عرابى بل إنى أقرر فى غير خوف من نقض أرائى أن عرابياً وأصحابه قد أظهروا فى أداء رسالتهم أمانة تامة واعتدالا وروحا إنسانية تشرفهم على مدى العصور » ... وقال فى موضع آخر: « ليس يخامرنى أقل شك فى أن عرابيا وأصحابه كانت لديهم كل القدرة على أن ينهضوا بحكم أمتهم حكما شعبياً وأن ينفذوا فى جدارة كل التغييرات والأصلاحات التى خلفوها لنا بصفتنا ورثتهم وخلفاءهم . لم يكن عرابى من ذوى الأحلام أو من ذوى التحمس ، وإنما كان — إذا قيس بالقياس المصرى — رجلا متعلماً ذا مقدرة ملماً بشؤون وطنه وما تحتاج إليه بلاده وهب

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧٧ .

كثيراً من النشاط وقدراً عظيما من أمانة الغرض » ...

وكان الأمراء والعلماء والأعيان وهم صفوة الامة يجلون عرابياً ويرفعون قدره. كتب إليه الأمير إبراهيم باشا وهو بكفر الدوار فكان مما خاطبه به قوله « إلى صاحب السعادة حامى حقوق مصر أحمد باشا عرابى »(١)

وأثنى الأمير فى كتابه على همته ونخوته وعبر له عن مودته ومحبته ...

وقال الشيخ محمد عبده فيما كتبه للمستر بروددلى بعد أن ذكر ما كان بينه وبين عرابى من خلاف فى الرأى قبل يوم عابدين « إن الاجتماعات العامة المتنوعة التى عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برياسة سلطان باشا حولت فى الحال مقام عرابى من قائد جيش إلى قائد مصر ، وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابى »(٢)

وقال برودلى عن الشيخ محمد عبده « إنه أمدنا بقدر كبير من المعلومات عن الأيام الأولى للحركة القومية ، ووصف وصفاً حياً كيف أصبح عرابى بطل مصر الذائع الصيت ، وكيف أن آلافاً من الآباء المصريين سموا أبناءهم باسمه وكيف ذهب اسم توفيق من الأرض »(٣)

وكانت أميرات الأسرة الخديوية ما عدا زوجة توفيق وأمه ، يعطفن على عرابى ويتحمسن لقضيته ومن بينهن الأميرة أنجه هانم أرملة المرحوم سعيد باشا التى أهدت إلى عرابى خيمة زوجها : وقد كتبت هذه الأميرة إلى المستر برودلى بعد الحكم على عرابى تثنى عليه أعظم الثناء ، وتشكره على صنيعه ، وقدمت إليه وإلى زميله هدايا غالية ...

وذكر برودلى حديثاً طويلا جرى بينه وبين أميرة لم يذكر اسمها وكان يشير إليها بقوله الأميرة ثم يضع خطاً مكان اسمها وما قالته هذه الأميرة « كانت تعطف

---

(١) How we D, Arabi p, 381

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٢٢٧

(٣) how we D, Arabi p, 200

كل واحدة منا على عرابى سراً لأننا عرفنا أنه يعمل لخير مصر ؛ وقد ظننا فى وقت ما أن توفيقاً يؤيده ، ولكننا لما رأيناه ينوى أن يخون مصر كرهناه أشد الكره ، وقد بذل كل ما فى وسعه ليشقينا منذ ذلك الوقت ، ولقد حدثته الأميرة أنجه التى نجلها كل الإجلال ولكن فى غير جدوى ؛ وذهب توفيق عقب ذلك إلى الأسكندرية وانضم إلى الأنجليز ، ومنذ ذلك الوقت اتجهنا صوب عرابى للدفاع عن الوطن ... وكانت حماستنا له لا تعرف حداً وكنا نكتب له جميعاً الرسائل والبرقيات نهنئه ونشد أزره ... وقد كتبت له الأميرة — خطاباً عظيم الحق تعرض عليه أن تتزوجه لأنها تراه مخلص مصر »(١)

وذكر بلنت فى كتابه « أنه رجع إلى يومية من يومياته بتاريخ الحادى والثلاثين من يناير سنة ١٨٨٧ ، فوجد فيها أنه زار الأميرة نازلى التى يمد حديثها ممتعاً فى أى جماعة من جماعات الدنيا ، والتى كانت تعطف على عرابى أشد العطف ومما ذكرته الأمير قولها « كان عرابى أول وزير مصرى حمل الأوربيين على طاعته وقد رفع المسلمون رؤوسهم فى عهده على الأقل ولم يجرؤ اليونانيون ولا الإيطاليون على الاعتداء على القانون ، وقد أخبرت توفيقاً بذلك أكثر من مرة ، والآن ليس هنا من يحفظ النظام فأن المصريين وحدهم هم الذين يقمون تحت سلطان الشرطة ويفعل الأوربيون ما يشاءون »(٢)

وقد أورد برودلى رأيا لشخص لا يمكن المرء أن ينتظر منه كلمة طيبة عن عرابى وذلك الشخص هو توفيق نفسه ! قال برودلى « أتيح لى أن أرى توفيقاً مرتين وذلك عند ما سمح بأن يلقانى فى قصره بعابدين ... وبعد أن قدم لى دخينة بدأ الحديث فأكد لى أن أوربا أخطأت فهم آرائه فيما يتصل بالتحقيقات الأخيرة فهو لم يرد قط موت السجناء ولا اعتنق هذه الفكرة وكان إبدال الحكم عليهم تجربة سارة للتسامح أملتها عليه إرادته ... وحاولت أن أتكلم قليلا عن عرابى فقال

(١) How we D. Arabi P. 375

(٢) S. h. B. P. 394

الخديو إنه يرى حتى فى هذا الوقت أن عرابياً من خيار الرجال ، وأنه لم يصدق لحظة قط أن عرابياً أراد أن يقتله ، ولو أنه كان ينوى شيئاً من هذا لاستطاع أن ينفذه فى مائة فرصة أتيحت له عند ما كان وإياه فى القاهرة (١) ...

هذا جانب مما يقوله المنصفون عن عرابى وحركة عرابى من ناحية حياته العامة أما من الناحية الشخصية فكان من أبرز صفاته كما رأينا من سيرته الورع وخشية الله والوفاء والأباء الذى قل أن كان له فيهما نظير بين أقرانه ، والإيثار الذى جعله يقدم مصلحة مصر وقضية مصر على مصلحته الشخصية ، وقد رأينا كيف خرج من الحرب صفر اليدين كما قال المستر بهان ؛ كما رأينا أنه لم يكن يخطو خطوة واحدة بدافع الطمع الشخصى ، وقد تجلى ذلك فى حرصه الشديد الذى هو من صفات الزعامة الصادقة على قضية مصر وهو فى محنته واهتمامه بأن يرد على كل مطعن يوجه إليها دون أن يعنى قليلا أو كثيراً بما يقال عن شخصه ...

* * *

أقلعت بعرابى وأصحابه السفينة مربوتس من السويس فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم السابع والعشرين من ديسمبر ؛ وهى سفينة إنجليزية صغيرة حمولتها نحو أربعمائة وألف طن وقد استأجرتها الحكومة المصرية لنقل هؤلاء المنفيين ...

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء السبعة المنفيين فقد صدرت فى مصر بعد ذلك أحكام أخرى على عدد كبير جداً من المصريين ، فحكم على الروبى باشا والسيد حسن موسى العقاد بالنفى عشرين سنة فى مصوع ، وعلى أحمد عبد الغفار بالنفى ثمان سنوات خارج مصر وعلى أحمد بك رفعت بخمس كذلك خارج مصر وعلى الشيخ محمد عبده بثلاث قضاها فى بيروت ...

وحكم على نحو خمسة وثلاثين غير هؤلاء بالنفى مدداً تتراوح بين سنة وخمس سنوات ؛ وقضى على طائفة من كبار الأعيان بتجريدهم من الرتب والامتيازات وأن يقيم كل منهم فى بلده مدة معينة تحت رقابة الحكومة المحلية مع دفع تأمين

(١) Howwe, D. Arabi. P. 381

مالى كبير . وكذلك قضى على عدد من كبار الباشوات بأحكام كهذه وإن خلت من التأمين المالى ...

أما العلماء فقد قضى بتجريد عدد كبير منهم من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ومن هؤلاء الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى والشيخ أحمد عبد الغنى ...

وقضى على عدد كبير من الموظفين والعمد والأعيان بمثل هذا الحكم ؛ كما فصل أكثر من خمسين ومائتى ضابط من ضباط الجيش وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقاعد ...

ومن أكبر مآسى هذه الأحكام ما حكم به على يوسف أفندى أبودية ، فقد كان هذا الضابط ياوراً لعبد العال قائد دمياط وأرسله فى أمر إلى عرابى بكفر الدوار ، وتصادف أثناء مروره بطنطا أن شهد فيها تلك الفتنة التى أشرنا إليها بين الأوربيين والمصريين ، فذهب إلى المدير إبراهيم باشا أدهم فألفاه متمارضاً فعبر له عن أسفه وكان فى كلامه شىء من اللوم ؛ ولما أخبر عرابياً بذلك بادر عرابى بإصدار أمره بالقبض على أدهم باشا والتحقيق معه ...

ومن المؤلم حقاً أن يقبض بعد هزيمة عرابى على هذا الضابط الأمين ثم يتهم بإثارة الفتنة فى طنطا ويحكم عليه بالموت ؛ وينفذ عليه هذا الحكم فيشنق وهو برىء .. ومما يزيد فى معنى هذه المأساة أن الخديو أصدر عفواً عنه ولكن البرقية المرسلة بهذا العفو لم تصل إلى المختصين إلا بعد أن نفذ القضاء وشنق الشهيد ... وحسبنا هذا الحادث وحده للدلالة على ما كان يسود هذه الفترة ، التى أعقبت الثورة من إرهاب وبطش ومظالم كثيرة ..

* * *

وفى التاسع من يناير سنة ١٨٨٣ رست السفينة مريوتس بميناء ، كولو مبو بسر نديب ونزل الزعماء السبعة ليعيشوا بالجزيرة ما بقى من أعمارهم كما كان مقرراً فى حكم النفى ...

وإن المرء ليمتلىء ألماً وحنقاً على هذا الحكم الجائر الذى يقضى بحرمان هؤلاء الأمجاد الميامين من وطنهم الذى أحبوه فى غير ذنب إلا هذا الحب ...

ولو أن عرابياً قدم إلى محكمة عادلة تريد إحقاق الحق لما كان هناك أشك فى براءته من جميع ما نسب إليه من تهم ، فقد رأينا كيف عجزت لجنة التحقيق مع اصطفائها عليه عن أن تدينه فى تهمتى تدبير فتنة الأسكندرية وإحراقها .

أما العصيان فلم يكن له أى أساس أو شبه أساس كما بينا ، وإنما قضت الظروف أن يقر عرابى إقراراً صورياً جانباً منه وهو عصيان أمر الخديو وذلك بالاستمرار فى الحرب بعد أن طلب وقفها ...

وما سمعنا أنه فى تاريخ المحاكمات فى الدنيا كلها قد تقدم الحاكمون يساومون المتهم على أن يقبل كيت و كيت ثمناً لأن يعفى من الموت !

كذلك ما سمعنا أن متهماً يتفق معه على ما يحكم به عليه قبل مثوله أمام قضاته ، ولو أن عرابياً ضمن أن يكون قضاته ممن يطمئن إلى عدالتهم ما قبل هذا الوضع وهو موقن من البراءة ...

ومن أبلغ الظلم فى هذه المهزلة الهازلة أن يُمن على امرىء برىء بأن ينفى بدل أن يموت كأن من التفضل عليه أن يظلم هذا الظلم الفادح بحرمانه بقية حياته من العيش فى وطنه ومن ممتلكاته التى أحلها الله له ومن أهله وعشيرته وقد كان بنو مصر جميعاً أهله وعشيرته ...

ولكن هكذا شاءت سياسة إنجلترة ، فأن حملتها جاءت إلى مصر لأسباب بسطناها تتلخص فى تحقيق حلمها القديم ، ولكنها ادعت أنها جاءت للقضاء على العصاة ، ولو برىء هؤلاء العصاة فكيف كانت تبرر إنجلترة مجيئها إلى هذه البلاد؟ ذلك ماجعل دوفرين يقترح ما اقترح ، وذلك ما قامت عليه مهزلة المحاكمة وما نتج عنه هذا النفى أو هذا الظلم العظيم ..

الحياة فى سرنديب

تبلغ مساحة هذه الجزيرة التى نزل بها عرابى وأصحابه نيفاً وخمسة وعشرين ألف ميل مربع ، وتكثر بها سلاسل الجبال بالجنوب ويتخللها كثير من السهول الواسعة الخصبة التى تنمو فيها غابات عظيمة وعرة المسالك كثيرة الأحراج والألفاف .. وتبلغ أعلى قمة فيها ثمانية آلاف قدم ، ومن أشهر هذه القمم قمة جبل آدم وتبلغ ما يزيد عن سبعة آلاف من الأقدام ..

ومناخ الجزيرة استوائى ولكن إحاطة البحر بها يلطف حرارتها : ومن أشهر مدنها كولومبو وهى عاصمتها وأهم ثغورها ، ثم جافنا ركندى وكالوتارا ..

والتربة عظيمة الخصوبة وتكثر فيها أشجار الفاكهة والخضر وجوز الهند ويزرع فيها الشاى والبن والأرز والقطن والتوابل والطباق . وتعد سيلان من أعظم حقول الشاى فى العالم

ومن حيواناتها الفيلة والنمور والدببة والجاموس والغزلان وتكثر فيها أنواع الزواحف وأنماط الطيور ...

وقد حل بها البرتغاليون منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، والهولنديون منذ منتصف القرن السابع عشر وفى سنة ١٧٨٥ امتلكها الأنجليز وكانت ملحقة بمدراس ، ثم جعلوا منها مستعمرة قائمة بذاتها سنة ١٨٠١

ومن سكانها الأصليين قبائل السهاليز ، وأصلهم من الهنود من حوض نهر الكنج وقد حلوا بها منذ القرن السادس قبل الميلاد ولغة هؤلاء أقرب إلى الهندية الحديثة وديانتهم البوذية ، ثم قبائل التامل وقد نزحوا إليها من جنوب الهند وديانتهم الهندوكية

ويقطن الجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربي أو من أصل هندى ، وهم من أذكى سكانها وأكثرهم نشاطاً

كما أن بها بقايا البرتغاليين والهولنديين وعدداً من الأوروبيين من مختلف الأجناس وعدداً من أهل جاوة والملايو وغيرهم من الأسيويين

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة أن تعداد أهلها زمن إقامته بها كان نحو ثلاثة ملايين منهم خمسون ومائتا ألف مسلم ، وأن السنهاليز والتامل أهل دعة وسكون يكرمون الغريب ويحسنون معاملته ..

* * *

ويتحدث عرابى عن نزوله بالجزيرة قائلا « وفى غروب يوم الأربعاء الواقع فى ٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخلت الباخرة إلى ميناء ثغر كولومبو بجزيرة سيلان وألقت مرساها فحضر إلينا وكيل حكومة سيلان ، وحيانا تحية القدوم ، وأخبر موريس بك(١) بأن الحكومة أعدت أربعة بيوت لذوى العائلات منا وفيها الخدم وكل ما يلزم من أسباب الراحة كالسرر المفروشة اللازمة للنوم والكراسى وأدوات المطبخ والسفرة والدواليب وغير ذلك وذخيرة ثلاثة أشهر ضيافة لنا ، ولكن على حساب مصر ، وثمن تلك الأدوات ثلاثة آلاف جنيه . ثم أمضينا تلك الليلة فى الباخرة المذكورة ، وفى الصباح من يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٣٠٠ و ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ خرجنا إلى البر فوجدنا رصيف الميناء مزدحماً أيما ازدحام بأخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل جاوة والهند والملايو وأعيان طائفتى التامل والسنهاليز أهل البلاد من عباد الأوثان على مذهب بوذا ، وكانوا يشيرون إلينا بالسلام وزيادة الاحترام

ثم تقدمت لنا العربات فركبنا وتوجهنا إلى البيوت المذكورة وكان قد خصص لنا بيت عظيم يسمى « ليك هاوس » ومساحة بستانه ١٤ فداناً وأعظم أشجاره من جوز الهند والموز وغيره ، فتوجهنا إليه والناس مزدحمون على جانبى الشوارع

(١) مرافقهم المنتدب من قبل الحكومة المصرية

ن الميناء إلى البيت المذكور يهتفون لنا بالترحيب والأكرام إلى أن وصلنا إلى المنزل المذكور وأخذنا معنا طلبة باشا عصمت وعبد العال باشا حلمى ليقيما معنا حيث أنهما تركا عائلتيهما بمصر . وكذلك توجه محمود باشا سامى مع محمود باشا فهمى ليقيما فى منزل واحد لأن الأول ترك أهله وأولاده بمصر أيضاً ؛ وانفرد كل من على باشا فهمى ويعقوب باشا سامى فى بيت على حدته لوجود عائلتيهما معهما

ولما دخلنا البيوت المعدة لنا ، أخذت تلك الطوائف تتوارد علينا للسلام بوجوه باشة وقلوب طافحة بالمحبة والحنان ليلا ونهاراً »

وكان عدد من رافقوا الزعماء السبعة من الأهل والخدم واحدا وأربعين ؛ وكانوا عند وصولهم كأبناء أسرة واحدة جمعت بينهم المحنة كما جمعت الصداقة من قبل ووثقت الغربة أواصر المحبة ..

وبعد ثلاثة أيام من وصول الزعماء إلى الجزيرة أولم لهم كثير من وجوهها وتجارها الولائم ، واشترك فى ذلك المسلمون وزعماء السنهاليز والتامل ، وقد استمرت تلك الولائم بضعة أيام ، وكان يدعى إليها كبراء سكان كولومبو ، فعرفوا زعماء المصريين وألفت تلك الاجتماعات بينهم .

وأولم عرابى وأصحابه لهؤلاء وليمة كبيرة وصفها عرابى بقوله « وبعد ذلك أقمنا وليمة جامعة لأعيان المسلمين والأنجليز والتامل والسنهاليز وكان عدد المدعوين إليها مائتى شخص على اختلاف الأجناس والمذاهب والمعتقدات شكراً لهم على حسن حفاوتهم بنا »

وكانت الحكومة المصرية قد أرجأت تقرير مايلزم ثمناً لأكلاف العيش لكل من المنفيين حتى تعلم حال الجزيرة من حيث رخص الأثمان أو غلائها ؛ وفى فبراير سنة ١٨٨٣ وصل إلى الجزيرة حاكم جديد هو السير آرثر جوردن نخاطب الحكومة المصرية فقررت لعرابى خمسين جنيها كل شهر ولكل من أصحابه ثمانية وثلاثين ..

وكان عرابى وأصحابه يقضون أوقاتهم فى القراءة والكتابة ، وتعلم اللغة الأنجليزية وفى التزاور بينهم وبين حكام الجزيرة وأعيانها .

وكتب عرابى إلى صديقه برودلى كتاباً فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣ كان مما جاء فيه « . وقد لقيتنا السلطات هنا فى الجزيرة بالحفاوة وأعدوا بيوتاً لراحتنا وزودونا بقدر كبير من الأطعمة الدسمة التى كفتنا وأسرنا بضعة أيام .. ونجد الجزيرة ملائمة لسكنانا كل الملاءمة بمناخها ؛ ونعتزم أن نرسل أبناءنا إلى المدارس المحلية وأن نتعلم نحن اللغة الأنجليزية ... ويبعث إليك إخوانى وأبناؤهم خالص مودتهم ؛ وإنى أرجو أن تذكرنا لأخى أحمد بك رفعت إذا كان عندك وإلى أمك العزيزة التى هى موضع إجلالنا جميعاً »

وأبى وفاء بلنت إلا أن يزور صديقه فى منفاه ، وقد اضطر أن يبقى بلندن كما رأينا ليدبر وسائل الدفاع عنه فلم يستطع أن يزوره فى مصر

يقول عرابى « وفى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٨٣ حضر صديقنا المستر بلنت من إنجلترة لزيارتنا وتهنئتنا على نجاتنا من أيدى خصومنا . وبوصول الوابور كولومبو هرع جميع سكان الثغر المذكور لاستقباله حيث كانوا على استعداد تام لذلك قبل وصوله ، وقد أخذنا نحن وإخواننا وأولادنا زورقاً بخارياً وذهبنا إلى الوابور المذكور ثم صعدنا إليه وحظينا بمقابلته ومقابلة السيدة الفاضلة الليدى آنا بلنت وكان بمعيتهما القس لويس صابونجى ثم نزلنا بعد ذلك إلى الرفاص وعدنا إلى البر والزوارق الأهلية محيطة بنا يهتف من فيها باصطلاحات الترحيب ويشيرون بأيديهم علامة للسلام والأعظام .

ولما وصلنا إلى البر تكاثرت علينا جموع المحتفلين بقدوم السير ولفرد اسكاون بلنت حتى تعسر علينا الوصول إلى المركبات ولولا تدخل الشرطة لمنع ذلك البحر الزاحف من التكدس حولنا لاضطررنا إلى الوقوف فى الميناء الساعات الطوال ..

ثم ركبنا العربات وتوجهنا إلى سراى مورجن المعدة لأقامة ذلك الضيف

عرابى فى مدخل بيته

الكريم مدة ضيافته ،وهى كائنة على بعد ثلاثة أميال من الميناء بجهة متوال ، مشرفة على البحر ، وكان الناس مصطفين على جانبي الطريق الموصل إلى السراى وهم يحيون المستر بلنت ونحن معه فى المركبة بوجوه باشة وأسارير نضرة حتى وصلنا قصر الضيافة »

وبالغ أهل المدينة فى الحفاوة بضيف عرابى وبزوجته ، فوضعوا الزينات على الدار التى نزل فيها ، وأقاموا أقواس النصر على مقربة منها وزينوها للناظرين بالأغصان من كل صنف وبالأزهار المختلفة الألوان ، وكتبوا عليها بالأنجليزية « مرحباً بالصديق الوفى المستر ولفرد إسكاون بلنت»

وأعدوا له مأدبة كبيرة شهدها أكثر من مائتى مدعو ، وخطب بعض الخطباء مرحبين بالضيف العزيز وأثنوا على وفائه وإخلاصه ؛ ورد بلنت شاكراً لهم حفاوتهم وشريف إحساسهم ...

وأقام بلنت وزجته بالجزيرة إثنين وعشرين يوماً ، وكان لمقامه بين الزعماء أثر طيب ، فقد أخذ قبيل مجيئه يدب دبيب الخلاف بين عرابى وبعض إخوانه وبخاصة محمود فهمى باشا الذى استوحش المنفى فاضطربت أعصابه ، وهو فى الحق منذ أن أسلم نفسه للانجليز فى الميدان الشرقى لا يخلص الود لعرابى ، ولعله كان يرجو من وراء ذلك أن يُخفَّفَ عنه ، فلما نفى مع المنفيين ضاق صدره وأخذ يتنكر لعرابى ويرد إليه سبب ما لحقه ...

وأعاد بلنت الوئام بينهم ولم يختلفوا بعدها أبداً ، وإن كان محمود فهمى باشا ليخفى فى نفسه ما لا يستطيع أن يبديه من السخط والنفور .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ زار عرابياً فى كولومبو اثنان من اللوردات الأنجليز هما اللورد روزبرى واللورد ماكدونالد واستطلعا رأيه فى حركة المهدى بالسودان ، وكان يترجم الحوار بينهما محمود فهمى باشا ، فسألا عرابياً هل محمد أحمد هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟ وأبدى عرابى دهشته قائلا وماذا يعنيكم من أمره ؟ فقالا إن أمره يهم إنجلترة فأن فى الهند ستين مليوناً من المسلمين يعتقدون أن

المهدى المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، وأجاب عرابى بأن كل داع إلى الخير والإصلاح هو مهدى ولكنه لا يكون المهدى المنتظر ؛ وقال اللوردان إن الحكومة الأنجليزية أرسلت جيشاً مكوناً من عشرين ألفاً بقيادة هكس وسألا عرابياً هل يكفى هذا الجيش للتغلب على المهدى ؟ فقال عرابى « نحن نرى أن وجود قائد إنجليزى على جيش يكون من صالح المهدى فأنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة ، وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قوياً يخشى جانبه » .

ونصح عرابى بمقابلته فى منتصف الطريق بأن تقيمه مصر أميراً على السودان على أن يكون تابعاً للتاج المصرى ، وتنبأ عرابى باندحار حملة هكس ؛ وفى اليوم التالى أذاعت البرقيات هلاك الحملة كلها ...

وفى شهر يناير سنة ١٨٨٤ زار عرابياً فى كولومبو ماه راجا سلطنة لاهور ؛ يقول عرابى « فلقيناه بما يجب لجلالته من التعظيم والاحترام وكان بمعيته مستشار إنجليزى حتى لا ينبس نبسة إلا حفظها الرقيب عليه فى حبة قلبه ، وبعد نصف ساعة عادا إلى دار حكومة سيلان » .

ووردت إلى عرابى بكولومبو رسالة خطيرة من المستر بلنت فى أواخر سنة ١٨٨٤ ذكر فيها بلنت أن الحكومة الأنجليزية تفكر فى تعيين عرابى سفيراً مؤقتاً إلى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متجهة إلى إعادة إسماعيل بشرط أن يكون عرابى رئيساً لوزارته باعتباره زعيم مصر المختار ؛ وطلب بلنت رأى عرابى فأبرق إليه عرابى أنه يرفض ذلك وأنه يؤثر النفى على مثل هذه المودة وهذا الحكم تحت رياسة إسماعيل الذى لا يشاكل مبادئه وخطته ، وقد أدى مقتل غوردون إلى الانصراف بالضرورة عن هذه المسألة ...

وكان لغوردون قبل ذلك مساع لأعادة عرابى إلى وطنه ، فقد كتب بلنت فى صحيفة البول مول جازيت فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٨٧ مقالا

جاء فيه قوله « يجب أن أشير إلى أن الحكومة الأنجليزية أدركت خطأها واعتزمت إصلاح موقفها وذلك بأن تعيد عرابياً بعد سنة أو سنتين من نفيه وتساعد على تشكيل الحزب الوطني من جديد ويؤيد رأيي هذا كتاب وصلني من الجنرال غوردون وإني أسمح لنفسي بأذاعة محتوياته لأول مرة فقد كتب لي من الكاب ينبئني بميله وعطفه على عرابي باشا طوال مدة الحرب ولما عاد إلى إنجلترة في ديسمبر سنة ١٨٨٢؛ تفضل بزيارتي ليؤكد لي عزم الحكومة ونياتها وها أنذا حين رجعت إلى اليومية التي كتبتها عن هذه المقابلة وجدت أنني كتبت فيها « زارني الجنرال غوردون وتغذى معي بمنزلي الكائن بشارع جيمس وقد تبين لي أنه كان يعطف عطفاً تاماً على عرابي إبان الحرب وقال الجنرال إنه أتى ليدرس معي أمر إنشاء حكومة حرة في مصر تحت ملاحظة إنجلترة » ...

وكانت حياة الزعماء بالجزيرة حياة رتيبة لاتغير فيها ، ولكنهم لم يشعروا بالملل وذلك لما كان بينهم وبين سكان الجزيرة من صلات الود ومن المكاتبات والزيارات

وفي سنة ١٨٨٨ احتسب عرابي ابناً له في الثالثة من عمره كان يسمى صالحاً ، وقد توفي بالدفتريا ، وحزن أبوه عليه حزناً شديداً .

ولم يقع مكدر بعد ذلك حتى كانت سنة ١٨٩١ فقضى عبد العال باشا حلمي نحبه في شهر مارس ، وكان لموته غريباً حزن عميق في نفوس أصحابه ، ورأوا في مصيره شبح مصيرهم فعظم ذلك عليهم ، وقد ذكر عرابي نبأ وفاته بقوله « وفي سنة ١٣١٠ توفي إلى رحمة الله شهيد الوطنية والغربة عبد العال باشا حلمي ودفن في قرافة قسم مردانة أيضاً وضريحه مشهور يزار ؛ ومن كراماته ما شهدناه من اجتماع أسراب الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة حتى واريناه التراب وقد أخذ العجب من الناس كل مأخذ » .

وفي سنة ١٨٩١ ، زار السير توماس لبتن صاحب مزارع الشاي المعروفة باسمه عرابياً باشا ودعاه إلى زيارة مزارعه على نفقته على أن يصحبه من يشاء من

إخوانه ؛ وقد رحب عرابى بهذه الزيارة « ترويحاً للنفس واستجلاء للجنان من أكداس الصدأ الذى اصطلح عليه » ...

وعين السير توماس اثنين من وكلائه الأنجليز لمرافقة عرابى ؛ ولم يذهب مع عرابى من أصحابه إلا على باشا فهمى وكان أشدهم إخلاصاً ومحبة له ...

يقول عرابى « فقمنا من كولومبو ومعنا أخونا على باشا فهمى والوكيلان المذكوران إلى مدينة كندى العاصمة القديمة ومقر الحكومة بطريق السكة الحديد فوصلناها بعد أن قطع بنا القطار اثنين وسبعين ميلا ، ومن ثَمّ ركبنا قطاراً آخر إلى نوراليه وهى آخر محطة للسكة الحديدية فبلغناها بعد طى عشرين ميلا ، ومن هناك ركبنا المركبات وصعدنا إلى سطح جبل هناك وأقمنا ليلتين فى فندق يقال له جراند أوتل ... ولما سمع المسلمون بقدمنا حضروا لزيارتنا والاحتفال بنا زرافات ووحداناً فشكرناهم على حسن احتفائهم بنا ودعونا لهم بالخير ... وفى اليوم الخامس سددنا خطواتنا إلى دمبتنا وهناك استقبلنا أهلها من المسلمين وغيرهم بكل بشاشة وإكرام وبعد أن تغذينا فى نزلها امتطينا جياداً كانت معدة لنا وصعدنا إلى سراى السير توماس لبتن البعيدة عن النزل بمسافة أربعة أميال ... وهناك وجدنا أسباب الراحة وافرة فأقمنا شهراً كاملاً فى ضيافة صديقنا السالف الذكر ... ولإيجاد نوع البن اليمنى فى بلادنا المصرية أرسلنا إلى صديقنا المرحوم أحمد باشا المنشاوى تقاوى تكفى لزرع عشرين فداناً حتى يعم انتشاره ، كما أرسلنا له لهذا الغرض أحسن أنواع المانجة والموز الأحمر والأصفر المضلع أيضاً وغيره من الأصناف المتعددة من الفاكهة الزكية الرائحة اللذيذة الطعم مما رجوت انتشاره فى مصر . وبعثنا إليه أيضاً بأنواع الحبهان والقرنفل والمنلا الطيبة الرائحة ... ثم زرنا مزارع صديقنا السير لبتن بجهة بيراسيا ومكثنا بها شهراً أيضاً » ...

وفى سنة ١٨٩٢ أى بعد نحو عشرة سنوات من مجيئه إلى كولومبو انتقل عرابى إلى مدينة كندى وسوف يظل بها حتى يعود إلى مصر ... وقد أمر الحاكم بسفره إليها فى صالونه الخاص بالسكة الحديد ...

(عرابى فى المنفى بين اثنين من أنجاله)

وقد سبق عرابى إلى مدينة كندى محمود سامى ويعقوب باشا سامى وطلبة باشا عصمت ، ثم انتقل إليها بعد بقليل على باشا فهمى ، ولم يبق فى كولومبو غير محمود فهمى باشا وكان قد أصيب بالفالج فى جنبه الأيسر ...

وذهب محمود باشا فهمى إلى كندى لتبديل الهواء ونزل ضيفاً على محمد عرابى نجل عرابى باشا ، وهناك وافاه القدر المحتوم فقضى نحبه فى السابع عشر من يوليو سنة ١٨٩٤ ...

يقول عرابى « ومدينة كندى هذه كائنة فى واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال وبها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك طائفة السنهاليز ... وفى المدينة المذكورة ضريح للسيد شهاب الدين على مرتفع من الأرض يصعد إليه بمرتقى نحو عشرين سلماً ومسجده عظيم متقن وهو حرم المدينة ... وهناك مسجد آخر لطائفة الملاى ، وكنيسة للبروتستانت وأخرى للكاثوليك ومعابد لطائفتى السهاليز والتامل ... ويبلغ تعداد هذه المدينة عشرين ألف نفس منهم نحو عشرة آلاف من المسلمين وكلهم على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه » ...

وصار لعرابى مكانة عظيمة بين سكان هذه المدينة ، وقد سارع المسلمون باستيراد الطرابيش من الخارج ولبسها أسوة به وبأصحابه ، وبلغ من حبهم لعرابى وإجلالهم له أنهم كانوا يطلقون عدة طلقات من مدفع صغير بجوار المسجد الذى كان يؤدى فيه صلاة الجمعة كل أسبوع ...

وذهب لعرابى صيت فى الجزر المجاورة مثل ملاديف ولاكاديف وفى الهند وبورما والملايو ، وقد أرسل إليه سلاطين هذه الجهات وبعض راجات الهند كثيراً من الهدايا وظلوا على مودته حتى عاد إلى مصر ؛ وكان يستشيره سلطان جاوة فى كل أموره ويعد رأيه دستوراً لا يمكن نقضه ؛ ولما كان عرابى ممنوعاً من مغادرة الجزيرة ، كان ينيب عنه بعض أولاده فى إجابة الدعوات التى ترسل إليه ومن ذلك دعوة أمير حيدر أباد فى الهند ودعوات سلطان جاوة وبعض سلاطين الملايو وغيرهم فى كثير من الجهات ...

وظل بعض أصحاب عرابى وهم قلة قليلة فى مصر على الوفاء له فكانوا يرسلون إليه الكتب[1] ومن هؤلاء أحمد باشا المنشاوى ومحمد بك الزمر وخضر بك خضر والنجدى بك والشيخ أحمد عبد الغنى ، والشيخ محمد خليل الهجرسى وكان منفياً بالحجاز ، وقد ضرب هذا الأخير المثل الأعلى فى الوفاء ، وذلك أنه لما انتهت مدة نفيه وهى خمس سنوات أرسلت إليه الحكومة إذناً بالعودة إلى وطنه فرفض أن يعود « حتى يعود عرابى وحتى يموت توفيق أو ينزل عن عرشه » ...

ودأب الشيخ الهجرسى على إرسال كتبه إلى عرابى من الحجاز ، وكان إذا سمع عن أحد رجال الثورة الباقين انحرافا عن مبادئها كتب إلى عرابى ليسقطه من حسابه ، ويتبين هذا فيما كتبه عن أمين بك الشمسى فقد قابله أثناء الحج فكتب إلى عرابى كتاباً جاء فيه « وقد زار المدينة عدة أناس منهم أمين الشمسى الزقازيقى وإنى لألتمس من دولتكم ألا تخاطبوه أبداً فى هذه الغربة حتى تنقضى هذه الكربة فإنه أسيف على ضياع بعض أمواله وتغير بعض أحواله بسبب هـذه المسألة ولا أسف له على المهم الأكبر من ضياع القطر وما حل بأعظم رجال الدين فى هـذا الأمر لأن أمثاله فى خدمة الدنيا فقط ، أسأل الله الكريم بجاه هذا النبى العظيم أن يردكم الرد الجميل مع الحظ والنصر والسعد الجزيل » ...

وظل على الوفاء له من الأنجليز المستر برودلى ، فلم تنقطع كتبه إليه إلا بعد وفاته ، وقد أرسل إلى أولاده بعد وفاة أبيهم يذكر لهم أنه على استعداد لمعاونتهم فى المطالبة برد أملاك أبيهم ..

وكان صديقه بلنت وزوجته آنا بلنت حفيدة اللورد بيرون يرسلان إليه الكتب المملوءة بالعطف والمودة ، وكانت آنا تكتب العربية فى يسر[2]

وكتب له غير هذين عدد من المعجبين بحركته من الأنجليز وبخاصة بعض أصحاب الصحف والمجلات ، وكانوا يستنبؤنه كثيراً عن حوادث ثورته ..

---

(١) بين يدى بعض هذه الكتب بخط أصحابها تفضل أبناؤه فائتمنونى عليها زمناً

(٢) بين يدى بعض كتبها إلى عرابى بخطها العربى وعبارتها العربية

وقد ذكر لى أحد أبنائه أنه علم ممن لا يجهل ولا يكذب أن كثيراً من الرسائل تبودل بين أبيه وبين مصطفى كامل فى أول حركته وأن فارس نمر باشا حصل على الرسائل التى كانت لدى مصطفى كامل ..

وفى شهر فبراير سنة ١٩٠٠ سمحت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة إلى مصر إذ ساءت صحته وقررت جمعية من الأطباء وجوب سفره فى نفس السنة ودفن بمدافن الأمام الشافعى

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى بكندى يعقوب باشا سامى ودفن بجوار قبر محمود باشـــا فهمى ، وكان قد صدر العفو عنه ولكنه قضى نحبه قبل أن يبلغه النبأ ...

وأصيب محمود باشا سامى البارودى بارتشاح فى القرنيتين أفقده بصره وقرر الأطباء وجوب عودته إلى مصر لمعالجته فى المناخ الذى نشأ فيه ، وعفا عنه الخديو عباس حلمى فعاد إلى مصر وردت إليه ممتلكاته الموقوفة ومتجمع ريعها ولكن لم يعد إليه بصره ، وقد وتوفى سنة ١٩٠٤

وقد حدث فى الثانى عشر من مايو سنة ١٩٠١ أن زار الجزيرة ولى عهد إنجلترة وهو الملك جورج الخامس فيما بعد ولقى عرابياً وترفق به وأظهر له البشاشة وسأله عن صحته وعن حاله وكانت هذه الزيارة سبباً فى عودة عرابى؛ ولندع لعرابى أن يصف كيف كانت عودته قال « فعرضت على سموه أنى أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكا لنا من الأسر فتكرم علينا بأنه سيسعى لدى الخديو فى تحقيق أمنيتنا ، ثم جرت المخابرة بين سموه وبين الحكومة الأنجليزية والحكومة المصرية فى هذا الشأن ..

وفى ٢٤ من الشهر المذكور جاءنا تلغراف من حاكم الجزيرة يقول فيه إنه قادم إلى كندى ليبشرنا شخصياً بصدور أمر الخديو بالعفو عنا وعودتنا إلى وطننا العزيز ، وبحضوره توجهنا إليه وشكرناه على لطفه وعرضنا عليه أن لنا الحق فى السفر على حساب الحكومة التى حملتنا إلى تلك الجزيرة

وفى شهر أغسطس بارح على فهمى باشا جزيرة سيلان وبلغ القاهرة فى أول سبتمبر من السنة المذكورة ...

وفى ٤ سبتمبر بارحنا مدينة كندى صباحاً وكان صالون الحاكم ممداً لنا فأقلنا القطار إلى كولومبو ، أما احتفال أهل كندي بوداعنا فقد كان عظيما حتى غصت أرصفة المحطة بالمودعين وفى مقدمتهم محمد أفندى يوسف والدكتور كيت طبيب عائلتنا وإبراهيم لبى وغيرهم ؛ ولما وصلنا ثغر كولومبو نزلنا فى بيت صديقنا المحترم كريجى جمفرجى ، وأقمنا به فى انتظار السفينة المسماة البرنس هنرى الألمانية الآتية من الصين ، وفى تلك المدة دعينا لتوزيع المكافآت على الناجحين من تلامبذ مدرسة ميردانه الأسلامية التى صار افتتاحها بحضورنا على نفقة المسلمين .

وفى أصيل ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ دخلت السفينة البرنس هنرى ميناء كولومبو ، وتغطى وجه الماء بالزوارق والرفاصات وتكدست جموع المودعين تكدساً هائلا حتى لم نتمكن من الوصول إلى السفينة إلا بشق النفس ، وهناك تليت علينا قصائد التوديع من نخبة أهل سيلان ثم سلمت إلينا فى محافظ من الفضة الخالصة البديعة الصنع ...

ولما استقر بنا المقام فى السفينة بعد مغادرة تلك الجموع المكتظة بها أقلعت بعد ساعتين باسم الله مجريها ومرساها تمخر فى عرض المحيط الهندى لأول مرة وقبلتها كنانة الله العزيز الحكيم ، وكانت حمولتها ١٢٫٠٠٠ طناً وسرعة سيرها بنسبة ١٦ عقدة فى الساعة وهى مستوفية لأسباب الراحة وكانت الرياح هادئة ، وما هو إلا قليل حتى غابت شواطىء الجزيرة عن العيون ...

على هذا النمط مرت الأيام والليالى حتى أجزنا خليج عدن والسفينة تتهادى فى مياه البحر الأحمر ... وبعد أن قطعت نحو ثلاثة آلاف ومائتى ميل رست فى ميناء السويس وذلك فى غروب يوم ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ فبتنا تلك الليلة فى السفينة وفى الصباح ودعنا من فيها وخرجنا إلى البر ونحن نتنفس الصعداء ونلهج بأنواع الدعاء لله سبحانه وتعالى لوصولنا إلى بلادنا سالمين بعد مرور تسعة عشر عاماً ذقنا فيها وتحملنا مكرهين ألم الفراق » ...

العائد الذى نسى

غاب عرابى عن مصر تسعة عشر عاما ، وأقام بها الاحتلال الذى جاء للقضاء على العصاة فحسب هذه الأعوام التسعة عشر ، وعمل الاحتلال فى هذه السنين الطويلة على مد جذوره وبسط فروعه ، على الرغم من وعوده المتكررة بالجلاء ، بل بفضل هذه الوعود التى لم يكن يقصد بها إلا مخادعة المتسائلين ومطاولة الناقين ..

لم تكد تمضى خمسة أشهر على دخول الأنجليز مصر حتى تمت لهم السيطرة على الجيش والشرطة ، أما جيش الثورة فقد حله توفيق بجرة قلم كما قلنا بتهمة العصيان ، وأحل الاحتلال محله جيشاً جديداً هزيلا فى قبضة سردار إنجليزى ، ولم يكن للروح المعنوية سبيل إلى قلوب رجاله ، بل كان السبيل للرهبة والنظر إلى الأنجليز نظرة السادة الذين أعادوا للخديو سلطته فهو مدين لهم بكرسيه ، وإذا كان « أفندينا » يظهر الخضوع والولاء للأنجليز صغارهم وكبارهم فكيف بالجند ؟

وبلغ هذا المنى أقصى مداه فى حادث الحدود فى شهر يناير سنة ١٨٩٤ ، فقد أبدى الخديو ملاحظات على فرقة من الجيش المصرى بقيادة ضابط بريطانى عند وادى حلفا ، وعاب على الجيش سوء نظامه ، فعد السردار اللورد كتشنر كلام الخديو إهانة له ولكرامة إنجلترة ، وكان جزاء الخديو وقد بلغ الفيوم فى عودته إلى القاهرة أن منع منعاً صريحاً من دخول العاصمة إلا أن يعلن ثناءه على الجيش وإدارته ليكون هذا بمثابة اعتذار منه ، ولم يجد الخديو بداً من الأذعان ، ثم سمح له بعد ذلك بدخول عاصمته ؛ وقر فى نفوس الجند أن سلطة أى ضابط بريطانى أكبر من سلطة الخديو ، وأن الرقى والأسعاد لمن كان له عند الأنجليز حظوة ...

وأما الشرطة فقد عين رئيس عام لهم من البريطانيين كان له الأشراف التام عليهم ...

وسيطر الأنجليز على الشؤون المالية ، وذلك بأن ألغوا الرقابة الثنائية ، وعينوا مستشـاراً عاماً ماليا إنجليزياً فى أوائل سنة ١٨٨٣ لا يبرم أمر يتصل بالمال إلا بأذنه …

وملك الأنجليز ناصية الحكم والأدارة ، فكان لكبار موظفيهم وصغارهم فى الدواوين الكلمة العليا والجاه والهيبة ، تكفى كلمة من أحدهم لنقض أى أمر لأى وزير ، تجد الدليل على ذلك فى هذا البلاغ الذى أصدرته الحكومة البريطانية إلى معتمدها فى مصر ليحمله إلى شريف باشا بمناسبة إصراره على الاحتفاظ بالسودان : « ما دام الاحتلال المؤقت قائماً فيلزم أن تكونوا على يقين من أن النصائح التى تزجونها لسمو الخديو وحكومته يؤخذ بها وتنفذ ، ويجب أن يعلم النظار والمديرون صراحة ، أنه ما دامت إنجلترة مضطلعة بالمسؤولية فى مصر ، فأن حكومة جلالة الملكة لابد أن تطمئن إلى تنفيذ سياستها المرسومة وإلا وجب على النظار والمديرين أن يتركوا كراسيهم »

أما الدستور فيا أسفا عليه ؛ قد ألغاه الاحتلال وأحل محله فى مايو سنة ١٨٨٣ ما عرف بالقانون النظامى وبمقتضاه أنشىء مجلس شورى القوانين وأنشئت الجمعية العمومية وهما هيئتان لا سلطة لها ولا شبه سلطة أريد بهما مخادعة الأمة بأن لها مجلسين بدلا من مجلس واحد ؛ وشتان بين هذين وبين ذلك المجلس النيابى الذى كانت الوزارة مسـؤولة أمامه والذى وضعت وزارة البارودى أو وزارة الثورة دستوره ، فجعلت به الأمة مصدر السلطات كما هو الحال فى الدساتير الحديثة .

هكذا قضى الإحتلال على كل شيء ، وجعل همه بث هيبة إنجلترة فى نفوس المصريين والقضاء فى عنف على أية محاولة لبعث الروح الوطنية مهما كان من ضآلتها ، وألقيت مقاليد الأمور إلى كرومر أحد بناة الأمبراطورية وأحد أساطين الاستعمار …

وكان كتاب الاحتلال وألسنته يلقون فى روع الناس أن حركة عرابى لم

(القائد الذى نسى)

تكن إلا عصياناً أهوج بعثه الطمع الشخصى، وأنه لولا أن تداركت إنجلترة البلاد من فوضى هذا العصيان الأحمق لحاق بها الهلاك ...

وقر فى أذهان ناشئة الجيل الذى أعقب الاحتلال أن عرابياً هو سبب النكبة وأن « هوجة » عرابى هى التى جلبت الاحتلال ؛ ومما يؤسف له حقاً أبلغ الأسف وأعمقه أن بعض المصريين لا يزالون حتى يوم الناس هذا يرددون هذا الكلام السخيف ومن هؤلاء من يعدون بحكم شهاداتهم الدراسية ومناصبهم الرسمية من المتعلمين !

وشاع الانحلال القوى فى الأمة ، وماتت روح المقاومة ، وخيل للناس أن الاحتلال قوة لا تقاوم أبدا وأن هؤلاء الحمر المتسلطون لن يغلبهم غالب ...

وفى هذا الجو الخانق الفظيع وصل أحمد عرابى باشا زعيم الثورة القومية إلى مصر ، فلم يجد أحداً من الجيل الناشىء يذكره ويذكر ثورته إلا بالسوء من القول ، ولولا بقية ممن شهدوا الثورة وعرفوا حقيقة أمرها ، بقية تلقت العائد الذى نسى والذى شوه الاحتلال ثورته وأنسى الناشئين مبادئه وجهاده ، ما لقيه فى مصر أحد ...

يقول الزعيم الشيخ بعد أن بلغ السويس « وهناك نزلنا فى بيت الشيخ البخارى ، بعد أن كتبنا إلى محافظ البندر مصطفى بك ماهر الذى كان من تلاميذ السيد عبدالله نديم وكان معروفاً بحب الحرية والوطنية فأنكرنا وأعرض عنا ولم يتنازل إلى الرد علينا ، فبعثنا بتلغراف إلى قائمقام الحضرة الخديوية فخرى باشا [1] فكتب إلى مصلحة السكة الحديدية بتخصيص صالون لنزولنا وعائلتنا ومن معنا من السويس إلى القاهرة على حساب الحكومة . . . . وفى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠١ برحنا السويس ووصلنا المحروسة قبيل الغروب ، وقد كان ازدحام الناس لتوديعنا فى محطة السويس

(١) كان الخديو بأوروبا وتصادف أنه وصل إلى الأسكندرية فى اليوم الذى وصل فيه عرابى إلى السويس

عظيما وكذلك لاستقبالنا فى الزقازيق وبنها وخصوصاً فى القاهرة فأن اجتماع الناس بلغ حده الأقصى بالرغم من تنبيه المحافظة الشديد بعدم التجمهر والاحتفاء

ولما نزلنا فى محطة القاهرة أخذنا المركبات إلى منزل أولادى الكائن بشارع الملك الناصر فى شـــارع خيرت واجتمعنا بهم بعد غيابى تسعة عشر عاماً وأربعة أشهر »

وأوى إلى منزل أولاده بشارع خيرت ليعيش كما يعيش عامة الناس الرجل الذى كانت مصر كلها فى قبضته ، والذى خلعت الأمة طاعة الخديو لتطيعه فى الدفاع عن وطنه ، والذى أيده السلطان وراسله ، والذى لم تجد إنجلترة بداً من إعداد حملة تحاربه وتحارب مصر المتوثبة فى شخصه ...

وكانت جريدة اللواء تناصر عباساً فرأت أن تتلقى عرابياً لقاء كريهاً ابتغاء مرضاته ، كما رأى شوقى شاعر الأمير أن يهجو الزعيم العائد تزلفاً إلى الأمير وعملا بسنة قديمة للشعراء مؤداها أن يمتدح الشاعر من يرضى عنه أميره وأن يذم من يغضب عليه ذلك الأمير دون أن يكون بين الشاعر وبين من يمدح أو يذم أية صله ...

وقالت اللواء وهى تعلم أنها كاذبة فيما تقول إن اللورد كرومر جاء بنفسه إلى محطة القاهرة لاستقبال عرابى وذلك لتلقى فى روع الناس أن عرابياً من صنائع الأنجليز ...

ونشر شوقى قصيدة قال فى مطلعها :

صغار فى الذهاب وفى الإياب أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

وفى مثل هـذا الهذر من شاعر الأمير صورة من أخلاقه وصورة من روح العصر كله ، ودليل على ما نقوله من اجتماع عوامل كثيرة على تشويه سيرة عرابى ، كان القصر أيام توفيق وأيام ابنه عباس من أهمها ...

ولو صدقت اللواء لخف إلى المحطة مع كرومر مئات من المصريين للقاء عرابى

والجفاوة به لا ليظهروا له مودتهم ولكن ليظهروا تملقهم لعميد الاحتلال صاحب القوة والجاه فى مصر ...

قال عرابى « غير أن رجوعنا إلى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظناً منهم أننا بعنا ذلك الوطن للانجليز على اتفاق بيننا وبينهم فأوعزوا إلى بعض الجرائد المأجورة وفى مقدمتها جريدة اللواء بالتنديد بنا والخروج علينا بألسنتها فوجهت إلينا سهام جهلها وضغنها »

ولولا أن إنجلترة قد وثقت كل الثقة من أن عودة عرابى لن تسبب لها متاعب فى مصر ما أعادته ...

ولم يكن عرابى ليستطيع بعد أن بسط الاحتلال سلطانه على هذه الصورة أن يعيد حياته سيرتها الأولى من الجهاد والعناد ، فأن الرماد الكثيف يطمر الجمرات التى أشعلها بالأمس وجعل نارها تتأجج ...

وستبقى هذه الجمرات تحت الرماد حتى يهيىء الله لها فلاحاً آخر هو سعد زغلول فما هو إلى أن ينفخ فيها من روحه القوية حتى تنبعث جبارة عاتية لا يطفئها طغيان

وسوف تكون ثورة سعد فى تاريخ مصر هى البعث لثورة عرابى ومكملتها ، فعلى يد سعد تعود القومية المصرية التى بدأها عرابى وعلى يد سعد يستخزى الاحتلال الذى خنق ثورة عرابى وعلى يد سعد يبعث الدستور الذى هتف به فى مسمع الزمن أحمد عرابى حين جبه توفيقاً يوم عابدين بأنه جاء يتكلم باسم الأمة التى تطلب الدستور ولا ترضى غيره قاعدة للحكم ...

غريب في الوطن

رأى عرابى وقد أصدر الخديو عفوه عنه أن أدب اللياقة يقضى عليه أن يتقدم إليه بالشكر ، وقد تصادف كما ذكرنا أن بلغ عباس الأسكندرية عائداً من إحدى رحلاته فى اليوم الذى بلغ عرابى فيه السويس عائداً من منفاه ، فأبرق إلى القصر يعبر عن شكره للخديو ويهنئه بسلامة العودة ويستأذن فى المثول بين يديه ... ولكنه لم يظفر من القصر حتى بالرد عليه ...

وزار عرابى الوزراء فى بيوتهم فلم يرد أحدهم له الزيارة ، ولقد تألم عرابى لذلك كثيراً وهو ما زارهم إلا لأنه رأى الواجب يقضى بذلك ، قال فى مذكراته « وما فعلنا ذلك إلا قياماً بالواجب » .

وتحاشى كبار الموظفين الاتصال به وإلا أغضبوا الخديو ، وكذلك أصدر كرومر أوامره للوزراء ألا يتصل به أحد مخافة أن يستغل اسمه فى تنبيه الأذهان إلى مذلة الاحتلال كما أشار إلى ذلك بلنت فى بعض مذكراته ... وهكذا يعامل عرابى معاملة من أساء إلى وطنه ، وليس فى مصر يومذاك من أحسن إلى مصر إحسانه ...

وأحس عرابى أنه غريب فى وطنه ، فقد أنكره أكثر من كانوا يلازمونه إبان سلطانه ومنهم من كان يود لو وجه إليه يومذاك عرابى نظرة أو حياه بتحية ...

ولولا بقية من أولى الفضل والأباء ممن كان الوفاء فيهم طبعاً لضاق عرابى بالعيش فى وطنه ولآثر عليه العيش فى المنفى ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الأباة الأماثل الذين أقبلوا على داره مهنئين والذين ظلوا يغشونها كما كانوا يفعلون أيام قوته ، على فهمى باشا زميله فى الثورة وفى المنفى ، وإبراهيم فوزى باشا مأمور ضبطية القاهرة

إبان الثورة والشيخ محمد خليل الهجرسي الصديق الوفي والزبير باشا ومحمد بك الزمر والسيد باشا شكري المهندس وأحمد بك ناشد مدير الشرقية في أثناء الحرب ورزق بك حجازي من رجال الثورة ، وعبد الحميد باشا المبادي وأحمد حمدي باشا والشاعر حافظ بك إبراهيم ، والدكتور محجوب ثابت ومحمد بك أبو شادي المحامي وعلي بك آصف ونفر قليل ممن كانوا يجلون عرابيا ويحبونه ...

ومما يؤسف له أن البارودي لم يزره إلا بعد عودته بنحو أسبوع ، ثم انقطع عنه ولم يزره بعدها أبداً ... وفي أكتوبر سنة ١٩٠١ جاء صديقه المستر بلنت إلى مصر وزاره في داره وكان يزوره دائما كلما جاء إلى مصر ، وفي الرابع والعشرين من هذا الشهر جمع بلنت بينه وبين الشيخ محمد عبده بحديقته بالشيخ عبيد وقد شهد هذا اللقاء علي باشا فهمي .

وتعانق الزعيم الشيخ والأستاذ الأمام عند اللقاء وقد اجتمعت ذكريات الثورة في هذه اللحظة ؛ ولكن عرابيا ما لبث أن أغلظ للإمام في القول حين تشقق الحديث إلى الثورة وحوادثها ولامه على مصانعته الخديو في بعض ما كتب .

وكان عرابي يؤدي صلاة الجمعة في جامع الرماح بالناصرية أو بمسجد السيدة زينب أو بمسجد الحسين رضي الله عنهما ، وكان يتزاحم عليه الناس لرؤيته والسلام عليه ...

وقد حدثني كثيرون ممن رأوه في تلك الأيام فقالوا إنهم لن ينسوا قامته الطويلة ولا لحيته البيضاء ولا وجهه الذي تنبعث منه هيبة شديدة ويشع منه الإيمان والورع في وقت واحد ، ولا مسبحته التي كانت لا تفارق يده ، ولن ينسوا إقبال الناس عليه كلما رأوه وإشارتهم إليه وتزاحمهم لرؤيته إذا كان جالساً في دكان أو في مسجد وقولهم هذا هو عرابي ، وسؤال بعضهم بعضاً هل رأيت عرابيا ؟ ها هو ذا عرابي ...

وكان عرابي في فصل الصيف يخرج أصيل كل يوم للاستراحة فيذهب في عربته إلى الجزيرة أو شارع الهرم فيقضي ساعة أو بعض ساعة ؛ وكان وجهاء

المدينة فى الشوارع التى يمر بها ينهضون وقوفاً إذا مر بهم وهم جلوس أمام بيوتهم حسب عادة الناس فى تلك الأيام ويحيونه برفع أيديهم إلى رؤسهم إجلالا له ، وكان يرد عليهم تحياتهم شاكراً لهم جميل صنعهم ...

* * *

وكان من أشد ما يتألم منه عرابى وهو مقيم مع أولاده بعمارة البابلى بشارع خيرت ، ضيق ذات يده فأن معاشه لم يكن يكفيه هو وأسرته الكثيرة العدد .

وحق للرجل أن يألم ، فقد كان من أكبر الجحود أن يظل هذا الزعيم محروماً من ملكه الذى أحله الله له ، فيعيش وهو الأبى الكريم عيشة المعسرين ، وقد كانت مصر كلها طوع يمينه ذات يوم ... وذلك ما كان يبث فى نفسه الشعور بالغربة فى وطنه ، فهل هذا جزاء ما قدمت يداه من خير لهذا الوطن وما بذل من جهود فى سبيل إصلاحه والنهوض به ؟

وقضى عرابى أياماً كانت شديدة الوطأة عليه ؛ يحسبه الجاهلون غنياً من التعفف وإنه ليقاسى مما هو فيه العذاب الأليم ...

وكتب عرابى للخديو يرجو منه رفع هذا الحيف عنه فما رجع من كتابته بطائل ولا ظفر حتى برد ؛ وكتب للحكومة فأعرضت عنه أشد إعراض ؛ وكانت حجته أن مصادرة ملكه لا يتفق مع العدالة ولا مع الشرع لأنه لم يصدر بناء على حكم شرعى ، ثم إن العفو صدر عنه فرجع إلى وطنه فلم يكون العفو ناقصاً لايشمل العقوبة كلها ؟

وكان يكرر عرابى ما أورده على أنه حديث وهو « مال المسلم على المسلم حرام »

ونسى عرابى أو لعله تناسى أن العفو عنه لم يكن بأرادة عباس وإنما كان بشفاعة ولى عهد إنجلترة وهى شفاعة لا ترد ، ولو أنها شملت إعادة ما أخذ منه لأعيد لم ينقص درهماً واحداً ...

واشتكى عرابى إلى من كانوا السبب فى نفيه ، ولكن الأنجليز كانوا يحيلونه على الحكومة المصرية قائلين إنهم لايستطيعون التدخل فى مسألة هى من اختصاص

الحكومة المصرية ، وذلك هو دأبهم ، يتدخلون فى كل شىء تقضى مصلحتهم بالتدخل فيه ويحتجون حين لا يريدون التدخل فى أمر بأن ذلك من اختصاص الحكومة المصرية ...

والواقع أن مصادرة ممتلكات عرابى وأصحابه على الصورة التى تمت بها لاتستند إلى شىء من القانون أو الشرع فالمفهوم أن تباع أملاكه ويؤدى له ثمنها ، أما أن تؤخذ هكذا بغير حكم قضائى وليست وفاء لدين أو تعويضاً عن مال سلب فهذا مالم يسبق به حكم فى مصر ولا فى غير مصر .

ولقد يئس عرابى من إقناع أولى الأمر برد حقه المغصوب ؛ يقول فى مذكراته « ومن حيث أن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع الحق ولا ترد على من يتظلم إليها أو هى لا تقدر على الإجابة ولا على أى عمل يغاير إرادة الأنكليز كما أن الحكومة الأنكليزية لا تريد أن تتوسط فى إقامة العدل ودحض الظلم ورد أملاكى المنهوبة بقوة الاحتلال وتحيل شكواى على حكومة سمو الخديو وهى لا تقدر على عمل مابدون أمر الأنكليز ، فقد تركت لأولادى وحفدتى من بعدى وذريتى جيلا بعد جيل الحق فى المطالبة بحقوقى وأملاكى المنهوبة من الحكومة المصرية ومن المجلس النيابى المصرى حين تسترد الأمة حريتها واستقلالها ومجلسها النيابى . وإنى واثق بأن أمتى المصرية الكريمة لن تنسانى ولن تترك أولادى حين يأتى اليوم الذى تعرف فيه حقيقة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطنى حر » .

ونحن نقول إنه قد آن أن تنصف مصر عرابياً وأن تعرف حقيقة أعماله الوطنية كما يقول ؛ ولقد دأب أبناؤه عملا بوصية أبيهم ورغبة فى الوصول إلى حقهم المهضوم ، بالشكوى إلى ولاة الأمور منذ أن تألفت الوزارة الوطنية الثانية برياسة الزعيم القوى الثانى سعد زغلول ، ولئن حالت دون إحقاق هذا الحق مشاغل وظروف لا داعى لتفصيلها الآن فإنا نحسب أن الوقت الذى ترد مصر فيه الجميل لعرابى هو هذا الوقت الذى تقتلع فيه ما بقى من جذور الاحتلال ...

ويسرنا أن نثبت فى هذا التاريخ آخر خطوة رسمية حتى يومنا هذا ، فقد

تقدمت اللجنة المالية إلى مجلس الوزراء فى صيف سنة ١٩٤٧ بمذكرة جاء فيها :

« وقد استخرجت مصلحة الأملاك بياناً عن مساحة هذه الأملاك من الملفات المحفوظة فوجدت أنها ١٢ س ، ٦٩ ط ، ٤٦١ ف وقدرت ثمنها حسب الأسعار الحالية بمبلغ ٤٨٦٦١ر٤٣٢ جنيه .

وقد طالب ورثة عرابى باشا مراراً وتكراراً بأعادة أملاك مورثهم إليهم تلك الأملاك التى يقدرونها بتسعمائة فدان إلا أن هذه الطالبات كان نصيبها الحفظ فى ٢٤ مارس سنة ١٩٣٨ ، ٢ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ » .

ومن أجل ما ذكرته اللجنة المالية قولها :

« وتذكر وزارة المالية أن مسألة إعادة أملاك أحمد عرابى باشا المصادرة ، إلى ورثته يجب أن ينظر إليها بمنظار اليوم لا بمنظار الأمس الذى انقضى بآثاره ونتائجه وتقادم عهده وانقضى عليه زهاء ثلثي قرن تعاقبت فيها أجيال وتغيرت فيها النظريات والعقائد وأصبح ينظر إلى الثورة العرابية بأنها كانت حركة وطنية صميمة فى مصريتها نبيلة فى أغراضها سامية فى مقاصدها ، وقد دافع عرابى باشا عن المبادىء والحريات التى يحارب العالم من أجلها الآن والتى يضحى لها بالملايين من البشر ، وإن النظرة الحديثة إلى عقوبة مصادرة الأملاك لا تعتبرها عقوبة عادلة رادعة كما كان يؤخذ بها فى العصور الماضية بل عقوبة متعدية إلى غير الشخص المقصود بذاته ، إلى ورثته الأبرياء الذين لم يقدموا على جرم أو يقترفوا ذنباً يستحقون عليه الحكم بالفقر والعوز والحرمان » .

قضى الزعيم نحبه

على تلك الحال التي ذكرنا قضى عرابى أيامه فى مصر بعد عودته من المنفى ؛ يتلاقى أصحابه فى داره ويزورهم فى دورهم ، وكانوا يتطارحون ذكريات الماضى ويألمون مما آلت إليه مصر من حكم الأجنبي لها وقضائه على دستورها ؛ وكان هؤلاء الإخوان يحدثون عرابياً عن عباس وكيف أخذ يناهض الاحتلال حتى أذله كرومر وأرغمه على مصانعة الاحتلال ، وعن تخاذل النفوس أيام أن كان عرابى فى منفاه ؛ وكان الأسى يرمض جوانح هؤلاء الذين خاضوا غمار الثورة وشعروا بالعزة القومية قبل الاحتلال ، وهم لا يملكون اليوم إلا أن يسألوا الله أن يجعل لمصر مخرجاً مما هى فيه ...

وكان عرابى فى أواخر أيامه يكثر تلاوة القرآن ويحرص على أن يؤدى أبناؤه الصلوات فى أوقاتها وكان يؤمهم ويحرم على الذكور منهم التحلى بأية حلية ذهبية ويحفظهم القرآن الكريم ؛ وقد قرأ عليه أحدهم نهج البلاغة وهو غلام ؛ وكان يحبذ لهم الجد والاحتشام ومن ذلك أنه غضب على أكبر أبنائه لأنه حلق لحيته ولم يرض عنه حتى أطلقها مرة ثانية ...

وكان يتأسى عرابى عن حاله كلما سمع أحد الناس يثنى على حركته القومية ويعدها الخطوة الأولى لما بعدها من نهوض ، كما كان يتألم أكبر الألم إذا علم أن الجيل الناشىء يجهل هـذه الحركة التى لم تجد دفاعا عنها ، والتى عمل الاحتلال بمفترياته ومكره السيء على أن يصورها صورة بعيدة كل البعد عن حقيقتها ...

حدثنى أحد أبنائه أن أباه قال له ذات مرة وقد اشتد ألمه لما يجد من جهل الجيل الجديد بحركته ، إن هذه الحركة سوف يقيض الله لها من يفهمها حق الفهم من أبناء الجيل القادم الذين يفطنون إلى مكر الاحتلال وتثور نفوسهم على الاحتلال

ويومئذ يعرف ما فعلناه من أجل مصر ويرفع عنا هذا الظلم العظيم ...

والحق أن الاحتلال قد أضل الناس كثيراً عن ثورة عرابى ، وساعدت الاحتلال عوامل منها الخوف والجهل وعدم تمكن أحد من نشر شيء عن هذه الثورة يقصد به الدفاع عنها ، لأن ذلك يغضب الاحتلال من جهة ويغضب الخديو من جهة أخرى ، إذ كان عباس ينقم أشد النقمة على عرابى لاعتقاده أنه أراد يوماً أن يخلع أباه وأن يقيم حليما مكانه ...

وكان الأنجليز يعلمون التلاميذ فى مدارسنا أن عرابياً الجاهل الأحمق المغرور قد ساق البلاد إلى الفتنة العمياء كما يفعل القرصان ...

ولم ينصف عرابياً إلا صديقه بلنت حين نشر سنة ١٩٠٧ كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » ولكن هذا الكتاب لم يقرأه إلا بعض الأنجليز فلم يكن له أثر يذكر فى مصر ...

وكل ما استطاع عرابى أن يفعله للدفاع عن نفسه وعن قضيته هو أنه كتب لبلنت بناء على طلبه تاريخاً موجزاً لحياته وحركته سلمه إليه بالشيخ عبيد فى السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٠٣ فأثبته بلنت فى آخر كتابه عند طبعه ...

***

ظل عرابى حتى السنوات الأخيرة من عمره مرتفع الهامة منتصب القامة واستشرف للسبعين وهو قوى البدن جم النشاط ؛ إلى أن أصيب بداء عضال هده وأقعده ، وذلك هو السرطان الذى أصابه فى المثانة ...

وكان يعالجه ثلاثة من الأطباء هم أحمد بك عيسى ومحجوب ثابت وأنيس أنسى ولكن هذا الداء قد استعصى على العلاج وهو لا يزال حتى اليوم يعجز علم العلماء

وكان عرابى قد توفر على كتابة مذكراته عن الثورة فكتبها فى ثلاثة دفاتر كبيرة[1] وألم فيها بحوادث الثورة جميعاً فلم يترك ناحية منها إلا وفاها حقها ...

(١) طبع الجزء الأول منها بعنوان : كشف الستار عن سر الأسرار

وقد حرص على كتابة ثلاثة صور منها إحداها محفوظة بدار الكتب والثانية والثالثة لدى أبنائه ...

وفى السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩١٠ فرغ من كتابة هذه المذكرات وقد اختتمها بذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ عهد الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى وبين كيف تخلصت مصر منهم جميعاً ثم قال « فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهاراً على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ومطالبة الأنجليز بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء ؛ ثم إنى أدعو الأمة المصرية إلى التباعد عن التمدن الغربى المزيف فلا تفعل المنكرات التى نهى الله عنها وتأمر بالمعروف الذى أمر الله به وأن تترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأن تقيم شعائر الدين الحنيف وتحيى مناسكه ، فلا عز ولا سؤدد بغير الدين وهو وحده يكفل لمن اتبعه بإخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة ؛ ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الأخاء بين أبناء وطنهم ويخرجوا ما فى قلوبهم من غل وضغينة ويعملوا يداً واحدة ورجلا واحداً لرفع شأن بلادهم وإعزاز كلمة دينهم ؛ فإذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم للسمع وأصختم إلى نصائح من حنكته التجارب فعرف من تقلب الحدثان الطريقة المثلى والدواء الناجع واستفاد من تضارب الأحوال أية عدة يجب أن يتدرع بها ويتخذها مخبأ يقيه عوادى الزمان ؛ هنالك يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم والله على كل شىء قدير » ...

وفى العشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ اشتدت وطأة المرض على الزعيم الشيخ وكان قد انتقل إلى دار فى المنيرة فأوصى أولاده بأن ينشروا مذكراته مهما قام فى وجوههم من عقبات ليعلم الناس حقيقة أعماله وما أراده من الخير لمصر ؛ وأن يدأبوا على المطالبة بحقهم حتى يمن الله عليهم به ...

وغاب عن الشيخ الزعيم وعيه ستة وثلاثين ساعة لم يتكلم فيها أو يفتح عينيه أو يدرى شيئاً مما حوله ، ثم وافاه الأجل المحتوم فى الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ وهو السابع والعشرون من رمضان سنة ١٣٢٩ ، فأصبح

فى ذمة الله ودخل فى سجل التاريخ ...

ولم يكن لدى أولاده من المال ما يكفى لتجهيزه ودفنه ، فاضطروا إلى عدم إعلان نبأ وفاته إلى اليوم التالى حتى قبضوا معاشه إذ صرفت وزارة المالية المرتبات والمعاشات فى هذا اليوم بمناسبة عيد الفطر ...

ولم يشيعه إلى مقره الأخير رجل رسمى واحد أو يحضر فى مأتمه ؛ ولكن مصر الوفية التى أخافها الاحتلال فتباعدت عنه حيا ، أبت إلا أن تكرمه ميتاً فأحاط بنعشه الألوف من أبنائها وتألفت من هؤلاء جنازة شعبية عظيمة سارت فى صمت وخشوع من داره بالمنيرة حتى أهيل عليه التراب فى قبره بالإمام الشافعى وسوى عليه بين ترحم المترحمين وبكاء الباكين .

وستنطوى العصور ويبقى فى أذهان بنى الأجيال القادمة أن أحمد عرابى كان زعيم القومية المصرية الأول وكان الفلاح المصرى الأول الذى دعا إلى حرية قومه وحارب فى سبيلها ونفى وذاق ألم الفاقة من أجل مصر ، وكان صاحب الصيحة الأولى وصاحب الخطوة الأولى فى سبيل الكرامة القومية والنهوض بمصر على أساس الدستور والحرية ؛ جزى الله عرابياً جزاء المحسنين عن أمته وأسكنه فسيح جنته . .

الفهرس

صفحة

• صدر من السلسلة •

١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)
٣- الغصن الذهبى (الجزء الأول)
٤- الغصن الذهبى (الجزء الثانى)
٥- كليله ودمنه
٦- ابن جبير
٧- فى موكب الشمس
٨- هاملت
٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
١١- رمز الأفعى فى التراث العربى
١٢- التراث القصصى عند العرب
١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
١٥- جماعة أبوللو (الجزء الأول)
١٦- جماعة أبوللو (الجزء الثانى)
١٧- الأساطير
١٨- ابراهيم الكاتب
١٩- ابراهيم الثانى
٢٠- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الأول
٢١- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الثانى
٢٢- حديث السندباد القديم
٢٣- أرض كليوباترا
٢٤- زينات
٢٥- أعلام من الاسكندرية - الجزء الأول
٢٦- أعلام من الاسكندرية - الجزء الثانى
٢٧- شريعة الصحراء
٢٨- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الأول
٢٩- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الثانى

٣٠- القصة القصيرة فى مصر
٣١- رسالة الكلم الثمان
٣٢- نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال
٣٣- قصة الأدب فى العالم - الجزء الأول
٣٤- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى- القسم الأول
٣٥- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى- القسم الثانى
٣٦- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثالث- القسم الأول
٣٧- حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى
٣٨- تولستوى - محمود الخفيف
٣٩- باريس
٤٠- الشوقيات المجهولة - الجزء الأول
٤١- الشوقيات المجهولة - الجزء الثانى
٤٢- شخصيات تاريخية
٤٣- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الأول
٤٤- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الثانى
٤٥- عصر ورجال - الجزء الأول
٤٦- عصر ورجال - الجزء الثانى
٤٧- المآسى التاريخية الكبرى
٤٨- المدائح النبوية فى الأدب العربى
٤٩- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الأول
٥٠- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الثانى
٥١- حياتنا التمثيلية
٥٢- التلميذة الخالدة
٥٣- أعلام الإسكندرية
٥٤- حياة الرافعى
٥٥- فيراتا
٥٦- أجمل ما كاتب خليل مطران
٥٧- ألمع ساعات الحرج فى تاريخ الانسانية

رقم الإيداع : ١٦٩٩٦/ ٢٠٠٤

ذاكرة الكتابة

محمود الخفيف "١٩٠٨ - ١٩٦١" أديب وشاعر ومؤرخ، وهو واحد من الرواد الكبار بين الأدباء والمفكرين العرب فى القرن العشرين، وله العديد من المؤلفات المهمة، منها "تولستوى" الذى ظهر فى سلسلة "ذاكرة الكتابة" فى نوفمبر ٢٠٠٣، ومنها "إبراهام لنكولن" و "ملتن" و "من وراء المنظار" و "من أبطال الحرية" كما أن له ديوان شعر كبير لم يطبع حتى الآن.

وهذا الكتاب عن "أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه" هو أول كتاب أصدره محمود الخفيف، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٧. وتعرض محمود الخفيف بسببه للاضطهاد والمطاردة، لأن الكتاب صدر فى العصر الملكى، وكان الكتاب يفيض بالمشاعر الوطنية، والدفاع المبنى على المعلومات والوثائق عن الثورة العربية، وفضح موقف الخديوى توفيق الذى خان الثورة وتحالف مع الاحتلال الإنجليزى، ولذلك تعرض المؤرخ الكبير محمود الخفيف لغضب القصر الملكى وغضب الإنجليز معا. ولكن كتاب "أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه"، أفلت من قبضة الطغيان والاضطهاد، فذهب القصر الملكى وذهب الإنجليز، وبقى هذا الكتاب الرائع وثيقة وطنية وأدبية من الطراز الرفيع.

الثمن: ستة جنيهات

الأمل للطباعة والنشر